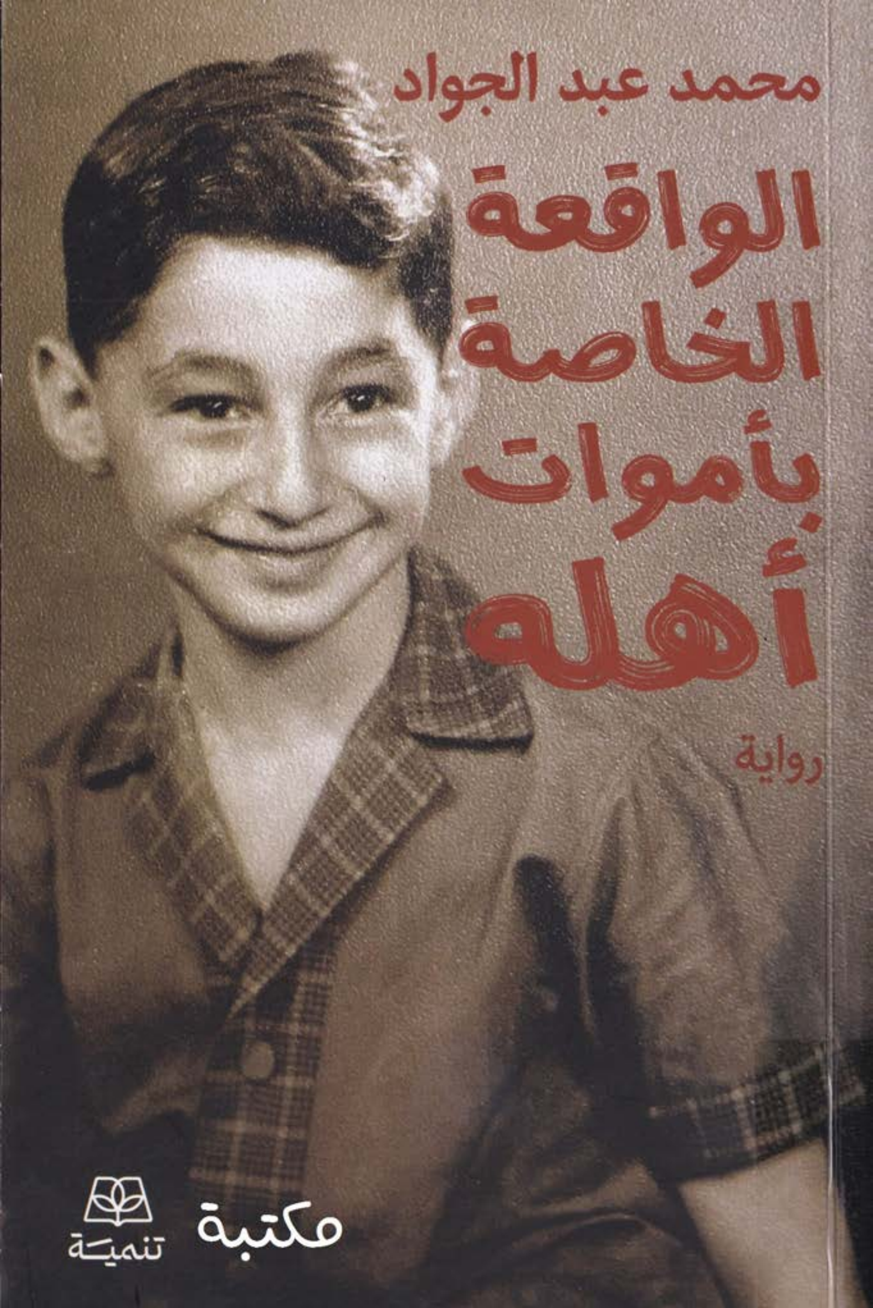
محمد عبد الجواد

الواقعة الخاصة بأموات أهله

رواية



مكتبة تنمية



الواقعة الخاصة بأموات أهله

الكتاب: الواقعة الخاصة بأموات أهله
تأليف: محمد عبد الجواد
تدقيق لغوي: أحمد عايد
تصميم الغلاف: ميجو/ ريهام السيد
تصميم الكتاب: ريهام السيد
رسوم: علاء تامر
إخراج فني: ميجو
عدد الصفحات: 640 صفحة
رقم الإيداع: 2025/1577
الترقيم الدولي: 978-633-8281-01-4
الطبعة الأولى: 2025

تنمية

١٩ شارع هدى شعراوي من شارع طلعت حرب - وسط البلد، القاهرة
محمول: 201007201056
هاتف: 23926279 / 00202
Email: khaled_tanmia@hotmail.com
tanmiapublishing@gmail.com

محمد عبد الجواد

الواقعة الخاصة بأموات أهله

رواية

تنمية

إهداء إلى

الكاتب أحمد محمد؛ صديقي العزيز وقارئي المفضل من المنصورة، والذي قرأ الرواية في لحظات تفتحها الأولى وعشق أسرة الرز مثلي تماماً.

إهداء إلى

المرحوم الدكتور مصطفى جبر؛ مدير برنامج هندسة الطيران وعلوم الفضاء بمدينة زويل للعلوم والتكنولوجيا؛ شكرًا على النصيحة القديمة الذهبية فيما يخص روايات الأجيال والتي ألقت بي في أتون التجربة المباركة، كنت أستاذًا قديرًا له رأي سديد في الأدب كما العلم.

نرجوا الدعاء له بالرحمة.

إهداء إلى

كل المجهولين الذين كانت صورهم تطالعني في سوق الأنتيكات على مدار عامين؛ تبوح وجوههم بالقصص وأشعر معهم أننا متشابهين جدًا رغم اختلافنا؛ وأن لكل منا قصة جديرة بأن تُروى ولا تُلقى هكذا في قارعة الطريق بين القطع القديمة والأنتيكة

إهداء إلى

جنى؛ وإلى أمي الراحلة الست ضياء.

أنا فوقَ الثَّرى أرَى راقِدينا

وأرَى تحتَ وَجهِها مُختفينا

وإلى اللَّاوجودِ أُرسِلُ طرْفي

فأرَى القادِمينَ والذَّاهِبينا

من رباعيات

الخيّام

يوم

١

عندما وقع سطل اللبن في الخامسة صباحًا، بعدما وضعته الست رضا جوار الحوض، فأغرق أرضية المطبخ كلها، سمعته السيدة أمينة رمضان الرُّز، على هيئة جلبة زمن طويل، وهي تجلس في شرفة البيت، تراقب العالم البكر اليومي قبل أن يتداعى سريعًا، فقالت بهدوء: «كبرتِ يا رضا.» ثم أضافت: «وكبرنا جميعًا.»

كانت معلومة واضحة للجميع، ولها قبل أي أحد، ولكنها كانت ترددها كل مرة بإدراك جديد، مع أنها تعدت في مارس الماضي التاسعة والثمانين بكل ثبات وبكامل أعضائها المعروفة وحواسها الست، وتعدت الست رضا نفسها الخامسة والسبعين، ولكنها كانت تظهر أكبر سنًّا منها، وكان ابناها وابنتها يسمعون ذلك كل مرة، فيبتسمون بسخرية أو إشفاق، ويراقبون جسدها العفي، ووجهها القمحي الجرانيتي، وعاداتها التي لم تتوقف عنها خلال نصف قرن مات فيه من مات وعاش فيه من عاش، ومر عليه خمسة رؤساء، فيقول أكبرهم، الدكتور لطفي درويش:

- نصف الجيل الحالي ينتهون؛ يأتون العيادة وعندهم أمراض الليل والنهار.

فيرد عليه الدكتور حلمي درويش:

- تناولت أمنا السمن البلدي وقتما كان بلديًّا، وأكلت الدجاجة عندما كانت دجاجة.

وكانت السيدة أمينة رمضان الرُّز تستمع لذلك الكلام بحاسة سمعها القوية، فتتظاهر أنها لا تسمع، ثم تقول للست رضا عندما يذهب أبناؤها وأحفادها من زيارات الجُمَع الممتدة هذه:

- شربت المر في تربيتهم، ويستكثرون عليَّ العمر الطويل! الحمد لله أنني بصحتي ولم أقع بعد.

فكانت الست رضا تجيب:

- بعد الشر عليكِ يا أبلة! الجحود طال كل شيء؛ حتى النيل يا أبلة، يقولون إنه سيجف والجماعة الأحباش سيبيعونه بالدولار.

كانت علاقتهما علاقة سيدة بخادمتها كما كانت في أزمنة البركة، وكانتا تؤديان دوريهما بجدية، ومن دون الالتفات إلى تغير كل شيء من حولهما؛ فالسيدة أمينة رمضان الرُّز، التي تنتمي إلى أسرة قديمة، كانت تحتفظ بالتقاليد الخاصة بالحياة مثل هانم تقاوم الانقراض، بكل ما في كتيبات الإتيكيت من خطوات مترتبة، مع أنها لم تكن من أصول باشوات كما كانت تردد أحيانًا في مجالس النميمة المكللة بالحلو والأرز بلبن والمهلبية بالفستق.

كان جدها السيد حسن الرُّز مهاجرًا تركيًّا، جاء من ريزا بتركيا في سفينة بحثًا عن عمل حي وحلال بعدما احترق بيته ومزرعته في محرقة غابات بريزا، وقد ورثت منه صلابة الطباع، والرأس التركي الكبير، ونفحة من عينين لوزيتين، وحبًّا للطعام الطيب والشراب الحسن. وقد عمل في البداية ببيع اللبن عندما استقر في السيدة زينب، كما تعلم في ريزا حيث كان يوصله إلى إسطنبول في دلاء ألومنيوم كبيرة بها ثلج، يحملها بعدها عمال ريزويون وصمصونيون، يبيعونها في كل أحياء المدينة الكبيرة وهم ينادون على اللبن الحليب الطازج بهمة باعة البوظة. ولكنه كان يقدمه بنظافة مبالغ فيها، وقد وضع على الأسطال شعارات بتوقيعه كأنه سلطان غير متوج.

وكان كبار الأفندية في حي السيدة زينب -النظيف حينها- يشترون اللبن منه بانتظام، حتى شعر أنه بحاجة إلى نفحة تجديد يواجه به نجاح الأرمن واليونانيين في أغراض البقالة، ودخولهم إلى مائدة

باشوات البلاد المتفرنجين، وأعيانها الفلاحين الذين يحاولون التشبه بالمدينة الكبيرة في طرق الحياة، والأفندية الذين يصعدون على سلم المجد ببطء وظيفي، بالبسطرمة والمربى والزبد السايح صباحًا، فقرر صناعة قوالب الجبن التركي التي كان عمه يصنعها في ريزا ويشحنها على إسطنبول متعرقة ولها رائحة مجد التخمر الحلو. وقد نجح في ذلك بجلَد أبناء البحر الأسود وحده؛ فمع انكبابه على العمل مثل حمار، استطاع خلق ضجة محلية صغيرة في حي السيدة زينب، وبدأ الأفندية المحترمون يأتون إليه ليقفوا صفًّا متأنقًا في محل اكتراه بذكائه في موضع مرئي قرب جامع السيدة، يطلبون لفافات الجبن التركي بكرامة، بينما كان خدم الباشوات وعلية الناس يأتونه بطلبات البقالة الصباحية، حتى نفدت ثلاثة أقراص خلال يوم واحد، فقرر حينها التخصص في الجبن التركي، الذي سيُعرَف بعدها باسم الجبن الرومي، وطباعة اسمه على الأقراص الكبيرة الصفراء التي تسر الناظرين، وهو الاسم نفسه الذي عرفه به الناس هنا لصعوبة نطق اسم «الريزوي»، فكانوا يقولون له:

- صباح الخير يا سيد رُز.

فيجيب بطيب خاطر وبلهجة محلية مطعمة بالتنغيم التركي الريزوي:

- الريزوي لا الرُّز؛ القرية لا الأكل.

أهَّله هذا النجاح إلى شراء شقة في السيدة زينب، في شارع جانبي، قريب من عمارة عبد الهادي الحلواني التي ستُقام لاحقًا، وهناك، تزوج فتاة من البلد اسمها فاطمة محمود النمر، ولكن أمها الشركسية علمتها كيف تكون زوجة طيعة في يد زوجها، وتمسك بالبيت بتدبير سيدات الزمن الجميل وتقديسهن، رشحها له شيخ مسجد السيدة الذي أقام معه محبة قوامها الجبن الرومي وليالي

الذكر، فأنجبا أورطة من الأولاد والبنات، مات أغلبهم في سن صغيرة، ولم يحيَ منهم سوى رمضان -والد السيدة أمينة- الذي سُمِّيَ بهذا الاسم حتى يحيا؛ ضمن تقليد قديم متبع في البحر الأسود يقضي بتسمية الأبناء بأسماء الشهور الهجرية أو الأشهر الحرم إذا ما ترصد الموت لأسرة ما، وعفت التي سافرت مع زوجها إلى الإسكندرية؛ لتؤسس معه فرعًا آخر من محل الرُّز للجبن التركي توقف لاحقًا بعدها بسنوات بسبب المنافسة الحادة التي دخلها أتراك آخرون في المدينة التي كانت تعج بالعالم كله على البحر.

تُوفِّيَ حسن الرُّز عن عمر الثمانين وهو نائم في المحل، بعد يوم عمل طويل، وترك إدارته لرمضان الرُّز الذي فشل فيها فشلًا ذريعًا؛ لأنه كان بقلب أفندي ومظهر تاجر، وكان قد ترك الجيش بعد أن التحق به ضمن وساطة الأتراك بعضهم لبعض في تلك الأيام، ولكنه لم يُظهِر ميلًا ناحية التدريب والإشراف على الجنود الفلاحين الذين كانوا لا يزالون متشبعين بالروح العرابية، وكان ذا قلب رقيق، يبكي في الأمسيات المظلمة عندما يقرأ شيئًا يمس قلبه، ويحاول كتابة الشعر، حتى ترك الجمل بما حمل بعد فترة من زواجه وإنجابه الأبناء في عمر مبكر يناسب رجال تلك الأعوام، وعمل في وزارة التعليم العالي للغته العربية السليمة، واتفق مع عفت على بيع المحل لمن يديره.

وقد كان؛ بيع المحل كما هو لتاجر موسر من تجار السيدة، أقام فيه تجارة حلوى، ثم بيع بعدها للرحماني بائع البوظة التي عرف أصولها من باعة عثمانلية نقلوها إليه من تركيا، وكانت السيدة أمينة الرُّز تعبر عليه بعدها لتتناول البوظة الحامضة في تقليد خاص، بعد الوجبات الثقيلة تحديدًا، وتشير إليه وتقول: «جدنا كان يبيع فيه الجبن الرومي عندما كان الفلاحون لا يعرفونه بعد.» وكانت تصف بعدها أقراص الجبن الرومي الساحرة المغلفة بعرق

خفيف، التي كانت تراها ذهبية في ضوء فسفوري عندما دخلت المخزن مرتين، ورغم رائحتها العفنة، كان طعمها حلوًا، لتصل السيدة أمينة الرُّز بعدها إلى حكمة أن كل شيء حلو في مملكة هذا العالم له رائحة خرائية أو عليه كسوة قبيحة.

دارت أيام، ووُلِدت السيدة أمينة لأم اسمها السيدة شاكر من أب تركي وأم مصرية، على شقيقين، قبل أن يرزقوا بأخت أخرى، اسمها توحيدة، تُوفِّيَت فجأة كما جاءت فجأة بسبب مرض طارئ عندما بدأت تكبر وتزداد جمالًا وتوهجًا لتكون مثل طيف شفاف في عمر السادسة -حينما توقفت- لتقول أمهم لاحقًا إنها لم تُولَد للأرض ولكنها نُذِرت لتكون ملاكًا من اليوم الأول، ولم يتبقَّ منها سوى صورة تكاد تكون حلمًا وهي تقف بجوار السيد رمضان الرُّز وهو ما زال بزيه العسكري في الجيش قبل الاستقالة. وحازت أمينة شقة السيدة زينب، بينما سافر أحدهما إلى الإسكندرية بعدما تزوج ابنة عمته، وأقام الآخر في عابدين، والحقيقة أن الآخر هذا -أو الأخ الوسطاني- كان سبب مأساة ميتين أهلهم منذ البداية.

كان اسمه حسين رمضان حسن الرُّز، وقد سُمِّيَ بهذا الاسم لأنه وُلِد بعد أخيه الأكبر حسن بدقائق، ولم يبكِ فور ميلاده، وهو ما فسرته الدادة المولدة، الست عبلة، بعلامة بؤس حياته وصبره على الشدائد، فقالت بثقة: «حمَّال أسيَّة!» وقد أسماه السيد رمضان الرُّز بهذا الاسم ليكون حسينًا لأخيه الحسن.

ولكن هذا لم يتم أبدًا؛ فلم يكن حسين هذا سوى مشروع ابن ضال، لم يصل معه أي أحد إلى حل؛ فقد شب ميالًا إلى العنف، عصبي المزاج، وكان يختار الأسوأ من الناس فيصاحبه، وكان هذا رغم طباعه الخاملة حتى العاشرة وخجله الفطري الذي يجعله أشبه بالبنات في الطفولة. ولم يدرك أحد أن ما ضيعه تمامًا كان

حادثًا صغيرًا جدًّا لم يرَه أحد: كان يلعب في الشارع -النظيف وقتها- مع أبناء بقية الأفندية وبعض من أبناء الطبقات الأفقر، التي كانت تحيا في حارات السيدة الغامضة والمظلمة، عندما ركض ليختبئ ضمن لعبة الاستغماية، وقد حدث أنه تاه في زقاق معتم وهو يمعن في الاختباء بجدية، عندما سمع صوت من يبحث عن المختبئين يقترب، ففتح فمه بذهول، ليسمع صوتًا ناعمًا يهمس له: «تعالَ سأخفيك.»

كان إخفاء الندامة؛ فعندما امتدت اليد الناعمة إليه من رحم الظلام، وجد نفسه في غرفة خشبية تفوح بالبخار ورائحة الصابون والمنظفات، وكانت فيها فتاة عارية، ساح شعرها فوق وجهها وعلى كتفيها، ولها لون غريب سيجده بعد ذلك في لون كيزان البطاطا وحدها، تبتسم وتقول له:

- انظر إلى الحائط، وغير ذلك قلة أدب.

لم ينظر إلى الحائط، ولم ينذهل بسوى التكويرين أعلى الصدر والفجوة المزغبة بشعر بلون شواشي الذرة، فدفن رأسه في بطنها بشر يتنامى داخل البراءة، فضحكت. وبعدما هدأت الأمور، أخرجته سريعًا، وقالت:

- اركض سريعًا؛ فلو رآك أخي لقتلك.

ثم أضافت:

- سبحان الله؛ لك عينان فاحشتان!

لم يخرج حسين رمضان حسن الرُّز منذ ذلك الحين فعلًا، وسيظل يتذكر تلك القصة بشعور عام بالغرابة؛ لأنها حدثت في مكان غير متوقع، ولأنه أُغرَم بقصص «ألف ليلة وليلة»، وابتاع الموسوعة بجزئيها بالطبعة البولاقية الشهيرة التي حققها الشيخ محمد قطة

العدوي عام ١٨٣٥، وعدَّ القصة ضمن قصص «ألف ليلة وليلة»، ولكن الحقيقة أن الزقاق، الذي دخله، كان شارعًا تحيا به أسر بعض الحرفيين والعاملين في الصاغة والمذبح، وكانت الفتاة ابنة لإسكافي سيئ الخلق، والبيوت وقتها كانت عبارة عن مستودعات سكنية بغرف لا تنتهي مثل متاهات «ألف ليلة وليلة»، لا حمام فيها سوى حمام عمومي قريب، أو حمام صغير عبارة عن كشك خشبي به فتحة تبرُّز بلدي، وزير ماء، وسطل للاستحمام، وكان سكان المستودعات هذه -التي كانت تُسمَّى «الرَّبع» في أزمنة أقدم- قد أقاموا مثل تلك الأكشاك تيسيرًا على سيدات المكان للاستحمام وقضاء الحاجة، وكانت تحدث فيها مهازل وقصص حب حارقة، وحسين الرُّز هو أحد ضحايا أكشاك الحب والنحس هذه.

أُغرَم بأجساد الحريم منذ تلك اللحظة، وتبدل، فصار أكثر جرأة وعينه مكشوفة، وابتكر ألعابًا ورحلات للبحث عن المكان، وقد عثر عليه فعلًا، ولكنه لم يستطع الجلوس للمراقبة لازدحامه في الوقت العادي، حتى توصل إلى طريقة مناسبة للاختفاء تعلمها من مجموعات الخراء الذين صاحبهم عندما مس وجل الحب الأول، فصاروا يجلسون في خرابة من الخرابات المنتشرة في السيدة وقتها، ويشاهدون كشكًا من تلك الأكشاك، تستحم فيه سيدات المكان، من منظور مرتفع فوق سور شبه متهدم، حتى نضج حسين الرُّز نضجًا سريعًا على هدي التجربة، وبدأت مأساته مع أسرة الرُّز.

درس في الكتَّاب في البداية مثل حسن، وكان الشبه بينهما مثارًا للسخرية لاختلاف الطباع. وبعد ذلك، دخلا الأزهر، فأظهر حسن فتورًا تجاه الاختلاط مع الناس، وكانت له طريقة أبيه في المعاملة الرسمية الجافة، والصوت الجهوري المتأنق، بينما تمرغ حسين في وحل التجارب، حتى وصلا معًا إلى التعليم الأساسي، فأكمل حسن تجربته باستحقاق، ودخل مدرسة الحقوق بعدها

ليكون ضمن الرعيل القانوني الأول في البلد، بينما ظل حسين عالقًا في هذه المرحلة، ولم يُظهِر أي نجاح، فأخذه السيد رمضان الرُّز من يديه، وذهب به إلى تاجر بطاطس قريب، وقال:

- علِّمه ما يكسب به.

فنهض تاجر البطاطس، الذي كان اسمه الحاج علوان فرختو، وقال:

- ابن الناس يعمل في الفاعل؟!

فقال السيد رمضان الرُّز:

- حتى يُقوَّم.

رغم ذلك، وجد حسين الرُّز لذته في العمل الذي كان عبارة عن فرز البطاطس المعطوبة من العادية، ووضع بطاطس القلي في مكان على الجانب من بطاطس الطبخ، والغريب أن معلومة قلي البطاطس على هيئة شيبسي محلي وبيعها في حارات لا تدخلها الشمس لم تكن معروفة لأحد قبل ذلك؛ فالبطاطس المقلية لم تدخل البلاد رسميًّا مع البطاطس الفرنسية المقلية كما يتوقع الجميع، وإنما دخلت مع الفقر، كرقائق طعام حلال مقلية، سميكة نوعًا ما ولكنها عامرة بمذاق حي، ويُوضَع عليها الكمون والشطة لتُؤكَل صباحًا ضمن عربات الفول، وهو ما تطور بعدها ليكون شيبسي أكثر رقة وتهتكًا في أزمنة رأس المال، وقد كان اختراعًا قائمًا على الاحتياج في النهاية؛ فمع تعدد موجات الأسعار السيئة والفقر، كانت البطاطس حلًّا مناسبًا، وقد جاءت قبلها من جبال الأنديز مع اكتشاف الأمريكتين، ثم غزت العالم بعد ذلك بصفتها المحصول الأكثر أهمية في التاريخ، والذي لم يذقه أحد إلا وقال «الله!» بلغته، ليبتكر التجار المحليون طرقًا في زراعتها، ويبدؤوا تداولها طعامًا مسلوقًا،

ثـم يقليهـا البعـض بـلا تعيـين؛ لأنهـا تحتمـل الحـرارة وتـشرب الزيـت وتصـير سـكرية، وقيـل إن أول مـن فعـل ذلـك بائـع فـول وطعميـة في الـدرب الأحمـر، قـرر أن يقليهـا ذات يـوم عندمـا لاحـظ أنهـا تشـبه الباذنجـان ولكـن بلـون بنـي وأقـل نعومـة.

وجـده الحـاج علـوان فرختـو خامـة مناسـبة للعمـل الشـاق، فاختـبره في البدايـة بسرعـة تقشـير البطاطـس لأمـور المطاعـم، ثـم اختـبره في سرعـة التقطيـع بالطـول المناسـب. ومـع أن مظهـره كان مظهـر عامـل زائـف فقـد أثبـت نفسـه سريعًـا، وفُوجِـئ السـيد رمضـان الـرُّز بـما جـرى مـع اعتـدال مـزاج حسـين كأنـه جـاء عـلى هـوى العمـل، فقـال لزوجتـه:

- في بيتنا فواعلي بطاطس.

فقالت زوجته بهدوء:

- ورث يدي جده.

وكان حسـين الـرُّز ماهـرًا في أعـمال اليـد فعـلًا، بعيـدًا عـن أعـمال الفكر التـي احتكرهـا حسـن الـرُّز، أعجوبـة القانـون في زمنـه؛ إذ قـرأ قوانـين حمـورابي القديمـة، وكان يؤكـد أنهـا معجـزة بشريـة تضاهـي معجـزة بنـاء الأهـرام، ولأنـه أُغـرَم بهـا فقـد كان يـردد بثقـة: «كانـوا يُفصِّلـون قوانـين الليـل والنهـار بينـما نقيـم هنـا أوتـاد فرعـون وأهراماتـه.»

لم يكـن مؤمنًـا بفضائـل الحضـارة الفرعونيـة، وعدَّهـا حضـارة ملـوك رغـم مـا فيهـا مـن إنجـازات، قبـل أن يغـير رأيـه عندمـا تبحـر في ترجمـة عربيـة قـام بهـا صديـق لأحـد معارفـه، اسـمه سـليم حسـن، لبرديـة وُجِـدت في ديـر المدينـة بالأقـصر، وبـيَّن في عـرض مفيـد في محـاضرة حلـوة بحديقـة أنطونيـادس بالإسـكندرية كيـف حُوكِـم سـارقو مقابـر الملـوك في زمـن حكـم الكهنـة بطـرق تفـوق الحـاضر دقـة، ففهـم

حينها أن حضارة الفراعنة هذه قد غطت على منجزات حضارية بحديث مكرر بلا بصيرة عن أمجاد الفرعون – الذي هو الرب، وشبَّه جداريات المعابد بجريدة الأهرام الرسمية التي تتحدث عن الملك والسلطان ولا تذكر إبداعات الفلاح المصري العادي في تقسيم أراضيه تقاسيم هندسية ومعرفته الحدود بينه وبين جاره. كان قانونيًّا بالدم. ورغم إدراكه الأصل التركي القريب، عدَّ نفسه مصريًّا حقيقيًّا، وآمن بقضية التحرر وكل أمجاد الأزمنة الجميلة، ولم يكن يذكر أصوله البعيدة في بلاد لم يرَها أمام رجال السلطة والقانون الأتراك أو الشركس، ويكتفي أن يقول: «أنا المصري كريم العنصرين.»

عدَّ الجنس المصري مهدًا واضحًا لأجناس شتى، ودعاوى القومية بالدم رطانة غربية تهدف إلى الشر. ولأنه كان يقرأ بلا توقف، ويتعلم الإنجليزية للتريض العقلي، قدم رسالة مهمة ومثيرة للجدل عندما صار مدرسًا في جامعة الإسكندرية –عندما انتقل إليها– عن نفي الفكرة السائدة التي تؤكد أن الأقباط هم ورثة المصريين القدامى دون غيرهم، فقدم دلائل من وثائق قديمة تؤكد أن أزمنة الماضي كانت بلا مواطنة، وأن الوطن والجنسية اختراعات حديثة، ولذلك؛ استقبلت البلاد وفود الأجناس منذ أيام مينا الأول الذي وحَّد بين الشاي واللبن، فخلق أول كوب شاي بلبن منه فيه في التاريخ – كما كان يقول بطرافة، وظلت تستقبل الوفود حتى أُقِرَّت المواطنة حديثًا مع التطورات الأخيرة التي أنشأها محمد علي باشا، باني نهضة مصر الحديثة، وكان ينهي حديثه بمقولة فاصلة: «وليس من العجب وجود أقباط زرق الأعين في رحم أسيوط، ووجود مسلمين يشبهون تماثيل أخناتون يبيعون الفول واللبن في القاهرة والإسكندرية.» ثم محا كل المجادلات بذكائه القانوني عندما قال: «وهل يمكن أن ينفي أحد مصرية محمد علي باشا مع أنه وُلِد في

قولـة ولـه بيـت وعـزوة هنـاك؟!»

هكـذا صـار هـو منـارة العلـم في الأسرة الصغـيرة، بينـما حـاز حسـين الـرُّز نجاحًـا مشـهودًا في الناحيـة المقابلـة بصفتـه «عامـل بطاطـس»، يعـود إلى المنـزل برائحـة مزيتـة، يحمـل الخبـز وبعـض الغمـوس، ثـم يضعهـا فـوق الطاولـة، ويُطعِـم أمينـة -الصغـيرة وقتهـا- مـن يديـه، ويقـول لأمـه السـيدة شـاكر، إحـدى بنـات عائلـة الحـرَّاز الشـهيرة في العطـارة: «خـير ربنـا كثـير ولكنـه ينتظـر اليـد التـي تفهـم.»

وقـد تطـورت يـداه في حيـاة خاصـة بهـما فعـلًا، فاشـتد عـوده، واحتفـظ بجسـد جيـد التكويـن، بينـما آل السـيد رمضـان إلى ضعـف الأفنديـة وشـيخوختهم المبكـرة، وامتـلأ قـوام حسـن الـرُّز مـع اسـتدارة قانونيـة مميـزة وصلعـة تميـز رجـال الفكـر الجـاد، وهمـا اليـدان أنفسـهما اللتـان طـارد بهـما فتيـات المسـاء الـلاتي كان يراهـن عندمـا يذهـب لتوريـد البطاطـس إلى محـال الفـول ومطاعـم الطبيـخ يقفـن بفضـول لا يخفـى، وينتظـرن لحظـة وضـع البطاطـس السـاخنة في قراطيـس الـورق، وقـد طـوَّر علاقـة سريعـة مـع فتـاة اسـمها روميـة شـعبان كان يقـول لهـا سـاخرًا: «هـا نحـن نصالـح شـعبان عـلى رمضـان.» وقـد كان فيهـا شـبه غائـم بفتـاة أحلامـه المتكـررة، العاريـة في حمام أبـدي، ولكنـه وجـد فيهـا طباعًـا دنيئـة عندمـا لمحهـا تداعـب صبيًّـا بالطريقـة نفسـها التـي داعبتـه بهـا أول مـرة، فمحاهـا مـن قلبـه، ولم يـرضَ بأقـل مـن الحـب المكـرس لـه بالكامـل، عندمـا أدرك بحسـه العمـلي وتمرسـه في عملـه أن الفتيـات الأكثـر إخلاصًـا وسـخاءً هـن المطلقـات أو الأرامـل.

عندمـا تـزوج حسـن الـرُّز بألفـت ابنـة عمتـه عفـت، كانـت علاقتـه بحسـين قـد تخطـت الـدم إلى الرسـمية البـاردة؛ فرغـم إيمانـه بصفتـه رجـل قانـون بعدالـة عملـه، كان يـرى الزيـت، الـذي يفـوح منـه، عائقًـا أبديًّـا للاندمـاج، وكان يحلـل الأمـور في المسـتقبل فـلا يجـد أي تـوازن

في علاقة قرابة بين أبناء قاضٍ وأبناء بائع بطاطس، ولذلك؛ ظل يقول بعد ذلك، بحسرة محسوبة، وعندما ضاع حسين إلى الأبد في الشارع: «كان قرار أبينا خاطئًا منذ البداية. لو بيدي لكنت أرسلته إلى الجيش؛ فهو المكان الوحيد الذي يقبل منتصِفي الذكاء ومثيري الشغب وكارهي الفكر.»

عندما شب حسين الرُّز عن الطوق، اكتشف أن له عادات معلمين خاصة لا علاقة لها بجو الصِّبية والهواة، وكان ذلك في بدايات تألق حسن الرُّز طالبًا في العام الأخير بمدرسة الحقوق، يقرض الشعر ويحاول كتابة الروايات ويظهر كرجل مسخوط بشاربه التركي الكبير وصرامة طبيعته؛ فقد كان حسين مثلًا يتناول الإفطار مع زملائه بسطوة واضحة، ويحدد لهم طرق الحركة والطعام، فلا يحب التعدي العشوائي على طبق فول ولا خلطه بالطعمية، وكان يحتفظ معه بصابونة نابلسي شاهين، يستخدمها كلما أراد، قبل الأكل أو بعده، ويجبر العمال على استخدامها في رصانة لها رائحة حلوة ورثها من الجد حسن الرُّز، الذي كان ينظف أقراص الجبن الرومي بقماشة حلوة كل يوم، ويتأكد من صلاحية دلاء اللبن.

كما كان حسين الرُّز يأتي مقر العمل في مصنع خرِب عند تخوم ابن طولون، وهو يرتدي زي تاجر؛ قميصًا قماشيًّا مع بنطال من الخامة نفسها، وشعره كله مصفف بالفازلين بطريقة الممثلين المعجبانية، ولا يتهاون في عمليات تقطيع البطاطس؛ فعندما كان يرى زميل له يقطع ثمرة بها عفن بني، يصرخ فيه ويلقيها جانبًا، وهو ما قدَّره المعلم علوان فرختو، فكانت عيناه الخضراوان تبرقان في سحنته البحيرية وهو يتحدث عنه، ولكنه توقع أن يتركه حسين الرُّز بعد ذلك عندما قال: «صار أكبر من أن يكون صبيًّا عندي.»

وقد حدث ذلك فعلًا مع إدراك حسين الرُّز لتفرده، فبحث عن

عمل آخر يؤهل له النجاح ويعطيه المال الكافي ليبحث عن فتاة الحمام الغامضة، العالقة بطفولته، فذهب إلى مصنع البوتاس الجديد وقتها، ولكنه لم يحب الرائحة، وبحث في ورش إصلاح العربات التي كان يديرها معلمون وأسطوات يهود وأقباط، شربوا الصنعة حتى كيعانهم من الطلاينة، ولكن الشحوم والهباب جعلته ينفر من الأمر رغم حبه الواضح لصور العربات النظيفة وطرائق قيادتها، ثم اكتشف أنه يبحث عن عمل يكون فيه رئيسًا لنفسه، وأن كل هذه حجج نظافة، فقرر الاستعانة بخبرته في البطاطس، وفتح محلًّا صغيرًا لعمل رقائق البطاطس المقلية المُبهَّرة بالشطة والفلفل، قبل أن يضيف إليها البطاطس الفرنسية لاحقًا، وكان الأمر بسيطًا: استدان من المعلم علوان فرختو نفسه، وابتاع طاسة قلي، وكان يعرف بقية التفاصيل عن أماكن شراء الزيت وخلافه، خصوصًا الزيت المستخدم مرات عدة في محال كبيرة مثل جروبي، واستطاع إقامة محل صغير في شارع قريب من جامع السيدة ومن بيته، حيث كان يدخل ويخرج كشبح، ويظهر حضوره فقط بما يشتريه من مؤونة للبيت.

أسبوعان وصار يُرى في هيئة طاهية عالمي: يقف وهو يرتدي مريولًا أبيض، ويقلي البطاطس بتمهل فنانين، ويوزعها في قراطيس ورق على المشترين، وقد علم السيد رمضان الرُّز بذلك فلم يستطع المقاومة، وقال لزوجته: «له دماغ أبويا -الله يرحمه- ولكن بطباع ابن شوارع.»

ظل يؤجل قراره بإبعاده عن الشقة؛ لأنه خشي أن يؤثر بسمعته على سمعة أخيه، حتى حدث الفراق الحتمي عندما تردد أن حسين الرُّز على علاقة بأرملة معلم طرشي كبير، كانت تورد إليه جرادل

الطرشي الخشبية، وتُشرِف على غلام سوداني رهيف الحس، له جسد حصان، يحمل الجرادل حتى مكان حسين الرُّز، ثم تقف بجانبه لتأخذ حقها عدًّا ونقدًا.

كانت لها طبيعة رجولية لا تخفى على أحد، تعلمتها من حياة السوق، وهو ما أعجب حسين الرُّز؛ لأنه مخالف لفتاة أحلامه التي ضيعته بالدلال، فبدأ يغازلها بين الحين والآخر، ورأت فيه ابن ناس ضيعه الأمل، فأعطته عينًا، واستقبلته بعدها في محلها أكثر من مرة، حتى تردد الكلام عن زواجهما القريب، وقد جاء حسين الرُّز بالفعل إلى السيد رمضان، وقال له بهدوء:

- أريد الزواج بفتاة أصيلة.

فقال السيد رمضان الرُّز منهيًا النقاش من أساسه:

- لن تدخل واحدة في عمر أمك إلى بيتنا، ولن تناسب البصل المزنخ واللفت.

كان يبالغ؛ لأن الأرملة، التي كان اسمها فاتن عباس فتيحة، كانت تكبر حسين الرُّز بخمسة أعوام فقط، وتملك فضيلة عدم ظهور علامات السن عليها، ولكنها كانت ذريعة لإعلان غضبه على قراره القديم الذي ضيع حسين تمامًا، وأعطاه مسوغًا ليكمل طريق ضياعه بلا تعليم.

تتذكر السيدة أمينة رمضان الرُّز مشهد خروج أخيها دائمًا وهو مغلف بغبش الطفولة، وتُكسِبه نكهات لم تكن فيه لتحكيه لأحفادها كأنه مشهد فيلم قديم، كما كانت تتذكر حسين في هيئة لم يكن عليها: نصف شيطان يواجه أباها بصوت عالٍ ويُشوِّح بيديه. وهو ما لم يحدث فعلًا؛ فقد تلقى حسين الرُّز الرفض بلا اهتمام، ودخل غرفته، فجمع أغراضه، ثم خرج من البيت بلا ضجيج. ولم

يكن قراره سوى ابتعاد حتمي عن بيت يعامله معاملة الأطفال، كما أنه كان قد ضاق بتمييز حسن الرُّز، وكتبه التي تملأ الأرجاء، وتعاملهما الفاتر معًا. ورغم بكاء أمه الشديد بعدها، طمأنها أنه سيبعث إليهم إخطارًا بين الحين والآخر ويزورهم، ثم قال: «وفي النهاية، سأظل في السيدة؛ فهي البقعة التي كتبها ربنا علينا.»

تحكي السيدة أمينة رمضان الرُّز أن حسين الرُّز لم يكن قط شقيقًا حانيًا، يقترب ليدللها كما يفعل حسن الرُّز، كما أنه لوث الشقة كثيرًا برائحة العرق والبطاطس، ولكن الحقيقة أنه كان يُقبِّلها كثيرًا ويلاعبها بضمير، بينما ظل حسن محتفظًا بمسافة علمية محايدة من العاطفة، غير أن السيدة أمينة رمضان الرُّز كانت تُقدِّره أكثر من تقديرها لحسين؛ لأنها كانت مصابة بداء تقدير العازفين عنها وبخلاء المشاعر منذ نعومة أظفارها؛ إذ نشأت بعاطفة حادة، تخضع لأهواء القلب وحده، وكان حسين الرُّز يشبهها في ذلك بصورة لافتة، وهو ما جعلها تشوه صورته القديمة المبكرة هذه، حتى تُدلِّل أن ما فعله بعدها متوقع. وعندما ماتت أمها، بعد الخطبة السريعة لحسين الرُّز على فاتن عباس فتيحة، إثر مرض غامض، فسرت ذلك -كما قال أبوها- أنه لنشوز حسين الرُّز، وإصراره على إدخال عِرق الطرشي في الأسرة، ولم يعرف أحد أبدًا ما كانت الأم تفكر فيه فعلًا، ولكن السيدة أمينة أجملت كل شيء بقولها: «كان العالم عالمًا والدنيا دنيا قبل أن يتلفها حسين.»

يوم

٢

لم تكتمل زيجة حسين الرُّز أبدًا؛ فعندما خطب فاتن عباس فتيحة، لم تستمر علاقتهما لشهرين؛ لأنه فُوجِئ أنها تراقبه عن طريق صِبية الطرشي، وتحديدًا غلامها السوداني، الذي سمع عنه -من جلسة بمقهى بعيد عند ابن طولون، قرب مخازن بطاطس فرختو، يقدم الشاي والنرجيلة مع الأفيون وهبة إضافية- أنه يرضيها بطريقة أخرى. ولأن سمعة الزنج كانت منتشرة في تلك الأحياء كخدم الحب عوضًا عن خدمتهم العادية؛ شعر حسين الرُّز بالقلق من تعجله، وبدأ يتعامل مع فاتن عباس فتيحة على نحو جاف، حتى اكتشفت مزاحه اليومي مع الفتيات الناعسات اللاتي يأتين إلى مكانه لشراء البطاطس، فعملت له تحقيقًا صعبًا، فقال لها: «لم نتزوج بعد وأشعر أنني طفل في المدرسة التي لم أكمل فيها.»

أدرك وقتها أن الأرامل يقدمن الحب على طبق من شوك؛ فمن خبرت منهن زوجًا سيئًا تراه في زوجها الجديد، ورغم حبهن الجارف وطرقهن الناضجة في إرضاء الرجل، ينقلبن إلى لبؤات إذا شعرن بالخطر، ولذلك؛ محا الفكرة من رأسه تمامًا، وقرر الانتظار حتى تأتيه الفرصة المناسبة.

ظل يبيع البطاطس بلا توقف، ويقضي الليل مع أصحابه، وأجَّر غرفة صغيرة في عمارة حرفيين أنشأها صاحب خير، ورضي بحياة المصاعب هذه حتى يثبت لنفسه أنه يستطيع الحياة من دون أحد، وكان يزور السيد رمضان الرُّز كل جمعة، وخاصة بعد وفاة أمه، ويحاول الاحتفاظ بدوره ابنًا وأخًا، ولكن السيدة أمينة الرُّز كانت تراه على هدي رأي أبيها، الذي كان يشكو إلى حسن الرُّز أمامها من مظهر أخيه الملوث لعائلة الرُّز، وجلساته المسائية مع أنصاف بشر، وحياته الخرائية في عمارة تفوح من جنباتها روائح البول والقمامة، فكان حسن الرُّز يهز رأسه ويقول: «اختار الحياة الصعبة.»

كانت أموره قد استقرت تمامًا؛ فقد تزوج ابنة عمته بعد تزكية من أبيه، وذهبا إلى الإسكندرية لخطبتها على أن تأتي وتحيا معه في شقة بالمنيرة، قريبة من المعهد الفرنسي الحالي، وقد أعجبته لطيبة لفتاتها وأناقتها الفطرية، فرآها مناسبة لرؤيته عن حياته، وكانت ظرافتها تتجلى عندما تضحك لأحاديثه الجادة عن القانون والحياة، ولكن أكثر ما اكتشفه وأعجبه في تلك الزيارة هو الإسكندرية نفسها، التي وجدها مدينة صالحة للحياة، وبها نفحة من التحضر، فقرر الانتقال إليها، ونقل عمله من التدريس في مدرسة الحقوق بالقاهرة إلى الإسكندرية، وكان يُدلِّل على قراره بمظاهر الضياع التي تسود حي السيدة وستطال المنيرة لاحقًا، بينما يؤكد أن الإسكندرية المقامة بمعايير غربية منذ البداية جديرة بالحياة لقرون.

تمرس في حياته من دون شعور بالذنب من ناحية حسين الرُّز؛ لأنه لا يسأل عن أحواله، ومع أنه ضيَّفه على العرس بنفسه، كان قلقًا من مظهره الذي سيأتي به، ولكنه فُوجِئ بالتأنق الكامل لحسين وحضوره بحلة بهية مثل بك صغير، وكان يجيب من يسأله عن مهنته فيقول بثقة: «أعمل في التجارة.»

وقد لفت حسين الرُّز انتباه فتاة من المعازيم، كانت تملك الخيال الكافي لتراه غجريًّا متأنقًا، يحاول التظاهر بالحضارة مع أن يديه تخفيان وحشًا من وحوش الشارع. كان اسمها درية عز الدين، وهي الوريثة الوحيدة لأسرة عريقة من الإداريين الذين اختلطت فيهم دماء الترك مع الشركس والمصريين، وكان تحيا وحدها مع جدتها الكهرمانة في شقة بعابدين، ورثتها من والديها، وتمارس التدريس بروح عالية في مدرسة قريبة، باعتبارها مهمة مقدسة، محققة بذلك إنجازًا كأول فتاة عاملة بأسرة من ربات المنزل، وكان حسها المرهف يخفي طبعًا حادًّا يقف بالمرصاد لعروض الزواج

التي تأتيها من مدرسين زملاء أو شباب مدللين، مع خيال جارف يبحث عن الرجل المناسب الذي سيعوضها عن وحدتها واحتياجها الشديد إلى الأب منذ وفاته مع الأم في حادثة طريق مؤسفة. كانت قد جاءت إلى العرس بدعوة من قريبة لعروس حسن الرُّز، من ناحية الأب، بفرع القاهرة، وكان سبب الدعوة واضحًا: فرصة للتعرف على عريس مبهر بالفلفل مثل الرُّز.

لفتت انتباهه عندما سلمت عليه بجرأة، وسألته بلا تكلف عن نوع تجارته، فقال ببساطة: «قلي البطاطس.»

عدَّتها مزحة، فضحكت، ولكنه أخبرها بجدية أنه متخصص في عمل شرائح البطاطس المقلية. ولأنها كانت تدرك أنه شقيق حسن الرُّز، العريس والقانوني الكبير؛ لم تفهم سر ذلك التناقض، وعدَّته فرصة لغموض كبير يشعل انفعالاتها ويجعلها تفكر في الحب كشيء ممكن. لم يشعر حسين الرُّز في المقابل بالانجذاب نفسه إليها؛ فقد رآها تشبه راهبات الأخويات المقدسة اللاتي يعملن في مشفى قريب ويبتعن منه البطاطس يوميًّا، بشعرها الكستنائي وعينيها الحزينتين، كما كانت فيها سذاجة تكسبها طبعًا طفوليًّا رغم جديتها، ولذلك؛ لم ينتبه إليها، ونسيها بعد العرس تمامًا، عائدًا إلى عالمه الأسود والمهبب، عندما أطلت له من بين الزحام والدخان وكارثة الروائح زبونة صباحية، وقالت وهي تعطيه قرطاسًا: «مدرستي قريبة من هنا، مسافة ربع ساعة مشي، اسمها مدرسة الأميرة فوقية للتعليم الأساسي.»

كانت دعوة واضحة إلى الحب والتعارف، لم يتلقَّها حسين الرُّز بالاهتمام الكافي، وشعر بالنفور الخفيف، ولكنه احتفظ بابتسامته وجنوحه ناحية المرح، ونسيها مجددًا، غير أنها احتفظت به في

خيالها كصورة مميزة لرجل عصامي مجد، يلعب بقلبها وهو يقشر البطاطس بيديه الناحلتين المعروقتين، وشاربه الذئبي، وملامحه غير المروضة. وحتى تمحق أي شكوك تخص طريقة حياته أو تأثره بأخلاق السوقية والخراء الذي يتعامل معه كل يوم، سألت جدتها عن كيفية تقييم رجل في ميزان الحياة، فقالت الجدة، التي كانت قد تخطت التسعين حينها، بصحة حديدية وطباع ظلامية تخاصم الشمس والخروج، وتحيا في عالمها الخاص من قراءة الفناجين ومقابلة الجارات الفاضلات والإشراف على عمليات التنظيف التي تقوم بها الخادمات والدادات: «الأصل هو كل شيء.»

عدَّت صنعة البطاطس هذه تطورًا طبيعيًّا في عالم من الاحتمالات، وانتظرت حضوره إلى المدرسة بصبر ليقف لها كما يفعل محبو الحب وقت الخروج، ويقابلون المعلمات بورود بلدية أو اصطناعية ومظاهر خرقاء من حب أهوج، أو يرفعون البنطال حتى السرة، ويُدخِلون



فيه قميصًا صغيرًا، ويدهنون شعرهم وشواربهم بالفازلين، ثم يقفون بتهتك رجولي وهم يلعبون بسلاسل مفاتيح أو قداحات براقة، ولكنه لم يأتِ، حتى تغلبت على كرامتها وذهبت إليه مرة أخرى، ومازحته مثل المرة الماضية. وعندما رحلت، قالت فتاة من زبوناته الكثيرات -اللاتي يتبادل معهن المزاح بلا كوابح، ويزنهن بعينيه باحثًا عن فتاة الماضي- وكان لها دلال عليه:

- هذه الأبلة تحبك يا خولي الجنينة.

فقال بسخرية:

- البطاطس لا تحب سوى زيت القلي يا زيت.

لم تتوقف درية عز الدين عن مشاكساتها الصباحية الرقيقة هذه، وظلت تذهب إليه كل يومين، تشتري قرطاسًا من البطاطس المقلية، تتناوله بتقديس واجب، وتحكي عنه لزميلاتها في المدرسة، اللاتي لم يعرفن بذلك الاختراع المقلي من قبل، وكانت تقول: «ويقليه رجل يشبه ممثلًا.»

كانت تقرأ رواية «زينب» للمنفلوطي بسرية تامة، بعيدًا عن عيني جدتها التي حذرتها من الرجال كورطة حية ومتجددة؛ لأن مشكلة نساء أسرة عز الدين بدأت مع الرجال منذ زمن بعيد، عندما اختارت فاطمة عز الدين الكبير شابًّا مصريًّا من خدمها في السرايا، التي كانت كائنة نواحي شبرا الزمن الجميل، ليكون زوجًا لها، فهربت معه مثل جارية، وعاشت معه الحب لعام، ثم انقلب إلى كارثة عندما كان يأمرها بتقبيل ذكره كما كانت بائعات المتعة الحبشيات يفعلن معه في زمنه القديم، فرفضت فاطمة عز الدين بشرف، واعتصمت بأهلها عندما أجبرها على ذلك مرتين، رغم نكران والدها لها، فقبل بها، وأُنهِيَت حياة العاشق الخرائي هذا،

ووُضِعت فاطمة عز الدين تحت الإقامة الجبرية في إحدى غرف القصر، الذي بيع بعدها لباشا آخر، تتعفن بالحب، وتكتب رسائل إلى حبيب لَمَّا يأتِ بعد، حتى ظهرت ذات يوم كطيف شبحي حلو الرائحة تسير بين الغرف بمرح وتتحدث بظرف يشبه ظرف درية عز الدين، ولكن نساء العائلة لم يتوقفن عن حب أولاد البلد؛ فمع زيجات فاشلة عدة وزيجتين ناجحتين فقط، ظللن ينجذبن إلى أبناء الشارع وذوي الأكف الخشنة والوجوه التي ملَّحتها الشمس، حتى انتهين بأم درية عز الدين نفسها التي كانت ابنة عم لأبيها، وتزوجته نكاية في هذا النحس، فماتا في حادث بعد عشرة أعوام من الحياة السعيدة، لتقول جدة درية عز الدين حكمتها الأكثر دقة وسوداوية منذ ذلك الحين: «لن تحيا نساء تلك الأسرة إلا عندما يتزوجن البغال.»

وكانت درية عز الدين أكثر رومانسية من أن ترى الأمر لعنة ماحقة، فظلت ترسم حسين الرُّز في خيالها، وتتصور معه كيف تعيد ترويضه وإدخاله في الحضارة، حتى التفتت إليها بسبب غيرة الدم وحدها.

كان حسن الرُّز، بعد عام من زواجه وإنجابه أول أعضاء فرع الإسكندرية رمضان الرُّز، قد سمَّى بكره بهذا الاسم لسبب بسيط: إحالة الاسم إلى الأب رمضان نفسه، الذي بدأ يشيخ سريعًا، ويتجه إلى حياة خيل الحكومة لما بعد المعاش، يقضي نهارات بطيئة في قراءة الجرائد، ويصلي الوقت بوقته في مسجد السيدة، ثم يجلس مع بعض أصحابه من الأفندية في مقهى الماوردي، ولا حديث له عندما يصل الأمر إلى أبنائه سوى حسن الرُّز الذي جاء وحسن الرُّز الذي ذهب، وكان حسن الرُّز يريد تكريمه في حياة عينه.

كانت الأم، ابنة عمته عفت الرُّز، التي كان اسمها سميحة راضي المرسي، ذات عينين خضراوين وملمح أبيض مثل القشدة، وتشبه فتيات مدينة إزمير التي كان حسن الرُّز الكبير يحكي عنها لرمضان كمدينة مليئة بالكفرة الذين يحملون لقب الإسلام بلا إيمان قلبي، وفتيات شقراوات هن الأحلى والأكثر خلاعة في العالم، وقد تأثر حسن بتلك القصص منذ طفولته، ووضع هذا المظهر الأوروبي ضمن خطة محكمة يهدف بها إلى العثور على فتاة تشبه ذلك، فكانت سميحة ابنة عمته، وقد جاءت بهذا المظهر ضمن سلسلة من الشقراوات اللاتي يحملن عرقًا أندلسيًّا بعيدًا من مهاجرين موركسيين وصلوا إلى الإسكندرية في زمن المرسي أبو العباس، وحملوا اسمه بركة، ليداروا به أسماءهم القديمة نصف الإسبانية، وجاء ابنه بالملمح نفسه. كبَّر في أذنه، وكاد يسميه حسين حتى يكون اسمًا منغمًا، ولكنه كان يرى حسين الآخر في خياله، فقرر تسميته رمضان، على اسم الجد كما تقضي العادات، وسقاه من طفولته قصصًا عن القانون والحقوق، وعلمه أن جده الكبير كان تاجر أجبان مبدعًا، وجده المباشر أفندي محترم وضليع في اللغة العربية، بينما لم يذكر حسين الرُّز أبدًا، وهو ما وصل إلى حسين الرُّز عن طريق أبيه، عندما زاره ذات يوم ليطمئن على أحواله كما يفعل، وكان بذقن غير حليقة، فعلَّق عليها رمضان الرُّز بكدر عجوز، وسأله حسين عن أحوال حسن فقال، رمضان الرُّز وهو يرفع صورة تُظهِر طفلًا بملامح سينمائية:

- ابنه، رمضان حسن الرُّز، المستشار إن شاء الله.

ثم قال عرَضًا:

- كان سيكون حسين لو لا أنك لم تحسب حسابًا لدمك.

كان تعليقًا مسممًا، جعل حسين الرُّز يتشاجر مع أبيه لأول مرة

بكلمات حادة، ورأت أمينة ذلك، فقدمت له القهوة السادة كما يشربها، وكانت في العشرينيات حينها، فقالت بهدوء وصرامة:

- لا تزعق لوالدنا!

نظر إليها حسين الرُّز بعينين مجنونتين، وزانها، فاكتشف أنها تشبهه أكثر من شبهها بأي أحد آخر، فقال:

- وهل تستطيعون قول ذلك لسيادة المستشار؟

وخرج من البيت ليلتها وقد قرر تحدي مصيره المقلي هذا، وإيقاف رحلة بحثه عن نجاح تجاري بطيء وفتاة تتحمم معه في كوخ خشبي، وقرر إعطاء عين لدرية عز الدين. لم تأخذ في يده غلوة؛ فعندما غيَّر تعامله معها، انفرطت سريعًا وتلقت معاكساته السوقية بسهولة، ووافقت على دعوته إلى إفطار خاص في جروبي، عندما وضع لها ورقة في قرطاس البطاطس بها الميعاد، كما رأى في أفلام هذه الفترة، وهي الورقة التي جففتها باهتمام محبين، وطهرتها من الزيت المقلي وآثار البطاطس، وكانت سعيدة حتى إنها أعدت كشريًّا منزليًّا لزميلاتها في المدرسة ولبعض الطالبات المميزات، وخلقت ضجة عروس.

تقابلا يوم خميس. ومنذ اللحظات الأولى، بانت الفروق بينهما؛ فحسين الرُّز، ومع التمرس في عمله هذا الذي لا يكسب منه سوى القليل، ولكنه مستمر فيه بعناد وإصرار على النجاح، كان أعلى منها في كل شيء إلا الإتيكيت الاجتماعي، يدرك خبايا المطعم، مع أنه لم يزره سوى مرتين، ولم يتحدث عن المرتين مطلقًا، ففهمت درية عز الدين أنهما كانتا من مواعيده الغرامية، وكان يحلل وجوه الندل والجالسين، فخلصت إلى المعلومة التي آمنت بها قبل ذلك، دون دليل: أنه يفهم كل شيء عن أي شيء. وسلمت له أمرها، ورأت

طرقه الخالية من الذوق وتأنقه مع احتفاظه بشارب ذئبي كأنه وحش غير مروض في ثياب الأفندية.

تزوجا خلال شهرين فقط، ودون اعتراض يُذكَر من جدتها التي رأته في مظهر مشوش بضباب انعدام الذاكرة، وشعرت أنه يشبه خالها المرحوم سامي، وحضر السيد رمضان الرُّز وقت التقدم لقراءة الفاتحة وهو قلق من جدية القصة كلها، ولكنه فُوجِئ بمظاهر العز القديمة في شقة عابدين هذه التي تطل على قصر الملك نفسه، وسمع الجدة وهي تحكي عن رؤيتها المتكررة لعربته الحمراء وملامحه الطفولية، وشاهد الصور القديمة لرجال عائلة مجهولين، ونساء يقفن بجدية بجانب أزواجهن، فقال لحسين الرُّز وهم يغادرون الشقة:

- تذكر أن سيرة جدك وأخيك هي ما أهَّلتك إلى هذه الملاك.

فقال حسين الرُّز:

- بل طاسة البطاطس المقلية المقرمشة.

لم يقتنع السيد رمضان الرُّز بذلك حتى وفاته، فكان يكرر أمام مسامع أمينة الرُّز أن السيرة الحسنة للجد هي من تنقذ الأحفاد، وأن حسين الرُّز قد نجا ببدرية عز الدين بسبب السيرة وحدها، وقد فقد حسين الرُّز الأمل بعد ذلك، عندما تكررت الكلمات نفسها، وعدَّ ما فعله انتصارًا طبقيًّا رغم ما كان يُقال بشأن ذلك. ولأنه لم يكن يملك مكان سكن كما أخبرها، سوى غرفته الكئيبة في بناية عمال؛ اتفقا أن يحيا معها في شقة عابدين حتى يتطور ويصير صاحب مطعم كبير.

كانت تؤمن به بصدق، وقد قدمته لصديقاتها كرجل عصامي وابن ناس، قرر إيجاد طريقه وحده، وهو ما أعطى حسين الرُّز

هالـة ثقـة إضافيـة، فتعامـل في العـرس دون قلـق مـن المقارنـات، وعـزم رفـاق المهنـة وبعـض أصحابـه مـن الإسـكافية والترزيـة مـع معارفـه مـن التجـار، كـما عـزم المعلـم علـوان فرختـو، فجـاء بجوقـة صاخبـة تصحبـه زوجتـاه، يحمـل معـه فضائـل مـن هدايـا العـرس، وهـي كلهـا مشـاهد رأتهـا دريـة عـز الديـن دليـلًا عـلى صـدق زوجهـا، بينـما تعامـل السـيد رمضـان الـرُّز مـع هـذه المظاهـر بنفـور واضـح، وظـل جالسًـا عـلى منضـدة ينتظـر حضـور حسـن الـرُّز مـن الإسـكندرية، فجـاء الأخـير ومعـه زوجتـه سـميحة، وابنهـما رمضـان، الـذي جـاء بمظهـر احتفـالي مضحـك، رآه حسـين الـرُّز إمعانًـا في إهانتـه مـع أنـه غـير مقصـود: كان يرتـدي زي مستشـار مسـخوط، وعوينـات جميلـة تركـز التأثـير الأزرق لعينيـه البحريتـين. والفكـرة أنـه أُغـرَم بهـذه الثيـاب منـذ أن دفعـه حسـن الـرُّز إلى ارتدائهـا، والتقـط لـه صـورة في اسـتديو أرتـين، وعلَّقهـا في الصالـة سـعيدًا، ولم يخلعهـا رمضـان الصغـير أبـدًا، وظـل يرتديهـا في كل



الخروجات، ويحاول مصافحة الناس بوقار كما يفعل أبيه. عندما وصل حسن الرُّز، قال له السيد رمضان وهو يشير إلى التجمع الشوارعي:

- لم يكن عليك المجيء.

فقال حسن الرُّز بهدوء:

- الواجب؛ هكذا علمتنا.

ثم أثنى على جمال العروس ورقتها، وعلى عراقة أفراد عائلتها الذين جاؤوا في ثياب عفا عليها الزمن، يتعرقون فيها بأدب، وينتظرون الطعام بكرامة. كان صارمًا في عدم ترك فسحة لعودة العلاقات مع حسين الرُّز كما كانت وقت صباهما؛ فمع تمرسه في العمل القانوني، اكتشف أن القضاء ساحة معارك صعبة لا تقل صعوبة عن معارك الظل في أحياء الإسكندرية، التي تبدأ فيها العركة بضرب كرسي في الكلوب، ثم تنتهي بمقتلة عظيمة تشبه حرب البسوس التي أُغرَم بها حسن الرُّز، وكان يعدُّها تفسيرًا حيًّا ومتجددًا لطريقة تفكير العقل العربي. رأى كيف يمكن أن يُستخدَم أهل القاضي ضده، خاصة مع القصة المؤسفة لقاضي اسمه عثمان طاهر، كان شهيرًا بالتزامه الشديد بالقانون وطريقته المبهرة في نطق العربية، وأحكامه الصارمة، ولكن أخًا له اسمه عبد الله طاهر وضع سمعته في الطين بالنهاية، عندما قتل عالمة أُغرَم بها في الأنفوشي، فخطب عثمان طاهر حينها خطبة عصماء في قاعة المحكمة، ودحض كل ما يتردد عنه من صعوبة حُكم أمة ما دام لا يستطيع حكم ابن أمه، وقال في نهايتها: «وقال يا أسفى على عبد الله، وعلى السمعة، وعلى مسيرتي في المحكمة التي هي ظل القيامة على الأرض، وابيضت عيناي من الحزن.» وقد أُصيب بعدها

بمـرض غـير معـروف، ومـات، وكانـت جنازتـه مشـهودة.

رآه حسـن الـرُّز في مصيره، فقـرر التحكـم في فوائض العطـف ودفعات الحنـين، واعتمـد السـلوك الرسـمي كافيًـا للحفـاظ عـلى حياتـه. ولأنـه كان حويطًـا كفايـة؛ استشـار مشـايخ كبـارًا عـدة، لهـم علـوم وتفاسـير، بشـأن صلـة الرحـم، وتوصـل إلى حقيقـة أراحـت قلبـه: مـا دام في عونـه إذا أراد فـلا مشـكلة في الاكتفـاء بالسـؤال مـن بعيـد لبعيـد، وإرسـال رسـائل وديـة في المناسـبات.

انتهـى العـرس بزفـة بلـدي عـلى شرف المعلـم علـوان فرختـو، ودخـل العروسـان شـقة عابديـن. ومنـذ اليـوم الأول، اكتشـف حسـين الـرُّز أن الحـب يمكـن تعلُّمـه كأي شيء في الدنيـا. كانـت دريـة عـز الديـن مرحـة في الفـراش كـما هـي في الحقيقـة، ففُوجِـئ أنهـا فاقتـه في الجـرأة، ولكـن المشـكلة الأساسـية أنـه لم ينتصـب حبًّـا إلا عندمـا دخـل الحـمام الصغـير، الـذي صممـه أحـد الخواجـات المجهولـين الذيـن عاشـوا في هذه الشـقة، داخـل الغرفـة الكـبرى، وجعـل مثلـه في كل مـكان حتـى كان حسـين الـرُّز يسـخر ويقـول: «قلبـي كلـه حمامـات.» وكان هـذا لأنـه عالـق في الحـمام الخشـبي، وهـو مـا فهمتـه دريـة عـز الديـن عـلى أنـه مـن غرائـب حسـين الـرُّز، وتوقعـت أنـه تعلـم ذلـك مـن الشـارع. ورغـم غرابـة الفكـرة، اسـتطاعت دفعـه إلى الحـب بسـهولة أسـفل الـدُّش، وصـار هـذا مكانهـما الحميمـي لفـترة طويلـة حتـى دخـل الاعتيـاد في المعادلـة.

فُوجِـئ حسـين الـرُّز أن وجهـه قـد تـورد بعـد الـزواج، كـما أنـه صـار أكثـر جديـة في عملـه، وعـاد إلى أيـام نظافتـه القديمـة، فصـار ينـزل بملابـس بيضـاء نظيفـة، وملمـح صاحـب مطعـم فرنـسي، حتـى إنـه دفـع صحفيًّـا إنجليزيًّـا، كان يُجـري تحقيقـات في أنحـاء السـيدة عـن المهـن الآيلـة إلى الاندثـار وقتهـا مثـل صانعـي البوظـة والبُلـغ الخشـبية والحـلاوة الشـعر، إلى عمـل تحقيـق مطـول عنـه؛ لأنـه فُوجِـئ بنظافتـه

الملائكيــة هــذه في حــي بــلا رب ولا حضــارة، وفُوجِــئ أن حســين الــرُّز قــد تعامــل معــه بكياســة طبيعيــة، ونــزل المقــال بعدهــا في جريــدة إنجليزيــة جــاء بهــا الصحفــي المــؤدب، وأعطاهــا لحســين الــرُّز، ثــم أخــبره أن ثمــة وجبــة شــهيرة في بريطانيــا تُبــاع فيهــا البطاطــس المقليــة بجانــب قطــع ســمك، وقــال مبتســمًا: «اســمها فيــش آنــد شــيبس.»

وعــرض عليــه الســفر إلى بريطانيــا ليقــلي بطاطســه الشــعبية هــذه، ولكــن حســين الــرُّز، الــذي لم يقتنــع أن الحيــاة ســهلة عــلى هــذا النحــو، رآهــا عزومــة مراكبيــة، واكتفــى أن احتفــظ بالمقالــة مُــبروَزة في إطــار، ظل معلقًــا خلفــه عــلى حائــط البيــت الــذي يقــف أمامــه، حتــى وضعــه بعدها في المطعــم الــذي ســيفتحه في المنــيرة، وســيظل هنــاك حتــى ينتقــل المطعــم إلى يــد أخــرى، قبــل أن يُبــاع في حملــة تطهــير مــن الكراكيــب وتجديــد المطعــم، ويصــل إلى ســوق الجمعــة، فيجــده باحــث مــصري شــهير، ويضعــه عــلى صفحتــه عــلى فيســبوك ويكتــب: «تحيــة إلى عــم حســين المجهــول هــذا، وكل أفــراد عائلــة الــرُّز.»

وهــو الحــدث الــذي ســيتلقى بعــده هــذا الباحــث رســالة سريعــة مــن شــاب يُدعــى حســن الــرُّز، طلــب فيهــا إعطــاءه الصــورة وإزالــة البوســت لأنــه -كــما ذكــر- يخلــق مشــكلات في أسرتــه العريقــة، وعــرَّف نفســه أنــه قريــب عائلــة المستشــارين الكبــيرة، وأبــوه المستشــار رمضــان الــرُّز الإســكندراني الشــهير، ابــن حســن حســن الــرُّز، الــذي شــارك في قضايــا كثــيرة بعــد الثــورة و٢٠١٣، وكان يظهــر في الصحــف بهيئــة مخيفــة وملمــح راكــد لشــخص بــلا قلــب، واشــتُهِرت عنــه مقولــة: «مــا يُــرى في أوروبــا انقلابًــا عســكريًّا لا يعنــي أنــه صحيــح عندنــا: مــا حــدث دســتوري، والقانــون صنعــة الإنســان في بلــده، ولــه الحــق وحــده في تحديــد إطــاره؛ فالبقــر مقــدس في الهنــد بالقانــون والعــرف، لكنــه حــلال هنــا.»

وقد ساعدته درية عز الدين في توسعة عمله بالجو الأسري الذي هيأته له، بعد حياته وقتًا طويلًا في غرفة بناية العمال والحرفيين، حتى إنه قال عندما عاد إلى الغرفة وجعلها مخزنًا لأجولة البطاطس والدقيق والخلطات السرية، التي يعدها بلا مجهود وبذائقة حادة، ووجدها متفسخة بالهاموش الصغير والذباب وحشرات سوداء برأسين، ورأى الفراش الواطئ والجدران المتشققة والعالم المقلوب رأسًا على عقب: «كنت أحيا في الخراء!»

يوم

٣

مع الوقت، اعتاد حسين الرُّز السكن في عابدين، وعرف فضيلة الجلوس صباحًا في الشرفة المطلة على القصر، وتناول القهوة السادة، وتأمل الحياة المنظمة، وتنسم الهواء الحر الذي ينبعث من كل مكان ويضرب الشرفة، وقد أكسبه هذا زخم العز الذي كاد ينساه، ففتح قلبه لدرية عز الدين في صباحات الهناء المتباطئة تلك، وحكى لها كيف يعامله أهله، وكان عندها استعداد فطري لمواساته، فحكت له قصص عائلتها من البكوات المتصارعين، وكيف تشاجروا بشأن الميراث حتى أفنى بعضهم بعضًا، ووالديها الأميرين أولاد الأمراء الذين ماتا في الحادث. كانت أكثر رقة من كل من رآهن، ولم يفهم السبب الفعلي لحبها له، فكانت تقول عندما تلمح الحيرة في عينيه: «أنت بريء، تتعامل مثل طفل.»

والحقيقة أن حسين الرُّز كان طفلًا كبيرًا غير مروض؛ فمأساة حياته كلها كانت في العناد، يعاند ما يُقال له إذا فُرِض عليه، ويعاند القدر الذي كُتِب عليه ابنًا للسيد رمضان الرُّز وأخًا للمستشار، ويعاند كل دعاوى إفشال مشروع البطاطس، بل كانت زيجته من درية عنادًا، ولذلك؛ انقلب في النهاية إلى طفل يصارع الجميع ويخاصم كل شيء، لكن، ومع تلك الطبيعة المتحسسة، كان يملك قلبًا واسعًا لمسته درية عز الدين، فكانت تراقبه عندما يرى نملة صغيرة تسير فوق البيجاما المنزلية، فيتابعها بهدوء، ثم يحملها بين إصبعيه ويضعها فوق إفريز الشرفة، وهو ما عزز إيمانها به، فأقدمت على خطوة خطيرة ببيع قطاع من مصاغ أمها الذي آل إليها وهي في العاشرة، وقد فعلت ذلك بمحل جواهرجي يهودي اسمه لمعي لبيب، كان ينقش حرفي اسمه فوق قطع الحلي بـ«لامَين». وفي صباح اليوم التالي، قدمت قماشة فيها المال لحسين الرُّز وقالت: «افتتح محلًّا، وليكن أكبر مطعم بطاطس في القاهرة.»

لم يوافق حسين الرُّز في البداية، وشعر أن حب درية عز الدين الفائض خطير؛ لأنه يُكسِبه قوامًا هشًّا، ليكتشف مرة أخرى أنه كان يرى نفسه بمنظور متصاغر، وأنه تأثر بنظرة عائلته، ولكنها محت شكوكه بقولها: «ابتَع لي جديدًا عندما يفتح عليك ربنا.»

كانت أيام هناء؛ فقد أشرف على المطعم بأظفاره وأسنانه، وكساه بالرخام الأبيض. ولأنه كان لا يزال يذكر رطانة جده الشعرية في وضع أقراص الجبن الرومي المغلفة بأقمشة نظيفة؛ قرر تقديم العصير بجانب البطاطس المقرمشة، وهي الفكرة التي سيجدها بعدها في كافتيريات إسطنبول، وسيأخذ منها فكرة تقديم شطائر النقانق في الستينيات، عندما تتغير ذائقة الناس، قبل أن يتوقف عن تقديم العصير في مطلع السبعينيات مع ازدياد محال العصير، ووجود باعة جائلين يبيعون عصير البرتقال المزنخ ويضيفون إليه بودرة البرتقال. أسماه مطعم «درية والرُّز»، وهو ما عُدَّ حينها صيحة في عالم المحال؛ لأن أولاد البلاد كانوا لا يفضلون وضع اسم امرأة على المحل، وهو ما تلقته درية عز الدين ببكاء سعيد، وقدم حسين الرُّز البطاطس فيه شيبسي سابق للزمن، ومعها زجاجات البرتقال، ثم أضاف البطاطس الفرنسية التي وجدها تُقدَّم في جروبي، ورأى سيدة مجتمع تجلس مع جوقة مع عجائز الزفة تقول وهي تذوقها: «كأنني أتناول ذهبًا مقرمشًا.»

حقق المطعم نجاحًا سريعًا، وبعث السيد رمضان الرُّز بتهنئة مقتضبة، ولكن أخبار مساعدة درية لزوجها انتقلت سريعًا بين الناس عن طريق العِرس الصغيرة التي تنتقل ما بين زوايا البيوت السفلية الخفية، وتحمل الأفكار بحماسة من مكان إلى مكان، وتعرف حقيقة كل شيء، والخادمات المجدات اللاتي يكسبن سيداتهن بالفضفضة، وقد فعلت ذلك شحاتة، الخادمة التي تحيا في المغربلين، وكانت تأتي لتنظيف شقة عابدين كل جمعة، وسمعت حديث جدة

درية عز الدين، السيدة قوت القلوب، وقالت إن حفيدتها مغرمة بثعبان بلدي، التف على جمالها وذهبها، وكان لشحاتة رأي في كلام سيدتها؛ فمع خبرتها في صنوف الرجال وممارستها الحب في سنين الشباب الأولى في وجه البركة، عرفت أن حسين الرُّز مشروع زير نساء حقيقي، وله عينان ذئبيتان رغم طيبة ابتسامته، ولكنها ابتسامة عسلية توقع الذباب، وقد لمحت نظراته التي هامت خلفها أكثر من مرة، وحددت منابع قلقها، ولكنها لم تنكر أنه يحب درية عز الدين، ويعاملها على نحو شبه مقدس رغم رائحة الشوارع المظلمة والمتفسخة بالنسيان التي تنبعث منه. لم تكن السيدة قوت القلوب، التي تنسي نصف ما تريد قوله كل يوم، وتحيا في أزمنة عدة بالوقت نفسه، وتحدث ميتين وأحياء، تتصف بالكتمان، وكانت شديدة الملاحظة رغم صمتها، فقالت لشحاتة: «باعت ذهب بنتي -الله يرحمها- لتفتح له مطعمًا!»

ومع ظهور المطعم، نشرت شحاتة الخبر، حتى وصل إلى السيد رمضان الرُّز، واستمعت له أمينة الرُّز، التي صارت شابة مسخوطة، تتقن النميمة، ولكنها تنأى بنفسها عن مشاركة أخبارها الخاصة، وقد انزعجت عندما سمعت القصة، فقالت لأبيها ما سمعته من خادمتهم حنون، التي عرفت الخبر بدورها من شحاتة في جلسات خادمات تتم مكللة بالسجائر والنشوق، فقال: «عندما رأيت تلك البنت الطيبة قلت إنها أغضبت ربنا في شيء لتتزوج حسين.»

في هذه الأثناء، كان حسن الرُّز يواجه محنته الخاصة بالوفاة المفاجئة للمستشار الصغير، والقصة أن رمضان الطفل قد صدق نفسه حتى إنه غادر السيارة في شارع سعد زغلول وقت توقف حسن الرُّز لأخذ قهوته في ديليس، وتركه في العربة مع السائق؛ إذ كان يجلس بجانبه، يرتدي زيه الكامل مع القماشة الخضراء التي تحمل الشعار، لامعة في وجه الشمس، فرأى الترام القادم من بعيد، مغسولًا

بالمطر ولامعًا بالصفرة، فاستغل انشغال السائق بنومة قيلولة، ونزل سريعًا ليوقف الترام بسلطته الزائفة، وعند ذلك، قفز فوقه حصان يقود واحدًا من الحناطير المنتشرة في الرمل وعلى طول الكورنيش، وانتبه السائق بعد فترة، بينما خرج حسن الرُّز من المحل وقد انتشى بالقهوة وحديث سياسي صباحي، عندما رأى الجموع التي احتشدت حول الجسد الصغير، وأحدهم يقول: «سبحان الله! من أين جاء؟ يرتدي زي قضاة.»

كانت مأساة بلا حل، أُصيب معها حسن الرُّز بارتفاع الضغط المزمن، بينما فقدت سميحة المرسي نصف قدرتها على الضحك، وقد لامته لأنه كان مصرًّا على مرافقته إلى المحكمة، فقال بهدوء: «كان يحب ذلك، ولعله كان كثيرًا على هذا العالم.»

ولكن التفسير الوحيد المنطقي، الذي وجده، أنه أُصيب بالحسد، وخاصة في عرس حسين الرُّز المشؤوم، ودفعه هذا إلى الإمعان في التربية الصارمة لشقيقي رمضان الآخرين، اللذين أسمى أحدهما حسن، تكرارًا لاسمه، وأسمى الآخر على اسم والد سميحة المرسي، وقال لهما بالحرف: «في مصر، ليس لنا سوى جدو رمضان وعمتو أمينة.»

ومع إفراطه في تصديق أن حسين الرُّز تحديدًا قد حقد على ابنه الذي خُطِف هذا، لم يمنع نفسه من الأمنية السوداء بأن ينجب حسين بناتًا فقط؛ حتى لا يستمر معه اسم الرُّز.

مع رواج مطعم «درية والرُّز»، اكتسب حسين الرُّز عادات الثراء التي افتقدها كثيرًا، فعزم درية عز الدين على جروبي ليُذكِّرها بزمن تعارفهما، وابتاع لها «ما شاء الله» من جواهرجي بايوكي الشهير، كلفته نصف ما كسبه خلال أربعة أشهر، ولكنه أضاف إلى ذلك اهتمامًا واضحًا بمظهره، لم يكن جديدًا عليه، ولكنه ظهر بمبالغات

شكلية، فبدأ يصفف شاربه بالفازلين، ويترك حاجبيه الكثيفين وسالفيه لعلي أفندي -مصفف الشعر اللبناني، الذي ترك بيروت خوفًا من ثأر حب؛ لأنه أغوى زوجة أحد النبلاء في جبل لبنان، وجاء ومعه كل تقاليع الشعر وخلاعته هناك- فيعمل فيهما كما تقضي مشيئته، ويُلمِّع وجهه ببودرة ممثلين، حتى كان حسين الرُّز يخرج من عنده على سنجة عشرة، يلوح مثل أنور وجدي شعبي في المطعم، ويقف وهو يرتدي المريول، يعمل بيديه وهو يرتدي قفازات طبيب، أو يشرف على عويس، الشاب الصعيدي الذي وظفه عنده في تقطيع البطاطس، وكان يعرفه منذ أيام الحاج علوان فرختو كبغل بشري كان يقطع وحده خمسة أجولة من البطاطس على غيار الريق.

لكن المشكلة أن اهتمامه هذا بمظهره أعاد إليه مشاكسات زبوناته طوال اليوم؛ فالمعلومة، التي تُنُوقِلت، أن رجلًا وسيمًا مثل الممثلين يقف بألق كأنه يمثل حقًّا، ويُعِدُّ البطاطس ويضعها في قراطيس ورق الجرائد، وعنده ذائقة فنية مميزة يُشغِّل معها الإذاعة ويدندن، فبدأن يظهرن على حس السمعة هذه، وكانت أكثرهن جرأة تقف أمامه بوجه مكشوف، وتتغنج في الطلب، حتى تستكشف أبعاد الذئب الذي يلوح بعينيه، والحقيقة أن تقسيمة وجه حسين الرُّز ظلمته كما ظلمته الأسرة منذ أن قرر اختيار مسار حياته عنادًا في أبيه، وقد فطنت الخادمة شحاتة إلى ذلك الأمر مبكرًا عندما كانت تراه وهو جالس في الشرفة، يتناول الكنافة العثمانلية التي تُعِدُّها درية عز الدين باقتدار وتحشوها بقشدة طازجة، يبتسم بإغراء طبيعي؛ إذ إن تقاطيع وجهه الصارمة الطبيعية كانت تنكشف حينها عن وجه طفولي سعيد، يشرق بالابتسامة فور ضحكه على شيء، واعتقدت أن ذلك سبب هوس سيدتها به، ولكنها علَّقت على ذلك بقولها: «ولكن كل شيء فيه يقول إنه رجل بتاع نسوان.»

كانت تعرف الفروق بين الرجال المحترمين وغير المحترمين، وتصر أن ذلك يظهر على صفحة الوجه وحدها، وأن حسين الرُّز، بأناقته المفرطة، وطريقته في الحديث، مع كل ما يفعله ليحافظ على حب درية عز الدين، يخفي داخله رجلًا نسوانجيًّا ينتظر فرصة الظهور، وقد قالت إن ثمة رائحة خفية تصدر من هؤلاء الرجال فتجذب إليهن النساء بكل أطيافهن، وهو ما حدث بالفعل؛ فمع دخول أزمنة التجديد في الأربعينيات، كانت السيدة زينب قد ضجَّت تمامًا بكل أطياف البشر، فظهرت فتيات يهوديات يانعات صباحًا، يدخلن المطعم ويطلبن البطاطس وهن يضحكن، وطالبات الراهبات المتكتمات اللاتي يأخذن القرطاس بقلق من عيني حسين الرُّز الفضوليتين، والخادمات اللاتي يأتين على أمل إغوائه، والموظفات المجدات مثل درية عز الدين، واللاتي يطلبن ما يردن بجرأة، ويحتفظن بوجه شمعي مقابل الغرباء؛ حتى يثبتن أن الوظيفة لا تقتضي التساهل كما يتردد، والسيدات الممتلئات، فتوات الأزقة الخلفية، اللاتي يطلبن البطاطس ليُطعِمن أورطة مباركة من أطفال ناحلين يطلقونهن على المارة وتجمعات العربات، وكل هؤلاء من يعبرن بابتسامة معينة، أو سؤال بلا إجابة، أو عين حمراء في صفحة وجه ملتزم، فكان يقاوم رغبة أزلية في البحث عن فتاة أحلامه القديمة، ويمعن في صرامته، فلا يتهاون في المزاح أو ترديد الكلمات الحلوة كما كان يفعل عندما كان يبيع في الشارع، ومقابل ذلك، كان يغمر درية عز الدين بالحب، ويعود إلى البيت وقد ضج بالانفعالات، فيمارس معها الحب أحيانًا قبل الغداء، وهي تكتم ضحكاتها لأن جدتها كانت تسمع صوت اهتزاز الأريكة أو الفراش من مكانها فتقول: «البيت آيل للسقوط، وكتَّر خيره أنه ينبهنا.»

كانت أعوام درية عز الدين الذهبية؛ فقد جاءت صحتها على الزواج، وتيقنت من صحة نظرتها إلى حسين الرُّز كجوهرة رجالية

نـادرة مدفونـة في الطـين، أخرجتهـا ولَمَّعتهـا بالاهتـمام، فصـارت أكثـر جديـة في التدريـس؛ تأخـذ حصصًـا فائضـة عـن الحاجـة، وتسـتقبل المديريـن وموجهـي التعليـم بوجـه صبـوح وذهـن حـاضر، وتُعلِّـم الشـعر والرياضيـات ومـا تيسر مـن العلـوم، كـما صـارت محبوبـة أكثـر مـن طالباتهـا الـلاتي يحكـين لهـا قصـص الحـب مـع ابـن الجـيران أو ابـن العـم والخالـة، فكانـت تسـتمع لهـن باهتـمام، وتنصحهـن أن يسـعين خلـف الحلـم. لم ينغـص معيشـتها أنهـا لاحظـت عـزوف أهـل حسـين الـرُّز عـن زيارتهـما، بـل كانـت تبـادر بنفسـها لتـزور السـيد رمضـان وأمينـة الفتـاة مـن دون حسـين الـرُّز، وتجلـب معهـا صـواني المكرونـة بالبشـاميل وصحـون الشركسية والمحـشي، ومـع طرافتهـا، أحبتهـا أمينـة الـرُّز، وظلـت تقـول عنهـا حتـى سـنوات شـيخوختها وتحولهـا إلى ملكـة نحـل لا تقـدر عـلى الحركـة: «أبلـة دريـة كانـت تشـبه أغـاني محمـد فـوزي في كل شيء.»

وكانـت تقـول ذلـك بأسـى؛ حتـى تحكـي بعدهـا القصـة المأسـاوية ممـا لاقتـه مـع حسـين الـرُّز. وقـت وفـاة السـيد رمضـان الـرُّز -التـي حدثـت عـلى نحـو لائـق؛ إذ مـات وهـو يصـلي العشـاء في مسـجد السـيدة زينـب- أرسـلوا إخطـارًا إلى حسـن الـرُّز في الإسـكندرية، فنهـض مـن فـوق مكتبـه، وقـال بهـدوء: «فقدنـا اليـوم عمودنـا في القاهـرة.»

فعـلى الرغـم مـن تمـرس حسـن الـرُّز في حيـاة الإسـكندرية، وإدمانـه الجلسـات الرائقـة في مقهـى فـاروق، والانتشـاء بالبحـر في ليـالي الربيـع، والحـزن الجميـل في الشـتاءات الخاليـة، عندمـا تصـير المدينـة بـلا أحـد، وتثـير فيـه شـجونًا يكتـب إثرهـا شـعرًا، ويتذكـر رمضـان الصغـير، وقصـص الطفولـة المضمخـة بـزلال المـاضي، وأمـه التـي عاشـت وماتـت ونُسِيَت كأنهـا لم تكـن؛ كان يـرى أنـه قاهـري بالقلـب، فيشـعر بحنـين صافٍ إلى ليـالي السـيدة زينـب والمبتديـان والمنيرة، ويشـعر معهـا أنـه يحـن إلى أم طيبـة، بوجـه قـاسٍ، تحتضنـه وتفـوح مـن حضنهـا رائحـة

قـلي وتـراب ومعسـل وبخـور وبهـارات، بينـما كان يـرى الإسـكندرية فتـاة شـقراء، تمـرح أمـام البحـر، متقلبـة المـزاج، وتحتفـظ بمسـافة أمـان مـن محبيهـا، وهـو مـا كتـب عنـه مبحثًـا نُـشِر في الأهـرام، ولاقـى صـدى جيـدًا، فكتـب عنـه طـه حسـين: «للمستشـار حسـن الـرُّز يـد بيضـاء في الحـق، ويـد بيضـاء في الأدب.»

وقـد اعتـاد هـذا الحنـين الغريـب إلى حـي كان يُفاجَـأ بمـدى تفسـخه في كل زيـارة، حتـى إن شـارعهم قـد طفحـت فيـه المجاريـر أكثـر مـن مـرة، رغـم إقامتهـا منـذ أعـوام قليلـة، وهـو مـا لم يفهمـه حسـن ولا راضي؛ فـكان كلاهمـا إسـكندرانيًّا حتـى النخـاع، ويـرون الحـي، الـذي وُلِـد فيـه أبوهـم، ورطـة زحـام غـير معقولـة، ولم يفهـما كيـف يلـين والدهمـا الصـارم، فتطفـر مـن عينيـه الدمـوع مثـلًا عندمـا يـرى مسـجد السيدة زينـب، أو يتنـاول الكبـاب مـن مطعـم قريـب، أو يسـير في زحـام رمضـاني، ولكـن سـميحة المـرسي كانـت تقـول حينهـا: «كل إنسـان مثـل السـمك، والسـمكة تحـن إلى بحرهـا.»

وكانـت تـردد ذلـك كثـيرًا عـلى مسـمع حسـن الـرُّز حتـى تمحـو أي رغبـة في العـودة إلى القاهـرة؛ لأنهـا تربـت عـلى المنـاخ الفسـيح ورطوبـة آب ونـوَّات ديسـمبر، ولكنهـا تُطعِّمـه بالتفهـم في اللحظـة نفسـها، لتـترك لـه فرصـة الحنـين بـلا أمـل. قبـل وفاتـه بفـترة، أعـرب السـيد رمضـان الـرُّز عـن رغبتـه في أن يُدفَـن في مقـبرة والـده حسـن الـرُّز في الغفـير، التـي أقامهـا عـلى الطـراز العثـماني عندمـا جـاء، وطلـب زخرفتهـا بالآيـات كـما كان يـرى في إسـطنبول المـاضي، وافتتحهـا وحـده، ثـم دخلـت الأم الكبـيرة، وبعدهـا أمهـم، وذكـر هـذه الرغبـة واضحـة بـلا عواطـف لحسـن الـرُّز، وقـد لبـى الأخـير الطلـب، وجـدَّد المقـبرة بعدهـا خصوصًـا، ووضـع فوقهـا لوحـة رخاميـة بديعـة كُتِـب فوقهـا «مقـبرة عائلـة الـرُّز»، وأسـفل تلـك اللافتـة، كُتِـب عـلى عهدته «المستشـار حسـن الـرُّز القـاضي بالدولـة، وصاحـب التجديـدات في القانـون الجنائـي»،

فدشَّن نفسه حينها صاحبًا للمقبرة التي كانت ملكًا للجميع.

مع وفاة السيد رمضان الرُّز، ظهرت معضلة أمينة، التي كانت وقتها في الثانية والعشرين من عمرها، فتاة صلبة الطباع، لها وجه حلو التقاسيم، لكن لها طباع خاصة تطورت مع نموها؛ لأنها عاشت في البيت وحدها مع السيد رمضان، فصارت تعدُّه بيتها الحقيقي والوحيد في هذا العالم، وكانت تردد، عندما رأت درية عز الدين تتزوج في بيت أهلها، أنها ستفعل مثلها تمامًا، وقد ذهب إليها حسن الرُّز بعد نهاية العزاء، وكانت قد صرفت النساء من الأقارب والجارات معلنة أنه لا عزاء هناك، بينما اكتفى حسن الرُّز بسرادق كبير، هز السيدة زينب، وجاءه معارف حسن وحسين الرُّز، باختلاط شعبي قانوني، وسألها عن الكيفية التي تريد بها الحياة، فقالت بثقة:

- سأعيش هنا وحدي.

فقال لها:

- لا يجوز؛ لا تعيش فتاة وحدها.

عندما ستسمع أمينة بعد ذلك بقرن عن حياة حفيدتها أمينة وحدها، رغم اعتراض أبيها، ستتذكر قصتها هذه في معرض حديثها عن رغبتها القديمة في الاستقلال عن عالم الرجال، وتتعجب من تغير الأزمنة وقدرة الفتيات على العيش وحدهن. بالطبع، لم تضع الحياة مع حسين الرُّز في الحساب، بل حذَّرها حسن الرُّز من استغلال أخيها لوفاة والدهم وجلوسه في الشقة نفسها بحجة إعطائها الأمان، وقال بقطع: «نغلق الشقة وستأتين معي إلى الإسكندرية.»

وقد كان، لم يعترض حسين الرُّز حتى؛ فعلاقته المتوترة مع أمينة

دفعته دائمًا إلى الاحتراس وهو يتحدث معها، فكان يقول لدرية عز الدين وهو يصف إحساسه: «كأنني شخص آخر يحدثها وأنا بتفرج عليَّ وعليها.»

لم يسأل حسين الرُّز عن حقه في الشقة، وعدَّها ملكًا للجميع مثل المقبرة، ولم يضعها في حسابه كميراث، خاصة أن السيد رمضان الرُّز لم يصحح نظرته بشأن حسين الرُّز، وكان يتلقى زياراته بقلق واضح، ويتحدث معه بلا حماسة، ولذلك؛ لم يبكِه حسين الرُّز؛ لأنه لم يشعر أنه فقد أبًا بالفعل، بينما امتنع حسن الرُّز عن البكاء حفاظًا على صورته الاجتماعية، وفي منتصف العزاء، وقف وألقى خطبة عن الأبوة وبر الوالدين، كان حسين الرُّز يستمع لها مبتسمًا، وهو ما سبَّب له مشكلة جديدة؛ لأن من رأوه تناقلوا قصة أنه سعيد لوفاة والده، وشاهدوه وهو يفتح المحل في اليوم التالي، متوردًا وأحمر، يشرف على البيع مع عويس، ولكن درية عز الدين هي من رأت وحدها ما فعله؛ فعندما عادا معًا في المساء، جلس في الشرفة وحده، وأخذ يتأمل القصر النائم في الظلام، ثم تراءى له أنه يرى الملك لأول مرة بعين الحقيقة، فقال، ما سمعته جيدًا: «أنا وأنت غلابة يا مولانا؛ ربنا رزقنا بآباء لا يحبوننا.»

كانت ذكية بالقدر الكافي كي لا تتدخل، وعاملته معاملتها لطالب حزين، يكتم انفعالاته، وأمعنت في عدم إثارة أي حديث عن السيد رمضان، حتى مر الحدث سريعًا ولم يترك أثره على البيت السعيد.

في الإسكندرية، خرجت أمينة الرُّز عن طورها القديم، واكتشفت لأول مرة متعة كونها شابة، وطوَّعتها طبيعة سميحة المرسي المحبة للحياة والخروجات النهارية والجلوس على البحر والنميمة، فعلمتها كيف تستمتع بشرب القهوة السادة صباحًا، وقضاء النهار بقتل الوقت بامتياز، وتناول البسبوسة بالقشطة في القيلولة، وطرق إعداد

صواني السمك البوري بالبطاطس والجمبري في الفرن والسُّبيط بالمقدونس، والمفاصلة في سوق السبع بنات -مع أن حسن الرُّز قد نهاها كثيرًا عن الذهاب هناك؛ لأنه مكان سرقات وجرائم وعامة بلا أخلاق- مع التمشيات الساحرة في محطة الرمل، وشراء البقالة من الأرمن واليونان والأحذية والحقائب الجلدية من الأقباط عند المستشفى اليوناني، حتى توردت، واكتسبت عادات مرحة جديدة، وصارت تدندن خلف الأغاني، وتتهاون في الزي، فترتدي ملابس قصيرة، ولأنها لم تجد هوى للعمل منذ طفولتها؛ لم تعمل في التدريس كما أهّلتها كلية البنات، واكتفت ببطالة البيت الهادئة، حتى التقطتها عين عريس محتمل.

كان اسمه درويش عبد الغني، وكان وكيل نيابة شابًّا، من معارف حسن الرُّز، وقد رآها في زيارة عابرة للبيت، ضيَّفهم فيها حسن الرُّز على فضائل السمك، فرأى أمينة طيفًا عابرًا في الصالة، فوقع فيها لفوره، وحسب حساب الأمر عمليًّا، فوجد أنها جميلة بالقدر الكافي ليتزوجها، ومهمة بما يكفي ليستفيد من تلك الزيجة، وكانت طريقة تفكيره العملية هذه تعود إلى سلسلة مباركة من أسلاف عملوا في تجارة البغال في دمنهور، حتى تفرد واحد منهم، وهو جده الكبير، عبد الغني شلباية، الذي استطاع حيازة ثقة محمد علي باشا عندما ورَّد بغالًا لجنوده تساعده في حملات التأديب في الدلتا والصعيد؛ فالباشا كانت له جملة شهيرة، يقولها بالتركية، يصف فيها سبب اختياره البغال بدلًا من الخيول: «البغال تؤدب البغال.»

صار من كبراء قومه في دمنهور، يملك مئات البغال الكافية للحرب، وقد غير هذا من دماء أسرته، عندما تزوج بفتاة شاحبة، لا تجيد عمل البيت ولا الفراش، ولكنها كانت ابنة لضابط ألباني حزين العينين، فغير من المظهر الريفي لأسرته من شفاه سميكة،

ورأس يشبه ثمرة القلقاس، وملامح غباء فطري كان يداريها بذكاء مذهل في الأرقام والمعاملات، وأضاف إليها البياض الألباني الشاحب والطباع الفاترة والعصبية الخراء. وقد ورثه درويش عبد الغني تمامًا، فاستطاع إقناع حسن الرُّز به؛ لأنه كان متمرسًا في طرق معاملة الناس على قدر عقولهم، فحكى له عن أصله الطيب البعيد، وعرض عليه صور بكوات عائلته، وقصصًا لم تحدث، رأى فيها جده محمد علي باشا الكبير بالقلعة وهو يدخن التُّنباك كما كان يحب، واستمع منه أن البغل هو دابة الشيطان المفضلة؛ لأنه مزيج غريب ما بين الحمار الحقير والحصان النبيل، ومع سمعته بصفته وكيل نيابة صارمًا، شارك في محاكمات ضباط انقلابيين وثوريين بلا ملة من منظمة حدتو، قال عنه حسن الرُّز: «مناسب تمامًا لأن يكون رئيس وزراء قادم.»

تقدم درويش عبد الغني لخطبة أمينة الرُّز رسميًّا في يوم شتاء، وفعل ذلك بأدب يخلو من أي أثر للعاطفة، التي تخيلتها مقدمة للزواج منها عندما تفتحت في الإسكندرية على هدي البحر وقصص بنات اليهود واليونانيات اللاتي يحببن على أنفسهن. كانوا في حفلة تحييها أم كلثوم، جلسوا على مقاعد متقاربة، وكان حسن الرُّز قد ضيَّف درويش عبد الغني بعد أن استمع لرأي سميحة المرسي التي قالت له: «أحضره كثيرًا؛ ينطبع في ذاكرتها، وتوافق عليه.»

كانت قد أدركت مبكرًا طبيعة أمينة الرُّز العنيدة والصلبة، التي تفوق طبيعة حسن الرُّز ورأسه؛ فكل سلبيات العناد التركي قد تركزت في تلك الفتاة الناحلة، التي تتحدث مع الخدم بسلطة طبيعية، وتبتسم باقتضاب في المحافل الرسمية، وتلتزم بالإتيكيت كأنها شبَّت عليه، وكانت تواجه ابتسامات الرجال، الذين يزورونهم في المنزل، على نحو طبيعي ولكن بحزم كافٍ يسد الطرق؛ فصورة حسين الرُّز كانت ماثلة أمامها بكل مساوئها، ورأت أن ما أسقط

درية عز الدين هو تساهلها في تلقي الإشارات، ما جعلها بغلة حقيقية في طريقة التعامل. ولأن سميحة تعرف أن أمينة الرُّز لن تحب إلا بالاعتياد؛ نصحت حسن الرُّز بإلصاق درويش عبد الغني بالبيت وكل المناسبات، حتى يتم المُراد، ولم تمنع نفسها من التفكير سرًّا في جماليات زواج أمينة السريع؛ لأنها كانت تخشى نمو الفتاة في بيتها، وتحولها إلى حماة متسلطة. ولم يرفض درويش عبد الغني الدعوة؛ تلقاها بحماسة، ودرس أمينة كأنه يدرس بغلة في زرائب جده الكونية التي لا نهاية لها، وتعامل معها على أن ما يريده يجب أن يطلبه بلا مماحكات، فاجتاز المسافة الآمنة يوم الحفلة، وقال لها: «أفكر فيكِ عندما أسمع تلك الأغاني يا مدموزيل أمينة.» ثم أضاف: «مع أن كلها كلام شعراء، والحياة ليست كذلك.»

أعجبتها جرأته ووضوحه، ورزانته في ميزان الشكل، فوجدته مقبولًا، رغم الصلعة التي بدأت تغزو رأسه وملامحه الصارمة، ولكن كانت مخففة بابتسامة مشرقة، تحول وجهه إلى وجه طفل خبيث النيات، وبالنسبة إلى وظيفته فقد سمعت حسن الرُّز يتحدث عنه أكثر من مرة، ويتنبأ له بمستقبل كبير؛ لأنه يمتاز بما يجعل من رجل القانون رجل قانون: بلا قلب، ووضع مكانه كتاب القانون.

أجابته بوضوح: «لا يجوز في الحفل. افعلها في البيت مثلما يفعل الجميع.»

هذه العبارة العادية سيستخدمها درويش عبد الغني بعد ذلك مسوغًا لسخرية سوداء. عندما كان يطلب الحب من أمينة الرُّز في بعض الأيام فتمتنع لأنها بلا مزاج، أو لأنها مشغولة بعملها، الذي بدأته بعد الزواج بعامين، موظفة في الأوقاف، وهو العمل الذي حازته في لحظة مفاجئة في وقت الثورة، فأهَّلها أن تضع يديها وأسنانها في قصص الملكيات العائدة إلى عهود بائدة ومآسيها، كان

درويش عبد الغني يتلقى الرفض فيقول: «أتاري كان كل شيء واضحًا منذ البداية. افعلها في البيت مثلما يفعل الجميع.»

تزوجا سريعًا، وأُقيم العرس في الإسكندرية في نادي القضاة، وأُخطِر حسين الرُّز ودرية، فقرر الذهاب مع أنه لم يُخطَر بالعريس منذ البداية، ولم يُسأَل في رأيه؛ وكان ذلك لأن درية عز الدين قد رققت قلبه بقولها: «لا تدرك شعور الفتاة في هذه المناسبات؛ تتسول أحيانًا أي أب أو أخ زائف ليقف بجانبها.» قُدِّم حسين الرُّز للعريس على أنه تاجر بطاطس، ولم يدرك درويش عبد الغني حقيقته إلا بعد الزواج، عندما ذهبا إلى القاهرة، فعدَّها غرابة من غرابات العائلات، وكان صمت حسن الرُّز عن قصة أخيه هذه دليلًا على عدم رضاه عنه، فعدَّها إشارة لتجاهله، ولكن الزمن سيجمعهما معًا في قضية مُلك اعتيادية، ستعيد إظهار حسين الرُّز بمظهر الذئب الشعبي المنفلت من زمام أسرة طيبة ومباركة.

عاش العروسان في الإسكندرية في البداية، وفُوجِئ درويش عبد الغني أن أمينة بغلة حقيقية ولا ترضى بحب الأزواج هذا، وتفضل عليه الخروجات والأحاديث عن كل شيء، بجانب حياة ربة المنزل الطبيعية، فطوَّعها بالصبر، ثم أدرك أن ذلك الأمر يلذ لها عندما تسبح في البحر، وتخرج منه بزي السباحة الأنيق والمحتشم، الذي تبيعه مدام لولو اليونانية في مشغل فينوس، فتحيَّن لحظات السباحة هذه. وبينما كان يكتشف عناد زوجته، حاز منصبًا جديدًا بتوصية من حسن الرُّز. وعند ذلك، قامت الثورة، فصار عضوًا بالمحاكمات الثورية؛ لأنه لاح نظيفًا بلا انتماء بعينه إلا إلى القانون، بينما حُيِّد حسن الرُّز واكتُفِيَ بالتعامل معه بحرص؛ لأنه كان ملكي الهوى والفؤاد، مع أنه أظهر ترحيبًا حذرًا بالتصحيح وتعديل المسار.

حسين الرُّز هو من رأى ما حدث في ضوء من المصائب السوداء؛

فمـع أن حياتـه كلهـا بـين النـاس في الشـارع، واكتسـب لسـانه رطانـة حكمـة اليـوم ومـا تعلمـه الطـرق ومـا يتنـدر بـه النـاس، ورأى الترحيـب الحقيقـي والشـائعات التـي تؤكـد أن كل مواطـن سـيأخذ مظروفًـا متخـمًا بالمـال مـن خزينـة الملـك الحرامـي وقطعـة أرض، لم يشـعر بالاطمئنـان؛ لأنـه كان يؤمـن مـن منطلـق تجربتـه الخاصـة أن قيـام ابـن النـاس بعمـل ابـن الشـارع خـير مـن قيـام ابـن الشـارع بعمـل ابـن النـاس؛ فرغـم معاناتـه مـن نفـي أسرتـه لـه، كان مشـهودًا لـه بالتعامـل المنظـم ومظاهـر الأفنديـة في شـغله، بينـما رأى المتسـلقين مـن التجـار وأولاد الكلـب، وكيـف ينقلبـون إلى تيـوس شر بـلا حكـم ولا كابـح. وكان صعـود الجيـش بالنسـبة إليـه إنـذارًا واضحًـا؛ لأنـه رأى كيـف بـدأ بعضهـم يتعامـل وهـو يبتـاع البطاطـس كبطـل أنقـذ البـلاد مـن الفسـاد. كان يخـرج في الشرفـة، فـيرى الدبابـات وعربـات الجيـب تحيـط بالقـصر، فيـشرب قهوتـه ويقـول: «الملـك كان عيـل ومهمـل، ولكـن بلا سـلاح.»

كان يذكـر، في ترسـبات ذهنـه البعيـد، قصـص جـده حسـن الـرُّز عـن حـركات الإنكشـارية في إسـطنبول الزمـن الأول، فـكان حسـن الـرُّز



يقول إنهم يسدون الطرق بحامياتهم، ويفرضون ضرائب صعبة، ويغيرون سير الأمور، حتى يتصارعوا مجددًا فيأتي إنكشارية جدد. وحكى حسن الرُّز الكبير المشهد المخيف والمعجز الذي رآه في طفولته: الشوارع وقد أغرقها الدم، ثم نزلت إلى البوسفور لتلونه بلون بني، وكان هذا وقت مذبحة الإنكشارية التي قام بها السلطان محمود، وتشبه مذبحة المماليك في القاهرة التي غطت الدرب القريب من القلعة بالدم ليُسمَّى الدرب الأحمر بعدها، وكان قد رأى كل ذلك يشرف على حمولة لبن مع أبيه، فقال الأب: «الحمد لله؛ لا خلاص من الجنود إلا بتلك الطريقة.»

ولكنه فُوجِئ بعدها بالظهور القوي لأتاتورك، فكان يقول، وهو في القاهرة، إنه يحمد الله على هجرته من البلاد قبل أن يلوثها إنكشاري جديد، ويحولها إلى بركة من الكفر.

لم تتأثر حركة البيع عنده، بل ظهرت أنواع جديدة من موظفين متحمسين، وموظفات سعيدات، يتحدثن عن البلاد التي عادت إلى أصحابها، ويذكرن قصصًا أسطورية عن قصور تُخلى من ساكنيها، والملك الذي هرب، فكان حسين الرُّز يسأل: «ومن سيكون جارنا الجديد في قصر عابدين؟»

فكان سؤاله يُفهَم أنه تهكم على حاكم مصر القادم، ولكنه كان يقصد الجار الفعلي؛ لأنه عدَّ الملك فاروق جاره الحقيقي والأقرب منذ سكنه مع درية عز الدين. لم تتأثر درية بما يجري، ولكنها تابعت انفعال حسين الرُّز بالحدث بسعادة، ورأته وهو يشير إلى الدبابات التي ظلت حول القصر، وستظل كذلك حتى زمن الزمن، حتى اكتشف حسين الرُّز ذات يوم أن القصر صار خاليًا، ويُستخدَم في استقبال بعض الضيوف المهمين فقال بجدية: «قلت إنه عصر نحس.»

تغير طبقة الزبائن هذا دفعه أن يتخلى عن إصراره على بيع

البطاطس المقرمشة، كما طور في وصفاتها خلال أعوام من العمل، وحدها ودون أي أنواع أخرى، مع عصير برتقال طازج، فأضاف السجق البلدي؛ لأنه وجد أن الزبائن صاروا يأتون وقت العصر بكثافة تفوق الصباح، وأغلبهم من الموظفين الجدد الذين ضمنوا وظائف مع تغيرات البلاد وظهور شركات القطاع العام المباركة، وقد تغيرت عينة الزبائن، فبدأ يسمع اللهجة الريفية واللحن الصعيدي بكثرة، كما بدأ حي عابدين نفسه يستقبل الصنايعية في البداية، الذين خرجوا من الأطراف إلى متن الحي نفسه، وعددًا كبيرًا من الطلبة والموظفين، قبل أن يأتي النوبيون بأسرهم مع التهجير وقت بناء السد العالي، لينقلب حي سيدة آخر، ولم يبقَ شيء على حاله سوى الميدان الذي تطل عليه الشقة، فكان حسين الرُّز يردد: «نطل على البحر ومن خلفنا المزبلة.»

رغم حسه الشعبي الأصيل، كان حسين الرُّز يكره الزحام والفوضى، كما كان يتعامل مع الزبائن بأناقة طبيب منذ بداية زمنه الأول: يرتدي مريولًا أبيض، بدله بعد ذلك بمعطف أطباء، اشتراه من محل قرب قصر العيني، ويصبغ شعره وسالفيه حتى لا يظهر المشيب الذي ورثه من حسن الرُّز الكبير، الذي يبدأ في الأربعينيات. ولذلك؛ كره فكرة الانفتاح الذي قامت به الثورة، ليصير الناس أكثر حماسة للخروج والفوضى. وعندما وظَّف عاملًا بجانب عويس، غير من زيهما المغطى بالمريول، وبدله بمعاطف أطباء أيضًا، فبان المطعم شعبيًّا بنكهة غربية، يثير السخرية أحيانًا، ويثير الشائعات حول نسبته إلى خواجة باعه إلى حسين الرُّز في لحظات الثورة، ويشبه حسين الرُّز أميرة في ذلك، التي حافظت على حبها للنظام، وأقامته في شقتها بلوران في الإسكندرية على سنجة عشرة، بينما كانت ترسل مظروفًا به مبلغ مالي معتبر إلى خادمات مجدات؛ حتى ينظفن شقة المبتديان، التي كانت تزورها وقت الأعياد، وتجلس فيها ببساطة وثقة صاحبة مكان، وتتأكد أن

حسين الرُّز لا يقربها، ولم يستمر معها منهن سوى رضا التي ستبقى معها حتى الألفية، وقد صمدت معها لأنها تميزت بخير صفتين تناسبان أمينة: الطاعة العمياء، ومساعدتها في معرفة أخبار الجميع، وهي جالسة في مكانها بالشرفة أو المطبخ؛ لأن الوجه الطفولي لرضا ساعدها دائمًا في نقل الأخبار والخوض المندفع في غمار النمائم، دون أن يشك فيها أحد.

لم يتأثر حسن الرُّز بالحدث كثيرًا، وإنما تلقى دفعة يأس عندما عُيِّن قاضٍ جديد، يصغره بعامين، في منصب رئيس محكمة، ففهم أن له علاقة بأحد الضباط الأحرار، ورغم ملكيته الصرفة، احتفظ داخله بالحس العملي الكافي ليقبل تغير الرياح، فخاض أكثر في دراساته الحرة بشأن العِرق المصري ومعنى الهوية والقومية، وقد لاقت تلك الدراسات هوى عند السلطة، فوصل إليه خبر سعادة عبد الناصر بها، ونجا من هبَّة السنهوري وما جرى لرفاقه ليصير ضمن رجال القضاء الذهبيين الذين يعملون من أجل البلاد أيًّا كان حاكمها، ولكنه لم يستفد الاستفادة التي حازها درويش عبد الغني، الذي أعلن تضامنه الكامل مع الحركة المباركة -كما أسماها- وانتقل سريعًا ليكون من قضاة المحاكمات المرهوبي الجانب، ومارس سلطة واضحة بحرية ممنوحة بالأمر المباشر لعظمة كبيرة، حتى كرَّمه عبد الناصر في العيد الخامس للثورة، وتلقى بعدها طلبًا بنقله إلى القاهرة ليشرف على محاكمات جنائية لا تنتهي لرموز العصر البائد وبعض مثيري الشغب من الشيوعيين والإخوان المسلمين.

عندما علمت أمينة الرُّز بخبر النقل، اشترطت أن يعيشا معًا في شقة المبتديان، وكانا قد أنجبا لطفي وحلمي حينها، فقال درويش عبد الغني:

- ولكنهم عرضوا عليَّ شقة في الإيموبيليا؛ عمارة أنور وجدي الأسطورية.

فحسمت أمينة الرُّز النقاش بقولها:

- أُقيمت عمارتنا قبل الإيموبيليا، ولن أترك البحر والإسكندرية إلا لأعيش في شقتي.

والحقيقة أن أمينة الرُّز ظلت على قلق دائم من طبيعة درويش عبد الغني؛ فمع التبدل السريع لآرائه بشأن كل شيء، شعرت أن به هوى للخيانة بدوافع عقلية بحتة، فكانت شقتهما في الإسكندرية، التي اختارت مكانها بنفسها، على مرمى شارعين من شقة حسن الرُّز، كما كانت تُذكِّره أكثر من مرة، في إفطارات الجُمَع الطويلة المتكاسلة، أن لأخيها مكانة كبيرة، وحتى لا يُلوِّح بمشكلة حسين الرُّز، كانت تقول: «وأبيه حسين استثناء يحدث في كل العائلات الكبيرة.»

كان قد اعتاد صلابتها وإهاناتها المبطنة هذه، ولم يسكت خوفًا منها، وإنما قلقًا من أن تطلب الطلاق؛ فقد ازدادت أمينة الرُّز جمالًا بالزواج، وصار لها مظهر أميرة مجهولة من الأسرة العلوية، وبانت هانمًا أصيلة تنازع هوانم لوران وزيزينيا مكانتهن، ولم تضع يدها في البيت منذ الزواج؛ فقد اشترطت عليه أن يضع خادمات تحت أمرها، واكتفت بإعداد وجبات تركية وبلدية تتقنها منذ أزمنة طهيها للسيد رمضان الرُّز، مع تربية لطفي ومن بعده حلمي ودر الشهوار، أو درة كما كانوا يطلقون عليها سخرية من اسمها الطويل الذي اختارته أمينة بعناد لأنه اسم الابنة الجميلة وحزينة العينين؛ الأميرة در الشهوار؛ بنت السلطان عبد المجيد العثماني، وكان ينصاع لها مع إدراكه لتحوله إلى رجل أصلع سمين، لا يجذب أحدًا، وتحولها إلى ملكة نحل متوجة. كانت تقول له أحيانًا، في لحظات غضبها، عندما يعاندها في شيء: «لست بغلة في زريبة جدك حتى تجبرني على شيء.» وكان يصمت حينها؛ لأن غلطه فيها سيصل إلى حسن الرُّز شخصيًّا.

لم يستطع مقاومة عنادها، فوافق على الحياة في شقة المبتديان، ولكن مع شرط واضح: تجديد الشقة حتى تناسب حياة أسرة مستقبلية كبيرة. فاشترطت أن تراقب التجديدات وتشرف عليها، ثم أصدرت حكمها في النهاية: «أنت في المحكمة طول اليوم، وأنا في البيت طول اليوم.»

انتقلا إلى الشقة بسهولة. ومع أنها خشيت عدم اعتيادها حياتها القديمة في السيدة زينب، بلا بحر ولا تقلبات مطرية كل شتاء، ولا نهار مغسول يتنفس بقوة مع أول فنجان قهوة سادة، يُشرَب أمام البحر، وبلا تمشيات سوق متباطئة، في حلقة السمك، لاختيار طاولة قريدس أو بوري، اعتادت سريعًا حياة السيدة زينب، فعادت إلى الجلوس في الشرفة الطويلة الدائرية التي تطل على شارع المبتديان الرئيسي، واستعادت حسها بالسعادة عند النزول إلى أسواق وسط البلد ومحالها، وصارت تأخذ قهوتها في الشرفة أو في جروبي كلما تيسر الأمر، وقد جددت الشقة، وغيرت في غرفة حسين الرُّز تمامًا، فباعت دولابه القديم، ومكتبته التي اشتراها السيد رمضان الرُّز أملًا في أن يصير طالبًا مجدًّا، ولكنها لم تستطع بيع ملابسه التي تركها في مكانها ولم يستطع أخذها معه، عندما ترك البيت في يوم نحس، فأرسلتها إليه في حقيبة حمراء، مع إحدى خادماتها الجديدات، ووضعتها جوار طاولة صواني البطاطس المقرمشة، فسألها حسين الرُّز:



- حقيبة قنابل هذه يا مضروبة؟

فقالت:

- ستي أمينة تقول لك هذا حقك.

كانت خطوة غير مدروسة، دفعت أمينة الرُّز ثمنها هي وحسين وحسن الرُّز لفترة طويلة بلا حل. فتح حسين الرُّز الحقيبة، فوجد أقمصته القديمة، وبناطيله التي فصَّلها السيد رمضان الرُّز عند جريجوري اليوناني، ولكنه لم يجد القماشة العثمانية التي كان جده حسن الرُّز يلفها حول خاصرته مثل كل تجار ذلك الزمن، وكانت منقوشة برسوم أوراق وحيوانات غرائبية، فعدَّها كارثة؛ لأن أمينة قد انتقت الثياب التي تراها صالحة له، وأخذت ما عدَّته حقًّا مشتركًا، نسيه مع الأيام. لم يكن يفكر مطلقًا في شقة المبتديان ولا السيدة كمنطقة نزاع؛ أطلق يده عنها منذ وقت طويل، وكان هوسه بملابس جده، الذي يمكن أن يكون سبب حبه للتجارة والعمل الحر، قد دفعه إلى جمع كل بقاياه وثيابه، حتى احتفظ بها في دولاب أيامه البعيدة. سأل الخادمة بهدوء عن مكان أمينة، فقالت إنها في شقة السيدة، فانتظر حتى انتهى من عمله، ثم ذهب إلى درية عز الدين، وباح لها بالضيق الأسود الذي يحرق صدره منذ الصباح، فسألت بهدوء:

- وما الذي تريده منها؟

فقال بلا تفكير:

- نصيبي الذي تخليت عنه في الشقة وفي الرُّز.

حاولت درية عز الدين إقناعه بالصبر، وقالت له إن الله يبارك في الميراث الموزع بلا نزاع، ولكنه كان قد أحكم رأسه، وجلس في الشرفة، ينظر إلى قصر عابدين المحاط بعربات الجيش فقال: «نسكت نسكت حتى يسجنونا في بيوتنا ويعطونا حقنا بالقطارة.»

يوم

٤

في يـوم حقيبـة النحـس هـذه نفسـه، ذهـب حسـين الـرُّز إلى شـقة المبتديـان مـع دريـة عـز الديـن دون إخطـار مسبق، وحاولـت الأخـيرة التعامـل بظرفهـا المعهـود، واسـتقبلتها أمينـة بحـب حقيقـي، ثـم سـألتها بجديـة إن كانـت سـعيدة، فقالـت دريـة عـز الديـن بمـرح: «لم أكـن أكثـر سـعادة مـن هـذا قـط.» واسـتقبلت حسـين الـرُّز بفتـور لم يتعـدَّ الحـدود، وراقبـت نظراتـه المتأملـة إلى مـا حـدث بالشـقة مـن تجديـد، فقالـت: «المستشـار درويـش كان يريـد الحيـاة في الإيموبيليـا، ولكننـي قلـت إن والدنـا أهـم مـن أنـور وجـدي.»

كانـت دريـة عـز الديـن تحبـه، وتـرى قصتـه مأسـاة مـن مـآسي الحيـاة؛ إذ اشـتُهِر عنـه أنـه دعـا بصـدق كافٍ في ليلـة شـؤم أن يهبـه الله المـال مقابـل أن يأخـذ منـه أي شيء، فأُصيـب بعدهـا بمـرض نـادر أوصلـه إلى المـوت، بعدمـا صـار الأكثـر ثـراءً في القُطـر، وصاحـب أهـم وأعظـم بنايـة في المدينـة. أخـذت سـيرته مسـوغًا لـسرد قصـص عـن المدرسـة ومـا يحـدث فيهـا، وحكـت عـن الظهـور المتكـرر لضبـاط يصـدرون تعليـمات بتغيـير الأناشـيد والأحـداث، واختصـار التاريـخ المـاضي كلـه لـسرد عظمـة عبـد النـاصر. كانـت تتحـدث بحـماسـة للثـورة، فخاضـت معهـا أمينـة الـرُّز الحـوار، وذكـرت المحاكـمات التـي يـشرف عليهـا المستشـار، وبياتـه أحيانًـا ليومـين في المـكان نفسـه، وكان حسـين الـرُّز صامتًـا طـوال الوقـت، حتـى جـاء درويـش عبـد الغنـي، فصافحهـم بمـرح، وسـأل أمينـة عـن الأولاد، فقالـت:

- نائمون منذ السادسة.

فقال:

- يستيقظوا ليسلموا على خالهم.

نظـرت إليـه أمينـة الـرُّز بغضـب، وأخرجـت ابنيهـا ليسـلما عـلى حسـين ودريـة، ثـم أمرتهـما بالدخـول وعـدم إزعـاج الضيـوف، فقـال حسـين الـرُّز عـلى نحـو طبيعـي:

- هم الآن ينامون في غرفة نوم الضيوف.

فهمـت أمينـة كل شيء في لمحـة واحـدة. ولأن الجـو كان قـد تـأزم؛ اقـترح درويـش عبـد الغنـي عليهـا أن تجالـس دريـة في الشرفـة، وتـترك الرجـال للرجـال. لم تكـن جلسـة حميميـة، رغـم محـاولات درويـش عبـد الغنـي المسـتميتة في سـد فجـوة كبيرة مـن عـدم التعامـل والعلاقـة الفاتـرة، وحـاول الحديـث عـن المطعـم، ثـم عـرج إلى السياسـة. وفي لحظـة اعـتراف نـادرة، قـال لحسـين الـرُّز، بخـط تفاهـم مرهـون بالفنـاء فـور الحديـث عنـه: «قلبـي معـك؛ أختكـما أصعـب بغلـة رأيتهـا في حيـاتي.»

ضحـك حسـين الـرُّز رغـمًا عنـه، وخـرج مـن حالـة الترقـب التـي سـادته منـذ دخولـه الشـقة، فاسـتمع لشـكواه باهتـمام صديـق، وتحـول درويـش عبـد الغنـي أمامـه إلى طالـب ذكـي في العمـل وفاشـل في الحيـاة، فقـال حسـين الـرُّز، وهـو يحدثـه عـن خبرتـه في التعامـل مـع الحريـم قبـل دريـة عـز الديـن: «وأنـا ناجـح في الحيـاة وفاشـل في العمـل؛ تقسـيمة ربـك.»

نصحـه أن يُظهِـر الاعـتراض القـوي في اللحظـات التـي تسـتدعي ذلـك، وسـمح لنفسـه ببعـض مـن الخبـث، فأخـبره أن الإيموبيليـا هـي المسـتقبل، وتناسـب منصبـه الجديـد، وأن أيـام السـيدة معـدودة، فحكـى لـه عـن أخـلاق زبائـن الزمـن الحـالي، ومـا يجـري في كل مـكان، أسـفل الطبقـة المخملية لوسـط البلـد، مـن عمليـات إقامـة عشـوائية لمنـازل بأيـدي مهاجريـن مـن الريـف والصعيـد، يحملـون شـعلة الثـورة المتقـدة،

ويرون أن المدينة صارت لهم. قال ضاحكًا: «كل واحد يقول: سيوظفني جمال.»

خلال الوقت نفسه، كانت أمينة الرُّز قد استدرجت درية إلى بقعة محرمة، وسألتها صراحة عن سبب تأخر الإنجاب، وأعلنت تفهمها الكامل إذا كان السبب أخلاق حسين وعاداته، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك؛ فالقصة أن درية عز الدين كانت لا تعرف السبب في التأخر؛ فقد حاولت بكل الطرق التقليدية، واستعانت بوصفات جدتها، ولم تخفِ عنها حبها لممارسات الحب اليومية بانتظام؛ لأنها تُقوِّم الحياة وتدفع الأمور إلى الاستقرار، وهو ما لم تفهمه أمينة الرُّز التي عدَّتها ألعابًا مبكرة سرعان ما تنطمس تحت العادة ومسؤوليات الحياة الزوجية. كان الأمر يضايقها، ولذلك؛ قالت لحسين الرُّز:

- لنذهب إلى طبيب نساء ونرى السبب.

فكان يقول لها بجدية:

- لا فارق عندي، ولا حماسة لي في إنجاب ابن أو بنت مبعدين عن جنة الرُّز.

لكن حذرتها أمينة من طرائق الرجال واختلاف أمزجتهم، ونصحتها بالسعي في الأمر، وقالت كلامًا غائمًا عن حب حسين الرُّز للنساء، وتوبته على يديها، حتى أتخمت درية عز الدين بكل ما قيل رغمًا عنها، وسارت ساهمة جوار حسين الرُّز، قبل أن يُفاجَأ بها تبكي في منتصف الليل، وهي تجلس في الشرفة وحدها، فسألها عن السبب، فقالت دون مقدمات ولا مواربة: «أخشى أن تتزوج عليَّ لأنني لم أنجب.»

لم يربط حسين الرُّز بين حالتها وجلستها مع أمينة، ولكنه عدَّ

ذلك بسبب الظهور المتورد والسعيد لابني أخته، فحاول تهدئتها بكلمات زادت من شكوكها، وذهب صباحًا إلى المطعم وهو يفكر في جدية رفع قضية على أمينة لأنها عاشت في الشقة دون إخطاره. وقد كان، ستُرفَع القضية في يوم أحد بتاريخ الخامس من أبريل عام ١٩٥٥، وستظل أمينة تذكر ذلك التاريخ باعتباره نكبة حقيقية طالت عائلة الرُّز على يد حسين، لتمحوه من قلبها تمامًا، وكان المضحك في الأمر أن درويش عبد الغني قد علم بالأمر عرَضًا، عندما أُرسِل إليه إخطار بعنوان المنزل، فتذكر جلسته مع حسين الرُّز التي لم يبح فيها بمكنون صدره من عزمه على اللجوء إلى القضاء، فضحك وقال: «آخر خدمة الغُز علقة! واضح أن تلك الأسرة من أصول تركية بالفعل.»

كانت قضية ميراث عادية، وقد أقامها حسين الرُّز بمساعدة محامي شهير، كان متخصصًا في قضايا الميراث والأوقاف التي زادت مع الثورة بسبب عمليات البيع السريعة، التي كانت تتم بجنون عن طريق باشوات وعلية قوم، تُكتَب فيها قيمة اسمية لعين ما، وتُنقَل ملكية العين إلى شخص آخر بلا أهلية، مع وصولات أمانة تقضي بإعادة الملكية عندما تذهب ريح الثورة والإصلاح، ولم تكن العين تعود إلى صاحبها الأصلي رغم ذلك، فيدخلون في سين وجيم، وظلت بعض القضايا معلقة هكذا بين المحاكم حتى نصف قرن، وكان المحامي، الذي اسمه جمال عبد الشهيد، محاميًا مسيحيًّا مجدًّا، جاء من أسيوط وهو يحمل هدفًا واضحًا: أن يصير المحامي الأكثر شهرة في القاهرة خلال ربع قرن. فحدد القضايا الخلافية بين أبناء أسرة شهيرة واحدة على قصر أو عقار بالزمالك، أو بين أبناء ممثل كبير، أو دفاعًا عن سفاحين مثل سفاح كرموز، رغم معرفته بعدم عدالة قضيته، وكان يؤكد عدالة ما يفعله أمام السماء، فيقول بحماسة وهو يقف في بهو محكمة ضاج بالناس والقضايا والمشكلات: «لقد

دافع المسيح عن مريم المجدلية وعن كل الخاطئين.»

جاءه حسين الرُّز بناءً على سمعته، وعرض عليه القصة، فقال جمال عبد الشهيد:

- القضية فيها أسماء كبيرة وعظم ثقيل.

فقال حسين الرُّز:

- يكفي اسمي يا خواجة جمال.

تلقى حسن الرُّز إخطارًا بالقضية الفضائحية في يوم بلا شمس في الإسكندرية، قضى نصفه في عطلة اختيارية على مقهى فاروق، يدخن التُّنباك، في عادة اكتسبها متأخرًا من قضاة أكبر سنًّا، ويتأمل الأوضاع السياسية مع قضاة زملاء، ووصله إلى البيت عن طريق مرسول من أمينة الرُّز، فسمع الخبر، وقال بهدوء: «لقد قطع حسين الرُّز صلة الرحم أخيرًا.»

لم تغير تلك القضية من إصرار أمينة على امتلاكها الشقة، وأخذت الإذن من حسن الرُّز في مواجهة القضية بجدية، فأخطرها بموافقته -مع الأسف- وذكر بصيغة أدبية أنه لن يتدخل في الصراع بسلطاته حتى تأخذ العدالة مجراها. في هذه الأثناء، تلقت أمينة الرُّز عرض توظيف في الأوقاف، من بعض معارفها الجدد من جاراتها في السيدة زينب، مع جلسة شاي أعدتها في شرفة الشقة. كانت قد ظهرت بينهن فجأة، بعد إغلاق الشقة لأعوام، سيدة ترتدي ملابس ملونة ومكشوفة، وتحمل معها ريح البحر. وعندما تعرفن عليها عن طريق صواني طعام مهداة في الأعياد، وحلوى وعلب جاتوه وكيك، عرفن أنها أمينة الطفلة التي كانت تحيا مع السيد رمضان الرُّز، فعاملنها بما يجب، وعددنها منهن، فأدخلنها في مجموعتهن غير المعلنة، التي تجمع السيدات من سكان السيدة والمنيرة الأصليين.

وأحبت أمينة هذا الدور الجديد؛ لأنها مارسته في الإسكندرية بمزاج طيب، مع جاراتها في لوران، وعدَّت شقتها بؤرة تلاقي، يستمعن لحفلات الست في ليالي الخميس، ويتقابلن عصاري الجُمَع للتجول في وسط البلد.

وذات يوم، عرضت عليها إحداهن -وهي ألفت الجنابي- وظيفة إدارية في الأوقاف، وكان زوجها، عاصم العلمي، من ضباط الصف الثاني في تنظيم الضباط الأحرار، ممن حازوا مناصب أقل في هيئات لا يهتم بها أحد، وكان يتميز بالمزاج الرائق ليقبل بهذه المناصب باعتبار أن من يقترب من الكبار يحترق. ولأنه كان طيبًا رغم صرامته، وتعاليه الخفيف عندما يلحظ الضعف في البعض، والتزامه بأناقة المظهر على نحو مبالغ فيه ولمعان الحذاء وكل فضائل منصب بلا أهمية؛ كان يحب إرضاء زوجته بجعلها تملك سلطة المجاملات لمعارفها فترشحهم له في ذلك الزمن الذي كانت الوظائف فيه أكثر من الموظفين، فقالت لها ألفت الجنابي: «يقول عاصم إن الرئيس يريد الوجه النسائي في المصالح التي يسيطر عليها الرجال.»

ثم شرحت لها مهام الوظيفة، وذكرت أنها مؤهلة بنجاح لصفاتها الحلوة في معاملة الناس بأدب ورُقي، وفضائلها كابنة ناس، كما أنها من نساء الثورة المجدات، فقبلت أمينة الرُّز بلا تفكير، وأعلنت ذلك لدرويش عبد الغني في المساء نفسه، وذكرت أنها ستوظف خادمة عندها مدى الحياة حتى تفعل ما تفعله الأمهات. ولأن درويش عبد الغني ظن أنها ستكون بحال أفضل لو انشغلت؛ قبل الأمر بسهولة، وقال لها بنبرة حاول أن يجعلها صارمة: «المهم أن تشرفي على تربية الأولاد؛ فتربية الدادة لا تفيد.»

بدأت أمينة الرُّز عملها إدارية في الأوقاف عن المناطق الخاصة بوسط البلد وقصر النيل والأحياء المحيطة، وكان عملها يتطلب

تنظيم أوراق ملكية، وتوثيق حيازات قديمة بلا صاحب أو مات أصحابها منذ عقود، واستقبال أصحاب القضايا المرفوعة على الدولة لاستعادة ملكية، وبحث التعويضات اللازمة.

ورغم التعقيدات الكثيرة في عملها، الذي لاح في البداية فرصة مناسبة لنقاهة صباحية تبعدها عن خروج الأولاد إلى المدرسة، وشعور الضجر الصباحي بخواء العالم، تشرب قهوتها في مكتب حسن التأثيث في قصر قديم من قصور وسط البلد، وتتبادل نمائم مؤدبة مع زميلات عمل جديدات أو قديمات، استطاعت مواجهة سيل المهام الذي نزل عليها بثقة خبير، وأظهرت جلَدًا واضحًا في ترقيم الحيازات المهمة، وتنفيذ التعليمات التي كان يصدرها رئيس الدائرة الخاصة بعملها، عاصم العلمي، حتى أُطلِق عليها لقب المرأة الحديدية، عندما واجهت أوراقًا مؤكدة من ابن غاضب لباشا قديم، تثبت ملكيته لنصف العتبة -ما ذُكِر بعدها في فيلم العتبة الخضراء- فنقبت في أرشيفات دار المحفوظات المتربة من أيام محمد علي، واستطاعت الاستعانة بخرائط قديمة، وأخرى حديثة مُرقَّمة بالإنجليزية، وعقود بيع وتمليك، حتى أثبتت حق الدولة في ملكية المكان منذ أيام الملك فؤاد، حتى قال عنها أحد وزراء تلك الأيام: «تحمل بذرة المحاماة والتقاضي من أخيها.»

كانت أيامًا عسلًا بالنسبة إليها؛ فقد استعادت لياقتها مع العمل، وصارت أكثر ميلًا إلى الاهتمام بنفسها، وارتداء أزياء على الموضة، بعدما اعتادت أهمية الزي من عاصم العلمي نفسه، الذي كان يشدد على هذا في براح عمله الفسيح الذي لا مشكلات فيه، كما أشرفت على أبنائها بالشوكة والسكين، وازدادت ابتعادًا عن درويش عبد الغني، ليُفاجَأ أنها صارت أكثر عنادًا وثقة وأبعد عن ألعاب الحب القديمة، وهو ما دفعه إلى اتخاذ قراره المتهور بالزواج بفتاة تصغره بعشرين عامًا، اسمها راجية السيد، كانت متزوجة بأحد وزراء

الوفد السابقين، ثم طلبت الطلاق عندما استدارت عنه الدنيا، وقد لفتته لمظهرها وحده؛ إذ كانت تشبه فتيات بحري التي كان يراهن قديمًا، في وقت شبابه ودراسته للحقوق؛ عيناها مكشوفتان، ولها طريقة سوقية في الحديث لا تخفيها بأناقتها الواضحة، وهو ما رآه بهارات لازمة لحياته الجدباء مع أمينة، وقد تعرف عليها في ظروف ملائمة، وأرسل إليها إشارات اهتمام بابتسامته الطفولية، حتى وجدها في مكتبه ذات يوم، بعد أن قدمت نفسها للسكرتارية أنها موظفة جديدة، ثم قالت بلا مقدمات: «وظفني عندك وستكون سيدي مدى الحياة.»

لم يكن يصدقها بحسه المتمرس في فهم الناس، ولكنه أحب طرقها في التقرب إليه، بلا مواربة ولا تفكير في العواقب، وكانت تفهمه من واقع زواجها مرتين، إحداهما بأفندي بالتعليم والأخرى بوزير الوفد المنحوس، فتعهدت له أن تظل بعيدة عن حياته. وظفها عنده سكرتيرة في النور وزوجة في الظل، واشترى لهما شقة في الإيموبيليا، بكل تكتم، ووضع عليها لافتة تذكر أنه قاضٍ في محاكم الدولة، وبدأ يقابلها هناك في ليالي الأحد الخاملة، حين لا أحد يتوقع الحب، ولا مراقبة حقيقية إلا من حارسي العقار، اللذين تعامل معهما درويش عبد الغني بسهولة. كان خائفًا في النهاية من حسن الرُّز، رغم خفوت سلطته مع رياح الثورة، ويدرك أن هبَّة منه كفيلة بتقويض سمعته إلى النهاية.

في هذه الأيام، لجأت درية عز الدين إلى الإنجاب دون أن تخبر حسين الرُّز. جربت شرب اللبخة المرة بعد ممارسات حبهما اليومية، التي لم يتوقف عنها حسين الرُّز رغم السن، وتناول سبعة تمرات صباحًا، وشراء طلح النخل من باعة الرطب، وإعداد حساءات من عظام الخراف، واستخراج البلوط الجيلاتيني من الكوارع، ثم استعانت بوصفات الدادات السودانيات المجربة، فزارت شيخين

لعمل زار سوداني، طارت فيهما حول كيان غامض، اكتشفت في إحدى المرتين أنه يغطي قدمًا مشعرة بمخالب، فسقطت صريعة الخوف والحب، وتناولت مساحيق ملونة، قادمة من أعماق السودان، ونذرت نذورًا لمشايخ مجهولين ومعروفين، حتى أُنهكت تمامًا، فقررت زيارة طبيب نساء شهير، للمرة الأخيرة، بعدما جربت سبعة مرات، فأخبرها، بعد فحوصات جافة وأسئلة بلا نهاية، أن العيب منها، فخارت قواها مرة واحدة، وهزلت، وبدأت تفقد روحها المرحة القديمة، ولاحظ حسين الرُّز ذلك، فسألها عن السبب، فقالت: «لا زواج يستمر من دون أولاد.»

ثم كشفت مكنون صدرها الأسود، فحكت قصصًا من أسرتها لرجال رضوا بالقسمة والنصيب في البداية، ثم تزوجوا على زوجاتهم للإنجاب، وسيدات وافقن على مضض، ثم طلبن الطلاق، وتحدثت عن العلم والتجارب، حتى محا حسين الرُّز كل تلك الشكوك فقال: «ليس هذا كلامك، بل كلام أمينة. لا تسمعي لها فهي مسممة.» والحقيقة أن حسين الرُّز لم يكن يفكر في الإنجاب قط، ويرى أن عدالته مع أبنائه أمر مستحيل. ورغم دفعات حب تهاجمه عندما يرى طفلًا صغيرًا يأتي ليطلب شطيرة سجق بحماسة أو يخطف قطع البطاطس المقرمشة، كان يرى فيه أمينة أخرى أو حسن آخر، فيقلب وجهه وينسى الأمر برمته.



ولكـن رغبـة استـقرار الـزواج هـذه لم تكـن رغبـة درية عـز الديـن الوحيـدة؛ فطبيعتهـا الأموميـة، التـي تكلـل بهـا طالبـات مدرسـتها، وتدفعهـا إلى القـراءة في كل الموضوعـات لتُـدرِّس لهـن، وتُعِـدَّ مـآدب طعـام مبتكـرة كل إثنـين، كانـت تفيـض في آخـر اليـوم، فتنقلـب إلى غضـب مـن توهـان جدتهـا في بحـيرة شـيخوخة راكـدة؛ إذ صـارت لا تسـمع ولا تفهـم شـيئًا، ثـم تبتكـر مشـاجرة مـع حسـين الـرُّز، تنهيهـا بقلبهـا الطيـب؛ لأنهـا كانـت تـدرك حقيقـة عـدم طلبـه للإنجـاب. كانـت تفكـر بقلـق -عندمـا يتأخـر في المطعـم- بشـأن الحيـز الزمنـي لنفـاد صبره، فتكتـب رسـائل لـن تصـل إليـه، تدينـه فيهـا لأنـه لا يتخـذ خطـوات جديـة، وتُـشرِّح ردود فعلـه العاديـة تجـاه أمـر مثـل هـذا، وتعـدُّه خدعـة رجـال كـما قالـت أمينـة الـرُّز.

حتـى فـاض بهـا الكيـل في يـوم أربعـاء كئيـب، احتفلـت بـه بعيـد ميلاد معلمـة مـن زميلاتهـا في بهـو المدرسـة، فـرأت شـيخوختها في ضـوء مـن وحـدة سـوداء، بـلا أحـد يعتنـي بهـا كـما تعتنـي بجدتهـا التـي فقـدت ظلهـا منـذ زمـن، حتـى قـررت الذهـاب إلى عشَّـاب شـهير، متخصـص في عـلاج كل الأمـراض بالطبيعـة، ويحـدد نوعيـة العـلاج بلـون البـشرة وطبيعـة النفـس، ويربطهـا بعنـاصر الطبيعـة الأربعـة، فعرضـت عليـه حالتهـا بـلا قلـق، وقـال لهـا فـور تقديمهـا نفسـها بصفتهـا معلمـة خبـيرة: «في النهايـة، حظنـا حلـو حتـى نـرى معلمـة متمكنـة عندنـا.»

أعطاهـا وصفتـين لليـل والنهـار، مكونتـين مـن أعشـاب مـرة، قـال إنهـا قادمـة مـن أرض طيبـة في الجنـوب، لم يمسـها بـشر، وحـدد طبيعـة دريـة عـز الديـن أنهـا مـن المـاء، طبقًـا لبرجهـا، فقـال إنـه يجـب أن تشربهـا مـع مغـلي مـاء حتـى تُحـدِث الأثـر المرجـو، ثـم شـيَّعها بابتسـامة طيبـة، ولم يقبـل المـال، وقـال: «ليـس لنـا في الدجـل، ولا أكسـب مـن هـذا مـن النـاس الطيبـين مثلـك يـا بنتـي.»

حاول حسين الرُّز معرفة السبب، حتى اضطُرَّ إلى أخذها إلى المشفى القريب في عابدين، ولم يحدد الأطباء هناك سبب معاناتها الصامتة، حتى فاضت روحها فجأة بعد أن استعادت لياقتها في يوم أحد لن ينساه حسين الرُّز أبدًا، وعُدَّت من وقتها سبب ضياعه الأساسي في مملكة هذا العالم.

كانت الأجواء رمادية حينها، في زمن ٥٦، كما يذكر حسين الرُّز: كان صوت عبد الناصر يتردد من كل مكان بصحبة أخبار العدوان الثلاثي، مع الموسيقى القلقة لإذاعة صوت العرب، على خلفية من غيوم كثيفة في شتاء غير أي شتاء؛ إذ أمطرت في القاهرة إلى الحد الذي أغرقت معه بيوتًا قديمة، عبرت عليها الشوارع الحديثة فصارت أبوابها بالأسفل، وأحدثت مشكلات في أحياء نظيفة، وغسلت مسجد السيدة، فضج المجاذيب حولها بالصراخ نشوة باللون الجديد الذي ظهر من خلف طبقات الرماد والتراب. وكانت المشاهد تلوح لحسين الرُّز بالأبيض والأسود، بطيئة وباردة، حتى شعر أن الغيوم لن تنقشع أبدًا. كان يتابع حديث الناس عن المعركة دون اهتمام، ويقول عندما يسأله أي أحد عن رأيه في تأميم القناة:

- هل ستجعل بريطانيا تدفع لي؟

فكان أحد المتحمسين يقول:

- بالدولار يا عم حسين.

فكان يسأل بجدية:

- تدفع لي أم تدفع للدولة؟

فكان الرد يأتي:

- وهل ثمة فارق؟!

فكان يقول بثقة:

- نعم، نحن شيء والدولة شيء آخر.

ورغم زيادة حركة البيع مع الحماسة والخوف العام، كان لا يزال طافيًا فوق مأساته الخاصة. كان قد خرج من قصة درية عز الدين بنصف قلب؛ فعندما ماتت، وسأل جدتها بصلابة عن موقع مدفنهم، قالت: «في السماء، مع سيدنا النبي.» لم تتذكر شيئًا بعد محاولات، وذكر أقاربهم مدفن والديها في الشافعي، ولكن حسين الرُّز أعلنها بلا تردد: «ستُدفَن درية معي.»

كتب إخطارًا إلى حسن الرُّز، متجاوزًا أمينة، ووصله يومها بالبريد المستعجل، فقرأه وهو في مكتبه، وقال بهدوء: «الله يرحمها. يكفي أنها تحملته.»

ثم زان الكلمات واحدة واحدة، واستمع لمشيئة قلبه، قبل أن يهاتف أمينة ليخبرها بما جرى. تلقت أمينة الرُّز الخبر بصلابة معروفة، وقالت سريعًا:

- أوصلها إلى تلك الحالة بسلوكه. الله يرحمك يا درية.

ثم قالت:

- ما رأيك أنت يا أبيه حسن؟

فقال:

- أنا قاضٍ، ويجب أن أحكم بالعدل، وقد صرت في الخمسين.

فقالت بثقة:

- وأنا راضية بحكمك.

وهكذا، أخطر حسن الرُّز حسين بموافقته على طلبه بدفن درية عز الدين في عين النساء في مقبرتهم القديمة بالغفير، ولكنه قال

بعدها بفتور، وهم في العزاء الذي أقامه حسين الرُّز أمام مطعمه، ولم تحضره أمينة، التي أعلنت عزاءً آخر في شقة الرُّز: «رغم كل شيء، نحن إخوة.»

هذه الكلمة، التي قيلت في وقت غير مناسب، وقصد منها حسن الرُّز تأنيب حسين الرُّز على قضية الشقة، رآها الأخير في ضوء المِنَّة، فحملها في قلبه صامتًا، وهز رأسه، ثم قال: «شكر الله سعيكم يا سيادة المستشار.»

بعثت إليه أمينة تلغرافًا على عنوان عابدين، واكتفت فيه بكلمات مقتضبة عن المصاب الأليم، تلقاه حسين الرُّز بلا اهتمام، وتركه على الطاولة فترة طويلة، حتى وجده بعد عامين وقد كسته الأتربة، عليه طوابع بريد، ففضَّه بحكم الحنين؛ لأنه تصور أنه أحد الخطابات التي كانت طالبات درية يكتبنها إليها بعد التخرج، ليتابعن معها أخبارها ويتحدثن عن زيجات سريعة تمت لهن بلا رغبة، أو طموح متقد في طريق واعدة، وكانت علاقته بأمينة وقتها قد وصلت إلى حائط سد، فأحرق الخطاب على نحو درامي، وأسقطه رمادًا من الشرفة، فرآه بعض المارة ولم يميزوا فيه سوى عجوز مخبول.

يوم

٥

هوى حسين الرُّز في الحزن رغمًا عنه، وحاول التفكير في المكان الذي سيسكن فيه فلم يجد؛ فمع سنوات زواجه الذهبية هذه، نسي أمر شراء شقة جديدة؛ لأنه وجد الأسعار غير منطقية من جهة، واعتاد حياة عابدين الهادئة، على هامش كل شيء، تطل على الميدان الخلاء والقصر الخالي، وكان قربه من السيدة يؤهله إلى المشي حتى المطعم صباحًا، والعودة منه مساءً، دون ركوب حافلة مزدحمة ولا الاحتياج إلى عربة، مع أنه كان يركب دراجة اشتراها في أول الخمسينيات من تاجر دراجات قريب، فكان يظهر فوقها، وهو يرتدي مريوله، مثل طاهية مجهول في مهمة عاجلة، ويثير النظر بمظهره المتأنق وابتسامته الصباحية وروح الذئب التي تنضح بملامحه، ومع قضية الشقة، كان متفائلًا إلى النجاح؛ لأنه مالك بالدم ووارث بحكم الحياة، وكان يحسب حسابات خاطئة بلا رب ولا هدى، تصور نصيبه، الذي سيقبضه عدًّا ونقدًا، كافيًا لشراء شقة جديدة نواحي عابدين، فكان يقول لدرية بسعادة: «نؤجرها ونحيا في هذه وترتاح الحياة.»

كان مكسبه من مطعم «درية والرُّز» جيدًا، ولكنه لم يدخر منه طوال عقود عمله، وكان يكتفي بتجنيب جزء للتجديد، فجدد المطعم مرتين، وكانت المرة الثانية وقت الثورة، عندما أدخل السجق وطاسات قليه الخاصة. كان يصرف المكسب كله على أقمشة ملونة تحبها درية عز الدين، وأقمصته المنشاة ومريولاته، وخروجاتهما إلى السينما والمسارح المنتشرة، كما اكتسب حينها العادة الغريبة في شراء الكتب القديمة، أو عين التراث كما يسميها، فابتاع مجموعة «الحيوان» للجاحظ مثلًا، وكان يقرؤها باهتمام بما تيسر له من لغة، ويبحث عن أشباه الحيوانات التي يقرأ عنها بين البشر، ويُضحِك درية من تشبيهاته التي يرددها بتصميم، وهو الوقت

نفسه الذي نجح فيه حسن الرُّز في شراء شقتين إضافيتين بعمائر فاخرة في الإسكندرية، تطل على البحر، وعربتين، واستطاعت أمينة تكوين ثروة خاصة تجدد بها دم شقة المبتديان، وتوظف كتيبة من محامين محبين لحسن الرُّز أو خائفين من علاقات درويش عبد الغني بالثورة، حتى يدحضوا قضية الشقة، التي لم تتوقف أبدًا؛ لأن حسين الرُّز، ورغم ثقب يده المفقر هذا، كان يوظف محاميًا جديدًا كل ستة أشهر وفي قضايا مختلفة الأسماء، تحوم كلها حول حقه الذي سيأخذه حتمًا.

لم يستطع أن يرى الشقة شقته عندما ماتت درية؛ كانت قطعها منتشرة في كل مكان، وجلساتها الرائقة في الشرفة حاضرة أمامه. ولأن جدتها لم تدرك ما جرى بالقطع المتبقية من عقلها؛ صارت تعامل حسين الرُّز على أنه ابن مفقود لها، أو قريب قديم. ولأنه كان حزنًا كثيفًا، له ملمس وأثر، ويتجلى على هيئة دموع تطفر بين الحين والآخر، كان أغلبها عندما يستمع لأغنية «يا ظالمني»، ثم صارت بعدها مع أغنية «حب إيه»، التي كان حسين الرُّز يعدُّ بدايتها الحانية الحزينة موسيقى مناسبة لحياته، ويتذكر معها درية عز الدين في هالة مثالية تتوجها ربة على الجميع؛ حاول إقناع نفسه بأنه لم يحبها يومًا، وإنما اعتاد وجودها، فهوى مجددًا في خيالات فتاة الحمام القديمة، وبدأ يتابع الفتيات اللاتي يدخلن المطعم بلا كابح، مع شعور عارم بالذنب ينتابه كلما عاد إلى المنزل.

وعند هذا الحد تحديدًا، بدأ يكتسب العادة السيئة في السهر بالخارج لفترة طويلة، وتحول إلى ذئب متمرس في العزلة، يذهب بعد المطعم إلى درب المهابيل حتى يتناول البوظة الأصلية، من قصعات خشبية متآكلة، أو يتجول في وسط البلد بمظهر مثير للفضول، يتلقى عروض الحب المسائية من فتيات يرتدين أزياء بنات الناس، ويبتسمن بأدب ويطلبن إشعال سيجارة، وانهوس

حينها بزيارة المكتبات القديمة، حتى عثر على موسوعة «ألف ليلة وليلة» في الطبعة البولاقية من تحقيق الشيخ قطة، فبدأ يقرؤها في لهفة، ويحاول الوصول معها إلى حقائق تخالف حقيقة حياته وحظه السيئ، قبل أن يجد فتاة سمراء صغيرة، تجاوزت الثامنة عشرة بالكاد، تدخل المطعم في يوم بلا هدى، وتنظر إليه مبتسمة، تحاول إظهار شعرها الذي لونته بماء النار ليظهر بلون أشقر كاذب على صفحة وجه أسمر.

غازلها بطريقته كما كان يفعل قديمًا، قبل زواجه من درية، بعدد إضافي من البطاطس على طلبها، أو ترديد كلمات أغنية مشهورة، ثم بان لها صلبًا بلا قلب في اليوم التالي، عندما شعر أنه يكمل طريق ضياعه القديم، حتى سقط بالكامل عندما سمعها تناديه بعد نهاية يوم عمل في العصر، خرج منه ليكمل جولاته السوداء هذه، ففتش عنها بعينيه في عتمة الزقاق الجانبي، وتذكر شعور تخبطه القديم في لعبة الاختباء. وجدها تقف بجوار شجرة البونسيانا القديمة في الزقاق، فسألها بجدية عما بها، فبكت، وقالت: «لا أحد لي هنا منذ الآن.»

كانت قد تعلمت من نسوة تل العقارب القريب أن الرجال يستسلمون عن طريق الدلال أو الدموع، وقد قالت لها الست معالي ذلك؛ إذ خبرت صنوف الرجال من عملها بالقوادة في أزمنة قديمة، قبل أن تزورها السيدة زينب في الحلم، وهي ترتدي سبحة خضراء ضخمة فوق عنقها، فأعطتها لها وقالت:

- لكِ يا معالي.

فلم تستطع حملها والإمساك بها؛ لأنها تتقد بسخونة ليست من هذا العالم، فقالت:

- سُخنة ومولعة يا ستنا!

لتبتسم السيدة زينب وتقول:

- لا يحدث هذا إلا لفعل سيئ، فانظري ماذا تفعلين.

تابت بعدها الست معالي، ودخلت حياة الحلال بامتهانها تنظيف الكرش والسقط والكوارع وبيعها في المذبح، ولكن طبيعتها الحامية، ووجهها الذي ما زال يحمل أصباغًا لا تراها سوى عين جريئة، وجسدًا جاهزًا للقتال، أهلتها لتدخل صراعات الظل التي تقوم كل يومين في المذبح على أي سبب، ثم أعلنت تبرعها بمساعدة من يضربهن أزواجهن أو من لا ظهر لهن، حتى سُمِّيَت بأم الضعفاء؛ لأنها أثبتت جديتها في الدفاع بلا سؤال. كانت تقعد في مجلسها الشهير عند قصَّاب كبير اسمه حنفي الأحمر، تنظف الكوارع وتحرق الشعر فوق موقد كيروسين، وتشرب الشاي بيد، ثم تترك يدها الأخرى حرة لتعمل وتهدد وتحرك العالم، فكانت صاحبة الشكوى تأتيها، فتقول لها عندما تلمح خوفها من المظهر السلطوي لامرأة استثنائية: «لا تخافي يا بنتي، أنا أمكِ.» فتنصت لها بلا مقاطعة، بينما تسلم على المارة دون أن ينقص ذلك من تركيزها، ثم تنهض وتقول: «أشيري بمكانه ابن المفترية هذا وسأنيكه.»

وعلاوة على ذلك، كانت تساعد الفتيات بنصائح تخص الإمساك بالرجل وتخضيعه، استنادًا إلى خبرتها القديمة في الحرام. كانت الفتاة السمراء الصغيرة، ذات الشعر الأشقر المموه، اسمها لمبة بطاح، وقد أسماها أبوها الصعيدي بهذا الاسم لأنها وُلِدت عندما دخلت أول لمبة إلى قريتهم في الجيزة، لتشتت قرونًا من الظلام. ولأنه كان أبًا قاسيًا، يضرب بناته الخمس بلا قلب، ويحبسهن في البيت بانتظار عرسان من القرية نفسها، حتى يتخلص من العدد الكبير؛ لأنه كان يعمل في أعمال البناء، ولا يجد ما يكفي لسد الرمق سوى الفول ليل نهار؛ هربت لمبة بطاح ذات صباح، وظلت تركض

وحدها، حتى وصل بها القدر إلى السيدة زينب استنادًا إلى حكايات جاراتها من فتيات مظلومات ذكرن لها أن مقامها هو المكان الآمن الوحيد في القاهرة. هناك، التقطتها عين خبيرة لسيدة نوبية، فسألتها عما تفعله، فقالت وهي تبكي:

- لا شيء، أنتظر رحمة ربنا وستنا.

فقالت السيدة النوبية:

- وقد أرسلتني ستنا لآخذك عند ستنا.

ذهبا إلى الست معالي في المذبح، وقدمتها لها السيدة النوبية ابنة محتملة، فسألتها بثقة:

- حرام ولا حب؟

فلم تفهم لمبة في البداية، فقالت الست معالي:

- أقصد هربانة من ابن حرام ولا من ابن حلال؟

فقالت لمبة:

- من أبويا.

فتحت لها قلبها سريعًا، فطيبت الست معالي خاطرها بكلمتين، ثم وظفتها عندها منظفة كوارع وسقط، وأعطت لها غرفة خشبية، ضمن غرف أخرى تمرح بينها فئران بحجم جراء كلاب، وعِرس وحنشان تظهر صيفًا بطول غير متوقع وعينين حمراوين، فاعتادت لمبة حياتها مع فتاة أخرى اسمها هنومة، والاستحمام وقضاء الحاجة في الحمام الصغير المشترك، الذي أقيم من الخشب، مثل الحمام الذي رآه حسين الرُّز في طفولته البعيدة. حريتها هذه، وخاصة مع إهدار أبيها دمها ثم نسيانها تمامًا، جعلتها تتساهل في التجارب، فانبهرت بقصاب شاب اسمه دياب، أخضعها بابتسامات مشرقة في

الفجر، عندما ينهي تقطيع عجل بتلو، ثم يستخدم الختم، الذي يؤجره القصابون من متعهدين في الإدارة البيطرية، يختمون به أجساد العجول بلا ضمير، ويضعونها في عين الشمس، لتعلن عن صلاحيتها، فكان يعطيها الكوارع والكرشة والحلاوة والجواهر، ويقول لها: «العالي من عند معالي يا رب.»

فتضحك وترحل سريعًا، حتى استطاع إقناعها بمقابلته في شقة صغيرة بالسيدة، يؤجرها عجوز قبطي للحب السريع، كفندق محبة خفي، فذاقت معه الحب، وصارت معلقة بالشقة الكئيبة، تذهب إليها كل ثلاثة أيام، حتى لاحظت الست معالي توردها الواضح واستدارة صدرها، فقالت:

- هل فعلت شيئًا مع أي أحد؟

فقالت لمبة:

- لا.

فقالت الست معالي:

- تكذبين. لو تعجبتِ لقُلتُ بريئة، ولكنكِ نفيتِ سريعًا.

أخبرتها عن دياب، فقالت لها إنه من صبيان المعلم عنتر، أُمسِك مرة وهو يراود طفلة عن نفسها، ومتمرس في الخناقات، ويسوق الهبل على الشيطنة، وإنه خدعها حتمًا، ثم قالت، مع أن لمبة لم تحكِ لها شيء عما جرى: «ما دام ذهبتِ برجلكِ فلا رجل لي للدفاع عنكِ يا روح أمكِ، ولكن حقكِ عندي وسيُرَدُّ بإذن الله.»

راقبتها بعدها، واكتشفت ذهابها إلى تلك الشقة، فذهبت ذات يوم إلى دياب، وأخبرته بلا مواربة أنها ستخبر معلمه، وذكَّرته بعملية الإخصاء التي أجراها ذات يوم لمجموعة من صبيانه، عاكسوا زوجة المعلم برعي، فهز رأسه بقلق، ومحا لمبة من قلبه، ولكن

الأخيرة ألحَّت عليه بالزيارات، حتى قال ذات يوم بغضب: «يلعن أبو التناحة!»

بكت يومها بحرقة كما لم تبكِ من قبل، واحتضنتها الست معالي كأم متفهمة، وقالت لها: «لكل واحدة منا تجربة تُعلِّمها، وقد جربتِ مبكرًا.»

صارت لمبة بطاح بعدها فتاة بعينين مفتوحتين، تراقب ما يجري حولها بهدوء، ولا تخضع سريعًا لمماحكات القصَّابين وصبيانهم، حتى سمعت ذات يوم بعملية إخصاء دياب خلف زريبة الجمال من خلال معركة سريعة، فنظرت إلى الست معالي، فقالت: «للسيدة زينب جنود، وقد اختارتني وذللت لي الصعاب لأستعيد الحقوق.»

ظلت في ريح الست معالي منذ ذلك اليوم، تخبرها بكل ما تفعله بلا خجل، وبالرجال الذين يعرضون عليها الحب، فكانت تؤكد لها: «رجال المذبح لا يجيدون التعامل إلا مع البقر والجاموس. لا أمل فيهم.»

كانت في داخلها نار متقدة للحب، ورغبة في إيجاد من يعوضها عن أبيها دون أن تدري، لذلك؛ انجذبت إلى الرجال فوق الأربعين، بعد الشباب الذين يحملون الذبائح فوق العربات الكارُّو، ويصرخون فرحين وهم يضربون خيولهم في مسابقات ظل بشوارع المذبح، في صباحات الأربعاء، حين يوم الذبح الكبير، فانجذبت إلى قصَّاب اسمه نور الدين، كانت له عين تالفة ولسان ينقط الشهد، ويُعَدُّ من أول من ارتدوا أقمصة في المذبح بدلًا من الجلابيب. ولأنه كان متخصصًا في ذبح الثيران ذات اللحم الجالس، ويعرف الفروق بين أنواع اللحوم؛ حاز ثروة سريعة، وتزوج مرتين، أخراهما من فتاة تصغره بعشرين عامًا، وذلك كله جذب لمبة بطاح، التي شعرت برغبة عميقة في التحدي والإمساك برجل محاصر، فلفت حوله

بطريقتها الخاملة، وتلقى إشارتها بسهولة، فتعامل معها بجفاء، فُوجِئت أنه زاد من انجذابها ناحيته، كأنها تكرر سيرتها مع أبيها، حتى بدأ يلين عندما أحس بسقوطها الكامل، فقال لها وهو يمسك برأس ثور بقرنين طوال مثل ليلة سوداء: «لست بقرون، وبمزاجي.»

رأته رجلًا حقيقيًّا وليس بخفة الشباب، وآمنت منذ ذلك الحين بالفكرة المشوهة بأن الرجال الحقيقيين عندهم جفاء طبيعي، حتى وقعت في مشاجرة صباح كارثية، أقامتها زوجته الثانية، التي باتت شبه طفلة، بحركات أطفال في شارع من الصراعات، ومعها مجموعة صغيرة من طفلات نصف ناضجات، ولم ينقذ الموقف سوى تدخل الست معالي، التي شخرت شخرة هزت أرجاء المذبح، ثم سمحت لنفسها بمعاقبة لبة بطاح، فأمسكتها من شعرها، وقالت:

- كلامي مسموع يا بنت المرة الوسخة ولا لا؟!

فهزت لبة رأسها وهي تبكي وتردد:

- الله يلعنك يابا.

هدأت الأمور بعدها، ومُنِعت لبة بطاح من جولات جمع السقط والكرش من القصَّابين، فمكثت جوار الست معالي، تنظف وتكشط، وتحضر الإفطار صباحًا، وكان ذلك عندما اكتشفت الظهور الجميل لحسين الرُّز في مطعم «درية والرُّز»، خلف البطاطس المقرمشة، ومع عويس الصعيدي والشاب الآخر، بمعاطفهم البيضاء النظيفة، فتأملته بوجل كأنه قادم من عالم آخر، ولم يلتفت إليها قط؛ فرغم سمعته التي ترددت بأن له نظرات محرقة وكلمات جميلة، قيل إنه متزوج بهانم، وهو ما رفع سعره في سوق الرجال، فصارت تستمتع بمراقبته كلما ذهبت صباحًا. وقلقت الست معالي

من خضوعها هذا، فقالت لها: «من تحبين هذه المرة؟ المرة المقبلة سألقي بكِ للكلاب!»

رغم ذلك، لم تفعلها أبدًا؛ فقلبها الطيب، وعلاقتها غير المنقطعة بالسيدة زينب، دفعاها إلى الإيمان بحقيقة دورها كأم للضعفاء بما فيهم من خسة وخنوع وضعف واهتزاز. ذات يوم، جاءتها فتاة من العاملات معها، مارست الحب مع قصَّاب شاب، كما يحدث كثيرًا، وكانت تبكي لأنه لفظها بعد ذلك، والمشكلة أنه كان صبيًّا لمعلم من الذين تكرههم الست معالي، بينهما ما صنع الحداد، ولكنه كان غشيمًا لا يراعي حرمة النساء، ويصارع أي أحد في أي وقت، لذلك؛ شعرت الست معالي بالضعف لأنها لن تستطيع مواجهته، خاصة مع سذاجة فتياتها، فطردت الفتاة، وقالت: «يخرب بيت الهُبل على المناييك.»

ليلتها، حلمت أنها تحاول حمل وزنها الثقيل والركض لدخول مسجد السيدة زينب للحاق بصلاة الفجر، ولأنها لم تستطع؛ رأت رجلًا عجوزًا يرتدي أزياء المريدين المبهرجة وعمامة خضراء كبيرة يخبرها أن الباب سيُغلَق لأنها سمينة، فقالت في الحلم: «ولكن السيدة لن ترميني في الشارع!» فقال لها الرجل: «من لا يرحم لا يُرحَم يا مرة يا قارحة.»

فقررت بعدها استعادة الفتاة، وعدم المعاقبة بالطرد، واللجوء إلى طرق أخرى مثل السحل والضرب وحرق الشعر وقرص الأثداء.

لم تخبرها لمبة بطاح بما تشعر به ناحية حسين الرُّز، واكتفت بكتمان أمر هذا الانجذاب الطائش، فبدأت تراقبه، وخمنت من أحاديث نميمة مع خادمات يأتين صباحًا لشراء الشيبسي الشعبي هذا أن ذوقه يأتي على الهوانم، وعرفت أن أغلبهن بشعر أشقر، فقررت صرف ما تأخذه من الست معالي يومية على صبغ شعرها

عند كوافير اسمه حلمي الأفرنجي، يقوم بأعمال الصباغة والتلوين في استديو صغير في المبتديان، ويضع صور ممثلات مصريات وملصقات من أفلام جانبية، فحوَّلها تمامًا، وبانت كورطة شقراء في المذبح، فنظرت إليها الست معالي بغضب، لتُضطَر لمبة بطاح إلى فتح قلبها والتحدث عن حسين الرُّز.

استمعت لها الست معالي بتركيز، ثم ضحكت بعد أن راق دمها، وقالت:

- أعرفه؛ أنور وجدي المبتديان.

ثم قالت:

- لو وقع فحلال عليكِ، أنا كأم لكِ أبارك خطواتكِ يا عزَّة.

ونصحتها أن تواجهه مرة واحدة، وتلفت انتباهه إلى احتياجها إلى مأوى، لترقق قلبه. فلما سألتها عن مصير زوجته، قالت الست معالي بثقة:

- كل رجل له زوجة ثانية في هذا الزمن.

والحقيقة أن وقت الأحداث نفسها كان درويش عبد الغني يتمرغ في حياة زوجية عسلية مع راجية السيد، التي كتب عليها عند مأذون شرعي شهير، وطلب منه الكتمان حتى لا يثير الصخب، فكان يبيت عندها ليلتين في الأسبوع، ويشهد معها الحب الذي أراده، فقال لها ذات يوم:

- كان جدي تاجر البغال عنده حق: قال إن المرأة الذكية تحول زوجها إلى بغل.

فكانت راجية تقول:

- لا تقُل ذلك عن نفسك يا سبع القضاء.

ولم تكن أمينة الرُّز تشك في ما يجري؛ فقد انشغلت تمامًا بدورها الجديدة كإدارية في الأوقاف، فخاضت في بحار قضايا الميراث، وتكشفت لها خريطة موازية لمدينة من الأعيان والباشوات، تآكلت بعد الثورة، ولكنها ما زالت تحتفظ بقوة الظهور من أسفل الأنقاض. عرفت علاقات النسب بين الجميع، وحددت بنات أسر بعينها كزوجات مستقبليات لحلمي ولطفي، وكانت من الظرف الكافي لتتفهم بكاء سيدة مات زوجها الباشا، وتقلبت عليها الأيام، وتواجهها بنعومة، وتتحدث معها عن تغير الأزمان، ثم تصل معها إلى اتفاق تضمن معه حق الدولة، بلا قضايا، وعلى نحو يدفع السيدة إلى شكرها، وإقامة علاقة حقيقية معها، فتزورها في ما تبقى لها من أملاك، وتطلع عن قرب على بقايا عظمة آفلة، وتستمع لاسمها وهم يتبعونه بلقب هانم، فتهوي في قصص عن الجد التركي، دون ذكر مهنته، وعن أخيها حسن الرُّز، ثم تعود إلى البيت وقد حملت معها معلومات تكفي إلى يوم القيامة، تكفيها للتحكم في مجالس النميمة مع جاراتها.

لم يكن لديها وقت لاستكشاف ألعاب درويش عبد الغني مع راجية السيد، وكان توردها الطبيعي كسيدة مجتمع قد أعطاها قلبًا قويًا، فاكتشفت أنها لم تحب درويش عبد الغني مطلقًا، وأنها أرادت دائمًا أن تحيا وحدها دون رجال، إذا استطاعت، لولا رغبتها في أن تصير أمًّا، وكانت رغبتها هذه لأنها أرادت أن تمتلك عزوة من أبناء وبنات تُخرِجهم أطباء وطبيبات، حتى تتفرع أسرتها تفرعًا جديدًا بعيدًا عن القضاء في أسرة الرُّز، وقد استماتت في هدفها هذا، فكانت تذاكر لحلمي ولطفي بنفسها، وتتابع مع المدرسين بصرامة، تذهب إلى المدرسة في عربة الأوقاف الخاصة، فتنزل كأنها ربع جنرال، معها جندي ناحل ينتظرها على الباب، وتدخل بأناقة لتتفقد أحوال ابنيها، وكانت تردد بجدية، عندما تلاحظ تزلف المديرين والمعلمين:

«لـو لـزم الأمـر ضربهـما حتـى يتأدبـا فلتفعلـوا؛ هكـذا علمنـا سـيادة الرئيـس، الـضرب بحديـد مـن أجـل التقويـم.»

والحقيقـة أنهـا كانـت متناقضـة في موقفهـا ناحيـة الثـورة ككل؛ فمـن ناحيـة تـرى أنهـا رفعـت طبقـات مـا كان لهـا أن تُرفَـع، وزودت الزحـام في القاهـرة، وكانـت في ذلـك تخشـى مـن صعـود مفاجـئ لحسـين الـرُّز، يعطيـه قـوة إضافيـة تفـوق قـوة عينـه المكشـوفة، أو انقـلاب داخـلي يطيح بسـلطة درويـش عبـد الغنـي، فكانـت تُحمـي صلابـة قلبـه في المحاكـمات التـي لا تنتهـي، والتـي ذكـر أنهـا سـتصل إلى يـوم الديـن، وكانـت تفعـل ذلـك عندمـا يأتيهـا فيذكـر شـعوره بالحـزن عـلى وزيـر قديـم مـن الوفـد فقـد هيبتـه، أو مجموعـة مـن الكتَّـاب والمثقفـين الذاهلـين، الذيـن يقفـون أمامـه في الظـلام مرتعديـن، لا يدركـون حقيقـة شيء، بعضهم مثَّـل أدوارًا في مسرحيـة «ماكبـث» لشكسـبير عـلى مـسرح كئيـب بجامعـة القاهـرة بتمصـير واضـح، وجعلـوا ماكبـث يسـكن في قـصر القبـة، فقـال أحـد الجالسـين، وكان أسـتاذًا جامعيًّـا يتبنـى أفـكار عبـد النـاصر بامتيـاز: «يُشـبِّهون الزعيـم بماكبـث؟!»

قُبِـض عليهـم مـرة واحـدة، وعُذِّبـوا واحـدًا واحـدًا، حتـى اعترفـوا بعمالتهـم لباشـوات قدامـى وأمـراء مجانـين مـن الأسرة العلويـة يراسـلون الملـك السـمين الـذي يتحلـل بالطعـام في إيطاليـا، وهـي كلهـا اعترافـات وتهـم هزليـة، ولكـن درويـش عبـد الغنـي وقَّـع بنفسـه قـرار إحالتهـم إلى المعتقـل بالكامـل بتهمـة قلـب نظـام الحكـم، فكانـت أمينـة تقـول لـه: «شـعب عـدده كبـير ويحتـاج إلى يـد حديديـة لتنظيـم أمـوره، والتخويـف واجـب في هـذه الحالـة.»

كانـت جمهوريـة جـدًّا في هـذه الحـالات؛ وسـبب هـذا حبهـا لمـا جـرى للمـرأة مـن تغـيرات واضحـة؛ إذ صـارت أكثـر قـدرة عـلى التحكـم في حياتهـا، والخـروج إلى العمـل، وهـو مـا عانـت بسـببه مـن أجـل أمهـا

الطيبة، التي عاشت وماتت في شقة المبتديان -ستكتشف بعد ذلك بنصف قرن على الأقل أنها عاشت في الشقة نفسها طوال عمرها وستموت فيها مثل أمها تمامًا، ولكن التغيير الوحيد هو أنها نزلت الشارع وضيعت راحتها، مع الاشتراك في كل شيء- وكانت تحب حالة السعادة النسائية التي جاءت مع ريح الثورة بعادات التسوق من بضائع كل الأماكن المؤممة بأسعار مناسبة، والتموين، ونظام المعاشات والتأمينات، ووجود منفذ شهري في حفلات الست، وظهور الست نفسه بمظهر امرأة قوية واثقة تدير فرقة من الرجال.

جعلها هذا في توتر دائم من تقييم الثورة بالكامل، وزاد على ذلك دخولها الأوقاف، وعلاقاتها مع طبقة لم تنتهِ من الباشوات، فصارت بلا هوية واضحة، تنتقد أحيانًا التعامل العنيف مع الماضي وأولاد الناس، وتتأثر برائحة العظمة في أثاث فرنسي وبيانو كبير بحجم السماء في قصر ما، ولوحات لباشوات مجهولين، وتقول وهي تشرب فنجان قهوة، ناصبة قامتها كما يقضي الإتيكيت: «كان جدنا يضع لنا أقراص الرومي صباحًا فوق الطاولة مع سكين ويقول: تُؤكَل مع الشاي. هكذا فعلنا في قريتنا ريزا.»

ثم تسترسل في سرد قصص خيالية عن ملكه الكبير هناك، وخسارته الهائلة عندما احترق قصره. وما لم تفهمه أن سيدات هذه الطبقات كن يشعرن بحقيقة زيف كلماتها فلم يدققن قط في صحته، ولكن أكثرهن جرأة كانت تراها محدثة نعمة من السيدة زينب، على مرمى حجر من أماكن تضج بالحياة والفوضى، وتعمل مع عبد الناصر. حتى تثبت جدارتها؛ وضعت ملصقات الطب وصور التشريح في أرجاء الشقة -وهي التي سيجدها أحفاد بِعاد بعدها مدعاة للسخرية أو الفضول؛ لأنها طبعات قديمة من كتب طب مصرية وإنجليزية ومجلات دورية كان يصدرها أطباء وصحفيون

مخضرمون- وكانت تردد بين الحين والآخر: «هذا البيت هو قصر العيني الثاني.»

وكان درويش عبد الغني، مع استقرار عواطفه مع راجية السيد، يترك لها زمام كل شيء، ويراقب نشاطها بسخرية، ويخفي داخله خشية من تعاظم سلطتها داخل الأوقاف؛ إذ تلقت رسالة خطية بالشكر من عبد اللطيف البغدادي، أحد كبار الضباط الأحرار، يثني على خطاها في تحصيل حقوق الدولة المهدورة لقرون، وكتب لها فيها: «تصححين أخطاء أزمنة المماليك والعثمانيين.»

ومع اتفاقه مع راجية السيد على عدم الإنجاب، كان يوافق على استماتتها في تحويل أبنائهم إلى أطباء، ويبتسم وهو يقول لهم: «اكبروا حتى تعالجوني من الضغط المرتفع.»

حدث هذا أيضًا مع در الشهوار، التي وُلِدت وقد أخذت خلاصة الجمال في الأسرتين. ومع معرفة أمينة الرُّز بقصص إحدى أميرات القصر العثماني الحزينات، من واحدة من الأسرة نفسها، قابلتها في قصرها بمصر الجديدة؛ اختارت لها هذا الاسم؛ لأنها سمعت برقيها هي وبقية بنات السلطان عبد المجيد، وحزنهن الأثير. ورغم صعوبة الاسم وتحوله إلى درة، بعيدًا عن تعقيد اسم در الشهوار درويش، كانت أمينة الرُّز تصر على تلقين ابنتها اسمها التركي كاملًا، حتى ترسخ مكانتها في عالم الأسر العريقة الآفل هذا.

كانت علاقتها مع حسن الرُّز قد رست على ميناء من التفاهم المشترك، ولأن أنشطته القديمة خفَّت تمامًا؛ ظل يخوض أكثر في دراساته الخاصة عن العرق المصري، ومعنى القومية، ولاقى صدى جيدًا في وسط الجامعة وبين السلطات، فكتب كتابين في هذه الفترة، ونأى عن الأحداث، وأشرف على تربية حسن وراضي ليكونا قاضيين

مثلـه، بتكتـم شـديد، مشـددًا عـلى ألا يُظهِـرا أدبهـما الطبيعـي لأحـد ولا يخرجـا كثيرًا مـع معـارف؛ بسـبب قصة رمضـان الصغـير القديمـة، وكان يـزور أمينـة الـرُّز أيامًـا بعينهـا، ويتمتـع بشـقة المبتديـان باعتبارهـا مهـد الحيـاة، وينـزل بحماسـة بعدهـا ليتمشـى في الشـارع، يشـتري حلويـات مـن عبـد الهـادي الحلـواني، الـذي فتـح محلـه الشـهير حينهـا، ويـأكل كبابًـا مـن الرفاعـي، ويحلي بالبوظـة مثـل قاهـري أصيـل، وكان يرسـل قبلهـا رسـائل خطيـة إعجازيـة بالأسـلوب الأدبي إلى حسـين الـرُّز يسـأله عـن أحوالـه، وإذا مـا أراد شـيئًا، متمنيًـا بينـه وبـين نفسـه ألا يـرد عليـه. وعندمـا مـر مـرة عـلى موقـع المطعـم بعربـة مغلقـة، ورآه يقـف جـوار صبييِّـه، يشـوح بذراعـه ويـصرخ في الزبائـن، أمـر السـائق بالرحيـل وقـال: «يـا أسـفى عليـك يـا عنيـد؛ ضيعـت حياتـك إلى الأبـد في هـذا الحُـق.»

وقـد كانـت أمينـة الـرُّز تستشـيره في أمورهـا كلهـا كأب حقيقـي، وتحكـي لـه خطواتهـا في الأوقـاف.

ومـع الحـب الـذي تلقـاه منـذ شـبابه بـلا حسـاب، كان يشـعر بالرضـا العـام عـن حياتـه رغـم ضيقـه مـن طـرق السـلطة الحديثـة، ويحـضر اجتماعـات القضـاة مـع الرئيـس بوجـل، وهـو يتذكـر مـا حـدث للسـنهوري، لهـذا؛ احتفـظ بـرأي محايـد تجاه كل شيء، وتابـع الأحـداث دون أن يخـوض فيهـا، معلـلًا ذلـك بـأن القـاضي لا هويـة لـه، ولكنـه كان يراقـب عمليـات إخضـاع القضـاة هـذه بقلـق، حتـى اضطُـرَّ إلى عمـل علاقـات وديـة مـع ضبـاط بعينهـم، وغـض الطـرف عـما يُقـال في المحاكـمات الثوريـة والعسـكرية السريعـة التـي كان صهـره درويـش عبـد الغنـي أحـد أسـاطيرها، فيذهـب إلى المرسي أبـو العبـاس ليـلًا، بعـد العشـاء، ويُفتَـح لـه المسـجد لسـمعته الكبـيرة وهيئتـه المربعـة كرجـل

ممتلئ بالنعمة، فيصلي وحده في الصحن الخالي، ويطلب بضراعة جادة أن يعفيه الله من مسؤولية الأرواح التي تُزهَق من دون معرفته.

وفي هذه الأثناء فقط، بينما كان حسن الرُّز يستمتع بارتفاع نجم أمينة الرُّز، وارتكاز الأسرة على أسس سليمة لحياة ناجحة، بعيدًا عن ابنها المارق المزيت، ظهرت قصة الورقة الخضراء المؤلمة، التي أكملت سيرة الرُّز السوداء.

يوم

٦

كانت القصة أن بعض العائلات، التي تواجه مشكلات في الميراث، تحلها بظهور ورقة خضراء وقَّع عليها كبير العائلة قبل وفاته، حرم بها البعض من ميراثه، وأظهر سلطته لآخر مرة، وكانت تلك الورقة تحل نزاعات إلى الأبد، خاصة مع كثرة الآباء الذين يحرمون أبناءهم من الميراث؛ بسبب زيجة لا يرضون عنها أو أي سبب آخر. ولأن السيد رمضان الرُّز كان قد مات دون أن يوقع ورقة الحرمان هذه؛ ظل أمر القضية بلا حل. وقد رأت أمينة الرُّز تلك الأوراق الموقعة من راحلين غاضبين، وشاهدت كيف تقصم ظهر خصم آخر، ولذلك؛ حاولت التفتيش في ما تركه السيد رمضان الرُّز من صناديق ورق وعقود وأذون صرف ودفاتر كان يدون فيها أيام عمله حتى لا يُظلَم في إجازة كما كان يردد، ولكنها لم تجد ما يثبت أن شقة المبتديان لهم دونًا عن حسين الرُّز.

ومع معرفتها بخبايا تلك القضايا، تعرفت على محامٍ صاعد، اسمه أحمد تعلبة، كانت له طرق خاصة في ابتكار أوراق تلك الوصايا؛ إذ كان يُزوِّرها بمعرفته في مطابع خفية بالفجالة، تطبع كل شيء بعد كتابته بأيدي فنانين مجدين، ينتمون إلى أسرة واحدة من الإسكندرية، تمرست في عمل كل شيء طبق الأصل، فكان أحمد تعلبة يذهب إليهم، ويعطيهم تفاصيل القضية والورقة المطلوبة، ويتسلمها بعد أسبوعين بدقة معجزة، حتى إن بعض الورثة كانوا يؤكدون أن التوقيعات مشابهة تمامًا. ومع معرفته بطرق خلفية عدة في السجل المدني، كان ينتزع الأختام اللازمة. وقد عرفت أمينة الرُّز بقصته عن طريق سيدة طيبة، حكت لها القصة في معرض ذمها في أهل زوجها الذين كانوا ينتمون إلى أسرة عريقة من البحَّارة العثمانيين، ويملكون نصف رأس التين تقريبًا في الإسكندرية، وحُرِم زوجها بورقة خضراء مزيفة؛ لأنه تزوج بها: كانت ابنة لموظف عادي،

وذكـرت لهـا أحمـد تعلبـة حـين ذاك كثعلـب أغـبر متمـرس في بيـع نفسـه لمـن يدفـع.

لم تمنـع أمينـة الـرُّز نفسـها مـن التفكـير في الأمر كحـل شـامل للفضيحة التـي تـتردد بـين الحـين والآخـر، وكان أوج تفكيرهـا عندمـا سـمعت خبر زواج حسـين الـرُّز بلمبـة بطـاح، عـن طريـق رضـا، خادمتهـا الأثـيرة، والتـي لم تكـن تتعـدَّ وقتهـا عشريـن عامًـا.

في ذلـك اليـوم، عندمـا رأى حسـين الـرُّز لمبـة بطـاح عـلى هـدي ضـوء المسـاء، أخبرتـه أنهـا بـلا أهليـة، ولا أحـد يؤويهـا. فلـما هـز رأسـه لأنـه لم يفهـم، أخبرتـه بقصـة زائفـة عـن طردهـا مـن عملهـا في المذبـح -ذكـرت لــه أنهــا كانــت تعمــل عنــد قصَّــاب كبـير، وحــاول مراودتهــا عــن نفسـها، وقـد امتثلـت في ذلـك لـرأي إحـدى رفيقـات الكرشـة، أخبرتهـا أن الرجـال يحبـون المـرأة التـي يحبهـا رجـال آخـرون- وأنهـا هربـت مـن أبيهـا القـاسي في الصعيـد؛ لأنـه حـاول إجبارهـا عـلى العمـل صبـي بنـاء متخفيًـا، ولا تعـرف إلا أن حسـين الـرُّز طيـب، ولـه سـمعة جيـدة. قالـت لـه وهـي تبكـي: «شـغلني عنـدك أي شيء، ولـو غاسـلة صحـون.»

كان ضعفهـا البـادي قـد ذكَّـر حسـين الـرُّز ببدريـة عـز الدين، كـما أن في عينهـا اليمنـى حـولًا طفيفًـا جـدًّا، لا يظهـر إلا عنـد انفعالهـا، يشـبه الذي كان عنـد دريـة، لذلـك؛ وقـف متجمـدًا في مكانـه للحظـات، يفكـر في ورطـة المسـاء هـذه، حتـى قـرر حـلًّا عمليًـا سريعًـا، يعطيـه فسـحة تفكـير: سـينتظرها لتعمـل عنـده صباحًـا، ولا يضـير زيـادة عامـل عـلى اثنـين. عنـد ذلـك، ظهـرت المعضلـة الثانيـة؛ إذ ذكـرت لـه أنهـا تحيـا في مـا يشـبه عشـش منفصلـة في تـل العقـارب، لا حمامـات فيهـا سـوى كـوخ خشـبي بـارد، تخـرج إليـه في ليـالي بـلا دفء لتغتسـل، وأنهـا تـرضى بالجلـوس في أي مـكان آخـر بعيـدًا عـن وكـر المصائـب ذلـك. كلمـة مـن هنـا عـلى كلمـة مـن هنـاك، اصطحبهـا حسـين الـرُّز معـه، وسـارا وهـو

مرتبك، ينظر إليها بين الحين والآخر وهو يفكر في غرابة الحياة، والحقيقة أن ذلك لم يكن عطفًا محضًا منه لأنه صدقها؛ ولكن لأنها طرقت وترًا حساسًا عندما ذكَّرته بحمام طفولته، وتركته دفعة واحدة أمام عقدة بحثه عن فتاته القديمة.

عندما صعدا إلى الشقة، قال لها إن ثمة سيدة مسنة لا تدري بشيء، ولكنها تحتاج إلى رعاية، وطلب منها بأدب أن ترعاها حتى يجد لها مسكنًا جيدًا، وكان متهاونًا بالقدر الكافي حتى يمرا على الشارع المزدحم في عابدين، الذي يصل إلى البيت، ويراهما أفراد الشرطة العسكرية المتوقفون إلى الأبد حول القصر الحزين.

في الأعلى، تكشَّف له جمالها الشعبي المميز، وصغر سنها الواضح، ولم تُخفِ لبة بطاح سعادتها وذهولها من براءته رغم عمره الذي تخطى الخمسين وتمرسه في العمل في الشارع، فجاست في الشقة كأنها صاحبتها، ورأت صورة درية عز الدين الشهيرة -التي رأيتها بعد ذلك بنصف قرن تقريبًا في معرض كتابتي لهذه الرواية، ووقعت في حب بساطتها فورًا- وكان إطارها قد تلف، وتحول لونها إلى السيبيا الصفراء، فسألته كما كان يجري في أفلام ذلك الزمن:

- زوجتك؟

فقال:

- رحمها الله.

فقالت:

- رحمها الله. عرفت أنها ماتت لأن ستي كانت تقول إن الصور تفقد روحها عندما يموت الواحد.

كانت تقصد الست معالي بحديثها عن ستها هذه، وقد كانت

جاهـزة تمامًـا لأي انتفاضـة حـب مفاجئـة منـه، ولا تفكـر في الخطـوة التاليـة بجديـة، فوضعـت الكيـس الـذي تحمـل فيـه ملابسـها، وفكـت غطـاء رأسـها ليظهـر شـعرها المصبـوغ ذو الأصـول السـوداء الفاحمـة. توتـر حسـين الـرُّز، وهداهـا إلى غرفـة صغـيرة جـدًّا، كانـت معـدة للأبنـاء القادمـين، وقـال لهـا بصرامـة: «تبقـين هنـا حتـى نجـد حـلًا، وغـدًا، تأتـين إلى المحـل.»

لم ينـم حسـين الـرُّز ليلتهـا، وخـاض في خيـالات حمـراء لم يقصدهـا، ولكنـه فُوجِـئ بتكرارهـا: كان يـرى نفسـه فيهـا أسـفل الـدش مـع لمبـة بطـاح. ولكـن الحضـور الخافـت لدريـة عـز الديـن، وإحساسـه الخفـي بـأن ثمـة شـيئًا غريبًـا وراء لمبـة وظهورهـا المسـائي هـذا، جعـلاه يشـعر بالكـدر، حتـى حـل عليـه الصبـاح بوجـه أصفـر، فخـرج إلى الشرفـة، وراقـب مجموعـة مـن النسـاء يـسرن في الشـارع ببلـوزات ملونـة وجيـب قصـيرة، فتابعهـن بفضـول رغـمًا عنـه، ولم يهـدأ إلا عندمـا لاحـت لـه الفكـرة المُسـكِرة بـأن لمبـة بطـاح قـد ابتكـرت كل ذلـك حتـى تقـترب منـه، والغريـب أن حسـين الـرُّز، مـع شـعوره الأصيـل بالرفـض منـذ الطفولـة، كان يبحـث عـن القبـول لا عـن الحـب، فلـم يفهـم قـط لمـاذا تـرك دريـة عـز الديـن هـي مـن تصـل إليـه، ولمـاذا تـرك لمبـة أو غيرهـا يقتحمنـه بـلا اسـتئذان؛ ففـي دخيلتـه الأكثـر سريـة وإعتامًـا، كان يـرى نفسـه غـير جديـر بالحـب، ومـا كان مطعـم البطاطـس كلـه وكونـه صاحـب عمـل سـوى بحـث عـن قبـول مسـتمر لـه في مملكـة هـذا العالم.

في اليـوم التـالي، اسـتيقظ، فوجـد لمبـة بطـاح قـد نظفـت الشـقة، وسـاعدت جـدة دريـة عـز الديـن في الإفطـار، وكانـت الأخـيرة تناديهـا باسـم رئيفـة، وهـو اسـم لشـخص مجهـول لا يعرفـه حسـين الـرُّز ولا يذكـر أن دريـة ذكرتـه، وكانـت تتعامـل كسـيدة طبيعيـة للبيـت، فنظـر

إليهـا بـشرود في البدايـة، ثـم طلـب منهـا أن تذهـب معـه إلى المطعـم حتـى يختـار العمـل المناسـب لهـا.

كان عويـس والصبـي الآخـر يؤديـان عملهـما بهمـة بغـال لا تلـين يوميًّـا، حتـى إن كل شيء كان يتـم بسرعـة ودون إشراف حسـين الـرُّز أحيانًـا، ولذلـك؛ لم يجـد للمبـة بطـاح مكانًـا مناسـبًا سـوى البيـع. فكـر أن يجعلهـا ترتـدي زيًّـا أنيقًـا لتلـوح مثـل نادلـة خمـس نجـوم في المطاعـم الكبـيرة أو الفنـادق، ولكنـه لم يسـتطع إيجـاد وسـيلة لتدريبهـا كفايـة عـلى الأمـر إلا في الشـقة نفسـها، فعلَّمهـا كيـف تتعامـل مـع الرجـال بجديـة، وكيـف تتلقـى عـروض الحـب، التـي لـن تنتهـي، بابتسـامة قاتلـة، وعرَّفهـا بعويـس والصبـي الآخـر الـذي كان اسـمه حمـادة، وقـال لهـما، وهمـا يراقبـان الآنسـة الشـعبية هـذه: «مثـل أختكـما. سـتعمل معكـما.»

كان اسـمها هـو المشـكلة الأكـبر في هـذا الأمـر؛ فمـع معرفتـه بـه، قـرر أنـه غـير مناسـب للتعامـل في هـذا العـالم، وتركهـا تختـار اسـمًا آخـر وفـق مشـيئتها، فقالـت: «أسـماء؛ مـا دمـت لا أعـرف اسـمًا واحـدًا.»

بـدأت العمـل في اليـوم السـابع بعـد مكوثهـا في الشـقة، وكانـت ترتـدي زي موظفـات عبـارة عـن بلـوزة وجيـب، وتصفـف شـعرها القصـير لتلـوح مثـل فتـاة ثـورة مجـدة – علَّقـت مثـلًا صـورة عبـد النـاصر في المحـل، وقالـت لحسـين الـرُّز: «حتـى لا يضايقـك الحـي ولا الشرطـة.» وكانـت تـترك الإذاعـة عـلى أغـاني عبـد الحليـم صباحًـا، وتـرى أم كلثـوم ثقيلـة جـدًّا عـلى معـدة خاويـة.

ومـع أن حسـين الـرُّز كان ينـوي إرسـالها إلى بيـت مغتربـات في السـيدة، يـشرف عليـه رجـل محسـن، تـأوي إليـه فتيـات الصعيـد الهاربـات مـن بلادهـن ومـن فقـدن أسرهـن في ظـروف صعبـة ولا ظـل لهـن، ولكـن وجودهـا، الـذي أعـاد الـدفء إلى البيـت، جعلـه يؤجـل ذلـك إلى وقـت آخـر، وظـل يراقبهـا بـشرود، وهـو يشـعر أن في الأمـر

خدعة ما، ولم يكن يعرف أن كل ما فعلته لمبة بطاح كان باقتراح وإشراف من الست معالي، التي باركت حبها لأول مرة، وذكرت لها أن الرجال من نوعية حسين الرُّز يحتاجون إلى فتاة في عمرها عندما يتجاوزون الخمسين، ولكنهم لا يستطيعون إقناع أي فتاة لضعف أصيل في أنفسهم مع نفحات من هشاشة حقيقية. كانت قد رأته مرتين عندما ذهبت لتجرب الشيبسي المعجز هذا، وعاملها بخجل واضح، وبقلق لم يُخفِه بسبب حجمها الهائل وطريقتها المشهودة في الحديث بسلطة واضحة، ولذلك؛ قالت للمبة: «ادخلي عليه دوغري واطلبي الأمان.»

وبالفعل، وجد حسين الرُّز نفسه يقع أسيرًا للعادة، حتى قرر أن يعرض عليها العمل خادمة في البيت مساءً، بعد عملها، براتب يحددانه، وكان تهاونه في استقبالها كافيًا ليشم الجيران الخبر، فيتردد في أحسن الحالات أن حسين الرُّز قد تزوج مجددًا بفتاة تشاركه الفراش والعمل، ظهرت من العدم، أو أنه يرافق فتاة صغيرة في الحرام مقابل الفرشة والعمل أيضًا. لم يسمع حسين الرُّز بتلك الشائعات وهو غارق في البركة العسلية التي صنعتها لمبة بطريقتها. كانت شديدة الجرأة إلى الحد الذي أقلقه ودفعه إلى التساؤل عن ماضيها الحقيقي الذي لم يعرفه، تظهر بشعرها المبلول في بُكورة الصباح، وتدخل الغرفة الصغيرة وتخرج منها على نحو طبيعي، وهي تثير جلبة خفيفة، تُعِدُّ الحلبة لجدة درية، ثم تنظف صورتها الكبيرة باحترام، كأنها تتعامل مع سيدتها، وتُعِدُّ له القهوة السادة، ثم تتأمله وهو يراقب القصر كأنه ينتظر شيئًا، وكانت تظل صامتة، قبل أن يسألها عن شعورها مع العمل لتقول: «أفضل بكثير من تنظيف الكرشة.»

كان حضورها في المطعم قد أضاف نفحة نظافة إضافية؛ فمع إشرافها على عويس وحمادة، والتزامها الجدية معهما كما أمر حسين

الـرُّز، تهتـم بنظافـة الطـاولات الرخاميـة الطويلـة التـي وضعهـا حسـين الـرُّز ليقـف إليهـا السـادة الموظفـين صباحًـا لتنـاول شـطائر الشـيبسي، أو مسـاءً عندمـا يخرجـون مـن أشـغالهم -وكان أكثرهـم مـن صحفيـي دار الهـلال القريبـة- وتحـصي الحسـاب بدقـة، بينـما يظـل حسـين الـرُّز جالسًـا في الجـوار أمـام مكتـب صغـير، وضعـه بعـد حضـور لمبـة بطـاح، يـشرف عـلى كل شيء مثـل رب متـوج، وقـد ظهـرت تلـك النفحـة في شـقة عابديـن بعـد حضورهـا، عندمـا تجلـت خصالهـا الطيبـة في الطهـي، فأعفـت حسـين الـرُّز مـن تنـاول طعامـه نصـف السـيئ، وأعطـت للجـدة دفعـة جيـدة للنميمـة، رغـم عـدم إدراكهـا لمـا يجـري، وكانـت تقـول بمـرح حقيقـي: «أسـماني أبويـا لمبـة، وأنـا في المطعـم أسـماء، وفي البيـت رئيفـة.»

عنـد هـذا، وعندمـا شـعرت باسـتقرار أمورهـا، ذهبـت إلى السـت معـالي بفائـض مـن راتبهـا الجديـد، الـذي كان أقـل مـن راتبهـا مـن عملهـا منظفـة سـقط، وقابلتهـا السـت معـالي بسـعادة حقيقيـة، وقالـت:

- قلت لو لم تعد فستكون بنت حرام.

قصَّـت عليهـا مـا جـرى بالكامـل، فضحكـت السـت معـالي، ثـم قالـت لهـا بـلا خجـل:

- ربنـا يسـامحني. بقـي شيء واحـد، يخضـع لـه كل الرجـال. اعمـلي كـده حتـى يتزوجـك.

ثم قالت وهي ترى ضحكات لمبة المتقدة بالفضول:

- ربنا أوقعكِ في رجل غلبان ومثل العيال.

لم تكونـا تعرفـان بقصـة شـقة المبتديـان ولا بوجـود أمينـة وحسـن الرُّز. ولأن حسـين الـرُّز كان متكتـمًا عـلى نحـو طبيعـي؛ لم يـأتِ عـلى سـيرة ذلـك مـع لمبـة، وظـل محافظًـا عـلى مسـافة خائفـة منهـا، وظـل هـذا حتى

دخلت إلى المرحلة التالية من خطتها المحكمة، فانتظرت استيقاظه ذات يوم بلا شمس، خرج فيه ليتابع كرات ثلج نادرة هبطت على القصر ليشع بألق حزين، وتاقت نفسه فجأة إلى خروجات السينما مع درية عز الدين، ليشعر بحضور مبلل شعر به قديمًا، يقلب عالمه القديم. نظر خلفه من الشباك، فرأى لمبة بطاح تعبر بالصالة عارية تمامًا، وهي تستبق الخطى بارتباك، وكانت هذه اللحظة تحديدًا هي لحظة سقوطه وتقدمه للزواج بلمبة بطاح. ورغم خوف لمبة بطاح من ردة فعله، قالت لها الست معالي: «ما دام قد تهاون معكِ فهو غلبان. لا أحد يربي عنده حرباء بلا تحقق إلا أنا؛ لأن الست زينب معي وترعاني.»

عرض حسين الرُّز على لمبة الزواج بتساهل حقيقي، وكان لا يشعر بشيء محدد مثلما حدث في بدايات علاقته مع درية عز الدين، وإنما برغبة جارفة لممارسة الحب معها، وقد جاءته على نحو جنوني، وبلا أي مقدمات مبدئية، فارتد دفعة واحدة إلى هوسه في الصبا بالفتيات السمراوات، ومشاهداته التي قام بها طفلًا لحمامات العشش والأكشاك، فقال لها: «فلنتزوج بما يرضي الله؛ لأن وجودكِ هكذا يثير الكلام.»

وافقت لمبة بطاح بالطبع وهي تتصنع الخجل، وتمت الزيجة في مكتب مأذون شرعي بشارع شريف، كان يعقد على المحبين في السر وذوي المنصب الذين يملكون خليلة أو زوجة أخرى، وبصمت لمبة بطاح؛ لأنها كانت أمية لا تعرف الفارق بين الألف وكوز الذرة، ودخل عليها في شقة عابدين، فوق فراشه وفراش درية، فاكتشفت لمبة بطاح جموحه الذي يخفيه بوجه هادئ، وتصرفاته العنيفة التي تشبه ما سمعته عن طرق تعامل القصَّابين مع زوجاتهم، وذكَّرها بحبيبها الأول وأيام شقة السيدة، ولكن مع لمحة من الحزن تجعله مثل طفل كبير وحائر عندما ينتهيان، فيرتدي جلبابًا، ثم يخرج

للجلوس في الشرفة، يجلس فيها لساعات بلا كلام. أدركت أنه لا يحبها منذ اللحظة الأولى؛ لم يكن يشاركها الإفطار بالحماسة نفسها، كما نزل معها إلى بعض المحلات القريبة ليشتري ملابس لائقة لها، وطلب منها بجدية أن تعتني بجدة درية التي لا تموت، واحترام صورتها الكبيرة المعلقة في الصالة. خطوته المتهورة هذه، التي أعادته إلى زمن التجارب السريعة بلا هدى، أطلقت يده عما تعلمه مع درية عز الدين من أصول الحياة الهادئة، فصار أكثر عصبية؛ يصرخ في الزبائن إذا بدر منهم تصرف سيئ، كما كان يراقب تصرفات لمبة بطاح بما يشبه الهوس، ويلومها إذا تساهلت في الحديث مع عويس أو حمادة، وكانت لمبة بطاح قد اكتسبت خوفًا أصيلًا من عودتها إلى الشارع، فروضت نفسها على الرضوخ لقراراته الصارمة وقواعده التي خلقها لها خلقًا، رغم شعورها بأنها تتعامل مع نسخة مخففة ومدنية من أبيها، حتى بدأ يلين لها، خاصة مع طاعتها الكاملة في الفراش، فذهبا معًا إلى جروبي، ثم شاهدا فيلمًا في سينما مترو، وكانت لمبة بطاح تضحك بجنون وسعادة وهي تتأمل السائرين والأزياء وصور عبد الناصر وكل مظاهر الحياة الملونة في وسط البلد، حتى بدأت تقع في حب حسين الرُّز حقًّا، وتراه رجلًا خائفًا في النهاية، يخشى من ماضيها الذي لا يعرفه.

لم تأخذ الأمور منحاها المؤسف إلا عندما ترددت الشائعات بين الخادمات في النواحي عن مرافقة حسين الرُّز لخادمة في الحرام، وأنه آواها في شقة زوجته السابقة بلا دم ولا ضمير، ووصلت الشائعات عن طريق رضا إلى أمينة الرُّز، فانتفضت حينها غضبًا على رضا، وقالت لها بصرامة: «رضا، لا يُوجَد في هذه الأسرة سوى اثنين: أخويا سيادة المستشار حسن الرُّز وأنا.»

بدأت حينها في سرد قصة حسين الرُّز السوداء هذه من وجهة نظر واثقة وقلب جالس على أنه أخ مارق، ابتعد عنهما منذ زمن

بعيد، وأنهما لفظاه لسوء خلقه، وكانت السيدات، اللاتي يستمعن لها، يحللن ما تقوله في ضوء تفاسير أخرى، حتى تصل إلى واحدة مدققة، فتعيد صياغة القصة في ضوء ما يتردد على لسان خادمتها، لتوقن مع ذلك أنه حسين الرُّز صاحب مطعم «درية والرُّز» نفسه، الذي يقدم البطاطس الشيبسي الأحلى في القاهرة بنجاح منذ أعوام طويلة، لتربط ما تعرفه عن درية عز الدين، فتصل إلى نتيجة أقرب إلى الحقيقة: ثمة نزاع على الميراث بين أمينة الرُّز وحسين تعالجه بسمعته السيئة، أو أن ثمة سرًّا آخر أكثر سوادًا.

في هذه الأجواء المنحوسة، لجأت أمينة الرُّز إلى قصة أحمد تعلبة، من دون استشارة حسن الرُّز، لأول مرة في حياتها. كانت تعرف أن ثمة حدودًا للأخلاق عند حسن الرُّز، لا يتعداها، ومع نمو ابنيه حسن وراضي، ودخولهما إلى السلك النيابي، تمهيدًا لأن يصيرا قاضيين مثله، صار أكثر احتراسًا في أموره، فكان يذلل قلقه من الخطأ الأخلاقي في حكم ما بآخر حياته بمتابعة محمومة لآخر ما يرد بالقانون الفرنسي، حتى إنه زار باريس مرتين ليطلع على موسوعات بحجم يوم القيامة عن كل شيء، وهي الفترة التي أخطأ فيها خطأ بسيطًا جدًّا فتحدث عن القوانين التي تنظم الديمقراطية هناك، وما فعله الجنرال ديجول بعد الحرب من ترسيخ بلد لا يحكمه العسكر، وقد ورد حديثه الدافئ هذا، الذي ردده في مقهى ومطعم ديليس الشهير، وهو يتناول فضائل الوجبات اليونانية مع صحبة من القضاة، في تقرير مرفوع من مخبر سري، أضاف إليه منكهات دعوة المستشار إلى انتخابات وانتقاده لوجود الرئيس دائمًا. ولأن ولاء حسن الرُّز لم يكن مشكوكًا فيه، خاصة مع وقوفه ضد حركة أخونة القضاء في بعض الأحيان؛ تلقى تأنيبًا أنيقًا من رجل يرتدي نظارات سوداء، له رائحة زيتية، وأصلع تمامًا إلا من شعر فوق صلعته يلصقه بسائل خاص، دخل عليه المكتب بصفته هيئة عليا

كـما قـال، وتحـدث معـه بهـدوء بشـأن الحيـاة والليـل والنهـار والتنميـة، وكان حسـن الـرُّز يتعامـل معـه بتوجـس ودون أن يدقـق في ملامحـه كـما اعتـاد أن يفعـل مـع الزيـارات المفاجئـة، عندمـا قـال لـه الرجـل:

- ورغـم ذلـك، يدعـو البعـض إلى الديمقراطيـة بوصفهـا حـلًّا لبلـد خـرج لتـوه مـن كارثـة عبوديـة لقـرون.

عـرض رأيـه ببسـاطة عـن عـدم جاهزيـة النـاس لذلـك، والفـارق بـين الزعامـة والرئاسـة، ثـم دخـل عـلى حسـن الـرُّز بـلا مواربـة، فقـال:

- بعــض الكلــمات يمكــن أن تضيــع ســمعة رجــل ذي قامــة في دقيقـة، تمامًـا كـما يمكـن أن يفعـل أخ سـيئ المسـعى يطـارد النسـاء الفقــيرات.

كان ذلـك إيذانًـا بإصابـة حسـن الـرُّز بالضغـط، فامتنـع منذ ذلـك اليوم عـن الحديـث في أي شيء لا يخـص القضـاء، وأعلـن اعتكافـه عـلى كتابـة موسـوعة خاصـة عـن القوميـة المصريـة والجمهوريـة، ولم يكـن خائفًـا في ذلـك مـن مصـير السـجن، ولكنـه كان يخشـى الوجـه المكشـوف الـذي قابلـه بـه رجـل السـاعة الرابعـة عـصرًا هـذا، والـذي خـرج بهـدوء وركـب عربـة كبـيرة بـلا أرقـام.

كان يشــدد عــلى حســن وراضي أن يتعامــلا كأنهــما قاضيــان كبــيران ملزمـان بـكل مـا يقولانـه، وهـو مـا جعلهـما قليـلي الـكلام بطبعهـما، ولكنهـما أُصيبـا بـداء الأدب الزائـد، فـكان حسـن وكيـل نيابـة مشـهودًا لـه بالرقـة والتكتـم، وشُـوهِد أكثـر مـن مـرة وهـو يبكـي في مشـهد صراخ أم قتلـت زوجهـا لأنهـا كانـت تحمـي ابنتهـما منـه عندمـا حـاول أن يضاجعهـا، أو أي مشـهد مؤثـر آخـر، ولذلـك؛ اسـتقال لاحقًـا، وصـار محاميًـا كبـيرًا يأخـذ قضايـا المعوزيـن دونًـا عـن غيرهـم، وكان عـدم اسـتكماله طريقـه هـذه سـببًا في أن يعلـق حسـن الـرُّز تعليقـه التاريخـي:

«سيظل حسن وحسين يتبادلان الأدوار في أسرتنا بكل ما فعلاه إلى يوم يبعثون.»

ولكن طيبة حسن حسن الرُّز وأدبه لم يشبها طرائق حسين المكشوفة، وتصرفاته المؤسفة، بينما صار راضي شبيهًا بعمته أمينة، أكثر التزامًا بخط القضاء، وكان وكيل نيابة بلا قلب، دخل أكثر من قضية، وهاجم متهمين على أقل دليل، وكانت سمعته قد قامت عندما جاء بالإعدام لممثلة شهيرة في تلك الآونة، قتلت عشيقها في جريمة حب عندما اكتشفت علاقاته المتعددة، ورغم جمالها اللافت والرهبة الطبيعية للسينما، كان القرار صارمًا وبناءً على استماتة راضي الرُّز، ولم ينقذها سوى الطعن الذي خفف عنها الحكم إلى المؤبد. عندما سمع حسن الرُّز بخبر قصص أخيه من رجل الظهيرة الغامض، هاتف أمينة -وكان دخول الهاتف إلى بيتها في المبتديان وبإشراف خاص من رئيسها في العمل الضابط عاصم العلمي، مع جهاز تلفاز محاط بصندوق خشبي بديع التكوين ولامع وله رائحة خشب أرو تركي، سببًا جديدًا في فخرها بما تحققه في حياتها كامرأة مستقلة وابنة للعز والثورة على السواء- وأخبرها بما سمعه، فقالت: «عرفت ذلك من رضا الخدامة. سيرته على كل لسان!»

ورغم أساه الشديد، قرر أن يُعطى حسين الرُّز نصيبه من الشقة ماليًّا، حتى ينسى تمامًا أمر القضية، وأن يجتمع معه في جلسة عرب ليبين له أثر أفعاله على أعمالهم. واستمعت له أمينة بانتباه، ولكنها قررت مع نفسها اللجوء إلى أحمد تعلبة، فذهبت إلى مكتبه في باب اللوق، ودخلت بنفحة نسائية واضحة، واستقبلها ذاهلًا؛ لأنه كان يعرفها، وقال مازحًا:

- لعلكم تريدونني في قضية تخص ملكية العتبة الخضراء!

فقالت مبتسمة:

- بل نريدك في قضية ورقة خضراء.

شرحت له الأمر ببساطة وبلا خجل، وقالت إن أخاها له تصرفات سيئة، وإنها تحدث في أحسن العائلات، وقد كان أبوهم بصدد حرمانه لهذا السبب، ولكن عاجله الموت. وبعد كلمة من هنا وكلمة من هناك، أبدى أحمد تعلبة تفهمًا بحكة في أنفه المنقاري الشهير، ولعبه في شاربه القلم على الموضة أيامها، وقال:

- ولكنكم تعرفون أن ذلك شبه تزوير يا ست الكل!

فقالت أمينة الرُّز:

- بل تصحيح للمسار.

كان تعاملها مع المحامين والأسر المنهكة من صراعات الميراث وكل قصص الأوقاف والأراضي السوداء قد أهَّلها لفهم الجانب الأسود من العالم جيدًا، وقد رأت كيف تتبدل الحقائق، وكيف أن المشكلة أحيانًا مشكلة قانون قاصر أو ورقة ناقصة، فتبدل فهمها لأمور عدة. اتفقا بلا جدال على الأتعاب والمطلوب، وبدأ أحمد تعلبة عمله في الوقت نفسه الذي كان حسين الرُّز يحيا مستقرًا مع لمبة بطاح، ويكتشف معها كيف أنه بحاجة دائمة إلى امرأة في حياته. كانت ليالي حبهما لا تنتهي، وكان فارق السن بينهما، مع جنوحها ناحية التجارب بحس شوارعي ميَّزه حسين الرُّز، يدفعها إلى القبول بما يريده أسفل الدُّش أو في الصالة مثلًا، وهي عربدة لم تتصورها فيه، ولكنها أحبتها منه، فكانت تقول للست معالي ضاحكة عندما تزورها، وتعطيها جزءًا من المال الذي تكسبه من المطعم:

- يا ما تحت الساهي دواهي!

فتقول الست معالي:

- أكثرهم أدبًا أكثرهم خلاعة. اسأليني أنا؛ كان الأفندية المؤدبون هؤلاء هم أكثر الزبائن جرأة في الحب وقت عملي الأغبر.

ولكن ما يشبه غطاءً ما انكسر داخل حسين الرُّز، والاحترام، الذي كان يكنه لدرية عز الدين في كل المواضع، فيلتزم بخط بصره، لم يفعل مثله مع لمبة، وكان ذلك لسبب لا يعرفه، ولكنه صار أكثر ميلًا إلى مراقبة من يدخلن إلى المطعم صباحًا، وعاد مرة أخرى إلى مجالس القهوة، كما تعمَّق وقتها اهتمامه بالكتب التراثية القديمة، عندما حدثه الأستاذ حلمي مطاوع، المدرس في كلية التربية، ورفيق مقهاه الأثير، عن كتابي «رجوع الشيخ إلى صباه» و«الحيوان» للجاحظ وغيرهما، ولكنه أُغرَم بقصص «ألف ليلة وليلة» الحمراء التي كانت الأستاذ حلمي مطاوع يرددها بألق شعري ولغة سليمة، فطلب منه نسخًا أخرى بجانب نسخته التي احتفظ بتحقيق الشيخ قطة بما يُعرَف بالطبعة البولاقية، فجاءه بأربع نسخ منقحة، تختلف جميعًا بعضها عن بعض، جلبها إلى الشقة في يوم رائق.

ولأنه اكتشف -بسعادة- رغبته الغريبة في القراءة طوال الليل؛ ضيَّف لمبة بطاح على وجبة لحم رأس وشوربة كوارع من مسمط كبير في عابدين، ثم سارا معًا في شوارع وسط البلد، فعرَّفها على بعض البنايات بأسمائها، وتأملا التماثيل اللامعة بماء المطر بعد هطول شتوي خفيف، وكانت جولاتهما هذه هي سبب تعلقها المرضي به، وبرائحته التي تشبه رائحة بخور مخلوط بالليمون، يدخلان أفلامًا عدة في ليلة واحدة، ويشتري لها قفازًا جلديًا باريسيًّا أو فراء ثعلب لترتديه فوق ملابسها كممثلة ناشئة تؤدي دور سيدة مجتمع، فبهرتها تلك الحياة، وسقطت في ما صنعه لها من حياة على هواه.

يوم

٧

كان حسين يقرأ في نسخ «ألف ليلة وليلة» هذه كل ليلة تقريبًا. يجلس في الشرفة، ويتابع القصص بذهن متقد، ويتخيل قصر عابدين أحد قصور تلك القصص التي لا تنتهي، وعندما كان يصل إلى متن أحمر يُظهِر قصص حب خليعة بين جوارٍ وسيد أو زوجات خائنات أو تجار وجان، يسخن سريعًا، ويطلب لمبة بطاح، ولأنها لم تكن تعرف ماهية الكتابة ولا تجيد القراءة؛ عدَّته كتاب شياطين، يشعل حسين الرُّز ليلًا كل يوم ويجعله بلا كابح، ولكنها سعدت بانكبابه هذا، وشعرت أنها ملكت حياته، فصارت تُجِدُّ في عملها بالمطعم وهي تشعر أنها مشرقة، واستطاعت ترويض عويس وحمادة بسهولة، ليتهاون حسين الرُّز في متابعة المطعم يوميًّا، ويغوص أكثر في خيالات «ألف ليلة وليلة» والعوالم السحرية التي انفتحت له فجأة.

في تلك الآونة مثلًا، فكر في سفرة تركيا لأول مرة؛ وكان ذلك لعلمه أن جدهم المباشر، حسن الرُّز، تركي حقيقي، وتزوج بمصرية وأنشأ تلك الأسرة النحس. وفي أثناء جلسات القهوة التي لا نهاية لها هذه في مقهى الماوردي، كان الأستاذ حلمي مطاوع يتحدث عن الذين أثبتوا نسبهم التركي واستعادوا أملاكهم الكثيرة في إسطنبول أو مدن تركية أخرى، وذكر قصة فرد من عائلة الشوربجي الشهيرة، وكان عائلهم القديم يقدم الشوربة لجنود الجيش العثماني، ولكن الزمن جازاه بعطف أحد السلاطين وذرية لا تنتهي نثرها في تركيا والشام ومصر، وقال إن موجهًا في التربية والتعليم اسمه الأستاذ جمال الشوربجي استطاع السفر إلى تركيا، وبعد بحث مجد، اكتشف أنه وارث لمُلك كبير في حي اسمه بشِكطاش، وهو بيت خشبي قديم نجا من حالات الاحتراق والمحو التي طالت بيوت تركيا العثمانية القديمة. قال حسين الرُّز حينها:

- جدي كان تركيًّا ومن بلد اسمها ريزا، ولذلك؛ سموه الرُّز.

فقال الأستاذ حلمي مطاوع:

- إذن لكم أملاك في ريزا هذه، ولعلها في إسطنبول أيضًا!

كانت تلك هي المرة الأولى التي يستخرج فيها جواز سفر، فانشغل بالإجراءات، واكتشف صعوبة الخطوات وكثرتها، حتى وصل إلى استخراج وثيقة سفر من القديمة الكبيرة المباركة هذه، تُظهِر صورته مثل صورة ممثل غير مكتشف، ومهنته بأنه صاحب أشغال. ولأن السفر إلى تركيا كان سهلًا في هذه الأيام؛ استطاع حجز تذكرة باخرة من الإسكندرية، مع شركة سياحة تهتم بزيارة معالم إسطنبول الدينية، وتعامل في الشركة أنه صاحب مطعم كبير دون أن يعلن عنه. كان مزاجه رائقًا، ويشعر أنه يغوص في حلم مخملي بلا نهاية، ولذلك؛ ازداد ولعًا بمراقبة الفتيات الصغيرات، وإفراغ حبه في لمبة بطاح، حتى وصله الخبر من محاميه بأن القضية تشهد منحى سيئًا بعد ظهور ورقة خضراء تثبت حرمانه بأمر من السيد رمضان نفسه. قال بهدوء وهو يرى أوراق سير القضية:

- وما العمل؟ لن تهمد أمينة، كما أنني ذاهب إلى إسطنبول لبحث أملاك لنا.

فقال المحامي جمال عبد الشهيد:

- ما شاء الله من شقة السيدة إلى إسطنبول! من قال لك هذا الكلام؟

فقال حسين الرُّز:

- ناس فاهمين، كما أنني أعرف.

فقال جمال عبد الشهيد:

- على العموم، ظهور تلك الورقة الآن ينهي القضية لصالح أخويك، ولك الحق في العثور على قضية أخرى للمشاكسة ليس إلا.

رفع حينها قضية على المنقول في الشقة نفسها، والمقصود به الأثاث والممتلكات، ودبجها بقضية أخرى وهي تعرُّض الموكل لضرر نفسي، وقضايا عدة لا تنتهي. وداري حسين الرُّز حزنه بقصص «ألف ليلة وليلة»، وبمغامرة فردية جديدة مع فتاة سمراء كانت تأتي إلى المطعم صباحًا، فتراقب الظهور الحي للمبة بطاح وهي تشرف على العمل بافتتان، ثم تنظر إلى حسين الرُّز مبتسمة وتذهب.

والحقيقة أن الفتاة التي كان اسمها سعاد أبو دشيش، كانت قد سمعت بقصة لمبة بطاح التي ترددت في المذبح باعتبارها طرفة من طُرف القدر؛ فخبر زواج لمبة -الفتاة التي كانت تعمل مع الست معالي بلا توقف، وعليها تنظيفة رأس عجل تستوجب الشكر- بصاحب مطعم البطاطس المقلية مثير لكل فتيات المذبح حتى يبحثن عن فرص رجالية خارج نطاق الدم الكئيب، وكانت سعاد أبو دشيش إحداهن؛ فهي تعمل بائعة في محل حلويات رمضان، ترتدي زيًّا يشبه زي لمبة بطاح، رغم فقر أصلها الشديد، وتتقن إعداد البسبوسة والكنافة وبقية فضائل الحلوى الشرقية، وقد وظَّفها أبناء الحاج رمضان بائعة وصانعة حلوى مع هبة التجديد بعد الثورة.

ولأنها كانت تفك الخط وتتقن الحساب؛ عملت في الإعداد والبيع، ولكنها كانت عصية على محاولات أبناء الحاج رمضان في إقناعها بالعمل في الحب الرخيص بعد انتهاء أعمالها، ولم ينقذها منهم سوى الأخ الأكبر الذي كان من أعضاء الطريقة الشاذلية التي تجتمع كل أربعاء في مسجد السيدة زينب فيرددون أذكار الصباح والمساء.

كانت تبحث عن رجل حياتها المناسب، وقد شعرت بحرقة الغيرة عندما سمعت بقصة لمبة بطاح، وذهبت لترى بنفسها كيف تدير مطعم «درية والرُّز»، وأدركت نسبه الفاخر إلى أمينة الرُّز، صاحبة الشقة المميزة في المبتديان، وحسن الرُّز القاضي الشهير، حتى باتت تنام وتقوم تحلم بنفسها مكان لمبة بطاح. ولأنها آمنت أنها طوَّعته بالدلال وحده؛ قررت اقتناصه بطرق متكتمة، وآمنت بينها وبين نفسها بقبولها أن تتقاسماه بلا ضغينة.

بدأ حسين الرُّز يلتقط لفتاتها المتكتمة هذه بترحاب خفيف، ولكنه لم يستطع اتخاذ خطوة أكبر بسبب وجود لمبة بطاح، ولذهوله؛ شعر بلذة خفيفة لأنه يقوم بعمل بعيد عن عينيها. توصل أكثر من مرة إلى حقيقة أنه لا يحبها، وإنما متعلق بوجودها معه ملحقًا بصورة فتاة الحمام، ووصل أيضًا إلى بهجة حياة بلا أضغان الحب ومتاعبه، وكانت رغبته في سعاد أبو دشيش قائمة على خوف شديد من الفقدان، فلم يتجاوز فارق العمر المشهود بينه وبين لمبة بطاح، وتوقع دائمًا أن تخونه يومًا وتهرب مع شاب مثلما يحدث في قصص خادمات كثيرات، تزوجن أسيادهن، ثم هربن بسهولة، وكان يستمع لتلك القصص في مقهى الماوردي بانتباه كامل، فيعود في الليلة نفسها ويتعامل مع لمبة ببرود وبعض من القسوة، فتقابله بصبر حقيقي وتطوعه بدلالها. والحقيقة أن لمبة بطاح قد فُوجِئت بقدرتها الكبيرة على تجاوز غضباته والقيام بأعمال البيت والمطعم على حد سواء، ولأنها كانت تشعر أنها أكثر خدمة له من درية عز الدين؛ كانت تسأله أحيانًا وهما في خروجة عشاء:

- ما الذي كنت تحبه في أبلة درية؟

فكان يشيح بوجهه ويقول:

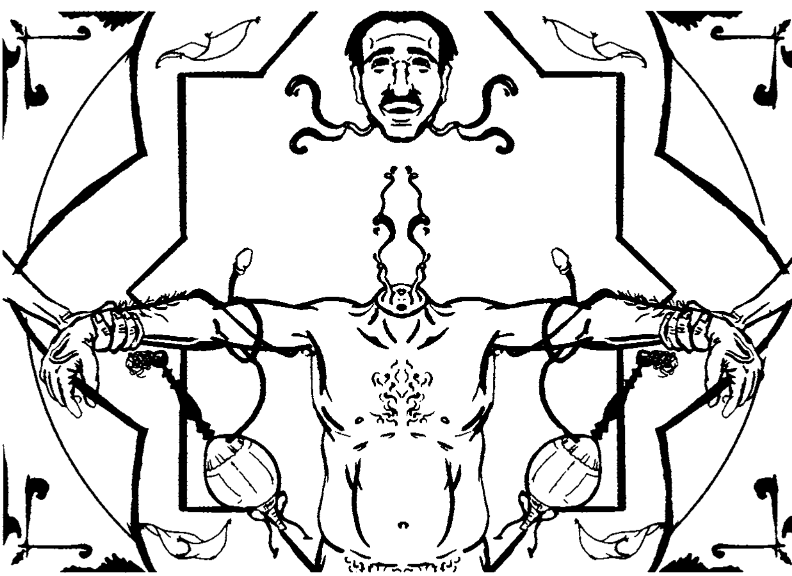
- لا يجوز يا أسماء.

فكانت تجيبه سريعًا:

- ولكنني لمبة!

وكان قولها هذا دليلًا على فهمها العميق لطريقة تعامله معها؛ فهو يراها أسماء، فتاة تعمل في المطعم وتجيد الحديث مع الزبائن بسهولة، وجادة أغلب الوقت، رغم دلالها الحقيقي في البيت والفراش، وإتقانها فنون الحب أسفل الدُّش، كما يحلو له، وتستطيع حضور السينما والمسرح بأدب كافٍ، ولم يكن يرى للمبة ظلًّا فعليًّا، لم يرَه فعلًا إلا عندما بدأت تشك في الحضور الصباحي المنتظم لسعاد أبو دشيش، فتجاوزت حسها العملي، وعاملتها بسوقية، وبدأت تترصد لها في الحضور، فتقابلها بوجه كالح. واستمتعت سعاد أبو دشيش بذلك؛ لأنها كانت تؤمن أن المرأة، التي تخاف على زوجها، تعطي دليلًا على أنه سهل الانسياق خلف عروض الحب.

علمت من مراقبتها أنه يجلس على مقهى الماوردي يوميًّا،



وانتظرته عند خطوط سيره، وعندما اقترب منها ذات ليلة وهو يمشي، يحمل معه إحدى نسخ «ألف ليلة وليلة» التي كان يأخذها معه إلى المقهى ليناقش فيها الأستاذ حلمي طايع. نادته كما فعلت معه لمبة بطاح، حتى إنه حار قليلًا لو أنه يرى المشهد مرتين، وعندما توقف وسألها:

- نعم يا أمي! ماذا تريدين؟

أجابت وقد وضعت كل جرأة حياتها في هذه العبارة:

- أريدك يا عم حسين.

لم تكن تعرف أنه مشغول البال بحقيقة قصص «ألف ليلة وليلة» هذه، وأنه كان يراقب الأبواب شبه المنفرجة للبيوت القديمة التي لا صاحب لها في السيدة، والبنايات الإيطالية والإنجليزية، فيتصور أن ثمة واحدة ستدعوه إلى الدخول وتعرض عليه الحب بلا سبب ولا مقدمات، وأنها ستكون مثلما يحلم تمامًا: سمراء مشعة بألق خافت، وشعرها مبلل بحمام الهناء. وكانت سعاد أبو دشيش تقارب تلك الصورة في وقفتها هذه، ولعل استعداده النفسي لأن يجد قصة تتحقق له دفعه إلى الابتسام، وقال عندما تذكر: «زبونة يومية، تأتين المطعم من أجل قرطاسي بطاطس.»

كان مستعدًّا للضياع، وعندما تشتد حيرته، يلوم درية عز الدين على وفاتها المبكرة وتركه لحياته القديمة التي كانت تليق بالصِّبية. صار أكثر انتشاءً كلما رأى سعاد أبو دشيش قرب الماوردي ليلًا، عند بناية قديمة شبه متهدمة، ويفكر في حديثهما القصير العادي، وابتسامتها السحرية مع اتساع عينيها عندما تراه، وقد لاحظت لمبة بطاح تغيره الطارئ هذا، فقررت الاستعانة بالست معالي حتى تعرف ما يجري.

كانت أوقاتًا مرتبكة وسوداء أيضًا عند أمينة الرُّز؛ فمع انشغالها الشديد بعملها في الأوقاف، وزيارات ما بعد العمل لسيدات حزينات فقدن قصرًا أو عزبة، نسيت أمر درويش عبد الغني تمامًا، وصارا يتقابلان يوميًّا مثل صديقين قديمين أصبحا لا يجدان موضوعًا للحديث، يجلسان على الطاولة، ويستمع لها بنصف اهتمام، وكان يثني على خطواتها مثل أي زوج محب، ثم يحكي لها بعض القصص التي تثيرها: محاكمة معتقل سياسي كبير، حديثه مع كاتب اعتُقِل من أجل مقالة أو حديث انتقد فيه الرئيس. وكان يشكو أحيانًا من التدخل الحقيقي لبعض الجهات في عمله، فيقول: «مكالمة من صلاح بك أو غيره. المحاكمة معروفة النتائج مسبقًا؛ فلا تُضِع وقتك يا باشا.»

ولأنه صار أكثر هدوءًا عن زمنه الماضي، وعزوفًا عن الفراش؛ استراحت أمينة الرُّز إلى علاقتهما الجديدة؛ إذ كانت ترى ممارسة الحب بين مسؤولياتهما تلك ضربًا من المغالاة، وتخفي داخلها خجلًا من نظرتها إلى نفسها بصفتها سيدة مجتمع حقيقية، وامرأة جمهورية، عندما تفكر أنها كانت تحتاج إلى حب يُخضِعها بقسوة مثل خادمة. نظرتها هذه تأثرت أكثر بأغاني أم كلثوم؛ فعندما كانت تهيم في الاستماع لها في ليالي الأخمسة المباركة، مع سيدات أخريات في شرفة المبتديان، تكتشف بهدوء، وهي تقلب أيامها بملعقة الكلمات، أن ما بينها وبين درويش عبد الغني ليس حبًّا، وأنها لا تتصوره مطلقًا في مظهر الحبيب الذي تخضع له وتقول له كما تقول الست «ويعجبني خضوعي إليه وأسامحه وهو ظالمني»، فكانت تقول وسط الحفل فجأة:

- الست طيبة بزيادة الصراحة.

فتضحك السيدات، وتقول إحداهن:

- طيبة كمغنية، ولكنها قوية جدًّا؛ بكلمة تجعل الريس يقيل وزيرًا أو يقيم الدنيا ويقعدها.

ولكن حسها بالاطمئنان إلى حقيقة علاقة الصداقة والعشرة بينها وبين درويش عبد الغني اضطرب تمامًا عندما سمعت قصة من إحدى السيدات المحترمات، اللاتي يعملن في التدريس الجامعي، وسافرت موسكو ولندن أكثر من مرة مع وفود عالية المستوى لمناقشة مناهج تعليمية ومشروعات تبادل طلبة، وقالت بسخرية إن حياتها استقرت مع زوجها، ولم يعد يضايقها بطلبات الصِّبية ولا يطاردها في عملها بالنقد لأنها تترك البيت للخادمات، عندما وجد فتاة في عمر أبنائه وهام معها لعامين في بحر من الحب المتعفن.

اكتشفت السيدة القصة بالمصادفة، عندما وجدت هدية مغلفة من محل شهير للملابس في وسط البلد، ولم تكن على ذوقها، فراقبت زوجها عن طريق أعين مشتركة، حتى توصلت إلى الحقيقة الأليمة، فطلبت الطلاق. لم تنم أمينة الرُّز ليلتها. فتشت في ذاكرتها اليومية المثقلة بالأحداث فلم تجد سببًا للشك. كان درويش عبد الغني في المحكمة صباحًا، يمارس بطالة مقبولة لأنه لا قضايا كل يوم، كما أنه كان يترك مساعديه يجمعونها في أكوام أسطورية تعلوها الأتربة، فيحكم في عشر قضايا مثلًا في ساعة واحدة، بينما كانت الأيام، التي يشارك فيها بحكم سياسي، قليلة، وينام قبلها يومًا كاملًا من عطلة مستحقة حتى يذهب بزيه المناسب: بدلة سوداء عليها شارة خضراء تحمل الهلال والنجوم -أضاف إليها شارة بعلم جمهورية الوحدة بعدها- وعوينات سوداء تأكل نصف وجهه، ويجلس ببرود وهو يسمع دفاعًا جاهزًا ومحامين بلا ظل وظفتهم الدولة لتدبيج القضية. وفي المساء، كان يذهب إلى نادي القضاة، يقابل بقية زملاء المهنة، أو يذهبون إلى مطعم الألفي الكبابجي للعشاء، حتى يغادروا ببطء رجال ممتلئين، فيجلسون مع بعض رجال الزمن القديم

في مقهى قريب، يسمعون أحاديث وقصص عن النحاس باشا، وكان فؤاد سراج الدين يحضر بعض تلك الاجتماعات رغم الرقابة المفروضة حوله، وقد قال ذات مرة لدرويش عبد الغني: «لو كانت موهبتك ازدهرت في زمننا لكنا في مكان غير المكان.»

وفي أمسيات أخرى، كان يذهب إلى مكتبه في الإيموبيليا وينام فيه عندما تتعذر عليه العودة إلى بيت المبتديان، وهي الأيام الذهبية التي كانت أمينة الرُّز تكتشف فيها فضائل الوحدة، وتراقب فراشها الخالي النظيف، والأبناء وهم يشاهدون التلفاز بسلام، فتجلس مع در الشهوار، وتتابع معها الدروس، وتغذيها بقصص لم تحدث عن تاريخ أسرتها، وقد كانت تكتشف كل مرة أنها تقدس الوحدة وتعتادها، ومعلقة إلى حد ما بوحدتها في الطفولة، عندما لم يكن موجودًا سوى السيد رمضان الطيب الذي يترك لها تدبير كل شيء، وقد كانت تقول بعدها، عندما تخطت التسعين بصحة مباركة، عام ٢٠٢٢، حين بدأت قصتنا، إنها عاشت كل تلك الأعوام لأنها تستطيع الحياة وحدها، وإن أكثر ما يؤذي المرأة في صحتها هو عجزها الفطري عن المكوث وحدها لفترة لترضى بعدها بحثالة الرجال، وكانت تقول ذلك ردًّا على أسئلة جارات متعجبات، رأينها معجزة، أو تأنيب ابنيها الطبيبين؛ حلمي وفهمي، لأنها لم تعطِ وقتها كله لهما في الطفولة، فكانت تقول: «أديت واجبي كأم، ولكن كان يجب أن أؤدي واجبي تجاه نفسي كإنسان.»

وقد زارت مكتبه هذا مرتين، ورأت ممرات عمارة الإيموبيليا ومداخلها، فعلَّقت: «عمارة عفاريت.»

وكانت تراها شؤمًا؛ لأن صاحبها أنور وجدي لم يهنأ بها، كما تعرضت ليلى مراد لقسوته فلم تبقَ فيها، ولكن درويش عبد الغني كان يعدد لها سكانها من فنانين وقضاة ومحامين وضباط في

قيادة الثورة، فكانت تشيح بوجهها وتقول: «الممرات رطبة ومعتمة صباحًا، والشوارع مخيفة من الأعلى. في المبتديان؛ الحياة طبيعية.»

لم يكن من الصعب عليها مراقبته، فوظفت خادمة اسمها بهانة حتى تعرض خدماتها عليه، وقالت لها أن تقول إنها خادمة عند من يعيشون في الإيموبيليا. ولأنها تدرك أن درويش عبد الغني ملول إلى الحد الذي سيُدخِل فيه الخادمة؛ تيقنت من نجاح الخطة، وكانت قد فهمت من وقت طويل أن إدارتها لشبكة خادمات ينقلن النميمة والقصص والأسرار بسهولة أكثر أهمية بكثير من الحديث وجهًا لوجه مع السيدات، وآمنت أنها إدارة تفوق كفاءة مخابرات صلاح نصر، التي أطاحت بالضابط عاصم العلمي سريعًا من خلال تسجيل تحدث فيه عن ضيقه بمجموعة عبد الحكيم عامر في الجيش، وقال ضمن ما قال: «رُمِيت هنا في الأوقاف فوقفت حياتي.»

كان في الحقيقة ضابطًا من الصف الثاني كما ذكرنا في السابق، وقد وُزِّع هؤلاء الضباط على هيئات أقل أهمية، ورغم أهمية الأوقاف، دخل عاصم العلمي في سلسلة الضجر، فبدأ يستفيد من منصبه هذا على نحو طبيعي، وطفا على بحيرة من علاقات بالزمن القديم، فزوج ابنته بابن عين أعيان حوش عيسى في البحيرة، واستطاع امتلاك شقق عدة في أماكن مختلفة من القاهرة، وقصر قديم مهمل في كفر الشيخ، منبت رأسه، كان يرى فيه ثريًّا يهوديًّا قديمًا مع أسرته من فتيات بشعر أحمر يشبهن ملائكة الشروق، فيشعر أنه بعيد تمامًا عن الحياة وهو يتدرب في معسكر منقباد، ويتعلم كيفية تناول الحنشان، وتقطيع الأرنب البري بأسنانه، ومصادقة الذئاب، ورغم أمجاده المالية هذه، كان يسمع حديثًا ساخنًا من ضابط صف أول يتكلم عن مجده في المخابرات، وإمساكه بشبكة من الجواسيس

المخضرمين أو قضائه على خلية يسارية، فيشعر بالخجل رغم سعادته في الماضي بمنصبه الحالي من المسؤوليات. وصل حديثه هذا بالكامل، رغم أنه كان يردده في شرفة شاليه بالمعمورة، وأُطيح به بعدها عندما وُضِع مكتوبًا ومفصلًا على مكتب عبد الناصر مع إفطار الصباح مثلما جرت العادة، فقال: «يريد بفساده المالي أن يفسد لُحمة الجيش.» وأضاف: «يُقال اليوم، وتحدد إقامته.»

وقد عُيِّن بعدها ضابطًا بقري الملامح، اسمه عبد الرحيم البنا، على صلة قرابة بعيده بالشيخ محمود البنا، وكان نتيجة ذلك تردُّد صوت الشيخ في مبنى الإدارة في الصباح بدلًا من أغاني الإذاعة، حتى فُتِنت أمينة الرُّز بصوته، فصارت لا تهدأ إلا عندما تسمع صوته، فكانت در الشهوار تقول: «لا يفتت قلب ماما سوى صوت الشيخ البنا.»

خلال أيام، فشلت بهانة؛ رفض درويش عبد الغني عرضها بصرامة؛ لأنه كان يملك خادمًا سودانيًّا مجدًّا ينظف الجدران حتى القاع، ولا يجيد العربية لأنه قادم من مجاهل الجنوب هناك حيث يُوزَّع الفقر بالكوم، وكان ذلك ما زاد من شكوك أمينة، فقررت اللجوء إلى شبكة خادمات الإيموبيليا حتى تعرف من واحدة منهن إذا كانت قد تعاملت مع أحد بالمكتب غير درويش عبد الغني. وخلال شهر واحد من التحقق، عرفت أن واحدة منهن سلمت سطلًا من اللبن، من الذي كان لبَّانون هذا الزمن يضعونها أمام أبواب البيوت، وكان قد وضعها بالخطأ أمام شقة منتج سينمائي، فحملت خادمته السطل ووضعته أمام المكتب، وطرقت الباب ففتحت سيدة سعيدة، ممتلئة بالنعمة، وكانت تنظر بقلق رغم كل شيء، وجرى حوار قليل، فهمت منه أنها سكرتيرة المستشار، وحين

ذلك، قالت أمينة الرُّز: «يجب أن أصل إلى تلك المومس.»

تطلب الوصول إلى راجية السيد شهرًا من التحايل الذي أتقنته أمينة حتى تعرف ما يجري في المكتب، وقد كان ما زاد من شكوكها تعليمات درويش عبد الغني لبوابي العمارة اليقظين بأن يذكرا أن المكتب لا يعمل رسميًّا، وإنما هو لعمل المستشار الخاص، والحقيقة أن راجية السيد كانت قد حولت نصف المكتب إلى شقة حسنة الروح، وكانت قد وصلت مع درويش عبد الغني إلى تخوم الحب المدجن، واكتشفت مثالبه التي عرفتها أمينة الرُّز منذ البداية؛ فمع ركونه إلى حياتهما في الظل، كان يبقى في المكتب لساعات يشاهدان التلفاز معًا ويتمتعان بعشاءات بطيئة، ولم يكن يقبل بخروجات خوفًا من انكشاف أمرهما، فصبرت راجية السيد على ذلك، ولكنها هامت في شعور أحمر بالغضب عندما كانت ترى الأزواج الخارجين بين الحين والآخر يسيرون أسفل العمارة، يشترون الثياب من المحال المنتشرة، فكانت تقول لدرويش عبد الغني:

- نفسي أكون مثل بقية الناس.

فكان يجيبها بصرامة:

- قريبًا، حلمي ولطفي صارا بنصف طولي.

بين هذا وذاك، وجدت راجية السيد أن درويش عبد الغني يقلل من مواهبها الخاصة كامرأة لها سلطة كاملة على صلاحياتها، فصارت أقل تجاوبًا معه في الحب، تتظاهر بالتعب بين الحين والآخر، ولأنه كان يخشاها ويدرك قصصها القديمة مع زوجيها؛ كان يرضخ أحيانًا فيخرجان مثلًا على نحو مخجل: يسير في المقدمة، ثم تلحقه بعد قليل، ويتقابلان في جروبي مثلًا وهو قلِق، ثم يذهبان معًا إلى حي مصر الجديدة ليحضرا فيلمًا في سينما نورماندي المكشوفة أو يتناولا القهوة والكيك في مطعم سويسري قريب في الكوربة، ثم

يجعلها تعود وحدها إلى العمارة. وكان خطؤه الأكبر هو تكاسله في العثور على شقة أخرى بعيدة في مصر الجديدة مثلًا؛ إذ كان مرتبطًا بعمارة الإيموبيليا، يدخلها كل يوم بشغف وهو يشعر أنها بيته، ويحلم بحياة مستقرة مع راجية السيد رغم قدرتها الاستثنائية على الغضب والحديث بلغة نساء الشارع -كان يحب ذلك لأنه يُشعِره أنه مرغوب- ولذلك؛ تقاعس عن البحث، واعتاد حياة الظل هذه باعتبارها أفضل من حياة النور، خاصة أنه كان يحسب حساب القيل والقال الذي سيتردد حوله من مجتمع القضاء والسياسة، فكان يُخرِج صدقات تُوزَّع على مجاذيب السيدة نفيسة من أجل الستر، ويشعر بعدها أنه معصوم من كل شيء.

عندما عرفت أمينة الرُّز بأمر السكرتيرة هذه، قررت مراقبة درويش عبد الغني بجدية. كانت تتأمل طريقته في الحديث معها بلا حميمية، وتناوله الطعام بهدوء، وشروده وهو يستمع للست بوجل أكثر، وتؤكد لنفسها أن كل ذلك دليل على زواجه بأخرى، وقد ابتكرت شجارات بلا هدف في هذه الفترة سوى اختبار صبره، فكان يقبلها ببال رائق، ويفند لها أسباب انتفاء ما تفكر فيه، حتى قررت إخماد نيرانها هذه والذهاب بنفسها إلى المكتب، عن طريق إرسال رسول من طبيعة خاصة.

أرسلت سيدة تحبها، اسمها ألفت زين الدين، أرملة مات زوجها منذ عشرة أعوام، وتحيا وحدها مع ابنتيها بكل سعادة وقد اكتشفت أن الترمل هو الجزء الأجمل في الزواج، وكانت صداقتهما قد وصلت إلى الحد الذي زوَّجا فيه حلمي ولطفي بسميرة ومشيرة، ابنتي ألفت، وقسما حركة الليل والنهار بينهما. وكانت ألفت زين الدين سيدة مرحة، تحب الزي الخفيف والضحك والنميمة، وتعرف أخبار نصف القاطنين في جاردن سيتي -كانت تسكن في عمارة مقابلة حاليًّا لمقهى زغلول تشرف على شارع قصر العيني

نفسه- وقد عدَّت أمينة الرُّز شقيقتها التي لم تنجبها أمها، وكانت تحبها لطرافتها بسبب جديتها المفرطة وغضباتها الطفولية فتقول: «يا خرابي عليكِ يا أمينة، مثالية إلى درجة المرض!»

كانت الوحيدة التي خصتها أمينة بمخاوفها، فقلَّبتا معًا المسألة، ثم خلصت ألفت أنها من ستزور المكتب لتعرف ما يجري فيه، وقد جرى ذلك فعلًا في يوم خميس، ذهبت فيه وقت العصر، فصعدت على أنها في زيارة إلى ترزي شهير اسمه ميمي، من بقايا الإيطاليين في مصر، يسكن الإيموبيليا بين تماثيل عارية لموديلات يشبهن سيدات لوحات محمود السعيد، ويعمل على سمعته بالتفصيل لفنانات معروفات، وقد كان لها سحر خاصة بجيبها القصير وبلوزة بلا أكمام وعوينات سوداء تحتل ربع وجهها، سطت على البوابين. وعند الشقة، طرقت الباب أكثر من مرة، قبل أن تقول بجدية وتهور وهي تبتسم من اللعبة المسكرة: «أعرف أنكِ بالداخل وجئت للنقاش.»

تعاملت على أنها أمينة الرُّز بنفسها، وهي إضافة جادت بها لحبها اللعبة رغم المأساة فيها، وفتحت راجية السيد عندما رأت أن ذلك أفضل جدًّا واختبار حقيقي لدرويش عبد الغني. ولأنها أريبة؛ كانت تدون أيام بقائهما معًا في دفتر أسود صغير، ومعه الأحاديث التي جرت بينهما كأنها جاسوسة، حتى تشهرها في وجه أي أحد إذا شكك في ما جرى بينهما، والتفاصيل، التي كانت تعرفها عن مأساة حسين الرُّز مع شقيقيه، كانت كافية لتؤكد انتماءها إلى أسرة درويش عبد الغني. قالت راجية السيد إنها لا تريد مشكلات، وإنما هي زوجة طيبة وتحترمها، وكانت ألفت زين الدين تتعامل بطريقتها الساحرة؛ تبتسم وتشرب القهوة بامتنان وتشيد بذوق المكتب، حتى إن راجية السيد قلقت رغم قوتها الداخلية، وانتظرت نهاية المقابلة، وليلتها، عندما جاء درويش عبد الغني وهو يلهث

بسبب وزنه الزائد الذي اكتسبه من سنين التبطل في الحب هذه، وجد راجية السيد تقف في منتصف الصالة، وتدخن سيجارة رفيعة من التي تزيدها «جاذبية بلدي» كما كان يردد، فقالت:

- جاءت زوجتك أمينة الرُّز اليوم.

ثم أشارت إلى فنجان مقلوب على مصيره، وقالت:

- وشربت القهوة وأعجبها البن.

يوم

٨

فقد درويش عبد الغني إيمانه بالحياة دفعة واحدة، وعقد تحقيقًا صارمًا مع راجية السيد. سألها عمَّ كانت ترتديه وكيف وصلت إلى المكان وكيف سمحت لها بالدخول، فقالت بجدية أقلقته، لا تناسب الكارثة، إنها طرقت الباب، وصاحت أنها أمينة الرُّز وتعرف كل شيء. قال درويش عبد الغني:

- إذن بعثت من يتجسس منذ البداية.

كانت راجية السيد تشعر بالارتياح التام لأن الأمور وصلت إلى حد القلق والاضطراب، وشمرت أكمامها لصراع طويل، ولكن الارتباك الحقيقي، الذي أصاب درويش عبد الغني، أغضبها، فقالت:

- ما المشكلة؟ كان مصيرها تعرف.

هذه الحادثة كانت إيذانًا بانهيار أسرة درويش عبد الغني بسهولة، وكان الانهيار سريعًا إلى الدرجة التي آمن معها أن زيجتهما كانت قد انتهت منذ أول ليلة في الإسكندرية، عندما مارست معه الحب بدافع الواجب وهي تنظر إليه بنفور. أخبرت أمينة الرُّز أخاها حسن بما جرى عن طريق الهاتف، وبلا مقدمات طويلة، فقال بصوت متعب: «هذا زمن بلا أخلاق ولا ضمير.»



كان قد تخطى إغراءات الزيجة الثانية هذه، ولوع الخادمات، وكل ما يخص العملية السهلة من الإمساك برجل متزوج، بعزيمة لا تلين وقلب متحفظ، وكان حبه لسميحة المرسي يزيد مع الوقت، خاصة مع شعوره بالخوف بعد زيارة الرجل الغامض، فساعدته على استكمال دراساته الخاصة، وكانت تهيئ له المناخ المناسب ليريح فكره، فذهبا لتأجير شاليه في المعمورة، كانا يتعاملان فيه برقة زوجين عرفا باطنهما من ظاهرهما، ويتركان حسن وراضي لمشوارهما الخاص هذا الذي كان يتكرر كل أسبوع تقريبًا، حتى زوَّجاهما بابنتي مستشار آخر في قضايا الدولة، اسمه عصمت عبد الحكيم، ينتمي إلى أسرة عريقة في القانون بالإسكندرية، وكان أبوه عبد الحكيم محمود باشا من أيادي سعد زغلول في الثغر.

لم يخبر سميحة بالقصة، وعدَّها من نكبات الرُّز، ثم خلص إلى معلومة لا أساس لها أن حظ الرُّز في الإسكندرية أحسن من حظه في القاهرة، وذلك مع أن السيدة زينب كانت تطل عليه بذاكرة الطفولة والشباب، مصفاة من كل المشكلات، حيًّا خاليًا وجميلًا ومغريًا بالزيارة. اقترح على أمينة الرُّز أن يطلب الطلاق مكانها، وهاتف درويش عبد الغني في المحكمة باليوم التالي، وبعد السلام، قال بحس عملي:

- الطلاق رخصة الله في الزيجات الفاسدة.

فقال درويش عبد الغني بدافع الخوف وحده:

- ولكنها لم تقصر معي قط يا معالي الباشا.

فقال حسن الرُّز وهو يتنهد:

- وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

تم الطلاق قانونيًّا، وأُرسِل إخطار إلى شقة المبتديان، وقالت أمينة

الـرُّز لأبنائهـا إن أباهـم تـزوج بأخـرى، مـن دون محاولـة إخفـاء، وقـد لامهـا حسـن الـرُّز عـلى ذلـك، فأكـدت أن تلـك هـي الطريقـة الوحيـدة لإقناعهـم بأنهـا لم تخطـئ في حقـه، وقـد أثَّـر ذلـك في حلمـي ولطفـي، بدرجـة أقـل مـن در الشـهوار؛ لأنهـما لم يشـعرا قـط بدرجـة القـرب هـذه مـن أبيهـما، وكان التحاقهـما بالطـب إيذانًـا بانشـغالهما عـن حقيقـة الحياة وطبيعـة الصراعـات، يطفـوان فـوق سـطح المدينـة بانكبابهـما عـلى دراسـات جـادة، ويتبـادلان حلـم السـفر والهجـرة، خاصـة بعد النكسـة، عندمـا شـاهدا السـفر الجماعـي لأجيـال عـدة مـن الطلبـة الشـباب، والأطبـاء الأكثـر شـهرة، ولكـن وجـود أمينـة الـرُّز الحاكـم لـكل شيء كان يدفعهـما إلى الامتنـاع عـن التنفيـذ، خوفًـا مـن ردة فعـل عنيفـة أو تحكمهـا في سـفرهما نفسـه، لسـلطتها الكبـيرة مـن عمـل الأوقـاف.

كانـت در الشـهوار هـي مـن تأثـرت بجديـة، وحاولـت فهـم أبيهـا دون جـدوى، فنشـأت وعندهـا عقـدة صغـيرة تدفعهـا إلى رؤيـة الرجـال في مظهـر ملـون بالأسـود، وتـرى الجيديـن منهـم استـثناء، ولذلـك؛ كانـت تعامـل حسـن وراضي، ابنـي عمهـا، بجفـاء واضـح، فـسره حسـن الـرُّز أنـه مـن تعـالي أمينـة الفطـري، ولم يفلـح في تزويـج أي منهـما بهـا، خاصـة مـع جمالهـا الـذي اتضـح أكثـر عندمـا شـبت عـن الطـوق، بعينيهـا الواسـعتين الحزينتـين كعينـي أمـيرة عثمانيـة حقيقيـة. لم تنقطـع عـن زيـارة أبيهـا في شـقته الثانيـة بالإيموبيليـا حيـث ظـل يحيـا مـع راجيـة السـيد، وإثبـات حضورهـا بأكثـر الطـرق صخبًـا، وكانـت تراقـب راجيـة السـيد، بوزنهـا الـذي يزيـد، وخصالهـا البيتيـة المتكاسـلة بعـين الكراهيـة.

والحقيقـة أن درويـش عبـد الغنـي قـد اكتشـف حبـه لأمينـة الـرُّز دفعـة واحـدة عندمـا طلقهـا، وعقـد مقارنـة متأخـرة جـدًّا بينهـا وبـين راجيـة السـيد، فآمـن أنـه بقـي مـع الثانيـة مـن أجـل الخدمـة والفـراش وحدهمـا، وأن عقـل أمينـة الـرُّز وحديثهـا الأنيـق لا يُضاهيـان، كـما أن ممارسـات الحـب النـادرة، التـي تمـت معهـا، كانـت حلـوة بدرجـة

مشهودة؛ فهي تتدلل مثل الأميرات حتى يصل إليها، وتهتم بنظافتها كأنها ماري أنطوانيت، وتستحم قبل الممارسة وبعدها، ومقابل ذلك، نظر إلى راجية السيد بعين الواقع، فبدأ ينفر منها رويدًا، ويشعر أنه انجذب إليها لأن في دمه رغبة في البغال، وكان هذا رأي أمينة بالأساس؛ فقد كانت تقول بلا خجل، في المجالس الرسمية مع صديقاتها الحميمات مثل ألفت زين الدين، إن تاجر البغال لا يفهم في الخيول. ورغم انكسار خاطرها، وألمها من أن واحدة مثل راجية السيد، التي عرفت أنها تزوجت مرتين ولها أصل متواضع، قد نافستها، عاشت بسلام مطلقة، تلقى من تلقى بسهولة، وتعلو قمة هرم من أرامل ومطلقات وسيدات متزوجات يُكوِّنَّ شبكة نميمة وزواج وسيطرة فوق المدينة نفسها.

ما لم تعرفه في حينها هو أمر الفضيحة التي جرت مع حسين الرُّز عندما علمت لمبة بطاح بأمر سعاد أبو دشيش؛ فمع شكوكها المتزايدة من نظراتها وظهورها غير المرحب به، ذهبت إلى الست معالي، وبثت إليها شكواها، فنصحتها بتكثيف جرعة الدلال في البيت، وعلمتها كيف تشغل الرجل عن الخارج بطرق مجربة.

ولكنها كانت تفهم حسين الرُّز من واقع العشرة: كان من الصعب الإمساك به، يتنقل في المساء بخفة، ما بين الماوردي والبيت، ويتجول في وسط البلد وحده أحيانًا، كأنه يبحث عن شيء، ويتابع حفلات الست على مقاهي خفية ومجالس معلمين وتجار لا تعرف عنهم شيئًا، وكان يلتزم في أثناء ذلك بزيه الذي يختاره بعناية، وملامحه التي لا تشيخ رغم كل شيء، كما أن قصة سفره إلى تركيا هذه لبحثه عن أصله جعلته أكثر انكبابًا على «ألف ليلة وليلة»، وبدأ يخوض في قراءات خاصة عن علوم الطب بالأعشاب والعلاج بالإيحاء، فجلب إلى البيت أعشابًا غريبة من الحرَّاز العطار، وعلب عسل جبلي من حلايب وشلاتين، وبان أكثر نأيًا عنها، وهو ما

طمأنها في البداية، ثم قلَّبها على جمر القلق عندما سمعت بزواج درويش عبد الغني زوج أمينة، وخشيت أن تخبره بذلك؛ لأنها عدَّت أخبارًا مثل هذه يمكن أن تنتشر كعدوى.

كان يقابل سعاد أبو دشيش كل يومين، مع إحساس كبير بالسعادة، وشعور آخر بالارتباك، ويشعر أنه لا يعرف ما يفعله، وكانت تأتيه بطبق بسبوسة بالقشدة وحكايات لا تنقطع عن محل عم رمضان، فيذهبان إلى وسط البلد، إلى الأماكن نفسها التي يذهب إليها مع لمبة بطاح، بتهاون غريب منه، ويعاملها بالطريقة نفسها: يُعلِّمها كيف تستخدم الشوكة والسكين، وكيف تشاهد فيلمًا سينمائيًّا. وكلفه هذا التهاون كثيرًا من سلامه النفسي. كان شعوره بالارتباك ناجم عن إحساس عميق بأنه يغرق في بركة بلا قرار، منذ زواجه بلمبة بطاح، ويتحول إلى رجل نسوانجي كالذين يسمع عنهم في جلسة المقهى أو يقرأ عن طرائفهم في «ألف ليلة وليلة»، ولأنه كان يعثر على فتاة الحمام القديمة في لمبة بطاح وسعاد أبو دشيش وكل فتاة سمراء، بلا حب، ولكن برغبة قوية ومتجددة، عزَّزها بوصفات الحرَّاز؛ آمن أنه لم ولن يحب سوى درية عز الدين.

كان يتعامل بشيء من الحس السوداوي مع ظهور سعاد أبو دشيش، ويفكر في مدى علاقتهما التي لا تتعدى أحاديثًا دافئة وقبلات تعطيها له في أماكن خفية؛ المقاعد الخلفية للسينما مثلًا، أو زقاق جانبي لا يلمحه أحد، فيشعر بالنشوة، ولكنه لا يعرف شيئًا عن الخطوة القادمة، وقد جاءت الخطوة وحدها مثل كارثة، عندما سمع خبر طلاق أمينة الرُّز من درويش عبد الغني، من صديق وصله الخبر عن طريق زوجته، من خلال شبكة النميمة الكبيرة، فقال: «جيد أنه تحملها طوال تلك السنوات.»

وعندما عاد مساءً، حكى الأمر للمبة بطاح بلا اهتمام، وهو

يضحك، فقالت بغضب: «لا شيء مضحك في الموضوع. رغم شكالك مع أختك فنحن نساء، يفهم بعضنا بعضًا جيدًا.»

نظر إليها دون شعور بعينه في البداية، ثم خلص أنها كشفت شيئًا، فدخل إلى الشرفة، وجلس يتأمل القصر الذي ازداد هرمًا وخلاءً. وفي مساء اليوم التالي، اصطحبها إلى السينما، وتناولا عشاءً عند الدسوقي الكبابجي في التوفيقية؛ لأنه تعرف على الحاج الصعيدي صاحب المحل على مقهى الماوردي، فشعرت أنه يطيب خاطرها لقلقها بالأمس، وكادت تقول له شيئًا طيبًا، غير أنها لاحظت الابتسامات السريعة التي تُرسَم على وجوه عمال المطعم، الذين يرتدون زيًّا موحدًا يحمل توقيع الدسوقي، والنظرة المتواطئة بينه وبين الحاج صاحب المحل، فاشتعلت نارًا، وظلت مغلقة على انفعالاتها طوال الليل. وفي الصباح التالي، أظهرت كراهية حقيقية لكل الزبائن من فتيات الصباح والخدمة والوظيفة، فشعر حسين الرُّز أن الأمور قد تجاوزت الحد، وراجعها بعد المطعم بسبب اضطرابها ببرود مثير، كأنه يسعى إلى مصير محتوم لهذه الزيجة، فقالت إنها تشك في علاقته بأخرى، فقال لها بالبرود نفسه: «كثيرات، ليس واحدة، ألف واحدة وواحدة.»

عندما كان حسين الرُّز يحكي قصة ما جرى، للمقارنة بين أدب درية عز الدين المدني وانفعال لمبة بطاح العاطفي غير المروض، كان يحكيها كل مرة بالتأثر نفسه؛ فلم يتوقع مطلقًا ما فعلته لمبة بطاح من فضيحة سودت عيشته.

لم ترد عليه لحظتها، واكتفت بالبكاء وهي تنتفض، وبحث داخله عن شعور حقيقي بالإشفاق ناحيتها فلم يجد، فربت على كتفها، وعادا إلى الشقة دون كلام. وفي المساء، اعتصمت بغرفتها وهي تبكي طوال الليل، بينما ظل جالسًا في الشرفة، يفكر أن قدره مربوط بقدر

الملك فاروق على نحو أو على آخر، ولأنه مات في النهاية بإيطاليا مختنقًا بالمحار والحب الممنوع، شعر أنه سيموت على النحو نفسه بسبب تكالب النساء عليه، وهي الفكرة التي اكتشف أنها كانت تدفعه إلى تنويع علاقاته بعد درية عز الدين، وتتعدى البحث عن فتاة الحمام إلى البحث عن مصادر عدة للحب، تُؤمِّنه إذا جرى شيء.

كانت نظريته بسيطة: لم يتلقَّ الحب في طفولته بالقدر الكافي، فصار لا يقدمه بسهولة، ولم يتعلمه إلا على يدي درية عز الدين الحانيتين في بيتها -وهو المسمى الذي لم ينسَه أبدًا، وظل عائقًا أمام اعترافه الكامل بلمبة بطاح؛ لأنه كان يرى نفسه ضيفًا على بيت أسرة غريبة لا يعرف عنها شيئًا، وإدراكه هذا كان يعزز شعوره بالسقوط، فيتمادى في ما يفعله- ومع إدمانه قصص شهريار ورجال الملحمة السحرية النسوانجية، ازداد إيمانًا بأن صحة قلبه في الخوض بعلاقات بلا قلب.

لذلك؛ عندما خرجت لمبة بطاح بعدها من البيت، ولم تذهب إلى المطعم، ثم عادت ومعها الست معالي ومجموعة غير مباركة من سيدات المذبح، أطل نهارًا من الشرفة بوجه مكدر، وهو يحاول الفهم. فتح لهن الشقة، ودخلن تصحبهن رائحة الدم الجاف والتراب والعرق، وأخبرته الست معالي أنها أم لمبة، وأن الفتاة مجروحة، وسألته إن كانت قد قصرت معه في شيء، فأخذ يهز رأسه نافيًا بلا تفكير. وبعد حديثها المطول، الذي ذكرت فيه العرف والشرع وأولاد الناس، عرجت إلى سيرة أهله، فقال:

- لم يعد لي أهل سواي. الحديث كله معي.

الست معالي، التي كانت تفهم الرجال من نظرة، أيقنت أنه لا يحب لمبة بطاح بالمقدار الذي تحبه به، وكانت جاهزة للإجابة بما يضمن حق الفتاة، فقالت بجدية:

- الخروج هكذا يلزمه دم.

غيرت نبرة حديثها، حتى إن صوتها القوي أيقظ جدة درية عز الدين من نومها الدائم وحياتها الثانية المجهولة، فخرجت من غرفتها وقالت:

- لا تتركي الدجاجة تُسلَق حتى تتفسخ يا فتحية.

كانت تتحدث مع خادمة من خادماتها القدامى، تملك نبرة الصوت نفسها، وقد رأتها الست معالي، فأخذتها فرصة للانتصار، وقالت:

- قالوا رجل يعتمد على النسوان وقلنا لا، بل كسِّيب وله مطعم، ولكن لا يُقبَل أن يكون رجلًا يأكل حقهن.

لم ينظر حسين الرُّز طوال الجلسة إلى لمبة بطاح التي تنتفض، ولكنه سأل وهو يشعر بالضجر:

- ما طلباتكم يا ست معالي؟



فقالت الست معالي وهي تنظر إلى لمبة بطاح بتركيز:

- التراضي، أو تأخذ حقها.

ثم أضافت وهي تلعب بيدها السمينة:

- والعقل زينة الرجل، خصوصًا لو كان أبًا.

لم تتوقع الست معالي ولا لمبة بطاح رد فعل حسين الرُّز. نهض من مجلسه منتفضًا وقال:

- أي أب؟! لن أُهدَّد بذلك يا ست الحاجة.

كان هذا إيذانًا بانفصالهما الذي أخذ ستة أشهر من الشد والجذب، تيقن فيها حسين الرُّز أنه لم يحب لمبة بطاح قط، وواجه فيها شجارات شارع لا تنتهي؛ فالست معالي، التي كانت تؤمن أن الصخب يحل جميع الأمور، كانت تأتيه بمجموعة من السيدات السمينات المتمرسات في أخذ الحقوق للآخرين، يفترشن الأرض أمام البيت، وتبدأ في الصراخ بتنغيم وهي تردد ما يفعله، ثم يذهبن عندما يتأكدن أن الفضيحة انتشرت، أو عندما يبعدهن رجال الشرطة. فعلن هذا قرب البيت، وعند المطعم، ودخل حسين الرُّز معهن في صراع غير متكافئ، حتى وصل الأمر إلى ضربه ذات ليلة وهو عائد من الماوردي. ولأنه لم يرَ من فعل ذلك، رفع رأسه بصعوبة ليحاول تمييز وجوه الصِّبية الذين أحاطوا به، ثم سمع الصوت الحيَّاني للست معالي وهي تقول: «لن أتركك حتى تكفر يا روح أمك.»

في الوقت نفسه، كانت لمبة بطاح تُطهى على نار الشوق والحرمان؛ فمع أنها لم تكن حاملًا فعلًا، كانت ترى حياتها عند الست معالي مرة أخرى جحيمًا. رأت البيوت الكئيبة التي تطل على المذبح، وشوارعه الخلفية، والمطاعم المظلمة التي تقدم الكرشة والجوهرة

واللسان بضمير، ونظرات الرجال الذين لا يعرفون كيف يحبون المرأة، فشعرت أنها غريبة عن المكان، وسببت لها رائحة الدماء والسقط حالات غثيان مشهودة، فسَّرتها الست معالي باسمة أنها إرهاصات حمل حقيقي، وكان ذلك عندما قررت أن تغادر البيت المهلهل، وذهبت ناحية المطعم، فرأت عويس وحمادة يشرفان على قلي البطاطس وبيعها كما هما، ثم رأت حسين الرُّز يتابع الزبائن بكدر. رآها فنظر إليها بغضب، فابتسمت بوهن، وطلبت منه الحديث سريعًا. أعربت له عن أسفها عما بدر منها، وقالت بالحرف الواحد:

- أنت رجل، وقد آويتني، فلن أخسرك بسبب حريم أخريات.

لم يصدقها في البداية، وتحدث بغضب عما تفعله الست معالي، وقال، ذاكرًا حسن الرُّز لأول مرة:

- كنت بصدد مهاتفة أخي حسن حتى يتخذ إجراءات عالية المستوى. كنتن ستجدن عربات شرطة بعدد نجوم السماء عندكن.

ثم علل صبره بمعزته لها، فهزت رأسها، وقالت:

- هل تسمح لي بالعودة إلى البيت والعمل إذن؟

وقد عادت بالفعل يومها، ولم تعد حتى لأخذ بقية ملابسها من بيت الست معالي، وهذه الحادثة تحديدًا ما فصلت بينهما؛ لأن الست معالي رأتها فتاة بلا عقل ولا كرامة، وكانت تردد عنها بيقين: «قحبة، ومثيلاتها من يجعلن الرجال كلابًا.»

رغم ذلك، كانت تشفق عليها دون أن تفصح؛ لأن تخبطها ناتج عن طبيعة هشة حقيقية، رغم كل محاولات الظهور بمظهر فتاة شارع أصيلة، وقد أشفق عليها حسين الرُّز نفسه عندما وجد كل

شيء عاد كما كان، حتى إنها وضعت له فنجان القهوة السادة في اليوم التالي لعودتها، وجواره قطعة ملبن، كما تعلَّم من الأستاذ حلمي مطاوع؛ إذ ذكر أن تلك من عادات الأتراك الأصيلة، ولم تنفِ كذبها عندما سألها عن الحمل بشيء من الهوس، فقالت:

- فكرت في ذلك حتى تحبني.

فقال لها بخجل:

- ولكنني أحبك يا لمبة.

فبكت وقالت:

- لا، بل تحب أبلة درية الله يرحمها.

والحقيقة أن حسين الرُّز قد تجاوز سعاد أبو دشيش بسهولة بعد تلك الحادثة، عندما أيقن أنه لن يستطيع احتمال صراعات الظل هذه، وفي مقابل ذلك، نشرت عنه معلومة أنه رجل كاذب، لا أمانة له، ويراود الفتيات المحترمات على أنفسهن، وظلت تذهب صباحًا إلى المطعم، تنظر إليه بعين مكشوفة، ويشيح بوجهه عنها، بينما تنظر إليها لمبة بطاح بغضب مكتوم، وهي السمعة التي انتشرت وقتها وأكدتها أمينة الرُّز في جلسة قهوة عندما قالت: «لم يقابل درويش حسين سوى مرتين، ولكنه تعلم منه كل شيء يخص الخيانة.»

ولا يعرف أحد أن حسين الرُّز لم يحاول مع أي فتاة أو امرأة أخرى مثلما فعل مع سعاد أبو دشيش في نطاق السيدة زينب، وإنما ابتعد كثيرًا عن الأمر بخوضه في قصص خيالية مثل «ألف ليلة وليلة» مع نساء مجهولات، يراهن في شوارع وسط البلد، فيسير خلفهن بإصرار بمظهره الذئبي هذا، ويعرف مكان سكنهن، أو يتوقف عندما يركبن مواصلة ما، وإحداهن فتاة كانت تشبه بذوقها في الثياب ذوق درية عز الدين، رآها تجلس في جروبي وحدها، ثم

تجلس مرتين مع شاب كئيب الملامح وله سحنة كلب، وكانت تسكن في شارع من شوارع عابدين، قريب من البيت، في بيت من ثلاثة طوابق، وقد عرف اسمها من بحثه: كان اسمها منى الحسيني، وقد أتمت الخامسة والعشرين منذ شهر، وتسكن مع أبيها وحده، وهو ضابط سابق بالجيش، غاضب دائمًا، وله طباع منظمة تخص كل شيء في الحياة، وكان لها أخ هاجر إلى أمريكا منذ عقد، عندما ذهب ليدرس الطب، وكانت تعمل في مصنع إنتاج حيواني أقامه عبد الناصر في أحد أعياد الثورة، وأشرف بنفسه على البقر الفريزيان، الأبيض والأسود هذا، واقترب من بعضها، وكانت منى الحسيني تقف قرب البقرة، فابتسم وقال، وقد لاحظ ارتباكها من جاذبيته بالليمون:

- وهل تنتج هذه ألبانًا مثل جواميسنا؟

فلم تلتقط الدعابة، وأجابت بحماسة:

- بل أعلى في معدلات الإنتاج.

فقال وهو يضحك:

- لا، لا، نريد بهيمتنا أن تكون أحسن بهيمة في العالم.

كانت عاملة في رعاية الحيوانات بما تلقته من دروس خفيفة في الطب البيطري، بمدارس راهبات مسائية في أيام أحد، وتخرجت أساسًا في التربية، وكانت تقول مازحة: «تخرجت في التربية لأربي البشر، فأراد الله لي أن أربي البهائم.»

وقد ترقت بعد مزحة عبد الناصر هذه فصارت مشرفة عمال. ورغم جديتها، وقعت في غرام المهندس الزراعي الشاب الذي كان يشرف على صحة البقر، وهو الشاب نفسه الذي رآه حسين الرُّز. لم يكن يعرف كل التفاصيل، ولكنه أكمل سيره في طريق حلمه هذا،

يطارد شيئًا لا يعرفه، حتى اقترب منها ذات مرة في جروبي، وسألها باستعراضية: «ممكن أقعد؟»

ارتبكت بالطبع، ولكنها سمحت له بالجلوس وهي تطالعه بعدم فهم، فبدأ يتحدث عن وضع البلاد والسياسة، ثم عن رؤيتها كثيرًا في المكان، وظلت تنظر إليه بتوجس، قبل أن يسألها عن عملها وحياتها. دقائق، وأدركت بحسها أنه يحاول التعرف عليها لأنه معجب، فأعجبتها الفكرة، وشعرت أنها فرصة لإثارة غيرة المهندس الذي كان اسمه صالح عبد الحليم، ولكنه لم يأتِ يومها، ولن يأتي في أيام لاحقة، حتى دفعتها خيبة الأمل، وهي تراقب عزوفه عنها في المصنع، أن تترك مجالًا لحسين الرُّز؛ لأنه يعيد ثقتها في نفسها، وكان هذا بداية مغامرة جديدة من مغامرات حسين الرُّز التي لا يعرف لماذا يبدؤها، إلا رغبة في المغامرة نفسها.

عندما توطدت معرفتهما من خلال جروبي، وسألته عن عمله، قال مبتسمًا: «صاحب مطعم إيطالي.» وقالها بثقة لا تدع مجالًا للشك. ولأنه كان في الخمسينيات حينها؛ لم تكذبه. وكما توقعت، وجدته متزوجًا مرة، ذكر أنها من درية عز الدين، وذكر أنه لم يحب غيرها، ولذلك؛ لم يتزوج بعدها. كانت تصغره بثلاثين عامًا على الأقل، وهو ما جعله يدير مجرى الحديث دائمًا بقوة، ويدرك كل منافذها، ويقف فوق قمة الجلسة. وقد أزعجها ذلك في البداية، ثم ارتاحت إلى آرائه الحكيمة، وبدأت تستمتع بلذة لحكاياته التي لا تنتهي، التي كان يؤلفها بعد دمج ما مر عليه بقصة من «ألف ليلة وليلة»، حتى بدأ يتكشف لها ما يمكن أن يُسمَّى حبًّا، بينما كان يقابلها كل يومين حتى يشعر بالنشوة عندما تستمع له بحب، وتتسع عيناها مع قصة من قصصه.

أدركت لمبة بطاح الأمر بحاستها السادسة، ولكنها تجاوزته

بتكتم، وأكملت حياتها كأن شيئًا لم يكن، وكانت علاقتهما قد فترت تمامًا، حتى صارت أكثر رسمية؛ يتقابلان يوميًا في الصباح للإفطار والمطعم، ثم يعودان إلى المنزل للغداء، وينزل هو بعدها إلى المقهى أو حتى يقابل منى الحسيني.

بعد مرور شهرين من تعارفهما، قرر أخذ الموضوع إلى درجة أعلى، فعرض عليها الزواج، وهو لا يفكر في كيفية معالجة كذباته التي صدقتها عن بُتوليته بعد زوجته ومطعمه الذي يقدم الباستا الأحلى في قاهرة آخر الستينيات هذه، واسمه «كايرو لا روما»، ولكنه كان يحاول الوصول إلى تخوم الجرأة بلا حدود، فيلعب لعب المقامرين، ويزن عمره ومظهره في ميزان الحب، مع يقينه بأنه صار لا يحب أحدًا سوى نفسه، ولكن منى الحسيني، التي فُوجِئت بعرضه، شعرت بالقلق دفعة واحدة، وأفاقت على حدود حقيقة أنها لا تعرفه حقًا، فقالت بهدوء: «دعني أفكر.»

لم تعد إلى جروبي في الأيام التالية. ولأنه لم يكن له أن يقبل الفشل في هذه المرحلة من حياته؛ إذ اعتاد مماحكات النساء صباحًا، والسمعة التي خلقتها له سعاد أبو دشيش؛ ذهب إليها ناحية البيت الذي عرف أنها تسكنه، وراقبها خفية، فعرف مكان المصنع الذي تعمل فيه، وقرر أن يزور البيت جادًّا وهو يحمل باقة من الزهور، عندما رآها تخرج ذات يوم، بعد عملها، وتركب عربة سوداء، انتظرتها قرب ميدان مصطفى كامل، وكان قائدها شابًّا عريض المنكبين، يحلق شعره على هيئة مسطرة، وله مظهر كاذب استطاع أن يتذكره معه. هال حسين الرُّز حينها حقيقة أن منى الحسيني من السذاجة الكافية حتى تصدق أي كذبة، ففكر في احتمالية أن آخر أدار رأسها. ولأنه شعر أنه في صراع حقيقي مع هذا المجهول؛ أُصيب بالكدر، وظل يفكر أن العالم بلا فرص متكافئة منذ نشأته، واستعاد حسه

الأصيل بالهزيمة مرة واحدة، فانتظرها في يوم أحد، وهي عائدة من عملها، يمسك بوكيه ورد أبيض، ويبتسم مثل فنان حديث العهد بالتمثيل. رأته منى الحسيني فتظاهرت أنها لا تعرفه، فاقترب منها بتصميم لتقول: «لو سمحت، لا يصح ذلك؛ فالأعين علينا.»

والحقيقة أن منى الحسيني كانت لا تزال غارقة في حب مهندس المصنع، الذي طوَّعها بكلمتين حلوين عندما عاد إليها ووعدها بالزواج، فمحت حسين الرُّز من قلبها تمامًا، وخاضت مع المهندس في حب بلا قرار، لن يتم أبدًا، وسيتركها محطمة بعدها حتى تتزوج بمديرها في العمل، بعد أن يحاصرها بالاهتمام.

لم يتقبل حسين الرُّز هذا الرفض بسهولة، وصبَّ كدره على لمبة بطاح في الناحية الأخرى، وظلت هي تتلقى ذلك بصمود، حتى قرَّبتهما حادثة وفاة جدة درية عز الدين، التي كانت قد تجاوزت المئة وعشرة أعوام، لا تحسب الأيام، وترى نفسها طفلة في زمن راكد بلا حركة. ولأن لمبة بطاح اعتادت وجودها كبركة بيت وسيدة لا تطلب شيئًا؛ بكتها كأنها أمها، وعاملتها بالاهتمام اللائق، بينما اجتاح حسين الرُّز حزن أسود وكثيف دفعة واحدة؛ لأنه أدرك أن آخر ما يربطه بدرية عز الدين قد انقطع تمامًا. كان يحب تأمل جدتها بين الحين والآخر، يدقق النظر في تعاريج وجهها الذي صار مثل زهرة ذابلة، وشعرها الأبيض الكتاني، وذقنها المميز، وبسمتها الطيبة، فيتصورها صورة من درية عز الدين عندما تتخطى وديان الشيخوخة، ويراه معها في صورة مثالية: عجوزين محطمين، يجلسان في الشرفة نفسها، ويراقبان المدينة وهي تزدحم، والعربات وهي تكثر، والناس وهي تتغير سريعًا.

وقد أظهر امتنانه للمبة بطاح لوقفتها معه في هذه الأزمة، مع أنه لم يستطع حبها، ودفن جدة درية عز الدين في المقبرة التي أوصت

بالدفن فيها منذ زمن طويل، عند السيدة نفيسة، وكانت مقبرة ممحوة الاسم، وبها باب متفسخ، ولم يحضر جنازتها سوى قلة قليلة من المحبين، مع أن حسين الرُّز قد اشترى مساحة لكتابة الخبر في صفحة الوفيات بالأهرام؛ لأن كل من يعرفونها كانوا قد رحلوا منذ أزمنة طويلة، وقد تلقى من حسن الرُّز تلغرافًا بالعزاء، بينما لم يتلقَّ أي إخطار من أمينة.

كانت وقتها قد رست على قمة حياة مستقرة، تتعامل براحة ملكة، وتكتشف جماليات العزوبية المتأخرة بعدما خلت لها شقة المبتديان، وترسخ مكانتها كسيدة مجتمع حقيقية. شاركت في معارض زهور الأورمان التي تعقد كل ربيع، وصارت عضوة في جمعيات لا تنتهي، تمارس أعمال الخير والطهي والمساعدات الإنسانية، وفي معارض أزياء، ومسابقات ظل، حتى تركت حلمي ولطفي لمصيرهما بثقة، بعد أن دخلا الطب بنجاح، وأظهرا نبوغًا حقيقيًّا يسهل عليهما تحصيل كل شيء بالسرعة والكفاءة نفسها، حتى أُطلِق عليهما لقب «توأما قصر العيني».

وكانت در الشهوار قد وصلت إلى مرحلة الصبا، وصارت ورطة من الجمال، فأشرفت أمينة الرُّز على تربيتها بنفسها، وعلمتها أصول الإتيكيت الفرنسي والرطانة ببعض الكلمات بالتركية. ولأنها درست في مدرسة الراهبات الفرنسسكانيات؛ تعلمت كل أصول ربة المنزل الناجحة، وفتاة الدراسات المجدة، ونشأت وعندها فضول لكل شيء، تسأل وتتحقق عن كل ما يحيط بها. ولأنها لم تفهم ما جرى بين والديها، كانت تحاول البحث فيه رغم تعليمات أمينة الرُّز، وتقابله سرًّا في مكتبه بالمحكمة، وكانت تثير ضجة مشهودة عندما تدخل لزيارته بمظهرها اللافت وطرافتها التي ورثتها من حسين الرُّز، وسمت العظمة البادي عليها، وكانت قد أخذت تقاطيع

درويش عبد الغني المسمسمة، وسمارًا خفيفًا مشوبًا ببياض أمينة، مع أنف الرُّز الشهيرة، ولذلك؛ كان درويش عبد الغني يقول عندما تحط مثل ورقة خفيفة أمام مكتبه: «سبحان الله يا درة، لو لم أفعل في حياتي غيرك لرضيت.»

كان قد استقر على حقيقة ندمه على علاقته براجية السيد. ولأنه يدرك طباع أمينة الرُّز الصلبة؛ لم يعرب عن أمله الحزين هذا في العودة، ورضي بحياة الإيموبيليا، فكان يمني نفسه بعزاء أن شارع المبتديان صار أقل نظامًا، وبدأت المحال تكثر فيه، والزحام الذي طال وسط البلد طاله ولكن بتركيز أكثر من الفوضى، وقد انقلبت راجية السيد أمينة أخرى عندما تيقنت من احتكارها له، فبدأت تُظهِر صفات قيادية في الشقة، وألغت المكتب تمامًا ليصير جزءًا من الصالون، وأظهرت نفسها بجرأة؛ لأن كل شيء كان قد انكشف، وهو ما سبَّب حرجًا لدرويش عبد الغني؛ إذ وقع من النظر بعد النكسة وما تم بعدها من محاكمات، ووُضِع على الرف بكل شرف؛ قاضيًا أشرف على محاكمات سياسية بلا أمجاد منذ بداية الثورة. مر بما مر به حسن الرُّز قديمًا، فاستعاد حسه المرح القديم ما قبل الزواج، وصار أكثر انجذابًا إلى زيارة بلده في دمنهور، وفهم طبائع العلاقات فيها، حتى قرر بعدها الترشح لعضوية مجلس النواب في السبعينيات، عندما افتتح السادات الحياة النيابية من جديد وقال مبتسمًا: «الآن، نبدأ عصرًا من الديمقراطية.»

وقد قابله ذات مرة وهو يخطب في مجلس الشعب إحدى خطبه الحارقة في بدايات حكمه، وعرفه من الاسم وحده، وقال مازحًا: «نحن فلاحان أحدنا مثل الآخر، ونعرف أن السياسة تشبه عمل ناظر العزبة في إدارة الأنفار وتطييب خاطر الجميع.» ثم تنبأ له بنجاح نيابي مدوٍّ، وقد أدركت در الشهوار عدم التكافؤ بين أبيها وأمها مبكرًا، عندما بدأت تلقى كل واحد فيهما على حدة، فكانت

تقول: «لا أعرف كيف تزوجا وأنجبانا وعاشا معًا تلك المدة!»

ولخصالها الكريمة؛ أحبتها راجية السيد كأنها ابنتها، بعد فاصل من الكراهية المتبادلة، وكانت تبث إليها شكواها من عزوف درويش عبد الغني عن حياته معها، خاصة بعد الطلاق. ولأنها لم تكن تفهم تعقيدات الحب بعد، ولا طبيعة العلاقة الواجبة مع زوجة الأب؛ كانت تُطيِّب خاطرها بكلمتين، عندما أقرت أنها سيدة طيبة بلا ظل ولا أسرة في النهاية، وتقول: «سيستمر معك يا طنط راجية؛ استمر مع ماما كل تلك الأعوام رغم كل شيء.»

في أثناء تنقيبها هذا، ذهبت إلى الإسكندرية أكثر من مرة، وأعجبتها المدينة من حكايات أمها عنها، وفكرت أن تجعلها مدينة حياتها بعد ذلك، وكان حسن الرُّز يحب طلتها المختلفة عن طلة بقية أفراد العائلة، ويأمل سرًّا أن تُعجَب بحسن أو راضي الرُّز، وهو ما لم يتم؛ لأنها محت فكرة زواج الأقارب هذه من رأسها، أو الزيجات التي تأتي بتوصية منهم، كما ذكرنا في السابق. كانت تربيتها المتناقضة بين أصول الراهبات وقواعدهن الصارمة، وإتقانها الفرنسية من صداقتها ببنات أسر كبيرة، وتأثير حكايات أمها عن امرأة الثورة القوية وقصص البطولة والإدارة، ورحلات أم كلثوم للمجهود الحربي، ورصانة مبادئ عبد الناصر، قد جعلتها أكثر حرية وعنادًا من أمينة الرُّز، ولكن مع نفحة محبة. ورغم طبيعتها المتواضعة، كان بها شيء من التعالي غير المفتعل، يظهر طبيعيًّا في الجلسات مع المستويات الأقل منها؛ إذ يصير صوتها رسميًّا، أو كما تقول أمينة الرُّز ضاحكة: «صوت سلوى حجازي.»

تومئ برأسها كما تفعل مذيعات الإذاعة الأكثر تحفظًا ورقيًّا، وتضع ساقًا على ساق، ليتجلى جمالها كنجمة نائية وقريبة في الوقت نفسه. عندما سألت عن سيرة خالها حسين الرُّز، الذي لا تتذكره

مطلقًا، كانت أمينة الرُّز تتجاوزها في البداية بنظرات صارمة، وتتحدث عن سوء بعض الأقارب المذكور في القرآن، ولكن، عندما شبَّت عن الطوق، وصارت أكثر رغبة في فهم مملكة العالم، لم تستطع أمينة الرُّز الاعتراض، وقالت لها دون تردد إنه أخ مارق، يعمل في مطعم منذ صباه، وله سمعة سيئة كمطارد للنساء، وتزوج فتاة ابنة حوش في شقة زوجته الراحلة بنت الناس. هذه الصفات الحارقة، التي كانت أمينة الرُّز تصف بها درويش عبد الغني مع الاحتفاظ بالأدب الكافي لعدم السب، دفعت در الشهوار إلى الشك في ما يُقال، فسألت حسن الرُّز عن حسين الرُّز ليقول: «خلاف أشقاء أنضجه العناد ورغبته في شقة المبتديان.»

حكى قصة القضية التي أُغلِقت بالورقة الخضراء، وكان يتجاوز قصة الورقة هذه بضمير معذب ونفحة من كدر عابر، وأن ثمة قضايا أخرى رفعها حسين الرُّز ما زالت في المحاكم، فقالت در الشهوار: «غريبة؛ لم أرَ في شقتنا سوى ماما وبابا منذ زمن الزمن!»

أضمرت فهم القصة بنفسها؛ بدافع حماسة الشباب، ولكنها أجلت ذلك إلى الوقت المناسب؛ لأنها كانت مشغولة في أيامها الذهبية هذه بالاستمتاع بكسر سلطة أمينة الرُّز، التي فرضتها على حلمي ولطفي؛ لأنهما كانا طبيين كما قال الكتاب، لا يتركان الدراسة ولا المشفى، وساعدتهما أمينة الرُّز بعلاقتها في إيجاد عيادة مناسبة بالعمارة المقابلة لمقهى زغلول بقصر العيني، التي سيعيشان فيها حتى الألفية، ولم يكن لهما لا في الطور ولا في الطحين، لا سينما ولا نوادٍ ولا شيء، ولهذا؛ رفضت در الشهوار هذه الحياة، وقررت ارتياد النوادي المتاحة لها، والدراسة المسائية في الجامعة الأمريكية؛ لأنها أُغرَمت بالتاريخ الإسلامي للقاهرة، تبحث تحديدًا عن فترة العثمانيين في مصر وأثر الدم التركي في العرق المصري العتيق، وكان يحلو لها مناقشة حسن الرُّز، عندما تزور الإسكندرية، في كل تلك

المباحث، حتى التحقت بالجامعة بسهولة، وبان لها زي مناسب لذوقها الحر، فصارت أول من ارتدى الجينز في أسرة الرُّز كلها، مع بلوزات خفيفة تناسب فترة السبعينيات الملونة.

كان هذا هو الوقت نفسه الذي قرر فيه حسين الرُّز زيارة تركيا؛ للبحث عن أصله المفقود، والعثور على أوقافهم الخاصة هناك، كما سمع أن ذلك يحدث. كان عبد الناصر قد مات في هذه الأثناء، ورأى أثر ذلك في ميدان عابدين؛ فبعد أن سكن الشقة وقد وُضِع في منتصفه نصب تذكاري كبير كان معدًّا لحمل تمثال الملك فؤاد، صار النصب بلا تمثال ويحمل علم مصر وحده، ورأى احتفالات الثورة تتم فيه. وخلال أعوام عبد الناصر كلها، وحتى وفاته، رأى الرقابة العسكرية المحكمة حوله، ولم تنفض إلا مع السادات؛ إذ بدأ القصر يتحول رويدًا إلى متحف مظلم، لا يهتم به أحد، مع أنه تابع لقصور الرئاسة.

لم يحزن حسين الرُّز على موت عبد الناصر، ولكنه تأثر بحزن الناس مثل الجميع، وشاهد مظاهر الفقر الواضحة على الحي، وزيادة عدد زبائن المطعم، فأضاف قدرة فول رفعت من درجة التفسخ والقدم التي تعصف بالمطعم، بمناضده الطويلة التي أُعِدَّت لأفندية محترمين، ومرآة لم يغيرها الزمن، وطاولة إعداد طعام عليها رخامة كبيرة، وصارت تفوح منه روائح العرق والزيت والتراب. ورغم ذلك، لم يتهاون حسين الرُّز في الزي الرسمي، ولم تتوانَ لمبة بطاح قط عن العمل فيه بأظفارها وأسنانها.

كانت قصة الأستاذ محمود الشوربجي في باله دائمًا: كان صاحب مسمط اسمه مسمط الأشراف في السيدة، عليه حساء كوارع يرد الشيخ صبيًّا، ويقطع لحم الرأس على نحو مميز؛ يمسك رأس الغنمة، وينزع كل اللحم من عليها مع الجوهرتين في خمس دقائق

وبلا خطأ، ويتركها بيضاء لامعة، وكان يؤدي عمله هذا بجانب عمله التعليمي، وقد كان جده الكبير الشوربجي تركيًّا من العائلة الممتدة في طول البلاد وعرضها، فعرف أن لهم وقفًا في إسطنبول بحجم حي السيدة كله، ونقَّب خلف الموضوع بجدية باحث، ووجد عن طريق محامٍ له في هذه القصص، وقد سافر بالفعل بعد أن استخرج جواز سفرٍ، ولم يعد أبدًا بعدها، فترددت شائعة بشأن حصوله على الوقف الكبير بحكم محكمة عليا في إسطنبول؛ لأن ورقه كان صحيحًا ومختومًا بالختم المجيدي السلطاني، وتزوج فتاة تركية صغيرة تشبه زبيدة ثروت، وعاش هناك عيشة ملوك، وكان يبعث معاشًا شهريًّا إلى زوجته وأبنائه، وترك لهم مسمط الأشراف هذا.

ولأن لا أحد قد رآه فعلًا بعدها؛ ذهب حسين الرُّز إلى مسمط الأشراف بنفسه، وجلس ليتناول طبق فتة مع صينية من الكرشة ولحم الرأس، ودغدغته الرائحة الدافئة الزفرة لحساء الكرشة، وأخذ يتأمل الصورة المبتسمة للأستاذ محمود الشوربجي. ولأن أبناءه كانوا يتعاملون بجدية وبشيء من عنف العاملين في المذبح كلهم؛ خجل من سؤالهم مباشرة، وغادر المطعم بعد الطعام وهو مشيع بالترحاب.

حكى للأستاذ حلمي مطاوع عن يوم المسمط هذا، فقال: «ولِمَ المسمط؟ عندنا محامٍ يمكن أن يحكي لنا كيف بدأ الخلق.»

ذهبا بعدها إلى مكتب محامٍ في وسط البلد، وكان حسين الرُّز قد كره سيرتهم بعد قصة الورقة الخضراء، والقضايا التي رفعها بعدها بلا أي أمل في الانتصار، فذهب هناك متوجسًا، وشرح الأستاذ حلمي مطاوع القصة كاملة للمحامي الذي كان اسمه صلاح أبو العلا، فاستمع بهدوء، وتحدث في البداية عن فضيلة الاستماع

لصوت أم كلثوم، وكانت تتردد في المكان كخلفية مهدئة، ودعا لها بالعمر الطويل، ثم ذكر قصصًا لا تنتهي عن أوقافًا بلا صاحب في تركيا، وقال: «الرجل أتاتورك الكافر هذا كان يُخرِج الأسر من بيوتها ويتركها خالية. يسألونه وما العمل فيها، فيقول: تُزال لإقامة طرق وكباري تجعلنا غربيين.»

ثم ذكر أن ذلك لم يتم؛ لأنه لم يُرِد وجه الله في تلك الأشياء، وظلت البيوت مكانها. ذكر بعدها أن البعض يحصلون على الجنسية الإيطالية لو كان جدهم السابع إيطاليًّا حتى. ومع قصصه هذه، شعر حسين الرُّز أنه بعيد تمامًا عن العالم الحقيقي، وأعجبته فكرة العثور على الوقف بنفسه. كانت الخطة تقتضي منه السفر إلى تركيا، كما يفعل الجميع، والذهاب هناك إلى مكتب محامٍ مصري اسمه الأستاذ برعي كلمة، له دلال عند سلطة الأوقاف هناك، يبحث باسم الرُّز، أو بالاسم الأصلي لو استطاع العثور عليه؛ لأن الأستاذ صلاح أبو العلا قال: «كما تقول، هذا لقبه، ولكن اسمه الأصلي يختلف.»

لزم الأمر من حسين الرُّز إعادة الاحتكاك بأمينة الرُّز. ولأنه لم يُرِد ذلك، فكر في السفر إلى الإسكندرية ومقابلة حسن الرُّز، وسؤاله عرَضًا عن الاسم الحقيقي الكامل لجدهم حسن، ولكنه ظل على تردده هذا، حتى ذهب إلى محاميه القديم جمال عبد الشهيد بعد أن تذكر ورق القضية، وسأله عنها، فقال جمال: «لا داعي لهذا الورق. لنذهب إلى دار المحفوظات، وهناك، ستجد تاريخ جدك السابع عشر.»

بعد شهر من المحايلات والرُّشى، وصلت ورقة صفراء إلى يد حسين الرُّز، لها رائحة دافئة ومتربة، فقرأها بوجل، وعرف اسم

جده الكامل لأول مرة. كان السائد وقتها، خاصة بعد وفاة عبد الناصر، قصة استخراج أوراق من المحفوظات؛ حتى تثبت العائلات الكبرى انتسابها إلى اسم بعينه، ليستعيدوا أملاكًا ضاعت منهم بعد الثورة، خاصة مع التسامح الذي بدأ به السادات عهده، وقصص عودة بعض القصور إلى عائلات بأسماء معروفة، ولذلك؛ راج عمل أمينة الرُّز كما لم يتم قبلًا.

ومع تكالب معارفها حولها، وتخطيها الأربعين بقوام متماسك وجمال هادئ معتنى به، شعرت بأهميتها بما يفوق العصر القديم، فصارت تساعد العائلات القديمة في الحصول على الأوراق اللازمة لتأكيد ملكيتهم، وكانت تفعل ذلك بلا أجر، بضمير حي، ولكنها تتلقى مقابل ذلك هدايا عينية لا تنتهي، فامتلأت شقة المبتديان بأجهزة تلفاز حديثة، وثلاجات أمريكية يمكن أن تجمد ثورًا كاملًا، وهاتف بلا سلك، وقلم سحري يكتب حتى النهاية، وألعاب ترقص وتؤذن وتحدد مواعيد اليقظة والنوم، ومزهريات صينية راقية، وعلب شوكولاتة بلجيكية أصلية بلا سكر، وأسطوانات نادرة لأم كلثوم وليلى مراد وبيتهوفن، وبقية مقتنيات الثراء هذه. وكانت تتلقى ذلك بمزاج طيب، وتعلمت وقتها فقط تدخين السجائر سرًّا، دون أن يراها أبناؤها، مع المقربات فقط، وقد اقترحت عليها ألفت زين الدين حينها فكرة افتتاح مكتب خاص لاستعادة الأوقاف والاستقالة من الحكومة، فرفضت أمينة الرُّز حتى لا يضيع عليها المعاش، وقالت: «هذه أزمنة سوداء، كل شيء يتغير، وأغنياء زمان عادوا من جديد.»

ولكنهن فكرن في افتتاح مكتب تديره ألفت زين الدين بنفسها، ومعها أمينة الرُّز خلف الستار.

لم يفتَتَح هذا المكتب أبدًا، ولكن أمينة الرُّز، التي اعتادت تلك

الهدايا، جعلت ألفت زين الدين وسيطًا بينها وبين بعض العائلات الكبيرة التي تريد استعادة أمجادها في هذا العالم، عندما حازت ألفت زين الدين أول ثمن لمساعداتها في مظروف ممتلئ، أعطته لأمينة الرُّز، وقالت: «هذا حقنا.»

امتعضت أمينة الرُّز، وأعلنت اعتراضها على هذا المكسب المشوش بين الحرام والحلال، وذكرت قصصًا عن الرُّشى التي انتشرت في كل مكان، والفساد الذي بدأ ينخر في كل المؤسسات، فقالت ألفت زين الدين: «نساعد الناس يا أمينة مقابل مبلغ بسيط، ونعيد إليهم حقوقهم.»

والفكرة أن أمينة الرُّز، رغم هواها الثوري وانتمائها الناصري الصميم، كانت تؤمن سرًّا بعدالة قضية بعض تلك الأسر، وترى تحويل أملاكهم إلى مدارس أو هيئات حكومية سوء استغلال حقيقي، ولذلك؛ وافقت على مضض، على أن تتعامل ألفت زين الدين بطريقتها الخاصة وفقًا لمشيئتها الحرة، وتعفي أمينة الرُّز من ظهور وجهها؛ لأنها تعرف نصف العائلات التي تريد أملاكها هذه.

أهَّلها هذا لتكوين ثروة جيدة، جددت بها شقة المبتديان للمرة الثالثة في عمر الشقة، وركبت جهاز تبريد هوائيًّا، خاصة مع ارتفاع الحرارة في المدينة، بمعدلات وصلت إلى حد التعرق صباحًا مرتين فور الخروج؛ فالشوارع كانت تنضح بالحرارة من الإسفلت ومن البنايات والناس، بلا حل ولا ظل، وجددت المطبخ، واشترت بوتاجازًا حديثًا ألماني الصنع، وثلاجة أمريكية، وكست الجدران القديمة بورق حائط عليه ورود ووجوه أطفال سعيدة، توائم جميعًا، وأكملت دورها، حتى استطاعت تأمين زيجة لطفي وحلمي من سميرة ومشيرة ابنتي ألفت. وكما تقتضي العادات، أرسلت لتُخطِر درويش عبد الغني بوجود عروسين جيدتين لابنيهما، فذهب إليها

في المكتب باليوم التالي، وهالها كبر سنه، والصلع الكامل في رأسه، فلم تمنع نفسها من الإشفاق عليه، ولكنها كتمت هذا بوجه جرانيتي وتعامل رسمي رفيع المستوى. وبعد حديث بلا دفء، سألها عن العروسين، فقالت:

- سميرة ومشيرة، ربتا منزل، ولكنهما خريجتا مدرسة فرنسية، وأمهما ألفت زين الدين، صديقة قريبة، وتقرب إلى عائلات زين الدين باشا السمنودي، وكان جدها ياوران الملك فؤاد، والأب المرحوم السيد عبد القادر شوكت، كان يعمل في ديوان الملك، ثم عمل مع حكومة أحمد باشا ماهر وتقاعد مبكرًا ثم مات لمرض طارئ.

فقال درويش عبد الغني:

- لم أشكَّ قط في صحة قراراتك يا أمينة.

فُوجِئت بخضوعه الشديد الذي كانت تستشفه من كلمات در الشهوار عليه، ولكنها شعرت بالسعادة لأنها حققت انتصارها في حياة عينها، وأيقنت -عندما رأته- أنه لم يكن رجل حياتها مطلقًا، وأنها وُلِدت وستموت دون أن تجده. كانت تمسك بنفسها وهي تفكر في جمال واحد مثل صالح سليم، تراقب طريقة كلامه في فيلم «الشموع السوداء»، فتبتسم، ثم تنام فتحلم بهما وهما يمرحان في شاطئ بالإسكندرية، وكانت تسمع قصص السيدات المطلقات اللاتي تزوجن خمس مرات وستًّا، مثل ملكات نحل، فتفكر في طرافة الفكرة، ثم تتذكر أنها في مكانة تجاوزت فيها الاحتياج إلى وجود رجل بعينه.

ومع قصص حسين الرُّز بين لمبة بطاح وسعاد أبو دشيش، ووجود مجموعة من السيدات اللواتي أحطن ببنايته بصخب وفضحنه، آمنت أن كل الرجال سواء، وأن أخاها حسن الرُّز استثناء

حقيقي. لم تمنع نفسها مع ذلك من الخيالات العسلية؛ فذات يوم، جاءها رجل أنيق رفيع المستوى، له مظهر شبابي مخاتل لا ينبئ بسنه الحقيقية، مع أنه من عمرها، وملمح رجل عاش في النعيم وشرب منه بشاربه المعتنى به، ووجه رائق تمامًا، مع كتفين رياضيتين وجسد جيد القوام، فجلس وشرح لها قصة مشفى حالي، كان دوار جده في السابق، وكلمة من هنا على كلمة من هناك، طلب مساعدتها طوعًا، وقال مبتسمًا: «الرئيس الجديد، أكرمه الله، يريد المصالحة مع الأسر التي كانت ستجود بدمها من نفسها من أجل الثورة، دون إجراءات تعسفية.»

كان قد ذهب ليحيا في فيينا بعد الإصلاح الزراعي، وتابع من بعيد عملية العسكرة لكل ممتلكاته، وكان شابًّا حينها في عمر أمينة، وعندما عاد، سمع بأفضالها في تأمين حق الدولة وحق الوارث على حد سواء. أدار رأسها بكلامه الهادئ وطباعه الخاملة، وطريقته البائدة في الحديث كفارس عصور وسطى، فأُصيبت بالارتباك هذه الفترة، وفكرت فيه ليل نهار، ولم تُسِرَّ بقصته إلى سوى ألفت زين الدين، التي ضحكت وقالت: «الله، يكون لبناتي حمو عسل.»

شجعتها على التجربة، وقالت لها إنها تستحق الحياة مجددًا، وإن جمالها يجوب الآفاق، وفكر فيها كثيرون، ولكنها لم تقل لها ذلك حتى لا تجرح مشاعرها، حتى ملأت قلبها من ذلك الكلام الجميل، ولكنها قررت تأجيل أي خطوة لتكون بعد زواج حلمي ولطفي.

وقد تم العرس فعلًا في نادي القوات المسلحة بالزمالك على ضفاف النيل، وتعاملت فيه أمينة الرُّز بطرافة واضحة، واستعاد درويش عبد الغني مكانته أبًا، ولكن فاكهة الحفل كانت در الشهوار، التي تجلت في فستان أزرق فاتح، وظهرت مثل نجمة غير

معقولة بين البشر، وقد جاء الرجل الأنيق، الذي اسمه أحمد محرز، مع بوكيه ورد أبيض وعلبة شوكولاتة أنيقة، وضعها فوق طاولة الهدايا، وظل يراقب العرس بعينين حالمتين، حتى أُصيب بالارتباك غير المحمود عندما رأى در الشهوار، وذكَّرته بخيالاته القديمة بشأن بنات الأسرة العلوية.

كان طفلًا ميالًا إلى العزلة والوحدة، ولم يكن له أصدقاء سوى الخيول والخدم النوبيين الذين علموه الرطانة باللهجة الفاجيكية وتناول الويكة والأتَّر، وكيفية السباحة في النيل البارد، التي جربها بالكيفية نفسها في الدانوب، وحيواناته التي كان يقتنيها كلما أراد، في أي وقت؛ لأن والده كان على علاقة بصيادي الجنوب، بحكم عمله في توريد فراء الثعالب إلى رجال القصر، وقد كوَّن ثروته من تلك التجارة وحدها، واشتُهِر عند رواج قضية الكتاب الأسود بين مكرم عبيد ومصطفى النحاس، عندما أُخِذ برأيه ليحدد نوعية فراء الثعالب الذي اشترته زينب الوكيل، وقيل إنه بالشيء الفلاني، وأمه سيدة طيبة، كانت تنتمي إلى أسرة شركسية لها ملمح روسي واضح، كانت تقضي الليالي وهي تحكي له -في طفولته- عن الأميرات السحريات في قصر عابدين، وطريقتهن في الطيران بالداخل، والأرز باللبن وأطباق مهلبية قمر الدين التي كن يأكلنها، وقصص أسطورية تخص الملك السعيد والخدم والحشم والشعب الطيب والبحيرات المسحورة، حتى هام بصور الأميرة فوزية وعينيها الزرقاوين، وظل وجهها منطبعًا في صفحة حياته.

ومع أنه لم يتزوج قط، وتخطى الأربعين بصحة جيدة ومظهر شاب، وكان يبحث عن هذا الوجه، وهو ما جعله يخوض في علاقات لم تكتمل مع فتيات كثيرات، منهن نمساويات كن يشبهن أميرات أحلامه اللاتي انقطعت سيرتهن عندما ماتت أمهن مبكرًا.

انتهى العرس بنجاح مشهود، وعاش حلمي ولطفي في شقتين متقابلتين في عمارة قصر العيني، وفتحا بعدها عيادة في العمارة نفسها، وقد ألقى حسن الرُّز خطبة في فرحهما، كما كان يحدث في أعراس الزمن البعيد، وتحدث عن أفضال درويش عبد الغني على مصر في يوليو ٥٢، وكان ذلك رغم فتور علاقتهما بعد قصة زواجه هذه. خلت الشقة لأمينة الرُّز ودر الشهوار، وصارت أكثر قدرة على الشعور بها كشقة حياتها. ومع تفكيرها في أحمد محرز، اهتمت أكثر بمظهرها، وأصبحت رضا من تقوم بكل شيء بلا تدخل جسدي من أمينة الرُّز.

ولأن محرز نفسه قد أُغرَم بدر الشهوار منذ رؤية العرس المنحوسة هذه؛ قرر التقدم للزواج بها رغم فارق السن. كان قد هام بعدها بأحلام من الكيك بالفراولة، وشعر أن مذاقها هو مذاق در الشهوار نفسه، وبدأ يتخيلها وهي تحيا معه في قصر المعادي الفسيح، وطرافتها وهي تتحدث، ففقد صبره، وذهب إلى أمينة الرُّز على سنجة عشرة. دخل عليها المكتب، فاستقبلته باحتفالية واضحة، وجلسا معًا في شرفة المكتب المطلة على شارع هادئ بجاردن سيتي. تناولا القهوة بهدوء كما يفعل زوجان قديمان، وتحدثا في كل شيء، ثم نظر إليها أحمد محرز بثقة وقال:

- بصراحة يا مدام أمينة، جئت طالبًا القرب.

تشرب وجه أمينة بالحمرة سريعًا، وابتسمت بخفر لائق بالموقف، فارتبك أحمد محرز، وأدرك أنها ظنت أنه يتقدم لها، فأمسك لسانه، وقال بارتباك:

- ولكن هذا ليس وقت الحديث.

كلماته المرتبكة هذه جعلتها في ورطة حب متأخرة، لم تشهده مع

درويش عبد الغني؛ فمع شعورها الخفي بقسوة حقيقة أنها زوجت ابنيها، والحياة تجري بها، تمسكت بشعور الحب المفاجئ هذا، وارتدت أمينة أيام الإسكندرية؛ تذهب إلى الكوافير كل أسبوع، تصبغ شعرها بموضة السبعينيات، أو ترتدي باروكة بلون سنجابي مناسب للون بشرتها، تشتري عوينات شمسية تأكل وجهها كله، وجيب قصيرة، وتستمع للست وفايزة أحمد تحديدًا في جلسات توحد، وتتخيل الحضور الدافئ لأحمد محرز في الشقة، وطريقته التي تقارب التخنث في التعامل، حتى استعدت تمامًا لطلبه، فلما تأخر فيه، وانقطع منه الاتصال لفترة وهو يقلب الأمور في رأسه، هاتفته لتسأله عن أحواله بصوت متلهف، فأجابها بثقة:

- لا شيء يا أمينة هانم. أُعِدُّ للسفر إلى فيينا من أجل إنجاز أعمال سريعة.

أُصيبت بإحباط حقيقي قلما زارها في سنوات عمرها المديد، ومرت بعده بكل عذابات الحب والصد والهجران، وحكت القصة لألفت زين الدين أكثر من مرة، مع تغيير في سيناريوهات أحاديثهما، وكان أكثر ما لاحظته ألفت زين الدين أنه وصفها بمدام بدلًا من هانم في المرة التي تقدم فيها، ولأنها كانت سيدة ابنة للواقع؛ قالت:

- لعله كان يريد در الشهوار يا موني. الرجال كلهم بأنصاف عقل.

شعرت أمينة بخجل طارئ، فقالت:

- ولكني لا أذكر إن كان قال يا مدام أم يا هانم!

لم تيأس أمينة الرُّز بعد ذلك، بل انهمكت في الاهتمام بنفسها بما يفوق السابق، وعاشت على خيال عودته، ولم تمنع نفسها من الشعور بغيرة خفيفة من در الشهوار، والحقيقة أن درة، التي صادقت نصف

شباب الجامعة بقلب جريء ومزاج رائق، كانت تتعامل بقدرة اجتماعية طبيعية، كأنها وُلِدت بها، وقد جعلها هذا دجاجة بكشك عند أغلب أساتذة الجامعة، وأوصلها إلى مرتبة جيدة، فأُعِدَّت من البداية لتكون معيدة. تعرفت بسهولة على عالم المدينة الذي لم تعرفه حتى الصبا. صارت تذهب لشرب قهوة إسبريسو عن مخازن البن البرازيلي أسفل سينما ميامي، وتراقب بانرات الأفلام وتغير الرسوم فوقها، وانتبهت إلى اختلاف طبيعتها عن طبيعة أفلام الستينيات والخمسينيات، فانهوست بفكرة تتبعها هذه، حتى ضبطت نفسها وقد سقطت في فخ الهوس الكامل، فنمت لديها العادة المباركة في الاحتفاظ بالأشياء والتنقيب عنها. جمعت بانرات أفلام مختلفة، واختارت الأكثر إثارة للجدل فيها، وعقدت معرضًا صغيرًا في الجامعة الأمريكية حضره كثير من الأساتذة والطلبة، وذهبت إليه أمينة الرُّز، لتلمس عن قرب حظ ابنتها الطيب في التعليم الجيد، فكانت تقول بغضب استعادي: «لم يكن في زمننا كل تلك الوسائل التي تجعل المرأة مرأة.»

رغم ذلك، كانت تخفي فخرها الحقيقي بعدم وقوع در الشهوار في فخ حب جمالها، وتراقب عزوفها عن قصص الحب بارتياح؛ لأنها خشيت من مطاردة أحمد محرز لها. سألتها ذات يوم وهما يتناولان بيتزا في محل قديم اسمه توماس في الزمالك، كان يُعِدُّها بجانب البقالة الطبيعية من بسطرمة وجبن، ومنها بيتزا خاصة بالبسطرمة، جابت البلاد بطولها وعرضها:

- هل يمكن أن تقبلي برجل في عمر والدك؟

فأجابت در الشهوار بحسم:

- لا علاقة للأمر بالسن يا ماما؛ بين السادات وجيهان ٢٥ سنة.

وقد أُغرَمت سرًّا -مثل فتيات جيلها- بسمار السادات الجنوبي، ومظهره الذي يشبه فيه مطرب جاز أمريكيًّا غير مكتشف، فكانت تتخيل نفسها في موضع جيهان، وتراقب تصرفاتها كسيدة أولى، ولعل هذا ما جذبها إلى خالها حسين الرُّز عندما رأت صورته لأول مرة؛ فقد كان أكثر أفراد الأسرة سمرة؛ إذ تشرَّبها من أمهم. أقلق ردها أمينة الرُّز، فقالت بقوة امرأة لها سلطة مطلقة على صلاحياتها:

- ولكنني لن أوافق ولو تقدم لك السادات.

فضحكت در الشهوار، وقالت:

- ماما، ما زلت لا أفكر في هذا الأمر.

كانت أزمنة حب، دخلتها در الشهوار بجموح، وأعجبها فكرة التوثيق البصري لتغيرات المدينة، فبدأت تدرسه بجدية، بجانب دراستها في قسم التاريخ، تسافر إلى الإسكندرية لتبقى في فندق الإسكندر الأكبر الدافئ رغم برودة الأجواء، الذي يعطيها حسًّا عميقًا بالامتنان للحياة، وتجالس حسن الرُّز بالساعات، تسأله عن تغيرات صور الحياة في الإسكندرية، فكان يقول لها بحنين وارتياح: «ظل الزمن مباركًا حتى نهاية الخمسينيات، بل أعدُّها عصرًا ذهبيًّا لأنها شهدت أفول الملكية لآخر مرة.»

ثم شرح كيف تغيرت الإسكندرية بعدها سريعًا، فترك التجار اليونانيون واليهود محالهم، حتى وصلوا إلى السبعينيات بما فيها من صخب وفوضى، فبدأت المدينة تهتز تحت وطأة مصايف لا تنتهي وازدحام مذهل. في سنوات عمره الستين هذه، كان قد وصل إلى حقيقة حبه الكامل لعصر ما قبل الثورة، التي كانت يردد عنها بهدوء، واطمئنان من تخطى زمن كامل من المنع: «انقلاب كامل، ولكننا خُدِعنا.»

وكان ينتقم من زيارة الشؤم إياها، عندما جاءه رجل غامض، بكتابات غاضبة عما أصاب القضاء والحياة النيابية في مصر عبد الناصر، وأسباب النكسة وأزمة الديمقراطية، وكانت در الشهوار تستمتع بالاستماع له، ويراها، فيقول لسميحة زوجته: «أبيع نصف أملاكي وتقبل الزواج بحسن أو راضي.»

ولأنها كانت تهوى التنقيب؛ حكى لها عن رمضان ابنه، وعرض عليها صورته الشهيرة بالعوينات وبالطو القضاء، وبكى عليه كأنه فقده بالأمس، وقصص جدها الكبير حسن الرُّز ورمضان، ثم عبر على حسين الرُّز عبورًا سريعًا، فسألت بفضول متقد:

- هل مات خالو حسين؟

فقال:

- ليته فعل. ولكنه مات حيًّا عندنا.

يوم

٩

قص حسن الرُّز على در الشهوار قصصًا غير مكتملة عن سيرة حسين الرُّز مع النساء، وافتتاحه لمطعم بطاطس مقلية وتركه للتعليم، وعندما لاحظ أن در الشهوار لم تتأثر بالسلب، قال: «وأنا مشفق عليه، ولكن المشكلة هي القضايا التي رفعها عليَّ وعلى أمينة الرُّز.»

لم تكن در الشهوار تعرف بقصة شقة المبتديان بحكم أنها بدأت وقت طفولتها، ولكنها فهمت أنها شقة أمينة وحسن الرُّز منذ وقت طويل، وأن نشوز حسين الرُّز كان سببًا في حرمانه من الميراث، وبالطبع، لم يأتِ لها حسن الرُّز على سيرة الورقة الخضراء، واكتفى بالتعامل معها على أنها ضرورة تبيح المحظور، مع التزامه بالتكفير عن ذنبه بصلاته الخفية في مسجد المرسي أبو العباس، وتبرعاته المتكررة لمستشفيات حكومية وتزويج يتيمات، ولكن در الشهوار، التي رأت في قصة أسرتها هذه منبعًا للفضول، التزمت الصمت ولم تُعلِّق، وظلت تفكر في حقيقة حسين الرُّز.

أقامت بعدها معرضًا شهيرًا في مركز الفنون بالإسكندرية، وثَّقت فيه قصص الأسر القديمة، ودور الترام في حياة السكندريين. ولأن حياة البحر استهوتها؛ فكرت في البقاء هناك عند زواجها، والحياة مثل عمها حسن الرُّز بعيدًا عن صخب القاهرة، ولكنها كانت تتردد عندما تعود؛ لأنها تشعر بارتباطها بوسط البلد والزمالك وجاردن سيتي، ومداخل المدينة ومخارجها، ولذلك؛ انشغلت بعد ذلك بمشروعات التوثيق البصري هذه، ودراسة التاريخ من خلال تغير الأزياء وطرق الطعام، وقادها الحظ وحده إلى اكتشاف حي المنيرة الذي تسكن فيه منذ طفولتها، والسيدة زينب بما فيها من

أحياء ظل وأزقة ومذبح، حتى رأت مطعم «درية والرُّز» ذات يوم، فلفت الاسم انتباهها.

ذهبت إلى المطعم قبيل العصر، ودخلت، فرأت الطاولات الرخامية التي بدأت تتسخ وتكتسب لونًا أصفر، والمرايا المبخرة بأنفاس الناس، ومكان إعداد البطاطس المقلية. ومع ذهولها، اكتشفت أنهم يعدون البطاطس بطريقة الشيبسي الشهيرة، وما لم تكن تعرفه أن البطاطس الشيبسي هذه قد اكتُشِفت في أكثر من مكان في العالم بسبب الرغبة المقدسة في تطويع الثمرة القاسية، وتناولها رقيقة؛ لأنه، وكما كانت لمبة بطاح تقول بعفوية: «من يأكلها بلا تقطيع يزوَر.»

وليس من الحقيقي أن أول من اكتشفها هو الطاهي جورج كروم، الذي كان قد قطَّعها رقائق وقلاها بتلك الطريقة لرجل أعمال كبير في أمريكا بمنتجع بحيرة القمر في منتصف القرن التاسع عشر، ولذلك؛ ظنت در الشهوار أنه اختراع خاص بالولايات المتحدة، فسألت عويس بجدية وبطريقة المستشرقين هذه:

- منذ متى وأنتم تعملونها بتلك الطريقة؟

فقال عويس:

- منذ خلق ربنا العالم.

فهمت أن شهرة المطعم قد قامت أساسًا على ذلك. وعندما رأت صورة حسين الرُّز معلقة، تذكرتها وهي مغلفة بخيوط الطفولة المتشابكة، فشعرت بالألفة رغمًا عنها، وسألت عن اسم صاحب المحل، فقال عويس:

- المعلم حسين الرُّز.

لاحظت لمبة بطاح ما يجري، فكتمت مخاوفها، ثم عادت ليلتها إلى البيت وهي تغلي من القلق والغضب. كانت مأساتها تتمثل في أنها لم تستطع إنجاب طفل لحسين الرُّز، ولأنها كانت أزمنة تحصر السيدات في المسؤولية عن الإنجاب؛ لم تفكر لو لحظة أن السبب يمكن أن يكون منه. كانت قد اشتكت إلى الست معالي كثيرًا، وبكت بالدم، وفكرت في الكذب عليه والتمثيل بأنها حملت وسقَّطت لأنها اصطدمت بشيء، ولكن الست معالي قالت: «ليس رجلًا بتاع عيال، هو نفسه عيل.»

كانت تكبر سريعًا، وتزداد استدارة لتتخذ شكل أمها في النهاية وسط ذهولها، وقد بدأت تتهاون في طريقة تصفيف شعرها، وارتدت غطاء شعر. ورغم استقرار حياتها مع حسين الرُّز، كانت تعرف أنه لم يعد ملكًا لها منذ زمن طويل. عندما رأت در الشهوار، ظلت تبكي ليلًا لأنها ظنت أنها إحدى معجباته، وقالت للست معالي وهي ترتعد:

- تشبه ممثلات السينما. لا أعرف ما الذي يفعله بهن ليصرن كذلك.

فقالت الست معالي:

- اسألي روحك. لا أعرف ما فعله معكِ لتلتصقي به كذلك مثل قطة حرون.

ثم قالت وهي ترفع كفيها بإصبعيها الوسطيين مشهرتين:

- إلا ذلك يا نسوان يا مستهتكة.

لم تخبر در الشهوار أمها بقصة اكتشافها المطعم، وأكملت حياتها الصاخبة. وفي تلك الأثناء، كان حسين الرُّز قد استكمل إجراءات سفره إلى تركيا. كان اسم جده، الذي قرأه، هو حسن علي

طورغوت حسن البكداشي الريزوي، وقد فهم حينها سبب تسميته بالـرُّز، وكانت المعلومات تقول إنه من نفوس الأستانة المهاجرين إلى مصر، وإن مهنته صانع لبن، وقد جعلته هذه المعلومة يضحك ويضرب كفًّا بكف ويقول: «رغم ذلك، كان الحاج والدي يقول رجل أعمال كبير.»

وقد ساعده صلاح أبو العلا في استخراج وثيقة سفر. ومع الاستعدادات، ذهب إلى الميناء في الإسكندرية لأول مرة في حياته، وهو يحمل كثيرًا من نقوده التي كسبها، بعد أن قال للمبة بطاح إنه ذاهب في عمل تجاري، وتركها تحترق بالقلق طوال فترة سفره، وكانت الطائرات والتذاكر وقتها رخيصة جدًّا. ووصل إسطنبول في يوم أحد، واستقبله رجل اسمه شعبان، قال إنه توصية صلاح أبو العلا، وأخذه في شوارع إسطنبول المزدحمة إلى نزل في قرة كوي، فنام ليلتها من القلق؛ لأنه رأى عالمًا جديدًا يموج بالخارج، ثم أطل من الشباك في الصباح، فهالته البرودة الشديدة والشوارع الحزينة الجميلة النازلة والصاعدة إلى ما لا نهاية، والشيوخ الذاهبون لشرب الشاي في كافتيريات الشاي، فابتسم؛ لأنه شعر أنه الشاطر حسين في «ألف ليلة وليلة» حقيقية.

في اليوم التالي، نزل لاستكشاف الشوارع، وأخذ يسير قليلًا بين البيوت الملونة والبيوت الخشبية القديمة، وهو مبتسم مثل طفل، يضرب الشوارع بقدميه مستمتعًا بالصوت العالي، وكان قد صرف نقودًا بمساعدة شعبان، فاشترى بوريك بالجبن، وتناول سميطًا مع مثلثات جبن بها نفحة من رائحة ثوم ما، حتى وصل إلى ميناء بشِكطاش، فركب منه عبَّارة إلى إسكودار، ولعب مع النوارس بفتات الخبز، وأنصت لصوت اصطدام العبَّارة بالمياه، والمشهد الساحر لبرج البنت، وبلع الهواء بلعًا وهو يتذكر حرارة القاهرة.

ثم نزل هناك، وسار حتى تخوم هضاب خضراء مملوءة بأكشاك خشبية وحديدية، ثم عاد مرة أخرى، وكان أكثر ما أعجبه هو تعامل الناس معه على أنه من سكان البلاد، فكانوا يسألونه بالتركية على أشياء لا يعرفها، أو يلقون عليه التحية عندما يدخل لشراء شيء، وهو ما أكد له حقيقة أنه يحمل دمًا تركيًّا، والأمر الثاني كان مجموعات الفتيات الجميلات اللاتي كانت الشوارع تمتلئ بهن في مشهد غير مصدق، يبتسمن له أحيانًا أو ينظرن إليه بشيء من الفتور، حتى امتلأ قلبه بفكرة الوقف هذه، وبدأ يخطط للتقاعد في إسطنبول، وشراء بيت بحديقة يطل على البوسفور، والزواج بفتاة تركية بعد تعلم اللغة. يومها، عقد صداقة مع بائع فطائر لحم معجون، أدرك عدم إتقانه التركية، فسأله بعربية فصحى:

- من أين مملكتكم يا أخي؟

فقال حسين الرُّز بحماسة:

- ليست مملكة مع الأسف، أنا من مصر.

أخبره البائع، الذي كان اسمه أنور فرحات، أنه تعلم العربية على يدي عالم دين تركي، تعلمه في الأزهر، وأنه قرأ كثيرًا عن فضل مصر، ثم قال بشيء من الفخر:

- مصر بلاد الأشراف والسيدات الشريفات، وقد حكمها الترك المسلمون فترة.

كان حديثًا طيبًا، انتهى بذهول أنور فرحات الكامل عندما أخبره حسين الرُّز أنه يسكن قريبًا من ثلاثة مقامات لأشراف، ومع الحديث، تناول فطائر عدة وهو يثني عليها، ثم سأل أنور فرحات عما يقوله إذا أراد البيع، وقال:

- كلنا باعة وتجار يا أخي؛ أبيع عندنا البطاطس والسجق.

علَّمه أنور فرحات أن يردد كلمة «لحمعجون» مدمجة، ومن دون ذكر الحاء كما هي في العربية، وتنغيم صوته كفاية، واستمتعا بتمثيل دور البائع ومساعده، وعند هذا، التُقِطت الصورة الشهيرة والنادرة لحسين الرُّز وهو يمسك بصندوق الفطائر ويجلس على رصيف يطل على البوسفور، ويبتسم بألق لكاميرا شاب اسمه سميح أق بولوط، كان يعمل في تصوير السياح والمناظر الطبيعية، ومع طباعة الصورة فوريًّا، راق دمه تمامًا.

وبعد أن ودَّع أنور فرحات وعرف عنوانه من ورقة صغيرة -وكان يسكن في ضواحي إسطنبول الحديثة التي خلقها القرويون بأيديهم وأسنانهم منذ عقود، وقال له أنور فرحات إن أغلب الساكنين فيها من البحر الأسود، وتحديدًا من ريزا، ثم قال: «ما دام جدك ريزويًّا فستحب إذن ريزا وطرابزون وكل مقتنيات وطننا. قال أتاتورك ذات مرة: بُورِكَ رجال ريزا؛ يحملون الوطن في قلبهم ويقيمونه في أي مكان.»- قابل شعبان على جسر جلاطة، وشربا عرقًا في مشرب ببيه أوغلو، وقال حسين الرُّز منتشيًا وهو يتناول شطيرة سمك استافرِت، ويراقب رقصة الأضواء فوق البوسفور ليلًا: «شعرت أنني من هنا؛ تآلفت مع المكان سريعًا.»

وضح له شعبان الإجراءات التي يجب اتخاذها، وحدد له مكان مكتب متابعة الأوقاف بمنطقة تِبي باشِ، وذكر له اسم مخلص الملكيات هناك؛ عبد الحي رمضان، وأنه سيعرف كل شيء فور رؤيته، ثم سأله بجدية:

- هل معك مال كافٍ؟ أوصاني عليك عم صلاح، وهو عزيز وأفضاله علينا.

فقال حسين الرُّز بحماسة العرق:

- الحمد لله، مستورة، جئت من أجل إتمام الأمر، ولن أعود قبل ذلك.

حكى له شعبان بعدها عن قصص نجاح نزع الملكيات القديمة وقت العثمانيين وبدايات الجمهورية لحالات مشابهة، أشهرها حالة موظف في المالية اسمه الأستاذ فوزي النمر، جاء من القاهرة وتقصى وبحث حتى وجد أنهم يملكون قطاعًا جيدًا من حي بلاط، وأخبره أنه يملك الإقامة الآن ومتزوج بفتاة تركية تحل من على حبل المشنقة، وذكر له فضائل فتيات البلد المتدينات، فحكى أنه رأى ملكات جمال يلتزمن بالأدب الكافي مع الزوج واللباقة في الحديث واللياقة الطبيعية في مساعدته على خلع حذائه وثيابه، وانتظاره مثل فلاحة طيبة حتى يعطيها الإشارة لتقديم الطعام أو الشراب، وأن من يراهن في الشوارع هن من بنات إسطنبول المتغربات، اللاتي يضاجعن أي كلب بلدي بأي مكان، ولكنهن لا يمثلن غالبية فتيات البلد اللاتي تربين على الدين والمبادئ.

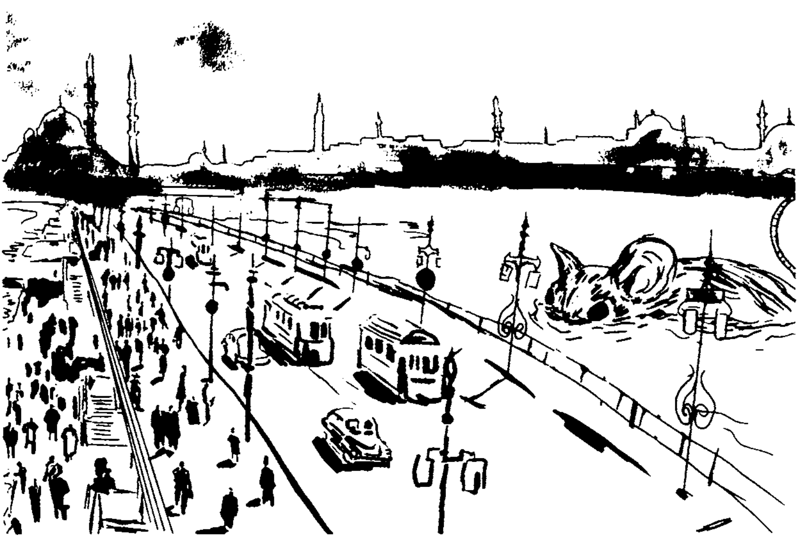
هام حسين الرُّز في قصص إسطنبول هذه تمامًا، وعندما تذكر، سأله عن الأستاذ محمود الشوربجي، الذي اختفى تمامًا، فقال شعبان بقلق طارئ: «لم يمر عليَّ هذا الاسم، ولكن لعله تزوج وبقي هنا؛ كثيرون لا يعودون.»

والحقيقة أن حسين الرُّز، عندما يتذكر الأحداث نفسها بعدها، يُفاجَأ أنه كان يسير كأن العالم ملك له؛ يجوب شوارع خلفية في بيه أوغلو بلا قلق، ويمر على مقابر منسية بين البيوت، ويتأمل مجموعة من البيوت الخشبية التي تنبعث من نوافذها أضواء خفيفة وأصوات تلفاز، ويدخل صالونات الشاي، يجلس ويشرب عشرة أكواب على الأقل، مستمتعًا بمذاق الشاي الذي عرف بعدها أنه

مـن ريـزا، بلـد أهلـه الأسـاسي، ويبتسـم للشـيوخ والشـباب الجالسـين، يتمتعـون بالـدفء والصمـت عـلى هامـش الحيـاة، وكان ذلـك مـع أنـه لا يعـرف شـيئًا عـن أي شيء، وهـو مـا جعلـه يـردد بعدهـا بيقـين: «كنـت كأن ثمـة مـلاكًا يحرسـني.»

كان كأنـه في مغامـرة بـ«ألـف ليلـة وليلـة»، ينتظـر دعـوة حـب مـن أحد البيـوت التـي يسـير بينهـا، يقـف في شـارع مرتفـع، ينظـر منـه إلى أحيـاء متداخلـة أسـفله، تتصـل في مـا بينهـا بدرجـات لا تنتهـي، فيبتسـم بتهيب وهـو يتصـور كل القصـص المتناثـرة هنـا وهنـاك، ويتذكـر كلام شـعبان عـن فتيـات تركيـا، فيتصـور رائحتهـن وطبيعتهـن وقـت ممارسـة الحـب.

كان المكتـب في شـارع صغـير جـدًّا في تِبـي بـاشِ، وقـد ذهـب إليـه بسـهولة وفقًـا لأوصـاف شـعبان، في السادسـة والنصـف صباحًـا كـما طلـب. كان واقعًـا في طابـق ثـانٍ مـن بنايـة مليئـة بورشـات الخياطـة وصناعـة الأحذيـة الرياضيـة. دخـل، ففاحـت رائحـة عطـن وبـراز فئـران متكلـس، يسـتطيع تمييـزه بسـهولة، مـع نفحـة مـن بصـل مقـلي.



صعد إلى الطابق الثاني، فوجد المكتب على الميمنة، وقد كُتِب عليه بالعربية «أراضي الشمس». استبشر خيرًا، وطرق الباب وهو يفكر في حقه القادم الذي سيأخذه دون أن ينازعه أحد. فتح له الباب رجل قصير وأصلع، لم يستطع تمييز جنسيته، ولكنه حيَّاه بالتركية كما تعلم من أنور فرحات، ودخل فوجد الأستاذ عبد الحي رمضان. فُوجِئ أنه تركي يتحدث بعربية فصحى سليمة. صافحه بحرارة، وقدم له الشاي المتخمر، وعرض عليه ملفات لا نهاية لها، وقال: «كلها أراضٍ وبيوت معلقة إما لشجار على الميراث وإما وفاة كل الورثة.» ثم أضاف: «مع أن ربنا علمنا أصول توزيع الميراث، وكذلك حضرة النبي.»

كان في المكان شيء موتر، لم يحدده حسين الرُّز حينها، ولكنه وصفه بعدها أنه نفحة من الملاك الحارس تخبره بحقيقة ما يجري. طلب منه الأستاذ عبد الحي رمضان الانتظار، وسأله عن ورقة المحفوظات وبعض الأوراق اللازمة، ثم خرج من الغرفة. خلال دقائق، لا يعرف حسين الرُّز ما دفعه إلى النهوض والاقتراب من النافذة للنظر إلى الخارج. رأى زقاقًا صغيرًا شبه معتم، يقف فيه أربعة شباب يدخنون بهدوء ويتبادلون الحديث بصمت مفتعل. وخزه شعور بقلق لا سبب له، وشعر أن المدينة قد استحالت عدائية بالكامل، فخرج من المكتب. وجد الصالة فارغة. نظر ناحية الميمنة في البداية، فرأى عبد الحي رمضان واقفًا في شرفة جانبية، ينظر إلى الشارع.

تردد قليلًا قبل أن يغادر الشقة، ولم يرَ الرجل القصير نفسه، ثم غادر البناية كلها، وبدأ يهرول في الشارع. وعندما نظر خلفه، رأى الشباب الأربعة وهم يهرولون. لاحقوه حتى شارع صغير مكتوم، يطل على مجموعة من بيوت خشبية محترقة، وقلَّبوه بينهم بلا ضمير، وأخذوا ما تبقى معه من المال، ثم تركوه وقد صارت

قدماه عجينة، فعاد إلى الفندق ببطء وهو لا يرى المدينة إلا من خلال غلالة من السواد. وفي الصباح التالي، بعد نومة خاض فيها ببرك كوابيس عفنة، مغلفة برائحة براز الفئران، في أزقة لا تنتهي، تطارده كلاب بأقدام بشرية، استيقظ ولم يفطر، وأخذ حقيبته، ثم ذهب إلى الميناء بالمال المتبقي.

كانت كارثة لم ينسَها أبدًا، ولكنه خففها مع الزمن فصار يحكيها لمجموعة قهوة الماوردي وهو يغير في بعض الأحداث، أو يضيف ردة فعل عنيفة قام بها عندما حاصره الأربعة، ولكنه لم يتوصل أبدًا إلى ما كان سيجري معه لو بقي في المكتب. ورغم محاولات الأستاذ حلمي طايع إقناعه بأن يكتب محضرًا في حق الأستاذ صلاح أبو العلا؛ لأنه المسؤول عن سفرة الخراء هذه، أصر على تجاوز ما جرى، خاصة عندما ذهبوا إلى مكتب الأستاذ صلاح أبو العلا فوجدوه قد صار مقرًا لجريدة يسارية مغمورة يديرها مجموعة من الهواة الرائقي المزاج.

عدَّ حسين الرُّز هذه الحادثة دليلًا على اختفاء الأستاذ محمود الشوربجي لسبب سيئ، وقرأ بعدها بفترة طويلة في جريدة مسائية عن عصابات السرقة والخطف وتجارة الأعضاء في إسطنبول، فتوصل إلى تصور مخيف عن هذه القصة، ولكنه أيقن بنحسه الأبدي رغم نجاته، وقال بجدية حينها: «وُلِدت وقد كُتِب عليَّ الحرمان من مال أهلي.»

عندما عاد حسين الرُّز من سفرية الندامة هذه، كانت لمبة بطاح قد كبرت عشر سنين في غيابه. كان تقضي وقتها في تنظيف الشقة بلا ملل، ومطاردة النمل والفئران، وعندما ترى عنكبوتًا يعشش في زاوية من الزوايا، تنفضه بعنف وتردد: «يا رب الناس أذهب البأس وصبِّرني وحافظ على بيتي.»

كانت قد فقدت كثيرًا من وزنها واطمئنانها مع وفاة الست معالي. والقصة أن المرأة الصامدة المباركة، التي كانت قد قاربت التسعين، وتجاوز وزنها المئة والعشرين كيلو، فصارت تجلس على مقعدين معًا في الوقت نفسه، وتنهض بصعوبة بصوت مميز مثل انفتاح باب قديم، قد أُصيبت في عركة ظل لا داعي لها، عندما كانت تحاول الفصل في شجار بين فتاة وشاب من أحد صبيان القصَّابين، فقالت وهي تشخر: «قرن كامل من خلصني وأخلصك. كفاكن جريًا وراء الخرطوم النجس هذا يا ولاد المومس!»

ضربت الشاب رغم السن، وأمسكت الفتاة من شعرها، وجرَّتها معها وهي تشتم في الزمن السيئ، وتقارن بين قصص الماضي والحاضر، وتُعدِّد مظاهر ضياع المذبح ونهاية المعلمين الكبار، وكان ثمة صبي قصَّاب صغير يشاهد ما يجري باهتمام، ولأنه انفعل بجمال الفتاة، التي تجرها الست معالي، وبالشجار الكوني الذي جرى، وأثار غبارًا علق في سماء المذبح وقتها ليومين؛ لم يحكم إمساك ثور صغير كان يتجه به للذبح، فركض بلا وجهة، وفتش عن الحرية بين أدغال المشاهد الملونة الفاقعة لبشر بحجم الجبال، وعندما وجد جبلًا أكثر بروزًا من بقية الجبال ينظر إليه بتحدٍّ، دخل فيه بحكم الخوف وحده، ولم يكن سوى الست معالي، التي وقعت وهي تصرخ صرخة عظيمة. ذُبِح الثور في وقتها، عندما أُمسِك به، ونُقِلت الست معالي بعربة نقل صغيرة إلى بيتها، ووسط فتياتها اللاتي لا حصر لهن، وطاسات الكرشة وقوائم العجول والرؤوس والألسنة، وأسلمت روحها بعد يوم وهي تقول: «ما يقدر على القدرة غير ربنا يا أختي.»

وكانت تُحدِّث أختها، التي تُوفِّيَت منذ قرن في سن الخامسة، عندما وقعت من فوق هضبة تل العقارب القديمة في حفرة بلا قرار، فجمدت قلب الست معالي وجعلتها على كل هي عليه.

لم تسأل لبة بطاح زوجها عن تفاصيل ما جرى، ولكنها لاحظت خذلانه، فاستقبلته بفرحة حقيقية، وقصت عليه بعض المشكلات التي جرت في المطعم بغيابه، والرعشة التي أصابت يد عويس اليسرى وكادت تؤثر على قدرته في ملء الشطيرة وخدمتها بالبطاطس المقلية. ولأنها كانت تدرك حبه لممارسة الحب تحت الدُّش؛ دفعته إلى هذا وقد سكنها اليقين بأنه ليس لها غيره في مملكة هذا العالم. لم تشكَّ لحظة في قرارها القديم بقبولها أن تشاركها فيه أخرى، ورغم تخطيه الستين، كانت تراه بهيئة من في الأربعين، بينما خط عليها الزمن خطوطه، وقد حكت له عن الفتاة السينمائية التي جاءت إلى المطعم مرة، وسألت عنه، ثم قالت بخيبة أمل: «فتيات الزمن ده شديدات الجمال.»

هاله شعوره بأنه يتحدث مع صورة تشبه صورة أمه التي نسي تفاصيلها، فعاملها على نحو أكثر لطفًا، وبدأ يحكي لها بعض نوادره في إسطنبول، وكان ذلك بدافع الاعتياد أكثر منه بدافع الحب. ومع الوقت، استعاد حياته كما هي، ولكنه أكمل طريق هوسه بقراءة «ألف ليلة وليلة»، والتجول في وسط البلد ليلًا للبحث عن مغامرة عاطفية محسوبة بعناية.

كانت أمينة الرُّز قد محت أحمد محرز من قلبها بعد غيابه المفاجئ، ولكنها واجهت حقيقة السن بإجراءات جديدة بدأت تلتزم بها بصرامة، وأعطت رضا الخادمة تعليمات الليل والنهار حتى تُنفَّذ: تشرب ليمونًا ساخنًا في هدأة الصباح، ثم تتبعه بملاعق من عسل السدر الجبلي، وبعدها، تتناول إفطارًا من ورقيات كاملة وخضروات بلا تقطيع، خلاف الجبن الرومي، وقد منعت دخول اللحوم المصنعة مثل المرتديلا والبسطرمة نهائيًّا، ثم تشرب ليمونًا في منتصف النهار، ثم كوبًا ثالثًا ليلًا، وتتحمم بدُش بارد، حتى تورد

وجهها خلال أشهر قليلة، وبانت في سن أصغر من سنها.

وقد أكملت عملها بلا مخاوف، توسع في دائرة علاقاتها، وتزور حلمي ولطفي في شقتيهما مع ألفت زين الدين، مستمتعة بدورها الجديد كحماة، ثم تجلس معها في شرفة شقتها بعمارة قصر العيني نفسها، تتابعان معًا العربات التي تمر بين الحين والآخر. لم تكن تدرك أن أحمد محرز قد تتبع در الشهوار منذ أن رآها في العرس، وزار الجامعة الأمريكية بدعوى حضور أحد معارضها عن بانرات الأفلام وجماليات لافتات الإعلان بالقاهرة، ودخول لافتات جديدة لمنتجات كانت ممنوعة في زمن عبد الناصر، فأثنى على اختياراتها، وحدثها بهدوء عن أهمية الفن في أوروبا، وقال لها برطانة مستغرب: «الناس هناك يتنفسون الفن مثل الماء والهواء.»

وقد تعاملت معه در الشهوار بطرافتها المعهودة، ولم تربط بينه وبين الرجل الأنيق الذي كان يجلس على طاولة وحده، وقت عرس أخويها، يبتسم لأمها بوقار، ولكنها فُوجِئت بعدها بظهوره في أماكن غير متصورة. كانت تراه بعربته الحمراء المكشوفة السينمائية هذه قرب سينما مترو، وهي تسير على مقربة لمتابعة البانرات الجديدة، أو عند البن البرازيلي، يتناول فنجان إسبريسو، أو قرب الجامعة في ساعة الخروج، أو يحضر معرضًا كان ستحضره، حتى ربطت بين كل تلك المصادفات بسهولة، فابتسمت له ذات مرة، عندما ابتسم لها، واقتربت منه، ثم سألت بهدوء:

- سيد أحمد، هل هذه مصادفات؟

فقال وقد ارتبك فجأة، وعلا وجهه عرق بارد:

- لا يا در هانم، ولكنها بقصد المعرفة وطلب القرب.

فقالت در الشهوار ببساطة:

- هذا شيء يشرفني، ولكنني لا أريد الزواج حاليًّا.

ثم غادرته وقد أنهت القصة تمامًا. كانت منتشية بما تفعله، وتهيم في بحار الانشغالات بمشروعاتها التي لا تنتهي، تشبه في ذلك أمينة الرُّز بعملها في الأوقاف، مع دخولها السهل بين عوالم أمها وعمها الكبير وأبيها، ولم تغلق قلبها عن الحب -كما قالت لأحمد محرز- ولكنها تركته يأتي إليها كما يجب أن يأتي. تلقت عروضًا كثيرة من معيدين في الجامعة، فكانت ترفضها بسهولة، ووضعت حدًّا بينها وبين زملائها في القسم، جعلها عصية على الخروج من خانة الصداقة إلى الحب، ولذلك؛ كانت بالمزاج الرائق الكافي لتقرر زيارة المطعم مرة أخرى، وتواجه قصة عمها بدافع الفضول وحده.

ذهبت يومها وهي ترتدي بنطال جينز فاقع اللون وبلوفر أبيض به خطوط حمراء جميلة، ودخلت المطعم، فرأت الجميع في الداخل، ومنهم حسين الرُّز. رآها فلم يميزها، ولكنه ميز جمالها الملكي هذا، فاتسعت عيناه، ونظرت لمبة بطاح إلى المشهد بحزن، وقالت حتى تُعلِمه أنها صارت تقبل أي شيء: «هذه من حدثتك عنها.»

عمل لها الشطائر بنفسه، وأغرقها بالطحينة والبقدونس، وغلفها بعناية واضحة، ثم أعطاها لها وهو يقول مبتسمًا:

- خطوة عزيزة، ننتظرك مجددًا.

فقالت له بابتسامة مشرقة:

- لم تميزني؟

ارتبكت لمبة بطاح، وانتقل إليه الارتباك نفسه، فحاول تذكر حبيباته المتناثرات بين الليالي، اللاتي لم يستمر في حب واحدة منهن أكثر من أسبوع، ولكن در الشهوار حسمت القصة بتعريفها بنفسها:

- أنا در الشهوار، بنت أختك يا خالو حسين.

حتى وفاته، سيعدُّ حسين الرُّز در الشهوار ابنته التي لم ينجبها، والتي ندم معها على عدم إصراره على الإنجاب أو سعيه فيه، تحت وطأة حسه الأصيل بالتوحد. تنفست لمبة بطاح الصعداء، وقالت على وقع السعادة الطارئة:

- خطوة عزيزة يا بنت الغاليين.

ارتبك حسين الرُّز حينها، وترك مكانه، وخرج بها إلى الشارع مُرحِّبًا، ثم قال للمبة بطاح:

- سنسبقك على الشقة.

سارا معًا في الشوارع بخجل غريبين يتعرفان لأول مرة، وكانت تتأمل حيويته البادية وهو يشرح لها بعض الأماكن، وينظر بغضب إلى الناظرين إليها من الشباب، ويرفع ذراعه بفخر ليُحيِّي بعض الجالسين أمام محالهم؛ لأنه يسير بجوار تلك الجميلة، وقد مسَّت وهج جاذبيته عن قرب حينها، وحدتها في حيويته هذه رغم تخطيه الستين بالمرتاح، وابتسامته الحلوة، ووجهه الأسمر الحنطي الذي يختلف عن ألوان أمينة وحسن الرُّز، وطريقته الدافئة في الكلام كابن للشارع.

صعدا معًا إلى شقة عابدين، وسألها عن أحوالها وهما يجلسان في الشرفة، فحكت له عن مجال دراستها في التاريخ والفن، فقص عليها التغيرات التي جرت على ميدان عابدين، منذ الملكية حتى الثورة، وما بعدها، وأشار إلى صينية الميدان الخالية فقال:

- كان ثمة نصب تذكاري جميل فترة طويلة، كانوا سيضعون عليه تمثال الملك فؤاد الله يرحمه، ثم نزعوه ووضعوا علم مصر، وبعدها، نزعوا النصب التذكاري كله.

حكى لها عن أنواع الدبابات المختلفة التي طوقت القصر،

واختلاف ألوانها، ثم اختفائها تمامًا مقابل عربات الجيب العسكرية، ثم قال:

- وأعتقد أنهم سيغلقون هذا القصر إلى يوم يُبعَثون، فلا استغلال له ولا شيء.

لاحظت در الشهوار أنه يتحدث بحميمية عن القصر كأنه مالكه الأصلي، ويسرد قصصًا من عابدين بدقة مؤرخ، ثم أظهر لها نسخه السحرية من «ألف ليلة وليلة»، وقلَّب لها الأوراق المتربة، وقال لها إنها نسخة أصلية، آلت إليه من بائع عاديات ومستعملات، كانت ملكًا لأحد الباشوات القدامى. كان يفعل كل ذلك بحماسة واضحة، ترتعش يداه ويزيح بعض الأشياء جانبًا بعنف خفيف، ويضحك بارتباك، وهو ما علقت عليه لمبة بطاح بعدها بقولها: «عرفت أنه كان يحب أهله جدًّا أكثر مما تصور.»

امتدت جلستهما إلى المساء، وأعدت لهما لمبة بطاح طاجن دجاج بالبطاطس، مع فضائل المحشي، وتناولوا الطعام فوق السفرة التي اختارتها درية عز الدين ولم يغيرها الزمن، وقد لمحت در الشهوار صورتها، فسألت عنها، فقال بهدوء:

- بنت الحلال والأصول، زوجتي السابقة.

ثم قال عندما لاحظ كدرًا على وجه لمبة بطاح:

- وهذه أيضًا بنت حلال.

لم يذكر كلمة الأصول، وهو ما ستعاتبه عليه لمبة بطاح بعدها وتدخل معه في شجار حامٍ، بعد عزوفها الطويل عن مواجهته بأي نقيصة، وقد انتبه حسين الرُّز حينها إلى التشابه بين اسمي درية ودرة الشهوار، فخلص إلى حقيقة غير مؤكدة أن أفضل نساء حياته يحمن حول اشتقاقات اسم الدر، وعدَّ در الشهوار ابنته التي لم ينجبها.

عندما همت بالمغادرة، قال لها بصدق:

- هذا بيتكِ، والمطعم مطعمكِ، وأنتظركِ؛ بيننا كلام كثير.

شعرت در الشهوار بسعادة حقيقية، وأدركت مدى دقة وصف الخال بالوالد، وكان أول ما أيقنت به هو أن حسين الرُّز يمثل الوجه الشعبي القُح لأسرتها. ورغم إدراكها أن ما قيل عن علاقاته النسائية التي لا تنتهي، ويقينها من هذا من خلال شاربه المصفف بعناية، وحركاته الجاذبة بطريقة طبيعية، وإتقانه الموهبة الأفضل عند أي رجل: دفع المرأة التي أمامه إلى الشعور بأنها ملكة هذا العالم؛ فإن هذا جذبها إلى شخصيته، وبدأت ترى صراعه مع أمها وعمها صراع طبقات أكثر منه صراع إخوة على شقة.

كتمت خبر زيارتها هذه، وقررت الكتابة عنه، وعمل معرض فني عن تاريخ شارع المبتديان والمنيرة من خلاله، ثم من خلال شقتهم، وكانت تفعل ذلك بتكتم بالغ، واستمتعت بسعادته الواضحة وتأنقه المفرط عندما يقابلها في جروبي أو أي مقهى شهير، يجلس معها مثل أب، ويراقب انفعالات الآخرين بابنته، حتى اكتسبت صفات شعبية من علاقتها به، فصارت تُدخِل كلمات بعينها إلى أحاديثها، وتهوى تناول أطباق المكرونة من العربات، بدلًا من المطاعم؛ لأنها أكثر لذة، وتردد كلمة «روح أمك» بثقة عندما ينظر إليها أحد في الشارع، وقد لاحظت أمينة الرُّز هذه التغيرات الخفيفة، فاستعادت مخاوفها القديمة من وراثة أحد أبنائها جين الشوارعية من حسين الرُّز، فقالت لدر الشهوار ذات يوم:

- تركتكِ حرة دائمًا، ولكن احذري من الشارع والتأثر به.

فعلقت در الشهوار:

- يحتاج هذا الزمن إلى المزج بين البيت والشارع.

كانت قد بدأت تلاحظ الفروق الواضحة بين صور القاهرة القديمة وصورها في السبعينيات؛ ملابس الناس، وطرق تعاملهم بعضهم مع بعض، وطبيعة الشوارع والبيوت والأحياء، وكان شارع المبتديان، حيث عاشت طوال عمرها، محطة مناسبة لدراسة هذه التغيرات؛ فنصفه القريب من السيدة زينب، الذي تقع فيه بنايتهم، مر بتغيرات كبيرة، وبدأ يميل إلى الفوضى رغم كل شيء، كما كانت وفيات الأسر القديمة وانتقالها تورد جيرانًا جددًا من السيدة نفسها، لا يمتازون باللياقة الكافية ليراعوا قواعد الجيرة، ويأتون بكل ما تعلموه في الأحياء الخلفية، وافتُتِحت قهوة في حرم الشارع، أمام دار الهلال، فجلبت المارة والغرباء للجلوس، فصارت أمينة الرُّز تنظر من الشرفة وتقول: «عشر سنوات ويصير الشارع خرابة.»

لم تتوقف در الشهوار عن زيارتها لحسين الرُّز ولا درويش عبد الغني، حتى تخرجت في الجامعة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف،



وحجزت طائرة إلى ولاية أيوا بأمريكا، لتكمل دراستها العليا هناك. كان يوم سفرها يومًا مشهودًا؛ فقد جاء حلمي ولطفي بزوجتيهما وابن الأول وبنت الثاني الصغيرين، وعقدوا لها حفلة عشاء صغيرة في الشقة، قدمت فيها أمينة الرُّز ديكًا روميًّا كاملًا؛ لأن الديوك الرومي كانت قد بدأت تظهر في الأسواق على استحياء باعتبارها فتحًا من فتوحات الزمن الجديد، وحضر درويش عبد الغني لأول مرة منذ أعوام إلى شقته، فنظر في أرجائها بحزن واضح وحنين أثر على تقييمه لحياته مع أمينة، وجلس وسط أبنائه وأحفاده سعيدًا مثل جد يستحق مكافأة نهاية خدمة، ولم تأتِ معه راجية السيد، وهو ما عاتبته در الشهوار عليه إذ قالت:

- يا بابا، طنط راجية لا تستأهل ذلك.

فقال لها بهدوء:

- منذ زمن بعيد وقد عزلتها، ولا ينفع الآن ظهورها.

كانت حياته معها قد وصلت إلى ضفاف الركود منذ زمن طويل، خاصة مع عدم إنجابهما رغم محاولاتها، والحقيقة أن درويش عبد الغني كان يضع لراجية السيد مسحوقًا من حبوب منع الحمل سرًّا، قبل ممارسته للحب معها، حتى تباعدت فترات ممارستهما هذه، وصارا يؤديانها بحس بالواجب وبلا حماسة.

كان عمله قد قل كثيرًا بعد أزمنة ناصر. وعندما رشح نفسه لمجلس الشعب، عن دائرته في دمنهور، استعاد إعجابه القديم برجال القرية في أزمنة الوفد والملك، فتعامل مثل باشا قديم، وذبح أضحية مقابل الفوز، ودفع على الرأس جنيهًا كاملًا، في زمن كان الجنيه يفعل فيه الشيء الفلاني، وانتصر في حملته بلا منافسة تُذكَر، ودخل مجلس الشعب، فرأى السادات وهو يخطب فيه خطبه

التاريخية المعروفة، واستطاع حينها الخوض في حياته هذه، بعيدًا عن حبه الميت مع راجية السيد، وقصته الفاشلة مع أمينة الرُّز، فقرر أن يعيد تخصيص جزء من شقة المبتديان لتكون شقة لخدمة مواطني دائرته، وذهب إلى القرية فأقام مكتبًا من غرفة صغيرة في دوار عائلة عبد الغني، بين زرائب البغال التي تربيها أسرته منذ عقود طويلة، وتعتاش عليها بسهولة، فكان نشيطًا في البداية للاستماع لشكاوى الجميع، يرتدي الجلباب الفلاحي، بلون أسود غامق، ويجلس وهو يحتسي السحلب أو الحلبة، ويردد بألق: «خير إن شاء الله.»

وفي أثناء ذلك، بدأ يدخل في وحل المحسوبيات التي لا تنتهي؛ إذ كان يساعد في توظيف ابن شريك تجارة لأسرته، أو في عملية استيراد لأجهزة تبريد وثلاجات حديثة وشاشات ملونة، وكان يقبض الثمن من خلال توريد بعض تلك الأجهزة إلى بيته؛ إذ كانت تأتي في صناديق كبيرة مكتوبًا عليها «إلى سيادة المستشار»، وكان السبب في توريد جهازي التكييف الأمريكيين إلى شقة المبتديان، رغم اعتراض أمينة الرُّز في البداية، ولكنه أخطرها بأدب قائلًا: «ألا يجوز لي تكييف حياتكِ بعد أن كيفتِ حياتي طوال ذلك الزمن؟»

كان يغازلها ليستفزها ويلاعب مشاعرها، فتقابله بوجه صلب، يتذكر معه علاقتهما غير المتكافئة، وكان يخفي داخله خشية حقيقية من إقدامها على الزواج؛ فمع نظامها الصحي الصارم، ازدادت أمينة الرُّز شبهًا بكل سيدات الأسر الكبيرة التي تعرفت عليهن في عملها، وصار لها هيئة ملكية، ورغم ابتعادها عن دمج اسمها باسم درويش عبد الغني منذ طلاقهما، كانت تقول في المحافل غير الرسمية إن طليقها مستشار سابق وعضو مجلس شعب حالي ناجح.

كانت قد ساعدت في ذلك الزمن الذهبي أسرة الشواربي الشهيرة

في قليوب على استعادة قصرهم الكبير الكائن على مدخل المدينة، وقطاع من المستشفى العام الذي كان ملكًا لهم، وقطعة أرض خالية ستصير محطة بنزين يديرها حفيد بعيد من أحفادهم بعد أربعين عامًا، فحازت عن طريقهم شهرة إضافية إلى شهرتها. ولأن السادات كان قد أعطى الضوء الأخضر للمصالحة مع الماضي؛ نما دورها كحلقة وصل حقيقية، ولكنها لم تعاود التفكير في أمر زواجها مرة أخرى؛ فمع يقينها القلبي بأن أحمد محرز كان يريدها، ثم أراد در الشهوار بعد أن رآها، امتنعت عن تلقي عروض الحب الخفيفة التي كانت تأتيها كثيرًا في هذه الأيام، من باشا عجوز يقارب الموت، ويريد خليلة بنت ناس، أو سيدة فاضلة لم يتزوج ابنها لسبب ما، وتخطى الخمسين وهو يروض الخيول ويحيا على عائد إيجار شقق عدة في مصر الجديدة، في قصر آيل إلى النسيان، فكان ترفضها بأناقة، وتؤكد أنها صارت جدة ولها أحفاد.

وحده حسين الرُّز لم يتوقف عن محاولاته العاطفية حتى بعد تعرفه على در الشهوار. كان جمالها غير الخفي والدفء المنبعث منها، وهي تجلس قرب منه، تتحدث معه عن التاريخ والأفلام والمدينة، يعيده إلى دفء جسد فتاة الحمام التي لم ينسَها أبدًا. ولأنه اعتاد لمبة بطاح حتى صار يراها مثل أخت غير رسمية؛ شعر بالقلق من السن، وأصابه توتر مفاجئ من جريان العمر دون أن يعثر على حب حياته. ومع تقليبه الذكرى بين فتيات حياته، وحكاياته عنهن، التي كان يرددها على در الشهوار، كانت تبتسم وتقول:

- كنت رشدي أباظة خالص يا خالو.

فيبتسم ويقول:

- مع أن قلبي قلب عبد الحليم.

كانت قد أيقنت أن طريقته في الحياة تخصه هو، بكل تجاربه النسائية ومحاولاته التي لا تنقطع عن البحث عن شيء لا يعرفه، فأظهرت له تعاطفًا حقيقيًّا، وكانت تتلقى قصصه بابتسامة مرحبة، وأثر ذلك فيه عندما سافرت إلى أمريكا للدراسة، فاكتشف أبعاد شعوره بالوحدة، وفتح نفسه على تجارب جديدة. صبغ شعره الذي يؤول إلى البياض، والتزم بقص شاربه على شكل المسطرة، مثل دونجوانات الزمن القديم، وبدأ يضع عطر الوان مان شو الذي بدأ يُشتهَر في المدينة في تلك الأثناء، ويتشبه بالسادات في طرق لبسه وقيافته، فكان يقول على قهوة الماوردي، عندما يدخل عليهم بألقه الجديد، جزءًا من خطبة السادات الشهيرة في نصر أكتوبر: «قررنا أن نواجههم بالنابالم في ست ساعات.»

كان يسير في الشوارع بلا وجهة بعينها، ويتخيل نفسه شهريار «ألف ليلة وليلة». ولأن زبائن المطعم صاروا أكثر جدية، وخف عدد الفتيات المرحات اللاتي كن يأتين فيفتحن معه الحديث ويضحكن في وجهه؛ صار يبحث حوله في السيقان المكشوفة والجينز الجديد والشعور المستعارة الملونة، حتى زلزلت فتاة اسمها شيماء شعبان حياته.

كانت قد أتمت التاسعة عشرة في العام الماضي، بنت على ثلاثة أبناء لعم شعبان غفير عمارة عبد الكريم في المبتديان، وأمها السيدة الصابرة التي تخدم في البيوت، وكانت سمراء دقيقة الأطراف، مع أنف نبيل وعنق طويل، كما يحب حسين الرُّز في أحلام عزلته. عرف بها عندما تحدث عنها الأستاذ علاء والي، المحاسب الذي كان يسافر إلى السعودية ويعود كل شهرين، يُخلِّص حسابات أحد أمراء آل سعود، وكان يذكر عفتها دليلًا على حسن طباعها. حكى عن جمالها الواضح عندما دخلت لتنظف الشقة ذات يوم، بصحبة

أمها، وقلقه المتزايد من احتمالية تكراره القصص القديمة عن حب السادة للخدم. وذات يوم، احتدم الحب عنده، فحاول معاملتها كعم طيب، فنظرت إليه بقسوة، قال عنها: «غزالٌ فتانٌ عينه تهبلُن.»

استثارت القصة رغائب حسين الرُّز، فقرر العثور عليها، وذهب إلى عمارة عبد الكريم، فجلس ينتظر على الرصيف المقابل، مستمتعًا بحس المغامرة لديه، وهو يتذكر مطارداته لمنى الحسيني، والفتيات المجهولات اللاتي كان يتتبعهن في الشوارع والأزقة، ثم ينتهي الأمر بلا طحين، أو بوعد كاذب بحب مستمر، فيستمتع باللحظات الأولى الخفيفة، ثم يلفظ القصة تمامًا، ويعود إلى لمبة بطاح مثل ابن ضال يعود إلى أمه.

رآها بعدها بساعة وهي تخرج من العمارة، ترتدي بلوفر أخضر غامقًا وتسير بجدية وهي تحمل سطل لبن خاليًا، وكانت تلك الرؤية كفيلة بتوريطه ما تبقى من حياته؛ كانت صورة طبق الأصل من فتاة الحمام القديمة، مع نفحة من نظرة خذلان مؤرقة، وقد عدَّها قمة حياته الأسمى، فقرر الخوض معها في الحب بلا مقدمات، فأعد العدة للقاء أبيها عم شعبان، والسكن معها في شقة عابدين.

وفي أثناء ذلك، استعاد حسه بالضيق لضياع شقة المبتديان. كان حبه لدر الشهوار، الخالي من أدران مأساته مع أخويه، يبعده عن التفكير في حقيقة أنها تربت في ملكه، وتجاوز القصة من أجلها، مكتفيًا بصحبتها الخفيفة وبنوتها العفوية، ولكنه كان يفكر في سعر الشقة الحالي، عندما تقل حركة البيع، أو يشعر بالرغبة في تجديد المطعم، الذي بدأ يظهر كأنه خارج من زمن بعيد، وخاصة مع

ارتفاع أسعار الشقق على نحو غير متوقع. كانت البيوت الخلفية في عابدين قد صارت أكثر ازدحامًا، بينما صار بيت مثل بيته بسعر غير متخيل، ولكنه آثر عدم عرضه للبيع لقلقه من ظهور ورثة متأخرين لدرية عز الدين أو جدتها الكهرمانة.

لم ينسَ قط حقيقة أنه يحيا في ملك غيره، وأن أمينة الرُّز، التي لا ينقصها المال، حرمته منه، فعاش في شقة درية على كف عفريت. كان يحلم أحيانًا أنه يعود إلى حياة عمارة الحرفيين، فينهض عندما يصل إلى الجزء الخاص بوقوعه من درجات الطابق الثاني إلى منور خلفي مليء بالخراء والكراكيب، أو يرى درية عز الدين وهي تحذره من عينه المغمضة عن الشقة وتقول: «خذ بالك من النملية يا سوسو!» كما كانت تقول له في أزمنة الحب البعيدة، فينهض غارقًا في عرقه، وينظر إلى التنفس المنتظم للمبة بطاح، ثم يخرج إلى الشرفة، يدخن السجائر ويُعِدُّ قهوة لليل طويل.



يوم

١٠

فكر حسين الرُّز في مفاتحة لمبة بطاح بشأن شيماء شعبان، لكنه شعر أنه يؤكد لها شعورها بمعاملتها مثل خادمة، فاستشار الأستاذ حلمي مطاوع، عراب حياته السري، بكل كتبه التي يقرؤها والكتب الأخرى التي يُعرِض عنها ولكنه يأخذ منها ما يفيده، فقال له إنه يجب أن يفعل ذلك في العلن، ودون محاولات إخفاء، وأن يحضرها إلى المنزل باعتبارها زوجته الثانية وكفى.

التقى عم شعبان في الجمعة التالية، وصاحبه الأستاذ حلمي مطاوع، واثنين من صحبة المقهى، واستقبلهم الرجل بفتور في البداية، وأبدى تشككًا من المظهر الأنيق المفاجئ لرجال غفلة، ثم سمع كلمات حسين الرُّز بهدوء، فسأل:

- هل كانت تخدم عندك يا بك؟

فقال حسين الرُّز:

- بل سمعنا بسمعتها النظيفة فرغبنا في مد بساط المصاهرة.

كانت رطانة غريبة عليه، ولكنه عدَّها دليلًا على خجله المتجدد كل مرة، عندما يخوض قصة حب. كان وجهه متوردًا، وصغر قرابة عشرين سنة في تلك القصة؛ لأنه ظل يتخيل ممارسات الحب الجديدة والطازجة، والقصص التي سيخوض فيها. ولأنه آثر الاعتراف بكل شيء؛ قال -كما اتفق مع الأستاذ حلمي مطاوع- إنه متزوج بأخرى، ولكنهما لم يُوفَّقا في الإنجاب، ولذلك؛ يريد الزواج بالآنسة شيماء. بعدها، أبدى عم شعبان ترحيبًا حقيقيًّا، ولكنه استأذن في سؤال شيماء، وقال بفخر: «لأنها تدرس وتريد أن تكون دكتورة.»

والحقيقة كلها -التي لم يعرفها أي من الجالسين- أن عم شعبان

كان يطلق شيماء في بيوت الخدمة، منتظرًا لحظة الخطأ المناسبة لإشهار سلاح انتمائه إلى الصعيد، والشرف والكرامة ودم الرجال وكلمة الحق، ولكن شيماء كانت عصية على محاولات السادة في الشقق، وتبحث عن شاب يماثلها في السن، أو يفوقها بقليل، تبدأ معه الحياة التي سمعت عنها في أغاني عبد الحليم ووردة.

كانت مهووسة بها، تُعلِّق صورها في أرجاء غرفتها، وتحفظ أغانيها، وترددها بصوتها الحلو الذي تقنع نفسها أنه صوت جبلي، يشبه صوت وردة، خاصة أغنية «أوقاتي بتحلو»، وتتصور نفسها مثلها بعينيها الميتتين، وطباعها الجافة مع المزاح والمعاكسات، ولذلك؛ احتفظت بنبل لم يكن من خصالها الأصلية؛ فقد اكتشفت، مع نموها العقلي المتسارع بسبب عملها من سن صغيرة، أنها تشعر بالغيرة والاحتقار للجميع، وتحترق من مشاهد النعمة في الشقق التي تخدم فيها؛ أنواع مشغلات الموسيقى، والمنتجات الجديدة التي دخلت في عصر الانفتاح هذا إلى المطبخ، والأزياء والعطور الفاخرة، وكان أكثر بيت يثير غيرتها هو بيت المهندس سعد فتح الله، الذي يملك محال قطع غيار عربات الداتسو، ويتميز بالاحترام الكافي ليحب زوجته فقط، التي كانت تشبه صباح مع تنويعات خفيفة، وابنته نجوى التي تماثل شيماء في السن، وتدرس في مدرسة راهبات، وتملك مشغلات موسيقى وبلوفرات إنجليزية وأحذية من ألمانيا مع بقية مظاهر الثراء المستورد، فكانت تعود بوجه عكر إلى غرفتهم في العمارة، تتأمل وجوه أشقائها الأربعة، وعم شعبان بوجهه الكالح المعتم، وأمها الفائقة الوزن، فتزداد كراهية لوضعها، واهتمامًا بنفسها، وكان عم شعبان صريحًا معها؛ كان يقول لها بلا مواربة: «حلك أن تجدي عريسًا مناسبًا بطريقتك.»

كان رجلًا صاحب طباع سيئة، وهرب من الصعيد أساسًا بجريمة شرف، وتزوج أمها تخليص حق مع تاجر خردة في السبتية،

عمل معه في مشروع شديد الإغراء في قاهرة السبعينيات: جمع بقايا القمامة البلاستيكية المتزايدة في مدينة هذه الأيام، واستغلال الاتساع المتسارع لأكوام القمامة والخراء في كل مكان. كانت مشكلة تخص كل الأحياء التي تتماس مع أحياء شعبية بالأساس؛ ففي شارع المبتديان مثلًا، أمام دار الهلال، وعلى مقربة من بناية شقة الرُّز، كانت ثمة كومتان من القمامة، تحوم حولهما أبخرة سوداء من الذباب، اشتكت عليهما أمينة الرُّز، واستخدمت نفوذها في الأوقاف لتصل إلى الحي، الذي أرسل عربة نقل كئيبة، جمعت الكومتين ثم اختفت، قبل أن تعود الكومتان من جديد، فقررت بروحها القيادية أن تجمع المال من الجيران، حتى إنها أقنعت ألفت زين بالمشاركة، هي التي تسكن في قصر العيني، حتى يوظفوا جامع قمامة.

ورغم كل شيء، ظلت المشكلة تتزايد في الأحياء المجاورة، وصارت أكثر وضوحًا في حي مثل الجيزة مثلًا، يتفسخ بالإهمال والزحام بهدوء. في النهاية، كان عم شعبان ينتظر أي خطأ يخلصه من شيماء. ورغم تشابه نشأتها مع نشأة لمبة بطاح في كنف أب سيئ، كانت شيماء أكثر تصميمًا في تحديد أهدافها، وتعامل أباها بندية، وفي الخلفية الخيالية لأحداث حياتها، التي تراها في ضوء من فيلم يشبه فيلم «أميرة حبي أنا»، تسمع صوت وردة يعدها بحياة مختلفة.

كانت غيرتها هذه تظهر مثل لمحة فاتنة فوق صفحة وجهها الجامد، وهو ما جذب إليها أرتالًا من الموظفين والسادة المهندسين والأطباء وأصحاب الأعمال. عندما سمعت بخبر تقدم حسين الرُّز لها، لم تتذكر اسمه في بحر الأسماء التي تعرفها، وسألت عن مهنته، فقال عم شعبان:

- صاحب مطعم بطاطس، جاء أخوك ببطاطس مقلية من عنده مرتين أو ثلاثًا، شكله حلو.

كان بينهما في هذا الوقت ما يفوق ٤٤ عامًا، وقد سألت عن موقع شقته بحس عملي، فأخبرها عم شعبان أنها في عابدين، ولكنه أضاف:

- وهو متزوج بالمناسبة.

كان هذا مخالفًا لأحلامها، ولكن تحقق الحلم بتلك السهولة، ووجود عرض واضح من سيد معروف، جعلها تلين قليلًا للفكرة، رغم تفكيرها في الزوجة المجهولة.

اتُّفِق على مقابلتهما في مكان تحت إشراف وسيط، وكان أخاها الصغير، والأستاذ حلمي مطاوع، في مقهى جديد اسمه مقهى الشمس، وذهب حسين الرُّز يومها مرتديًا تيشيرت بولو أزرق بلون السماء، وبه خطوط سوداء، تُظهِره بملمح شبابي، وجاءت شيماء شعبان ببلوزة حمراء خفيفة، تشبه واحدة ارتدتها سعاد حسني في إحدى أفلامها، وجيب طويل، وحذاء بكعب عالٍ اشترته من الفطايري.

وبانت خرقاء صغيرة بالنسبة إلى حسين الرُّز، تحاول استعجال الزمن بمظهر الناضجين، فأحب منها ذلك، وقارن بينها وبين فتاة أحلامه القديمة، فوجدها مطابقة معها كما أدرك عندما رآها أول مرة، وكان يكتم ضحكاته عندما تعدل قدميها بين الحين والآخر؛ لشعورها بالألم من الحذائين. لمح عصبيتها الواضحة في ضحكاتها العالية، التي تحاول التحكم في مدى ارتفاعها، وارتباكها وهي تجيب على بعض الأسئلة لتُقلِّب العصير بالشفاطة، وتبتسم سريعًا، ثم تعيد ملامحها الجادة، حتى قال لحلمي مطاوع بعدها: «عندها طموح وأفكار كثيرة، ذكية وليست سهلة.»

ثم عقد مقارنة سريعة بينها وبين درية عز الدين ولمبة بطاح، فأيقن أنها أكثرهن خبثًا وشرًّا ورغبة في الجدال، ووجد ذلك كله

مثيرًا له؛ لأنه تذكر بها الضحكات اللاذعة لفتاة الحمام، ولومها له عندما ظل هناك، ورأته شيماء شعبان شيخًا وسيمًا، لا تظهر عليه السن، سيُؤمِّن لها الشقة المناسبة وحريتها في استكمال الدراسة، لتصير دكتورة كما قال أبوها، ومتمرسًا خبيرًا بعيدًا عن طبع رجال البيوت الفضلاء الذين يحاولون التقرب منها بطرق بائسة، ولا الشباب الصغار السن الذين يطاردونها من فوق دراجات حمل الخبز ودراجات المكوجية والحافلات وعربات الكارُّو.

وافقت بلا قلق، وشعرت بحس انتصار خفي على الزوجة التي لا تعرفها. والقصة أن حسين الرُّز لم يكن يتوقع أن لمبة بطاح كانت تُعِدُّ لذلك اليوم جيدًا، وتُؤمِّن نفسها على النحو المناسب؛ فمع إدارتها المحل على نحو شبه كامل منذ بداية السبعينيات، وتوهانه في قصص «ألف ليلة وليلة» وإسطنبول والمُلك، كانت تحتفظ بجزء من الإيراد لنفسها، في صندوق صغير، تضعه أسفل الدولاب في صرة حفظ الرقاق المجهز للطهي.

في البداية، كانت تقتطع عشرة بالمئة من الإيراد، ومع زيادة خطورة حسين الرُّز، ونظراته، التي لا تتوقف، إلى الرائحة والغادية، رفعت النسبة. وكانت تفعل ذلك بقلق في البداية، ثم براحة كاملة عندما تأكدت أن حسين الرُّز لا يتابع الدفاتر ولا يتمم على الحسابات. كان البيع يتم عن طريق ورقة صغيرة تقطعها من لفافات ورق كبيرة، تدون عليها سعر الطلب، ثم تلقي بها إلى الجانب في صندوق صغير، وتُجمَع في النهاية كل تلك الأوراق لمعرفة الحصيلة النهائية، وكانت لعبتها في عدم تدوين كل الطلبات، والاحتفاظ بما يفوق الجمع لها، وذلك بسرعة طبيعية لا يلاحظها عويس الذي كبر وصار يرتدي نظارات مستطيلة، كعب كوباية، تُظهِر عينيه بحجم عيني حوت وشفافيتهما، وحمادة الذي يعمل دون أن يتطلع حوله.

في زمن تفكير حسين الرُّز في الزواج بشيماء شعبان، كانت قد جمعت مبلغًا معتبرًا، بينما كان حسين الرُّز خالي الوفاض، لا يملك ثروة كافية ليحيا عليها؛ فقد كانت لمبة بطاح هي المشرفة الفعلية على كل شيء: الطبيخ، وتنظيف البيت، وتنظيف الثياب، وتأمين قهوة الصباح، وهو ما جعل حسين الرُّز يحيا في بحبوحة بلا مسؤولية، وقد فعلت ذلك بناءً على نصيحة من الست معالي، عندما قالت لها، وهي في أواخر أيامها، عندما شفَّت وصارت تقرأ الأحداث بإصبعها الوسطى وتحدد ما سيحدث كأنها عرافة: «حسين طيب، ولكنه يتيم وبعيد عن أهله، واليتيم مثل هذا يريد من الجميع أن يحبوه.»

نصحتها أن تحتفظ بجزء من المال لنفسها. ونفذت لمبة بطاح بعدما تأكدت أن عيب حسين الرُّز لا حل له، وكانت الورقة الثانية التي ستحمي بها نفسها، إذا حدث وأخرجها من الشقة، هو أن تذهب إلى أمينة الرُّز فتشكو لها ما جرى، وتستخدمها ورقة ضد حسين الرُّز؛ لأنها تعرف أن بينهما ما صنع الحداد.

لم يتزوج حسين الرُّز شيماء شعبان بعدها سريعًا، وإنما التزم بجلسات التعارف التي طلبتها، وبتهيئة الجو عند لمبة بطاح. وفي ذلك الوقت، هاجت الأحداث في المدينة في يناير ٧٧؛ فمع رفع الدعم عن بعض السلع، خرج الناس بلا رابط، فكسروا خطوط التورماي، وأحرقوا حافلات، وأثر الأمر على المطعم؛ لأن الشارع القريب امتلأ بصراعات سريعة بلا بداية ولا نهاية بين الأمن والمحتجين، فأغلقه حسين الرُّز لأول مرة منذ افتتاحه -وهو الذي لم يفعل ذلك لا في أيام النكسة، عندما خلت الشوارع كلها في ساعة نحس، ثم امتلأت لاحقًا بنفس لاهب، ولا أيام نصر أكتوبر، عندما رقص الناس في الشارع وخلقوا مع ذلك ضجة مساء بلا حل، كثر فيها السارقون وأولاد الكلب- واضطُرَّ للمكوث مع لمبة

بطاح في الشقة، يراقبان الأحداث من خلال امتلاء ميدان عابدين بالمتظاهرين، ويقول لها:

- مع أن هذا الرجل غلبان، وترك الناس يفعلون ما يريدون بلا رقابة.

فقالت لمبة بطاح، وهي تضغط على كلماتها:

- لا أحد غلبان في هذه المدينة.

الكلمة، التي قيلت بلا حس أدبي معين، سيستخدمها حسين الرُّز بعدها كحكمة يلخص بها بعض أحداث حياته.

كانت حوادث شؤم، قرأت عنها در الشهوار من ولاية أيوا، فحجزت أول طائرة على مصر؛ لتطمئن على أسرتها؛ وذلك لأن الصحف الأجنبية والمراسلين ضخَّموا الأحداث، وذكروا كوارث تخص تحول القاهرة إلى ساحة عصابات شعبية وانطلاق شرارة ثورة جياع. كان جزء منها يريد دراسة الحدث من كل جوانبه، وفهم أسبابه وتأثيره على القاهرة والأفلام والصور، وكانت لديها رغبة سرية في الاقتراب من مظاهر الخراب التي سادت المدينة بنفسها، وتوثيقها بكاميرا أفلام صغيرة اشترتها من أمريكا. كانت قد تعرفت هناك على شاب يخالف صورتها عن فارس أحلامها الأثير الأسمر: أبيض ووسيم، وله وجه طفولي، ويشبه إيهاب نافع زوج ماجدة الصباحي، الذي كانت تكرهه وتؤكد أنه ثقيل الظل ولا يجيد التمثيل، بوضعه بالمقارنة مع ممثلين آخرين، لكن مع نظارات سوداء سميكة ماركة موسكوت. كان اسمه مصطفى نفعة، وينتمي إلى عائلة عريقة من الأطباء المهاجرين الذين يرتدون النظارات الدائرية ولا يهمهم وضع البلد ولا ما يجري فيه.

أبوه عبد الرحمن نفعة ترك البلاد في زمن عبد الناصر، بعد

العـدوان الثلاثـي، عندمـا أيقـن أنهـا متورطـة في مشروعـات الرجـل الشـخصية، فـكان يقـول في أكثـر مـن محفـل: «مصيبـة؛ لـه هيئـة ضابـط وكفًّـا صعيـدي خشـنتان وعقـل طالـب جامعـي يسـاري وقلـب فنـان.» وهـي صفـات غـير عمليـة، كـما ذكـر، أكـد أنهـا يمكـن أن تطيـح بـكل شيء مـرة واحـدة. تـزوج بابنـة خالتـه بـلا ضجيـج ولا حـب، وأنجبـا مصطفـى نفعـة قبـل السـفر بأعـوام، وكرسـا لـه هدفًـا واحـدًا يجـب تحقيقـه: أن يكـون طبيبًـا في أمريـكا.

نشـأ مصطفـى نفعـة بطبـاع فاتـرة، وانكبـاب حقيقـي عـلى الكتـب والدراسـات، ولكنـه أظهـر اهتمامًـا حقيقيًّـا بمـصر عندمـا تخطـى العشريـن، ورأى قصصهـا التـي تغـلي مثيرة للاهتـمام، فنـزل فيهـا ليقيـم وحـده، وأعجبتـه الحيـاة في مـصر الجديـدة، حيـث كان بيتهـم القديـم قـرب بيـت الدكتـور إبراهيـم ناجـي وأسرتـه، عـلى مقربـة مـن مطعـم تومـاس للبيتـزا، وقـرر الاسـتقرار مـا بـين هنـاك وأمريـكا؛ حتـى يكمـل دراسـته، ثـم يفتتـح عيـادة في روكسـي. كان حالمًـا بطبعـه، ولكنـه ورث بـلادة عمليـة لم يقصدهـا مـن أبيـه، فتحصـن بهـا ضـد الأفـكار العاطفيـة والتعلـق بالأماكـن، ولذلـك؛ عـاد إلى أمريـكا بعـد النكسـة، عندمـا شـعر أن البلـد آيـل إلى الدمـار، ولم يعـد إلى مـصر إلا بعـد حـرب ٧٣، وأعجبتـه طريقـة السـادات في فتـح سـبل التجـارة الحـرة التـي تنعـش النـاس كـما يقـول، وتخلـق الرغبـة في التنافسـية.

تعـرف عـلى در الشـهوار بالمصادفـة مـن خـلال معـرض أقامتـه لتوثـق فيـه مسـقط رأسـها أسـمته «My hometown in AlSayyida»، فتحدثـت فيـه عـن تأثـير مقـام السـيدة زينـب عـلى مـن يجاورهـا، والمحـال والمطاعـم التـي هنـاك، وأفـردت جـزءًا كبيرًا عـن خالهـا حسـين الـرُّز، ومطعمـه الـذي اكتشـف الشـيبسي قبـل أن يدخـل مـع الانفتـاح لفـترة طويلـة، هـو وأطعمـة أخـرى، وشـارع المبتديـان وقصتـه، وقـد أدركـت حينهـا أن الرؤيـة البعيـدة لمقتنيـات حياتهـا الحميمـة تصفيهـا ممـا

فيهـا مـن أتربـة وكـدر ومظاهـر نقـص، وتجعلهـا كاملـة، وهـو مـا كانـت تـردده بعدهـا عـلى مسـامع ابنهـا عندمـا كان يسـألها عـن سـبب عـدم بقائهـا في أمريـكا، فتقـول: «مشـكلة مـصر أنهـا تصـير مثاليـة كلـما بعدنـا عنهـا عـلى نحـو لا يُحتمَـل.»

وكان ذلـك سـببًا في اتفاقهـا مـع حسـن الـرُّز في مـا نظـر إليـه بشـأن القوميـة المصريـة التـي تمتـص كل الأعـراق؛ فمـع اسـمها العثـماني بالنفحـة الفارسـية، لم تكـن تجـد مـا يربطهـا بأصلهـا البعيـد في تركيـا، ورغـم اندفـاع أمينـة الـرُّز في تأكيـد هـذا الأصـل، كانـت تجـد ذلـك التصاقًـا بعـرق لا تعـرف عنـه شـيئًا ولا تفكـر بطريقتـه ولا يهمهـا مـا يهمـه، إلا أنهـا سـتتهاون في رأيهـا هـذا قليـلًا، مـع موجـة المسلسـلات التركيـة التـي سـتجتاح القاهـرة في الألفيتـين الثانيـة والثالثـة، لتبـدأ حينهـا في تأكيـد هـذا الأصـل بأحاديـث خفيفـة عـن العـرق التركـي، ودراسـة أعدتهـا سريعًـا عـن أثرهـم في مـصر، في كتـاب صـدر عـن الجامعـة الأمريكيـة وقتهـا.

أُعجِـب بهـا مصطفـى نفعـة منـذ أول نظـرة، وأكثـر مـا أعجبـه فيهـا خصالهـا الشـعبية وطريقتهـا الجريئـة في الحديـث بالإنجليزيـة والعربيـة عـلى حـد سـواء، ومعرفتهـا العميقـة بالقاهـرة، التـي تفـوق معرفتـه، ونظرتهـا الناقـدة إلى أحـداث ٧٧؛ إذ كانـت تؤكـد أن رفـع الدعـم عـن السـلع يجـب أن يقـترن بتقديـم خدمـات أفضـل للمواطنـين، وأن الثقافـة الضريبيـة في مـصر مـا زالـت متأثـرة بثقافـة عصـور الجبايـة المملوكيـة. ولأنهـا لم تحـب التنظـير بشـأن مـصر بأنهـا ابنـة الفراعنـة فقـط؛ كانـت تـردد كلمتهـا المشـهورة: «عـصر محمـد عـلي أقـرب لي وأكثـر تأثـيرًا مـن عـصر رمسـيس الثـاني.»

كانـت تؤكـد أن البـلاد تُحكَـم بنظـام يشـبه نظـام المماليـك، خاصـة بعـد انقـلاب ٥٢، الـذي لم تـرَه ثـورة مطلقًـا رغـم المباركـة الشـعبية،

وكانت تؤكد، بلا قلق، وعلى مسمع من بعض أعضاء القنصلية المصرية في أمريكا، أن افتتاح البرلمان خطوة مهمة تأخرت كثيرًا في تحويل البلاد إلى عصر جديد. وكان أكثر ما قدَّره مصطفى نفعة أنها لم تُعرِّف نفسها بأبيها درويش عبد الغني، الذي كانت سمعته وقتها تجوب دمنهور بصفته نائبًا يوظف الجميع بلا جدال وبإشارة من إصبعه، ولكن سيرته أُقحِمت في معارضها، مع سيرة حسين الرُّز. ورغم ذلك، كانت تذكر أثر حسين الرُّز في حياتها لتفهم حقيقة حياة الناس في الشارع؛ إذ آمنت أن ثمة فارقًا بين المشهد الرسمي والمشهد الشعبي يشبه الفارق بين زمنين.

لم تلتفت در الشهوار إلى مصطفى نفعة في البداية، ولم تتذكر منه سوى طريقته المؤدبة في الحديث واهتمامه الذي ينبع من عينيه، الذي أعجبها على نحو ما، خاصة أنها أيقنت أنه لا يعرف كثيرًا مما تتحدث عنه، وهو ما أعطاها شعورًا حلوًا بالتفوق، فرغبت أكثر في تفصيل معلومات عن صورها ومشروعاتها وسردها عليه لساعات، ولم تفهم بعدها إلا أن ذلك يأتي وفقًا لنظرة حسين الرُّز؛ إذ أخبرها أنها لن تتزوج إلا برجل كبير في السن، وهو ما يظن أن أمينة لن تسكت عليه، وذلك لأنه الوحيد الذي سيفوقها في السن، أو شخص يقاربها في العمر، ولكنه يعطيها دفة الحياة كاملة، ويُشعِرها أنها تفوقه ذكاءً، وكان يميل إلى المثل الثاني؛ لأنه وجد حرية در الشهوار تفوق احتمال أي رجل عادي، ولأن مصطفى نفعة كان تربية أمه ومدارس أمريكا، كان مثل كل الأمريكيين؛ لا يلتفت إلا إلى المرأة القوية التي تمسك زمام حالها.

اكتشف أنه يحبها عندما بدأ يتلصص على أخبارها في جامعتها، وعندما أصابه سهم قلق عند معرفته بعودتها إلى مصر بعد الأحداث لتطمئن على أسرتها. ولأنه أراد أخذ الأمور إلى منحى

أكبر؛ فاتح أباه عبد الرحمن نفعة في أمر در الشهوار، فقال: «المهم البيت والنسب، ولا شيء بعد ذلك يهم.»

انتظر بعدها شهرًا حتى عادت در الشهوار، ليفاتحها على نحو أخرق. في فترة زيارتها، عادت حسين الرُّز، وسألته عما جرى في البلاد تفصيلًا، فحكى لها بلا انفعال قصة قديمة عن سرقة بعض العمال لصاحب محل شهير، وقت صباه، وقال إن صاحب المحل عندما يفشل في إقناع العمال، الذين يعملون عنده، بأن المحل محلهم، ويبدأ في التوسع على حساب رواتبهم، يبدؤون في سرقته، وكان سبب سرقتهم الأكبر تجديده بياض المحل وتلميع الخشب، وهو ما دفع العمال إلى الاحتجاج سرًّا، واجتمعوا مرة واحدة، فسرقوا كل ما في المحل من أجولة عطارة وبلح وعلف، وقال لها: «وصاحبنا الأسمر المعجباني يرتدي أفضل زي، ويخرج بالبايب كأنه اللورد اللنبي الإنجليزي. حتى الناس سمعتهم يقولون: هو بيلبس آخر موضة وإحنا بنسكن عشرة في أوضة.»

وقد أعطته در الشهوار في هذه الزيارة هدية عبارة عن علبة سيجار صغير اسمه مونتيكريستو، ومصفف شوارب أمريكي أصلي اسمه مستر جنجر، وبعض الأشياء الأخرى، منها تيشيرت بولو أبيض فاتح مع بعض الخطوط، ظل يلبسه بعدها حتى نهاية الثمانينيات، ويؤكد أنه غير معرض للتلف وصناعة أمريكي أصلي.

استاءت أمينة الرُّز مما جرى كثيرًا، وشعرت أن البلاد تتجه إلى الفوضى، ووقتها، ركَّبت الباب الحديدي المصنوع خصوصًا عند حداد معرفة أمام باب شقة المبتديان، وقررت توظيف حارس عقار في البناية لأول مرة؛ لأنها سمعت من ألفت زين الدين عن حوادث سرقة لم تنتهِ، وظهور موتر للصوص متسلسلين.

ورغم سوء الأحداث، رُزِقت أمينة الرُّز حينها بحفيديها من

حلمي ولطفي، حسن ودرويش، على اسمي حسن الرُّز ودرويش عبد الغني، وقد أُعِدَّ لهما سبوعًا فاخرًا عملت فيه رضا كيك بالفراولة وقطائف محشية وصواني كفتة ومكرونة بالبشاميل وميلفيه أعدَّته ألفت زين الدين، وحضره حسن الرُّز رغم ثقل قدميه وكبر سنه ونحوله الواضح، والذي أسماه بدايات عودة الإنسان إلى طفولته، وكان هذا آخر ما سيحضره من مناسبات عائلية؛ لأنه سيُصاب بعدها بوعكة خفيفة سترعش ساقيه بسبب داء في المفاصل، وعندما كان يصعد درجات سلم مكتبه في محطة الرمل، سيتزحلق ويقع ليُصاب بكسر خفيف، وسيموت بعدها بلا سبب واضح في فراشه، بين ولديه وأسرته، وسميحة التي لم تفقد مرحها أبدًا حتى في وقت مرضه.

كانت كارثة لم تفق منها أمينة الرُّز إلا بعد أشهر من التعافي؛ فقد شعرت أنها فقدت أباها الحقيقي للمرة الثانية، وربما يتفوق بفضائله عن فضائل السيد رمضان الرُّز معها؛ ففي السنوات الأخيرة، كانت علاقتهما قد رست على أمان العشرة الطويلة بعد أعوام من التعامل كأب وابنته، فكانت أمينة الرُّز تهاتفه مرتين في الأسبوع، وتقص عليه كل ما يجري معها في الأوقاف، وتصف له التغيرات في الحكومة، كما أشرف معها على التكريم الذي حازته من جيهان السادات.

والقصة أن جيهان السادات كانت في تلك الأعوام تبحث عن الكوادر النسائية المهمة التي يمكن تكريمها وجعلها مثلًا أعلى لكل مرأة؛ لأنها كانت تريد الظهور بمظهر سيدة مصر الأولى، ورُشِّحت أمينة الرُّز عن طريق توصية من إحدى السيدات اللاتي ساعدت أسرهن في تحصيل حقوقهن، بما لا يضر الدولة، في استعادة حيازة ملك في وسط البلد قرب شارع شريف الحيوي، وكان عبارة عن جزء من بناية تعلو محل أحذية كبير. قالت السيدة التي كانت

تجلس مع جيهان السادات في مجلس حديث بالظل: «السيدة أمينة الرُّز تعمل في صمت منذ عقود طويلة ولم تحز أي تكريم.»

وكان من المعروف أن جيهان السادات تنتقي السيدات ذوات المظهر اللائق؛ لأنها -وكما كانت تقول- مثال للمرأة العصرية التي تعمل بهمة الرجال وتتأنق برقة النساء. وقد أرسلت الترشيح بعد عمل التحريات الأمنية اللازمة. ورغم سمعة أمينة الرُّز غير المخفية في تحصيل الهدايا، التي ارتفعت في الأعوام الأخيرة فوصلت لتكون شجرة كريسماس أصلية كاملة في أحد الأعوام، وضعتها في مدخل شقة المبتديان بنفحة تغريب واضحة، وطلبت من رضا الإشراف عليها بجدية والحفاظ عليها للعام التالي، والعربة التي استطاعت شراءها بالتقسيط المريح، عُدَّ ذلك من باب الاعتراف بفضلها، خاصة أن راتبها لم يكن يكفي.

وقد تلقت أمينة الرُّز الخطاب بكل صخب، وعزمت ألفت زين الدين وبقية جوقة المبتديان على وجبة عشاء من الشركسية والديك الرومي والملوخية والأرز المعمر، الذي تعده رضا بطريقة قريتها في مركز طوخ بالقليوبية، ينز بالسمن البلدي ومسقيًّا بمرق البط، وأعلنت ترشيحها لتكريم من الدولة بطريقة درامية، وهي تمسك بكأس من العصير؛ لأنها لم تقرب النبيذ الذي حاولت ألفت زين الدين أكثر من مرة إقناعها بتجربته كرياضة دموية مع بعض سيدات المجتمع، في عادة موروثة من أزمنة التسامح.

أخبرت حسن الرُّز بالقصة، وطلبت منه حضور الاحتفال يومها وتدبيج خطبة، وجاء رغم آلامه المتزايدة بسبب المفاصل؛ إذ اكتسب عادة الجلوس بلا حركة لفترات، مع الاكتفاء بالكتابة، ومقابلة زملاء الماضي في المطاعم والمقاهي التي ما زالت تحتفظ ببريق إسكندرية الزمن الجميل. في يوم الحفل، وقف حسن الرُّز،

وألقى خطبة في حق بطل الحرب والسلام، وذكر أهمية الانتصار للقومية المصرية، وشبَّهه بانتصار معركتي مجدو بقيادة تحتمس الثالث وقادش بقيادة رمسيس الثاني، وتحدث عن أهمية الحرب في كل الجبهات لاستعادة لياقة البلد الاقتصادية والثقافية، وقد استمعت له جيهان السادات بسعادة، وانبهرت بلطائفه في الحديث، وتنويهه على دورها المشابه لدور ملكات مصر القديمة. ولأن ذلك مسها من الداخل؛ طلبت من السادات أن يكرمه، فقال لها مبتسمًا وهما يفطران صباحًا: «عائلة اسمها يُجوِّع. اشتقت إلى طاجن أرز معمر بالحمام يا جين.»

وقد أُعِدَّ لتكريمه فعلًا، وعُقِدت له حفلة بعدها في مجلس الدولة بالإسكندرية، حضرها المحافظ، ومُنِح فيها وسام شرف من الطبقة الأولى، وقال حسن الرُّز حينها نبوءته التي تحققت بعدها بأسابيع: «الآن، حُقَّ لي توقيع الإذن في الانصراف.»

علاقة أمينة الرُّز بجيهان السادات الجديدة هذه توطدت بقصة لم تكن تحكيها كثيرًا؛ خوفًا من اللوم، تخص عربة حمراء لامعة ونادرة، يُقال إنها من عربات الملك فاروق، كان يملكها طبيب اسمه عبد الفتاح إبراهيم، وكان من أثرياء منطقة غمرة، من أسرة شركسية عريقة، وكان يذهب للكشف على مرضاه بقميص أبيض لامع وشارب قلم رصاص وشعر مصفف بعناية الفازلين مثل أبطال أفلام الأبيض والأسود، ويطلب كوب ليمون في البداية وبعد الكشف، ويقول: «حتى يصير جسد الإنسان قلويًّا؛ يجب شرب الليمون كل يوم خمس مرات، وبذلك، يقيه من كل أمراض الليل والنهار.»

وكانت عربته الحمراء الملكية، التي تسير في شوارع المدينة كأنها قادمة من زمن آخر، تثير الشغف. يذهب بها إلى حفلات الست في

أزمنة مجدها، أو حفلات عبد الحليم، ويحتفظ بغموض يخص قصة حب مع امرأة خفية لا يعرفها أحد. وقد أحبت جيهان السادات هذه العربة، وطلبت مثيلتها فعرفت أنها الوحيدة المتبقية من الأسرة الملكية، وعرضت شراءها بأي ثمن، فرفض الدكتور عبد الفتاح إبراهيم بإباء، وقال: «عربة مولانا عطية من مولانا ولا يجوز التعامل معها تجاريًّا.» وكان ذلك لأن أباه حازها هدية من الملكة نازلي خصوصًا عندما ساعدها في ولادة الملك فاروق، وقالت له بالحرف: «أنا وابني، الذي أنقذته، نعطيك عربته الخاصة وعليها حرف اسمه واسم أبيه الملك.»

عندما أسرَّت إلى أمينة الرُّز برغبتها هذه، عدَّتها فرصة لإثبات مواهبها، ووضعت نصب عينيها طلبًا آخر يُؤمِّن ملكها في المبتديان وغيره من شقة أرادت شراءها في مصر الجديدة، فطلبت الدكتور عبد الفتاح إبراهيم، وتحدثت معه حديثًا عامًّا بشأن السياسة والحياة، ثم أظهرت له بعض الأوراق التي تؤكد أن نصف أملاكه الحالية -وهي فيلا قديمة كئيبة في غمرة وشقتان في عمارة شهيرة سيعبر كوبري أكتوبر من أمامها بعدها في غمرة أيضًا- عليها مشكلات، ثم قالت: «ولكن يمكن حل ذلك يا باشا بهدية بسيطة.»

أظهر عبد الفتاح إبراهيم رفضًا قاطعًا لبيع عربته الحمراء المميزة، وفعل ذلك بأدب هو يشرح أهمية العربة لأبيه وأسرته، وشعوره وهو يقودها كأنه يقود طائرة حربية في شوارع المدينة، مع ندرتها، ثم حكى لها عن صاحب تحف إيطالي ومتحف فرنسي عرضا عليه شراء العربة ووضعها كإحدى مقتنيات الملكية البائدة، وقال: «يكفي أن أقول إن الوالد كان في مرض الموت ولكنه خرج بها إلى الشوارع ليقودها لآخر مرة.»

كان صلبًا أمام الرفض، وهو ما أشعر أمينة الرُّز بالهزيمة،

فوضعت عربة الدكتور عبد الفتاح إبراهيم نصب عينيها، وسألت ألفت زين الدين عن رأيها، فقالت: «نقبي في تاريخه؛ لعله لعب بذيله هنا أو هنا.»

ولكنه كان صلبًا أيضًا في إخلاصه الظاهري لزوجته التي تصغره بعشرين عامًا، والتي أنجبت له ابنتين، إحداهما بنصف عقل، تحب كل الرجال السمر بلا تمييز، ويمكن أن ترتمي في أحضان أي أحد منهم حبًّا لو ابتسم لها، وهو ما جعل الدكتور عبد الفتاح إبراهيم يُلحِقها للعلاج في مصحة نفسية، وتُشخِّص حالتها أنها مشكلات في الاندفاع والعاطفة، ولكن أمينة الرُّز لم تجد في هذه القصة مسوغًا كافيًا لإقناعه ببيع العربة، مع عدم قدرتها على معرفة حبه الحقيقي السري الذي ظل مطمورًا في أقبية بلا نور، بجوار زواجه، فاستعانت بطريقة أكثر صخبًا: دفع تجار سيارات وعاديات لسؤاله عن ثمن العربة، حتى قرر الدكتور عبد الفتاح إبراهيم وضعها في الجراج وألا يخرج بها إلا نادرًا. وقد لاحظت جيهان السادات اختفاء العربة عندما كان يزورها ليشهد ولادة ابنتها بعد زواجها، فكانت تسأله عنها، فيقول بأدب: «خلاص يا هانم، ذهب زمنها.»

لتسأل أمينة الرُّز بعدها عما جرى، فتقول لها: «لا شيء، ولكن لا يجوز قلة الذوق معك يا أفندم.»

هذه المحاولات العشوائية، ومع أنها قربتها من جيهان السادات، ووضعتها في موضع سيدة مجتمع رسمية، تُدعى إلى أعياد العلم والقراءة والربيع ومعارض ربات المنزل والمعوزات والمرأة المعيلة، كانت تخفيها بعناية؛ لأنها شعرت بالقلق من قدرتها على ممارسة الضغط بكل هذه الوسائل، تمامًا كما كانت تخفي قصة الورقة الخضراء.



عندما تُوفِّيَ حسن الرُّز، وقد حدث هذا في ليلة هادئة، قضاها مع رفاقه في مقهى فاروق، وضحك بشدة رغم مزاجه الفاتر في أعوامه الأخيرة على كارثة أخلاقية تعرض لها قاضٍ بارز؛ إذ سرق قلمًا مطليًّا بالذهب من قاضٍ آخر، واكتشفوا السرقة بالمصادفة وقت تصديقه على حكم سرقة بالقلم نفسه، ليقول القاضي المسروق بصوت مرتفع ولغة عربية فصحى سليمة ما عُدَّ طرفة عن القاضي السارق، الذي كان اسمه عبد الحي قمر، وهو ينظر إلى ساعة يده المطلية بذهبه: «اقتربت الساعة وانشق القمر.»

فتصبب القاضي السارقَ عرقًا، وقال: «وَلا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء.»

فضحك حسن الرُّز بقوة لا تُصدَّق، حتى شرق وهو يسعل، وكان من فرط سعادته قد تهاون فاشترى أطباق أرز بلبن من لبَّان قريب لشعوره بالنشوة من القصة، وبامتداد الليلة بأباريق من ذهب ليالي العز، ولأنه كان من الجيل البركة الذين لا يعرفون بالسكري إلا في ضفاف العالم الثاني؛ تعب بشدة ليلتها دون أن يحدد سببًا لذلك، ثم أسلم روحه في صباح اليوم التالي بعدما شرب القهوة وقرأ الجريدة ثم ضحك وحده فجأة وهو يرى لونًا أبيض ممتدًّا بينما يدب الوهن في رجليه، فلم يفرق بينه وبين مزحة الأمس، وقال ما كررته زوجته لاحقًا دليلًا على حسن الخاتمة: «اقتربت الساعة وانشق القمر.»

أُعِدَّت له جنازة مهيبة في الإسكندرية، ولكنه أوصى بدفنه في مدفن الأسرة في القاهرة، الذي حمل لوحة باسمه منذ عقود طويلة، كان يتخيل فيها الموت قريبًا جدًّا؛ بسبب وفيات متكررة لرجال في سنه بالأربعينيات وقتها، ولذلك؛ عُقِدت له جنازة شرفية في الإسكندرية، أوصلت نعشه إلى مخرج المدينة، وملأت شارع الرمل أمام مسجد

القائد إبراهيم. وفي القاهرة، عُقِدت له جنازة أكبر، وحضرها مندوب من الرئاسة، مع أمينة الرُّز وكثير من العاملين في الأوقاف، وقد علم حسين الرُّز بالخبر على نحو درامي؛ إذ ذهبت رضا إلى المطعم في الصباح، واقتربت منه وسط نظرات لمبة بطاح، وقالت: «ستي بتقول لك حسن باشا تُوفِّي.»

لم يُخفِ حسين الرُّز حزنه الشديد لوفاة حسن الرُّز، وشعوره بأنه لم يتعرف عليه طوال حياته كفاية، والحقيقة أنه شعر وقتها بمقدار الغيرة التي كان يشعر بها ناحيته؛ فمنذ الطفولة، كان حسن الرُّز هو المعادل العكسي له في كل شيء؛ يتقن حياة الكبار، ويتعامل على نحو طبيعي كموظف دولة، ويتميز بحس واضح للمواقف ولطبيعة تغير تعامله طبقًا لكل موقف، مع هيبة عززها وزنه الزائد وطريقته الهادئة في الحديث، قبل فقدانه الوزن في الشيخوخة، ولكن حسين الرُّز، مع رؤيته لثياب ابنيه اللذين لم يعرفاه، ومظاهر الثراء في العربة التي تحمله، والتي كانت عربة الأسرة، لم يفهم لماذا لم يستخدم سلطته القضائية في استرجاع حقه في شقة المبتديان.

سار في الجنازة مثل غريب، وكان يتأمل الأحداث بعين مراقب، حتى وصلوا إلى المدفن، فنظر إليه واضطرب دفعة واحدة، عندما تذكر درية عز الدين، فشعر أن ثمة هوة كبيرة تفصلهما، كأن حياتهما معًا لم تكن، واجتاحته نفحة من مقدمة أغنية «حب إيه»، فسقط في فخ الحنين سريعًا وبكى بحرقة، وهو ما فسرته أمينة الرُّز أنه اعتراف بالذنب في حق أخيه، وكانت طوال الجنازة متماسكة، ترتدي زيًّا أسود، فُصِّل لها خصوصًا لتستخدمه في المناسبات الحزينة، وتشرف على راحة المعزين من كبار المستشارين، وسمحت لنفسها بسيجارة بعد الجنازة، كما نصحتها ألفت زين الدين؛ لتتقوى على ما جرى.

يوم

١١

عُقِد العزاء في ساحة السيدة زينب، وحضره أغلب من جاؤوا الجنازة، وتحدث فيه درويش عبد الغني عن مناقب الفقيد وما فعله للقضاء والدولة، وكتبه المهمة التي تملأ أروقة الجامعات والمحاكم، وكان الجو باردًا، به نفحة حزن لا تخفى على أحد، ومع الصوت الشجي للشيخ مصطفى إسماعيل، الذي جاءت به أمينة الرُّز خصوصًا لأنها كانت تدرك حب حسن الرُّز له، لف العزاء صمت مهيب. حضره حسين الرُّز مثل غريب، كما حدث مع الجنازة، فدخل ببدلة سوداء وقميص بلا ربطة عنق، وصافح ابني حسن الرُّز اللذين لم يميزاه، ثم حلمي ولطفي، ولم يدرك أنهما ابنا أمينة الرُّز. وعندما وقف عند درويش عبد الغني، نظر إليه الأخير بذهول، وقال بصدق:

- إيه يا عم حسين، لن نتلاقى إلا في العزاءات؟!

ثم تأمل شبابه الذي لا يلين، وفعل السنين الخفيف على وجهه، فقال رغم المناسبة:

- أنت العاقل فينا جميعًا.

فصافحه حسين الرُّز بكدر، وقال:

- أخبارك تصل إليَّ يا سيادة النائب.

ثم دخل، فجلس في موقع يتيح له رؤية الداخلين كلهم، وبعدها، انشغل بتفحص طريقة مصطفى إسماعيل في القراءة وحركاته الرشيقة التي يؤديها من مجلسه ليعزز نفسه الطويل، ثم انشغل بنوعية القهوة المقدمة له، وقد حكى لدر الشهوار عن سبب ذلك بعدها بأنه كان يحاول شغل نفسه عن الفكرة المثيرة للغضب والحزن في أنه لم يعرف أخاه جيدًا ولن يعرفه أبدًا.

بعد العزاء بأيام، زار حسين الرُّز شقة المبتديان لأول مرة منذ عقود طويلة. كانت زيجته بشيماء شعبان تجري على قدم وساق، وقد أظهر لها حبًّا مبالغًا فيه بعد وفاة حسن الرُّز، وبعض القلق والتشكك الناتج عن شعوره بوطأة السن فجأة، ولكنه آمن أن الحب يداوي قروح السنين وألعاب القدر. ومع رؤيته ثروة حسن الرُّز الحقيقية في المال والمعارف، ومظهر أمينة الرُّز، شعر برغبته في استعادة حقه من جديد. استقبلته رضا بوجه مكدر، وأدخلته إلى الصالة، فحاول تذكر ملامح الشقة قديمًا، حتى دخلت عليه أمينة الرُّز يسبقها عطر فاخر، ترتدي معطف خروج. كانت امرأة ناضجة لا يعرفها، تزنه بنظراتها كأنه عريس لابنتها، وشعر بفقره -رغم امتلاكه المطعم، واستقرار الحياة- يفوح من كل ما رآه في الشقة. قال بهدوء بعد مقدمة متوترة:

- على يقين من أن أخانا لن يرتاح في قبره إلا عندما يعود الحق، ولا أطالب إلا بتعويض مادي؛ فالشقة لم تعد شقتنا.

كانت أمينة الرُّز، التي تمرست في أمور خلافات الورثة هذه، تستمع له بإنصات موظفة حكومة، وتراقب ملامحه التي لم تتغير كثيرًا، وشاربه الأسود، وتكتشف كل المظاهر التي تؤكد أنه يدور خلف النسوان كما يُقال، حتى فصَّلت له عدالة موقفها هي وحسن الرُّز، ثم حكت عن عدد المواقف التي وقف معها فيها، أهمها عند اكتشافها خيانة درويش عبد الغني، وعند زواج ابنيها، ثم ذكَّرته بالورقة الخضراء، وقالت بهدوء:

- وكل هذا المال من شقائي منذ الخمسينيات، حتى درويش لا يصرف إلا على بنت الشوارع التي تزوجها.

لم تكن بينهما أرضية مشتركة؛ فقد محت كل شكوكه في استعادة حقه عندما ذكرت أنه لم يعُدها يومًا ولا سأل عن أخبارها، ووضع

الميراث أساسًا لعلاقتهما، وقالت:

- ومن يسأل على من؛ الأخت على أخيها الكبير أم العكس؟

انتهت الزيارة بلا حل، وخرج حسين الرُّز وهو يُقلِّب الحلول في رأسه، فقرر استشارة الأستاذ حلمي مطاوع في رفع قضية جديدة يمكن أن تُحسِّن موقفه، وتساعده على تأجير شقة لشيماء شعبان وحدها. والحقيقة أن شيماء شعبان كانت تستقي طموحها من الأفلام كما تستقي شخصياتها؛ أُغرَمت بشخصية سعاد حسني في الزوجة الثانية، وشعرت بلهب قوة المرأة المحبوبة، فطلبت شقة وحدها؛ لأنها لا تريد الدخول على ضرة، ولأنها رأت لمبة بطاح في المطعم، وذكرت أنها تتصف بخاصية الوجه المدور والعينين السوداوين، وهو ما يدل على سواد نفسها.

وخلال خطبتهما السرية هذه، التي تمت بمحبس و«ما شاء الله»، لم تتوصل إلى حب حسين الرُّز، ولكنها رست على مرفأ القبول به؛ لأنه كان رجلًا يجيد الحب؛ فقد رأت كيف يتغزل في عينيها، ويصف شعرها المتموج، وطريقتها في الحديث، وكان يفعل ذلك بشيء من الهوس وحس يتعدى هذا العالم، وهي لا تعرف أنه يتغزل في صورتها العارية بخياله في الحمام، كما رآها لأول مرة في حياته في طفولته، قبل أن تُولَد حتى، حسب ظنه في غرابة الحياة. كان يشعر معها أنه شهريار حقيقي، ما زال محتفظًا بقدرته على الحياة، وينسى يتمه الصلب منذ عقود بحياة بناها بالبطاطس المقلية والعرق والحب والدموع والمحاولات، وكانت لمحة الدلال فيها، مع كثير من الشر، تعجبه على وجه خاص؛ لأنها تؤكد قدرته على تطويع أي امرأة يريدها.

طلبت منه شقة أخرى في أي مكان، ففكر جديًّا في استعادة جزء من ميراثه الذي قدَّره له الأستاذ حلمي مطاوع بمئة ألف

جنيه، تُمكِّنه من شراء شقة في الدقي أو وسط البلد، ببعض البنايات القديمة. رفع قضيتين جديدتين، ولكنه لم يخبر در الشهوار بما فعله؛ فعندما جاءته للزيارة بعد عودتها الثانية من أمريكا، وأعربت عن حزنها الشديد لوفاة حسن الرُّز، وذكرت ما فعله معها من أبحاث تاريخية، وكيف ساعدها بطيبة أب، قالت له: «والحمد لله؛ ربنا عوضني بك يا خالو في الوقت المناسب.»

في هذه الأثناء، أدركت أمينة الرُّز حقيقة زيارات در الشهوار لحسين الرُّز، عن طريق عين رضا التي راقبتها من خلال شبكة الخادمات المجدات، ففهمت وقتها سر تغير طريقة تعاملها، والألفاظ التي دخلت إلى لغتها اليومية، فاستشاطت غضبًا، وقالت لرضا: «يريد أن يفسد درة التاج عندي ويجعلها قحبة مثل من يعرفهن!»

خافت بالأساس أن يحكي لها قصة الشقة السوداء هذه، وانتظرت اللحظة المناسبة لتعاتبها على اتصالها به دون أن تخبرها. ولأنها كانت غاضبة إلى حد لم تصل إليه منذ زمن زواج درويش عبد الغني براجية السيد، وتشعر أن سندها الحقيقي في مملكة هذا العالم قد مات؛ هاتفت درويش عبد الغني، وقالت له بلا مقدمات: «لن أسامحك أنك تركتني أربيهم وحدي!»

شكت إليه من استقلالية در الشهوار الشديدة، ووضعته في صورة منحوسة لعلاقاتها المتعددة مع أبناء الشارع، واتصالها بحسين الرُّز، وجوَّدت من عندها أنه يأخذها على المقاهي والأرصفة وحفلات الثالثة ظهرًا بالسينما المليئة بالصِّبية العديمي الأخلاق، ويدفعها إلى تناول طعام الشارع القذر، وكان يفكر -وهي تحدثه- أنها تصف شخصية عنيدة مثلها، على نحو أو على آخر، فكاد يقول لها ساخرًا مثل «اقلب القدرة على فمها»، ولكنه ظل يستمع بصمت كما كان

يفعل دائمًا، ثم قال لها ماحيًا رغبتها في الشجار حتى آخر العالم: «مفهوم. سأتصرف في الأمر يا هانم.»

كان عمله الجديد نائب مجلس شعب قد أخذ منه وقته كله، وصار شبه شبح بالنسبة إلى راجية السيد نفسها؛ تراه في آخر اليوم فقط، وهو مثقل بخروجات الليل وقصص النهار التي لا تنتهي، يدخل مكتبه، ثم يجلس ويدون بعض الملاحظات المهمة بشأن خدمة ما أو رقم من المهم التواصل معه. ولأنه كان على دراية بمحاكمات الثورة القديمة وقصص السياسة أيام عبد الناصر؛ اعتاد الظهور المتكرر لضباط جيش متقاعدين غاضبين من طريقة السادات في الحكم، ومن إطلاق يد الجماعات الإسلامية.

كانوا يأتونه في مكتب خدمة المواطنين الذي فتحه على مقربة في شارع شريف، في عمارة مكتبة المكتب المصري الحديث، يتناولون القهوة، ثم يبدؤون في انتقاد عملية السلام التي عُقِدت من دون استشارة أحد، ويحكون قصصًا تؤكد أن ثغرة الشؤم والندامة في حرب ٧٣ كانت بقرار خاطئ من السادات نفسه، وكان درويش عبد الغني يستمع لهم بصمت، ويزنهم بميزانه الذي لا يخيب، ولا يخوض معهم في انتقاد السادات هذا، ولكنه يتحدث بحذر عن جماليات العصر السابق، وحالة العزة التي كان يشعر بها المواطن.

بعد وقت قليل، أدرك أنه مراقب مثلما كان يحدث في أزمنة الخمسينيات والستينيات، ولكن مع تهاون واضح، وظل يلعب فوق الحبل، لعبة التوازن الصعبة، حتى خاض في شراكة ناجحة مع عضو بالإخوان المسلمين في إقامة شركة مقاولات من الباطن، تتعامل بالأساس مع عثمان أحمد عثمان، صهر الرئيس. حدثت الشراكة على نحو درامي؛ فقد دخل عليه المكتب، ذات يوم، رجل ممتلئ، وله لحية صغيرة، ووجهه يشع بالدم، وقدم له عرضًا رصينًا

عن سمعته التي يعرفها، ثم قال ضمن ما قال:

- والحق يُقال، كنت شديدًا علينا في المحاكمات وتراعي ضميرك.

كان إسهامه في رأس مال الشركة سيتم بسمعته وحدها، على أن يُكتَب عقد به شرط يضمن عدم صبغ الشركة بصبغة سياسية. وقال الرجل، الذي صار شريكه بعدها، وكان اسمه شريف دويدار:

- ونصيبي من الأرباح السنوية أضع جزءًا بسيطًا منه في خدمة قوافل الجماعة الطبية، تمامًا كما يفعل رجال الأعمال المسيحيون في الكنيسة؛ عندهم شيء اسمه البكور حتى، لا يُوجَد مسيحي في مصر إلا ويقدم تبرعًا بسيطًا من أول راتب له.

كانت شراكة ناجحة وسهلة، وقد أمَّنها وجود عثمان أحمد عثمان. ومن ذلك الحين، بدأ يزداد أناقة، وارتدى عوينات كبيرة تأكل نصف وجهه، مذهبة الأطراف، ويميل لون عدساتها إلى اللون البني، واستطاع الحصول على مناقصات ممتازة في إقامة كباري وموانى وبنايات حكومية وسكنية عادية، وشمر أكمامه، وبدأ يفهم في مكاسب البناء، حتى صار يفهم لغة السوق، ويعرف الفروق بين السمسرة النظيفة والرخيصة، وصار نشاطه اليومي ينحصر بين الإشراف على مشروعاته هذه وإعطاء راجية السيد قسمًا من شكاوى المواطنين في دائرته بدمنهور لتلخصها له، ثم نقلها إلى سكرتير جديد مجد، ابن أحد معارفه في البلد، وقال له: «ستكون عيني على الناس هناك في بلدنا.»

وكان ذلك لأن راجية السيد صارت أقل قدرة على العمل، وأكثر ميلًا إلى دور ربة المنزل، والغريب أن طباعها الحامية في شبابها، وزيجتيها الاثنتين قبل درويش عبد الغني، اللتين كانت مسيطرة

فيهما، بل طريقتها في كسب درويش عبد الغني إلى صفها إلى الأبد، قد هدأت كثيرًا عندما ضربها شبح الخوف من السن، فبدأت تشترك في نوادٍ صحية جديدة، مخصصة للنساء؛ حتى تحافظ على وزن خفيف، وتذهب إلى كوافير مشهور، تذهب إليه جيهان السادات أيضًا؛ لتغير ألوان شعرها بين الحين والآخر، وتفصل لنفسها أزياء على موضة السبعينيات الملونة والمبقعة بدوائر بيضاء وبألوان الطيف، وهو ما قابله درويش عبد الغني بسخرية مكتومة؛ إذ كانت بعض محاولاتها تبوء بالفشل، فتعزز من كبر سنها، ولكنه أُصيب بالذهول في بعض الأحيان لظهورها بمظهر شاب، وهو ما دفعه إلى تقليدها، فزار صالونات الشعر لأول مرة، وبدأ يصبغ الشعر القليل حول رأسه الأصلع المدور، وشاربه الذي برمه على طريقة باشوات الماضي.

الرواج المالي، الذي مر به، جعله يشتري عربة مرسيدس جديدة موديل العام، ويُدخِل الفريزر المستقل لأول مرة، ويشتري بعض أجهزة تبريد الهواء، وتلفازًا ملونًا كبير، بما يفوق ما تلقاه من هدايا وقت عضوية مجلس الشعب. ومع عدم رفض أمينة الرُّز دخول مقتنياته هذه شقة المبتديان، اشترى لها مدفأة كهرباء تعينها على ليالي الشتاء في السيدة، وخلاطًا سريع جدًّا، وغاسلة أطباق، ركنتها أمينة الرُّز فترة طويلة، بلا عمل، خوفًا على مشاعر رضا التي تلقت الجهاز بغضب واضح، وقد حمل بعض الهدايا الثقيلة الثمن والوزن إلى ابنيه حلمي ولطفي، في شقتي زواجهما بعمارة قصر العيني، وحاول مع در الشهوار التي رفضت بأدب، وقالت بثقة: «لا أريد أن أشارك في فكرة تجهيز نفسي هذه؛ الأجهزة متوفرة في كل وقت، وتخزينها يتلفها.»

وكانت زياراته لحلمي ولطفي مشهودة، تُعِدُّ زوجتاهما قبلها المحمر والمشمر، ويجلسون في صالة شقة الأول، يتناولون الطعام بهدوء وهم يحيطون بدرويش عبد الغني، ويتمتعون بملاطفة حسن

حلمي درويش ودرويش لطفي درويش، والطفلة الواردة حديثًا إلى الأسرة باسم أمينة، ابنة لطفي، ثم يقص عليهم بعض قصص السياسة وكواليس الحكم في البلاد.

التزم حلمي ولطفي منذ بداية عملها في الطب بشراكة غير معلنة، يمارسان فيها الحياة بتنظيم توأمين، ولا يتدخلان في السياسة مطلقًا، ويعيشان على هامش الحياة في المدينة. كانا طبيبين ناجحين كما قال الكتاب، ينشغلان بالعمل ١٢ ساعة في اليوم، ويحيدان الحياة المنزلية، ويتركان شؤون البيت لزوجتيهما سميرة ومشيرة عبد القادر، ابنتي ألفت زين الدين، وكان وجود ألفت نفسها في شقة بالطابق الأول يساعدهما على الشعور بالاستقرار النفسي لوجود معادل حي لأمينة الرُّز، أكثر صخبًا ومرحًا؛ فقد أدخلت ألفت زين الدين ابنتيها سريعًا إلى طبيعة الحياة الزوجية الهادئة، وعلمتهما الحب كما لم تتعلمه في أيامها الذهبية، وقالت إنه عبارة عن زوج محترم وبيت مفتوح وعامر وقدرة المرأة على الكذب على الزوج وإدارة شؤونه مثل طفل صغير. كانت تملك نظرية مميزة وفقتها في زيجتها بعبد القادر شوكت، الذي مات وشبع موتًا، وهي أن التخت لا يحمل اثنين ذكيين، كانت ترى أن منسوب الحب يرتفع كلما زاد ذكاء طرف عن طرف آخر، وأنه ينخفض مع تساوي المستوى، فكانت تقول لهما بلا خجل: «أنتما الأذكى، لذلك؛ تظاهرا بالغباء أحيانًا؛ لأن الاثنين الدكاترة هاذين لن يعترفا بغبائهما أبدًا.»

ومع إدراكها المسبق لطريقة أمينة الرُّز في تربيتهما، كانت على يقين من أنهما رجلين بلا ظل حقيقي، مهنيين ويتطلعان إلى النجاح العملي فقط، ولا خلاق لهم على خروجات مسائية ولا أنشطة بعينها، ومع أن ذلك يحمل خطورة التدجين السريع للحياة الزوجية والملل بلا طحين، دفعت سميرة ومشيرة إلى حفلات مسائية أخرى، مليئة بمعارف قدامى وجدد، وعوَّدتهما على جماليات التمتع بنصف

اليـوم مـن دون زوج، والترويـق عـلى الحـال، حتـى يعـود مـن عيادتـه، التـي تقـع في البنايـة نفسـها، في تخطيـط مسـبق لا يخـر الميـاه، يجدهـا عـلى سـنجة عـشرة، مبتسـمة ومؤدبـة كـما تدربتـا في مـدارس الراهبـات، تقـدم الطعـام بهـدوء، وتسـأل ببسـمة مرتاحـة عـن تفاصيـل مـرضى اليـوم.

كان تخصصاهمـا مختلفـين رغـم ذلـك؛ فحلمـي تخصـص في أمـراض المـخ والأعصـاب، واسـتطاع سريعًـا النجـاح في عـلاج حـالات غـدة نخاميـة مسـتعصية، وبـدأ يتلقـى شـهادات المـدح والشـعر التـي يكتبهـا المـرضى ويعلقونهـا عـلى جـدران العيـادة، بينـما تخصـص لطفـي في أمـراض القلـب؛ لأنـه شـعر أنـه المـرض الـذي سيصيب غالبيـة سـكان المدينـة بسـبب تناولهـم الطعـام المقـلي بزيـت التربنتـين ليـل نهـار، وعـدم ممارسـتهم للرياضـة عـلى نحـو يُذكَـر، ونومهـم أحيانًـا بجـوار الحـزن عـلى غيـار الريـق، وقـد كان أول مـن تنبـأ بإصابـة درويـش عبـد الغنـي بالقلـب، في إحـدى زيـارات عشـاءاته.

بعـد تنـاول وجبـة معتـبرة مـن الكشـك الصعيـدي والأرز المعمـر بقطـع الحـمام، نهـض درويـش عبـد الغنـي حينهـا وجلـس في الشرفـة، يتأمـل الشـارع الهـادئ في الأسـفل، وكان يلاعـب درويـش لطفـي درويـش، ويحـاول اسـتخراج مواضـع شـبه بينهـما؛ لأنـه لاحـظ شـبهه أكـثر بعائلـة الـرُّز بأنـف مسـتقيم وعينـين لوزيتـين، جاءتـا ملونتـين مثـل عـين جـد بعيـد لم يـرَه أي مـن أفـراد الأسرة، عندمـا شـعر بـألم ثقيـل في الجـزء الأيـسر مـن صـدره، فتحامـل عـلى نفسـه، ثـم بـدأ يتعـرق. ولأنـه كان مـن رجـال الزمـن القديـم في النهايـة؛ آثـر عـدم الشـكوى. ولكـن حلمـي لاحـظ بسـهولة مـا يجـري، وهـو يُحـضِر طبـق الكنافـة العثمانـلي، فقـال لـه، بجفـاء علمـي، وهـو يمسـك بصـدره: «بابـا، هـذه أزمـة قلبيـة.»

كشـف عليـه كـما يفعـل في عيادتـه، وطلـب منـه رسـم قلـب، وكان يفعـل ذلـك بملامـح حياديـة كـما يفعـل مـع مرضـاه، حتـى قـال

درويش عبد الغني فجأة: «سبحان الله، ولا أمينة في زمنها!»

وصف له بعدها أطعمة مناسبة لحالته، وطلب منه شراء عجلة رياضية يمكن أن تُوضَع في الشقة، يتريض عليها يوميًّا، فاستطاع تأمينها بسهولة من خلال اتصال مع شريكه شريف دويدار، وقد عدَّتها راجية السيد إحدى علامات غرابته بعد مشروعاته في المقاولات، فقررت مراقبته؛ لأنها خشيت من حضور راجية سيد أخرى في حياته، وكان يستيقظ صباحًا فيلعب عليها نصف ساعة، حتى تركها بعدها، والتزم فقط بقائمة المأكولات التي حددها له حلمي، مع التزامه السرية كما اتفقا، حتى لا يثيرا الضجة.

كانت در الشهوار بمعزل عن هذا. ألفت زين الدين مثلًا لم تكن ترتاح إليها بالكامل، وتراها عمة ليست سهلة لابنتيها، فكانت تحذرهما منها، وتردد أنها في قوة أمينة الرُّز ولسانها المبرد، وذلك مع حبها لها، واعترافها بأنها فتاة مميزة بجمالها وعقلها، وغيرتها أحيانًا من تعاملها الحر الذي لا يعبأ بأحد. كان قد عادت إلى أيوا بأمريكا بعد زيارتها وقت وفاة حسن الرُّز، حاملة توصية من حسين الرُّز بأن تشتري له سيجارًا كوبيًّا فاخرًا من الذي يراه في الأفلام، وقميصًا أبيض لميعًا - كما قال لها، وبنطالًا شارلستون، وهدية قرر تقديمها لشيماء شعبان عبارة عن عوينات شمسية أصلي أمريكي وحلقين من اختيار در الشهوار.

في فترة عودتها هذه، ومع انكبابها على الدراسة، وقع مصطفى نفعة في طريقها مرة أخرى. عزاها في وفاة حسن الرُّز بأدب، وقال إن أهله يعرفون أسرة الرُّز الكبيرة، وإن أمينة الرُّز لها فضل على بعض أفراد أسرة نفعة. ولفرط أدبه؛ مازحته در الشهوار باعتباره من مقدسي العائلات الكبيرة، وقالت بشغفها الذي لا ينتهي لدراستها، والذي سيظل محددًا لحياتها كلها: «الفكرة في دراستي

التاريخ والصورة هو الصورة البديلة، يعني لم يخبرك أحد مثلًا بقصة خالو حسين الرُّز، رجل عاش حياته كما أراد، والعائلة كلها تُسقِطه من حساباتها.»

عقدت له اختبارًا سريعًا، لسبب لم تفهمه بعد، لتعرف ردة فعله على ما ستقوله بشأن مطعم «درية والرُّز»، وطباع خالها المتشربة بالشاي الكشري، وزيجتيه، وحبه الواضح للحب كفكرة عامة، وراقبت ردة فعله بفضول كأنها تدرس حالة خاصة من حالاتها التاريخية.

قال لها ببساطة إنه يعرف أن كل العائلات تمر بالمشكلات، وأن والده علمه ألا ينظر إلى الناس بمهنهم ولكن بأخلاقهم. زانته بنظراتها، وشعرت أنه يعلن عن رغبته في التقرب منها بوضوح، فسألته بجدية: «لِمَ لا تعزمني على العشاء في مطعم ألدورادو في الولاية؟ يقولون إنه يقدم حساء مينسترون إيطاليًّا ممتازًا.»

كانت كلمات حسين الرُّز تطرق بالها وهي تلاعب مصطفى نفعة، وتراقب انفعالاته الحمراء فوق وجهه، وهو يحاول إرضاءها على نحو لا يُخِل من كرامته، فبدأت تؤمن أنها تحب طريقته في معاملتها ملكة متوجة أو معجزة، وأنها تستلذ بصبره وهدوئه ورغبته في المشي مع موجتها. كان حسين الرُّز قد أخبرها أكثر من مرة أنها لن تنفع إلا مع رجل يحبها كما هي، ويترك لها فرصة قيادة حياتها، غير مكافئ لها في قوة الشخصية، وذكر، من واقع خبرته، أن الرجال ثلاثة أنواع: أبوها درويش عبد الغني، وهي تبحث عن صورته في رجال آخرين مع تعديلات، تريد شخصًا يترك لها فرصة الحياة كما حدث مع أمينة الرُّز، ولكن دون خصاله السلبية كلها؛ والنوع الثاني هو نوع خالها حسن، رب أسرة مثالي ولكنه يريد امرأة صابرة

وخادمة مثل سميحة؛ والأخير مثله، طفل لا يكبر أبدًا، يريد أن يحيا ويخطئ ويجد من يلم وراءه.

عزمها على العشاء في المطعم، وانتبهت إلى ارتباكه عندما دخلت عليه بفستان أسود قصير وقالت: «لا نستطيع ارتداء مثله في المبتديان.» ثم قالت إنها فكرت في مشروع أنثروبولوجي يُسمَّى «لا فستان في المبتديان»، يتناول الهجوم الذي تتعرض له النساء بأزيائهن القصيرة. كانت قد لاحظت، عن طريق حكايات أمينة الرُّز، أن نسبة التشدد قد زادت في المؤسسات الحكومية وفي الشارع، فصار خاليًا من فضيلة عدم التدخل بالنظر في طبيعة النساء، ومع عودة المصريين من الخليج، محملين بأفكار بعينها، صار الفستان رمزًا لا يناسب القاهرة.

كان يستمع لها بلا مقاطعة، ويتدخل بآراء خفيفة بلا إقحام، تساعدها في مشروعها، وتحدث قليلًا جدًّا عن الطب وطريقته في العمل، ورغبته في افتتاح عيادة للتوليد تعتمد سبل التوليد الجديدة والمساعدة على الحمل، حتى تآلفت مع طبعه الخامل، وميله إلى الكسل في اتخاذ القرارات، وعدم تدخله بالرأي إلا عندما يُطلَب منه، ورفع هذا حسها بالقيادة والمسؤولية، فاختارت طريقة سير علاقتهما: كانت تختفي بالأيام للتريض أو ممارسة التدريس والمذاكرة، ثم تظهر عندما تهاتفه، حتى كانت هي من بادرت وسألته السؤال الأكثر شهرة في تاريخ العلاقات:

- ما الذي تريده مما نحن فيه؟

احمر وجه مصطفى نفعة خجلًا، وقال لها وهو يبتسم بارتباك:

- يعني معتز بصداقتنا.

فقالت بصرامة:

- رد خاطئ يعني وجهة لا تراجع فيها.

كان عشاءً كارثيًّا؛ فقد ابتعدت عنه لفترة، ومارست عليه أسلوب التجاهل، حتى جاءها إلى غرفتها في الجامعة، يحمل بوكيه ورد، وبان مثل طفل تائه وسط مرج متخيل، فأخبرها أنه بُوغِت من سؤالها؛ لأنه لم يحب أحدًا من قبل، وأن الطب يؤثر عليه، فقالت بسخرية سوداء:

- أنا أيضًا لم أحب أحدًا من قبل، ولكن ثمة حدًّا أدنى من الجرأة

هذا الحد الأدنى ستبحث عنه طوال زيجتهما الطويلة، ولكنها لن تجده، وستُفاجأ أنه ضمن خصاله التي أعجبتها؛ فمع هوسها بالأبراج وتنقيبها في برجه، وجدت أنه الثور، النوع الخامل منه؛ لا يعاند ولا يصير بلسانين إلا في عمله وحده، ولكنه فاتر في ما عدا ذلك، طيب وهادئ وأكثر ميلًا إلى البراءة بحيث يصدق الجميع ويؤمن أن الشر استثناء في العالم، بينما برجها القوس المتوهج؛ تضج بالحرارة، وتحاول دائمًا تحريك دفة الأمور بنارية وحيوية لا تخفى على أحد، وهو ما جعل العلاقة في توازن ظاهر، ولكنها تفتقر إلى المواجهة التي تبقيها على نار، وهو ما جعلها تفهم أمينة الرُّز بعد عقود، وتردد كلمتها الأثيرة: «نصير أمهاتنا في النهاية.»

بعد تشاور، وافقت على السكن معه في شقة مصر الجديدة، وطلبت منه أن يريها الشقة في البداية لتؤثثها كما تريد، ويتجولا في الحي الهادئ؛ لتعرف طريقة الحياة فيه، وتتعرف على الباعة، وتزن الطريق بينه وبين المبتديان. وقد عادت إلى مصر في هذه الأثناء بإجازة، وقررت التوجه رأسًا إلى حسين الرُّز لتسأله عن رأيه في مصطفى نفعة، فباركها بلا قلق، عندما استمع لرأيها فيه، وقال:

- رجل طيب ابن حلال، وهذا يكفي، سيكون مثل أخويك،

مـن العيـادة إلى البيـت والعكـس.

ثم أخبرها بإجراءات إتمامه الزواج بشيماء شعبان، فسألته:

- طب وأبلة لمبة؟

فقال:

- حظها السيئ والقليل.

فضحكت مع ضحكه، وقالت:

- خالـو حسـين، أنـت شريـر، ولـو لم تكـن خـالي لأخذتـك مـن أبلـة لمبـة.

عرضـت عـلى أمينـة الـرُّز مـا تعرفـه عـن مصطفـى نفعـة، فأجـرت بحثًـا سريعًـا ودقيقًـا عـن أسرتـه، وتأكـدت مـن خلوهـا مـن السـناكيح -كـما كانـت تقـول- وأغنيـاء الانفتـاح ومـن لا أصـل لهـم، مـع نسـبه المؤكـد إلى أسرة نفعـة الطبيـة الشـهيرة التـي افتتحـت برجالهـا الأفاضـل المجديـن ذوي العوينـات الدائريـة أولى دفعـات مدرسـة الطـب قديـمًا عـلى يـدي كلـوت بـك، وهاتفـت درويـش عبـد الغنـي ليـأتي ويشـهد الحـدث الجلـل، في تراتبيـة وضعتهـا أمينـة الـرُّز منـذ البدايـة، بحيـث لا تتعداهـا الأمـور المهمـة؛ تُعـرَض عليهـا في البدايـة، ثـم تستشـير درويـش عبـد الغنـي إذا وافقـت عـلى الأمـر في النهايـة، فقـال إنـه يعـرف عائلـة نفعـة جيـدًا، وإنهـا أسرة مـن الحكـماء المحليـين والمهاجريـن.

وقـد كان؛ جـاء مصطفـى نفعـة بعدهـا مـع أبيـه عبـد الرحمـن نفعـة إلى شـقة المبتديـان، كـما أصرت أمينـة الـرُّز، وجـاء درويـش عبـد الغنـي بعربتـه المرسـيدس الجديـدة، ومعـه سـائق لـزوم القيافـة، وحُلَّـت المشـكلة الأساسـية، عندمـا طلبـت در الشـهوار حضـور حسـين الـرُّز. الفكـرة ومـا فيهـا أن تلـك هـي المـرة الأولى التـي يُعـزَم فيهـا حسـين الـرُّز في مناسـبة تخـص الأسرة، منـذ مطلـع الخمسـينيات، ولأنهـا لم تكـن

تعرف بأمر القضايا الجديدة التي رفعها على أمينة الرُّز وحسن وراضي ورثة حسن الرُّز؛ قالت لها أمينة الرُّز: «خالكِ الكاذب هذا، يستقبلكِ في بيته، ويرفع علينا قضايا، والقضية تمسُّكِ وتمس أخويكِ.»

كانت صدمة سريعة، لم تستطع در الشهوار تجاوزها بسهولة، وحارت قليلًا، ثم آثرت حل الأمر بدبلوماسية، تقدم فيها مصطفى نفعة إلى حسين الرُّز في مكان خارجي.

جاء مصطفى نفعة يومها ببدلة بيضاء مثل التي سيرتديها في العرس، وببيون أسود، وسمت طفل خجول، وكان الوالد عبد الرحمن نفعة يتحدث بفخامة تنتمي إلى أزمنة قديمة، ولمست در الشهوار تسلطه الناعم المتخفي في مظهره الوقور وخاتم الأطباء عليه، ولاحظت قدرة الأم سعاد جاويش الاستثنائية على التحكم في الرجلين، فأيقنت أنها اختارت من يشبه أباها فعلًا، واختار مصطفى نفعة من تشبه أمه، في دائرة مكررة بلا حل، لا تعترف بالثقافة ولا تغير النشأة.

تمت الخطبة بلا خلافات، واتفقا على الحياة في شقة مصر الجديدة، وقالت سعاد جاويش إنها على يقين من أن در الشهوار ستصادق جارتهن سامية محرز، حفيدة إبراهيم ناجي، التي تدرس أيضًا بالجامعة الأمريكية، وهو ما سيحدث بالفعل، في صداقة تمتد حتى عام ٢٠٢٢، وقدم درويش عبد الغني هدية الزواج أجهزة تكييف هواء وغاسلات صحون ومكواة كهربائية متقدمة وخدمة سهلة لتصريح عيادة لمصطفى نفعة، وضيَّف الجميع بعدها على عشاء كبير في الدهان الكبابجي، وكانت أمينة الرُّز تراقب ذلك برضا واضح، وقد محت من قلبها شكوك وقوع در الشهوار في حب شخص غير مناسب. لم يعرف أحد مثلًا أنها لجأت منذ

البداية إلى حلول حاسمة وسرية، بمساعدة رضا؛ فقد لاحظت الوجوم عليها ذات يوم، وشرودها أكثر من مرة، فسألتها عما بها، فقالت أمينة الرُّز:

- أخشى من اختيارات درة يا رضا. البنت اتلمَّت على حسين الرُّز وأفسد نظرتها إلى الحياة.

فقالت رضا بعد تردد:

- عندي من يمنعها من ذلك مرة واحدة وإلى الأبد.

ذهبا معًا إلى شيخ شهير بعقد الأعمال المباركة التي تبعد الشر عن الإنسان، وامتناعه الصارم عن الأعمال التي تفرق بين المرء وزوجه وتقتل الناس وتعدمهم الأمان، وكان يضع لافتة صغيرة، مكتوبة بالكوفية، للآية من سورة البقرة التي تذكر هاروت وماروت وتحذيرهما من يُعلِّمانه من أثر ما سيتعلمه.

وكان من المشهور عنه أنه سافر إلى العراق، في مطلع السبعينيات، في رحلة تعليمية تابعة لجامعة الأزهر؛ إذ كان معلمًا أزهريًّا يقرأ بالقراءات السبع ويجيد ذكر الأحاديث بصفحتها ورقمها في صحيحي البخاري ومسلم، ووجهه أبيض مشع بالاطمئنان، ينتمي به إلى سلسلة من نساء بيضاوات بأعين زرقاء من الدقهلية، يُلقَّب أحيانًا بالشيخ عاشور الفرنساوي، وفي زيارته هذه، عرض عليه أحد علماء الشيعة هناك زيارة معجزة إلى خرائب مدينة بابل؛ ليريه معجزة بئر هاروت وماروت، الملكين المارقين. وكان الشيخ عاشور الفرنساوي فضوليًّا، فذهب معه. وهناك -حسب ما ورد ولم يؤكده أحد ولا نفاه أحد- رأى الملكين على هيئة شيخين عجوزين جدًّا، أكبر من أي شيء بهذا العالم، فحذراه من الافتتان بهما، وكان الشيخ عاشور الفرنساوي قويًّا إلى الدرجة التي تجعله يستمع بلا تأثر،

ويستخرج السحر النافع من براثن السحر السيئ.

لم يعرف مصير رفاقه، ولكنه عاد بهدوء غريب، وبدأ يمارس ما تعلمه بسهولة ودون شرح، فساعد كثيرين على الحفاظ على سلام بيوتهم، وأبعد الحسد والسحر الأسود، وكان يفعل ذلك بوهبة بسيطة كما يسميها، تُوضَع في صندوق، يحيا من عشرة بالمئة منها ويترك البقية لخلق الله.

استمع لأمينة الرُّز بهدوء، وأغمض عينيه، ثم قال: «بنتكم لها مظهر الأميرات؛ عينان ملونتان وشعر ناعم، يحيط بها السحر من كل ناحية.»

ثم ذكر أوصافًا دقيقة عن أحمد محرز، أكدت شكوك أمينة الرُّز القديمة، وأشعرتها بحرقة الغيرة السريعة، ووعدها بهدوء أن يضع عليها عملًا مناسبًا يجذبها إلى من يناسبها في المستوى والتفكير. وعندما جاءت أمينة الرُّز بقصة مصطفى نفعة بعدها بأسابيع، أوصت أمينة الرُّز رضا على الذهاب إلى الشيخ عاشور الفرنساوي ووضع مبلغ مالي محترم في صندوق الوهبة، وصلت شكرًا لله، ولم يعرف تلك الحقيقة سوى رضا وحدها، التي كانت وما زالت صندوق أسرار أمينة الرُّز الأكثر إخلاصًا.

هذه الحياة الثانية، التي تؤمن بتأثير السحر والأعمال، كانت أمينة الرُّز تحتفظ بها بعيدًا عن أعين ألفت زين الدين وبقية صديقات الصالونات، وقد زادت معها عندما وصلت إلى الخمسينيات في الثمانينيات؛ إذ صارت أكثر قلقًا على صحتها، وميالة ميلًا هوسيًّا إلى معرفة المستخبي وتطويع القدر، وقراءة الفنجان ومعرفة الطالع من البروج، واستعادت بذلك فضولها الطفل القديم مع والدها السيد رمضان الرُّز، عندما كانت تقرأ صفحة حظك في الكواكب،

وتذهـب معـه إلى مسـجد السـيدة زينـب، يلفهـا البخـور ورائحـة العطـور الكثيفـة، وتـرى العمامـة الكبـيرة مـن خلـف المقـام، وتسـمع السـيد رمضـان الـرُّز وهـو يقـول: «المرحومـة أمـكِ كانـت تراهـا في المنـام ترتـدي عمامـة تصـل إلى السـماء وتُحدِّثهـا بـما غمـض عليهـا.»

يوم

١٢

تزوج مصطفى نفعة بدر الشهوار بعدها بستة أشهر كما اتفقا في مصر، وعقد لها حفلة مميزة أخرى في أمريكا لاحقًا، جمع فيها بعض مصريي ولاية أيوا، وذهبا معًا للتزلج.

ولاحظت در الشهوار أنها بدأت تحبه بهدوء، وبلا أي صخب، وتراقب انفعالاته الطفولية، ورغبته المحمومة في شراء أي شيء يرضيها. ولأن ذوقها كان غريبًا في البيع والشراء؛ كانت تنجذب إلى منتجات غريبة بعينها، مثل رأس أحد أيائل أمريكا الشهيرة، التي عدَّتها رمزًا أنثروبولوجيًّا للاستعمار الأمريكي، وصور بالديغتريب لثيران البيسون برؤوسها الطفولية المشعرة، وعظمة كف لديناصور، وكان مصطفى نفعة يتحلى بفضيلة الفضول الكافي ليتقبل نزعاتها الغريبة، ويفكر جديًّا أنها تريده صديقًا أكثر منه شريكًا. كانت طباعها تتغير خلال أيام، فتنغمس في دراستها بحماسة، وتتعامل معه بفتور، ثم تشتعل في أيام أخرى وتنسى الدراسة تمامًا. ولأن طبعه كان ثابتًا؛ احتواها سريعًا بما يكفي لتشعر بصداقته هذه، ولذلك؛ بدأ بينهما ما يشبه صور الحب مع تخفيف غير ضار.

قبل عرسهما في مصر، أجرى درويش عبد الغني عملية القسطرة الأولى، وقد أجراها عند لطفي ابنه، في مشهد مؤثر، قال عنه برطانة القضاء القديمة: «ما أحلى الموت بين يدي الابن، وما أسوأ الطب!»

وقد نصحه لطفي بعدها بالابتعاد عن الطعام المقلي أو المدهن، ونصحه بتناول الطعام المسلوق والخضروات والفاكهة، ولكن درويش عبد الغني، بعزائم النواب الأصدقاء التي لا تنتهي، وشراكته التجارية، كان يتعشى كل ليلة في مطعم شكل، يجلس وسط المائدة صامتًا، يحتفظ بابتسامة واثقة، ويراقب حركة الجموع

حوله، ثم يعطي رأيه بثقة في أكبر الأحداث أو يكتب اسمًا سيخدمه في شيء، وقد ارتدى في هذه الأثناء عوينات النظر الغامقة التي عززت من سلطة مظهره وجعلته يشبه جدًّا خطيرًا من بقايا ثورة يوليو. والحقيقة أن وضعه كان أفضل كثيرًا من وضع أمينة الرُّز؛ فمع اقتراب سن المعاش، الذي حددت أنها ستصل إليه في مطلع التسعينيات، خصصت العقد الأخير في عملها هذا بالتشدد أمام قضايا الميراث، وبدأت ترفض الهدايا التي أُتخِمت بها شقة المبتديان في هذه الأيام المباركة، وكان قلقها منبعه خوفها من إنهاء وظيفتها بفضيحة.

كان مصير عصمت السادات، الذي بدأت محاكمته وقتها بتهمة الفساد الشامل، بسبب تربحه من قرابته للرئيس، يلوح أمام عينيها، وقد قرأت أمينة الرُّز وقائع المحاكمة باهتمام، وشعرت بالقلق لتطورها، وحجم الأموال التي حصَّلها شقيق الرئيس، والفدادين والعقارات التي يملكها، ولذلك؛ عملت مناورة عندما أرسلت إلى جيهان السادات إخطارًا تطلب فيه إعفاءها من منصبها؛ لأنها تشعر بالإرهاق بعد أعوام طويلة من الخدمة، وخاصة مع عدم وجود نظام خاص للترقي من خلال عملها، وقد كتبته بنبرة المرأة التي ربت طبيبين وأستاذة جامعية، وأخت رجل خدم الوطن كثيرًا في موقعه. وكانت تعرف، عن طريق معرفة في الرئاسة، أن كل شيء يمكن أن يتغير بإمضاء من جيهان السادات.

كان سبب مبادرتها هذه هو رغبتها في الابتعاد عن المؤسسة التي بدأت تفوح رائحتها بالفساد؛ فمع تغيير عربتها إلى عربة مرسيدس حديثة، ابتاعتها بالتقسيط من معرض سيارات الحمد، الذي يديره رجل متأنق اسمه عبد الحميد بدوي، من أسرة أعيان كبيرة في المنصورة، يملكون ثلاث قرى بلا مبالغة، خدمته في أمر حيازة قطعة أرض مزروعة بالبرتقال كان يريد استعادتها؛ لأنها، وحسب

تقديراتـه، سـتدخل كـردون المبـاني قريبًـا، لفتـت الأنظـار إليهـا، فبـدأ البعـض يتسـاءلون بشـأن ثروتهـا الحقيقيـة، واختـلاف موقـع شـقتها في المبتديـان -أو السـيدة كـما كان يـتردد بسـخرية سـوداء- عـن مظهرهـا الـبراق، وزيجـات أبنائهـا، وكان أكثـر الذيـن يحاولـون العدالـة في التنـاول ينسـبون الثـراء إلى درويـش عبـد الغنـي الـذي صـار حوتًـا كبيرًا مـن حيتـان المقـاولات في أزمنـة البنايـات هـذه.

وقـد لمسـت ذلـك بذكائهـا المهنـي وحسـها الوظيفـي السـليم تجـاه البيروقراطيـة؛ فمـع تقلبهـا في مزبلـة المـيري وترابـه، أيقنـت أن العـبرة بالخواتيـم، وأن شـعرة معاويـة هـي مـا تفـرق بـين المسـؤول الصالـح والفاسـد، وقـد رأت بعينيهـا مـن أُطيـح بهـم في بدايـة زمـن السـادات لانتسـابهم إلى علاقـة مصلحـة مـع أحـد الضبـاط الأحـرار، بحجـة التطهـير والقضـاء عـلى مراكـز القـوى، وتحاشـت حينهـا ذكـر علاقتهـا بالضابـط عاصـم العلمـي، أو زوجتـه ألفـت الجنـابي، التـي تجاوزتهـما ببـال رائـق، وبغـض النظـر عـن ظهورهـا بمظهـر المتقلـب بحكـم المصلحـة، وشـاهدت كيـف أُجـبِر عـلى التقاعـد الهـادئ وصـار يعمـل في وزارة بـلا اسـم. ومـع هبَّـة القضـاء عـلى الفسـاد هـذه، كان واجبًـا عليهـا الإمسـاك بدفـة الأمـور. والفكـرة أن أمينـة الـرُّز لم تؤمـن أبـدًا أنهـا تسـتفيد مـن سـلطاتها؛ كانـت تـرى ذلـك مـن فضائـل العمـل الحكومـي الذكـي الـذي يفيـد كل الأطـراف.

وقـد جاءتهـا الإجابـة سريعًـا عـن طريـق ترشـيح رسـمي لمنصـب في مجلـس جديـد كان يُأسَّـس للمـرأة والطفـل، سـيكون لاحقًـا نـواة المركـز القومـي للمـرأة، عـن طريـق جيهـان السـادات، وأثنـت في الترشـيح عـلى دورهـا الكبـير في وضـع مكانـة للمـرأة وقـت الثـورة، ومسـاعدتها عـلى النجـاح في عـالم الرجـال، وكان حظهـا الحسـن أن عملهـا هنـاك كان بـلا عمـل حقيقـي؛ فقـد كان مـن الواجـب عليهـا أن تتابـع فقـط افتتـاح معـارض خيريـة، تـشرف عليهـا سـيدات اللوتـاري، وعيـادات صحيـة

في قرى بلا رجال، ومعارض رسم وحفلات باليه ومنتديات شعر بها شاعرات شابات يكتبن الشعر من أجل ماما جيهان وبابا السادات، فاكتسبت وزنًا في هذه الأثناء، وبدأ بالها يروق مثل أيامها الأفضل في الأوقاف، قبل هبَّة القضاء على الفساد، وجهزت نفسها للتقاعد عن طريق مشاركتها المحمومة في صالونات الباديكير والمانيكير، وممارسة رياضة الجري الخفيفة في النادي الأهلي بالجزيرة، وكان هذا حالها عند زواج در الشهوار ومصطفى نفعة، في يوم جميل وأليف من أيام مارس، أمطرت فيه السماء ولونت المدينة بلون فاقع.

عندما سمعت در الشهوار بقصة قضية الشقة الجديدة التي رفعها حسين الرُّز، قررت الذهاب إليه فور عودتها من زيارة أمريكا؛ لتواجهه بما جرى، بعدما تجاوزت معضلة التقدم والعرس الذي عزمته عليه، وقرر ألا يحضره بحسم حتى لا يسبب لها أي قلق. كان وقتها قد أتم استئجار شقة جديدة في عابدين، في النواحي الجديدة التي نشأت حول القصر في السنوات الأخيرة، من عمارات أهالي وبيوت قديمة مجددة، وكانت شقة صغيرة جدًّا، لها شرفة صغيرة تطل على شارع ضيق، وكان فيها أثاث قليل، لا يكفي لإقامة أسرة، فقال لشيماء شعبان: «هذه بداية فقط حتى يتسنى لي تجهيز شقة عابدين.»

كان يشعر، كلما اقترب تنفيذه للزواج، أنه يسلك طريقًا شائكة، ونهايتها سوداء ومنيلة، ولكنه كان منجذبًا إلى الجمال الشاب لشيماء شعبان، على نحو تجاوز أنَّات الحكمة التي كانت تلعب في رأسه بين الحين والآخر، والحقيقة أنه كان يخشى المصير الذي سمع به من ضياع رجال كبار أحبوا فتيات في عمر أحفادهم، وأخذن منهم كل شيء، وتركوهم على الحديدة، وكان شعوره هذا يزداد مع مراقبته المحمومة والمتشككة لطريقة شيماء شعبان في الابتسام وهما داخلان

إلى مطعم أو مقهى كبير، أو كازينو على النيل، وطرافتها في الحديث إلى الغرباء، فيشهد تبدلًا كاملًا فيها، ويشعر أن داخلها رغبة دائمة في لفت انتباه الآخرين، وكان يمحو أفكاره السوداء هذه عندما تقص عليه أحداث يومها، وتُدللهِ بكلمات تعلمتها من الأفلام، أو تسير بجانبه بسعادة وهما يختاران مقتنيات بيتهم الجديد.

كان حضورها الأسمر، المغلف بنفحة فتاة الطفولة البعيدة، يخدره بشعور جميل، فيتأمل قدميها الصغيرتين، ويتخيل ملمسهما بين يديه، ويفكر بجدية عشاق في طبيعة رائحتها بعد الحب أو بعد الاستيقاظ. كان عاشقًا بامتياز وهوس. ومع أنه لم يجد ذلك مع لمبة بطاح، التي أحبها من واقع العشرة، كان يجده مع درية عز الدين؛ إذ دفعه عشقه الشديد لها إلى حفظ قائمة انفعالاتها الخاصة، ومعرفة الوقت الذي تتحرك فيه عينها اليسرى لتصير حولاء، عندما تغضب أو تقلق أو تنهي عملًا شاقًّا.

تكرر الأمر نفسه مع شيماء شعبان، ولكنه كان حبًّا جسديًّا يفوق حبه الكامل لدرية عز الدين، وهو ما حكمه على نحو سيئ؛ مجاراته مثلًا في أحاديثها عن البيوت والخدمة، والرجال السيئين، كانت بائسة، يؤديها آليًّا، كأنه يؤدي دورًا بعينه حتى يصل إلى هدفه المنشود، وطباعها الشرهة تجاه الهدايا والألعاب والطعام الجيد كان يراها دليلًا على شراهتها في الحب؛ فمع تمرسه في قصص آخر الليل و«ألف ليلة وليلة» الخاصة به في عالم نساء المدينة، آمن أن أكثرهن شراهة في التبضع والطعام أكثرهن غيرة وشراهة في الحب، ولم يتوصل قط إلى إقناع نفسه بأن شيماء شعبان تحبه لذاته. كان الاتفاق أن يصرف عليها حتى تتخرج، وتعمل في التدريس بالجامعة كما تريد، وتؤدي هي دورها سيدة بيت شابة، ثم ينتقلا إلى شقة

عابدين بعد تسوية الأمور مع لمبة بطاح. عندما فعلت لمبة بطاح ما فعلته بعدها، وحزن بسبب ذلك، قال له الأستاذ حلمي مطاوع بلا مواربة: «حقها؛ كنت نذلًا معها.»

عندما جاءت در الشهوار من أمريكا وقابلته لتسأله عن قضية الشقة هذه، شرح لها بلا خجل فكرة أنه لا يملك سوى شقة عابدين، التي هي ملك مجهول بالأساس لدرية عز الدين وجدتها أو أحد أسلافهما، والمطعم الذي يديره مع لمبة بطاح منذ عقود طويلة، ولكنه يكفي لإقامة الأود اليوم بيومه، باستثناء أيام العطلات الرسمية، وأن نصيبه المالي من شقة المبتديان بأسعار مطلع الثمانينيات كافٍ لتأمين شيخوخة مريحة له، يستطيع فيها التمتع بزواجه بشيماء شعبان.

تفهمت در الشهوار المنطق خلف ما جرى، ووعدته أن تناقش أمينة الرُّز في ذلك، ثم أبدت تعجبها من أنهما لم يقيما حوارًا واحدًا بينهما طوال سنين الانقطاع هذه، فقال حسين الرُّز ببساطة: «تخلت أمينة عن أن تكون أختي منذ طفولتها، ومن شب على شيء شاب عليه.»

ثم قال لها إنه تخلى عن فكرة مسامحتها وأخيه حسن الرُّز عن حقه في الشقة منذ قصة الورقة الخضراء، وأخبرها، بلا قلق من ردة فعلها، أن كل الأسر المتصارعة قديمًا بشأن الميراث كانت تزيف ورقة خضراء عليها توقيع المورث نفسه، وأنه اكتشف ذلك مؤخرًا على جلسات المقاهي، ولذلك؛ أيقن أن حرمانه يتعدى الطمع في نصيبه إلى حرمانه لشخصه. لاحظت در الشهوار أنه يتحدث بصيغة المظلومية التي تجيدها أمينة الرُّز، فابتسمت سرًّا لأنهما متشابهان في الطباع، مثل أي أخوين، رغم كل هذا العداء، وقالت له: «المهم أن

تخرجاني من حربكما هذه؛ فهي ماما وأنت خالو، ولا أفهم العداء والأبيض والأسود هذا.»

أعطته كتاب «ألف ليلة وليلة» هدية، طبعة عربية منقحة، من إصدار دار قديمة في دمشق، وأخبرته أنها مخطوطة طبق الأصل من مخطوطة في جامعة أيوا التي تدرس فيها، وتحوي رسومًا بيدي فنان إنجليزي شهير تصف المشاهد. أمسك حسين الرُّز الكتاب بفضول طفل، وقلّبه سريعًا، وبحث بعينيه عن رسمة تشبهه من بين رسوم كل الرجال المعممين في الكتاب الضخم، حتى وصل إلى قصة حسن الإسكافي والجارية الجميلة، فقرأها على در الشهوار، وعندما وصل إلى النهاية التي تخون فيها الجارية سيدها الإسكافي، الذي اختارته رغم فقره وسنه وزواجه، تمهيدًا للدخول إلى قصة أخرى، أُصيب بالوجوم، وقال لدر الشهوار: «أشعر والله يا بنتي أنني بطل في قصص متداخلة؛ أخرج من واحدة إلى أخرى بفعل القدر، ولا أعرف متى أتوقف وأعود إلى لعب الماضي الواضح ومشاهده الصريحة.»

شغلته هذه القصة طويلًا في الأيام التالية، واستشار حلمي مطاوع في شكوكه، فقال بحزن: «هذه شكوك الشيوخ يا رُز؛ كلما كبر الإنسان ازداد شكًّا في كل شيء.»

ولأنه لم يجد إجابة مريحة، ولا إثباتًا أن لشكوكه مساحة؛ اتخذ خطوة متهورة في الزواج السريع بشيماء شعبان، وعُقِد الزواج في صالة صغيرة بإمبابة، تطل على النيل، ولم يحضره سوى معارف أبيها، وبعض جاراتها من الخادمات، ومعارف حسين الرُّز، ودر الشهوار التي حضرت بنفحة أولاد ذوات واضحة، وقد ازدادت تماسكًا بعد الزواج. ورغم تورد شيماء شعبان في فستان أبيض استأجروه من أتيليه العبودي في مصر الجديدة، وفرحتها الحقيقية،

لم يستطع حسين الرُّز مداراة شعوره بالقلق.

لم يهدأ إلا عندما مارس معها الحب أسفل الدُّش، كما كان يتخيل دائمًا، وفعل مع لمبة بطاح في بداية زواجهما، وخدَّره هذا لأيام طويلة، شعر فيها أنه ملك نفسه، والغريب أن علاقته الفاترة بلمبة بطاح قد تحسنت في ذلك الوقت، فصار أكثر اهتمامًا بسؤالها عما تمر به يوميًّا، ويتابع معها المطعم بهمة الشباب، وخرج معها مرتين واشترى لها تايير جديدًا وبلوزة وجيبتين.

وأحست لمبة بطاح بالشك في تصرفاته هذه بخبرة الزوجة، فراقبته عن كثب، ولم تستطع تحديد الموعد الذي كان يذهب فيه إلى الشقة الأخرى ليواعد شيماء شعبان، والغريب أن الأخيرة، ورغم طموحها المتقد، أظهرت انصياعًا كاملًا لحسين الرُّز فور زواجهما، وصارت تتعامل بصفتها ربة منزل مجدة، وتساعده في التخفف من اليوم، وترضى بالأيام التي خصصها لها، وذلك رغم طبعها القوي وجموحها الذي لا يخفى على أحد، والذي كانت تذهب به الجامعة صباحًا، ثم تعود به قبيل الظهر، متعرقة ومرهقة، ولكن صلبة، ورغم حديث أبيها عن الطب، كانت تدرس في كلية التربية؛ إذ ستُؤمِّن لها الكلية وظيفة معلمة.

وقد قبل حسين الرُّز بانكبابها الصباحي هذا وفقًا لاتفاقهما، ولكنه لم يعرف -مثلًا- ما عرفته رضا، خادمة أمينة الرُّز، بحكم شبكة علاقتها مع خادمات وسط البلد، أن شيماء شعبان كانت قد تزوجت رجلًا في سن أبيها، لا يخلو من الوسامة، ويملك مطعمًا؛ ليُؤمِّن لها مصروفًا لتعليمها وفرصة لتقابل شابًّا يعمل في إدارة الجامعة، كان قد أقنعها بالحب عندما ذهبت إلى الجامعة أول مرة للتقديم، وسهَّل عليها الدخول رغم مصروفات السنة الجامعية ومهنة أبيها غير المسجلة، مقابل الحب، وآمنت شيماء شعبان

بصدقه لأنه عرفها على وضعه المادي الصعب، واشتغاله بالسياسة في صفوف حزب يساري مغمور.

أحبته بجنون، ورأته مغايرًا لصورتها عن الرجال الذين يطاردونها بالحب، ولهذا؛ سلمته نفسها بسهولة، وكان ذلك في الفترة التي خُطِبت فيها إلى حسين الرُّز. ولأنه كان صادقًا معها، وحكى لها عن محاولاته سرقة زوجة أبيه، وسرقة ممتلكات أستاذ جامعي يتحدث يوميًّا عن اقتصاد الفقراء بلا هدف، وشبَّه نفسه بسعيد مهران -كان اسمه سعيد فهمي- بطل «اللص والكلاب»؛ قالت له إنها ستتزوج حسين الرُّز زواجًا بلا حب؛ ليُؤمِّن لها المال الكافي للدراسة، في مملكة عالم جائرة، واتفقا معًا على الصبر حتى تنقضي الدراسة.

لم تعرف رضا بهذه الخطة السوداء، ولكنها عرفت سلوك شيماء شعبان الشائن، كما لم تعرف بهوية حسين الرُّز، وعرفت بها متأخرة شهرين، عندما حدثتها خادمة اسمها أسماء عن شيماء شعبان المحظوظة التي تزوجت صاحب مطعم «درية والرُّز»، فضربت رضا صدرها وقالت: «في الستينيات ويفعل ذلك؟ لن يهمد هذا الرجل!»

وذهبت لتخبر أمينة الرُّز بذلك، فور عودتها من جلسة مؤتمر يخص المرأة العربية، قابلت فيه أعضاء من الأسرة المالكة السعودية، فكانت على مشارف الغضب، وقالت: «لتعرف در الشهوار هذا وتدرك فضائح خالها العجوز المتصابي.»

في هذه الأثناء، كان درويش عبد الغني يخوض في بحار التجارة السهلة؛ فقد تعرف على توفيق عبد الحي -ملك الفراخ كما كانوا يسمونه في هذه الأثناء- وعرض عليه أعمال شركته إريك، وانتشاره في كل أنحاء المدينة، وذكر له، بما لا يدع مجالًا للشك، أنه يبيع

دجاجه في نوادي الجيش والمجمعات الاستهلاكية والشركات الكبيرة والمطاعم، وقال له على نحو درامي: «لا أحد في القاهرة لا يعرف طعم فراخ توفيق عبد الحي.»

أقنعه بسهولة، وأرسل له صناديق من الدجاج المجمد إلى شقة الإيموبيليا وشقة المبتديان، ودخل معه بأسهم شريكًا في الربح النهائي الذي يُوزَّع آخر كل عام. وقد أتت تلك التجارة أُكلها سريعًا، فازداد درويش عبد الغني ثراءً، وبدأ يتخذ مظهر رجال الأعمال فعليًّا.

وعندما ترشح لمجلس الشعب للمرة الثانية عن دائرته في دمنهور، كان قد عرف كيف يستفيد جيدًا من حصانة النواب في تأمين توريد شحنات دجاج مجمد من البرازيل ولبنان، وتأمين نفسه وأمواله في مصادر الاستثمار، وقد كتب حينها دفاتر استثمارية لحلمي ولطفي ودر الشهوار، يستفيدون منها بعد وفاته، وقد انشغل كثيرًا بمن سيرث نصيبه في شركتي المقاولات والدجاج، خاصة مع عدم رغبته في أن تستأثر راجية السيد بكل شيء، فهاتف أمينة الرُّز، وطلب مشورتها في أمر مهم، وتقابلا بعدها في شقة المبتديان ذات غروب، شربا فيها القهوة بالشرفة بسلام شريكين قديمين، وحكى لها عن تجاراته، فحذرته من ضياع السمعة في آخر فترات الوظيفة، وقالت بجدية: «عضو مجلس شعب يعني حاليًّا قطًّا من القطط السمان.»

والحقيقة أنها لم تفعل ذلك خوفًا عليه، وإنما خوفًا على سمعتها بصفتها طليقة له وأمًّا لأبنائه، وكانت حياة در الشهوار، التي تسير وفقًا لهواها، أكبر منابع قلقها، فأجرت معه ما يشبه تحقيقًا بشأن طريقة الربح، ثم توصلت معه في النهاية إلى صيغة مناسبة، يكتب

فيهـا الأسـهم باسـم أبنائـه الثلاثـة، ولا يشـغلهم بـالإدارة، وقالـت بامتنـان لم تخفـه: «تـؤدي دورك أبًـا عـلى خـير وجـه.»

ولكـن تهاونـه بعدهـا في فهـم قواعـد الإدارة أوصلـه إلى الكارثـة التـي خشـيت منهـا أمينـة الـرُّز كثـيرًا؛ فمـع توسـع شركـة الدجـاج هـذه، التـي وصلـت حتـى إلى مائـدة حسـين الـرُّز، دون أن يعـرف أن توقيـع صهـره عليهـا، ظهـرت قضيـة فسـاد الدجـاج الشـهيرة في هـذه الأيـام عـن طريـق بـلاغ كيـدي، حقـق فيـه ضابـط بأحـد منافـذ البيـع في محـرم بـك بالإسـكندرية، وجـد فيـه ثـلاث دجاجـات تخطـت تاريـخ الصلاحيـة ومـا زالـت معروضـة. ومـع ارتبـاك البائعـة، حـرر محضرًا يثبـت فسـاد دجـاج توفيـق عبـد الحـي، وانتـشر الخـبر سريعًـا بفعـل مافيـا تجـار الدجـاج وقتهـا، حتـى وصـل إلى طاولـة درويـش عبـد الغنـي في صبـاح بـلا شـمس، فهاتـف توفيـق عبـد الحـي ليتحقـق منـه بشـأن المأسـاة، فقـال: «يـا درويـش بـك، زوبعـة في فنجـان.»

ولكنهـا لم تكـن زوبعـة فعـلًا؛ فقـد ضُبِـط توفيـق عبـد الحـي نفسـه. ومـع التحقيقـات، ظهـرت أصابـع لأشـقاء الرئيـس وبعـض معارفـه. ورغـم وسـاطة عثـمان أحمـد عثـمان، عمـلاق المقـاولات حينهـا، لم تهـدأ الزوبعـة، وهـو مـا أصـاب درويـش عبـد الغنـي بأزمتـه القلبيـة الثانيـة، التـي رقـد معهـا في شـقة الإيموبيليـا، وبـاع فيهـا أسـهمه كلهـا تحـت وطـأة الخـوف، بنصـف الثمـن، وقـد عـاده لطفـي درويـش كل يـوم، وأشرف عـلى حالتـه بجديـة طبيـب محايـد، ووصـف لـه إجـراءات أكثـر صرامـة في حمايـة صحـة قلبـه، وشـدد عـلى ابتعـاده عـن الضغـط العصبي لأن شرايينـه في حالـة انسـداد كبـيرة، ثـم انحنـى لراجيـة السـيد بـأدب، وقـال لهـا: «نشـكر لـكِ وجـودكِ يـا راجيـة هانـم.»

لم تتنـازل أمينـة الـرُّز وتـزُره في شـقة ضرتهـا القديمـة هـذه، ولكنهـا أرسـلت خطابًـا مـع ورود وصـورة قديمـة لـه وقـت صولاتـه وجولاتـه

في محاكـمات الثـورة، وكتبـت فيهـا بـلا لبـس: «يجـب عليـك ألا تـشرخ صورتـك القديمـة.» والغريـب أنهـا شـعرت بالتعاطـف الحقيقـي معـه، واكتشـفت داخلهـا أنهـا اعتـادت وجـوده الخفيـف هـذا، دون تدخـل في حياتهـا. ولأنهـا أيقنـت مـع تقدمهـا في السـن أنهـا لـن تتـزوج مجـددًا؛ اكتشـفت ذات يـوم، وبحـس عـارم مـن الذهـول، أن درويـش عبـد الغنـي كان رجـل حياتهـا الوحيـد، وصـارت تتذكـر بعضًـا مـن قفشـاته الطريفـة معهـا، ومحاولاتـه الرومانسـية الرخيصـة لتليينهـا، ومنهـا المـرة التـي اسـتيقظت فيهـا ليـلًا، بعـد مشـاجرة غـير مهمـة، فوقفـت تنظـر إليـه في الظـلام بعينـين بـلا حـب، وشـعر بذلـك فاسـتيقظ، ووجدهـا بهيئتهـا المخيفـة هـذه، فقـال: «صـدق النبـي: أغلـب أهـل النـار مـن النسـاء.»

كانـت كارثـة، لم تنتـهِ إلا وقـد ارتـدت أمينـة الـرُّز ثيابهـا وخرجـت مـن المنـزل، فنـزل خلفهـا، وأخذهـا في عربتهـما وقتهـا إلى مطعـم فنـدق شِـبرد. وهنـاك، بعـد حديـث أحـادي مـن طرفـه، اكتشـف أنهـا صلبـة الـرأس عـلى نحـو صعـب، وتحـزن بالكامـل، بـلا نقـص، ويمكـن أن تتذكـر حادثـة واحـدة فتحـدد عـلى أساسـها قصـة عمـر كامـل كـما جرى مـع حسـين الـرُّز، لكنـه لم يعـرف مثـلًا قـط أنهـا كانـت تنظـر إليـه بإشـفاق حقيقـي أحيانًـا، مـن خلـف ظهـره، وتصفـه أنـه فـلاح طيـب، فشـل في فهـم حقيقـة التعامـل مـع امـرأة متحـضرة، وتـردد بخفـوت: «غلبـان، لم يُؤهَّـل إلا لمعالجـة البهائـم.»

أخفـت حزنهـا عليـه عـن الجميـع، إلا عـن رضـا، وفاضـت بحقدهـا القديـم عـلى زيجتـه براجيـة السـيد، فقالـت إنهـا ارتاحـت إلى حياتهـا وحيـدة مـن دونـه، ولكنهـا تـدرك الآن أن ثمـة وقتًـا ضائعًـا بينهـما بسـبب نـزوة بـلا دسـم، كان يمكـن أن يتعداهـا، ويعالجهـا بحكمـة، وذكـرت حسـن الـرُّز في أثنـاء هـذا، فبكـت قليـلًا، وقالـت إنـه كان مفوهًـا حكيـمًا، وظـل رجـلًا محترمًـا طـوال حياتـه، وإن سـميحة عاشـت

معه أحلى ما يمكن أن تعيشه زوجة مع زوجها، مع أنها ربة منزل بلا عمل مثلها.

بعدما نفثت كل مادتها السوداء، قررت إلقاء نفسها في أتون العمل الاجتماعي، وكان هذا عندما سافرت خارج البلاد لأول مرة في حياتها، فذهبت إلى ألمانيا الشرقية والغربية على حد سواء؛ لترى تجربة بعض المؤسسات النسائية هناك، فشاهدت الألوان الخضراء البراقة، والطرق المؤسسة جيدًا، رغم فقر الجزء الشرقي عن الجزء الغربي من البلاد هناك، وتعاملت مع سيدات ألمانيات مجدات، بلا أزواج، كرسن حياتهن لعمل واحد.

وقد عادت من هذه السفرة وهي تحمل أفكارًا تقدمية عن طبيعة علاقة المرأة بالرجل، واستعادت قوتها القديمة، وظلت تحكي عن هذه السفرة كلما قابلت أحد في مجالسها المسائية، وتصف المكتبات الكبيرة في ألمانيا الغربية، التي زارتها بعدها في الرحلة نفسها، ودار الأوبرا المهيبة، واكتسبت من ذلك عادة الاستماع للموسيقى الكلاسيكية من فضائل الموسيقى الغربية، مثل بيتهوفن وموتسارت وباخ، فكان حلمي أو لطفي يزورانها في شقة المبتديان، في أي وقت من اليوم، كما اعتادا، عندما ينتهيان من أعمال عدة؛ ليتناولا عندها طعام الغداء الذي تعده رضا أو تعده هي بمزاج رائق أحيانًا، فيستمعان للموسيقى التي تدوي من غرفتها إلى كل مكان في الشقة، ويقول حلمي بطريقته الساخرة قليلًا: «الشقة صارت من قصور الثقافة.»

كانت أزمنة جديدة، تهب عليهم بعد مقدمة درامية بدأت باغتيال السادات في العرض العسكري عام ٨١، وظهور حسني مبارك وجهًا جديدًا يبشر بالخير، كما كانت أمينة الرُّز تقول؛ إ تعاملت مع سوزان ثابت زوجته عن قرب ضمن عملها في

المجلس، ورأت كيف أنها تسير على نهج جيهان السادات بالتدخل الرسمي الصحيح في شؤون الرجال، كما كانت أمينة الرُّز تؤكد بجدية، وأدركت أن الرجل الجديد سيكمل طريق الرئيس السابق في الانفتاح الاقتصادي والوصول إلى دولة حديثة مثل ألمانيا الغربية؛ لأنها أدركت، بحسها الفطري، أن فقر ألمانيا الشرقية الواضح وطباع أهلها، التي تشبه طباع الروس، جاءت من سياسات تقشفية تشبه سياسات عبد الناصر.

وبدأت حينها تنتقد ما جرى في عصره، رغم إعجابها به حينها، وتراجع مواقفها في الأوقاف، فتقول إن تحويل قصر كبير لباشا كان يملك مزارع قطن يقيم بها صناعة وطنية أفضل كثيرًا من مدرسة بلا تعليم، يجلس فيها سبعة طلبة فوق دكة واحدة. وبطبعهما، كان حلمي ولطفي يستمعان لآرائها بلا جدال، ويزدادان شهرة في عملهما؛ فحلمي مثلًا، ذهب إلى أمريكا عام ٨٣ في بعثة تعليمية، وعاد بعدها وهو يحمل شهادات لا تنتهي تؤكد زمالته لجمعيات طبية وجامعات عالمية عدة، ولطفي أجرى جراحة قلب كبيرة، دفعت به إلى مقدمة الأطباء المشاهير؛ لأنه أجراها لرجل أعمال اسمه شريف زيدان، يملك مصنع ألبان شهير اسمه مصنع زيدون، وأدركا مبكرًا أن عملهما أساسي لا علاقة له بالسياسة والاقتصاد؛ فالمرض والحاجة إليه لن تنقطع أبدًا.

ولم تجادلها سوى در الشهوار، التي تبنت فكرة تقدمية تؤكد فيها أن حال مصر ستنصلح لو تحولت إلى بلد ولايات مثل أمريكا؛ كل ولاية مستقلة بميزانيتها وانتخاباتها، وكانت تحذر من السياسات المالية غير المحسوبة التي ستوسع فجوة الفقر بين طبقات المجتمع. لم يعكر صفو هذه الأيام الهادئة سوى الترصد الرسمي لرجال توفيق عبد الحي، ملك الفراخ، الذي اضطُرَّ بعدها إلى الهجرة وترك البلاد خوفًا من الملاحقة، ومعه، وُضِع اسم درويش

عبد الغني ضمن المغضوب عليهم، ووُضِعت توصية بإفشاله في انتخابات مجلس الشعب الجديدة، والحديث عنه في الصحافة على أنه من رجال فساد العصر السابق، وقد قرأ درويش عبد الغني هذه الأخبار على فراش المرض، وتذكر كلمات أمينة الرُّز، فكان يردد: «حكيمة أمينة. آخر خدمة الغُز علقة.»

استقرت در الشهوار أستاذة في الجامعة الأمريكية، بقسم الأنثروبولوجيا، وكانت تسهم أيضًا في التدريس بقسم التاريخ الحديث لمصر على نحو بديل؛ إذ ابتدعت فكرتها الأثيرة عن تأصيل التاريخ عن طريق الصور الفوتوغرافية واللافتات والتغيرات التي تطرأ على الشوارع. كانت حياتها أكثر هدوءًا في مصر الجديدة؛ تخرج صباحًا إلى شرفة الشقة المطلة على شارع أبو بكر الصديق من الجنب، وتتأمل التورماي بحركته الحثيثة، وعدد المارة القليل، وتشرب قهوتها مع السيجارة، رغم محاولات مصطفى نفعة إقناعها بالعدول عنها، بطريقته المؤدبة، ولكنها كانت قد اعتادتها من عم طيب في تكساس، قابلته في استراحة على الطريق، في رحلة قامت بها لاكتشاف صحاري الولاية الحارة وطبيعتها، وأخذها معه في عربة نقل كبيرة، فشعرت أنها في فيلم أمريكي طبيعي، وتعاملت بحرية غريبة عليها، فخلعت قميصها، وظلت ببلوزة مكشوفة الصدر وبلا أكمام.

وتأملت طريقته الخاصة في الحياة: كان يأكل بكلتا يديه، كل شيء، من الجبن حتى العسل، ويغني كيفما يحلو له وقتما يشاء، ويدخن سجائر مارلبورو أصلية، وماريجوانا، وقد عرَّفها على تاريخ المدينة، والعائلات الكبيرة الضليعة في استخراج البترول، ومنهم عائلة بوش، التي كانت تمسك حينها بقطاعات عدة في المدينة المهمة، وذكر أنهم سياسيون محنكون ولكن بلا قلب. وعندما سألته عمن سينتخبه لو ترشح مرشح من تكساس مقابل مرشح من ولاية

أخرى، قال لها بثقة: «ابن بلدي، تكساس بالتأكيد، ولو كنت لا أحبه.»

فهمت منه أن نظرة العامة إلى السياسة لا تختلف كثيرًا بين مصر وأمريكا، وأن الحب والتفضيلات الذاتية تصنع أثرها كثيرًا، وكان ذلك سبب مشروعها الكبير، الذي استغرقت فيه خمسة أعوام، ودرست فيه تأثير الإعلام والسينما أيام عبد الناصر على عقلية الجماهير. ولم تحب أمينة الرُّز هذا المشروع بطبيعة الحال؛ لأنه يُظهِر الجميع بلا عقل كافٍ لتمييز ما يجري. ومع علاقتها السريعة برجل تكساس هذا، أيقنت أن زواجها بمصطفى نفعة كان صحيحًا؛ لأنه سيحقق لها الحرية التي تريدها.

بعد ذلك، كانت تنزل للتريض والمشي في الشوارع المحيطة، أو تبتاع الخبز من مخبز قريب، وبعده جبنًا روميًّا ولانشون وزيتونًا وبعض فضائل الاستيراد وقتها من سوبرماركت أحمد عبد الله، وكان من أول من فتحوا محال السوبرماركت في القاهرة، ثم تتحقق منه بدقة عن نوعية البضائع الجديدة، وكانت تبهرها علب البلوبيف بما لها من تصميم مختلف ورواجها المفاجئ، مع ظهور معلبات التونة، التي كانت فتحًا تتحدث عنه المدينة كثيرًا. في آخر جولتها، كانت تعبر على باعة الجرائد، تشتري كومة من الجرائد العربية والأجنبية، ثم تعود إلى المنزل لتمارس عاداتها البطيئة في الإفطار مع مصطفى نفعة، أو وحدها إذا بيَّت في العيادة أو المشفى، وتنزل إلى الجامعة الأمريكية في التحرير تقود عربتها التي اشتراها لها درويش عبد الغني في فورة ثروته المفاجئة.

الغريب أن در الشهوار لم تكن تنظر إلى ثروة أبيها بعين الشك، فكانت تراه من خامة رجال الأعمال الذين يعرفون من أين تُؤكَل الكتف، وترى ما يفعله استغلالًا صحيحًا للفرصة. ومع امتزاجها

لفـترة طويلـة بجماعـات الجامعـة الأمريكيـة وإتقانهـا عـادات تلـك الطبقـات المخملية، كانـت تتعامـل مـع الثـراء بسـهولة، وتـراه لازمًـا لحيـاة سـهلة في بلـد نـامٍ.

عندمـا سـقط درويـش عبـد الغنـي في فـخ قضيـة الدجـاج هـذه، كانـت تـزوره يوميًـا، بعـد الجامعـة، تتحـدث قليـلًا مـع راجيـة السـيد بنضـج سـيدة كبيرة، وتسـأل مصطفـى نفعـة عـن رأيـه في حالتـه الصحيـة، مـع أنـه تخصـص مـخ وأعصـاب، ثـم تحـادث أخاهـا لطفـي، وأدت دورهـا عـلى خـير وجـه، وقلـت زياراتهـا لحسـين الـرُّز، حتـى اقتـصرت عـلى أيـام الأخمسـة وحدهـا.

وصـل نبـأ وجـود شـيماء شـعبان في حيـاة حسـين الـرُّز إلى لمبـة بطـاح في يـوم كان أكثـر جمـالًا مـن أن تتوقـع مثلـه. كانـت علاقتهـا بحسـين الـرُّز قـد تحسـنت كثـيرًا، فصـار أقـرب إليهـا مثلـما كان في أيامهـما الأولى. ومـع كـبر سـنها، وتخطيهـا الخمسـين بـوزن زائـد، بانـت أكثـر شـبهًا بأمهـا المنسـية، وبـدأت دفعـات الحنـين إلى أسرتهـا هـذه تزورهـا، وحاولـت البحـث عنهـم بـلا جـدوى، ولم تعثـر إلا عـلى أسرة كبيرة مـن البطاحيـة، تعمـل في تأجـير عربـات النقـل الثقيـل وتشـغيلها في العيـاط، ولم يكـن أحـد منهـم يحمـل اسـمًا يـدل عـلى قرابتهـا بهـم، فخمنـت أنهـا عُـدَّت ميتـة في نظـر أهلهـا منـذ هربـت منهـم منـذ عقـود، وبـدلًا مـن ذلـك، زارت المذبـح والبيـت القديـم، وفُوجِئـت أنـه مـا زال عـلى حالـه، وأنـه صـار يضـج بفتيـات أكثـر بـلا رب ولا حـامٍ، يمارسـن الشـجار والحـب يوميًـا جنبًـا إلى جنـب، وكان تـل العقـاربِ قـد بُـذِر بأكشـاك وعشـش وبيـوت أكثـر، وظهـرت فيـه وجـوه بـلا قلـب، نظـروا إليهـا بكراهيـة واضحـة. وعندمـا سـألت عـن أي قريـب للسـت معـالي، مـع أنهـا تعـرف الإجابـة، قالـت لهـا سـيدة مـن المـارة وهـي هازئـة: «معـالي لي يامَّـه.»

فهمت سريعًا أن قواعد المذبح قد تغيرت كثيرًا، وأن علاقة القصَّابين بفتيات التنظيف قد صارت أسوأ، ولم تتعرف عليها سوى فتاة، صارت امرأة خمسينية مثلها، اسمها خواطر، كانت لا تزال تعمل في تنظيف الكرشة وبيعها لمسمط قريب، وبانت هزيلة على نحو يخالف زمنها الأول عندما كان جسدها العفي كافيًا لجر ثور كبير.

بعدها بأيام، وهي تتأمل حياتها في شقة عابدين، وتتيقن من أبعاد فكرة أن حسين الرُّز هو الوحيد الذي أعطاها أسرة، كانت تفكر في حال المطعم، الذي صار أقدم، وواجه مشكلة التفسخ التي تطال الأشياء في المدينة سريعًا. كانت البطاطس الشيبسي لا تزال نادرة، وتجذب الناس إلى مطعم «درية والرُّز»، وأُضيفت طاسة قلي طعمية مسائية، تعمل فقط من الرابعة مساءً، وتخدم طبقات العمال الذين يعملون يومًا كاملًا بوجبة واحدة، والفقراء المتزايدين في عصور الشح، وكان ثمة صبي جاء إلى المطعم حديثًا، اسمه فتوح، يقلي الطعمية وحدها، ويصنعها على هيئة أقراص جيدة الشكل، حتى أخذ قسمًا كبيرًا من المطعم، وهو ما اعترض عليه حسين الرُّز في البداية لأنه يغير هوية المطعم كمطعم للبطاطس المقلية والسجق في الغداء، فقالت لمبة بطاح بحس من تمرس بالسوق: «الطعمية سوقها شغال دائمًا، وأنت بذلك تكسب أهل الليل.»

اتفقا بعدها على وضع طاسة الطعمية بالخارج، والاكتفاء بالتحكم في الزبائن خارج المطعم، مع الكتابة باللون الأحمر فوق جدار المطعم الشرقي: «الصالة بالداخل لمن يريد شيبس وسجق»، فكان الزبون العارف جيدًا بالمطعم منذ عقود يدخل الصالة، ويقف ليأكل السجق أمام مرايا المطعم الكثيرة، أو شطائر الشيبس، بينما يقف طابور بالخارج بانتظار فضائل الطعمية المسواة جيدًا بحيث لا يحترق لونها الأخضر ويصير بنيًّا بالكامل، وهي الطريقة التي

تعلمها فتوح من صانعي الطعمية العظام في طريق بنها كفر شكر، الذين يقفون بطاسة وحدها على الطريق الزراعي، يقدمون الطعمية كوجبة مناسبة لكل مناحي الحياة.

ولكن المشكلة الأساسية كانت في قدم الشارع نفسه، ولون جدران المطعم الذي لم يتغير منذ عقود، والمعاطف البيضاء المصفرة التي يرتديها العمال، ويرتديها حسين الرُّز نفسه، ولذلك؛ قادت لمبة بطاح حملة تجديد لازمة، رفضها حسين الرُّز في البداية خوفًا من عدم كفاية المال لزيجته بشيماء شعبان، ثم وافق بعدما أقنعته لمبة بطاح أن المطاعم في ازدياد والمنافسة آتية لا محالة. وقد جُدِّدت ألوان الجدران فصارت باللون الأبيض بدلًا من الأخضر القديم، وظلت



اللافتة القديمة المكتوبة بعناية الماضي في مكانها، مع وضع صورة لحسين الرُّز في شبابه، وصورة للمبة بطاح، وضعتها بلا جدال، التُقِطت لها في المحل عن طريق مصور صحفي مر مصادفة ليكتب تحقيقًا عن البطاطس الذهبية المقرمشة، ونُظِّفت الطاولات القليلة المعدة لوقوف السادة القدامى، مع المرايا وطاولات إعداد الشطائر وطاسة قلي البطاطس أو إعداد السجق، وهي كلها تجديدات أتت بنفحات الحياة على المطعم، ورضي عنها حسين الرُّز في النهاية، وشكر لمبة بطاح بصدق على جهودها وقال: «نساء حياتي هن سبب فرحي وسبب تعاستي.»

جاءها الخبر عن طريق خادمة اسمها صفاء، كانت تأتيها كل شهر



لتنظيف الشقة، وتتحدثا عن الأولاد والبنات، فتبكي لمبة بطاح قليلًا لأنها لم تنجب قط، وتخبرها صفاء بمحاولات الولادة الجديدة، فتقول لمبة بطاح: «عامةً، الواحد متعقد من العيال؛ ألقاني أهلي في الشارع منذ زمن الزمن وراحوا.»

كانت صفاء تناديها باسم أبلة لمبة، وتحب لهجتها المطعمة بصعيدية القاهرة المخففة، وتتناولان معًا الزبادي والأرز بلبن والكشري الذي تعده صفاء بنجاح، وتحبها مثل أخت كبرى. وعندما علمت بخبر شيماء شعبان العايقة – كما كانت تسميها، ذكرت الخبر كاملًا للمبة بطاح بعد شهر من السكوت المتردد، وقالت لها مع الخبر: «ولكنني على يقين من أن عم حسين مظلوم؛ لقد غررت به بنت الكلب حتمًا.»

لم تجد لمبة بطاح حينها من تلجأ إليه سوى السيدة زينب؛ فلا وجود للست معالي، ثم لجأت بعدها إلى سيدي زين العابدين في المذبح، الذي شهدت كراماته في طفولتها، والسيدة نفيسة، ووجدت الراحة الحقيقية عند السيدة سكينة، التي تصادف وجودها هناك مع محاضرة طريفة ذكر فيها إمام المسجد أنها كانت صاحبة صالون كبير تستضيف فيه رجال المجتمع وقتها، ولها قُصَّة شعر لو اطلع عليها أحد لهام وجدًا، وسُمِّيَت بالقُصَّة السكينية، وقلدتها سيدات المدينة حينها. وانتظارًا للحل، قررت، بفورة انتقام يأتي بهدوء، حماية نفسها بالمال الذي جمعته في الخفاء خلال عقود.

ذهبت به إلى البنك، وفتحت حسابًا باسمها، ثم بدأت تحسب حساب إخراجها من الشقة لصالح الزوجة الجديدة. ومع انقطاع المدد – كما كانت الست معالي تقول لها، واصفة ما يعقب زيارات سيدات آل بيت النبي، شعرت باليأس، وبانت عليها السن خلال يومين وهي في المطعم، وقررت الذهاب إلى أمينة الرُّز في شقة

المبتديان، التي تتذكر موقعها مغلفًا بغبش بكورة الأيام، ونجحت بمساعدة صفاء الخادمة في التوصل إليه.

طرقت الباب ذات مساء، بعدما انتهت من شغل المطعم، وفتحت لها رضا، وكانت ثمة رائحة صينية بطاطس في الفرن مع دجاج مدهن، فتعجبت من مستوى النعمة التي تحيا فيها أمينة الرُّز، وشعرت بالخوف لحظة مما ستُقدِم عليه، ثم استجمعت جرأتها عندما رأت أمينة الرُّز بزيها الرصين وملامحها القوية الحادة، فقالت لتعرف نفسها: «مدام حسين الرُّز.»

جلست معها أمينة الرُّز في الصالة الخارجية التي تقابل أول من يدخلون الشقة، والتي كانت مكانًا لسفرة قديمة مغبرة، كانت تُستخدَم أيام السيد رمضان الرُّز، ثم أُزيلت هي ودولاب صغير جدًّا، كانت المجلات وبعض العرائس القديمة تُوضَع فيه، حتى إن حسين الرُّز لم يكن ليميز شقة طفولته وصباه لو دخلها عن الشقة التي شاهدها في آخر زيارة له مع الشقة الحالية، في اختلاف ثلاثي لا حل له، مع تغييرات أمينة الرُّز التي كانت تتم بخجل في البداية، وشيء من التمسك بالمظهر العام نفسه، ثم تسارعت مع سنوات السبعينيات والثمانينيات، فصارت تغييرات جذرية لا يمكن تجاوزها.

المطبخ مثلًا، وسَّعته، ووضعت فيه فرنًا إيطاليًّا كبيرًا جلبه درويش عبد الغني هدية، وثبتت أدراجًا خشبية جديدة لامعة، ورخامًا لتقطيع الطعام، وأزالت طبلية كان السيد رمضان يضعها في مكان بالمطبخ بين البوتاجاز القديم ووابور الجاز، وثبتها بعدها بمسامير حتى تظل في مكانها مثل طاولة جاهزة، ورغم حب أمينة الرُّز لها، فقدت التعاطف معها مع رياح التغير في شخصيتها، فصارت تراها رمزًا لأيام بعيدة أشبه بالحلم.

وفي غرفة النوم، بدلت مكان الفراش سبع مرات، أولها بعد وفاة السيد رمضان؛ حتى لا تتذكر وضعية وفاته فوق الفراش، عندما كان ينازع بروحه وتقرأ على رأسه سورة يس بلسان مرتبك، وآخر التغييرات كان شراءها لمراتب طبية تناسب جسدها؛ لأن ألفت زين الدين قد حذرتها من النوم الخاطئ بعد الخمسين، وتأثيره على العمود الفقري، وقد احتفظت بالنجف القديم، وأعادت تلميعه، وكانت تتركه مضويًا ليل نهار ليشعر من يدخل الشقة أنه في قصر عتيق وصغير، بكل ما فيه من تناقضات.

كل ذلك كان له تأثيره على لمبة بطاح، التي قدمت عرضًا خجلًا عن حياتها مع حسين الرُّز، وشكرت فيه خوفًا من أمينة الرُّز، وفي النهاية، سألتها النصيحة والدعم في ما جرى لها؛ لأنه تزوج بخادمة في عمر أولاده، ثم قالت:

- ودر الشهوار هانم تحبه كثيرًا، ولكنني لا أتلايم عليها كلما زارته؛ لأن أحدهما لا يترك الآخر.

شعرت أمينة الرُّز بالضيق بسبب حديث لمبة بطاح الذي يمزج فرعي الأسرة هذين، وقالت بصرامة، وهي تخشى من دخولها في وحل مشاجرة شارع بين أخيها وزوجتيه:

- حسين باعنا منذ زمن، ولكن لأنني ربيت در جيدًا فهي تتعامل بتربيتها.

قالت لمبة بطاح:

- ونعم الأخلاق يا هانم، ولا أطلب سوى مساعدة حضرتكِ.

كانت تشتعل بالسخونة، وتلاحظ بذكاء المرأة الفطري النظرات المتبادلة بين رضا وأمينة الرُّز، التي قالت بعدها إنها تعجبت من ضيق خادمة بزواج زوجها من خادمة أخرى، وهو ما ضايق

رضا، فلم تضحك إلا مجاملة، فراضتها أمينة الرُّز بقولها:

- أنتِ أخت يا رضا، وقدركِ من قدري وحبة عيني.

ثم أنقدتها مالًا إضافيًّا، وساعدتها في مصروفات زواج ابنيها، ودخول أبنائهم المدارس الأفضل قرب بيوتهم، من دون التباطؤ الطبيعي الذي يصاحب إلحاق الابن بمدرسة حكومية حسنة السمعة لا يضرب فيها الطلبة بعضهم بعضًا بسبب حجز الأماكن للواسطة.

لم تعد أمينة الرُّز لمبة بطاح بشيء، وحذرتها من عناد حسين الرُّز، وأخبرتها بالقضايا التي يرفعها، حتى في هذه السن، على شقة لا حق له فيها، ثم نزلت من عليائها هذه، فذكرت، بحكم عملها في المجلس، ما يخص قضايا الخلع والنفقة، وقالت لها بابتسامة مشرقة مفاجئة:

- حضرتكِ تقوِّمين محاميًا، وسنساعدكِ في المجلس.

لم تشعر أمينة الرُّز بعد رحيل لمبة بطاح إلا بقلق مفاجئ لما اقترحته في النهاية. ولأنها أرادت تطهير ضميرها من أدران القلق؛ هاتفت در الشهوار، وجاءتها في اليوم التالي بعد الجامعة، وجلستا تشربان القهوة في الشرفة -التي حددتها أيضًا وأضافت فوق جدرانها لوحات عالمية ابتاعتها بثمن قليل من معارض رسمية كانت تُعَدُّ لمجاملة وزير أو مسؤول كبير، منها لوحة وقَّعت عليها جيهان السادات، ولوحة أخرى وقَّعت عليها سوزان مبارك- وحكت لها ما جرى، وعاتبتها بوضوح على زياراتها هذه لحسين الرُّز، مع سمعته ومشكلاته، فقالت در الشهوار:

- ليس هذا فقط، سأقدمه لمصطفى مرة أخرى بعد مرة قبل الزواج؛ حتى يتعرفا أكثر؛ لأنكِ تعرفين، مصطفى خجول

وطبيب جدًّا في نفسه.

نصحتها در الشهوار بعدم التدخل، وقالت إنها تحب خالها دون الخوض معه في فكرة علاقاته هذه، ودافعت عنه لأنه ينتمي إلى فئة من الناس يرون الزواج الثاني والثالث عاديًّا، ثم قالت، بلا قلق من شعور أمينة الرُّز:

- وبابا مثلًا لا ينتمي إلى هذه الفئة، ولكنه سقط.

كان سببًا للخلاف بينهما، وذهبت بعده در الشهوار إلى شقة عابدين، في زيارة بلا ترتيب، فلم تجد حسين الرُّز، ووجدت لمبة بطاح وحدها، تعد محشي كرنب يكفي أسرتين على الأقل.

استقبلتها لمبة بطاح بترحاب واضح، رغم علاقتهما الفاترة مؤخرًا، واستغلتها فرصة لتشكو إليها كما فعلت مع أمينة الرُّز، واستمعت لها در الشهوار بلا مقاطعات، ثم وعدتها بالحل المناسب، ونصحتها ألا تستمع إلى نصيحة أمينة الرُّز؛ لأنها صارمة في طريقة تعاملها مع المشكلات أحيانًا، وكان هذا يناقض تفكير در الشهوار نفسه بشأن طبيعة علاقة المرأة بالرجل في المدينة؛ فمع استقلالها المبكر، الذي استمر بالحضور الهادئ لمصطفى نفعة، وانكبابه الحقيقي على عالم المخ والأعصاب، لاحظت أن الجامعات الحكومية مثلًا يسيطر عليها الرجال، وأن وجودها غير مرحب به في أحيان عدة؛ لأنها تُرى في ضوء الفتاة البورجوازية خريجة الجامعة الأمريكية، جامعة الفاشلين، كما كانت تُسمَّى، قبل أن تأخذ وضعها جيدًا في أواخر الثمانينيات وبدايات التسعينيات كواحدة من أفضل الجامعات في المدينة والبلاد، والمعاكسات التي كانت تتلقاها بطريقة أساتذة الحكومة، كما كانت تسميهم، كانت طفولية ولكنها خالية من البراءة، وتتم بوضوح وصراحة عن طريق ابتسامات متزلفة وارتباك في الحديث، أو مخفية خلف قناع صراع واضح.

وفي الجامعة الأمريكية نفسها، فُوجِئت بتسلط بعض رؤساء الأقسام، وقصص زيجات الأساتذة من طالبات صغار، فكانت تتدخل بلا طلب، وتحذر الصغيرات من الانجراف خلف وعود رجل كبير لأنه يعرف من أين تُؤكَل الكتف، وتبشر بفكرة الحياة الحرة والمساواة التي تلقتها بسهولة، مع أنها تربت -كما كانت تقول بفخر- في شقة بالمبتديان، على مرمى حجر من السيدة زينب.

ومع ذلك، كانت تضعف أمام حسين الرُّز، وتراه بريئًا بحق، ولا يدعي الطفولة مثل الرجال المتصابين. لم تكن تعرف حينها أنه يمر بمحنة كبيرة، عندما بدأ يشك في سلوك شيماء شعبان، من خلال قصة حسن الإسكافي هذه. كان قد صار يقرأ «ألف ليلة وليلة» كل يوم، في طقس صارم، يفوق طقوس بدايات تعرفه عليها، ويحاول عن طريق ذلك اكتشاف ما يجري حوله في الحياة، بحكمة استعادية، يسترجع بها مواقف بعينها، ويعيد رؤيتها؛ فمثلًا، كانت درية عز الدين بالنسبة إليه مثل الأميرات الحزينات الأعين والجميلات القلب، اللاتي يأتين لإنقاذ شاب فقير من حياة صعبة، فتعطيه القصر والملك، ثم ترحل، ولمبة بطاح كانت من الجواري اللاتي يحببن بأيديهن وأسنانهن، ظهرت له مثل الجنيات اللاتي يظهرن بلا مقدمات، بينما أمينة الرُّز تمثل ست الملك الشريرة، أخت الحاكم بأمر الله، أو كل شقيقات السلاطين اللاتي يردن الملك، وحسن كان قاضيًا هادئًا ومعرفة، ولكنه ظالم، بينما كان هو دائمًا مثل علي الزيبق، أو الشاطر حسن، أو الإسكافي، وشيماء شعبان جارية أخرى، لها حظ فتان، جاءته في سنه الكبير، لتكون له تجربة مقلقة واختبار لا حل له.

قرأ «ألف ليلة وليلة» على هدي هذا الحس، وصارح الأستاذ حلمي مطاوع أنه يفكر أنها تحمل تراجم حقيقية لحياته خصوصًا، وأن فك أحجيتها والبحث في قصصها التي لا تنتهي كفيلان بمعرفة

حياته من البداية وحتى الممات، وأن الكتاب نفسه، الذي كُتِب في مدن وحضارات عدة، يحوي قصص الإنسان، لو تجاوز البهارات فيها، عرف متن الحقيقة. كان يخوض في قصصه حتى تكل عيناه، ويدخل في خيالات سوداء بعد ممارسة حب في الحمام مع شيماء شعبان، يراها تتلوى أسفل الدُّش فينبسط، ثم يمسه وخز من الخوف، وهو يتذكر ليالي حسن الإسكافي مع الجارية وردة، التي كانت تضاجع شابًّا يعمل على عربة كارُّو، كل ليلة، خلف جرن القمح، وتعود إليه متوردة تنتظر أشواقًا أخرى. قلق من اتخاذ خطوة الاكتشاف، ثم قرر متابعتها في الجامعة، وذهب إليها مرتين، فسأل عنها في شؤون الطلبة، فسألته السيدة على المكتب، كما يحدث في الأفلام: «أبوها؟» فكان يهز رأسه بضيق، ويخرج وهو يكتشف مسافة العمر بينهما، يراقب فتيات الجامعة بألم وشعور بالغرابة.

لم يكن ينسى مآسيه هذه إلا عند ممارستهما الحب، الذي كانت شيماء شعبان تجيده بما تعلمته من الأفلام اللبنانية التي كانت تراها في شقة الأستاذ عبد اللطيف الزاهد، أحد من خدمت عندهم، فتجلس في الشقة الخالية، وتضع شريط الفيديو في الجهاز الصغير الجديد الذي دخل المدينة فجأة مع ممدوح الليثي وكل مصريي الخليج، وتتابع المشاهد العارية المتعرقة في غرفة باللون البمبي المسخسخ. كانا يتناولان بعدها عشاءً دسمًا، ثم ينامان في الغرفة الصغيرة التي بها شرفة تطل على الشارع الضيق الذي يفضي إلى نواحي القصر، فيعود حسين الرُّز إلى أفكاره السوداء، ويتخيل استقبالها لصنائعي أسود، مثل زنوج «ألف ليلة وليلة»، وقت غيابه، وتقلبهما فوق الفراش نفسه.

ولم تكن شكوكه تهدأ أيضًا إلا مع زيارة در الشهوار، وجلوسه في شقة عابدين. ولأن حسه الخاص قد أنبأه أن الكتاب لا يكذب؛ صرف عن نظره فكرة تجهيز الشقة لشيماء شعبان، حتى يتأكد من

سلوكها. وبينما كانت در الشهوار تحاول فهم كيفية العدل بينها وبين لمبة بطاح، وهي تتغنى بفضائل لمبة بطاح وأدبها، قال:

- هل اشتكت لكِ؟

فقالت در الشهوار:

- طبعًا، وأفضل من ذهابها إلى أمينة الرُّز يا خالو.

كانت تكذب بالطبع بشأن ذهابها إلى أمينة الرُّز، ولكنها اكتفت بمحاولات التأكيد على ترك لمبة بطاح في شقة عابدين؛ لاعتبارات السن والإخلاص.

احتدمت الأمور بعدها بشهر، عندما ذهب إلى الجامعة مرة أخرى، يتفقد أحوالها مثل أب قلق، ففُوجِئ أنها لم تعد تذهب منذ أسبوع على الأقل. كانت وقتها تشارك عشيقها جلسات راكدة في حزب بوسط البلد، وتراقب طريقته الجادة في الحديث بإعجاب، وتحاول فهم ما يردده عن رأس المال والتوزيع العادل للثروات ونظريات جرامشي، وعندما كان ينظر إليها، فيرى جمالها الواضح في الغرفة الكئيبة المليئة بشباب يدخنون، ويتحدثون بملل عن نهاية التاريخ، يبتسم، ويردد شعرًا من واقع اللحظة وحدها.

كان اسمه سعيد فهمي، له مظهر يناسب أيام الثمانينيات؛ عوينات كبيرة، وشعر غير مصفف، وكان يحيا في غرفة صغيرة فوق سطوح عمارة قريبة من محمد محمود، وقُبِض عليه مرة واحدة أيام السادات، عندما كان يسير في الشارع القريب وقت أزمة ٧٧، وكان في الحقيقة يجس نبض الأحداث ويتأكد أنها ثورة حمراء جديدة حقًّا. كان يرى شيماء شعبان من فتيات الطبقة العاملة المجدات، ويبشرها بحب يفوق أي حب آخر. ومع طريقته الصلبة في الحديث، ونظراته الجامدة، وهو يتحدث حتى عن أتفه الأشياء، مثل شطيرة

فـول مخدومـة مـن محـل مـا أو الكـشري مـن العربـة التـي يملكهـا رجـل عنـده ضمـير اسـمه أبـو طـارق، في شـارع معـروف الـذي يحتكـر بيـع الحشـيش في وسـط البلـد، كانـت تضحـك بقـوة، حتـى يحمـر وجههـا، وتخشـاه في الوقـت نفسـه؛ لأنـه كان يواجههـا بـشيء مـن الحـدة عندمـا تسـتمع لكلـمات آخريـن في الحـزب، فيقـول لهـا: «نصـف العاملـين في هـذا المجـال خـراء، لا يريـدون سـوى الفـراش في النهايـة.»

طريقتـه هـذه جعلتـه غـير متوقـع، فأحبـت ذلـك منـه، وعندمـا مارسـا الحـب لأول مـرة في غرفتـه الكئيبـة، وقـت الظهـيرة، حـين مـن المفـترض أن يكـون في عملـه بـإدارة الجامعـة وتكـون هـي في قاعـة المحـاضرات، ملكهـا تمامًـا بقسـوته في ممارسـة الحـب، وإمسـاكه بشـعرها بعنـف واضـح، فكانـت تعيـد تخيـل مشـاهدهما هـذه في علاقتهـا مـع حسـين الـرُّز، وهـو سـبب توهجهـا معـه. كان يقـول لهـا -بأسـف واضـح- كيـف أن المدينـة تعطـي الفـرص للأثريـاء وكبـار السـن وتـترك الشـباب تحـت رحمـة الحظـوظ. ولأنهـا لم تكـن تعـرف شـيئًا عـن الشـعراء والسياسـة؛ كان يلاعبهـا بكلـمات لنجيـب سرور وبابلـو نـيرودا، يدمجهـا في غزلياتـه الصريحـة، ويبـشر بقدرتهـما عـلى العمـل في وظيفتـين متوزايتـين -بعـد تخرجهـا بـمال حسـين الـرُّز- وإقامـة حيـاة جيـدة، والتفـرغ للعمـل السـياسي بجانـب ذلـك.

كان يقـص عليهـا قصـص الدجـاج الفاسـد، ويعطيهـا أسـماء المشـاركين، مثـل درويـش عبـد الغنـي، ويحكـي لهـا عـن تفاصيـل لم تحـدث في انتفاضـة ٧٧، وحسـني مبـارك وحياتـه المرفهـة الجديـدة، والأفـراح التـي تُعقَـد بالملايـين، فتنظـر إليـه وتبتسـم. ورغـم شـعورها بأنهـا لا تكـون نفسـها معـه، كانـت تنجـذب إلى تلـك الفكـرة، وعدَّتهـا معـادلًا طبيعيًّـا للحـب.

تغيبـا أسـبوعًا كامـلًا عـن الجامعـة عندمـا قـررا ممارسـة الحـب صباحًـا،

والإشراف على مؤتمرات يعقدها مسنون غاضبون، يتحدثون عن عصر عبد الناصر بشغف وحزن.

قال مسؤول شؤون الطلبة لحسين الرُّز عندما ذهب حينها: «نحن لسنا في مدرسة يا حاج حتى تسأل إذا كانت ابنتك تأتي أم لا.»

ثم نصحته سيدة طيبة أن يذهب إلى قسمها في الجامعة، ويسأل زميلاتها بلا خجل، وقالت بجدية: «هذا الزمن زمن انحلال الأخلاق. ربنا يرحم زمن كانوا يأتون فيه الجامعة بكرافت وبدلة كاملة.»

لم يكن يعرف أنه يسأل في عقر دار عشيق شيماء شعبان. وعندما غادر المكان، وصل الخبر إلى سعيد فهمي عن طريق زميل يعرف بقصة حبه هذه. لم يصل الخبر إليه إلا بعدها بأيام؛ إذ كان تائهًا في حب مرهق وحلو مع شيماء شعبان، يمارسانه باستمتاع بحس الخفاء، فوق السطوح، ويتأملان معًا الغروب والهواء الدافئ بعد العصر فوق المدينة، ويُعدِّد لها سعيد فهمي البنايات الجديدة التي علت، والتي أنشأها رجال أعمال أولاد كلب، وتعود بعدها إلى شقة عابدين الثانية وهي تبتسم، تعد العشاء لحسين الرُّز بامتياز زوجة ناجحة، وتجلس معه طوال الليل، تستمع لقصصه وكلامه عن «ألف ليلة وليلة» بصبر، ثم تودعه وهو ذاهب إلى لمبة بطاح.

كان قد عرف أنها لا تذهب إلى الجامعة عندما سأل زميلاتها كما نصحته الإدارية الطيبة، وأيقن من صحة شكوكه، فذهب بداية إلى السيدة زينب، وجلس في المسجد من الصباح حتى المساء، في اليوم التالي، يصلي ويبكي بحرقة، حتى إن بعض المصلين قد مروا عليه وحاولوا تطييب خاطره.

ثم ذهب ناحية ترب الغفير، فسار بينها شاعرًا بالضياع مثل

يتيم، حتى وصل إلى مقبرة الرُّز، التي يتلألأ فوقها اسم حسن الرُّز والشعر المكتوب فيه، واسم أبيه، فتردد أولًا، ثم ألقى السلام عليهما وهو يشيح بوجهه عن باب المقبرة، ولكنه سدد بصره ناحية عين النساء، فتخيل درية عز الدين وهي تبتسم له ابتسامتها الطيبة، وتقترب منه مثل أم، تقول له بمرح: «لا تقلق يا سوسو. نحمد الله أننا اكتشفنا وساختهم.»

بكى هناك كما لم يفعل من قبل، وحدَّث أمه التي نسيها تمامًا، فأرسل إليها خطابًا حرًّا، فيه من العتاب قدر ما فيه من الحب والحنين، وسألها عن سبب تركها له في الشارع بأمر من السيد رمضان الرُّز، ثم قال وهو يرتعش: «مسامحك، ولكنني لا أسامحه؛ من يومها وأنا يتيم، وما زلت يتيمًا بطولي وفي سني هذه.»

كانت لمبة بطاح حينها على وشك اتخاذ قرار قانوني بشأن ما يجري. كانت تحترق في صمت، وتقارن بين كلمات در الشهوار وأمينة الرُّز، وتزيد من دفعات المال الذي تأخذه سرًّا من المطعم، حتى جاءها في هذه الأيام السيئة، فطلب منها الجلوس قليلًا بعد الغداء، وكانت عادتهما اليومية أن تعد الغداء في البيت صباحًا، ثم تعود قبيل العصر، فتحضره في حلتين داخل كيس أو حقيبة تسوق، وتضعه فوق الطاولة، ويُغلَق المطعم وقتها لساعة، ويشاركهما حمادة أو عتريس أو فتوح، صبي الطعمية الجديد، وبعدها، يذهب حسين الرُّز لتدخين المعسل فوق الماوردي، ويعود ولمبة بطاح تُقفِّل الحسابات بدقة أُميَّة، وتراجع معه إيراد اليوم.

تناولا الغداء يومها من محشي باذنجان أسود، يحبه حسين الرُّز خصوصًا عندما يحترق جزء منه في أثناء الطهي، ودجاج محمر، وطبق من فضائل المحشي الذي تعلمته لمبة بطاح من الست معالي قديمًا، من محاشي ورق اللفت وورق الخس، وبعد الشاي، قال لها:

- لن أذهب إلى المقهى اليوم.

جلس معها على مقربة من المطعم، وحاولت التهرب منه بحجة أنهم سيخسرون زبائن المساء، فقال بضيق واضح:

- كسمهم جميعًا يا لمبة. المطاعم في كل مكان، ولن نكسب زبونًا يريد أن يخسرنا بالأساس.

حدثها دون مقدمات عن أخطاء الرجال كبار السن، وعن رعونة قرار اتخذه مع فتاة لم يُسمِّها، وأنه بصدد الطلاق دون أن يكون لها أي حق؛ لأنها ارتكبت كارثة قانونية تخول له ذلك، فاستمعت له بوجه صلب بلا انفعالات، ومسحت فمها أكثر من مرة من بقايا صلصة المحشي. وعندما أنهى حديثه، قالت بهدوء:

- يجب أن نغير زيت القلي؛ تساهل عتريس واشترى زيتًا غير مناسب.

فقال حسين الرُّز وهو يراقب غرابتها المتنامية:

- هل أنتِ كويسة يا لمبة؟

فقالت بهدوء:

- لم أكن أفضل حالًا من اليوم.

لم يتحدثا بعدها في القصة حتى وفاتها، وظلت بعدها صامتة لأيام، تتعامل معه بآلية، وتراقب توتره وارتباكه وهو يتعامل معها، ويحاول إرضاءها مثلما كان في أيامهما الأولى. انشغل حينها بالاستعانة بالأستاذ حلمي مطاوع ليرفع قضية على شيماء شعبان، يضمن فيها الابتعاد عن الفضيحة، ولكن القدر كان يخبئ له كارثة جملي؛ فعندما عرف سعيد فهمي بمصيبة حضور رجل مسن، يسأل عن شيماء شعبان بانتظام محققين، أيقن أنه زوجها، وقرر

الابتعاد عنها فورًا، حتى يفكر في الخطوة القادمة. كان مرتبكًا بما لا يتناسب مع صورته شابًّا ثوريًّا، وقضى ليلتين في حوش قدم، على شرف أحمد فؤاد نجم، الذي كان يستقبل الجميع بلا تمييز، ويوزع من كباب أبو هاشم القريب بلا حسابات، وحكى عن مغامراته النسائية، وقال بحكمة السنين: «إذا عشقتك المرة منهن فاعرف أنها ستقتلك لو أخطأت في حقها؛ يعني قنبلة من قنابل أمريكا الذرية يا منحوس.»

والحقيقة أن سعيد فهمي كان زير نساء بامتياز، له كل عام قصة حب، ومع انتقاله السهل بين بقاع الحب الحر هذه، كان يمحو القصة وراء الأخرى بقلب صلب ووجه حزين، ويدرك، مع الوقت، أنه، كلما ازداد قلبه صلابة وصار حيوانًا كاملًا، تعلقت به الفتيات أكثر، وكان متخصصًا في المتزوجات، اللاتي يأتين الجامعة مثل شيماء شعبان وهن حوامل أو معهن خبرة عام في زواج حديث وسريع، فيبشر بالمستقبل الحر والدراسة والخيارات الكثيرة بعيدًا عما يفرضه الواقع الرأسمالي السيئ، فينقلب مسيحًا كاذبًا، ويفقد الحب عندما يلوح الخطر أو يمل.

كان الانكشاف السريع لحقائق بديهية بالنسبة إلى شيماء شعبان قد جعلها لا تصدق أيًّا منها. انتظرته عند غرفتهما في السطوح، تستمع للصوت السخيف لنقط ماء تنزل من صنبور، وأُصيبت بالقولون على هيئة اضطرابات معدة لا بد منها. وعندما رأته، قرب المساء، كان عائدًا من الخارج، يحمل كيسًا صغيرًا به خبز وجبن رومي، رآها فقال: «يا نهار أسود يا شيماء! ألم نقل ضبط النفس؟»

كان الوقت قد تأخر، وحسين الرُّز ينتظر في شقة عابدين حتى يطلق شيماء شعبان ويعيدها إلى بيتها بلا شوشرة، ويصارحها أنها لا حق لها في شيء، ولذلك؛ شعر سعيد فهمي بقلق مستحق، وحاول

دفعها بعيدًا عن المكان، فبكت بحرقة، وأخذت تلومه على كارثة الحب والخراء الذي وقعت فيه، وتورطها مع زوج في سن أبيها وخطة بنت ستين كلب. ذهبت في النهاية بعد محايلات منه، ثم قرر اللحاق بها ومصارحتها بأن حسين الرُّز قد عرف بالأمر. كان رد فعلها هادئًا تمامًا؛ لأنها لم تفعل شيئًا سوى أن قالت بتصميم: «هذا من اختراعك يا نصاب يا كلب!» ثم تركته في الشارع، وعاد هو بعدها ليجمع ملابسه، ويختفي قليلًا عن الأنظار في مكان بعيد، وعاد إلى الجامعة في اليوم التالي ليستأذن في إجازة.

لم يتوقع أحد ما جرى بعدها؛ فشيماء شعبان، التي كانت لها طبيعة تغلي بالمشاعر دائمًا، تحتفظ بها خلف طبقة من بلادة مقصودة، أو ابتسامات ساحرة وهادئة، توزعها على من تشاء، لم تكن تتعامل مع الأمور بروية، وإنما تعلمت ذلك بالحب وحده من سعيد فهمي. ومع الصدمة غير المتوقعة، شعرت بفقدان الاتزان الكامل للحظات، وأخذت تتطلع إلى بيوت المدينة والمارة بنظرات



ميتة، وهي تفكر في مشهد بعينه، تتذكره من وقت طفولتها، كانت تلعب فيه بطائرة ورقية في نهار رمضان، عندما استدعاها أبوها لتشارك أمها في تنظيف البيوت لأول مرة، وفي أول مرة، تفحصها الدكتور عبد المنعم غريب بيديه، على نحو غريب ومدغدغ، وهي تنظف المطبخ، وقال لها: «جسدك سليم يا شاطرة. كل مرة ستأتين فيها سنجري هذا الكشف السريع؛ فأنا دكتور، ومثل بابا.» كانت دفعة غير محتملة من الحزن، تركزت على هيئة مادة سوداء، وجدار غير مرحب، تفوح منه رائحة بول قوية، ونظرات فضولية لرجل عجوز.

كان حسين الرُّز قد نام وهو ينتظرها، ولم يعد إلى شقة عابدين لأول مرة في عمره الطويل. وقف في الشرفة الضيقة لشقته هذه، وتأمل أنوار المساء، ثم اكتشف أن قصر عابدين صار كئيبًا وأكثر بعدًا عن صورته القديمة المضيئة التي رآها في شبابه، وحاول تذكر عدد الخيول، التي كان يراها يوميًّا محيطة بالقصر، يمتطيها فرسان التشريفات، عندما كبس عليه النوم. وعندما استيقظ، وجد الشقة خالية كما هي، ولا أثر للحياة، فدخل إلى الحمام وهو موقن بأن شيماء شعبان قد هربت إلى الأبد.

لم يمنع نفسه من استكمال استحقاقه من البكاء. وبالداخل، وجد خط الدم الذي انتشر بلا رقيب وهو نائم، ثم الوجه الذي أحبه كثيرًا لشيماء شعبان وهي غارقة في دمها مثل دمية. كانت رجة لم يفق منها حسين الرُّز إلا بعد فترة طويلة؛ فمع يقينه بأنه لم يرَ شيماء شعبان ولم يقربها، ظل الشك يجوس داخله بشأن حقيقة ما جرى وقت نومه، وحاول تذكر أي حلم رآه أو كابوس يخبره عما حدث فعلًا، وكان ما يقلقه فكرة أن شيماء شعبان قد دخلت، ولعلها وقفت قليلًا في الصالة، تتأمله وهو يغط في النوم فوق أحد المقاعد.

في البداية، وبعد انتشار الخبر، اتهمه أبوها صراحة أنه قتلها في خلاف أزواج، وقال إن كل الرجال الكبار يملكون عقدة من جمال الشباب، بينما انتشرت قصة أخرى، أطلقها مجهول في أثناء الخوض في نميمة حادثة مثل هذه، عن أنه قتلها لسلوكها الشائن. ولأن خبر الانتحار قد دار في الجامعة سريعًا؛ وصل إلى سعيد فهمي، فقرر الابتعاد تمامًا عن الجامعة، خوفًا من الملاحقة، بينما وُضِع حسين الرُّز قيد التحقيق.

ظل الوضع متأزمًا، حتى ساعدته در الشهوار، بمعارف درويش عبد الغني، وعزز من موقفه أن التشريح أثبت أنها قطعت شرايينها بموسى حلاقة، واعترف حسين الرُّز في التحقيق أنه عرف عنها سلوكًا غير لائق، وأن هذا تفسيره لسبب انتحارها.

سمعت أمينة الرُّز بالخبر مدويًّا في الجرائد في اليوم الثالث للحادث، وكان معززًا بنكهات صفراء، تُظهِر حسين الرُّز زوجًا عجوزًا وغيورًا، قاتلًا لزوجته، فطلبت من در الشهوار بصرامة أن تبتعد عنه تمامًا، ومحت سيرته، حتى إن حلمي ولطفي كانا يمازحانها ويرددان اسم خالهما الذي لا يعرفانه حقًّا، فكانت تقول بصرامة: «لا مكان في بيتي لمن يقول ذلك.»

خاصمت ألفت زين الدين أيضًا؛ لأنها تحدثت في مجلس مسائي عن حوادث القتل التي انتشرت في المدينة، وغرابة حوادث تقطيع الزوجات لأزواجهن ووضعهم في أكياس بلاستيكية وتفردها، ثم إلقائها في القمامة، وقالت ألفت زين الدين على هدي من سخريتها الأزلية: «حلو؛ ما هو لو لم يفعلن ذلك لفعله أزواجهن.»

شعرت أمينة الرُّز أن ألفت زين الدين تُسمِعها الكلام، وكلفهما ذلك خصامًا امتد لأربعة أشهر، لم ينتهِ إلا عندما ذهبت ألفت زين الدين إلى المجلس، وطرقت باب أمينة الرُّز، ودخلت، وقالت بلا مقدمات: «ليس رُز مطلقًا، رأسك أنشف من البصل.»

تصالحتا سريعًا، وتجاوزت أمينة الرُّز محنة قصة حسين هذه خلال نصف عام من المحاولات. كانت توقن داخلها أنه من قتل شيماء شعبان، وأنه فعل ذلك بسبب سلوكها السيئ وحده؛ فمع الأخبار التي أعطتها لها رضا مع قهوة الصباح، علمت بسلوك شيماء شعبان السيئ، وقصة الولد الذي كانت ترافقه في الجامعة، والذي اختفى تمامًا بعد الحادث، فربطت الأحداث بعضها ببعض، وتذكرت المشهد الذي يزيده الزمن سوادًا: خروج حسين الرُّز صائحًا من الشقة نفسها، وقت طفولتها، وعدم عودته مجددًا، والحسرة التي خلَّفها في قلب والديها.

على الناحية الأخرى، صدقت در الشهوار براءة حسين الرُّز التي حازها من النيابة وبالتقارير الشرعية، وكانت تؤكد أن خطأه الوحيد هو إيمانه بالحب رغم فوارق السن والطبقات؛ ففي النهاية، أحبت شيماء شعبان شابًّا في سنها، وكانت تتعامل بأصلها، وشككت در الشهوار في براءتها في أثناء خدمة الناس، فآمنت أنها دخلت علاقات كثيرة حتمًا مع سادة متعددين، وكانت تبحث فيهم عن التائه الذي سيتزوجها. حسين الرُّز نفس، دخل في نوبة من الذهول، ولم ينقذه منها سوى زيارات در الشهوار، وهي تحكي له آخر محاضراتها، أو دراستها الخاصة عن زيادة عدد المطاعم في المدينة، وتستفهم منه عن استعداده لمواجهة أكياس الشيبس التي بدأت تظهر بكثرة في بقالات المدينة ومحالها، تحمل طعمي الطماطم والملح،؛ ولبة بطاح التي تجاوزت ألمها مما جرى، وتعاملت مع حسين الرُّز كابن ضال، عاد مجددًا، وعاملته بصمت لازم، دون الخوض في تفاصيل، تخدمه يوميًا، وتخفف من حدة أخذها من مال الإيراد، وكلما زارتها أفكار سوداء، كانت تفكر في حقيقة أنه اعتذر لها وعدَّها سيدة حياته المتوجة، وتلعن شيماء شعبان في سرها.

كان يحلم بشيماء شعبان يوميًّا، يراها كل مرة في ضوء شاحب وهما

يمارسان الحب أسفل دُش كبير، ثم يحرقها الماء الذي يزداد سخونة فجأة، ثم ينزل عليه بردًا وسلامًا، فيستيقظ فزعًا، ثم يخرج إلى الشرفة، يدخن سيجارة، ويقف مفكرًا في ما جرى، محاولًا سبر أغوار الوقت الذي نامه في شقة النحس.

عمل علامات بيده وخطوط حول قصة حسن الإسكافي، وبحث بهوس عن قصص أخرى يمكن أن تنبئه بما سيجري في حياته، حتى استبدت به فكرة خوفه من الموت نفسه، خاصة مع تذكره الصورة الدموية لشيماء شعبان وهي ترقد في البانيو، وحاول أيضًا ربط ذلك بأول قصة حب جرت له في الحمام، فشعر أن القدر يمشي بخطوط واضحة، ويلقي بعلامات ورموز في الطريق توضح حقيقة المستقبل، ولذلك؛ اهتم بقصص تجار الطعام والتجار في العموم، وبحث عن نهايات بعينها، حتى أخرجته در الشهوار من ورطته القصصية هذه بأن عزمته على عشاء في شقة مصر الجديدة، وهناك، تعرف عن قرب على الحياة الناعمة في الحي الهادئ.

أعجبه التورماي الذي لم يرَه في السابق بمصر الجديدة؛ لأنه لم يكن يذهب هناك لأي سبب، وتأمل بيت إبراهيم ناجي القريب، الذي عرَّفته فيه در الشهوار على سامية محرز، حفيدة الشاعر، وقال بخجل لم يُخفِه: «أعرفه بالطبع؛ شاعر الأطلال الله يرحمه.» وتناول جيلاتي من محل قريب، يضج بالزحام، وسار معها في الشوارع التي يعرفها فيها البائعون، يسلمون عليه كأنه أبوها، وأعجبه التصميم الأنيق لشقة شرقية الطابع، والرائحة العطرة لمسك ليل، والاستقبال الهادئ لمصطفى نفعة، الذي أجرى عليه فحصًا سريعًا، عندما لاحظت در الشهوار قلقه الواضح وأسئلته التي لا تنتهي عن المرض الوحش والمرض الحلو، وقال وهو يتأمل وجهه الوسيم وشعره الأبيض الخفيف: «صحة شاب في العشرين يا خالو ما شاء الله.»

وقف ببساطة على أبعاد حلاوة البنوة، وشكر در الشهوار بامتنان حقيقي، واستعاد كثيرًا من لياقته، فبدأ يقسم وقته بين المطعم؛ يشرف عليه بهمة أزمنته القديمة، و«ألف ليلة وليلة»؛ يقرؤها بتمعن، ويزداد اقترابًا من المعاني المختلفة لها، ويراقب عن كثب الخيانات التي لا تنتهي، وطرق الرجال الكبار السن في تضييع حياتهم. وكانت لمبة بطاح تتركه في الشرفة وحده بالساعات، وتعد له حلوى شعبية مثل البسبوسة بالقشطة أو كيك بالبرتقال، وتضع له الطبق، وتتأمله في انكبابه، فتستعيد حبها القديم الصافي له بلا أدران مطاردته النساء وانشغاله عنها. وكانت در الشهوار تتأمل طريقته في الحديث عن «ألف ليلة وليلة»، وتدون بعض ملاحظاته الذكية باستمتاع، وتحكي لمصطفى نفعة ليلًا عن موهبة خالها في الحكي، وتقول بجدية: «لو كان درس أدبًا أو كتابة لصار نجيب محفوظ الثاني.»

كانت فكرة اعتماده على الحكايات هذه؛ لشغل أفكاره عن السن وسواد ما جرى مع شيماء شعبان، سببًا في استعادته لياقته بالكامل بعد عام من الحادث، حتى نسي شيماء شعبان تمامًا، وبدأ يتأملها كأنها لم تحدث. ومع إيمانه بصدق ما تقوله «ألف ليلة وليلة»، أمسك قصة تتحدث عن سرقة مال أحد التجار اللاهين، وكيف كشف اللصوصية عن طريق اختبارات عقدها له جني غاضب، وأعطاه القدرة على الرؤية في الظلام، فقرر عمل جرد لأول مرة لمطعم «درية والرُّز»، وذهب إلى المطعم بالمعطف الأبيض القديم، ووضع فازلين على شعره وشاربه، وجلس مثل معلم البطاطس الذي كان يعمل عنده في الصبا، وأشرف على كل شيء، وأعدَّ بنفسه شطائر مخدومة جيدًا، وتحدث مع عجوز بشأن التأثير السيئ لأكياس الشيبس على الصحة العامة وزيت الموتور والتربنتين الذي تستخدمه المصانع للقلي.

يوم

١٣

استعاد حسين الرُّز حياته بالصبر والإصرار وحدهما. ومع أن شيماء شعبان ظلت تزوره في الأحلام، يبحثان معًا عن حمام في مدينة محترقة تشبه القاهرة، دون جدوى، فتُضطَر إلى التبرز أمامه وأمام الناس، وكان يستيقظ منه غارقًا في عرق بارد، لم يعد يتأثر بالواقعة، ولا بالإشارات الخفية، التي كان بعض الزبائن يشيرون إليه بها، ويحكون قصة قتله لزوجته بعد اكتشافه خيانتها، بشيء من الإعجاب أو الخوف.

مع جرده شبه اليومي هذا، تراجعت لمبة بطاح عن جزء الإيراد الذي كانت تدخره لنفسها، وتوقعت الأسوأ، فجهزت له قائمة سوداء تحدد بها عدد النساء اللاتي عرَّفهن عليها، والأيام التي عملتها في المطعم وحدها، ولكن حسين الرُّز، الذي اكتشف مواضع النقص في الدفاتر هذه عن طريق مقارنة بسيطة بين إيرادات ما بعد إشرافه المباشر، وما قبله، تجاوز ذلك بسهولة، ولم يحاول تحديد السبب الأساسي في النقص رغم يقينه بأنها لمبة بطاح، وعدَّ ذلك خطأه من البداية؛ لأن المال السائب يعلم السرقة. لم يُصدَم بالأساس؛ فتوقعاته عن الحياة، التي صار يستقيها من فكه لألغاز قصص «ألف ليلة وليلة» ورموزها، جعلته يؤمن أن العالم في أصله ناقص، والناس أشرار على نحو أو على آخر، واستثنى نفسه باعتباره بطلًا استثنائيًّا لفيلم غريب، أخذه وصعد به إلى قمم مختلفة، وكان ذلك فقط لأنه اختار حياته على النحو الذي أراده.

عامل لمبة بطاح بهدوء واضح، وذكَّرها بأيامه الأولى معها، وطريقته المؤدبة في الحديث، ومع قلقها من عودته التدقيقية في المطعم، أحبت حضوره وإشرافه على العمل، وكان منه أن أضاف ثلاجة ساقع في المطعم؛ لأنه رآها فرصة لتشجيع الزبائن على البقاء

كلما أنهوا الطعام؛ لأن العادة غير الحميدة في شرب الساقع بعد الطعام كانت قد انتشرت في المدينة بلا كابح، فوُضِعت ثلاجة صغيرة، وجاء بيبس وسفن أب، وبدأ هو يدمن شرب السفن أب يوميًّا، وكان يضع فيه ليمونة كاملة، في تجديد طيب، ويشربها مرة وقت العصر، بعد طعام الغداء الذي ظلت لمبة بطاح تعده بضمير وجدية، وتأتي به إلى المطعم رغم كل ما جرى بينهما، ومرة في المساء، عندما يجلس في المقهى لمتابعة مباراة أو مقابلة أصدقاء الجلسة والعمر.

نسيت أمينة الرُّز كارثة حسين هذه بعد قليل عندما اشتد المرض على درويش عبد الغني ولم يعد يستطيع مغادرة شقة الإيموبيليا. والفكرة أن نفسيته قد ساءت بعد مكوثه في الشقة لفترة، ومتابعته أعماله من خلال الهاتف، ودخول الموظفين عليه المكتب لعرض ملفات المشروعات والتطورات فيها، وحساب الخسائر التي جرت عليه منذ واقعة الدجاج المهببة، فكان يطالع الأرقام ويردد: «يبيع الإنسان نفسه للخراء مقابل الفلوس.»

وكان قلقه من ثروته، التي يملكها، وكيفية توزيعها يؤرقه؛ ففي منتصف الثمانينيات، مع بقائه في الشقة لفترات طويلة لا يقطعها سوى خروج لمقابلة أعضاء مجلس شعب آخرين أو مسؤولين نافذين أو رجال أعمال في أي من الفنادق القريبة، وتحديدًا فندق الماريوت في الزمالك، حيث كانت فكرة إفطاره وعشائه في الجناح الملكي الخاص للملك فاروق تعجبه، ويبدأ حينها في سرد قصص قديمة عن الزمالك عندما رآها لأول مرة، والمرة الوحيدة التي رأى فيها الملك وكان أحمر وممتلئًا بالنعمة، وقصص من أيام المحاكمات، التي كان يستعيدها مع إضافة نكهة بطولية إلى قرارات اتخذها، وكان يتجاوز أحيانًا فيحكي عن وقائع محاولات اغتيال لم تتم، وكيف حمته الدولة، وسخَّر له عبد الناصر عربة بحارسين تحت تصرفه في

أي وقت، دفعه كل ذلك إلى التفكير في عمل وصية واضحة يضع في ثرواته تحت أيادي أبنائه، ويعطي راجية السيد ما تستحقه.

وكان قلقه أن تتزوج بعده بالمال الفائض عن حاجتها هذا؛ فمنذ أن دخلت في جو التنحيف والرياضة، بدأت تهتم بالزي والمظهر، وتشتري مجلات أو تتابع برامج رياضية، وهوسها الشديد بصحتها على كبر، الذي يخالف انكبابها القديم على المحمر والمشمر، ووزنها الذي كان يزيد بين الحين والآخر، كل ذلك أعطاه شعورًا بالاغتراب وبأنها ستنساه سريعًا بعد وفاته. الشعور نفسه انتابه ناحية أمينة الرُّز؛ فعندما حدثت واقعة انتحار شيماء شعبان، هاتف أمينة الرُّز ليعزيها في الكارثة، ويعرض عليها خدماته في شراء بعض الصحفيين الذين يمكن أن يكفوا عن الكلام في الحادث، فواجهته ببرود لأنها كانت مصدومة من الحدث، وتحاول حماية نفسها بوجه بارد وقلب جالس، وقالت: «لا يُوجَد ما يُسمَّى بحادث، ولا وجود لحسين الرُّز في الحياة.»



عدَّها نهاية المكالمة، ولكن قسوتها ذكَّرته رغمًا عنه بأيامهما الأسوأ، ونسي قليلًا السلام الذي ساد بينهما في الفترة الأخيرة بلا منغصات الزواج البعيدة، ففكر في فورة ضيقه أن يحرمها من الميراث هي أيضًا، وعدَّ در الشهوار امرأة حياته الوحيدة.

كانت ممتلكاته قد ضمت عربة مرسيدس



موديل عامين ماضيين، وشقة الإيموبيليا مع شقة في مدينة نصر، بعمائر يملكها مقاول يعمل عنده، وقطعة أرض في مدينة نصر أيضًا، وشقة أخرى في الدقي بميدان المساحة، وشاليه في المعمورة، وشقة صغيرة في الإسكندرية، ساعده في شرائها راضي ابن حسن الرُّز، الذي احترف الدخول في مشروعات المقاولات هذه في أول الثمانينيات سرًّا بجانب عمله في القضاء، مع ثروة موزعة بين البنوك الحكومية، وفي بنك أجنبي، وذلك بعد بيعه الأسهم وتسييلها.

استشار محاميه، وبدأ يكتب الوصية بعدها، موزعًا ثرواته هذه على ابنيه ودر الشهوار، واكتفى أن ترك شقة الإيموبيليا لراجية السيد؛ عرفانًا منه بزيجتهما الطويلة، رغم انقلاب حالهما في آخرها، وتركت تلك القرارات قنبلة موقوتة ومرهونة بوفاته.

ظل حيًّا بعدها لثلاثة أعوام إضافية، يتحسن مزاجه بزيارات در الشهوار، مع انعزاله عن العمل السياسي بالكامل وعدم ترشحه للانتخابات بإيعاز من رأس كبيرة حذره من الترشح بسبب وضعه ضمن قائمة المغضوبين عليهم، خاصة صفوت الشريف، الذي كان يسمع عنه منذ أيام المحاكمات السوداء في زمن عبد الناصر، وقال عنه بالحرف الواحد: «ابتلع زمنين ويريد زمننا! لا مجال للوجوه القديمة.» وكان ذلك مع أن صفوت الشريف نفسه وجه قديم، ولكنه تصريح خفيف كان يتحدث بها في صدر الحكومة وقتها. هذه الزيارات، بجانب استمتاعه بمراقبة الأحداث من بعيد، وتعليقه عليها بصفته خبير قديم، عززت من جودة صحته، واستعاد

حسه الفكاهي القديم، فصار يهاتف أمينة الرُّز أحيانًا في أي وقت، يسألها عن حدث بعينه، ثم يسخر منها، ويكون حدث قد مر عليه عقود، فتقول أمينة الرُّز بجدية: «كبرنا والمفترض عقلنا يا درويش!» فيضحك بلا توقف.

وكان ينزل كل يوم تقريبًا للجلوس في مطعم اسمه شانتييه، في مصر الجديدة، قرب شقة در الشهوار، يتناول فضائل الطعام الغربي، ويعقد معارف سريعة مرهونة بالفناء والشيخوخة مع كبار سن مثله، من باشوات جار عليهم الزمن، ورجال أعمال نافذين، ورجال فِكر نسيهم الناس، ويتحدث بأريحية عن حسني مبارك، ويذكر أنه يعادي الوجوه القديمة لسياسيي العصور الماضية؛ لأنهم جميعًا أكبر منه، وكان يردد القصة غير المؤكدة عن قرار السادات بإبعاده من منصب نائب الرئيس، ووضعه في منصب آخر، لولا اغتياله، ثم يقول مبتسمًا: «قُتِل هذا الرجل لأنه أراد عمل الكثير. الله يرحمه ويسامحه.»

وفي وقت أحداث ٨٦، تابعها بانتباه، وذكر أن الجيش دائمًا ما يعيد الأمور إلى نصابها، وأكد أنه انقلاب مبدئي وعيال الأمن المركزي -كما ذكرهم- مجرد قطع فوق رقعة شطرنج، ولكنه أُصيب بالوجوم عندما انتهت إلى لا شيء، وقال بهدوء وهو يتابع ما يجري: «واضح أن صاحبنا سيستمر فترة طويلة!»

رُزِق في هذه الفترة نعمة حضور حفل سبوع شادي لطفي، وحمله وهو يفتش في ملامحه عن شبه له، وحضر أيضًا ميلاد هايدي وأمينة حلمي، وقدَّم في هذه الحفلات نقوطًا بالشيء الفلاني، وتعهد بمساعدتهم في دخول إحدى المدارس الأجنبية التي تنتشر في البلاد، ولكن ما استقبله باحتفال حقيقي وفرحة لم تخفَ على أحد هو سيف الدين مصطفى نفعة، حفيده من در الشهوار، الذي بانت

ملامحه منذ أول يوم بشبه واضح مع در الشهوار نفسها، وقد صار سيف الدين هذا فرخة بكشك عند كل الأسرة، حتى حسين الرُّز، الذي رآه عند زيارة در الشهوار، وهو يحمل فاكهة، فحمله وتأمله بقلق، وهو يحاول البحث عن مشاعر الأبوة المفقودة داخله، والحقيقة أنه، ومع وفاة درويش عبد الغني بعدها، صار حسين الرُّز أبًا حقيقيًّا لدر الشهوار وجدًّا لسيف الدين.

في يوم سبت، كان درويش عبد الغني قد استيقظ فيه صباحًا كعادته، وبدأ يتناول المربى والجبن الفلمنك ومعجزات المائدة الجديدة، وجلس مع راجية السيد جلستهما الصامتة اليومية، يقرأ الجرائد، ثم دخل دورة المياه ليحلق لحيته ويغني كما يفعل، وأُصيب بحزن ثقيل مفاجئ عندما لمح تغيرًا حادًّا في ملامح وجهه عن الليلة السابقة. كان قد أُصيب بهوس تتبع تغيرات ملامحه هذه، وحدد أنها تتغير كل عام على نحو غير ملاحظ، ولكنه آمن أنها تتغير مرة واحدة في إحدى الليالي ليصير الإنسان لا يشبه نفسه، وقد طالع هذا الوجه الناحل بالعوينات الكبيرة فقال: «سبحان الله، اخترعوا كل شيء، ولكن لم يخترعوا معالجًا للزمن!»

وفي أثناء ارتباكه هذا، تزحلق فوق الأرضية التي كانت قد تبللت بالمياه التي تركها تنزل من الصنبور، وكانت تلك الوقعة هي الناهية عليه، ولم تكتشف راجية السيد ما جرى إلا عندما وجدت أولى دفعات الماء تُغرِق السجاجيد الفارسية الغالية في الصالة.

دُفِن درويش عبد الغني في مقبرة أعدَّها بالسيدة نفيسة، كان قد اشتراها منذ زمن الزمن وقت شبابه، ووضع عليها رخامة تشبه رخامة حسن الرُّز، ولم يجدد فيها بياناته الخاصة التي تضم أعماله الجديدة ولا مغامراته الأخيرة في عالم المال والأعمال، وكانت جنازته حافلة، وُزِّعت فيها -كما أوصى في وصيته التي أخرجها المحامي-

شطائر رز بالمرق واللحم، ومبالغ مالية، وأكياسًا من الرُّز والزيت والسكر والشاي، وحضرت أمينة الرُّز الجنازة بثياب سوداء وعوينات بيرسول جديدة، تغطي نصف وجهها، ودر الشهوار ببلوزة سوداء بسيطة، والدكتوران حلمي ولطفي، وراضي وحسن ابنا حسن الرُّز، ولم يحضر حسين الرُّز، ولكنه ذهب لتعزية در الشهوار في شقة مصر الجديدة، وأخفى سعادته الداخلية بصعوبة لأنه صار الأب الرسمي لابنة أخته هذه.

كان قد اعتاد أجواء مصر الجديدة، وصار يتجول في شوارعها كثيرًا، بعد زياراته لدر الشهوار، ورغم عدم شربه الكحوليات طوال حياته، سمح لنفسه بزجاجة من البيرة في بار قريب بالكوربة، وعشاء فاخر بمطعم شانتيي الذي كان درويش عبد الغني يتعشى فيه، ويعود إلى شقة عابدين بعدها وهو يحمل لفافة من الكنافة الشعر، يطلب من لبة بطاح أن تعدها كما هي وتضع عليها بعض الزيت أو السمن، أو يأكلها بقطعة جبن حادق، في عادة جديدة عليه، أدمنها كل ليلة.

في أثناء ذلك، أثارت أمينة الرُّز اللغط بوضعها مسألة دفنها قيد المشاورة. لم تتأثر بوفاة درويش عبد الغني كما توقعت، وبدلًا من ذلك، شعرت بغضب مكتوم، استعادت معه حسها القديم بأن درويش عبد الغني قد ضيع حياتها وحياته، بلا سبب واضح، وأنه مات في النهاية في أحضان أخرى. ولأن العادات كانت تقضي أن تُدفَن الزوجة في مقابر زوجها؛ لم تتخيل أمينة الرُّز فكرة أن تُدفَن مع درويش -مع أنه طليقها؛ وهو تفكير مبرر- وأن تُوضَع مع راجية السيد في مقبرة واحدة.

جمعت حلمي ولطفي ودر الشهوار، وكان حلمي ولطفي بلا تأثر،

حتى إنهما تناقشا في مسائل تخص عيادات عمارة قصر العيني؛ لأن لطفي فكر في المشاركة بالمجهود في مشروع افتتاح مستشفى خاص بالمهندسين يخص أمراض القلب، وكان يعد العدة مع زوجته بتجهيز درويش الصغير وشادي الرضيع، الذي ما زال في اللفة، ليكونا طبيبين مثله، بينما تجاوز حلمي فكرة أن تصير أمينة وهايدي طبيبتين، وقال إنه يفضل أن تعملا وفقًا لمشيئتهما الخاصة، فقالت بلا مقدمات:

- مات أبوكم، ولكن الحي أبقى من الميت، وأريد أن أوصيكم اليوم بشيء؛ لأن الموت يمكن أن يأتي في أي لحظة.

قال لها لطفي مازحًا:

- يا ماما ما شاء الله وظائفك الحيوية وظائف فتاة في العشرين.

نظرت إليه در الشهوار بضيق، فسكت، وسألت أمينة الرُّز بهدوء:

- ما رغبتك يا ماما؟

فقالت أمينة الرُّز:

- لو حصل شيء أُدفَن في مقابر أهلي، مع بابا وأبيه حسن، الله يرحمهما، وماما.

لم تذكر درية عز الدين التي كانت تعدُّها خطأ تاريخيًّا -رغم محبتها لها- وانصياعًا لأمور حسين الرُّز المتهورة إياها. ولأن ما قالته لم يمس أحدًا من الجالسين سوى در الشهوار؛ قالت لها:

- لا تقلقي يا ماما؛ بعد عمر طويل، تُنفَّذ وصيتك.

لم تستطع در الشهوار الوقوف على حقيقة شعورها؛ فمع حزنها على درويش عبد الغني، شعرت بانجذاب أكبر إلى حياتها في مصر

الجديدة مع مصطفى نفعة، رغم سلبيته التي تتضح يومًا بعد يوم، ولكنه كان رجلًا مدجنًا بلا ضغوط ولا مغامرات، هادئًا طوال الوقت، ملتزمًا بالاستماع اليومي لساعة أو ساعتين لفضائل أعمال بيتهوفن، وتجهيز أعمال اليوم، ولأنه تعلم الطهي من سنوات أيوا؛ كان يعد باستا جيدة بطريقة خاصة به، يضع فيها زبادي مع الصلصة، وقهوة تركية أو قهوة إسبريسو من ماكينة اشتراها من إيطاليا في زيارة لمؤتمر، وكانت در الشهوار تُفاجَأ حينها بمشاعرها المتناقضة ما بين الامتنان لمشاركته لها كما تقتضي الحياة، وضيقها لأنه هادئ أكثر من اللازم، ولذلك؛ كانت تعوض ذلك بمقابلة حسين الرُّز، الذي كان يملك الجديد دائمًا من خلال حكايات «ألف ليلة وليلة» هذه، وأحاديثهما التي لا تنتهي بشأن طبيعة المدينة التي تتغير، وقصة «علي بابا والأربعون حرامي» التي حدثت في مصر كما ذكر حسين الرُّز.

وفقًا لنظريته الخاصة التي تؤكد أن كل شيء موجود في الكتاب الضخم المتعدد الأجزاء، الرقم (٤٠) ليس عبثيًّا، وإنما دليل على عدد معين لسنوات ستُسرَق فيها البلاد، ثم يصير حدث كبير يجعل ما قبله ليس كما بعده. حدد لها أنه -مع كراهيته لعبد الناصر، ومتابعته ما جرى من عسكرة الدولة وحالات تأميم عشوائية، كان يتحدث عنها بغضب يعطي در الشهوار نبذة عن دمجه عصر عبد الناصر بصعود أسرة الرُّز- كان الفقر أقل وطأة، والمال يكفي لشراء بضاعة مناسبة للقلي والبيع، وكان زبائنه من المحترمين، يقفون على الطاولات يتناولون إفطارهم وهم يستمعون لأغنية «شوف الزهور» للست صباحًا، أو عبد الحليم، أو محمد فوزي، وينظفون مكانهم ويمشون، وكانت ثمة بيجامة مخططة تُوزَّع مع التموين على كل الناس، ولكن التهاوي بدأ مع عصر

السادات نفسه عام ١٩٧١، أي عام نفوذه الحقيقي في البلد، ومن بعدها، تغير نوع الزبون وطبيعة البضاعة، وعرف أن البلد كله متجه إلى الغرق في الشلاحات في النهاية.

قال لها بيقين غريب، أضاءت له عيناه: «لو رسمنا خطًّا من ٧١ حتى أربعين سنة بعدها، يعني عام ٢٠١٠ أو ٢٠١١، فستنتهي الأربعون حرامي، وتبدأ سنة جديدة لن يكون بعدها مثل ما كان قبلها.»

أخبرها أن السرقة صارت عيني عينك في كل شيء؛ فالحي يأتيه في المطعم ليأخذ إتاوة على موقعه، وكان يعطيهم شطائر مجانًا ليحلوا عن سمائه، وثمة فواتير الكهرباء، ومفتشو الصحة، وكل أولاد الكلب، ولأنه قريب من الشارع؛ يدرك أن الفساد صار في هذا الزمن الأغبر مقننًا.

تجاوز بصعوبة ذكر درويش عبد الغني كأسطورة من أساطير هذا العصر الجديدة، ولكنه قال لدر الشهوار بهوسه هذا: «لا تُوجَد قصة بعدها في الكتاب تقول ما سيجري، لعلها موجودة ولا أعرفها، ولكنك ستكونين حية بالمشيئة وستعرفين أنني صادق.»

عدَّت در الشهوار ما يفعله طرافة تستحق التقدير، وكانت تقول بعدها لمصطفى نفعة إنه يواجه كوارث حياته بالاستعانة بالخيال، وهو ما عدَّته عصمة له من مرض فقدان الذاكرة أو الحزن الثقيل. كانت أمورها في الجامعة مستقرة، ولم يقلقها سوى الثروة التي آلت إليها من درويش عبد الغني؛ إذ صارت شقة الدقي من نصيبها، ووُضِعت المرسيدس تحت تصرف أمينة الرُّز، التي تمنعت في البداية وهي تمدح فضائل سيارتها المرسيدس الأخرى، قبل أن تجرب ركوبها والدخول بها إلى المجلس، وتشاهد التأثير الحي والواضح للونها الأسود على الآخرين، بينما وُضِعت شقة الإسكندرية في

تصرف حلمي ولطفي لتصير شقة تصييف وترويق بال لهما، وشاليه المعمورة صار ملكًا للجميع، يذهب إليه من يريد في أي وقت للتصييف، ووُضِعت شقة مدينة نصر في تصرف الشقيقين، فأجَّراها للسكن، بينما رفضت در الشهوار تأجير شقة الدقي.

ذهبت إليها أول مرة بعدها، ففُوجِئت أنها مؤثثة بعناية، ومفروشة بالكامل بفرش مناسب، وبها مقتنيات من ساكنها السابق كانت عبارة عن طاولات خشبية قديمة بنوابض، ومكاتب معدة لمهندسين واثقين -وعرفت ذلك وحدها من صور البنايات والإنشاءات التي تملأ المكاتب- وتلفاز قديم، وصالون منجد بقماش غريب اللون مع نقوش فارسية، وصندوق مليء بزجاجات نبيذ قديمة معتقة بالسوليفانة، وكتب بالإنجليزية والفرنسية. شعرت در الشهوار أن هذه الشقة هي شقتها منذ الأزل، وأنها تناديها، فقررت وضعها تحت تصرفها كيفما شاءت، وعدَّتها مكتبًا للعمل والإقامة أحيانًا. مع حب مصطفى نفعة الحقيقي لها وحبها غير المشكوك فيه له، لم تنجح في تطويع نفسها الحرة التي تتوق إلى الانعزال، فكانت تذهب إلى شقة الدقي بين الحين والآخر، تبقى هناك يومين أو ثلاثة أحيانًا مع سيف الدين الصغير، وتهاتف مصطفى نفعة وتقول له: «سأجهز لمحاضرات الغد من هنا، ولعلي أبقى يومًا أو يومين.»

توصلت حينها أنها تشبه خالها حسين الرُّز على نحو أو على آخر؛ فميوله الغريبة إلى الانعزال، وإحساسه العام بالوحدة الذي لازمه منذ خروجه من المنزل في القصة المؤلمة التي حكاها لها، انتقلت إليها، فصارت تشعر بالغرابة المتنامية داخل تفاصيل حياتها نفسها. كانت تريد حياة ثانية سرية منذ البداية، تلجأ إليها عندما تحب، وفُوجِئت أن فكرة خيانة درويش عبد الغني لأمينة الرُّز في عز مجده، وعلاقات حسين الرُّز المتعددة، التي كانت تتسامح معها ذاهلة لسبب هذا التسامح، تؤثر في تفكيرها تجاه مصطفى نفعة،

فكانت تفقد الشعور ناحيته أحيانًا، أو تصير ناقمة على طباعه الخاملة، وتفسر ذلك بوجود امرأة أخرى. ومع تفكيرها المحموم، الذي كان يصل إلى الشك في بعض الأيام، تزوره في المستشفى فجأة، وتُفاجَأ أنه يعمل هناك مثل قاطرة، ولا يمزح إلا قليلًا، وله سمعة جادة ورصينة في التعامل كطبيب ملكي الطابع.

في هذه الفترة تحديدًا، انجذبت سريعًا إلى أستاذ جامعي زميل في الكلية، اسمه عبد الله قرفة. جذبها اسمه في البداية، وعندما تعرفت عليه في قسم التاريخ، وحضرت له ندوة عن كيفية دراسة وجبات الطعام لمعرفة ذوق المدينة المتبدل وطباع أهلها، قدمت نفسها إليه بطريقتها اللافتة وابتسامتها الساحرة، ثم قالت: «وبالتأكيد، اسمك يدوي في كل مكان يا مستر سينامون.»

هذا الاسم، الذي أطلقته في ساعة حظ، سيعتمده عبد الله قرفة نفسه، الذي تقبل المزاح بمزاج طيب، وحكى لها عن سبب التسمية بانتمائه إلى أسرة بقنا بالصعيد، تُسمَّى أسرة قرفة، كان عائلها يتاجر في القرفة تحديدًا في أزمنة الفقر، ويضعها عيدان في باحة منزله ليتضوع برائحتها القوية، ولذلك؛ أسماه الناس قرفة. وقال في بادرة ساخرة إن هذه الرواية غير مؤكدة؛ لأن أسرته فقيرة بالأساس، ويعتقد أن سبب التسمية هو لونهم المميز الذي يشبه لون القرفة نفسها. حديثه الطبيعي هذا جذب فضول در الشهوار لتناقشه في فكرة الطعام والتاريخ، وتحدثت عن خالها الذي اكتشف الشيبس واخترعه قبل أي أحد في القاهرة.

انجذب أحدهما سريعًا إلى الآخر، وتعاملا بطبيعة صديقين حميمين، فصارا يتقابلان يوميًّا في كافتيريا الجامعة، يتناقشان في شؤون الثقافة وحالها الراكدة في البلد، ويقارن عبد الله قرفة بين زمن عبد الناصر وزمن مبارك مقارنة قاسية، وكانت تستمع لقصصه عن

قريته البعيدة، وأحلامه بخلق مركز تعليمي هناك بشعور متعاظم بالفضول، حتى فسرته بالخطأ أنه حب، فتورطت بشعور كبير بالذنب، خاصة أنها لم تشك في حبها لمصطفى نفعة.

ودفعها هذا إلى ملاعبته في هذه الأيام بطريقة النساء المُحبَّات لأزواجهن، وارتدت له قميص نوم جديدًا اشترته من محل «شفتشي» في وسط البلد، وهي محاولات تقبلها مصطفى نفعة بامتنان مع مسحة خجل واضحة، جعلتها لا تستطيع الفكاك من أسر التفكير في عبد الله قرفة، فسعت إلى التقرب إليه أكثر، ومشاركاته في ورشات عمل للطلبة عن استخدام الطعام مؤرخًا طبيعيًّا، واستمتعت معه بدراسة تحولات طبق القلقاس بالصلصة أو الأخضر، وهويته القبطية التي لا تخفى على أحد وسببها، وسبب دمجه مع البط في عيد الغطاس، مع وجوده للغرض نفسه في مطابخ المسلمين؛ إذ يُؤكَل في الأيام نفسها وبضمير مسيحي واضح في القرى والنجوع، ولكنه يكاد يختفي في المدن.

في النهاية، خرجا بدراسة تؤكد أن ثمة غذاءً للقبطي وآخر للجميع، وأن تلك الأطعمة، التي اختيرت بالمصادفة بسبب الصيام الطويل عن اللحوم، صارت مأكولات تُعبِّر عن هوية بعينها أكثر من تعبيرها عن الدين. لم تفق من غفوتها العاطفية هذه إلا عندما رآها عبد الله قرفة ذات يوم وهي تأتي إلى الجامعة بفستان أزرق وقرطين بلون السماء، وتسير كفراشة متعلمة. جلست جانبه على المقاعد الخشبية التي عفا عليها الزمن، وتحدثا مثلما يفعلان يوميًّا عن كل شيء، حتى قال لها ضمن الحديث عرَضًا:

- تخيلونا متزوجَين، تخيلي!

أفاقت حينها دفعة واحدة، واضطرب الجو المحيط بها، فابتسمت له بشحوب حاولت إخفاءه بوجه مرح، وقالت:

- من يجربها مرة لا يجربها أخرى.

كان هذا إيذانًا بانتهاء هذه العلاقة الغريبة والقصيرة، التي رأتها در الشهوار بعدها، في ضوء الهدوء الذي يعقب العاصفة، صداقة حقيقية أفسدها حبها للمغامرة. فهمت من خلال هذه القصة دوافع حسين الرُّز كاملة، فاقتربت منه أكثر، وأرادت أن تحكي له ما جرى وهي تسعى إلى تبرئة ساحتها بالأساس، والحقيقة أن در الشهوار كانت تشبه أمينة الرُّز كثيرًا في عدم حبها للخطأ كمبدأ عام، تتحاشاه قدر الإمكان، وتحاول أن تظل صحيحة على طول الخط.

في مناقشاتها الثقافية عمومًا، عُرِفت عنها استماتتها في الدفاع عن نظريات بعينها، كما كانت تتمسك أحيانًا بوجهة نظر تجاه أحداث وتُحمِّلها ما يفوقها؛ فمثلًا، مع ظهور الريان والسعد، ولجوء الناس إليهما كمنفذ طبيعي للمكاسب، فسرت ذلك بالجهل العام وبنسبة الأمية، وعدم وجود ثقافة مالية رصينة، وتمادت حتى نسبت ذلك إلى نظريات يسارية معقدة تتناول سيطرة المال، حتى فُوجِئت بمشاركة أمينة الرُّز، فأعادت حساباتها، ووجدت أنها لم ترَ الصورة إلا من منظور أكاديمي بحت أبعدها عن الحقيقة المتعددة الأبعاد، ولم تعترف -مع هذا- بخطئها، وإنما ظلت متمسكة به.

قصت على حسين الرُّز ما جرى بعد تردد كبير، وأكدت أنها تحب مصطفى نفعة، وأنها فسرت ما جرى في ضوء تعطشها للجديد. واستمع لها حسين الرُّز بإنصات، ثم قال عندما فرغت من كلامها: «المرأة هي الفاعل الوحيد في «ألف ليلة وليلة»؛ هي تطلب والرجل ينفذ.»

حكى لها دون خجل عن زوجات الملوك والأمراء الذين ينجذبون

إلى خدم وزنوج وتجار وعسكر، وقال إن المرأة عندها دوافع الرجل نفسها، ولكن الزمن ظلمها. ومع تشريحه الهادئ لما جرى وإبعاد كلمة الخيانة عنه، شعرت در الشهوار بالقلق، وقررت عدم مفاتحته في تلك الأمور مجددًا؛ خاصة لأن طبيعتها كانت تدفعها إلى الإخفاء أكثر من الإفصاح، والالتزام بجعل حياتها سرًّا.

الفترة، التي تلت ذلك، كانت خير فتراتها مع مصطفى نفعة؛ فقد دفعته بحسها للمغامرة إلى تجربة أمور جديدة، منها رياضة الغطس في الغردقة، وصارت من عادتهما التردد سنويًّا كل شتاء على المدينة، ومعهما سيف الدين الذي بدأ يكبر ويفك الخط، أو البقاء قليلًا في الإسكندرية بشاليه المعمورة، والتمتع بحس الحياة في عالم وحدهما وقت الشتاء، عندما تخلو المصايف والحياة.

مع وفاة درويش عبد الغني، وجدت راجية السيد نفسها في شقة الإيموبيليا وحدها لأول مرة منذ عقود طويلة، شقة يرمح فيها الخيل، ومعها ثروة لا بأس بها في البنك. ووقت توزيع الثروة، فُوجِئت -كما فُوجِئ أبناء درويش عبد الغني- أنه كتب لها الشقة فقط، ولم يعطِها أي سهم في ممتلكاته الأخرى، فتجاوزت الأمر لحبها لدر الشهوار، الذي عاد قويًّا كما كان في الماضي؛ بسبب زيارات در الشهوار الطويلة لوالدها وقت مرضه، والتي اتفقت مع حلمي ولطفي على إعطائها مبلغًا مناسبًا تضعه في البنك، يحميها من انقطاع الدخل الشهري، فقالت راجية السيد ببقايا كرامة قديمة، كانت تجعلها تصرخ في وسط حارتها وقت الصبا، وتضرب بالشبشب وتعض بالأسنان: «لا، ما حرمني منه درويش يظل هكذا حتى نتلاقى هناك ونصفي حساباتنا.»

لم تبكِ على درويش عبد الغني في البداية، ولكنها بكت بعد أيام

بدافع شعورها المتعاظم المفاجئ بالوحدة وإحساسها بالغضب. كانت بقاياه في كل مكان، تعلنه سيدًا وحيدًا لهذا البيت: الروب، الذي كان يرتديه صباحًا ليقرأ الجريدة في الشرفة ويتعامل كباشا قديم، لا تزال رائحة الشيوخ الصابونية هذه تفوح منه، والمطبخ كان يحوي فناجينه التي يبدل بينها قهوة الصباح والعصاري وقهوة المغرب التي هي أهم فناجين اليوم لأنها ما يبقى عليه إلى اليوم التالي، وعويناته الكبيرة، وكتبه، وأوراق عمله التي لا تنتهي، والخف الفراء الذي اشتراه مؤخرًا وكان يسخر به من نفسه، ويتصور جده الكبير في دمنهور وهو يراه به ويقول له بلا توقف: «خف نواعم يا خول؟!»

كانت آخر محاولاتها لجعل حياتهما بنجاح أيامهما الأولى عن طريق فقدان الوزن ومحاولات تجديد الجمال التي دارت بها على صالونات التجميل، وخاضت بها في أوحال سيدات المجتمع وأحاديثهن التي لا تتوقف، ولكنه ظل نائيًا عنها لتنأى عنه في النهاية أيضًا، ويكتفيا بعلاقة صداقة خفيفة. والحقيقة أن حياتها، التي لم تكن تستقيم بلا زوج؛ إذ كان درويش عبد الغني هو زوجها الثالث، دفعتها إلى الشعور بما يشبه الهوس بسبب الوحدة المتنامية، فكانت تغادر المنزل كل يوم تقريبًا، تسير إلى جروبي الذي صار قديمًا ويستضيف زبائن يحاولون المحافظة على إخلاصهم في زمن صعب، أو أي من مقاهي الفنادق القريبة، أو بعض أماكن الزمالك، وتقابل هناك معارفها القلائل من زوجات مثلها فقدن أزواجهن أو عجائز من زمن بعيد، وكانت تفتش هناك بعينيها بهوس، عندما تكون وحدها، عن منبع للحديث، حتى واجهت مشكلة الماليات المتنامية بسبب انقطاع مصدر الرزق، ولم تُفاجَأ إلا عندما وجدت حسابًا في البنك باسمها، فتحه درويش عبد الغني، يحق لها التصرف فيه كيفما تشاء.

لم يهدئ هذا الحساب من انفعالاتها؛ لأنها رأته مثل مزحة ثقيلة من درويش عبد الغني كما اعتاد، كأنه ينظر إليها من خلال طُرقة الصالة ويقول: «ليس للبغال سوى البغال.» ولكنه دفعها إلى الإمعان في خروجاتها هذه، وبدأت بعدها تستضيف بعض صديقات الغفلة هؤلاء؛ لتعطي حياتها لونًا، حتى ظهر فتحي النمرسي في حياتها كأسوأ فرصة يمكن أن تكون.

كان معروفًا عنه في أوساط أخرى أنه صائد سيدات فوق السن وأرامل درجة أولى، وأنه يدخل عليهن بالسيرة نفسها: أنه وريث شرعي لآخر أسر المماليك، وله صلة بالأسرة المالكة العلوية القديمة، ويعزمها على حفلة تجد فيها نساءً ورجالًا يرطنون بالإنجليزية والفرنسية، ويلبسون البدلات الفراك وفساتين سواريه من ديور، وفي الوسط تمامًا، مكللًا بالنعمة وأكاليل الغار والصابون الفرنسي، يقف أحمد فؤاد الثاني، يبتسم بملامح طيبة، ويتابع الحضور بلياقة ملك فقد عرشه ولم يفقد حسه بالملك. كان فتحي النمرسي يدخل هذه الاجتماعات بالإلحاح وحده، وقدرته الغريبة على الخوض في أي حديث بتمثيل عالي الإتقان، ليقص عن الملكية قصصًا سرية كأنه رآها، ويتعامل بالإتيكيت اللازم، وكان عمله محاميًا، كما يقول، لتنشيط الدورة الدموية وشؤون القلب والعقل، هو مصدر رزقه المعلن، ولكن لم يعرف مصدر رزقه الحقيقي ولا كيفية تنقله بين هذه التجمعات بسهولة وبوجه أحمر بعيني قط كئيب.

كان يملك بيتًا قديمًا في الدرب الأحمر، به فسحات واسعة وخرائب بلا حل، ويؤكد أنه كان بيت جده الذي كان أحد ولاة العثمانية على القاهرة، ولكن الحقيقة أنه كان يستأجر غرفة هناك، ويعتمد على مظهره المباغت وزيه الأنيق وطريقته المعتمدة رسميًّا لدى الطبقات الكبرى في الحديث، حتى يداري حقيقة محل سكنه الحقيقي، فلم يجرؤ أحد مثلًا على مواجهته والبحث وراءه.

عندما سمعت راجية السيد به ورأته، تذكرت زوجها الثاني فورًا الذي تطلقت منه بالضالين، ولكنها تذكرت مع ذلك طريقته العنيفة في الفراش، والأغاني التي كان يرددها صباحًا على مسامعها وهو يقف بالفانلة ليكوي أقمصته، ويضع عُقب سيجارة في طرف فمه مثل ممثلي سينما الترسو، وكان ذلك إيذانًا بسقوطها سريعًا في بحار الخيالات؛ فعلاقتها الحميمة مع درويش عبد الغني توقفت في مطالع السبعينيات، ومع شكها فيه، والعمليات التي كانت تجريها على وجهها وشكلها بوسائل هذه الأزمنة المتواضعة، بانت مثل ممثلة غابت عنها الشهرة، وهو ما لم يستطع درويش عبد الغني تجاوزه، وكان قلقه على قلبه، عندما أُصيب بالأزمة الأولى، هو السبب الوحيد الذي منعه من الزواج مجددًا بأي من الفتيات اللاتي كن يُعرَضن عليه كسكرتيرة مجدة، أو بنات ناس يردن القرب من الرجل الكبير.

لهذا؛ لفتت انتباهها الأوصاف التي قيلت في حق فتحي النمرسي ما بين حقير وحيوان وزير نسوان، والقصص التي لا تُصدَّق عن علاقاته بزوجة وزير مغمور وابنة أخيرة لأميرة من بقايا عثمانيي مصر وسيدة من البيت الملكي القديم تشبه الملكة نازلي الخالق الناطق، وشعرت أنه صيد سهل، فقررت ملاعبته بحس من الحرية التي حازتها في شقة واسعة ومصدر رزق جيد. ميزها فتحي النمرسي سريعًا، وحددها ضمن الأرامل البائسات اللاتي لا يجدن مشكلة في اللعب مع الشباب، فالتقطها بسهولة، ومارس عليها سحره الزائف بأحاديث عن أصله وفصله وقصصه، وقضايا الطلاق التي يخوض فيها بمحاكم المدينة، ومعها، يعقد علاقة مع عميلة غاضبة، وقد كان يردد ذلك بكثير من الحزن الممثل وهو يقول: «ما الذي أستطيع عمله؟! ماما أوجدتني، ثم قالت ربنا يجعلك ورطة لبنات حواء.»

واحدة واحدة، تعلقت راجية السيد به دون انتباه منها، ووجدت نفسها تفكر جديًّا في تقليم أظفاره وتربيته في شقة الإيموبيليا. استقبلته أول مرة بصفته محاميًا يساعدها في شؤون مشروع جديد تريد إقامته، وشرح لها قصة الريان والسعد، وأخبرها أن المال، الذي يدخل عندهما، يخرج خمس مرات، وقال بجدية: «على دفعات يا راجية هانم. إنهما بنك تاريخي سيقلب الدنيا.»

أقنعها بسهولة، ووعدها أن يكرس حياته لها بكل الطرق الكاذبة التي لا تُصدَّق، ولكنها كانت واقعة تمامًا، وتسعى إلى الدفء الذي شعرت به في صحبته وهو يتمشى في الشقة مثل صاحبها، ويعيد ترتيب بعض الأماكن، ولزوم الدور، وضع لوحة كبيرة عليها صورة العلم الملكي القديم، وكان يدللها بلقب الملكة، حتى تزوجا في ليلة بلا قمر، بحضور بعض معارفهما القلائل، وبانت مثيرة للشفقة وهي تحاول استعادة راجية القديمة، ومارس معها ليلتها حبًّا صعبًا بلا حب، فطوَّعها تمامًا، وكان ذلك كافيًا لتدين له بكل شيء، وتمحو درويش عبد الغني بسهولة رغم وجود حس بسيط بالذنب. عندما حولت المال إليه ليشارك في الريان والسعد، طلب منها مصاحبته وهو يضع المال في الشركة، وأخبرها أن الحب ليس ضمانة كافية، فقالت له بلا قلق: «أمَّنتك على حياتي وأنت زوجي.»

كان يراها كتلة من الأحلام التي لن تتحقق، ويتابع علاقته معها بطريقته الباردة التي يراقب بها نفسه وهو يؤدي أدواره المختلفة، حتى يتوقف عند مواضع بعينها أو يحمي نفسه من السقوط في وعد لا يمكن تنفيذه، حتى أمَّن لنفسه الأرباح الكافية من وديعة راجية السيد عند الريان والسعد، وإعطاءها المتبقي مع قبلة لتشعر بالرضا عن حياتها.

أخبرت در الشهوار عندما كانت تزورها بخبر زواجها عرَضًا، فلم تخفِ در الشهوار امتعاضًا ظهر على وجهها سريعًا، ولكنها التزمت بحسها بالعدالة، فقالت بلا شعور: «حقكِ يا طنط راجية. بارك الله لكما.» ولكنها لم تمنع نفسها من التفكير في أن فتحي النمرسي ينام على فراش والدها، ويستغل مكتبه مكتبًا للمحاماة، فطلبت من راجية السيد أن تستعير مكتبة والدها إذا لم تمانع، فقالت: «أعطاكم كل ما يملك مع أنني عشت معه فوق ثلاثين عامًا، والمكتبة لن تفرق كثيرًا.»

نقلت در الشهوار المكتبة على دفعات لأيام إلى مكتبها في الجامعة الأمريكية، وقررت وضعها ضمن تصرف مكتبة الجامعة، ومعها نسخ نادرة من كتب خالها حسن الرُّز عن القومية المصرية واجتهاداته القانونية، التي كان درويش عبد الغني يقتنيها بإصرار، ولم تخبر أمينة الرُّز بما جرى حتى لا تجرح شعورها، ولكن أمينة الرُّز نفسها أثارت فكرة شقة الإيموبيليا هذه كقرار يجب مراجعته. لم تكن تطيق سيرة هذه الشقة، ولم تفكر في زيارتها مطلقًا، ولكنها كانت تشعر أن لأبنائها الحق الكامل في امتلاكها؛ لأن سعرها غالٍ وتصلح لتكون ثلاث شقق في بعض.

جددت عربة درويش عبد الغني المرسيدس، وأعادت تجديد شقة المبتديان للمرة الألف، وازدادت تكدسًا كما ستظل، وصارت بها مواضع معتمة، يمكن ألا يرى فيه أحد يديه إذا دخل فيها، وجعلت إحدى غرفتي أبنائها تحوي جلسة عربية فيها أرابيسك وفوتيهات وكومودينو، بينما أبقت الأخرى كما هي، بها فراشان جاهزان لاستقبال الضيوف من أحفادها، وكانت تشعر بالأمان كلما دخلتها ووجدتها مليئة بالمقتنيات، رغم الزحام الواضح، الذي كان يسبب لرضا قلق قلب دائمًا؛ لأنها كانت تخشى كسر الفازة

الياباني الكبيرة، بطول قامة بني آدم، التي تعلوها نقوش نمور آسيوية وحيوانات كركدن هي الأكبر في العالم، تركض بشراسة، وفتيات يابانيات شبه عاريات، أو طقم الأكواب التركي، أو شجرة عيد الميلاد، التي كانت أمينة الـرُّز تضعها أحيانًا طوال العام، وتتركها تضيء على نحو متقطع لتعطي الشقة ألقًا ينتمي إلى أصقاع بعيدة، أو الطاولة الرفيعة والطويلة التي تضع فوقها صورًا مميزة لها في عملها الحكومي الطويل.

استطاعت أيضًا شراء شقة في عمارات عثمان بكورنيش المعادي، بحكم عملها في المجلس؛ إذ عُرِضت عليهم في إعلان مميز بالتقسيط على عشر سنوات، ولم تدخل أمينة الـرُّز هذه الشقة مطلقًا سوى خمس مرات، وكرستها للإيجار منذ البداية، وكانت تشرف فقط على وصول الإيجار في موعده، أول كل شهر، والتأكد من أخبار المستأجرين؛ لأنها رفضت تأجير الشقة للجنسين معًا عندما كانت تأتيها عروض من أجانب مقيمين في البلاد، وكانت تردد: «الفضيحة لا تعرف الفارق بين المصري والفرنساوي.»

وكانت الخطوة الأكثر جرأة هي خوضها في مشروع الريان والسعد، بعد تردد واضح. كانت ألفت زين الدين، التي صارت أكثر هدوءًا بحكم السن ومرض السكري الذي أصابها على كبر، قد حذرتها من الخوض في مغامرات مالية غير محسوبة، وقالت لها بالحرف إن النصابين قد كثروا في المدينة، وصاروا يجدون كل الطرق المناسبة لسرقة الناس. حكت لها قصة طريفة عن شركات سياحة تعرض على المارة في الشارع الدخول إلى مقراتها الفاخرة في وسط البلد، ثم تعرض عليهم كتيبات مطبوعة بها صور جزر بعيدة وشاليهات فاخرة في مراقيا بالساحل الشمالي، التي تصعد بسرعة الصاروخ، ويُدخِلونهم بعدها في قرعة لاختيار أسرة فائزة، وبعدها،

يأخـذون مئـة جنيـه فقـط مقابـل تسـهيلات في السـداد، ومـن هنـا إلى هنـاك، لا يتسـلمون هـذه الشـاليهات أبـدًا، ويدخلـون في دوامـة مـن الأوراق الرسـمية والتصريحـات.

وقالـت لهـا إن النصـب في هـذه الأيـام فاخـر ويرتـدي بدلـة، ولكـن أمينـة الـرُّز، التـي خاضـت في حديـث مهـم مـع مسـاعدي وزراء وموظفـين كبـار، منهـم أسـماء ثقيلـة، علمـت أن الشركتـين تعمـلان فعـلًا بهمـة دولـة كاملـة، وأنهـم يملكـون مزرعـة دواجـن يمكـن أن تطعـم ملايـين النـاس، وتكسـب مليـارات، ومصانـع وأشـياء، إلـخ. ومـع الظهـور المطمئـن للشـيخ الشـعراوي وهـو يفتتـح أحـد مشروعاتهـم، شـعرت أمينـة الـرُّز أنهـم قادمـون وبقـوة، وباقـون لفـترة طويلـة. اسـتثمرت في البدايـة جـزءًا مـن مدخراتهـا، وقالـوا لهـا إنهـا سـترجع وعليهـا ربـح ٣٠٪، وتحدثـت مـع در الشـهوار في الموضـوع، فنصحتهـا بعـدم الدخـول، بينـما امتنـع حلمـي وتحمـس لطفـي، ودخـل معهـا بأسـهم بمبالـغ معتـبرة.



حتى جاءها الخبر الأسود عن طريق جلسة في اجتماع مغلق مع أعضاء من البنك الأهلي، جاؤوا لعمل نظام قروض للمرأة المعيلة، ينظمها المجلس. وفي جلسة الاستراحة، سمعت أمينة الرُّز رأي أحد العاملين بالبنك في ما يجري، وكان مديرًا محترمًا وقادمًا من بنك أوف أميركا الشهير وقتها رأسًا على منصب قيادي، فتحدث بهدوء عن نجاح المشروعين الباهر، ولكنه وصفه أنه نجاح بلا ضمانات؛ لأنه يعتمد على أموال الأهالي مثل العصور الوسطى بما يشبه ضمانة اجتماعية، وقال بعدها إن ذلك هو سبب انتشار شائعات مثل حرمانية وضع المال في البنك لأنه ربوي، وظهور دعاوى عودة الأزمنة القديمة التي تعتمد على الاشتراك المباشر في مشروعات خدمية، ثم قال: «والفكرة أن الدولة لن تتركهم هكذا. سمعت أن سفينة القمح القادمة في دفعة القمح للبلد طلبت الريان والسعد ضامنين لهم، يعني الرجل الكبير لم يروه ضامنًا كفاية، وهذه فيها رقاب.»

حاولت أمينة الرُّز بعدها استعادة أموالها سريعًا، ودخلت في مشاجرات حادة مع مندوبي الشركة، مثلها مثل كثيرين وصلت إليهم شائعات الإفلاس والنصب والخسارة، حتى تعثر المشروع في السداد، ولاح الأفق ملبدًا بالغيوم، ولم تستطع أمينة الرُّز استرداد أموالها أبدًا رغم كل محاولاتها؛ لأنها توقفت في منتصف الطريق عندما سمعت السخرية الممزوجة بالشفقة من بعض سيدات المجلس، ووصفهن انكباب الأهالي على هذه المشروعات من باب الطمع، والذهول الغريب من الثروة الكبيرة الكامنة تحت البلاطة.

تركت فيها هذه التجربة أثرًا سيئًا، فصارت أكثر تشددًا مع المال، وأكثر قلقًا على مستقبلها بعد التقاعد، فأخذت ما تبقى لها من ثروتها ووضعتها في بنوك مختلفة، ولم تخبر أبناءها حتى عن

هذه البنوك ولا عن تفاصيل تعاملها المالي. ومنذ خسارتها، حسمت الأمر بصرامة عندما أخذت در الشهوار الموضوع كمزحة يوم جمعة، وقالت بلا مقدمات، على مسمع من الأحفاد الصغار الذين لا يعقلون هذه الأمور بسهولة:

- اثنان من بتوع قال الله وقال الرسول ضحكا على أمينة الرُّز بحالها بعد كل هذه الأعوام.

فقالت أمينة الرُّز:

- لا يجوز ذكر هذه الأمور أمام الأطفال. الزمي حدودك يا در.

هذا الخلاف البسيط كلَّفها عزوفًا من در الشهوار عن زيارتها لشهر كامل، اكتشفت معه أمينة الرُّز أن طبعهما واحد، رغم الخلافات الظاهرية بينهما في كل شيء، وأن در الشهوار لا تقبل النقد الصريح ولا الشجار، وكان هذا السبب تحديدًا الذي جعل مصطفى نفعة زوجها المثالي، بينما جعلها تعاني قليلًا مع ابنها سيف الدين، والذي بدأ رحلة المعاندة هذه منذ طفولته. لهذا السبب؛ كانت تريد انتزاع شقة الإيموبيليا من راجية السيد، ولم تعرف أنها غارقة في محنتها الخاصة؛ فمع سقوط الريان والسعد، جاء فتحي النمرسي إليها، وقال بوجه أصفر كالح: «خسرنا كل شيء.»

جلس معها في صالة الشقة الواسعة، وأخذ يدخن في توتر، ويحاول حل الأمر من زوايا عدة، فاقترح تأجير شقة الإيموبيليا أو بيعها وشراء شقة أصغر، ووضع المبلغ المتبقي في البنك للأمان، وكانت راجية السيد تستمع له باستسلام واضح، وهي تنظر في أرجاء الشقة حولها، وشعرت بحاجتها الملحة إلى الحصول على ابن يحميها من هذه المواقف.

قالت: «مسألة بيع الشقة لن تحدث إلا عندما تطلع الشمس من مغربها.»

عرضا الشقة للإيجار في النهاية، وذهبت معه للحياة في شقة صغيرة في باب اللوق، بإحدى العمائر القديمة، لم تعجبها في البداية، ولكنها ساعدتها على تجاوز الفكرة المخيفة في الابتعاد عن وسط البلد، رغم وقوع باب اللوق فيها، ولكن ذهنها، الذي احتفظ بعفوية أيام الحارة، جعلها تربط دائمًا بين وسط البلد والمنطقة ما بين تماثيل مصطفى كامل ومحمد فريد وطلعت حرب. وبعد شهر من انتقالهما إلى هذه الشقة، اكتشفت كارثة علاقته بسيدة أخرى فوق الستين، عن طريق بعض معارفها في مجالس النميمة، فاستشاطت غضبًا، وواجهته بلا مقدمات، فأخبرها بهدوء أن ما تعرفه صحيح، وأنه يملك وصولات أمانة باسمها، جمع بها أموالًا من آخرين لتوظيفها لدى الريان والسعد الخاسرين، وقال وهو يستعيد الكلمات التي فكر فيها كثيرًا قبل ذلك: «والحل هنا أن تغضي النظر عن حياتي الخاصة ونحيا بهدوء؛ لأن عمرك لا يحتمل ذلك.»

لم تكن بطبيعتها لتستسلم. بكت قهرًا وهو يواجهها بهذه السفالة، ولكنها لجأت إلى معارفها القدامى في حيها الشعبي في السيدة عائشة. ذهبت إليهم في العربة الشاهين التي اشترتها بعد وفاة درويش عبد الغني، ونزلت منها لتتأمل مكان سكنها القديم الذي هُدِم وصار برجًا للأطباء. وبعد مقدمات بطيئة، ومحاولات صعبة لفهم التغيرات التي طرأت على المكان، عرفوا أنها ابنة قباري السيد الإسكندراني، التي تزوجت موظفًا في التربية والتعليم قبل زمن الزمن، ثم تزوجت واحدًا من وزراء الوفد وكسبت منه قرشين. ولأن أغلب سكان الحي كانوا قد ماتوا أو نسوها تمامًا؛ رأوها مصفاة من فضائح الماضي وقصصه، وتعاملوا معها على أنها سيدة مجتمع. ومع تمرسها في حياة النعمة منذ زمن الزواج بالوزير،

استطاعت إقناعهم بعدالة مطلبها في طلبها الحماية من نصاب حاول سرقتها.

جعلوها تقابل أحد بلطجية الحي، واسمه أحمد سافو؛ وذلك لأنه كان يعمل في بيع أكياس السافو بعد شراء العبوات الكبيرة فِردة واقتدار من باعة المنظفات، بلا ثمن، يدفعه لاحقًا على الآجل، وكان يمر بعربة صغيرة، عليها برميلان مليئان بالمسحوق النظيف الرائحة، ينادي على السافو بصوت حلو، حتى قيل إن أحد معارف شعراء الأغنية الشعبية قد سمعه، واقترح اسمه لأغنية إعلان، فظهر بعدها إعلان سافو الشهير الذي غناه حمدي باتشان، ليُطلَق اللقب من بعدها على أحمد سافو لقبًا رسميًّا يحدد مكانته في مملكة هذا العالم.

وعدها بعينيه أن يأتي بحقها، وطلب مهلة أسبوع، وسألها بثقة الخبراء:

- زِفر ولا نظيف؟

فقالت وقد التهبت قريحتها الشعبية القديمة:

- نظيف بالتأكيد؛ لا أريد مشكلات لأن وضعي لا يسمح.

حُلَّ الأمر دون أن تعرف بذلك إلا في النهايات، وفُوجِئت بإيصالات الأمانة أمامها في المقهى نفسه بالحي في السيدة عائشة، وقال أحمد سافو:

- ولن تري وجهه مرة أخرى.

وقد كان؛ ظلت تحاول العثور على فتحي النمرسي حتى تراه للمرة الأخيرة، وفقًا لهواها المتصاعد تجاهه، رغم ما فعله، وشعورها بالمهانة والتيه، ولكنها لم تستطع، كأنه فص ملح وذاب. وبعد سنوات من ذلك الحدث، سيعود إلى الظهور على الساحة

خبيرًا في شؤون الأسرة العلوية، بمظهره نفسه، ولكن مع امتلاكه بيتًا كبيرًا في حقل مهجور على النيل قرب حلوان، كان مؤسسًا على طريقة البيوت المملوكية القديمة، كان يقول إنه بيت آخر هذه الأسر العظيمة في المدينة، ويستقبل فيه كبار رجال المجتمع، وحافظ على خط غير متماسك من قصص انتمائه إلى الأسرة العلوية وحكايات عما جرى له بعدها.

لم تتهاوَ راجية السيد بعد هذه القصة، وإنما جاهدت لتحيا في ظل وحدتها المتنامية بعد اختفاء فتحي النمرسي، وتعرضت بعدها لمضايقات من أحمد سافو؛ إذ كان يأتيها مطلع كل شهر، عند عمارة باب اللوق، يقف بمظهره الذي يشبه مظهر ديك مبلول بشعر سايح، ويطلب شهرية بأدب مصطنع، ثم يشير إلى متجر القهوة القريب المملوك لعبد المعبود، ويقول: «حق الفنجان والرأس الذي يكاد ينفجر من الأسعار.»

يوم

١٤

لم يكـن حسـين الـرُّز أحسـن حـالًا ممـا كان عليـه في هـذه الأيـام؛ فمـع انتظـام أمـور المطعـم، وحياتـه الهادئـة مـع لمبـة بطـاح، بعـد اقترابهـما مجـددًا، لم يواجـه مـا يكـدره سـوى وفـاة الأسـتاذ حلمـي طايـع، بعـد عمـر طويـل مـن الصداقـة.

بـكاه بحـق، واسـترجع مشـاهد لا تُحـصى بينهـما مـن صداقـة مقهـى متينـة تعـدت المقهـى إلى الحيـاة، ودعـا لـه بالرحمـة خصوصًـا لأنـه قدمـه إلى عـالم «ألـف ليلـة وليلـة»، ولكنـه اسـتمر في حياتـه الهادئـة هـذه، وصـار أكثـر ميـلًا إلى التجـول الحـر في وسـط البلـد أو مـصر الجديـدة وهـو يـزور در الشـهوار، ويكتـب تفسـيراته الخاصـة عـن قصـص «ألـف ليلـة وليلـة» عـن طريـق اجتهـادات شـخصية، يناقـش فيهـا در الشـهوار بحماسـة، فتراقبـه بسـعادة كأنـه طفـل كبـير، حتـى قـرر عمـل كتـاب عـن هـذه التفسـيرات، مـن خـلال قراءتـه لقصـص الموسـوعة كلهـا ثلاثـة مـرات متتاليـة خـلال أربعـة أعـوام، ومـن التفسـيرات الطريفـة، التـي وجدهـا، أن أغنيـة «أوقـاتي بتحلـو»، التـي لحنهـا سـيد مـكاوي وغناهـا، كـما غنتهـا وردة بديـلًا لأم كلثـوم التـي تُوفِّيـت قبـل التسـجيل، أغنيـة خاصـة بشـهرزاد نفسـها، وهـي تتحـدث عـن لياليهـا مـع شـهريار، ولم يكـن لـه إثبـات سـوى هوسـه الخـاص بـأن كل شيء في المدينـة ينضـح بالمعـاني المسـتقاة مـن كتـاب الكتـب هـذا.

قبـل كارثـة زلـزال ٩٢، تنبـأ بهـا بسـهولة عندمـا ربـط بـين مجموعـة مـن القصـص التـي تتحـدث عـن مـدن تنهـار بالـزلازل؛ لأنهـا لم تكتشـف سرًّا مدفونًـا داخـل جـرة، والجـرة نفسـها داخـل جـرار أخـرى بـلا نهايـة، وأن الجنـي الحبيس داخـل هـذه الجـرة السريـة ينتظـر السـؤال الصحيـح لـيردد الإجابـة التـي سـتخلص الجميـع مـن الزلـزال والانهيار، فقـال لـدر الشـهوار: «صـار الزبائـن في مطعمـي أكثـر فقـرًا، والأسـعار

في ارتفاع، والشوارع مزدحمة، أي إن ثورة يوليو فشلت كما توقعت منذ بدايتها، والقصر صار أكثر حزنًا.»

حكى لها قصة القصر كما حضرها منذ البداية، وتركه تحت الحراسة طوال سنوات عبد الناصر، ثم استخدامه بقلة بعدها، حتى نُسِيَ تمامًا، وصار لا يستقبل التشريفات والزيارات المهمة إلا نادرًا، وذكر أن ذلك الهجران كفيل بشعور البنايات بالجحود؛ فكل بناية لها عُمَّار من الجان، يريدون في النهاية أن تخرب المدينة كلها ليتكاثروا فيها ويستعيدوا الأرض التي ملكوها قبل بني آدم.

كانت در الشهوار تستمع له باستمتاع وبلا مقاطعات، وهي تدرك أن الفاصل دقيق جدًّا بين الجنون والذكاء، ولأن وظائفه الحيوية كانت سليمة، ولا يزال محتفظًا بمظهره وحيويته، كأنه لا يقترب من السبعين، ولا يزال يلمح فتاة بعينها فيتتبعها بعينيه ويبتسم ابتسامة خفيفة؛ وثقت في قدرته على التفرقة بينهما، ولذلك؛ لم تفند كلماته مطلقًا، وساعدته على التبحر في عالم «ألف ليلة وليلة» عن طريق جلبها لأي كتاب نادر يقع في يدها عن العالم نفسه.

كان المطعم قد استقر في مكانه مطعمًا عاديًّا بلا ميزة سوى عدد سنوات خبرته.

لبة بطاح، التي رأت أكثر من مكان يكتب على لافتته الأساسية أنه منذ عام كذا، اقترحت على حسين الرُّز كتابة الأمر نفسه، فوافق على الاقتراح، وأشرف بنفسه على كتابة العام، وهو يراقب بذهول أنه مفتوح من أواخر الأربعينيات، دون أن يتوقف لمرة واحدة، وجعله هذا يشعر أنه ملك نفسه أكثر، فغير من ثياب عمله المكونة من بالطو أطباء أبيض على بنطال، كما اعتاد منذ عقود، وارتدى قميصًا منتصِف الكمين مع بنطال قماش وساعة يد مطلية بالذهب صغيرة وتحيط بمعصمه، وعوينات شمسية ماركة أوليفر،

وضبط شاربه على النحو نفسه: يحلق جزءًا بين الأنف والشارب، ويتركه مثل خط رفيع، على طريقة الستينيات.

وصار يذهب إلى المطعم بهذا الألق، ويُرى وهو يمسك بمسبحة خضراء، كانت تخص جدة درية عز الدين، ويجلس ليقرأ في كتاب «ألف ليلة وليلة»، حتى صار يُسمَّى بالمعلم حسين الرُّز، بعدما كان عم حسين أو أستاذ حسين. في الوقت نفسه، ومع وفاة حمادة، عاملهم الأثير، في ليلة من ليالي رمضان، حضر فيها تواشيح للكحلاوي، ثم كان بعدها مبتسمًا بعدما تناول السحور، وكبر سن فتوح، وتمرسه في عمل الطعمية، وارتعاش يدي عتريس بحكم السن، صار المطعم متخصصًا في صناعة الطعمية، رغم تخصصه في البطاطس الشيبس، وهو ما لم يستسِغه حسين الرُّز في البداية لأنه يغير نشاطهم الأساسي، ومنبع خبرتهم نفسه، ولكن لمبة بطاح أقنعته بترك المجال للطعمية للنمو، خاصة مع كثرة الزبائن ووقوفهم طوابير في الصباح الباكر، يصيح بعضهم بين الحين والآخر: «باتنين طعمية يا فتوح، وواحد نص سوا.»

ولكن در الشهوار أطلعته على المطاعم الجديدة التي بدأت تملأ المدينة، ما جعله يعيد تأكيده على موضوع التخصص هذا. ضيَّفته مثلًا على وِمبي، الذي كان قريبًا من بيتها في مصر الجديدة، بفرعه الشهير أمام الحرس الجمهوري، وعرضت عليه البطاطس المقلية الفارم، وطريقة عمل شطائر البرجر بآلية وسرعة، ولكنه لم يستسِغها، وحدد بذكاء خبراء أن اللحم نفسه بلا مذاق، ولكنه يعتمد على المستردة والمايونيز والكاتشب. أبدى إعجابه بالكاتشب تحديدًا، وقرر إضافته إلى المطعم، ووضع زجاجات فوق الطاولات التي لم يغيرها الزمن، مع إضافة ثلاجة بيبس كولا، تضيء بوهج أزرق لافت في الأمسيات الأكثر سوادًا، وتغيير لافتة المطعم للمرة

الرابعة خلال ثلاثة أعوام، فكتب عليها: «تخصص في البطاطس الشيبس منذ أربعين عامًا». ورسم له صبي رسام لافتات مجد اسمه علي علي، يحيا في المعصرة، صورة ثمرة بطاطس كبيرة، متحزمة وترقص، وهي مقطعة إلى شرائح دائرية متساوية. بدأت شهرته تتسع أكثر بعد هذه اللفتة البسيطة، ليقول للمبة بطاح بلا خجل: «الخبرة في العظم الناشف يا لمبة. لم أُعدَم مفهوميتي بعد.»

كانت الانطلاقة الحقيقية عندما زاره عادل إمام وقت تصويره لفيلم «الإرهاب والكباب»، ومسرحية «سيد الشغال»، وكان قد خرج من المسرح متأخرًا ومعه زوج أخته مصطفى متولي، فمرا عليه في المطعم بناءً على السمعة وحدها، وميَّزه حسين الرُّز سريعًا، فغادر الطاولة وصافحه بترحاب، ووضح له كيف يصنع البطاطس المقلية، وتذوقها عادل إمام، فقال بطريقته الشهيرة وهو يضيق جبهته ثم يبسطها ويبتسم: «حلوة أوي أوي، أحلى من يسرا يا معلم.»

التقط صورة معه عندما استدعى حمدي فوري، صاحب استديو الصور الفورية القريب، وتجمعت جلبة نهار في منتصف الليل هذا، وعلَّق الصورة على الجدار الرئيسي في المطعم، مع صور أخرى قرر إضافتها للمطعم نفسه خلال مراحل تطوره. كانت ليلة مجده؛ فبعدها، زاره كثير من المشاهير الذين جاؤوا بالسمعة خصوصًا، وجربوا البطاطس الشيبس بطريقة الرُّز، ودفعه هذا أن يطلب من لمبة بطاح الاهتمام أكثر بمظهرها الخارجي، وطريقتها في الحديث والمعاملة. غضبت منه، وقالت:

- طول عمري أتعامل باحترام يابن الناس، وأمسكت هذا المطعم لأعوام عندما كنت في خبر كان.

فقال لها بصلابة:

- كنا نتعامل مع الأفندية، والآن، مع الممثلين والباشوات، والأمر يلزمه بعض الشطارة.

لامس تخوم المجد أكثر عندما جاءته المذيعة سامية الإتربي، مقدمة برنامج «حكاوي القهاوي»، فجلست معه، وعملت حوارًا عن طريقته الخاصة في عمل البطاطس الشيبس وكيفية اكتشافها منذ عقود، وصورت لقطات من التحضيرات وطريقة القلي، وقد شاهد هذه الحلقة على تلفاز قهوة الماوردي، وهو جالس بكامل ألقه مثل ممثل سينمائي. ولأن مزاجه كان طيبًا؛ ضيَّف الجالسين على مشاريب على حسابه.

كان اليوم ينتهي في أيام السعادة هذه، التي زاد عدد الزبائن فيها أكثر، ووصلت المبيعات إلى مستوى تاريخي لم يشهده طوال حياته، فيعود إلى شقة عابدين، يتعشى مع لمبة بطاح بهدوء، وهما يشاهدان مسلسل الثامنة مساءً، ثم يبدأ في قراءة «ألف ليلة وليلة» حتى الواحدة صباحًا، وهو يستخرج من قصص الفقراء، الذين صاروا أمراء أو اغتنوا، عبرة ما، وشعر بالقلق المستحق عندما وجد أن هذه الشهرة لها ثمنها، وأنه سيتعرض للإغواء قريبًا، مع أنه توقف عن مطاردة الحب بعد القصة المؤسفة لشيماء شعبان.

انتظر العلامة التي تؤكد له صواب حساباته، وجاءته عن طريق ظهور مفاجئ لوجه جديد عليه يُدخِله في محنة التجربة الملائمة لمجده المتنامي. كان اسمها صابرين سلطان، وهي ابنة ثالثة في أسرة من أربعة بنات، أمهن مديرة في الشهر العقاري، مات زوجها مبكرًا، وترك لها المسؤولية الصعبة في تربيتهن، وكانت متهاونة بالقدر الكافي لتجعل كل واحدة تربي نفسها بنفسها، كما تعلمها الأيام والخبرة، وكانت صابرين سلطان خريجة طازجة في كلية

التجارة الخارجية بالزمالك، ومتأثرة بذهابها اليومي هناك وتطلعها إلى قصص الحياة الناجحة والمريحة. كانت تحب المظهر الخامل لشوارع الحي الراقي مساءً؛ من مطاعم تضج بالحياة تقدم وجبات حديثة وأمريكية، وبقالات وسوبرماركت ومحال حلوى، وتنتظر ظهور الرجل الذي ينتشلها من وحدتها الكثيفة.

كان لها شبه كبير بمطربة صاعدة وقتها اسمها منى عبد الغني، صاحبة «يلا يا أصحاب»، وكانت تدرك أبعاد هذا التشابه، وتتخذه فرصة لإبراز جمالها وفضائله، فترتدي بلوفرات واسعة وجيب حمراء طويلة، وتصفف شعرها بطريقة التسعينيات إياها الشهيرة، حتى صار لقبها الثاني منى أو منون. تهاوى عليها الطلبة الزملاء والمعيدون، ولكنها كانت تمحوهم من قلبها بجرة قلم، وتنتظر الرجل المناسب تمامًا: أب وزوج في الوقت نفسه.

ومع حسها الشديد بالمغامرة، وفضولها بالتعرف على كل شيء، كانت تشبه در الشهوار في اقتحامها لأي شأن من شؤون الحياة، ومشاركتها بلا قلق في كل الفعاليات، فشاركت مثلًا في مظاهرات الجامعات احتجاجًا على المشاركة في حرب الخليج، وعملت في المشفى الميداني الخيري لعلاج مصابي زلزال ٩٢، وكانت تفعل ذلك للاكتشاف وحده بعيدًا عن شؤون القلب أو المبادئ.

عثرت على مطعم «درية والرُّز» في يوم شتوي، كانت في خروجه فيه إلى نواحي السيدة زينب، مع مجموعة من الزملاء والزميلات. ولأنها سمعت عنه في برنامج «حكاوي القهاوي»؛ قررت اكتشافه، ووصلت إليه بسهولة، ودخلت بوهج تجديدي إلى المطعم، فلم يخطئ حسين الرُّز العلامة مطلقًا، وأبدى ترحيبًا مبالغًا فيه بها، حتى توقعت لمبة بطاح أنها إحدى العاملات في السينما، فغضت الطرف عن طرقه الخاصة في الترحيب والابتسام بطريقة رجل

متصابٍ، ما زالت وسامته محط الأنظار، ولكنها لاحظت ما يجري فاستعادت ما كان يحدث بالسابق، وأقرت بينها وبين نفسها أن الزمن دائري بلا نهاية، يعود من حيث بدأ، وراقبت بذهول كيف أن فتاة في عمر ابنته تضحك على طريقته الطريفة في الحديث وعرض الشطائر.

لم تنجذب صابرين سلطان إلى مظهر حسين الرُّز لأنها رأت فيه جدًّا طيبًا بملمح جمال بدأ يتلاشى، وإنما لفكرة الأبوة التي تنضح منه؛ فكلما كان يحاول عرض الشطائر عليها وهو يمثل دور مهرج جميل، كان يزداد ظهورًا كأب يعرض أمجاده على ابنته المفضلة. التقط حسين الرُّز إعجابها سريعًا، واقتنع أنها بطلة قصته الجديدة في مسلسله الخاص، وانفتح لرغائب قد توقظ داخله رغبته في الحب، وانتظر الخطوة الثانية. جاءت عن طريق زيارات متكررة في الأيام التالية، وكانت صابرين سلطان تشعر بالسعادة لسعادته الأبوية الواضحة عندما يراها، حتى قررت الخوض في هذا الشيء الذي لا اسم له، فأخبرته عن كليتها وهي تتناول الشطائر. ولأن حسين الرُّز لم يُرِد تكرار كارثة فضيحته العلنية مع شيماء شعبان، ويدرك بحس الخبرة وبقصص «ألف ليلة وليلة» أن قصتهما لن تصل إلى أي مكان، وستنتهي نهاية درامية؛ حافظ عليها سرًّا، وقال للمبة بطاح: «تُذكِّرني بدر الشهوار. لو كان عندنا ابنة لكانت في سنها.»

ذهب إليها عند الكلية في شارع أبو الفدا، وكانت محاولاته المستميتة ليخفي آثار السن -باستخدامه صبغة خفيفة فوق شعره وشاربه، أو استخدامه عسل المر الحنون، الذي يبتاعه بالشيء الفلاني من الحرَّاز العطار، ويضعه فوق وجهه مثل عذراء خجلى؛ ليحافظ عليه نظيفًا من التجاعيد- تزيد من أثر السن، وكانت تبتسم بإشفاق، وتحاول تعريفه بالمطاعم الجديدة التي تقدم البرجر والبطاطس الفارم والكرواسون، وكان يتجاوب معها مع إحساسه

بالـدفء، وشيء مـن الخجـل؛ لأنـه يشـعر أنـه خـارج السـياق.

خرجـا أكثـر مـن مـرة كأب وابنتـه، ولم يسـتطيعا تجـاوز حقيقـة فـارق السـن بـأي حـال مـن الأحـوال، ولم يسـتطع حسـين الـرُّز تجـاوز فكـرة مـا جـرى لـه مـع شـيماء شـعبان، رغـم اختـلاف صابريـن سـلطان عنهـا في كل شيء؛ فقـد كانـت أكثـر مرحًـا، وتنصـت لأحاديثـه بصـدق وهـو يتحـدث عـن زمـن لم تتصـور وجـوده، وكان بهـا خصلـة حسـنة لم يجدهـا إلا في دريـة عـز الديـن، وهـي الـبراءة الواضحـة في ردود الفعـل والانفعـال الصـادق.

وقـد كان شـعوره المختلـط ناحيتهـا بحبهـا كفتـاة وشـبه ابنـة في الوقـت نفسـه سـببًا في حيرتـه، فبـان مهمومًـا أكثـر مـن أي مـرة سـابقة، ولكـن، مـع دفعـات قويـة مـن اللهفـة، تظهـر عليـه عندمـا يشـتري لهـا شـيئًا كل مـرة قبـل مقابلاتهـما، سـواء زجاجـة بيبـس ينتظرهـا بهـا جـوار الكشـك القريـب مـن الكليـة، أم كيسًـا صغـيرًا بـه هدايـا زجاجـة عطـر أو قلـم شـفاه أو حواجـب، جعلتـه يسـتمر في قصتهـما المبتسـرة هـذه مسـتمتعًا بمراهقـة متأخـرة صافيـة، وكانـت تتلقـى هـذه الهدايـا بسـعادة وإشـفاق، وتعاملـه بصفتـه عـمًّا طيبًـا جديـرًا بالحـب ورجـلًا مـن الزمـن الجميـل، يُعـبِّر عـن حبـه بأغـاني السـت وعبـد الحليـم، ويـدرج اسـم الله في كل أحاديثـه مدلـلًا بـه عـلى حبـه الصـادق.

سـمع منهـا قصتهـا الحزينـة كأخـت وسـطى، تحـت سـلطة أمهـا القويـة، والسـمعة السـيئة التـي تلاحقهـا وشـقيقاتها كفتيـات بـلا أب، وعلاقـات الحـب التـي تُفـرَض عليهـا فرضًـا في محـل سـكنها؛ إذ طاردهـا صاحـب معـرض سـيارات بالـكلام المعسـول، وحـاول إغواءهـا بعربتـه المرسـيدس الخنزيـرة، وعـن موجـه بالتربيـة والتعليـم تقـدم لهـا وظنـت أمهـا أنـه سـيتزوجها هـي، وشـاب يعمـل في الفاعـل كان يظهـر لهـا في أماكـن غـير متوقعـة، ومهنـدس شـاب تعـرف عليهـا في نـدوة بالكليـة

وأُغـرَم بهـا فـورًا عندمـا أثنـت عـلى ذوقـه في الثيـاب، ولم تشـعر بـأي عاطفـة تجاه أي واحـد منهـم؛ لأنهـا كانـت تبحـث عـن شـخص يعاملها بالحنـان الـكافي والـذوق الـذي تـراه في أفـلام المـاضي، ودفـع هـذا حسـين الـرُّز إلى التفكـير في جماليـة انتمائـه إلى أسرة النسـاء هـذه وتبنيهـا كأسرة ثانيـة لـه.

مـع هيامـه المتنامـي بهـا، وابتسـامه بـشرود وهـو يقـف وحـده في المطعـم، يتذكـر لفتـات طريفـة مـن صابريـن سـلطان وهـي تُعلِّمـه كيـف يختـار العوينـات الشمسـية عـلى نحـو صحيـح، وكيـف يتنـاول البرجـر دون أن يلطـخ قميصـه بالمسـتردة والكاتشـب، أو كيـف يسـتطعم الإسبريسـو أو الكابتشـينو، لاحظـت لمبـة بطـاح مـا يجـري، فقـررت مصارحتـه هـذه المرة بشـكوكها وعـدم الاعتصـام بالصمـت كـما فعلـت في المـرة السـابقة، فقـال بهـدوء: «عمـري سـبعون سـنة يـا لمبـة، ولسـت مجنونًـا.»

ولكنه كان يقول ذلك لنفسه بالأساس.

اختـلاف طريقـة التفكـير في هـذا العمـر فاجأتـه بأنـه لا يسـتطيع الاندمـاج الـكلي في القصـة دون الوقـوف عـلى أبعادهـا، واليقـين في أن هـذه القصـة تحديـدًا بـلا رأس، وأحزانهـا أكثـر مـن أفراحهـا، ولذلـك؛ لم يعـترض كثـيرًا عندمـا جاءتـه شـقيقتها الكـبرى، التـي اسـمها صفـاء سـلطان، وهـي امـرأة مجـدة، تعمـل في مصنـع للعصـير، وذكـرت لـه أن أحدهـم أخبرهـا بخـروج صابريـن سـلطان معـه، ولفِّهـا بعربـة أجـرة في شـوارع الزمالـك، فظنـت في البدايـة أنـه أحـد أسـاتذة الجامعـة المتصابين، وقالـت لـه بالحـرف الواحـد: «حضرتـك في عمـر والدنـا لـو كان حيًّـا، وأعتقـد تسـتطيع تقديـر الموقـف جيـدًا.» أظهـر تفهـمًا حسـنًا للموقـف، وهـز رأسـه وهـو يسـتمع لصفـاء سـلطان جـوار المطعـم، واحمـر وجهـه

عندما وجدها تقول بثقة: «وحضرتك متزوج وصاحب مطعم ما شاء الله.»

كانت المرحلة التالية من أصعب المراحل في حياة حسين الرُّز؛ فمع امتناعه عن مقابلة صابرين سلطان، وعزوفه عن إعطاء ريق لها، رغم زيارتها المطعم، أظهر وجهًا جبانًا لم يكن يتوقع وجوده، وجعله هذا يلقي بنفسه في بحر «ألف ليلة وليلة»، يقرأ عن الرجال الذين يتخلون عن حب عمرهم بسبب السلطة أو المال أو التقاليد، ولكنه وجدهم جميعًا يخوضون في الحب بقلب جريء ودم حار، دون النظر إلى عوامل السن والثروة والسلطة، ولذلك؛ غير رأيه، فذهب مرة أخرى إلى كلية التجارة الخارجية، وانتظرها في المكان نفسه، وعندما رأته وأشاحت بوجهها في البداية، سار خلفها بخفة شاب، ثم تحدثا لساعتين عن كل شيء.

ومع إصراره الواضح وتصميمه على الزواج رغم كل العقبات، أُصيبت صابرين سلطان بالقلق، وامتنعت عن رؤيته فجأة، فلم يعثر لها على أثر، وهو ما لم تسامح فيه نفسها أبدًا؛ إذ كانت تستعيد المرة الأخيرة، التي تلاقيا فيها في الزمالك، طوال عمرها، حتى وفاتها في سن الأربعينيات عام ٢٠٢٠، عندما أُصيبت بمرض القلب، بعد زيجة نحس برجل يكبرها بعشرين عامًا، فتشت فيه عن ظل الأب وحسين الرُّز، وكانت تحاول إقناع نفسها بأن ما فعلته كان طبيعيًّا في سنها كفتاة رعديدة، أحبت فكرة الحب أكثر من فكرة تنفيذه.

لم تمر القصة على حسين الرُّز بهذه السهولة؛ فمع اختفائها، فقد الثقة في نفسه وفي قدرته المشهودة على مواجهة السن، فصار أكثر ميلًا إلى العصبية، ويتعامل بوجه مكدر مع الجميع، فخمنت لمبة بطاح أن قصته الأخيرة هذه قد انتهت، ولكنها لم تهنأ بذلك

طويلًا، فما أخرج حسين الرُّز من انحساره السريع وإفلات الصحة من بين أصابعه هو مرضها المفاجئ؛ إذ أُصيبت في يومين بإسهال مفرط، لم يستطع أحد من الأطباء تفسيره عندما ذهبوا إلى مستشفى قصر العيني القريب. ومع كثرة المرضى وفوضى العثور على سرير، اضطُرَّ حسين الرُّز إلى مهاتفة در الشهوار حتى يساعده زوجها في العثور على سرير مناسب، وكان مصطفى نفعة يعرف مدير المستشفى معرفة شخصية، فوجدوا لها مكانًا في مستشفى فلسطين بمصر الجديدة. وتحسنت لمبة بطاح سريعًا، فقال لها حسين الرُّز وهو يتأملها على فراش المرض:

- تحملتِ معي كثيرًا يا أصيلة.

فقالت لمبة بطاح:

- حذرتني الست معالي من الحب، ولكن كنت هبلة طول عمري.

رقادها في الفراش بعدها لأسابيع، ومداومتها على العلاج والمحاليل، جعلا حسين الرُّز يقف على أبعاد حياتهما معًا، واكتشف -للمرة الثانية- أثرها الكبير في حياته بما يفوق أثر درية عز الدين نفسها، والحقيقة التي تؤكد أنها لم تتخلَّ عنه يومًا رغم مغامراته التي لا تنتهي، ولذلك؛ قرر أن يكتب المطعم باسمها، لو جرى له شيء، وأعلمها بهذا الخبر في مساء هادئ، زارتهما فيه در الشهوار وابنها سيف الدين، الذي كان يسمي حسين الرُّز جدو الأرز المعمر، فابتسمت لمبة بطاح وقالت: «سبحان الله! جاءتني الست معالي في الحلم الليلة الماضية وقالت: نسيتِني يا فقرية؟»

وأسلمت روحها في اليوم التالي وهي تبكي؛ لأنها رأت مشهدًا لها من طفولتها البعيدة، وهي تركض بعيدًا عن أبيها، فلت من رحم النسيان وبزغ واضحًا كأنها تحياه.

عنـد وفاتهـا، ظهـرت المعضلـة التـي لم يفكـر فيهـا حسـين الـرُّز، وتجنبهـا طـوال عقـود بعـد وفـاة دريـة عـز الديـن، بشـأن المقـبرة التـي ستُدفَن فيهـا. ولأنهـا كانـت مقطوعـة مـن شـجرة؛ كان واجبًـا عليـه أن يجـد لهـا مدفنًـا معـه. ولذلـك؛ سـأل در الشـهوار عـن قدرتـه عـلى دفنهـا في مقابـر الـرُّز، فذهبـت إلى أمينـة الـرُّز لتنقـل إليهـا الخـبر، فاسـتمعت لـه بـلا تأثـر، وقالـت: «لـن تُدفَـن سـاقطة بـلا أهليـة عندنـا.»

كانـت قـد ازدادت تعنتًـا مـع تجاوزهـا سـن المعـاش، رغـم المحاولـة الناجحـة التـي قامـت بهـا صديقة لهـا، مـن سـيدات الروتاري وجلسـات النميمـة ومؤتمـرات المجلس، تقـرب إلى الوزيـر السـابق عاطـف صدقـي ومـن قريتـه نفسـها، سـنهرة، في القليوبيـة، فقدمـت عريضـة بهـا كل أعـمال أمينـة الـرُّز في حمايـة أوقـاف الدولـة، وفضائلهـا في المجلـس، وسـعيها الـشرس في تشـجيع قضايـا الخُلـع وحقـوق المـرأة في المـيراث في الصعيـد، وكل مـا يخـص رطانـة القوانـين المعقـدة، وأثنـت عـلى لغتهـا



العربية الفصحى السليمة وهي تقرأ البيانات في المؤتمرات، والتزامها النزاهة خطًّا أصيلًا؛ إذ لم يُعرَف عنها خوضها في بحار الرشاوى والإكراميات.

وكانت هذه السيدة المخلصة تردد ذلك بدافع من معرفتها الحديثة بأمينة الرُّز؛ فبقدرة قادر، استطاعت الظهور بمظهر من لا ماضي له، ونُسِيَت تمامًا قصص الهدايا القيمة التي كانت تتلقاها وقت الأوقاف، والحسابات البنكية في بنكين حكوميين وبنك أجنبي ثالث جديد -نصحها به حلمي درويش؛ لأن الموجة القادمة موجة بنوك أجنبية كما ذكر- إذ سعت في المجلس خلال أعوام الثمانينيات على الظهور بمظهر المرأة العصامية، لا تفطر مع الموظفين صباحًا، ولا تقبل الهدايا التي تأتيها من سيدات الروتاري، ولا اللوحات الفنية التي تُوضَع باسمها في بهو المجلس كنصيرة للمرأة، وكانت تكتفي بالتأكيد على أنها تملك عربتها ميراثًا من طليقها، وشقة واحدة في المبتديان لم يغيرها الزمن، دون ذكر شقة عمارات عثمان، ولم تسمح لنفسها بمشاركة أبنائها في ميراثهم من أبيهم، وكانت، رغم سمعة المجلس بالتهاون في الحضور والانصراف والعمل السهل الكسول، تشدد على الزي والمظهر وطريقة التعامل، وتتابع كشوفات الحضور والانصراف بنفسها على نحو صعب.

ولأن وقتها كان ملكها، كاملًا بلا ضوضاء، في شقة المبتديان الواسعة مع رضا؛ ابتكرت فكرة الإشراف على مدارس البنات في بعض المناطق لمعرفة طريقة تربية بنت لتكون عصرية ومتحررة. كانت تزور تلك المدارس مثل مديرة في التربية والتعليم، تسبقها عاصفة من الغبار والتحضيرات، وتدخل لتقابل الناظر أو الناظرة وبقية هيئة التدريس، فيتحدثون عن وضعية المواد التي تُدرَّس، وكيفية

تربية فتيات عصريات ناجحات وفقًا لرؤية سوزان مبارك، سيدة مصر الأولى، ثم تأخذ اقتراحات وتوصيات، وتعطيها للسكرتيرة، فتدبجها بعناية، وترسلها إلى رئيسة المجلس ورئاسة مجلس الوزراء وبعض النواب النساء في مجلس الشعب ورئاسة الجمهورية، وعلى نحو ملتزم بمعايير المراسلات الحكومية.

وقد غيرت من طريقة ارتدائها الثياب في هذه الأيام؛ فعندما ذهبت إلى حفل عمر خيرت لأول مرة في حياتها بدعوة لعضوات الإدارة بالمجلس، رأت فاتن حمامة عن قرب، وتحدثتا عن شؤون المرأة ووجود مناخ من التفاؤل العام بشأن وضعها في الزمن الجديد، والغيرة الحسنة بين سيدات المجتمع حتى يقدمن ما يناسبها، وكانت تتأمل أزياءها الملونة وابتسامتها المحسوبة وشعرها القصير الشهير، فقررت، فور عودتها، الذهاب إلى كوافير فادي بالزمالك، لتعد شعرها بالطريقة نفسها، وصرفت جزءًا محترمًا من مدخراتها على شراء أقمشة لتفصلها عند ترزي الهندي بوسط البلد، ورأت نفسها بعدها في ضوء جديد على أنها فاتن حمامة.

ظهرت بهذه الثياب في المجلس وخارجه بنفحة تجديد أثرت على عمرها فجعلتها أكثر شبابًا، ووضعتها في المكان الذي تريده، ووصلت أخبارها إلى سوزان مبارك نفسها، فأرسلت إليها خطاب شكر.

قرب المعاش، بدأت تفقد ثقتها في نفسها، وتفكر بحزن في سرعة الزمان، واجتاحها مجددًا إحساس قوي بأنها أضاعت حياتها دون أن تستمتع بالحب الكافي لها، حتى جاؤوا لها في عيد ميلادها الستين في شقة المبتديان في شهر يوليو، حين ارتفعت الحرارة إلى الحد الذي اضطُرَّت معه إلى تشغيل التكييف، الذي تملكه، طوال اليوم -رغم

فاتورة الكهرباء المرتفعة، وتشديدها على إطفاء الكهرباء صباحًا إلا من ضوء الأباجورات التي تعطي ألقًا خفيفًا في الصالة وتجعلها تظهر على هيئة بركة معتمة تطفو فوق شموس صغيرة- وتركيب تكييف جديد، بينما كانت رضا تردد: «من الواضح أن ربنا غضبان على الناس من أعمالهم السوداء.»

وكانت تقابل عيد ميلادها دون حماسة، حتى أقنعتها ألفت زين الدين بالاحتفال لأن بناتها يردن مجاملاتها كحماة رائعة، وكان حلمي ولطفي أول المشاركين في عيد الميلاد بهدايا معتبرة، بعضها كان طريفًا؛ إذ اشترى لها لطفي مرة هاتفًا لا سلكيًّا صغيرًا، وقال لها: «مريض عندي يعمل في شركة توردها إلى كبار رجال البلد، قلبه المجهد عامر بالإخلاص، فجلبها لي.» وذلك مع أن حلمي درويش كان يؤنبه على قبوله الهدايا من مرضاه لقاء أداء واجبه.

اعتادت أعياد الميلاد بعدها، وصارت تراها مناسبة لتأكيد مكانتها عند أبنائها وأحفادها، وكانت تولي اهتمامًا خاصًّا بأمينة حلمي، التي يؤكد الجميع أنها تشبهها، وكانت أكبر أحفادها مناصفة مع شادي لطفي، الذي بان الأكثر شبهًا بدرويش عبد الغني من كل الموجودين، مع أن ألفت زين الدين كانت تؤكد أنه يشبه المرحوم زوجها.

كانت تجهز لها قبلها بأيام، وتجلب حلويات من عبد الهادي القريب، وبعضها من جروبي الذي التزمت به رغم اختلاف مستواه عن الماضي، وبعض محال الحلوى الأخرى، ثم تشرف مع رضا على إعداد وجبات مناسبة للضيوف، من فضائل المائدة: فاصوليا خضراء، وبامية بلحم الضأن، وملوخية ناشفة -وكانت تحبها أكثر من الملوخية العادية الورقية- وكفتة داود باشا، وكفتة

أرز بالصلصة، وحساء خضروات، ولسان عصفور، وصينية بطاطس بالفرن، وبطاطس محشوة باللحم المفروم، وديوك رومي وبلدي، وكباب حلة. وكانت أمينة الرُّز تعد هذه المأكولات بيديها لتؤكد قدرتها على أداء كل الأمور كما كانت تفعل، والبيانو، الذي اشترته ووضعته في الصالة، كان أساسًا بسبب هوسها المؤقت بعمر خيرت وحفلاته مع فاتن حمامة، وقد لفت نظر در الشهوار وحددت سعره تقديريًّا عن طريق بعض معارفها، وسألت بمرح:

- من الذي اشترى لكِ هذه الهدية الفاخرة يا مونة؟

فقالت أمينة الرُّز بصرامة:

- أمينة وليس مونة. لا تناديني بهذا الاسم البلدي! وقد اشتريته أنا.

لم تقدم أسبابًا كافية لوجوده، واكتفت بجعله أمرًا واقعًا، حتى لفت انتباه سيف الدين نفعة ابن در الشهوار، فبدأ يلعب عليه مصدرًا أصواتًا مزعجة وغير مترابطة مثل أي طفل، ثم سيحقق نجاحًا عليه بعدها عندما يبدأ في تعلم الموسيقى تعليمًا منهجيًّا، في مدرسته، وحتى تخرجه في الجامعة؛ إذ كان يأتي أمينة الرُّز كل جمعة، يجلس معها ساعتين، يعزف لها من الألحان العالمية أو التقليدية التي تُذكِّرها بطفولتها البعيدة، وكانت تنصت بامتنان وتهز رأسها المكلل بالأبيض وتردد: «تمامًا كما كنت أسمع في طفولتي.» خالطة بين أمور حدثت وأمور لم تحدث قط.

جاءها الخبر الخاص بمد فترة خدمتها وهي في عيد الميلاد بيوليو الحار هذا، فتقبلته بهدوء، ثم أعلنت عنه فوق المائدة بدرامية، وقالت: «قرار سيادي يا أولاد بمد فترة خدمتي.»

ولكن ذلك لم يكن إلا إيذانًا بدخولها في مرحلة التعنت؛ إذ رأت مد

الخدمة في ضوء من الشفقة الرسمية، وهو ما لم تتجاوزه بسهولة. كانت تشترك مع حسين الرُّز في خوفهما العميق من المرض، ومن آثار السن، ولولا أن عمليات التجميل لم تكن قد تطورت وقتها كفاية لكانت جربتها وحقنت وجهها بما يكفي لإخفاء التجاعيد. فعلت ذلك لاحقًا وهي في السبعينيات، ولم تكن عملية ناجحة؛ إذ أعطتها شبابًا زائفًا لم يناسب روحها الساعية إلى الكمال، فعلقت حينها على ذلك: «نريد عمليات حقن للروح أيضًا؛ لأنها أول ما يكبر في الإنسان.»

عادت إلى المجلس على نحو احتفالي واضح: استقبلوها بكيك أعياد ميلاد، وشرائط ملونة، وأغنية «عقبالك يوم ميلادك»، وألقت خطبة عصماء تحدثت فيها عن ابتهاجها بالعودة وأمنيتها بالعمل الجاد المستمر، وتحدثت عن أمور ما زالت عالقة مثل قضايا الميراث والختان. وفي النهاية، شكرت القيادة الممثلة في زوجة الرئيس لأنها أعطتها هذه الفرصة.

في المساء، وهي تتلقى التهاني، كانت تتعامل مثل سيدة أعمال صغيرة؛ تجيب الهاتف بوقار واضح، وتضحك بحساب، وتفكر في كل كلمة قبل أن تقولها، وهي قلقة من هذا التكليف الجديد الذي يميزها عن الآخرين، وقد سببت لها هذه العودة بعض المشكلات؛ لأن شائعات سرت بعلاقاتها القوية بسوزان مبارك وبعض سيدات مجلس النواب، وأنها جلبت هدايا لزوجة الرئيس عبارة عن خاتم من العقيق العماني الغالي ولوحة لفنان شهير، وهي كلها شائعات بلا أساس، ولكنها أدت إلى تشددها مع موظفي المجلس، وقيامها بخطوة ترسخ مكانتها في المكان الذي ارتبطت به.

مع وجود حالات قتل منتشرة في المدينة، والشهيرة بأزواج

الأكياس، والتي كانت السيدات الغاضبات يقطعن أزواجهن فيها قطعًا كبيرة، ويضعونها في أكياس بلاستيكية، ثم يلقونها بأكثر من موضع، مثلما فعل سِت مع أوزير، أو فعل عكسي مضاد لما كانت إيزيس تفعله، قررت أمينة الرُّز عقد اجتماعات عدة توضح حالة المرأة المادية الصعبة، والتي تعتمد فيها على الرجل، وتضعها في أتون الاختبار؛ لأنه من الواجب عليها الرضا به كونه مصدر الثروة الوحيد، والعائل الأساسي، ولذلك؛ تقتله في النهاية عندما تنقطع بها السبل، فدشنت حملة اسمها «جعلوني مجرمًا»، على اسم الفيلم الشهير إياه، هدفها تحسين مستوى المرأة المادي والحقوقي حتى لا تصير قاتلة في النهاية.

كانت حملة ناجحة، استقطبت إليها كثيرًا من المهتمين، وكُتِب عنها في الصحف، وظهرت فيها أمينة الرُّز مصلحة اجتماعية حقيقية، تُظهِرها الصور بمظهر المهمومة حقًّا لعلاقة الرجل بالمرأة، ودُعِيَت إلى الحديث في مجلس الشعب عن مشروعات القوانين التي تقترحها لتنظيم العلاقة، وإعطاء فرص أكبر للمرأة في الحكومة والقطاع الخاص وفي المناصب الكبرى، وقالت وهي تشدد على كلماتها على نحو درامي كانت ترى النواب الأكثر إثارة للجدل يتمثلونه: «وأخي المرحوم المستشار الكبير حسن الرُّز، كانت له عبارة أحبها جدًّا: درء المعاصي خير من المعاقبة عليها.»

وقد صارت حينها دجاجة بكشك عند الأوساط الفنية والثقافية، فجالست مجموعات لا تنتهي من أعضاء نقابات ومجالس إدارة جامعات، وفنانات مهتمات بالأمر نفسه مثل يسرا وسميرة أحمد وتحية كاريوكا، التي وصفتها أنها من سيدات الماضي اللاتي تربين على الزبد البلدي، وجعلتهن أصيلات، وكان هذا كله إيذانًا بجعلها

في مكانــة أكــبر مــن أن تُقــال، وهــو مــا ســعت مــن أجلــه في البدايــة؛ فالحقيقــة أن اســتماتة أمينــة الــرُّز في دفاعهــا هــذا عــن حقــوق المــرأة لم تــأتِ إلا مــن صراعهــا الأزلي مــع رجــال حياتهــا، وخوفهــا العميــق مــن النســيان.

قبيــل الســتين وبعدهــا، بــدأت عيناهــا تلتقطــان مظاهــر الحــزن الكامــن عــلى مــن يخرجــون عــلى المعــاش، والحفــلات الكئيبــة التــي تُعقَــد لهــم بالحاجــة الســاقعة والجاتــوه، مــع خطبــة عصــماء، كانــت أمينــة الــرُّز تعدُّهــا تأبينًــا لمــن تنتهــي خدمتــه، وتســلمه إلى المــرض والمــوت، وبعدهــا بشــهرين، كــما حــددت بدقــة، يُنســى الشــخص تمامًــا كأنــه لم يكــن، ولا يُذكَــر إلا لمامًــا عــن طريــق المخلصــين أو ذوي الذاكــرة الجيــدة، ولا يُفتقَــد مطلقًــا، وهــو مــا يعــاني منــه مَــن تنتهــي خدمتــه؛ لأنــه يظــل يتذكــر يوميًّــا كل مــا كان يجــري بدافــع الحنــين، مصفــى مــن كل المشــكلات والســلبيات.

أهَّلهــا مــد فــترة الخدمــة إلى تتبــع مــن خرجــن معهــا ولم يعــدن بقــرار اســتثنائي، وشــاهدت كيــف أن أحاديثهــن الطبيعيــة يوميًّــا لا تتجــاوز الحديــث عــن الأسرة والأبنــاء المنشــغلين، وهــو مــا لم تحبــه، فقــررت عــلى أبنائهــا أن تقتصــر الزيــارات لهــا عــلى الجُمَــع فقــط، ولم تعــطِ ســببًا واضحًــا إلا للحفــاظ عــلى تناغــم الشــقة، وروضــت نفســها في الوحــدة التــي فرضتهــا عــلى نفســها لتثبــت أنهــا يمكــن أن تحيــا في عزلــة بعــد توقــف الخدمــة القــادم لا محالــة، وقدمــت لعمــل ماجســتير عــن دور المــرأة في المجتمــع المــدني، بمســاعدة در الشــهوار، التــي فُوجِئــت بالقــرار، ولم تمنــع نفســها مــن الشــعور بالغــيرة مــن إصرار أمينــة الــرُّز المشــهود.

كانــت قــد فُوجِئــت بصعوبــة الموازنة بين حيــاة الجامعــة اليوميــة الطويلة وســيف الديــن، الــذي نشــأ ميــالًا إلى الوحــدة والعزلــة بــلا ســبب، حتــى

صُنِّف بعدها بوقت طويل بأنه على حافة مرض التوحد. لم يكن يهنأ إلا بجلوسه في الغرفة طوال اليوم، يقرأ القصص ويشاهد أفلام الكارتون، ويتابع البرامج الموسيقية التي تقررها در الشهوار يوميًّا لتجعل الشقة شبيهة ببيوت أحلامها الخشبية في بلاد ثلجية ليل نهار، تضج بالموسيقى، وأظهر ميلًا خاصًّا إلى أغاني أم كلثوم؛ إذ استطاع تحديد بعض أنواع الموسيقى في الأغنية، فكان ينصت إلى الأغنية ويسأل عن نغمة معينة، ليُفاجَأ مصطفى نفعة أنه يميز الجيتار مثلًا أو الأكورديون، فيردد ساخرًا: «له أذن فنية.»

لم ترتَح در الشهوار إلى انطوائه هذا، فجادلت مصطفى نفعة أكثر من مرة بشأن رغبتها في إخراجه إلى الحياة، وإلحاقه برياضات قتالية تخلق فيه روح التنافس، فكان يكتفي بالتأكيد على أن طباعه عادية في سنه، ويأخذه معه إلى المشفى ليعوده على المشاهد الطبية، وهو يفكر في جمال فكرة أن يشب طبيبًا مثله.

انتصرت در الشهوار في النهاية، فألحقاه بفريق التايكوندو، فكان يجلس طوال التدريب شاعرًا بالحرج، ويراقب ما يجري بفضول مع شيء من الخوف، حتى يقوم عندما يصرخ فيه الكابتن، ويحاول اللعب وهو يعتذر لمنافسه من أي ضربة، مثيرًا للسخرية الخفيفة، وظل على حاله هذه حتى سمع ذات يوم أغنية لعمرو دياب تنبعث من حفل قريب، فسار خلفها، ووقفت خلف السور يتابع الحفل ويحفظ الأغنية حتى رددها بنجاح في نهاية اليوم داخل البيت، وذكرها ككلمات تعلمها عندما سألته در الشهوار عما تعلمه في النادي، فقال بثقة: «راجعين، نعشق وندوب ونعيش مع بعض حياتنا.» أو يردد بهوس، في أعوام لاحقة، في لازمة صاحبته حتى المراهقة، الأغنية التي سيظل يسمعها لاحقًا في أكثر لحظات شبابه

سـوادًا؛ ليشـعر أنـه يحلـق بجناحـي سـعادة مقدسـة فـوق أرض طفولتـه الفسـيحة الخـضراء، مـن ألبـوم «قلبـي وروحـي وعمـري» الشـهير لمحمـد فـؤاد: «يـا عينيـك، يـا كلامـك، اختـار لـك سـحر مـن الاتنـين يـا عينيـك يـا كلامـك.»



يوم

١٥

أخــذت در الشــهوار ســيف الديــن إلى طبيــب نفــسي تعرفــه مــن الجامعــة، في زيــارة سريــة، لم يعــرف بهــا مصطفــى نفعــة؛ لأنهــا تــدرك أنــه ســيقلل مــن شــأن مــا يجــري، ولكــن هوســها الاســتثنائي باتبــاع التفكــير العلمــي في حياتهــا الخاصــة، وشــعورها الخفــي بالتفــوق عــلى الآخريــن، كان يجعلهــا تحــاول اتبــاع أســاليب التفكــير العلمــي كــما تعلمتهــا مــن الدكتــور فــؤاد زكريــا، الــذي كان في زيــارة للجامعــة. كان مــن أســاتذة الزمــن الجميــل، وتــرك البــلاد في زمــن عبــد النــاصر عندمــا شــعر بالضغــط العــام المفــروض عليــه للقبــول بأوضــاع سياســية واجتماعيــة مشــوهة، وكان يــرى أن الســلطة المصريــة لا تتبــع أســلوب التفكــير العلمــي التراكمــي، وإنــما التفكــير العاطفــي الشــخصي، الخاضــع لتفضيــلات الرئيــس وحــده، مــا يجعــل البــلاد تظهــر بصــورة شــبه ملكيــة لكــن مــع حكــم عســكري وأمنــي بالأســاس، وقــد هاجــر إلى الكويــت الناشــئة حينهــا، وأســهم في تكويــن جامعاتهــا، وبــدأ نجمــه يلمــع بصفتــه مُنظِّــرًا دائــمًا لاســتخدام التفكــير العلمــي أســلوب حيــاة؛ إذ كان يــردد بــين الحــين والآخــر: «ليــس قــاصرًا عــلى المعامــل كــما يفكــر أفندينــا.»

أخضعــه الطبيــب النفــسي لاختبــارات خفيفــة، وعامله معاملــة الصديق الكبــير، وبعــد جلســات ســهلة عــدة، قــال لــدر الشــهوار: «ذكاؤه فــوق المتوســط، ولكنــه شــبه متوحــد. اتركــوه يــمارس هوايــات وأعــمالًا فرديــة وســيصير ألفــا.»

ولم تجــد در الشــهوار خــيرًا مــن إلحاقــه بمدرســة مســائية في الأوبــرا لتعليمــه الموســيقى، وقالــت لمصطفــى نفعــة، الــذي لم يستسِــغ القــرار، وذكــر أنــه مؤمــن بحريــة الاختيــارات ولكنــه يؤمــن إيمانًــا أصيــلًا أن الأطفــال عجينــة طريــة، يمكــن تشــكيلها بســهولة، إن ذلــك دعامــة جانبيــة لتشــجيعه عــلى الاســتذكار وتكويــن الصداقــات.

كان هـذا إيذانًـا بفتـح بـاب رسـمي لهوسـه، فأظهـر تألقًـا حقيقيًّـا في اللعـب عـلى آلـة الأكورديـون تحديـدًا، دونًـا عـن بقيـة الآلات، وجذبتـه وهــو يسـتمع لـدروس البيانـو، التـي أتقنهـا بسـهولة، فصـار يعـزف «قضيـة عـم أحمـد» و«ضمـير أبلـة حكمـت» لعمـر خـيرت، و«قارئـة الفنجـان» لعبـد الحليـم، و«إن شـا الله مـا أعدمـك» لمحمـد قنديـل بكفاءة كافيـة للفـت الانتبـاه. وفي يـوم، عندمـا سـمع مقدمـة «يـا مسـهرني»، حـدد صـوت الأكورديـون منبعًـا لاهتمامـه، وألـح عـلى أسـتاذه لتعلمـه، فأخـبره – بذهـول مـن تصميـم هـذا الرجـل المسـخوط: «نأخـذ نبـذة عـن كل شيء وبعـد ذلـك تتخصـص.»

خـلال عامـين، أتقـن البيانـو ومعـه الأكورديـون، ثـم جذبـه الأورج عندمـا حـدد وقعـه في بدايـات «قارئـة الفنجـان»، فخاضـه بمـزاج طيب، حتـى أخـبر معلمـوه در الشـهوار عـن تفـرده في الموسـيقى، وقالـوا لهـا بالحـرف الواحـد ودون اتفـاق بينهـم: «يعنـي ممكـن يكـون بليـغ أو عبـد الوهـاب أو عمـر خـيرت.»

لم تخـبر مصطفـى نفعـة بأمـر الموسـيقى هـذا سريعًـا، كتمتـه حتـى تحـين اللحظـة الحاسـمة، ولكنهـا تعاملـت بـذكاء، فكانـت تربـط اسـتمرار سـيف الديـن في تعلـم الموسـيقى بتفوقـه الـدراسي. عندمـا وُلِـد، أعلنـت سـعادة جنونيـة واضحـة، وجلبـت بلالـين هوائيـة وزينـة ومصابيـح كهربـاء صغـيرة، وكسـت بهـا الشرفـة مـن الخـارج؛ حتـى يراهـا جـيران الحـي الهـادئ، وجـاءت فرقـة موسـيقية حديثـة نشـأت في جـراج بالمعـادي، لغنـاء فضائـل الأغنيـة الغربيـة وبعـض الأغـاني العربيـة المتغربـة، وعزمـت عائلتهـا وأفـراد عائلـة نفعـة الذيـن مـا زالـوا يحيـون في البـلاد، وكان سـبوعًا مشـهودًا، حاولـت فيـه الظهـور بظرافتهـا المعهـودة وخصالهـا الطبيعيـة في التـودد والخفـة، ولكنهـا كانـت تخفـي بذلـك خوفهـا مـن فكـرة الميـلاد نفسـها؛ فدخولهـا إلى مرحلـة الأمومـة هـذه كفيـل بـأن تـأكل كثـيرًا مـن وقتهـا الـذي سـيتبقى لهـا لإكمال مشروعاتها

الخاصة وبحثها الواسع الكبير بشأن الصور والإعلانات واللافتات والمدينة، وظهر ذلك في اكتئاب أسود أُصيبت به في الشهرين اللذين أعقبا الميلاد نفسه، أفرطت فيهما في شرب السجائر، وهيَّأتها طبيعتها، التي تضخم الأمور أحيانًا، إلى رؤية نفسها في سجن، ولم يساعدها على المرور بتلك الأزمة الطارئة إلا عندما قررت تدوينها في كتاب صغير، تتحدث فيه عن الأمومة الصعبة والواجب والحياة.

وعند ذلك، كانت تنظر بتعجب وإعجاب إلى تجربة أمينة الرُّز، وتحاول تذكر الخلطة السحرية التي كانت تعتمدها حتى تستطيع تربيتها وأخويها، خاصة بعد زواج أبيها براجية السيد، ولذلك؛ عدَّت نجاحها في تربية سيف الدين تحديًا شخصيًّا، ومعه، كانت تمعن في الاهتمام بمظهرها وقوامها الرياضي، وتحاول الظهور بمظهر الأم الرائقة المزاج، ولكن مصطفى نفعة وحده من لمس عصبيتها الزائدة عندما يقل مجموع سيف الدين عن المتوقع أحيانًا، أو عندما يخبرها عن رغبته في تربيته بأمريكا حيث الفرص متاحة والتعليم ناجح، فكانت تردد: «وُلِدنا وتربينا في السيدة، وها أنا أمامك أُدرِّس في الجامعة الأمريكية لأمريكان.»

لم تكن فروع عائلة نفعة المتبقية في المدينة مرحبة بالزيارات المشتركة، ووجود أواصر تقارب، وكان مصطفى نفعة نفسه منشغلًا في المشفى بعمليات جراحة المخ والأعصاب التي لا تنتهي، ولا يرى سيف الدين إلا عندما يعود بعد يومين، جالبًا معه لعبًا وكتيبات ومجلات كارتون، ولذلك؛ أخذته در الشهوار إلى أمينة الرُّز كل جُمَع الزيارات، وكانت تتركه مع رضا في أيام الإجازات أحيانًا، وكانت أمينة الرُّز تقابل ذلك بترحيب منقوص؛ لأنها لم تكن تريد أن تلعب دور الجدة التي تربي الأحفاد بعد هذا العمر الطويل.

ما أثر في سيف الدين أكثر هو زياراته لحسين الرُّز في شقة

عابدين، خاصة بعد وفاة لمبة بطاح؛ فقد لمس الجد الطيب الذي لم يجده في ناحية نفعة؛ إذ كان يقابله في الأعياد عندما يعود من أمريكا، أحمر الوجه وتشع منه رائحة نظافة، يحتضنه ويُقبِّله بلا شعور محدد، بينما كانت لحسين الرُّز طريقة خاصة في الاستقبال تفوح برائحة ليمون خفيفة، وعرق جاف من فوائض الشيخوخة، يجلسه معه في الشرفة، ويمسك بكتاب «ألف ليلة وليلة»، فيختار الحكايات التي يمكن أن تؤثر في سيف الدين، دون الخوض في الحكايات الجنسية، فيعلمه الفارق بين الخائن والمخلص، وطبيعة المرأة المتقلبة، ويقول ذلك وهو يؤكد: «لا تقل لماما درة.»

ثم يفصل له طبائع الرجال والفقر والغنى، والجني الطيب والجني الشرير، ويقرب له الصورة فيقول إن العفاريت ليست عفاريت بالمعنى الحرفي للكلمة، وإنما هي إشارة لوجود أشخاص طيبين وأشرار في حياتنا، لا يفعلون شيئًا سوى فعل طيب أو شرير، مثل الجان بالضبط، وذكر له درية عز الدين ولمبة بطاح كجنيات طيبات أحطن حياته، وبعض الأمثلة عن الجنيات الشريرات، وهي كلها قصص كان سيف الدين يستمع لها بإنصات شديد، فربت عنده فضيلة القراءة والاطلاع، حتى أخذته در الشهوار إلى مكتبة الجامعة الأمريكية معها ليطالع الكتب، وكانت تشير إلى المباني المصممة بالنظام الأندلسي وتقول: «تذكر جيدًا؛ ستكبر وتدرس هنا.»

فكانت تتركه في أوقات عطلته صباحًا، فيقرأ فضائل الأدب الإنجليزي، ويبدأ في رسم أوصاف لشخصيات شكسبير وديكنز، ثم يتجاوزها إلى الأدب الروسي المترجم، ويتناول القصص المصورة، وهو ما أثر على دروس الأكورديون قليلًا، رغم حبه لها، وبدأ يُظهِر نجاحًا واضحًا في التحصيل الدراسي خاصة في المواد التي تحتاج إلى قراءة.

كان يخشى أمينة الرُّز كثيرًا؛ فعندما كانوا يزورونها ذات مرة، جلس إلى البيانو وبدأ عزف سونيتة لموتسارت، وأجبر الجميع على الصمت والاستماع، وكانت أمينة الرُّز تستمع بلا انفعالات واضحة، ثم صفقت بشدة، فاحمر وجهه وابتسم بهدوء، وعندما دخل المطبخ بعدها ليتناول بودرة عصير البرتقال تانج بالملعقة، كما كان يحب، رأته أمينة الرُّز، فقالت بجدية: «لا يجوز لفنان مثلك التصرف مثل الشحاذين.» كانت تلك الجملة إيذانًا بوضعها عنده في موضع الصورة الصارمة للجدة، على عكس حسين الرُّز الذي كان يجلب له رقائق البطاطس ويقول له وهو يملأ طبقه: «أحسن من شيبسي.»

والحقيقة أن تأثير حسين الرُّز على سيف الدين ظهر سريعًا في رغبته الجديدة في السير بالشوارع ومصاحبة الناس والمزاح واللعب مع أبناء البوابين، مع احتفاظه بعزلته التي وُلِد بها، فيعود آخر الليل إلى غرفته، أو ينقطع فجأة عن العالم الذي يشارك فيه بجدية، فيعتذر ويعود إلى بيته، أو إلى عزلة يمشي لها في شوارع مصر الجديدة، رغم حداثة سنه. لم يكن يمشي أبعد من شارعين عن البيت، يتأمل ميدان تريومف والمقاهي الساهرة، ويحاول سبر أغوار قصص تمر أمام عينيه لا يعرف عنها شيئًا، ولذلك؛ عُولِج التوحد بالمصادفة، وعندما لاحظ مصطفى نفعة الفارق الكبير، سأل عن حقيقة العلاج بالموسيقى، فقالت در الشهوار بسخرية: «لا، العلاج بالشيبسي وبقصص خالو حسين.» وكان مصطفى نفعة، بوقاره المعهود وعدم اهتمامه بالتفاصيل إلا لو استُدعِيَ إليها، يهز رأسه، ويقول: «ربنا يطوِّل في عمره.»

ولكن، مع غرابة سيف الدين، واختلافه عن أبناء خاليه، بدأ مصطفى نفعة يقلق مما يطلع عليه، فأخذه معه إلى المشفى ذات يوم.

وهناك، بعد مقدمة طويلة من وجبة لماكدونالدز وعرض حاول جعله شائقًا لعمله في المشفى، سأله عما يحكيه له جدو حسين، فقال سيف الدين بثقة: «لا شيء، يقرأ لي ألف ليلة وليلة ويعرض عليَّ مقتنيات شقته.»

إجابته المحسوبة هذه جعلته يربي خصلة جديدة، وهي الكذب في الأوقات التي تحتاج إلى ذلك؛ لأنه فطن أن أي إجابة أخرى ستمنعه من زيارة حسين الرُّز؛ فمع تحذيراته التي لا تنقطع، وتأكيده ألا يخبر در الشهوار ولا مصطفى نفعة بما يتحدثا فيه، احتفظ بالقدرة على الصمت والكذب أحيانًا، وهو ما سيستخدمه بعدها في أزمنة محنته.

بعد وفاة لمبة بطاح، تخبط حسين الرُّز في الحزن لشهرين وهو لا يعرف أنه حزين. تعامل مع الموقف كله بصبر غريب، وأشرف على إجراءات المشفى بهدوء، ولكنه ارتبك قليلًا عندما اضطُرَّ إلى البحث عن مقبرة للمبة بطاح، مع معرفته برفض أمينة الرُّز للاقتراح، فاضطُرَّ إلى أخذ مقبرة ناحية مدينة نصر، عند مناطق سكنية أُقيمت حديثًا، وكان سعرها قليلًا بالمقارنة بمقابر الغفير المكتظة، التي فيها مقبرتهم، وقد علق على ذلك بقوله: «لم تشأ درية أن تجاور ضرتها، كانت طيبة ومن فمها إلى السماء.»

حاول بهذا تخفيف حقيقة أنه مرفوض في مقبرة عائلته، ولم يشعر بالجرأة الكافية ولا القدرة المناسبة ليشكو إلى در الشهوار من ذلك. وعُقِدت الجنازة سريعًا بعد إعلان في مسجد السيدة زينب، وحضرها زملاؤهم في السوق من أصحاب المطاعم والمخابز، والزبائن المخضرمون. وبعد انتهاء الجنازة عند المقبرة التي لم تُسمَّ بعد، ولم تُوضَع عليها رخامة، لم يستطع حسين الرُّز التفكير في أنها

مثواه الأخير، فغادر سريعًا وهو يتعجب من فكرة أن الإنسان يمكن أن يشتري مقبرته بنفسه، مع أنه أكثر شيء يشتريه يدل أنه لا أهمية لشراء شيء بالأساس.

عاد إلى الشقة، ووجدها لا تزال تحمل رائحة لمبة بطاح في كل ركن، وكل معالم حياتهما معًا: كوب تقييم الأرز الذي كانت تتمسك به بعناد حتى لا يطبخوا أرزًا لأسرة كبيرة ويُلقى بالقمامة، جلابيبها المنزلية المعلقة خلف باب غرفة النوم وتصعب من فتحه على مصراعيه، المطبخ المنظم بعناية، الذي كانت تقضي فيه أغلب أوقاتها الصعبة، وتعدُّه نعمة بالمقارنة بمطبخ بيتهم القديم الخالي من البوتاجاز والثلاجة وبقية فضائل الحضارة الحديثة، نعالها المنزلية الخضراء والبيضاء الزنوبة التي كانت ترفض أن تسميها بهذا الاسم؛ لأنه سخرية من اسم حفيدة حضرة النبي السيدة زينب، وتقول عليه في أوقات الرضاء حذاء لمبوبة، وفي أوقات الحذاء الرُّز؛ خجلًا من أن تقرن اسم حسين لأنه ينتمي إلى سيدنا الحسين وليس ملكًا لحسين الرُّز.

وقد حاصرته هذه الأشياء بقسوة، فاستخرج من بينها جوهرة بيضاء لامعة، تؤكد أنه كان يحب لمبة بطاح حبًّا كبيرًا، يختلف عن حبه لدرية عز الدين، ولم يحدده إلا بعد أيام عندما انتبه إلى اضطرابه الطفولي، وفشله في أداء أبسط الأمور في البيت والمطعم مع أنه كان يؤديها في الفترة التي أعقبت وفاة درية عز الدين في الخمسينيات؛ فالموت عند الشباب غيره عند الشيوخ. ومع ضعف نظره البادي، الذي سبَّبه جفاف مزمن بالعين، لم يستطع أحيانًا تحديد موقع بعض الأشياء، ليشعر بيأس شامل ويقف على أبعاد وفاتها، ويبكي عليها بخفوت وهو في الشرفة، يتأمل الميدان الذي ظل خاليًا طوال عقود إلى حد نسبي، كأنه يُخلي الشوارع أمامه احتفاظًا بسمعته القديمة

ودوره الكبير. كان يهدئ نفسه بقراءاته المتجددة لكتاب الكتب، ويتخيل نفسه في قصر عابدين، يحرك الأمور والجواري بيديه، ثم ينتبه أنه لم يتناول طعامه، فينهض ويُعِدُّ أي شيء من الذاكرة، حتى بدأت الشقة تقع في ظلام الإهمال، ليردد في لحظة كشفية قوية: «يحب الرجل مرتين؛ مرة امرأة تشبه أمه، ومرة امرأة تشبه نفسها، وهنيئًا له من يحب امرأة تملك الصفتين.»

كان حبه للمبة بطاح حبًّا يعوض نقص حنان الأم التي ماتت منذ زمن الزمن، ونسي ملامحها في غبش الذاكرة، ولم يكن هذا يشبه حبه لدرية عز الدين الذي يعده الحب الحقيقي، بينما حبه لشيماء شعبان أو غيرها -كما فهم من «ألف ليلة وليلة»- هو حب الحياة نفسها، الذي يجدد الدم ويحفظ الشباب، وهو حب لأوجه النعمة التي وضعها الله في الدنيا، من اختلاف في الأشكال والأذواق والتوجهات. كانت نظرة تقدمية، كسا بها إحساسه بالذنب تجاه لمبة بطاح، وحنينه إلى أيامهما القديمة معًا، عندما كانا شابين يذرعان وسط البلد ذهابًا وإيابًا.

لم يغص في وحل الحزن كثيرًا بعدما بدأ يشعر باعتلال يعلو جسده كله. استعاد خوفه من المرض والموت، فطلب خادمة من در الشهوار، تثق بها، تقلب الشقة رأسًا على عقب بعدما صارت محطًّا للظلام ولكائنات غريبة، فجاءته امرأة مجدة اسمها أم شريف، مسيحية من المنيا بالأساس، كانت تنظف شقة در الشهوار في مصر الجديدة منذ سنوات، وأثبتت جدارتها بمرورها من الاختبارات الطبيعية التي عملتها در الشهوار، كما تعلمت من أمينة الرُّز، بوضع قطع من ذهبها أو أشياء ثمينة في طريق السيدة الطيبة، فكانت ترى القطع هذه فتمسكها وتمسح عليها وتتلو صلاة بخفوت، ثم تضعها فوق طاولة المزهرية في الصالة.

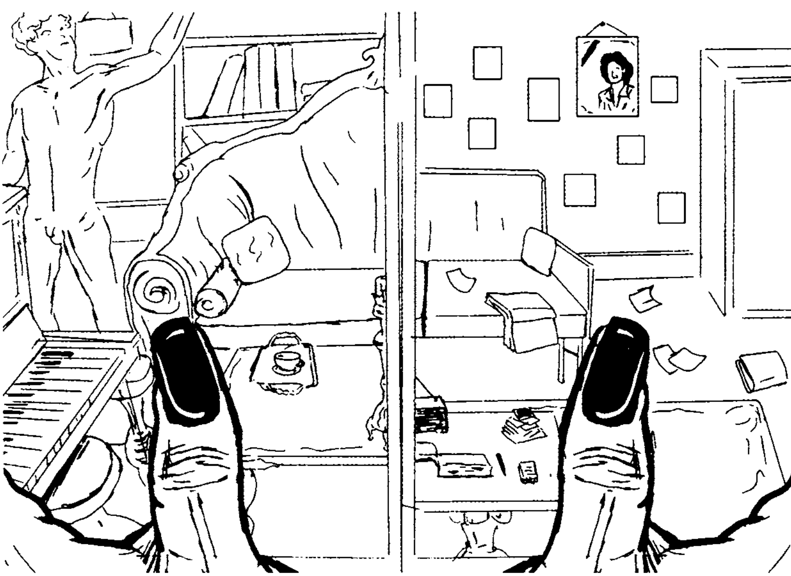
جددت أم شريف روح الشقة، وغيرت في بعض المواضع، مع القبول الكامل من حسين الرُّز، فطلب منها أن تأتيه أسبوعيًّا، وتُعِدَّ له الطعام كخدمة إضافية ولها حلاوة. وقد ساعدته عودة الشقة إلى مظهرها القديم، مع تشكيلات مختلفة لوضع العفش، في عودة إحساسه بعالمه، فنزل إلى المطعم من جديد، بعد إغلاقه لفترة الحداد، واستقبل التعازي بوجه صلب، وراقب الزبائن واختلافهم بعين كاشفة، ثم قرر إضافة قدرة فول إلى جانب طاسة الطعمية الكبيرة؛ لأنه وجد الناس يسألون عن وجودها، ولكنه احتفظ بتكريس المطعم بالداخل للبطاطس الشيبس. ومع الوقت، وضع طاولات صغيرة بالخارج؛ لأن بعض الزبائن الأثرياء كانوا يأتون بعربات فخمة، منذ زمن «حكاوي القهاوي»، ويريدون تناول الطعام جالسين، وليس وقوفًا إلى الطاولات الطويلة التي جعلها الزمن تحفة تاريخية، وقد فعل ذلك بالاتفاق مع المجلس المحلي ودفع بعض الرشاوى اللازمة.

كان يومه بالكامل يمر في المطعم، ولا يفعل ذلك بالأساس من أجل المكسب ولا الحفاظ على السمعة التي أقامها خلال عقود؛ وإنما لأنه قرأ من قبل أن انشغال الشيوخ صحة، ورغم شوقه إلى لمبة بطاح، وشعوره بالإشفاق الشديد عليها أحيانًا بما يفوق الاحتمال، كانت صابرين سلطان تهف عليه مثل ريح عصاري بيوم حار، فيتأمل قصتهما، ويؤكد لنفسه أنهما لو نجحا لما شعر بالوحدة بهذه الطريقة.

في هذه الأثناء، بدأت لديه العادة الخاصة في ارتياد أسواق العاديات والمستعملات، خاصة في سوق الجمعة بالسيدة عائشة، وقد جاء ذلك بسبب خوفه المفاجئ من نسيانه بعض ذكرياته الخاصة، وعدم احتفاظه بصور تلائم ما يردده على معارفه في مقهى الماوردي أو بجلسات الحشيشة الخفيفة في مقاهي ظل معروفة بالاسم

بالسيدة، أو في جلسات المولد الساهرة، وخاصة قصته عن شقة المبتديان التي لا يصدقها أحد، وأن أمينة الرُّز، بسمعتها الحكومية اللامعة، أخته، وحسن الرُّز، المستشار الكبير في أزمنة بعيدة، أخوه، ولم يكن أحد يصدقه خاصة مع ابتعادهم عن تفاصيل أزمنته، أو بحكم البعد عن دائرة الحدث، ولذلك؛ قرر في فورة قلق حميدة أن يبحث عن صوره الخاصة التي تؤكد قصصه.

بحث في صندوق كبير كانت درية عز الدين تضعه فوق دولاب غرفة النوم، ولم تقترب منه لمبة بطاح قط، التي اكتشف أن صورها قليلة جدًّا إلى الحد الذي ستُنسى معه خلال وقت قليل، فوجد صورة واحدة لهما وقت حضور مناسبة لا يتذكرها، وصورة لدرية عز الدين، مغلفة بورق كارتون وجريدة صارت تاريخًا الآن، وصورة لرمضان حسن الرُّز الصغير بعويناته وملابس القضاة التي ارتداها فترة حياته القصيرة، لا يعرف كيف وصلت إليه، وصورة لحسن الرُّز نفسه بجوار قضاة عدة، وصورة لأمينة الرُّز، تُظهِرها بمظهر



أميرة من زمن ماضٍ، تضحك بحرية على غير عادتها، وتعجب لأن الصورة من أزمنة فراقهما حتمًا.

بحث في أنحاء الشقة كلها عن بقية الصور، فوجد صورة له وهو في تركيا، يمارس عمل الباعة، فشعر بالغضب لأن الصورة كانت موضوعة داخل نسخه التي لا تنتهي من «ألف ليلة وليلة»، ولعله لم يكن ليجدها لو لم يفتح النسخة، ولذلك؛ سأل عن أماكن بيع الصور، حتى يشتريها ويضعها عنده دليلًا حيًّا على صدق ما مر به في حياة عريضة وغريبة. كان يخرج كل جمعة بتصميم قائد عسكري، يبحث عن صورة تائهة من مجموعته الضخمة التي لا يعرف يقينًا إن كان لها وجود، ويفاصل الباعة في السعر، ثم يعود بغلَّته يومها وينظمها بطريقة جامع تحف. وجدته در الشهوار على حاله هذه ذات يوم، وهو جالس فوق تلة من صور قديمة لمجهولين، وصور أكثر تمثل قطاعات من شوارع وأزقة وبيوت تشبه أماكن حياته، فقالت:

- واضح أنك تريد مزاحمتي في شغلي يا خالو.

فقال بهدوء:

- بل أبحث عن نفسي.

كان يرتدي أحيانًا جلبابًا عاديًّا، وذلك لأول مرة في حياته؛ لأنه يحب ارتداء الأقمصة والبناطيل، ويظهر في سوق الجمعة بعوينات سوداء مثل رجل غامض ومهم، يبحث عن صور السيدة زينب والمبتديان وإسطنبول في السبعينيات، ويجلس على كرسي خشبي يشرف على حقيبة مليئة بالصور بألق معلمين كبار. وصار الباعة يعرفون المعلم حسين بظهوره المتكرر وقصصه عن الحريم، ولم يكن يحكي عن مطعمه حتى يتقي موجة أسئلة متوقعة. ساعدته

در الشـهوار في تنظيـم صـوره هـذه، وكتابـة عناويـن لهـا، وكان يتجـاوز الواقـع أحيانًـا بتأكيـد أنـه رأى الأماكـن الواضحـة في الصـور أو صورهـا بنفسـه، حتـى صـارت عنـده مجموعـات لا تنتهـي مـن الصـور، خلـق بهـا تاريخًـا بديـلًا لمـا تمنـى أن يعشـه.

امتـلأت الشـقة بالصـور، وبـدأ يعلقهـا في كل مـكان، مـع «كتـب ألـف ليلـة وليلـة» التـي كان يعثـر عـلى نسـخ مختلفـة منهـا في السـوق، عليهـا إمضـاءات أجانـب عاشـوا في البـلاد منـذ زمـن الزمـن، وكتبـوا شروحـات عـن بعـض قصصهـا المكتوبـة بالإنجليزيـة مـع القطعـة العربيـة التـي تُرجِمـت، وكان يقـارن بـين كل النسـخ ونسـخته الأصليـة التـي أكـد الأسـتاذ حلمـي طايـع أنهـا الأصـح والأقـدم، فيجـد اختلافـات عـدة تؤكـد نظريتـه أنهـا موسـوعة لا تنتهـي وتُضـاف إليهـا قصـص عـدة وتُحـذَف منهـا.

مـع بعـض تفسـيراته الأكثـر جنونًـا، اكتشـف بحسـبة معقـدة أنـه مرهـون للحـب؛ يحبـه الجميـع ولكنـه لا يسـتطيع حـب أحـد بعينـه: كان في كل فـترات حياتـه لا يحـب سـوى شـخص واحـد فقـط؛ نفسـه، وكان في أثنـاء ذلـك يحـب صورتـه المنعكسـة في صفحـة وجـه مـن تحبـه، دريـة عـز الديـن مثـلًا، التـي وضعهـا في مصـاف الأسـاطير، وحسَّـن مـن حياتهـما معًـا. لم يكـن يحبهـا أكثـر مـن حبـه لطريقتهـا في رؤيتـه والانبهـار بـه، وبيديـه الخشـنتين اللتـان تمرنتـا جيـدًا عـلى عمـل البطاطـس، وأيضًـا لمبـة بطـاح، عندمـا مـرت أمامـه عاريـة في صالـة الحلـم قديـمًا، وفكـر أنهـا فعلـت ذلـك تحديـدًا حتـى تغويـه، وصابريـن سـلطان، عندمـا ردت إليـه الـروح بحـب شـباب مفاجـئ وطـازج، وحدهـا شـيماء شـعبان مـن أحرقتـه لأنهـا كانـت مـع غـيره، ولذلـك؛ كرههـا أكثـر مـن أي شيء بالعـالم.

كانـت نظـرة فتـاة الحـمام الخشـبي القديمـة، التـي لم ينـسَ وجههـا أبـدًا

ولا الشامة الكبيرة أسفل ثديها الأيمن، هي النظرة المؤسسة لكل شيء فعله في حياته، فمن أجل الحصول على الحب وعلى نظرة مثل هذه؛ صار كما هو، بينما ظل عصيًّا على الحب نفسه، ولا يخوض فيه إلى الحد الذي يغرقه، ولذلك؛ عاش بعد درية عز الدين، وبعد لمبة بطاح، وشيماء شعبان، ولا يزال يعيش، مهتمًّا بنفسه ويحبها رغم كل شيء.

كان اكتشافًا خرائيًّا لا لزوم له سوى محاسبة النفس، ولم يمنعه مما يفعله، فازداد اهتمامًا بالمطعم، ولُوحِظت طريقته العصبية الخفيفة في مواجهة بعض الأمور الطارئة، خاصة مع رائحة الفول التي صارت تميز المطعم أكثر من رائحة البطاطس المقلية، فكان يعدل القدرة بيديه بين الحين والآخر، ويبعد نفثاتها الساخنة عن مكان المطعم، لتصير إلى الشارع، ويتابع عمل صبي الطعمية فتوح الذي كبر ولم يعد صبيًّا وصار يشرف على صبية جدد، جلبهم إلى المطعم للمساعدة، مع الوجود المبارك لعتريس الذي لم يعد يُرى تقريبًا، ولكنه ما زال يعمل بإخلاص واجتهاد، ويبكي أحيانًا على الست لمبة بطاح، وقد أعفاه حسين الرُّز من العمل أكثر من مرة، ولكنه كان يردد بثقة: «أقمت هذا المطعم على يدي يا عم حسين، وسأظل فيه حتى أموت.»

وقد مات بالفعل بعدها عام ٩٧، عندما أُصيب بنزلة برد حادة بلا مقدمات، وترك غيابه فراغًا كبيرًا لا يُعوَّض في المطعم، واحتفظ حسين الرُّز بصورة كبيرة له، كتب تحتها بدافع الامتنان، بجوار صورة حمادة وهو يرتدي جلبابًا في الثمانينيات: «إلى عتريس وحمادة عاملي درية والرُّز الأكثر إخلاصًا.» ووضع مبلغًا محترمًا تحت تصرف بناته الثلاث، كما فعل مع ابني حمادة وقت وفاته.

لم تكن مالياته بأحسن منها في أزمنة لمبة بطاح، ولكن فائض

الدخل عليه وحده ساعده في تحويل شقته إلى متحف صغير، والتمتع بفضيلة الصرف بلا خوف. فتح حسابًا في البريد، وآخر في البنك الأهلي، وربط به شهادة ذات عائد شهري يُؤمِّن له مغامراته هذه، ولكن أكثر ما ضايقه هو خوفه المتأخر من ظهور شخص يطالب بشقة درية عز الدين بعد كل هذه السنوات. كان خوفه هذا يأتيه خلال سنوات حياته على هيئة حلقات متقطعة ومركزة من القلق، فيستعيد كل أحقاده القديمة بشأن حقه الضائع في شقة المبتديان. ولأنه لم يحتفظ بصورة واحدة للمكان الذي وُلِد فيه وعاش حتى صباه؛ سأل در الشهوار عن صورة حديثة للشقة، فقالت: «حولتها ماما إلى متحف، مثلك بالضبط يا خالو.»

التقطت در الشهوار بعض الصور للشقة، بناءً على طلبه، وعرضتها عليه فلم يعرفها، وتجاوز غضبه فذهب إلى الشارع، ولاحظ الاختلافات الكثيرة التي طرأت على البناية، والتراب الذي كساها، فأكسبها لونًا بنيًّا داكنًا، وحدد شقتهم من الشرفة الوحيدة النظيفة والمقاعد الموضوعة بعناية وأصص الزرع والورود، ووقف يتأملها تأمل المحبين. ظل يفعل ذلك يوميًّا، وهو يتخيلها شقته، حتى اكتشف أنه لم يعد يرتبط بها بأي شيء، وأن جلسته في شرفة شقة عابدين بالدنيا، خاصة مع خلاء الميدان دائمًا ونظافته نسبيًّا، وهجر البيوت المحيطة به، على عكس شارع المبتديان الذي كان يحوي برك مياه بسبب مطر مفاجئ، عندما ذهب إليه، وكان مزدحمًا بالكامل، لا يخلو إلا عند بقعة دار الهلال المجاورة للبناية، وتلوح على البيوت المحيطة بهم أمارات فقر واضحة.

كان انتصارًا خفيفًا، أخذه بروح غير متسامحة، فكتب خطابًا إلى أمينة الرُّز، بعنوان «الشقة»، يخبرها فيه أن الله أخذ حقه وجعل الشقة تتفسخ في بؤرة من العفن والقمامة بينما شقة عابدين ما

زالت في مكان مميز. وصلتها الرسالة خلال يومين، وفضَّتها قلقة؛ لأنها لم تتلقَّ رسائل إلا من البنك، وميزت النبرة الهازئة سريعًا، والخط الذي ينزل عن السطر ليشرب من البحر، فقطعتها وهي تردد: «لم ولن يعقل أبدًا. رجله والقبر ولا زال يردد الخراء.»

لم يخبر در الشهوار بأمر تلك الرسالة، ولم تخبرها أمينة الرُّز أيضًا. كانت تعاني في صمت من اختلاف الحياة في شارعها. عندما تأتي من المجلس في المرسيدس، كانت تمر على سوبيا الرحماني بداية، تقف عنده وتطلب «واحد مزز»، ثم تشرح للسائق -أو تشرح أحيانًا لضيوفها في الشقة- كيف أن شراب البوظة صنعة عثمانية أصيلة، وكان جدها يحبها، ثم تقص عليهم قصصًا لا تُصدَّق عن محل الجبن الرومي الذي كان في مكان الرحماني، وحجم الأقراص المدورة الذي كان يسد عين الشمس، ومذاقها الذي كان يجذب ناس من السرايا، وابتكرت قصة من عندها عن إعجاب الأميرة فوزية بهذا الجبن على يدي جدها، وكانت تؤكد أن حسن الرُّز الكبير التركي كان تاجرًا ناجحًا في مدينته ريزا، ولكن أملاكه احترقت وبدأ حياته من جديد في مصر. الشوارع الخلفية للسيدة، التي بدأت تطغى على المكان، دفعتها إلى الإحساس بالغضب والذهاب إلى شقة الدقي لتراها، فوجدت در الشهوار قلبتها مكتبًا، وجعلتها معتمة مثلها، فسخرت منها وقالت: «واضح أن عندنا عقدة في تكديس الأشياء.»

ولكنها لم تستسِغ ميدان المساحة رغم هدوء الدقي، وفُوجِئت باعتيادها الزحام وأصوات الباعة وقربها من كل شيء، فقررت رفع شكوى عن طريق منصبها إلى فتحي سرور، النائب العريق للسيدة زينب ورئيس مجلس الشعب، وكان يعرف بها، فاستقبلها باحترام في مكتبه الذي يمارس فيه المحاماة بتواضع، مفسحًا لها الطريق بين حرسه، وضيَّفها على قهوة تركية تأتيه من الكويت خصوصًا، وابتسم بوجهه الأحمر الذي يشبه وجه رضيع راضٍ وشبعان، وقال:

«حـرم سـيادة الرئيـس تتحـدث عنـك كثيـرًا بالخـير يـا أمينـة هانـم.»

عرضـت عليـه الكـوارث التـي يمـر بهـا الشـارع العريـق، وقالـت لـه إن أولـه في جـاردن سـيتي وآخـره في السـيدة، وهـو مـا يجعلـه يتأرجـح بـين الرقـي والنظافـة، وإنهـا مرتبطـة بـه ولا تريـد تغيـيره، ولكنهـا تريـد بعـض الخدمـات الناقصـة فيـه، وكان يكتـب سريعًـا في ورقـة بيـده، ثـم هاتـف أحدهـم وقـال: «تعـالَ عنـدي فـورًا.»

حـضر شـاب أنيـق ووسـيم، ولـه ملامـح حديثـي العهـد بالحيـاة، فتسـلم الورقـة، وخـرج، ثـم قـال فتحـي سرور: «سـنرى مـا يمكـن عملـه. مـن عينينـا.»

انتظـرت بعدهـا شـهرًا، حتـى وجـدت جرافـات تسـد الشـارع، وتلـوح مثـل وحـوش ضخمـة تتنفـس ببـطء في هـدأة الليـل، ثـم أخبرتهـا رضـا أنهـم سـيُعبِّدون الطريـق بالإسـفلت، فتوقعـت أنـه مـن زيارتهـا لفتحـي سرور، وقالـت لهـا: «أنـا السـبب؛ كلمـت فتحـي سرور.»

مسـحت الجرافـات الشـارع مسـحًا، وعطلـت دخولهـا بالمرسـيدس حتـى البيـت، فكانـت تنـزل للسـير بكامـل أناقتهـا وهـي متأففـة ممـا يجـري، وتلـوم نفسـها عـلى اقتراحهـا المتسـرع، وتُلـوِّح، رغـمًا عنهـا، مثـل مارجريـت تاتـشر، أو كـما كان يـتردد حولهـا في المجلـس كلقـب جديـد يصـف حديديتهـا بالسـيدة تاتـشر، حتـى انتهـى الشـارع في ظـرف أسـبوعين، وتوقعـت وجـود إصلاحـات أخـرى، ولكنهـا فُوجِئـت بالزحـام نفسـه، ولم يتغـير سـوى وجـود بعـض رجـال المـرور عـلى أول الشـارع، عنـد سـوبيا الرحمـاني، ينظمـون حركـة العربـات القادمـة مـن ناحيـة السـيدة زينـب، فشـعرت بالإحبـاط، ودارتـه ببعـض الحكايـات التـي تؤكـد أنهـا مـن أمـرت بسـفلتة الشـارع، ومظهـره الجميـل صباحًـا، الـذي سرعـان مـا تأثـر وصـار متسـخًا مـرة أخـرى.

لم تفقـد عزيمتهـا؛ ظلـت في الأعيـاد والمناسـبات ترسـل خطابـات شـكر

إلى فتحي سرور، وتطلب مزيدًا من الإصلاحات لشارع المبتديان، وطلبت رصيفًا مثلًا يفصل الشارع نصفين في قسمه الأول القريب من جاردن سيتي، وحدث ذلك خلال أربعة أشهر، ومتعها هذا قليلًا بشعور التحكم في حياتها كما تريد، رغم إحباطها من عدم تغير شيء، واحتفظت بخط واضح مع سوزان مبارك، ترسل إليها مصاحف هدية من المجلس، وسجاجيد يدوية من ويصا واصف، ومصنوعات يدوية وطعامًا، وكادت تخطئ يومًا عندما أرسلت برطمانات مربى من صنع سيدات مجدات، فقالت سوزان مبارك غاضبة عندما رأتها: «شغل فلاحين. ما الذي جرى للسيدة المحترمة؟!»

وأرسلت إليها عتابًا شديد اللهجة، فأقامت أمينة الرُّز المجلس ولم تقعده، وحاولت بكل الطرق نسب الخطأ إلى سوء تقدير إحدى عضوات المجلس، وشددت على نوعية الهدايا التي تصل إلى زوجة الرئيس، ولم يوتر هذا علاقتهما؛ إذ قابلتها بعدها في احتفالية ليلة القدر، ورأتها سوزان مبارك وابتسمت وقالت:

- مربى يا أمينة هانم؟

فقالت أمينة الرُّز سريعًا مستغلة الابتسامة:

- كانت المربى إفطار ماري أنطوانيت.

وهي العبارة التي فسرتها أمينة الرُّز بعدها نبوءة شؤم وقت الثورة، وقالت بهدوء: «كانت سوزان هانم آخر ملكات مصر.»

كانت عاداتها قد بدأت تتغير كثيرًا وتتخذ شكلًا آخر؛ صارت تستيقظ في الخامسة فجرًا، عندما يكون كل شيء باللون الأزرق، تجلس لتشرب القهوة التي تعدها رضا بضمير، ثم تنتظر بسكوت الآنيسون الذي يأتيها من مخبز قريب، تتناوله، وبعدها، تفطر بهدوء

ملكات، وتقرأ خمس جرائد يومية، وتحل الكلمات المتقاطعة التي تنشط الذاكرة، ثم تغادر المنزل إلى المجلس، لتمارس عملها بجدية. وعندما تعود عصرًا، تتناول غداءً ثقيلًا، تنام بعده، ثم تستيقظ، وتأمر رضا بفتح النوافذ، وتشغل الموسيقى من كاسيت صغير اشتراه لطفي لها، وتطلب منها أن تنزل وتملأ لها كأس سوبيا مزز من الرحماني. تتناولها يوميًّا وهي تؤمن أنها تدفئ الأعصاب وتبث الدم في العروق، وتقدمها لزوارها.

في أيام الجُمَع، كانت تستقبل أفراد عائلتها كلهم، وتجلس بينهم بؤرة حديث، وفي ليالي الجُمَع، تزورهم في بناية جاردن سيتي، وتجالس ألفت زين الدين التي لم تعد تستطيع السير بسهولة. كانت حياتها تسير بهدوء ونظام محبب، حتى إنها مدحت في الشيخوخة كحدث مناسب للاحتفال باكتمال المهمة الرسمية في الحياة. لم تكن تصرف ما يزيد على نصف راتبها تقريبًا، ونمت ثروتها كثيرًا بعد حادث الريان، وصارت أكثر تشددًا مع عروض التجارة والمكسب، وأدمنت زيارة الإسكندرية في الشتاء أكثر منها في الصيف، تبقى في شقتهم بالمعمورة، وتقابل ابني حسن وزوجتيهما، وسميحة، قبل وفاتها، والتي ظلت تعد لها صينية البطاطس بالجمبري كل زيارة بلذة تفوق الخيال.

هذا الهدوء، جعلها تبدأ في كتابة كتاب عن حقوق المرأة في مصر، وحددته بنموذج حقوق الميراث، وذكرت أمثلة عملية عدة عن حالات منع ميراث وأخذ حقوق، ونُشِر الكتاب ضمن مشروع القراءة للجميع، ورأته ذات يوم خلف الواجهة الزجاجية لمكتبة الهلال المجاورة لبيتها، فاشترت منه ثلاثين نسخة، ووزعتها على معارفها وأبنائها، وقرأته در الشهوار، وفُوجِئت بتنظيمه المحكم ولغته الجيدة فقالت: «أنا ممكن الكتاب يأخذ مني أعوام حتى ينتهي.»

شعرت بالاكتئاب أول مرة عندما أتم سيف الدين العاشرة، ولم تستطع إنجاب أخ ولا أخت له. كانت تدفع مصطفى نفعة إلى المحاولات، ولأنه طبيب؛ كان يجري الفحوصات لهما في أفضل مستشفيات الولادة، وتأتي مبشرة بالقدرة على الحمل مجددًا. مع الفشل المستمر، حاولت تجربة أطفال الأنابيب، ولكن مصطفى نفعة رفض وقال:

- لماذا تصرين على الإنجاب بهذه الطريقة وأنت تعرفين المسؤولية؟

فقالت در الشهوار:

- لا أريد أن يكون سيف الدين أملنا الوحيد؛ ذلك سيضغط عليه وعلينا.

كانت در الشهوار تشعر في دخيلتها أن سميرة ومشيرة عبد القادر، ابنتي ألف زين الدين، أكثر نجاحًا منها في شؤون البيت وتربية الأطفال. اختفاء حلمي ولطفي في عيادتهما وأعمالهما، التي لا تنتهي، أمَّنت لهما حرية في التربية، وتركيزًا جيدًا على أطفالهما. حسن حلمي مثلًا كان أكثر ميلًا إلى المزاح والسخرية وأكل الجو من الجلسة مثل عمه لطفي، بينما كان الأكبر في الأحفاد، درويش لطفي درويش، أكثر جدية وقدرة على الحديث مثل كبار الرجال، له صوت ببري واثق، وجسد رياضي ممشوق، ويُذكِّرها بدرويش عبد الغني في شبابه، مع نفحة من تقاطيع حسنة الشكل أخذها من أمه مشيرة. كان يتحدث عن رغبته في الالتحاق بالجيش، وتحديدًا سلاح الحربية، وعنده هوس خاص بمتابعة الحروب فوق شاشات التلفاز، بينما كانت أمينة لطفي تشبه در الشهوار في مشاكساتها وطريقتها الخاصة وكان الجميع يرددون أنها در الثانية، وندى حلمي كانت لا تزال في اللفة، ولكن در الشهوار آمنت أن وجود أخ أو أخت كفيل بتعليم

الطفـل المشـاركة ودخولـه في الأوسـاط الاجتماعيـة.

كانـوا يجتمعـون عنـد أمينـة الـرُّز أو في شـقة حلمـي أو لطفـي؛ لأن در الشـهوار كانـت بعيـدة، وتحتـاج إلى زمـن للوصـول، ولا يحـدث ذلـك إلا في رمضـان والأعيـاد، فيتحدثـون حديثًـا عاديًّـا عـن كل شيء، بينما يحكـي سـيف الديـن تفاصيـل آخـر حلقـات مصطفـى محمـود أو جـلال عـلام؛ «الرياضـة في الغابـة»، ويتحـدث عـن ذلـك بخجـل شـديد كأنـه يـردد كلامًـا محرجًـا، وكانـت در الشـهوار تتأمـل ذلـك بضيـق، وتقـول لـه في مـكان لا يراهمـا فيـه أحـد: «هـؤلاء عائلتـك، تعامـل طبيعيًّـا.»

ورغـم تحسـنه الشـديد، ظـل منكبًّـا عـلى شـؤون القـراءة، ولا تظهـر شـخصيته جليـة إلا عندمـا يعـزف عـلى البيانـو في شـقة أمينـة الـرُّز. ولأن شـخصيته الحقيقيـة المرحـة كانـت تظهـر مـع حسـين الـرُّز فقـط؛ سـألته بجديـة ذات يـوم: «لمـاذا ترتـاح إلى جـدو حسـين عـلى هـذا النحـو؟»

لم تسـتطع فـك شـفرة سـبب انجذابـه إليـه سـوى أنـه يملـك الصـبر والقـدرة الكافيـين للتعامـل مـع سـيف الديـن كشـخص كبـير وناضـج، يناقشـه في مـا يجـده في «ألـف ليلـة وليلـة»، ويسـتمع إلى أسـئلته الأغـرب باهتـمام. لم يكـن سـيف الديـن في الحقيقـة طفـلًا مـن مملكـة هـذا العـالم. كان يسـأل در الشـهوار أحيانًـا عـن أشـياء عُـدَّت بديهيـة، ولم تسـأل عنهـا قـط، ومنهـا مثـلًا سـبب إغـلاق شـوارع مـصر الجديـدة كلهـا كل يومـين، فـترد وهمـا في السـيارة، توصلـه إلى مدرسـته، وتفكـر في ملـل قتـل الوقـت في توصيـل طالـب طفـل، وتـآكل وقتهـا الخـاص منـذ التحاقـه بالمدرسـة؛ إذ كانـت تـؤدي دور الموصـلاتي وصانـع الشـطائر، خاصـة لانشـون حلـواني الـذي يحبـه، ولانشـون لحـم الجمـل الـذي كانـت تشـتريه مـن سـوبر ماركـت المحمـل، الـذي اشـتُهِر مـرة واحـدة، وجبـن كـيري السـعودي؛ والمـدرس؛ تذاكـر لـه دروس الإنجليزيـة تحديـدًا، وتصـبر معـه عـلى تفسـير شـخصيات شكسـبير؛ هاملـت والملك

لير وبقية الشخصيات الدرامية، وتعد له عشاءات من الباستا التي يحبها؛ ترد عليه بقولها:

- لأن موكب الرئيس يعبر في هذا الوقت.

فيسأل:

- ولماذا لا ينقل بيته في الصحراء ولا تتوقف الشوارع كل يوم؟

أو يسأل عن سبب اختلاف أسعار زجاجة مياه من كشك عنها في مطعم، مع أنها النوع نفسه، أو سبب الحديث بالإنجليزية في مدرسته في كل شيء مع أن الناس يتحدثون لغة أخرى في الشارع، وسبب عدم تلاقي جده حسين مع جدته أمينة. وهي كل أسئلة كانت تضعه في موضع المتشكك الذي لا يمل، ففُوجِئت أنه يراقب كل شيء بعين ناقدة وساخرة أحيانًا. كان يضايقه -مثلًا- عصبية أمينة الرُّز عندما يتجاوز بعضهم في الضحك والمزاح، خاصة خاله لطفي، ويتعجب من شكاوى سميرة ومشيرة الدائمة من مرض لا وجود له؛ لأنهما ملتزمتان سرًّا بالشكوى لإبعاد الحسد، رغم تورد وجهيهما، ولا يحب تصلب درويش حلمي درويش، وطريقته في الحديث كأنه رجل كبير ومهموم.

ولكنه، على الجانب الآخر من نظرته الناقدة هذه، كان يحب أمينة حلمي كثيرًا، ويراها البهجة الوحيدة في هذه الأسرة. كانت نسخة الخالق الناطق من در الشهوار، مع لفحة شمس جعلتها بمظهر محلي أكثر، وشعر فاحم السواد، وكانت في مدرسة تجاور مدرسته، ولكنها أعلى سعرًا، وتتفاخر سميرة أمها أنها مدرسة لا تقبل سوى أبناء الوزراء والسفراء. كان يراقب كل لفتاتها الحميمية وملامحها التي انطبعت بالحب فوق ذاكرته: عروقها الزرقاء النافرة في ساعديها، ابتسامتها التي يتورد لها وجهها، طريقة مشيتها غير المنتظمة بجسدها الصغير، ذيل الحصان الراقص خلف رأسها

المدور. ويفكر أن ما يشعر به هو الحب الذي شرحه له حسين الرُّز بلا خجل.

كان حسين الرُّز، غير الجاهز أساسًا لتربية طفل، يتحدث معه في أمور الحب والجنس بلا قلق ويردد: «هذا الذي جعل الخلائق تنتشر حتى هذه اللحظة؛ المتعة التي يشعرون بها خلقت العالم.» أو يستفهم منه عن سبب مرض شخص ما بلا سبب، سوى تعلقه بشخص آخر، فيقول حسين الرُّز من واقع خبرته الطويلة: «هذا اسمه الحب؛ شعور يأتيك بلا سبب، وليس من اللازم أن يكون صحيحًا.» ثم يحاول إفهامه، وهو يتطلع إلى أطباق الهوائي التي بدأت تنتشر فوق البيوت جالبة قنوات جديدة إلى التلفاز: «كل واحد فينا يحمل هوائيًّا مثل هذا فوق رأسه، يدور ويدور حتى يلتقط الإشارة، وإما تأتيه بقناة حلوة وإما قناة خراء.»

سأله حينها عن معنى شعوره تجاه أمينة حلمي درويش، فأخبره حسين الرُّز بشيء من الأسى بسر حياته الأكبر، وهو بحثه عن فتاة رآها في سن سيف الدين نفسها، منذ ما يقرب من ستين عامًا، وما زال يتذكرها وهو فوق السبعين الآن، ونصحه بعدم التركيز طويلًا في ملامحها حتى لا تنطبع فوق صفحة ذاكرته وتؤثر في اختياراته بعدها. كان سيف الدين ينجذب إلى كل شيء يخصه؛ رائحة العرق الليمونية الخفيفة التي تنبعث منه، جلبابه البلدي الذي صار يرتديه بلا سبب ويعطيه مظهر المعلمين هذا، شعره المصفف بالفازلين، قبلاته المبهرة باللعاب الساخن من خلف شاربه الأبيض الخشن، ويعدُّه نموذجًا أكثر أريحية من نماذج أخواله وأبنائهم.

تأثير حسين الرُّز المتزايد هذا دفع در الشهوار إلى اتخاذ قرار صارم بأخذ إجازة من الجامعة الأمريكية، رغم الأبحاث التي كانت تجريها، وتقرر بجدية أن تتفرغ لتربيته عامًا واحدًا كاملًا، تُقوِّمه فيه،

وتنشئه كما تتمنى. كانت في عصبيتها الطارئة المستجدة ومحاصرتها له تشبه أمينة الرُّز، على نحو أو على آخر، وهو ما كان يزيد من حدتها؛ لأنها رفضت دائمًا النمطية في الأمثال الشعبية التي تؤكد أن انكفاء القِدر على فُمها يطلع البنت لأمها، أو أن الناس يصيرون أهلهم بعد فترة معينة من الزمن، ولذلك؛ راقبت انفعالاتها هذه بدقة هندسية، وكانت تفكر في منبعها، فتعزيها إلى تأثرها بذكرى من طفولتها تصرفت فيها أمينة الرُّز على النحو نفسه.

عندما شاهدت مسلسل «لن أعيش في جلباب أبي» في يناير ١٩٩٦، وقت رمضان، وكانت لها عادات مميزة في قضاء الشهر؛ إذ تكرس الساعتين قبل الإفطار لإعداده بهدوء، وبمساعدة قريبة لرضا الخادمة اسمها هدى، كانت تتميز بفضيلة الابتسامة الحلوة المريحة وحبها للأغاني الحديثة؛ إذ رسخت حب عمرو دياب ومحمد منير ومحمد فؤاد في سيف الدين. كانت تجلب كل الشرائط الحديثة، وتضعها تدوي في الشقة الهادئة، وترقص أحيانًا عليها، وكان سيف الدين يستمع دون أن يبدي انفعالًا؛ لأن انفعالاته كلها داخلية، ويحفظ الكلمات. حفظ أغنية «الفرحة» لمنير، وأغنية «خلصت فيك كل الكلام» لعمرو دياب، ونخبة من أغاني هشام عباس وحميد الشاعري، وكان يفاجئ هدى أحيانًا بطلبه لإعادة أغنية بعينها مرة ثانية، وكانت تترك الشقة تبرق بالنظافة، كما تحب در الشهوار، وكانت تنقع الخشاف في الماء صباحًا وتضعه في الثلاجة حتى يصير مثلجًا مسكرًا عند الإفطار.

ثم يبدؤون معًا، عندما يأتي مصطفى نفعة على عجلة، وهو ما زال يرتدي معطف العمل، فيجلسون أمام التلفاز، كما قررت در الشهوار؛ لأنها لا تحب جلسات أمينة الرُّز الباردة على السفرة، ويشاهدون مسلسلًا يُعرَض وقت الإفطار، ثم برنامج «الكاميرا الخفية»، الذي كان يُضحِك مصطفى نفعة بشدة، وبعدها، مسلسلًا

آخر. في أحد تلك الرمضانات، شاهدت المسلسل، وأعجبها إظهار الفروق بين الأسر الصاعدة حديثًا على سلم الثراء، أو النوفو ريتش، كما تردد طبقًا للتعبير الفرنسي الشهير، والأسر الثرية بسبب منصب حكومي كمنصب رشوان توفيق في دور الوزير، وطريقة الحاج عبد الغفور في التعامل، وتردد مبتسمة: «لولا بعض التعديلات لقلت خالو حسين، ولكن خالو قيِّم أكثر ويحب المظهر الحسن وابن مدينة.»

أحبطتها نهاية المسلسل، وابتاعت الرواية الأصلية لإحسان عبد القدوس لتتأكد من حقيقة الأحداث، ففُوجِئت أنها تختلف كثيرًا عن المسلسل نفسه، ولكن لم تساعدها في شعورها بأن المسلسل نذير شؤم يؤكد أن حياتها ستسير مثلما حدث مع أمينة الرُّز. كانت صحوة حقيقية، دفعتها إلى أخذ هذه الإجازة، والتربية بلا قلق وضيق، والاهتمام بالرياضة كما كانت تفعل قديمًا، والإطالة في زيارات حسين الرُّز كما كانت تفعل في بدايات دخولها الجامعة.

في يوم كانت تركض فيه بشوارع مصر الجديدة صباحًا، وهي ترتدي بلوزة خفيفة وبنطالًا رياضيًّا، وتضع الووكمان الجديد الذي ورد إليها من السعودية مع أحد معارف مصطفى نفعة، وقفت لتشرب الماء، ثم دخلت شارعًا جانبيًّا صغيرًا، ركضت فيه وهي تلهث بوجه ملتهب، ثم توقفت عندما سمعت الموسيقى التي تسبق مقطع «وقابلنا أنا وأنت في مشوارنا حاجات كتير جرحت غيرنا» لأغنية «نبتدي منين الحكاية» لعبد الحليم، فذكَّرتها بشعور مفقود من زمن لاح لها كأنها لم تحيَه بالفعل ولم يكن بالأساس، وتنسمت رائحة التخديعة القوية من البيوت القريبة من بيتهم في المنيرة، وتذكرت شعور الدفء الذي كان يعتليها عندما كانت ترتدي فساتينها القصيرة، وتخرج إلى الجامعة مشيًا من البناية، تمر على الشوارع بعين متطلعة، وتشرب القهوة في مقهى علي بابا في

ميـدان التحريـر، ثـم تدخـل الجامعـة وقـد حفظـت في رأسـها صـور اللافتـات والوجـوه وواجهـات المحـال.

هامـت مـع الأغنيـة قليـلًا، ثـم أكملـت ركضهـا، وقـررت في اليـوم التـالي عمـل مـشروع توثيـق لـترام المدينـة، وارتـداء ثيـاب خفيفـة كـما تحبهـا، وكـما كانـت تفعـل في السـبعينيات. سـتقول بعدهـا عـن هـذا المقطـع: «رأيـت حيـاتي الحقيقيـة فيـه.»

يوم

١٦

ركبت در الشهوار التورماي أول مرة، بعد قرارها بدراسته، من ناحية تريومف، واستمتعت بحركته البطيئة العصية على الزمن، وسكونه الواضح، واستمعت بانتباه لما يردده الركاب في ما بينهم، وكانت ترد على ابتسامات بعض العجائز بأحسن منها، وتنزل أحيانًا في بعض المحطات لتكتشف اسم الشارع وما يُوجَد فيه من محال أو دكاكين. وخلال يومين، ضربت صداقة مع ثلاثة سائقين، كانوا يتحدثون لها بخجل الأطفال عن مسميات خاصة بالعمل في قيادة التورماي، والفارق بينه وبين تورماي الإسكندرية. وكانت تعود إلى البيت بعدها، تتحمم سريعًا، ثم تجلب سيف الدين من المدرسة، وتجلس لتُطعِمه وتقرأ وتكتب عن دخول التورماي إلى البلاد لأول مرة، وتحذيرات الصحف منه في البداية لأنه وحش حديدي صارم، يقتل بلا رحمة، وكل الارتباك الذي مرت به المدينة



القديمة عندما بدل الكارُّو، وتتابع اختفاء بعض خطوطه كما في حي شبرا مثلًا، الذي لم تكن تعرف قط أنه كان يخدم فيه.

كانت أيامًا هادئة، دفعتها إلى التفكير بصفاء أزمنة الصبا، والتركيز على موضوع آخر متصل؛ وهو مترو الأنفاق، والتأمل في تغييره لطريقة ركوب الناس في المدينة، واختصار المشاوير، والعلاقات الجديدة التي تنشأ تحت الأرض. ولاحظت، من مقارنات سريعة لا تخلو من الدقة، أن التورماي يمثل فرصة لتأمل الشوارع وترويض النفس لأنه هادئ ويسير ببطء ممل في كثير من الأحيان، بينما ركوب المترو يدفع الركاب إلى تأمل فراغات سوداء تعطيهم فرصة غير مرحب بها ليتأملوا حيواتهم، مع إجبارهم على الركض لأنه سريع، وكل شيء يحدث فيه بسرعة؛ يدخله الناس تدافعًا ويخرجون منه على النحو نفسه.

أسمت مشروعها، كما سمعت من ركوبها المترو من ناحية حدائق القبة على مدار أيام، على طول الخطين الثاني والأول: «نازل الجاية؟» وهو السؤال الذي وجدته يتردد بصيغة اتهامية كلما هم راكب بالنزول ووقف أمامه راكب آخر. كانت تطلع حسين الرُّز على مشروعها هذا أولًا بأول، وتتعامل مع مصطفى نفعة بلطف، جعله يفكر سرًّا أن الإجازة كانت أفضل لها كثيرًا، خاصة مع اهتمامها بإعادة تشغيل أغاني السبعينيات والثمانينيات، وخاصة أغنية «شبابيك» لمحمد منير، التي كانت تجلس لتستمع لها في شرفة الشقة، في عادة تشبه عادات أمينة الرُّز السماعية، وتتأمل بحر الخامسة مساءً الأزرق وهو يضرب بأمواجه الصورة النهارية للشوارع، ويعطيها ألقًا حزينًا يميز أفكارها الأكثر خصوصية، تشعر بالسلام الشديد معها، وتهيم في خيالات عصية على الوصف.

لم تنسَ راجية السيد خلال فترة نقاهتها هذه، فصارت تزورها

في شقتها بباب اللوق، وتتابع الشيخوخة التي تأكل منها بقسوة رغم عمليات التجميل القديمة. كانت راجية السيد تقاوم دفعات حنينها إلى فتحي النمرسي بلا فائدة. بعد اختفائه، فقدت رغبتها العنيدة في مصارعة الزمن والحياة مثل الشباب، فبانت عليها السن سريعًا، ومع إيجار الإيموبيليا المتبقي، كانت تكتفي بالصرف على أدوية السكري والمفاصل التي اشترتها بالأكوام في قلق مستحق على صحتها.

صارت تزور محل سكنها في السيدة عائشة بكثافة، وتقابل أفراد أسرة القبارية الكبيرة، حتى التقت بسيدة محترمة اسمها أم أمل، تعمل في سبيل الله -كما عرَّفت نفسها- ففهَّمتها حقيقة الحياة، وأن كل ما تفعله سيجلب لها الحزن لأنه لا وجه لله فيه، وعددت لها مصادر الخير، ودلتها على مسجد الجمعية الشرعية للعاملين بالسنة المحمدية، وطلبت منها بأدب أن تحضر معهم جلسات كل أربعاء التي تحفها الملائكة. كانت علاقة راجية السيد بأمور الدين مموهة حتى هذه اللحظة، ولذلك؛ أقلقتها الكلمات التي رددتها أم أمل بجدية العارفين وثقتهم، وقررت خوض التجربة خوفًا من عذاب الآخرة وبحثًا عن بصيص أمل في دنيا موحشة، وفعلت ذلك بلا تبصر، فارتدت الحجاب سريعًا، وجعلته أقرب إلى الخمار، وصارت تظهر بلا مكياج، وخاصمت جلسات النميمة في جروبي، التي تتحدث على حافة عالم قديم ينهار وينتظر كلمة النهاية، وطريقة حياتها التي تحتفي بالجمال والتجميل والملابس، وصارت دروس الجمعية الشرعية شغلها الشاغل.

لم تعرفها در الشهوار في البداية، ولكنها وجدت بصيصًا من روحها القديمة في حديثها الخاص. ولأن در الشهوار كانت قد عاهدت نفسها منذ زمن طويل ألا تجادل أحدًا في أي شأن من شؤون الدين، باعتبار أنها تخص ربنا فقط؛ لم تعلق على ما جرى. وكانت

راجية السيد تعاملها في هذه الزيارات بحب حقيقي، وتؤكد أنها أصيلة وتفعل ما لا يفعله أحد في هذه الأيام الخالية من الرحمة.

وفي إحدى المرات، طلبت منها راجية السيد أن تستسمح أمينة الرُّز في شأن عداوتهما القديمة، واسترجعت تفاصيل دقيقة في علاقتها بدرويش عبد الغني، عندما توظفت لديه أول مرة، وأكدت أنها لم تقصد قط لفت انتباهه. كانت تكذب بثقة دفعتها إلى تصديق أن ذلك لم يحدث بالأساس، وكان هذا بدافع من رغبة في محو أي صورة سيئة لماضيها، ولذلك؛ تجاوزت حبها للمال وخوفها عليه، فتبرعت بمبلغ محترم، كانت تجنبه من إيجار الإيموبيليا، وأقامت به سرادق طعام شهريًّا قرب سوق باب اللوق، في شارع جانبي، تقبل فيه كل المارة ومن لا بيت لهم كمائدة رحمن غير رسمية.

على العكس من ذلك، لم تتخلَّ أمينة الرُّز عن قسوتها على راجية السيد أبدًا، مثلما فعلت مع حسين الرُّز، وذلك رغم رهافة حسها المتزايدة في السنوات الأخيرة بسبب عنصر السن وخوفها المستمر من التقاعد القادم لا محالة. كلمة «ستُّو»، التي تُردَّد عليها في كل زيارات أحفادها لها، كانت تقابلها بحب ممزوج بالكدر، وأرادت أن يُقال لها «يا هانم» بدلًا من ذلك، ولكنها لم تتجرأ وتطلبها.

في يوم كانت متعجلة فيه للحاق باجتماع للمجلس مع مسؤولات من الإمارات، التوت قدمها اليمنى وهي تصعد الدرج، ولكنها تحاملت على الألم، وحضرت الاجتماع في موعده، وتحدثت عن دور السيدات المصريات المشهود في تعليم سيدات الخليج منذ السبعينيات كمعلمات مجدات، ورغبتها في تطوير منظومة التعليم في مصر ووضع النساء فيه. وعندما عادت إلى المنزل بعد غداء في مطعم أبو شقرة، في قصر العيني، رأت فيه الشيخ الشعراوي وهو يجلس في ركنه الخاص الشهير بالمطعم في قصر العيني، الذي يأتيه فيه طلبه الخاص من

الكباب والكفتة، وسلمت عليه باحترام حقيقي، وفاضت السعادة على مسؤولات الإمارات، اللاتي أعطينها هدية عبارة عن تمثال ظبي نادر مطلي بالذهب، بكت بغضب وقلق وهي تردد لرضا: «فقدت قدمي يا رضا، ولكنني سلمت على الشيخ الشعراوي، ودعا لي دعوة حلوة.»

أقامت الدنيا ولم تُقعِدها، فجاءها حلمي ولطفي، وأقنعاها أن قدمها سليمة، وتحتاج إلى راحة لأسبوع، واضطُرَّا بسبب ضيقها المتزايد إلى زيارتها كل يوم، حتى طابت قبل المدة المنتظرة، وقالت حينها مؤكدة: «هذا بسبب دعوة الشيخ الشعراوي.»

عندما مات في العام نفسه، بعد اعتلاله الشديد، بكت عليه بشدة وهي تجلس في الصالة، بعدما تردد الخبر في الراديو، وفُوجِئت رضا بحدة بكائها رغم صلابتها المعهودة، فقالت لها من وسط دموعها: «كل الكبار غلابة. كان واضحًا عليه السن عندما رأيته هذه المرة في المطعم.»

لم تخرج من حالتها السوداء حينها إلا عندما حكت لها در الشهوار -عرَضًا- عن راجية السيد وما تمر به، فشعرت بشيء من الانتصار لأنها ما زالت قوية وواقفة على قدميها، ولم تتزوج مثلها بشاب يصغرها بعقود، ولا اتجهت إلى الدروشة، وحاولت أن تتآلف مع فكرة أن الكبر كبر الروح والتفكير، فصارت تعمل دون أن تشغل بالها بالوقت الذي ستتقاعد فيه، ولكن كانت تنثر اسمها مثل السكر في كل مكان تذهب إليه، وتبشر بنفسها كسيدة مجتمع لمدى الحياة، وتشارك في كل شيء بهمة لا تلين، وكانت تقول في ذلك عندما تحاول در الشهوار نصيحتها بشأن صحتها وعنصر السن: «وما المانع؟! الرئيس نفسه ما زال بصحة شاب في العشرين.»

على النحو نفسه، كان حسين الرُّز يتجاوز عنصر السن هذا

بانكبابه على المطعم صباحًا، وتفسيراته لـ«ألف ليلة وليلة»، وانتظاره زيارات در الشهوار وسيف الدين، أو زيارته لهم في مصر الجديدة. وكانت قد نمت له عادة جديدة ضمن قائمة عاداته التي لا تنتهي، وهي تجليد الصور التي يعثر عليها في أسواق العاديات والمستعمل، ووضعها في ألبومات، وترقيمها حسب تاريخها المتوقع، مثلما عمل ألبوم لشقة المبتديان، وفق الصور التي التقطتها در الشهوار وأعطتها له، يراها فرصة دائمة لتذكيره وتذكير الآخرين بحقه الذي لم ولن يأخذه أبدًا.

في يوم أغبر، طرق بابه شاب ناحل، له عينان ذاهلتان، وطلب منه ورق ملكية الشقة للتأكد من ملكيته لها، وذكر أن البناية تُعَدُّ تاريخية، وستُرمَّم ضمن بنايات أخرى تحيط بالقصر. طلب منه حسين الرُّز أن يمر عليه مجددًا حتى يجهز الورق، وجلس قلقًا في الصالة، بثياب الخروج، يفكر في احتمالية وجود عملية نصب خلف القصة. ولأنه لا يملك هذا الورق، ولم يملكه قط، ولا يعرف ملكية البيت الحقيقية؛ حاول البحث عن حل آخر.

وفي النهاية، لجأ إلى رشوة الشاب نفسه، عندما دعاه إلى زيارة لمطعم «درية والرُّز»، وجلس معه جلسة الجد إلى حفيده، وشرح له قصة ملكية درية للشقة ووفاتها منذ زمن الزمن. كان كل شيء فيه ما زال طفلًا، وضيَّفه على وجبة غداء معتبرة من البطاطس الشيبسي والفول والسجق الذي أجاد فيه وصار يصنعه بطريقته الخاصة؛ به بعض من الأرز مع اللحم، مثل الممبار، لكنه مفروم واللحم غالب فيه، سُمِّيَ «سجق الرُّز»، وهو الاسم الشعبي الذي انتشر سريعًا وصار علامة مسجلة تُضاف إلى علاماته الخاصة الشهيرة في بعض المطاعم. لم يرَ هذا الشاب مجددًا، وعُدَّت الفكرة كلها قيد التنفيذ، ولكنها لم تُنفَّذ حتى وفاة حسين الرُّز نفسه، وظلت معلقة قيد الإدراج باعتبارها مشروعًا تاريخيًّا يعيد منطقة عابدين إلى مجدها.

قلق حسين الرُّز من الظهور المفاجئ للشاب الذاهل العينين هذا جعله يفكر في حقيقة أنه لا أحد يرثه في مملكة هذا العالم. ملكية شقة عابدين، التي لم يتحصل عليها رسميًّا بأي ورق في أي وقت، مع ملكية مطعم «درية والرُّز»، كانت ستصير ملكًا للريح إذا ما تُوفِّيَ في أي وقت، وكان السبب الوحيد، الذي ساعده على عدم التفكير في هذه الاحتمالية، إيمانه السري بأنه لن يموت الآن. كان يشعر أن الموت يأتي من خلال التفكير المحموم به، وعن طريق إفساح الطريق له بعلامات تؤكد كراهية الحياة، وذلك رغم وجود شباب يموتون في سن صغيرة وفي أعينهم لمعة حب الحياة ما زالت بطزاجتها وخيرها، ولكنه اقتنع أنه سيُعمَّر، وتعامل على هذا الأساس بثقة مفرطة، وانشغل بصيانة صحته في أعوام ما بعد لمبة بطاح، والاتجاه إلى وصفات العطار القديمة في حفظ الصحة وعودة الشيخ إلى صباه.

شهرته المتنامية كمعلم بطاطس شيبسي على سن ورُمح، يأتيه الفنانون، وخاصة من ممثلي مسارح وسط البلد أو قصر العيني القريبة، دفعت معلمين آخرين كبارًا إلى التعرف عليه، وكان ذلك يحدث عن طريق عزومة على دور دومينو في مقهى الماوردي الذي صار قطعة تاريخية متربة، أو عند مسمط شيخ البلد؛ لأن حسين الرُّز قد أدمن فجأة شرب حساء الكرش ولحم الرأس لإيمان عميق بأنها مقوٍّ عام للجسم وتحسن المزاج، أو عند كبابجي الرفاعي القريب، الذي كان يستقبل حسين الرُّز استقبالًا حافلًا، ويردد أحد صبيانه بصوت عالٍ عندما يرى حسين الرُّز قادمًا بقميصه الأزرق مع بنطاله الأسود، وشعره الفضي المتشرب بصبغة سوداء، وشارب القلم الرصاص، وعوينات القراءة التي تصير داكنة ليلًا، ليصبح مثل إعادة تمثيل شعبي لكمال الشناوي: «طرب ولحم من غير رز للمعلم حسين الرُّز.»

وكان ممن تعرف عليهم في أمجاده المسائية تلك، المعلم سعيد الحرَّاز، أحد أفراد عائلة الحرَّاز الشهيرة للعطارة، وضيَّفه حينها على المقهى على شيشة تُمباك فاخرة، وتبادلا الحديث عن أمور الليل والنهار، ثم خاض معه المعلم سعيد الحرَّاز في أسرار العطارة والصحة الشعبية، فضيَّفه في مخزن محله الذي بباب الشعرية، وعرَّفه الفروق بين رجل الأسد ورجل الضب السيناوي، وفوائد مسحوق الضب نفسها في التقوية الجنسية والصحة العامة، وفضائل عشبة السنا المكية، ومنقوع ورق السدر وعسله، حتى هام حسين الرُّز بما قاله، وصار من زبائنه الدائمين، يتقابلان على المقهى أو عند الرفاعي الكبابجي، ثم يذهبان إلى المحل، يستمتعان بالجلوس في غرفة خلفية لها شبابيك أرابيسك -قال المعلم سعيد الحرَّاز إنها تخص جده الكبير- ويراقبان الزبائن من عالمهما البعيد.

صارت الوصفات تملأ علبًا عنده في شقة عابدين، وتضوعت بريح عطرية قوية مع أخلاط من روائح غريبة، وعلَّق ثعلبًا صغيرًا، أهداه له المعلم سعيد الحرَّاز، على الجدار المقابل لمدخل الشقة، حتى بدأ يتحول إلى سيد أسطوري له مطلق الصلاحيات على حياة «ألف ليلة وليلة» التي يحياها، ويشبه التصورات الخاصة عن المعلمين الكبار، فوق السن، الذين يتزوجون بالخمس والست. عرض عليه المعلم سعيد الحرَّاز الوسيلة الأفضل لحفاظ الشيخ على صباه عن طريق الكتاب الأصلي النادر الذي ورثه من جد الجد، المكتوب بسجع القرون الوسطى المزعج، المتخم بقصص لا تنتهي عن وصفات حسية وغذائية، وأخبره عن زوجاته الأربع على ذمته، ورضاهن جميعًا عن أدائه في الفراش كفحل لا يلين، وأصغرهن بعمر العشرين، تزوجها عندما جاءته أمها، وهي سيدة ابنة ناس ولكن الزمن جاء عليها، فقالت: «نريد القرب حتى نظل تحت حماية خاتم الحرَّاز إلى الأبد.»

كان حسين الرُّز قد محا الفكرة تمامًا منذ فترة طويلة، ولكن حديث المعلم سعيد الحرَّاز عن الزواج وأهمية الحصول على ابن أو ابنة يرثان اسم الرُّز، جعله يعيد التفكير في الموضوع على نحو عملي تخلو من الحب، وقال لدر الشهوار وهو يحكي لها عن الموضوع:

- الحب في عمرنا يصير مجرد تسمية لشيء أساسي ندور ونلف حوله.

كانت در الشهوار تحب استماتته في الحياة بالحياة نفسها، بانفتاح على الخطأ والتجربة، بعكس أمينة الرُّز، التي كانت تحياها بتحفظ وقواعد صارمة؛ لأنها تؤمن أن النظام هو أساس نجاح كل شيء، ولكنها لم تستسِغ مطلقًا فكرة زواجه هذه، وشعرت أنه زواج مصلحة سينتهي نهاية كارثية، فقالت:

- احذر يا خالو، ولو نصحتك بشيء فليكن أحدًا مقاربًا لسنك.

لكن تحذيرها هذا زاد في عناده، رغم عزوفه، في انقلاب خاطر شهير، فطلب من المعلم سعيد الحرَّاز، لاجئًا لأول مرة إلى تقاليد الزواج التي لم يتبعها قط طوال حياته الطويلة، أن ينتقي له عروسًا على الفرازة، بمواصفات محددة، وارد منازلهم كما يقول، وعلى المحجة البيضاء كما يردد الشيخ طه السمهوتي في مسجد السيدة كل جمعة.

عرض عليه فتاة اسمها نادية العباسي، ابنة لتاجر متوسط الحال اسمه الحاج صديق العباسي، كان يتاجر في النعال الحريمي والرجالي، ارتقى إلى التجارة باجتهاده وحده، وعمله بيديه وأسنانه في صنع النعال منذ طفولته، وكانت نادية هي آخر العنقود؛ إذ أنجب خمس بنات انتهين بها، وكان يؤكد أنهن جئن بنات لأنه دعا الله أول مرة بالخلفة في جامع البنات في العتبة القريب من أماكن توريده

النعال. عرض عليه المعلم سعيد الحرَّاز صورها، فتأمل وجهها الحي الصابح، وابتسامتها الخفيفة، وحاجبيها الكثيفين الشديدي السواء، ثم قال: «على بركة الله.»

كانت في العشرين، ولكن أمها تتعامل بمبدأ الزمن الجميل بأن آخر عام لبقاء الفتاة في بيتها هو سن العشرين، ولذلك؛ أسستهن على حب البيت والخدمة كشيء طبيعي، والقبول بالرجال مهما كانت أعمارهم، وجعلهن هذا سعيدات إلى حد ما في زيجاتهن، ولم يتبقَّ منهن سوى نرجس ونادية، ولكن خُطِبت نرجس إلى صاحب معرض دراجات بخارية، وبقيت نادية تنتظر دورها التاريخي. فاتحهم المعلم سعيد الحرَّاز في وجود عريس معرفة، فسأله الحاج صديق العباسي عن عمره، فقال المعلم سعيد الحرَّاز:

- يكبرني بفارق بسيط.

فقال الحاج صديق العباسي:

- كلما كبر رجح عقله.

ارتدى حسين الرُّز ما ورد على خاطره، وصبغ شعره بأصباغ طبيعية، وذهب يومها وهو يرتدي حذاءً جلديًّا لمعًا، وبنطالًا أسود، وقميصًا أبيض خفيفًا مع بدلة صوف إنجليزي، وفُوجِئ في أثناء ذلك باهتمامه الشديد بظهوره بالمظهر اللائق، ونبضات قلبه المضطربة كأنه مشرف على الزواج لأول مرة في حياته.

اصطحبه المعلم سعيد الحرَّاز بضجة كافية، ومهد له بمقدمة مناسبة، واستقبلوه استقبالًا جيدًا، ما عزز ثقته بنفسه. وعندما دخلت عليهم نادية العباسي، مسه وهج طراوتها وعمرها الصغير، فابتسم بسعادة واضحة. كانت تعامله بالخجل المناسب لفتاة ما زالت في اللفة، ولا تنظر إليه كثيرًا، وتبتسم بأدب على القفشات في

حديث الكبار، حتى اتفقوا على الأمور المبدئية، وقرر حسين الرُّز تجديد شقة عابدين في هذا الحين، حتى يعيدها إلى ما كانت عليه بعدما حولها إلى متحف حقيقي. لم يكن أحد يعرف بما يفعله هذا، وظل يخفيه عن در الشهوار حتى لاحظت التجديدات الواضحة في الشقة، فسألته بمكر عما يفعله، فقال: «لا شيء؛ كل شيء يحتاج إلى تجديد الدم.»

كان جزء من إعجابها به هو قدرته الاستثنائية على فعل ما لا يستطيع أحد فعله. رأته سببًا متجددًا للشعور بالإحراج؛ لأنه يثبت أن كل شيء ممكن، وخاصة في شؤون الحب؛ فرغم عزلته الدائمة وحياته لفترة من دون لمبة بطاح، استطاع الخوض في مجالات الحب المعقدة رغم تخطيه الخامسة والسبعين، بصحة مناسبة، متجاوزًا قلقه الشخصي وخبراته الصعبة ونفاد الصبر المرتبط بالشيخوخة، الذي جعله ينتقد كل ما حوله بسهولة، ويتعامل بشك مع الأحداث الجديدة.

علاقتها بمصطفى نفعة صارت مرفأ أمان بلا ضجيج، وانقطعت علاقتهما الحميمة بعد فترة من كبر سن سيف الدين، وانشغالها المكثف به، حتى صارت أشبه بعلاقة صديقين قريبين قائمة على العشرة والاعتياد.

كانت تلاحظ تأثيرها بسهولة على بقية أعضاء هيئة التدريس والطلبة، عندما عادت من فترة النقاهة المستحقة، تبدل بين ثيابها طبقًا لموضة التسعينيات، وخاصة عويناتها الشمسية، وتختار عطورًا عالمية قرأت عنها بعناية، وتظهر في سن تصغر عن سنها الحقيقية بعقد على الأقل، مع أنها في الأربعينيات. وكانت تتلقى الإعجاب بسهولة كأمر طبيعي من طلابها الأكثر إخلاصًا وزملاء القسم، حتى عُدَّت من أساطير الموضة في الجامعة.

ولأنها كانت تعرف سمعتها هذه والقاعات تمتلئ عندما تكون محاضرة لها؛ بسبب طريقتها الخاصة في مزج ما يجري بالمدينة مع الحياة الشخصية، فتشرح مثلًا أمرًا متعلقًا بفيلم معاصر وتجعله دليلًا على تغير اجتماعي ما، أو تمزج السياسة بإعلانات طارق نور الشهيرة وقتها، التي غيرت من طريقة التفكير العام، فصار محتوى الإعلان أهم من المنتج نفسه، وكل ذلك وهي محتفظة بظرافة واضحة وخفة مناسبة لتتحرك في القاعة وهي تعرض صورًا من صنعها. كانت تنتظر عرض فيديو معين، فتطفئ أنوار القاعة، وتدفع الجميع إلى الحياة في حلمها الخاص وهوسها الشخصي؛ إعلانات ولقطات من أفلام خيري بشارة ويوسف شاهين وعاطف الطيب، وفيديوهات شخصية التقطتها للقاهرة مساءً في فورة اندماجها بعودتها إلى ذاتها كما ستكتب في ما بعد، وهناك، تلقت عرضًا طريفًا من مصور لبناني كبير، حضر لها ندوة قالت فيها إن كل شيء في حياتنا يمكن أن يكون رمزًا لشيء أكبر، واستعانت بصوره الخاصة التي التقطها للقاهرة في الثمانينيات والتسعينيات، فشكرها بحرارة، ثم عرض عليها دون خجل أن يصور وجهها الفرعوني، كما ذكر، على خلفيات قاهرية مناسبة. قبلت بلا تردد، وأخبرت مصطفى نفعة بالقصة وهي تضحك، فقال لها بهدوئه المعهود: «ستكونين مشهورة مثل يسرا!»

وذهبت مع المصور إلى مواقع تاريخية عدة، بعدما تركت سيف الدين في المدرسة هذا اليوم، وفهمت منه ما ستفعله حتى تكون الصور مرتاحة وحلوة، واكتشفت تحت حرارة الشمس انجذابها الطبيعي والعادي إلى الشهرة، وشعورها بأنها في مكانها الطبيعي، والتُقِطت لها صورة صارت مشهورة بعدها، تُظهِر رأسها ببروفيل جانبي وهي تطل على المدينة من فوق مئذنة ابن طولون، وهي الصورة التي سترافق ندواتها وقاعات المحاضرات بعدها.

أقامت معرضًا -بالتعاون مع المصور اللبناني- عن علاقتها بالمدينة، وحضره أغلب الأساتذة والطلبة، وجاءه سيف الدين وهو يشعر بالخجل، وسار بين الصور الكبيرة يتأمل الصور المميزة والمختلفة لأمه في مواضع عدة. كانت من اللحظات التي غيرته بعدها؛ حيوية در الشهوار، ورغبتها في التجربة، واهتمامها بمظهرها كأنها فنانة، كلها دفعته إلى الشعور بالاستفزاز الحميد، والغيرة الخفيفة من أمه. كان يلاحظ نشاطها الحقيقي في البيت وخارجه، واستعادتها لياقتها بسهولة بعد فترة من الكمون، واهتمامها بالرياضة اليومية في الشوارع القريبة، وتناول الخضروات والورقيات صباحًا، فيقلدها بهدوء، ثم يحاول تمثيل دورها في المدرسة أو وهو يجلس ويتحدث في الفصل أو في إحدى مجموعات الدروس الخصوصية، حتى بدأ في خطوة كتابة كتاب عنها، بلغة ضعيفة ولكنها واعدة، وكان يُطلِع حسين الرُّز عليه فيشجعه على استكمال الكتاب، ويقول: «بنتي در الشهوار تُكتَب عنها كتب.»

والحقيقة أن هذا الاستفزاز قد طال بعض أساتذة النقد السينمائي المشاهير، عندما وجدوا در الشهوار تزاحمهم بمقالات عن رمزية أفلام بعينها، وعلاقتها بالقاهرة، في الأهرام الأسبوعي الإنجليزي، أو لقاءات سريعة بقناة النايل تي في، وجعلهم هذا يتطاولون عليها بمقالات تفند خطأ نظرتها الأكاديمية، وتتحدث عن ثيابها الفاخرة وعلاقة ذلك بأبيها المرحوم درويش عبد الغني، المشارك الشهير في قضية الفساد المعروفة بقضية الفراخ. وقد ردت در الشهوار بلا مبالاة حقيقية، ولكنها كانت تخفي داخلها سعادة بالجدل المثار حولها، مثلما تعلمت من حسين الرُّز.

وطالت أوقات مكوثها في شقة الدقي، تُعِدُّ دراساتها ببال رائق، مع غداءات خفيفة، كأنها ما زالت عزباء. كانت تفكر في الاستعداد العملي لفترة صبا سيف الدين، بالاستقلال الشكلي عن شقة مصر

الجديدة بشقة الدقي، والحفاظ على عزلتها من التآكل. خلصت أن إدراكها منذ البداية أن انشغال مصطفى نفعة الدائم يؤهله إلى دور الزوج الطيب، الذي يشرف على الأشياء بمنظور إلهي ناءٍ، ولا يهتم بحضور در الشهوار إلا في الإجازات وفترات سفرهما معًا، فيمعن في شراء الهدايا والصرف المبالغ فيه على التزحلق على الجليد في لبنان مثلًا أو النمسا، ويستمع لها بإنصات، ولا يعترض على آرائها الحادة التي توزعها على الحياة، كان مناسبًا لطبيعتها بالفعل، وأن عزلة سيف الدين، التي وُلِد، بها أهلته أن يحيا دون الحاجة الماسة إلى أمه، وهو ما وجدته در الشهوار نعمة لم تقف على أبعادها إلا عندما بدأت تحلق منفردة في سماء خاصة.

كانت تتلقى الإعجاب تلميحًا أو مباشرة على نحو عادي، وتحتفظ بابتسامة مرحبة توزعها على الجميع، ولكنها تحيط نفسها بهالة غموض تمنع أي أحد من الاقتراب المبالغ فيه منها.

ذات يوم، لاحظت اقترابًا حميمًا من طالب عندها في الفرقة الرابعة، اسمه علي الغندور، يدرس معها بجدية، وعنده مشروع طموح بشأن التبدلات التي يقيمها كوبري عندما يُقام في مكان معين، وكان يحلل كوبري أكتوبر تحديدًا، الذي عُدَّ أطول وأكبر كباري المدينة. كانت تشرف معه على المشروع في الجامعة الأمريكية، وخرجت معه مرتين؛ لتُعلِّمه الطريقة الصحيحة لإجراء بحث ميداني.

مسه وهجها الواضح، وشهرتها التي تتعامل معها على أنها أمر طبيعي، فبدأ يتجاوز فكرة التحضير المناسب للدرس إلى الهوس بالحديث معها في أي وقت، وافتعال موضوعات تتيح له مناقشتها لفترة أطول. التقطت در الشهوار إعجابه بسهولة. ورغم التزامها الأخلاقي الصارم، شعرت بسعادة خفية لأن شابًّا يصغرها بعشرين عامًا على الأقل يكن لها إعجابًا على هذا النحو. تركته قليلًا على

أساس أنها تتحكم في الموضوع برمته، ولكنها كانت تراقب ما يجري باستمتاع، ثم محته بسهولة عندما بدأت تتعامل معه بجدية واضحة تُشبِّهها بأمينة الرُّز، وتضع حدودًا لأوقات عملهما المشترك. وفي محاضرة من المحاضرات، أثارت فكرة عدم تفسير التقارب بين الزملاء في الدراسة بصورة متقدمة، والتأثر الكبير بالشرق؛ فلا علاقة بين الرجل والمرأة سوى الحب، وقالت: «يعني نحن هنا، وفي الجامعة الأمريكية، يعني متعلمين ومدفوع فينا الشيء الفلاني، وما زلنا نتعامل بطريقة رجل الشارع البسيط.»

لعبتها الشريرة هذه لم تخبر عنها أحدًا، ولا حتى حسين الرُّز. كانت تكتبها ضمن يومياتها، وهي تتأمل طريقتها بحياد علمي، وتبرر لنفسها سبب ذلك برغبتها الطبيعية كامرأة في إثارة الإعجاب دون الاحتراق بناره. كانت تسابق الزمن للحفاظ على وجودها المستقل، فمنعت مثلًا سيف الدين أن يناديها بهامي، وعلمته أن يعاملها كصديقة اسمها در الشهوار، ويقول لها درة أو در كما ينادونها في العائلة، وهو ما وجدته أمينة الرُّز تجديفًا حقيقيًّا وقبسًا من الجنون الطبيعي عند در الشهوار، فقالت بصرامة وهم في زيارة يوم جمعة: «أنا اسمي ستُّو أمينة أو تيزا أمينة أو أمينة هانم، ولا تُطبَّق علينا قواعد در الشهوار لأنها أمريكية ونحن مصريون.»

الكلمات، التي قالتها أمينة الرُّز بجدية ممزوجة بالسخرية، كانت ضمن الاتهامات التي تُوجَّه سرًّا إلى در الشهوار بالتعالي أو طريقتها الخاصة بالحديث كهانم، فكانت تُحسَب على النظام، ويتردد في حقها شائعات تؤكد أن نجاحها ومشروعاتها، التي تقيمها بسهولة عن موضوعات سياسية خلافية، بسبب علاقة أمها بسوزان مبارك. ومع التنقيب والبحث، اكتُشِف وجود حسين الرُّز في حياتها خالًا غير رسمي، وكان ذلك كافيًا لوصول أحاديث النميمة إليها بأنها قريبة لتاجر بطاطس شيبسي شهير، ومن أسرة متواضعة في النهاية،

رغم ما تتعامل به كأنها من وريثات الأسر الكبيرة الثرية.

كانت غيرة طبيعية، يحترق بها الوسط التعليمي عند بزوغ نجم مثير للاهتمام، تعاملت معها در الشهوار بسعادة، وقررت جلب حسين الرُّز معها ذات يوم إلى الجامعة؛ ليحكي التغيرات التي طرأت على المجتمع من خلال رصده لما طرأ على الزبائن وثيابهم وعاداتهم.

حضر بالفعل بعدها بأيام، وجلس على مقعد المحاضرات يتحدث عن التغيرات التي حدث للزبائن، وطريقتهم في الشراء والتعامل، وكان يتحدث بسلطة طبيعية لرجل يعرف ما يقول، وانبهر به أغلب الجالسين، فسألوه عن رأيه في ما يجري على الساحة السياسية، وما يجري في المجتمع ككل، وناقشوه بشأن نهاية التاريخ في التسعينيات، التي تنبأ بها علماء اجتماع كثيرون، فخاض في نظريته الخاصة عن معرفة المستقبل من خلال فك أحجية «ألف ليلة وليلة»، وكرر نظرية العام الأربعين التي سيتغير فيها وجه كل شيء إلى الأحسن أو الأسوأ، وهو ما عُدَّ طرافة أُضيفت إلى طرافة قصصه؛ لأنه تحدث بلا قلق عن ابن السلطان الذي سينهي حكم أبيه؛ لأنه سيعطي المسوغ الكافي لدولة خفية تريد الظهور، وترى نفسها الأحق في الحكم منذ الخمسينيات.

كان رأيه في الثورة بصفتها مجايلًا لها مثيرًا للجدل. والحقيقة أن حسين الرُّز، بقصصه عما جرى لقصر عابدين، واختلاف الاحتفالات، التي كانت تحدث على شرفه وتشريفات الملك، عما جرى بعدها من هجره لنصف قرن، وقصره على مناسبات قليلة، كان يعدُّ ذلك تلخيصًا لمصر ما بعد ثورة يوليو. ومع حساباته الخاصة، حذَّر أن أي عمل سياسي يحدث في يوليو يكون وجه نحس على البلاد.

انتقد سياسات عبد الناصر بحدة، وذكر الخوف الذي كان الجميع يشعرون به من الحديث عن أي شيء، وتحول البلد إلى مخبرين، وقال إن السادات كان رجلًا طيبًا ولكنه بلا رؤية اقتصادية واضحة، ولم يستطع التحكم في مقدرات الدولة وإعادة الأوضاع إلى ما قبل ٥٢، وقال إن مبارك ديمقراطي الهوى لكنه لا يملك الأدوات الديمقراطية، ولم يُضِف ما عرفه من تحليلاته لـ«ألف ليلة وليلة» وعدد الأحرف والقصص أنه الرئيس الأخير لهذه الحلقة، ويبدأ بعده زمن جديد لحلقة ثانية.

شعرت در الشهوار بالسعادة الشديدة لما أبداه حسين الرُّز من لياقة في الشرح. ومع نجاحها المدوي في إثبات نسبها إلى خالها بلا خجل اجتماعي، طُلِب منها إحضاره مجددًا لطريقته العفوية في الحديث وقفشاته الذكية وحس الدعابة لديه، ووافقت بعدما رأت انجذاب جميع الطلبة إليه، ووجدت أنها طريقة جديدة في المحاضرة، تضعهم في الشارع وتعطيهم شعورًا بالتحقق.

انتصار حسين الرُّز هذا، ووجوده في الجامعة الأمريكية، بين طلبة يتحدثون بلغتين، وأعضاء هيئة تدريس جادين، ولوحات وصور وقاعات مصممة على الطريقة الإسلامية، أكسباه نفحة غرور كان ينتظر وجودها، فخرج بمزاج رائق، وقرر دخول السينما ليمتع نفسه، فدخل فيلم «همام في أمستردام»، وضحك كثيرًا مع الجموع لأنها تضحك، ولكنه لم يحبه مثل الأفلام القديمة، وتذكر مجموعات صوره، فقرر استعادة البحث عن صور تناسب تصوره عن حياته، يقيم بها معرضًا في الجامعة الأمريكية عند در الشهوار، بعنوان «حياتي»، يحكي فيه قصته كما يراها؛ لأن قلقه من اختفاء من يعرفونها ووضع ثقلها على كتفيه كافيان تمامًا لفعل ذلك.

انشغل مرة أخرى بجمع الصور، حتى إنه لم يعد إلى المعلم سعيد

الحـرَّاز في شـأن نادية العباسي، فسـأله ذات يـوم عـما يعطـل الأمـور لديـه، فقـال حسـين الـرُّز: «أسـوي مسـألة حيـاتي وسـأعود.»

تعجـب لأنـه لم يكـن منشـغلًا بنادية كـما توقـع، واندمـج أكثـر في معالجـة موضـوع قصصـه هـذا. صـارح در الشـهوار برغبتـه في معـرض عـن حياتـه، فأعجبتهـا الفكـرة، ونظمتهـا معـه بـما يناسـب مـا تدرسـه، واحتفظـت بذلـك سرًّا بعيـدًا عـن أمينـة الـرُّز التـي كانـت تقـترب مـن السـبعين بتصميـم وعزيمـة لا تلـين في العمـل. خلقهـا، الـذي ضـاق كثـيرًا، بـات علامـة مسـجلة لهـا، يـردد عنـه لطفـي درويـش وهـي لا تسـمعه: «ولا بـوز أمينـة رزق!»

عـلى العكـس مـن ذلـك، كانـت ألفـت زيـن الديـن تـزداد انبسـاطًا وتتمتـع بفضائـل الشـيخوخة كـما هـي. وظفـت لديهـا طاهيـة لا تفعـل شيئًا سـوى الطهـي لأسرتي حلمـي ولطفـي درويـش؛ لأن ابنتيها سـميرة ومشـيرة كانتـا أقـل صـبرًا مـن احتـمال الطهـي لأورطـة مـن النـاس، وكانـت تتابـع برامـج الطهـي عـلى القنـوات الجديـدة، مـن الـدش الـذي اشـتراه الشـقيقين، لشـغل زوجتيهـما الانشـغال المبـارك وقـت عملهـا في عيادتهـما، وتكتـب الوصفـات في دفـتر أسـمته دفـتر الطهـي الحسـن، وتعطيـه بعدهـا للطاهيـة النوبيـة التـي كان اسـمها حبوبـة، والتـي ورثـت الطهـي مـن سـلالة أصيلـة في الطبـخ بأصـول القصـور، وظلـت الصنعـة السريـة لهـم تنتقـل مـن دنقـلا مـرورًا بجـد شـهير اسـمه الطاهيـة النـوبي كان يمسـك بالطهـي في قليـوب أيـام الملكيـة، وبعدهـا عـلى طهـاة متعدديـن عملـوا في البواخـر النيليـة التـي تسـبح بتكاسـل بـين الأقـصر وأسـوان.

القصـد، كان لحبوبـة يـدان مـن ذهـب، تُعِـدُّ الطعـام بسرعـة وإتقـان، وكـما تطلبـه ألفـت زيـن الديـن، وقـد خرقـت بـه خرقًـا سـيئًا في نظـام أمينـة الـرُّز؛ فرغـم إجـادة رضـا الطهـي عـلى أصـول سـتي – كـما كانـت

تـردد عــن أمينــة الــرُّز، التــي تتضمــن عــدم اســتخدام مــرق الدجــاج لأنــه بضاعــة المــرأة الفاشــلة، وبعــض الأسرار مثــل تحمــير المحــشي الكرنـب في السـمن بعـد الانتهـاء مـن طهيـه، وعمـل القلقـاس بالأخضر وليـس الأحمـر، ووضـع حـزم مـن النعنـاع مـع الكفتـة في أثنـاء صناعتهـا، ونقـع البطاطـس في الميـاه قبـل وضعهـا في الصينيـة لأن ذلـك يعطيهـا مذاقًـا رمليًّـا جميـلًا، لم تفُـق حبوبـة، وسـببت الأزمـة عندمـا لاحظـت أمينـة الـرُّز عزوفًـا خفيفًـا عـن تنـاول غـداءات الجُمَـع أو عشـاءات السـبت، ولم يكـن ثمـة مـن يملـك الشـجاعة لإخبارهـا الحقيقـة سـوى أمينـة حلمـي، التـي قالـت بصلابـة تشـبه صلابـة أمينـة نفسـها مـع شيء مـن الصلافـة: «الأكل عنـد تيتـا ألفـت خير مـن الأكل عنـدك يـا تيتـا.»

لم تفهـم أمينـة الـرُّز سـبب الاسـتفزاز الـذي شـعرت بـه عنـد رؤيتهـا أمينــة وهــي تقــف لتواجههــا بصلــف ســوى أن الزمــن دار دورتــه، ووقفـت أمامهـا مفعوصـة تحدثهـا بـما لا ترغـب. ولكـن حلمـي، الأكثـر هـدوءًا دائـمًا، والـذي يحـب التدقيـق في انفعـالات الجالسـين حولـه دون الخـوض في أحاديـث مطولـة تضعـه في الخطـأ، في عـادة تعلمهـا مـن الطـب؛ إذ كان ثمـة أسـتاذ جامعـي يخبرهـم دائـمًا أن مـا يجـب أن يتطـور دائـمًا في جسـد أي طبيـب هـو شـيئان: يـداه وأذنـاه؛ وذلـك للكشـف والاسـتماع، قـال بهـدوء للطفـي ودر الشـهوار عـن سـبب شـعور أمينـة الـرُّز بالاسـتفزاز مـن أمينـة الصغـيرة: «رأت فيهـا نفسـها.»

يوم

١٧

أشرفت أمينة الرُّز بعد هذه الحادثة على الطهي بنفسها، وكانت أحيانًا تضيف بعض المأكولات القديمة وتؤكد أنها عثمانية أصيلة، ورثوها من الجد الرُّز الكبير. على عكس حسين الرُّز، كانت أمينة تمتلك القدرة على إمساك ناصية الحكايات في ما يخص الأسرة، معززة بالصور، تحكي عن حسن الرُّز وصولاته وجولاته القانونية القديمة، وإسهاماته في المكتبة العامة بكتبه عن القومية المصرية، التي استطاعت أن تُدخِلها ضمن مناهج التعليم في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، وتُرجِمت في الجامعة الأمريكية عن طريق در الشهوار، وتخوض في سيرة السيد رمضان الرُّز، فتظهره أبًا طيبًا لا يُوجَد منه اثنان، وتضع له قائمة من العادات الملوكي التي تخص أبناء الأتراك وحدهم دونًا عن بقية البشر، وتعرض تطورات شقة المبتديان من خلال صور كثيرة، لتُظهِر سيرتها بمظهر حسن، لا يشوبه شائبة.

عندما كانت صورة حسين الرُّز تظهر سريعًا مثل شبح مجهول غير مرحب به، كانت أمينة الرُّز تتجاوزها، إلا لو سأل أحدهم عنها فتقول: «أسرتنا لا تقبل من لا يحترمون أنفسهم، ولذلك؛ أخرجناه منذ زمن.»

كان الذي يسمع تلك القصص ويتعجب هو سيف الدين، الذي لا تنقصه القدرة اللازمة على التحليل والشعور بالكذب في ما تقوله جدته القوية، فكان يذهب بالقصص كما هي ويسأل حسين الرُّز، فيُفاجَأ بقصص أخرى تخالف قصص أمينة الرُّز؛ فالسيد رمضان كان أبًا طيبًا ولكنه فرق بين الإخوة، وحسن الرُّز كانت له إسهامات قوية في القانون ولكنه أكل حق حسين الرُّز مع أنه رجل فاضل، وأمينة الرُّز نفسها تجاوزت في حق أخيها بالحياة كما يتراءى له،

وسعت بكل الطرق لحرمانه من ميراثه، ولفظته تمامًا لعقد لم تُحَلَّ منذ الطفولة. وكان حسين الرُّز يتحدث عن هذا على نحو لاذع، وبدون قلق ضمير من عمر سيف الدين الغض.

سأل سيف الدين أمه بعدها عن الحكاية الحقيقية في ما قيل له، فشعرت در الشهوار بالحيرة؛ لأن أي إجابة يمكن أن تمس صورة أمينة الرُّز أو حسين، ولذلك؛ قالت بحس عملي، مع يقينها من غضب أمينة الرُّز الكاسح لو عرفت أن سيف الدين يقابل حسين الرُّز: «مشكلات الكبار مسؤولية الكبار.»

ولكن سيف الدين لم يتوقف عند هذه الإجابة، فصار يستفهم من حسين الرُّز عن قصص بعينها بين الحين والآخر، ويناقشه بنضج كبار، ويتعجب من عدم وجود أي صور لدى حسين الرُّز تؤكد ما يقوله، ولذلك؛ قرر حسين الرُّز أن يسرد عليه قصته كلها منذ زمن الزمن، يكتبها سيف الدين بخطه الجميل في مجموعة من الكراريس والورق الفلوسكاب، يتحدث فيها حسين الرُّز بحرية عما يراه تأريخًا لحياته.

كانا يفعلان ذلك في كل مرة يزوره فيها سيف الدين، من دون علم در الشهوار نفسها. يجلسان في الشرفة، ويُعِدُّ حسين الرُّز القهوة لسيف الدين كأنه رجل كبير، ويبدأ في القص، ولم يكن يتجاوز قصصه مع الحب كما هو متوقع، ولكن يخوض فيها بلا خوف، ويتناولها بحس حاضر يدفعه إلى البكاء الخفيف أحيانًا أو السكوت والنظر بحنين حوله إلى القصر القريب الذي كان يؤكد أنه يعدُّه قصره من كثرة ما عاش قربه.

في الوقت نفس، حمى إثبات الذات خارج العمل هذه، التي أصابت أمينة الرُّز، ساعدتها على النجاح في جذب اهتمام أبنائها وأحفادها إلى الطعام، الذي أعدته بنفسها كل جمعة، وكانت من الهمة

الكافية لتحاول تقليد طريقة ألفت زين الدين في مواجهة الشيخوخة، فغيرت من موضة ثيابها بثياب تسعيناتي متألقة: جواكت منقطة بالأسود واسعة الكتفين، أو جواكت حمراء وبيضاء فاقعة اللون، مع تسريحة شعر جديدة وصبغة تعطيه لون كستنائي متوهج، وبدأت تتهاون قليلًا في السماح بحضور أفلام فيديو في شقتها، والضحك عليها بلا خجل، بصوت مرتفع، ولكن أكثر ما شغلها هذه الفترة هو كتاب تضع فيه سيرتها الخاصة كسيدة من سيدات المجتمع، خاصة بعد حدث تعرضت له. في إحدى المؤتمرات التي عُقِدت في السفارة الأمريكية لنساء ناجحات ومجدات من مصر، ورغم عدم إتقانها الإنجليزية، كانت تتحدث بلياقة كافية مع الحضور، ومنهم زوجة سفير سابق بأمريكا، كانت تحكي لهم عن كتاب يكتبه زوجها عن ذكرياته الدبلوماسية، خصوصًا أيام معاهدة كامب ديفيد، وتحكي هي عن رؤيتها لكيسنجر وكارتر والسادات، وجلوسها معهم على العشاء، جنبًا إلى جنب. ولما سألت أمينة الرُّز بدافع الغيرة وحدها عن كيفية إثبات هذه القصص في عالم من كتب السيرة الذاتية، قالت السيدة بهدوء: «عنده صور لكل شيء.»

كانت تريد إقامة سيرة لها، تشرف عليها في حياة عينها، تتحدث فيها عن مجد عائلة الرُّز. وقد أقنعت نفسها بأهمية ذلك بقصة لم تحدث، ذكرت فيها أن درويش عبد الغني قد أوصاها بذلك لأن الزمن والعمر لم يسعفاه.

وكان من الطبيعي أن تقف كل يوم عند سوبيا الرحماني، في عادة أكل السوبيا التي ظهرت لديها في السنوات الأخيرة، تتبادل الحديث كهانم مع الباعة، وتؤكد أن المحل كان أول محل يبيع أقراص الجبن الرومي التركي في أزمنة بعيدة، وكان صاحب المحل يهز رأسه ويصدقها لسلطتها فقط، وكانت تضيف السوبيا في معرض أحاديثها مع زيارات زميلات المجلس أو معارف قدامى منذ زمن الأوقاف،



وتُخرِج كؤوسًا مميزة، وتطلب من رضا أن تملأها بالمزز من الرحماني، وتقدمها في تقليعة خاصة بها مع القرفة وقطع من الكيك البرتقال، وتؤكد أن ذلك تقليد يخص العائلات الكبيرة في ريزا.

حتى تكتب كتابها هذا؛ طلبت من در الشهوار المساعدة دون أن تكتب مكانها؛ لأنها أرادت الاحتفاظ بلغتها الخاصة، كما فعلت في كتابها السابق، فساعدتها در الشهوار على التواصل مع بعض الأساتذة المسؤولين عن قسم النشر في الجامعة الأمريكية؛ لأنها لم تحب طبعة الهيئة العامة للكتاب لكتابها عن حقوق المرأة، وتوصلوا معها إلى صيغة متفق عليها لصورة الكتاب كسيرة ذاتية لامرأة تدافع عن حقوق بنات جنسها منذ عشرين عامًا، ودافعت عن حق الدولة في أراضيها قبل ذلك بنصف قرن.

تورَّدت أمينة الرُّز بسبب أمر الكتاب، وصارت تسهر ليلًا على غير عادتها، تدون بيديها المرتعشتين ما يتراءى لها من قصص لسيرتها، وتُجمِّل رغمًا عنها أحداثًا بعينها، وتتخذ صيغة السرية في ما تكتب؛ إذ تصورت، من خلال تذكر غائم لمقالات «بصراحة» لهيكل، أن كلمات مثل: «ودعوني أخبركم سرًّا سيكشف كل شيء!» أو «وهنا ظهر السر الكبير!!!» مع علامات تعجب، من مفاتيح طريقته في جذب الجمهور، ولذلك؛ ملأت بها الكتاب، وكانت تطلب كتبًا بعينها من در الشهوار، حتى تقرأ فيها وتعرف شيئًا عن التاريخ والحركات النسوية تحديدًا.

سيمون دي بوفوار مثلًا، التي سمعت من أكثر من سيدة في المجلس أنها عرابة النسوية في العالم بكتابها الشهير عن الجنس الآخر، طلبت كتبها من در الشهوار، فسألتها عن السبب فقالت: «بدأنا في الزمن نفسه معًا، وأريد إثبات أننا رائدات هنا في النسوية منذ أيام جدتنا حتشبسوت.»

تناقضها هذا كان مثيرًا للسخرية والتعجب أحيانًا؛ فمع تمسكها بأحاديثها عن العرق التركي والدم الريزوي الذي أعطى لها ولأسرتها اللقب، وأنفها العثماني الروماني الكبير، كانت تتمسك بالدم الفرعوني في أثناء حمى كتابة سيرتها، وتتحدث في اجتماعات النميمة وأيام الجُمَع عن كونها الامتداد الأصيل للملكات مصر القديمة، وتتذكر بدقة اجتهادات حسن الرُّز في هذا الشأن، وتأكيده أن مصر تُمَصِّر من فيها، وأن الجنس المصري مميز إلى الحد الذي يجعله جنسًا أصيلًا يبتلع الوافدين ويُخرِجهم بصيغة مناسبة له. شاركت في ندوات وزارة الآثار، ووضعت كحلًا كثيفًا حول عينيها لتؤكد شبهها بالملكات، وكانت تقول لدر الشهوار إنها -بوجهها الذي ازدادت تقاطيعه حدة مع الزمن- تلوح مثل أميرة فرعونية بصور المصور اللبناني هذا، حتى علَّقت إحدى تلك الصور في الصالة، وكانت تفخر بها عندما تأتيها الزيارات وتقول: «ابنتي در الشهوار نفرتيتي هذا الزمن.»

ولكنها سرعان ما كانت تؤكد انتمائها التركي عندما تشعر أن المد المصري سيأخذها، فتصف جدتها التي كانت تقول «أمان يا ليل» كما أخبرها السيد رمضان، مع أن أحدًا لم يرَها؛ لأنها ماتت مزارعة شاي مجدة في مرتفعات جبال ريزة، عن عمر ١٢٠ عامًا، وهي التي ستُورِّث أمينة الرُّز العمر الطويل والصحة السليمة والقدرة الاستثنائية على الصرامة والجدية في التعامل بلا قلب.

عندما سمعت در الشهوار عن سيمون دي بوفوار، قالت مازحة:

- مع الأسف، وأثبتت أن النساء القويات يقعن مع الرجال الخائنين.

فلما استفهمت منها أمينة الرُّز عن سبب ذلك، قالت در الشهوار بهدوء:

- كانت تجلب بنات الجامعة إلى مكتب سارتر حبيبها حتى يظل معها.

فقالت أمينة الرُّز وقد انتفضت غضبًا:

- أمينة الرُّز غير مسؤولة إلا عن أفعال أمينة الرُّز، والحمد لله كل أفعالي تثبت كرامتي.

اضطربت عند سماعها المعلومة، واستعادت أحقادها القديمة دفعة واحدة. لم تكتب طويلًا عن درويش عبد الغني، وذكرت سيرته كشريك حياة لفترة، سرعان ما افترقا لأنه لم يتحمل عملها السياسي والاجتماعي الكبير، ومحت سيرة حسين الرُّز تمامًا، ولكنها تذكرت كل ما جرى بينهما على وهج من ضوء أحمر، وارتاحت إلى الشعور بأنها مظلومة، فتجاوزت الحد في التفكير بالكوارث التي عملها، وبعد تردد، وضعت قصته من منطلق الحكي عما تتعرض له المرأة من بعض رجال أسرتها، ولكنها عادت وحذفت هذا الجزء قلقًا على سمعتها؛ إذ فكرت في عمل حفلة إطلاق للكتاب فور انتهائها منه في معرض بيكاسو للرسم في الزمالك، بمصاحبة فرقة محلية تعزف الموسيقى الغربية بجدية ورصانة.

وانتهت من الكتاب بعد ذلك بعام، فعرضته على در الشهوار، وهي تخفي قلقًا من رأيها. اطلعت عليه در الشهوار سريعًا، ولاحظت طريقة أمينة الرُّز التجميلية لكل شيء في حياتها، وتوقفت عند بعض آرائها بالفحص والتمحيص، ثم أصدرت حكمها النهائي وهي تبتسم: «سيرة حياة رئيسة جمهورية.»

لم تأخذ أمينة الرُّز كلامها على محمل المزاح، وانهمكت في البحث عن صورة مناسبة لغلاف الكتاب، تشبه فيها مارجريت تاتشر كما ترى نفسها، وكما تُلقَّب في المجلس، وعثرت على صورة لها وهي تقف بطاقم موحد اللون، من بلوزة وجيب بلون السماء، وتُعلِّق

بـروش عـلى هيئـة ديـك مغـرور، مرصـع بالألمـاس، وتبتسـم جـوار سـيدة ألمانيـة تصـادف أنهـا تشـبهها إلى حـد مـا.

عهـدت بالكتـاب إلى دار نـشر أخـرى، بعدمـا تجـاوزت موضـوع الجامعـة الأمريكيـة بسـبب معضلـة النـشر بالإنجليزيـة، وكتبـت مقدمـة عريضـة في حـب الوطـن، ومقدمـة شـكر لسـوزان مبـارك، وصـدر الكتـاب، واشـترت خمسـين نسـخة عـلى حسـابها، وزعتهـا عـلى أعضـاء المجلـس ورئاسـة الجمهوريـة، ممثلـة في سـوزان مبـارك، ووزيـرات سـابقات وبعـض النافذيـن، وعـلى در الشـهوار حتـى توزعـه في الجامعـة الأمريكيـة، وانتظـرت الانطبـاع الأول لتعـرف مـا جـرى.

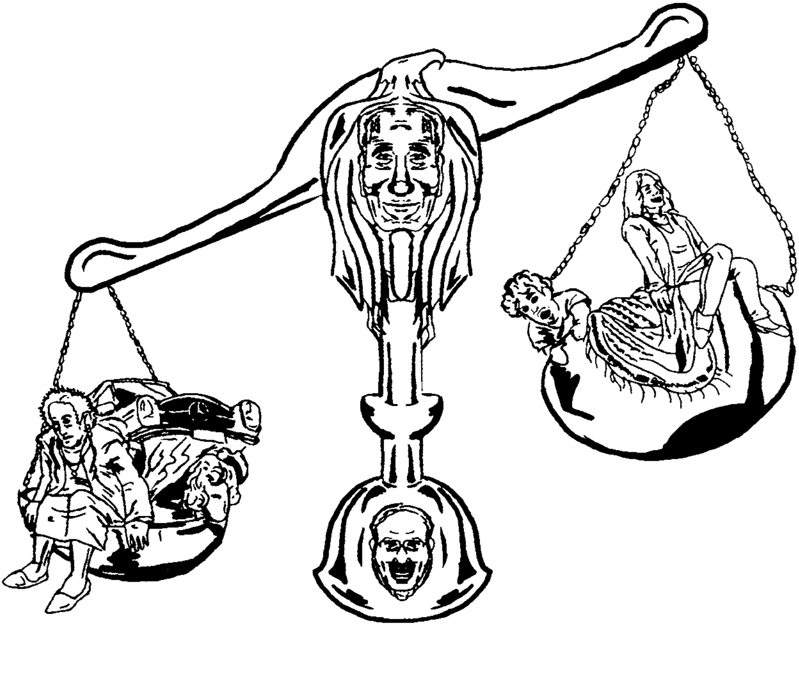
بعـد ذلـك، طبعـت بعـض النسـخ ووضعتهـا في مكتبـة المجلـس، وفي مكتبهـا، فكانـت تضعـه جـوار اللافتـة التـي كُتِـب عليهـا اسـمها فـوق المكتـب، ليلاحظـه الـزوار، فيسـألون عنـه، فتعطيـه لهـم وهـي تبتسـم بخجـل مصطنـع وتقـول: «كتـاب حيـاتي. مـا الـذي أسـتطيع عملـه؟ طُلِـب منـي مـع أننـي امـرأة عاديـة في مهـد هـذا الوطـن الفسـيح.»

كانـت تفتخـر أنـه ليـس لحياتهـا رجـل، وحتـى لطفـي وحلمـي، رغـم نجاحهـما المـدوي في الطـب؛ إذ أجـرى لطفـي عمليـة قلـب ناجحـة لمسـؤول كبـير وقتهـا، وخـرج في الصحـف بصـور مبتسـمة وهـو يرتـدي معطـف الطـب، ويقـف جـوار المسـؤول الكبـير، مكتـوب بجانبهـا: «تحيـة لمـن أنقـذ حيـاتي»، وحلمـي الـذي صـار أسـطورة مـن أسـاطير المـخ والأعصـاب مثـل ممـدوح سـلامة وخـيري السـمرة، عيادتـه صـارت متحفًـا للـوح الشـكر والعرفـان في الطـب الناجـح والاستشـارة السـديدة، مـرت عـلى سـيرتهما مـن منطلـق أنهـا صانعتهـما الأولى ومـن مهـدت لهـما الحيـاة الناجحـة.

كانـت تحتمـي بكتابهـا هـذا وغرورهـا عـن شـعورها بالهشاشـة المتعاظمـة مـن فكـرة سـنها، وشـعورها بوجـود تغـير طفيـف في ملامـح

وجهها، وكبر في أنفها الشهير. كانت تتذكر السيد رمضان، وتُفاجَأ أنها صارت تشبهه إلى حد ما، وتشبه حسن الرُّز على نحو أو على آخر، ولكنها لم تعلم أن شبهها كان الأكثر بحسين الرُّز، رغم عدم وجود عنصر الأنف العظيم فيه؛ فأنف حسن الرُّز كان طويلًا مع استقامة حميدة، ومتناسقًا مع الوجه كله، ولذلك؛ كانت تريد الإمساك بالحياة بين يديها بكل قوة، والاندماج في الانشغال الحميم بكل شيء.

رأت هيكل ذات مرة، في حفل مسائي، واقتربت من وهج شهرته وسمرته الرائقة، وكان يقاربها في العمر، يفوقها ببعض السنوات، وأعجبها ذهنه الحاضر وطريقته المميزة في الحديث، فسألته بجرأة عن سر حيويته، فقال بلا تردد: «الدماغ المشغول يقي من الوهم، والوهم يجلب المرض.»



لم ينجح الكتاب على عكس ما توقعت أمينة الرُّز، ولكنه حقق صدى جيدًا في أوساط المقربين، وصار مثل بطاقة تعريف لها، مناسبة لوضعها في إطار مارجريت تاتشر محلية. على الجانب نفسه، كان حسين الرُّز قد بدأ ينتهي في سرد مذكراته على سيف الدين، ولم يقلق من الحديث عن شقة المبتديان التي طُرِد منها منذ عقود طويلة، ولم يستطع العودة إليها ولا أخذ تعويض عليها، وهو الكلام نفسه الذي أخذه سيف الدين كما هو، وردده في إحدى الجُمَع؛ لا لشيء إلا ليرى أثره على المرأة الحديدية، فسألها ببساطة وهو يتجهز للعب البيانو، كما اتفقوا جميعًا بغير إعلان، عن خالو حسين الرُّز ولماذا لا يزورهم، وقال بحزن:

- يحيا وحيدًا مثل الكلب رِكس في فيلا الرجل بجانبنا في مصر الجديدة.

تعكر وجهها في لحظات، وسألت در الشهوار وسط الجلوس:

- أنتِ من قلتِ له هذا؟

فقالت در الشهوار بارتباك:

- لا يا ماما.

فقال سيف الدين:

- أزور خالو حسين، وقد أخبرني بكل شيء.

كانت كارثة، عكرت مزاج اجتماعات الجمعة هذه لفترة طويلة، واستعادت معها أمينة الرُّز قلقها من وجود حسين الرُّز على هامش حياتها مُذكِّرًا دائمًا بحقيقة ما جرى منذ عقود طويلة. كانت ثمة وخزات من وجع الضمير، تأتيها على هيئة شرود مفاجئ، ومحاولة لاستعادة الأحداث من منطلق المظلومية، ثم تنقلب إلى قلق أصيل يدفعها إلى التفكير بخوف في عاقبتها بالآخرة لو سُئِلت عن نصيب

حسين الرُّز، والورقة الخضراء التي اختلقتها مع حسن الرُّز. كانت تجتاحها وقتها دفعات مركزة من عمل الخير، فتسهم في جمع تبرعات لإنشاء حضانة، أو تسهم في حفلات زواج اليتيمات التي تتم في جو من التعرق السعيد، وصخب الدعاية للمجلس، أو دعم مائدة رحمن، أو تتبرع لمسجد السيدة نفيسة أو مسجد السيدة عائشة، وهي كلها دفعات من الندم الروحي تنتهي سريعًا عندما تتم المهمة، وتشعر بالارتياح بعدها لقرارها التاريخي بإخراج حسين من حياتها عندما تسمع أخبار الأسر التي تفككت بسبب وجود أبناء مارقين.

كان حسين الرُّز وقتها يخوض في مشكلة اختفاء عمالته القديمة في المطعم، بعد وفاة عتريس، عاملهم الأثير، عن عمر سبعين عامًا، وهو يصلي الفجر في مسجد السيدة قبل أن يأتي إلى المطعم، وهي الوفاة التي علق عليها حسين الرُّز بقوله: «عاش هو وحمادة مع طاسات الزيت، فماتا موتة تنجيهما من طاسات جهنم.»

مع رحيل فتوح، صبي الطعمية الذي كبر وصار شابًّا بشارب، بعدما قدم اعتذارًا مؤدبًا مقابل إنشاء حياة خاصة في مطعم جديد له وحده، يقف على نصبة طعام في سوق قريب، بعد تشجيع فتاة صغيرة تزوجها، بحث حسين الرُّز عن عمال للمطعم، عن طريق المعارف في البداية، ولم يأته سوى صبية ملولين، كانوا يعملون ليومين تقريبًا ثم يتركون المطعم بلا مقدمات، تحججًا بضعف الراتب أو صعوبة العمل، فاضطُرَّ إلى اللجوء إلى الإعلانات المعلقة على باب المطعم، وكان ذلك عندما رأت حبوبة، طاهية ألفت زين الدين، مباركة اليدين، الإعلان معلقًا على باب المطعم، ومعه إعلان وفاة عتريس، رجل المطعم الأشهر بعد حمادة.

تقدمت لحسين الرُّز بنفسها، وكانت تراه للمرة الأولى. ولأن اسم

الـرُّز قـد تـردد عـلى سـمعها؛ سـألته بخجـل عـن قرابتـه لأسرة أمينـة هانـم الـرُّز، فقـال: «نعـم، أختـي التـي لم أرَهـا منـذ قـرون.»

أخبرتـه عـن أخيهـا حسـونة الـذي يبحـث عـن عمـل في القاهـرة، ونسـبهم العريـق إلى طاهيـة نـوبي شـهير، وأياديهـم التـي تعلمـت الطهـي بالوراثـة وحدهـا وبـلا مجهـود، وقالـت إنـه مستعد للعمـل وقتـما يريـده، فتأمـل حسـين الـرُّز سـمارها الفاقـع، ولفحتـه رائحتهـا المدموغـة بالحنـاء، ووافـق عـلى تجربـة أخيهـا، وهـو يسـتفهم منهـا عـن علاقتهـا بأختـه، فشرحـت لـه عملهـا عنـد ألفـت زيـن الديـن، وعلاقتهـا بابنـي أختـه الدكتوريـن حلمـي ولطفـي، تطهـو لهـما كل يـوم، وأدبهـما في التعامـل، وأعجبتـه طريقتهـا الطريفـة في الحديـث بسرعـة وهـي تبتسـم، وعيناهـا المتسـعتان وهـي تتأمـل المطعـم والصـور، وتتـذوق البطاطـس المقليـة فتبـدي رأيهـا، فوافـق عـلى تجربتـه، ولكنـه لم يعلـق عـلى عملهـا عنـد حمـاة ابنـي أختـه، وتجـاوز الأمـر سريعًـا، مـع شـعور باللامبـالاة.

جـاءه حسـونة في اليـوم التـالي، وهـو شـاب طويـل القامـة وعريـض الكتفـين، ولـه عينـان بهـما نظـرات مخذولـة، فوضـع نفسـه تحـت تصرفـه، وتركـه لثالـث عامـل حمـل المهمـة مـع حمـادة وعتريـس، حتـى يعلمـه أصـول المهنـة، فاسـتطاع تشربهـا خـلال يومـين، وبانـت حرفتـه في إضافـة بعـض البهـارات الإضافيـة عـلى البطاطـس قبـل قليهـا، ونفحـة مـن البصـل الأخـضر مـع السـجق، فسـأله حسـين الـرُّز:

- أين تعلمت هذا؟

فقال حسونة:

- وجدت نفسي أفكر فيه ففعلته يا معلم.

أدرك أنـه موهـوب بالفطـرة، كـما ذكـرت حبوبـة، وكان شـابًّا جـادًّا، أعطـى انطباعًـا عامًّـا لحسـين الـرُّز عـن جديـة حبوبـة التـي شـغلته

قليـلًا، وأعـادت إليـه ذكـرى فتـاة الحـمام القديمـة، وكان هـذا إيذانًـا منـه بالاعتـذار عـن اسـتكمال خطبتـه إلى ناديـة العبـاسي. كان الغريـب أن حسـين الـرُّز، الـذي صـار في السـبعينيات، بشـعر قطنـي أبيـض، ورأس جليـل زادتـه المعلمـة بهـاءً، لم يسـتمتع كثـيرًا بمقابلاتـه المنعزلـة التـي يلفهـا حـزن شـفيف مـع ناديـة العبـاسي، بـل إن عمرهـا الصغـير، ووجههـا الـذي يشـبه قطعـة خبـز طازجـة وسـاخنة، متشربـة بحمـرة المراهقـة التـي لم تغادرهـا بالكامـل، جعـلاه ينفـر منهـا قليـلًا؛ لأنهـا ذكَّرتـه بشـيخوخته ونفسـه المتباطـئ، وشـعوره بـأن ثمـة قطعـة مـن الثلـج تسـيح فـوق صـدره، عندمـا يتعـرق خجـلًا، وهـو يتحـدث لهـا كأنـه يكلـم حفيدتـه. اعترضـت در الشـهوار عندمـا أخبرهـا بذلـك أول مـرة، وفعلـت ذلـك بقسـوة، خالفـت بهـا طرائقهـا القديمـة في قبـول شـطحاته، فقالـت: «نعـم، وتربيهـا عـلى يديـك يـا خالـو حسـين.»

ولكنـه عندمـا رأى حبوبـة، التـي وقفـت أمامـه مثـل جـذع نخـل بـلا أهـل، تتحـدث معـه بلهجـة ناعمـة وآمـرة في الوقـت نفسـه، ذكَّرتـه بطيـف مـن لمبـة بطـاح، الـذي فُوجِـئ أنهـا صـارت تـزور ذاكرتـه أكثـر مـن دريـة عـز الديـن، التـي تحولـت إلى شـبح بعيـد مـن أشـباح المـاضي، تشـبه الصـور الأبيـض والأسـود التـي يراهـا ويشـعر معهـا أنـه قـد عـاش ألـف حيـاة. انشـغل بهـا قليـلًا، ولم يمنـع نفسـه مـن الخـوض في خيـالات مراهقـة حمـراء، يتصورهـا معـه في الحـمام بعـد الغـروب في يـوم بـلا نهايـة، واضطُـرَّ إلى الاعتـذار لـلأسرة العباسـية هـذه وللمعلـم سـعيد الحـرَّاز، الـذي تقبـل الاعتـذار بـروح محـارب شريـف، وسـأله دون مقدمـات شـعرية: «مـن التـي فـازت بالحـاج شـيبسي؟»

فأخـبره حسـين الـرُّز عـن حبوبـة بـلا خجـل؛ لأنـه تجـاوزه منـذ تخطيـه السـبعين، وشرح لـه القصـة كلهـا، فضحـك المعلـم سـعيد الحـرَّاز، وأخـبره أن للزنجيـات دلالًا خاصًّـا في الفـراش، وطرقًـا مختلفـة في الحـب، ويؤديـن دوري الرجـل والمـرأة في العلاقـة عـلى حـد سـواء، وحكـى لـه

قصص الباشوات القدامى الشهيرة الذين تركوا الزوجة بنت الناس وتزوجوا بجواريهم السود، وأن تكرار القصة يؤكد قدرتهن على مواجهة الحياة وإرضاء الرجل. ولأن حسين الرُّز كان يشعر بالذنب تجاه نادية العباسي؛ قال له المعلم سعيد الحرَّاز بهدوء:

- تنساك في ثوانٍ. وبصراحة، كانت الأم تخفي الضيق من فارق السن، والبنت نفسها، لا أصدق أنها تحبك. قُصره؛ الشباب ينسون والشيوخ يتذكرون.

فقال حسين الرُّز مكملًا الجملة برطانة وقد هدأت مخاوفه، بعد افتعاله الضيق مما قاله المعلم سعيد الحرَّاز الذي ضحك بقوة، وعبر إلى الناحية الأخرى في قصته الخاصة:

- وحسين يفضل الحلو على الليمون.

ركز اهتمامه بعدها على حسونة، يعامله معاملة طيبة، ويساعده في القلي بنفسه، كما كان يفعل أحيانًا حتى يثير الزبائن، وأعجبه التزامه الصمت طوال العمل، واعتناؤه بالبالطو الأبيض الذي يرتديه، ورغم محاولته الالتزام بمظهر المعلم الجاد، يضعه تحت الاختبار لفترة طويلة، تمادى وطلب منه أن يجلب عاملين نوبيين من معارفه، وتابع طريقته في إدارتهما بشدة، ونظراته الصارمة إليهما، وكانا شابين في العشرين.

كان يدرك، من خلال عين الشيخوخة الثاقبة التي تراقب الأحداث بلا كدر، وبحس عالٍ بالآخرين، كيف أنه يصير أنانيًّا عندما يخوض في حب جديد، ويتجاوز عِشرة قديمة قائمة على الحب المتبادل والوفاء مقابل القصة الجديدة التي شغلت تفكيره، وكان يفقد مشاعره تمامًا تجاه الشيء القديم، مثل طفل وجد لعبة جديدة، وترك القديمة جانبًا. فعل ذلك مع لمبة بطاح أكثر من مرة، في باله أو في الحقيقة، كما فعله مع نادية العباسي التي محاها

سريعًا، وهو ما أثار ثائرة الفتاة الصغيرة، وجعلها ترفض الزواج في هذه السن، وقالت لأهلها وهي تصيح فيهم: «عندما تصير الفتاة منا رخيصة، يتركها الرجل سريعًا، خاصة لو كان في عمر قلاوون.»

ولم تكن تعرف أن المشكلة في طابع حسين الرُّز نفسه. مع معرفته بهذه المعلومة، لم يغير شيئًا في طبعه الخرائي هذا، وإنما عدَّه أحد فوائض الشخصية التي لا حل لها. كان يُفاجَأ ببروده الغريب، وعدم شعوره الكامل بالشخص الآخر، مقابل الهوس بالشخص الجديد وتصوره معه في الحمام الخشبي الأبدي. وعندما كانت القصة تنتهي، كان يفيق بدافع الضمير وحده، ويعود مستعيدًا قلبه قطعة قطعة، وهو يفكر متعجبًا في حقيقة الشخصية التي تلبسته لفترة. تُرجِم هوسه هذا في رغبته المحمومة في رؤية حبوبة مرة أخرى، خاصة مع اكتشافه أن أغلب أمراء «ألف ليلة وليلة» كانوا يتزوجون من جواريهم، الزنجيات منهن تحديدًا؛ لأنهن أصحاب حب عفي وحر، ولهن قوة اللبؤات في الفراش، وقد خمن من ظهور حبوبة في حياته أنه صار بآخر محطاته تقريبًا؛ لأن ظهور الجواري السود في قصة من القصص كان قرينًا بوصول بطل القصة إلى قمة مجده. انتظرها بالأيام في المطعم، متظاهرًا بالوقار، ولاحظت در الشهوار شروده، وعزوفه عن أحاديثه مع سيف الدين، فسألها بجدية:

- ما رأيك في طعام حماة حلمي ولطفي؟

ففُوجِئت در الشهوار، ونظرت له دون فهم، ثم قالت:

- لا أفهم يا خالو!

فقال لها:

- سمعت أنها جلبت خادمة جديدة لتطهو لها.

حكى لها قصة زيارة حبوبة للمطعم، واجتهاد حسونة، وقال إنه يفكر في ضيافة الجميع في شقة عابدين حتى يُشعِرهم أنه عائل لهم، ويسألها عن رأيها في طعامها لأنه يفكر في توظيفها عنده. كان يتحدث بارتباك واضح، لم تشاهده در الشهوار من قبل، والحقيقة أنه كان يتخبط في غضبه من هوسه بسمراء ذاك الصباح النحس، ويحاول إجبار نفسه على نسيانها؛ لأن وقفتها معه لم تتعدَّ دقائق، ولكنه كان يهيم في أحلام عزلته بها وهي تمشي، عابقة بالحناء، في ممرات لا تنتهي ببيت نوبي بعيد، يركض خلفها بجلباب بلدي، ثم يخرجان إلى عرس كبير يضيء سفح جبل، قبل أن يستيقظ غارقًا في عرقه وهو يلعن قلبه.

ظهر حبه هذا كفضيحة، عندما ذهب إلى حسونة وطلب منه إحضار شقيقته الكريمة وبقية الأسرة إلى المنزل، مع بقية العمال؛ حتى يكون بينهم عيش وملح، وكانت تلك المرة الأولى التي يُضيِّف فيها أحدًا عنده منذ نصف قرن تقريبًا؛ فحسين الرُّز كان عازفًا على نحو طبيعي عن الضيافة في شقته، وكان ذلك بلا سبب سوى أنه لا يشعر بالراحة عندما يُدخِل كثيرين في عزائم لا تنتهي، على عكس أمينة الرُّز، ولولا الحضور المؤثر لدر الشهوار وابنها سيف الدين في حياته لظل منعزلًا بعد وفاة لمبة بطاح، يسبح فوق بركة من نسخ «ألف ليلة وليلة»، التي لا تنتهي، وأحلامه الخاصة، وقد تعجب الأستاذ حلمي طايع طوال عمره من هذا، ومازحه ذات مرة وقال: «أشعر أنك تقتل الناس وتدفنهم تحت بلاط بيتك مثل ريا وسكينة.»

كان امتيازًا يعطيه بلا حساب، وقبله حسونة والعاملان، رغم خجله من حضور أخته مع جمع من الرجال، وقد سألها عن رأيها في ذلك قلقًا من شعور أمه والقرية النوبية، فقالت حبوبة: «هذا

معلم كبير وأخ لأمينة هانم، يعني شرفًا.»

وقد كان؛ ذهبوا جميعًا في يوم الجمعة التالي، وارتدى حسونة قميصًا أبيض مع بنطال أسود، أعطاه مظهر عامل مجد في فندق، وارتدت حبوبة بلوزة وجيب، غطتهما بالعباءة الجرجار السوداء المرقطة، وارتدى العاملان الباقيان زي حسونة نفسه، ودخلوا، فاستقبلهم حسين الرُّز وقد فاحت الشقة برائحة بيت مضيفين لأول مرة، ووضع الطعام الذي ابتاعه من أبو شقرة والدهان على السفرة الكالحة التي لم يغيرها الزمن، وبان بمظهر مقارب لكمال الشناوي في فيلم معاصر، وهو يرتدي بدلة كاملة، كما فعل في ليالي عرسه، وأبدى اهتمامًا خجولا بحبوبة، مسها سريعًا، فجلست مرتبكة في المقعد الذي حدده لها، ولأنها تعرقت بسبب ذلك؛ فاحت رائحة الحناء السرية التي تنبعث منها، ما أذهل حسين الرُّز، ودفعه إلى الإمعان في ضيافتهم.

كانت حبوبة تجول بعينيها في أرجاء الشقة الفسيحة، حتى حددت حقيقة وحدته، وإخفائه رتوش الشقة خلف أكوام من الكتب التي تبعد العين عن شقوق كبيرة، وقطع أكلها النمل خلال عقود الإهمال، وسجادة كالحة، اختفى النمر الذي يركض فوقها وراء حلم بعيد، والمصابيح المتسخة بالتراب في كل مكان، وبذلك، قالت لحسونة بعدها بثقة:

- المعلم حسين وحيد، ولم يُضيِّفنا إلا لهذا السبب.

فقال حسونة:

- تزوج خمسين مرة كما سمعنا، وأدرك حقيقة المأساة.

ولكن التأثير، الذي أراده حسين الرُّز، قد حدث بالفعل عندما عرضت حبوبة خدماتها عليه، معربة عن امتنانها للضيافة ومعاملته

الحسنة لأخيها حتى تشرب الصنعة مع الشابين الآخرين. ولأنها كانت تهيم سعادة بالعزومة وتفاصيلها والاهتمام الذي خصها به؛ إذ ذكر ببلاغة شعرية، بين مرة وأخرى، اسمها مع لقب أستاذة، ذكرت شيئًا منها لألفت زين الدين، تحت وطأة دفعة انتشاء قوية، وهي تتحدث عن الخصال الحسنة لسيد أخيها في العمل، فسألتها ألفت زين الدين على نحو عادي:

- أين يعمل؟

فقالت حبوبة:

- في مطعم قريب بالمنيرة.

فضحكت ألفت زين الدين، وقالت:

- أكيد يده تُلفَّان في حرير مثلك يا أم الهناء. أي مطعم؟

فترددت حبوبة قليلًا، ثم قالت بثقة:

- مطعم «درية والرُّز»، والبك الذي عزمنا هو حسين بك الرُّز أخو أمينة هانم.

كانت ألفت زين الدين تحب مشاكسة أمينة الرُّز رغم حبها لها، وخاصة بعد وصولها إلى شواطئ الشيخوخة، تراقب بحر الحياة بلا قلق ولا فضول.

ولأن أمينة الرُّز التزمت منذ تخطيها الستين بخطط عمل مباركة، وأهداف تصل بها إلى مكانة أعلى، منها كتابتها سيرتها الذاتية في العمل الوطني، وانكبابها على التسويق لنفسها كموظفة مجدة تتبع سياسات الدولة مدى الحياة؛ حتى تُؤمِّن لنفسها وظيفة أخرى بعد أن تنتهي فترة انتدابها في المجلس، بعد تخطيها السن القانوني؛ شعرت ألفت بالاستفزاز منها أكثر من مرة.

وكانت أهم تلك المرات عندما نشرت كتابها وكرست جزءًا كبيرًا من منه للحديث عن أمثلة عليا في حياتها، وصديقات أثرن فيها، فذكرت زوجة عادل العلمي التي سهلت عليها وظيفة الأوقاف في الثمانينيات، وسيدات من أسر ملكية عريقة وقفن معها في مهمتها لإعادة أراضي الدولة إلى الدولة وإليهن في الوقت نفسه في دورها الوسيط الشهير، وجيهان السادات التي أفردت لها مساحة مكتوبة بصيغة هيكل الدعائية الشهيرة، وأرسلت إليها نسخة من الكتاب على بيت الجيزة، موقعة منها وإهداءً إلى السيدة التي غيرت حياة المرأة في مصر، وسوزان مبارك التي خصصت لها قسمًا كبيرًا، ووضعت صورهما معًا، وتحدثت عن استكمالها الدؤوب لمسيرة جيهان السادات، وأدبها الجم في التعامل، وهي كلها أمور وصفتها ألفت زين الدين، التي لم تجد لها سيرة في الكتاب كله، مع أنها الصديقة الوحيدة لأمينة الرُّز، أنه تزلف ممنهج ولا يليق من امرأة تخطت الخامسة والستين.

لم تحب أمينة الرُّز طريقتها قط في ذكر السن وأحكامه كأنه قاعدة لا بد منها، كانت تقول لها دائمًا: «العمر مجرد فكرة في الرأس. في الخارج، عملت مارجريت تاتشر وغيرت العالم في سن كبيرة، وتشرشل أنقذ بريطانيا وهو فوق السبعين.»

ولم تستطع تبرير إغفالها دور ألفت زين الدين في حياتها سوى أنها لم تذكر حياتها الشخصية في الكتاب إلا خلفية لا بد منها على هامش حياتها الوظيفية، وأكدت لها أنها ظهرت دائمًا كامرأة مجدة بلا مشاعر ولا مشاغل شخصية، وهو ما جعل الجميع يظنون أنها عزباء أبدية، ولكن الحقيقة أن ألفت زين الدين كانت تضمر غيرة خفيفة من صديقها عمرها التي تعمل كالبغال، ولها شخصية قوية بالقدر الكافي ليخشاها أحفادهما المشتركون، وتحرك أسرتي حلمي ولطفي مثل قطع الشطرنج، بينما ألفت زين الدين هي الجدة

الطيبة، ونصائحها لسميرة ومشيرة بتحاشي الخلاف مع أمينة الرُّز صاحبة الرأس العنيد جاءت بنتائج عكسية؛ إذ صارت متحكمة بلا معارضة في بحر أسرة كبيرة، ولهذا؛ كانت ألفت زين الدين تتحين الفرص لاستفزاز صديقتها اللدود، والسخرية مما تفعل.

نتيجة لذلك، ذهبت بعدها في زيارة جمعة إلى شقة المبتديان، وجلست مع أمينة الرُّز في الشرفة، تتحدثان عن التغيرات التي تسود الشارع الطويل سريعًا، واختفاء حلواني عبد الهادي الشهير الذي أمَّن الحاجة المستمرة إلى الحلوى طوال عقود لدى أمينة الرُّز، وتحول البناية إلى بناية ضرائب كبيرة، تضم سبعة مكاتب على الأقل، ثم ذكرت لها فضائل حبوبة في المطبخ، وقيامها منذ ليلتين بطهي الديك الرومي مع وضع الخوخ معه مثلما يفعل الأجانب وسيدات مجتمع الليسيه فرانسيه والروتاري، وأخبرتها أن الفتاة موهوبة بلا تدريب، وتكتفي بتحديد أبعاد الأكلة الحلوة بيديها وأنفها، ثم قالت: «أعدت لنا ما يسمى بكيك الجبن، من التي قال عنها لقمان.»

كانت أمينة الرُّز تحب الطعام رغم كل شيء، وامتلاء جسدها في سنوات الشيخوخة هذه لم يقلقها، وإنما كان يُذكِّرها بصورة غائمة لنساء غامضات من أسر باشوات، كانت تراهن في بداية عملها عندما كان العالم بخيره والزمن يدور دورة طبيعية والألقاب محفوظة، فاقترن معها بعلامة العز، وكانت تسخر من اهتمام در الشهوار بجسدها ورشاقته، لتؤكد لها أن الجسد بضاعة المثلات ولا علاقة له بالحياة العادية، ولهذا قالت لها بعد تردد:

- ما رأيك لو أعرتِني حبوبة هذه بعض الوقت.

فقالت ألفت زين الدين:

- حياتي كلها ملككِ يا مون شيري.

كانـت خطتهـا بالاسـتفزاز تسـير بإحـكام، وطبيعتهـا، التـي تهـوى المـزاح والسـخرية، تنتظـر نتيجـة مـا سـتعرفه أمينـة الـرُّز من حبوبـة. وقد كان؛ في الجمعـة التاليـة، وعندمـا جـاءت در الشـهوار بأسرتهـا، وحلمـي ولطفـي، وبينـما كان سـيف الديـن يحـاول لفـت انتبـاه أمينـة حلمـي التـي كانـت تعـرض مواهبهـا في الرسـم عـلى در الشـهوار، جـاءت حبوبـة مـن الخـارج، وعرفتهـا أمينـة الـرُّز عـلى رضـا، التـي قابلتهـا بوجـه خشـب، ودخلتـا المطبـخ معًـا لتعـدا غـداءً اسـتثنائيًّا كـما ذكـرت أمينـة الـرُّز، هـو فائـض التعـاون بـين الصديقتـين ألفـت وأمينـة. أنهـت حبوبـة الطعـام في وجـه قيـاسي، ووضعـت الأطبـاق فـوق السـفرة، وأكـد الجميـع عـلى لـذة الطعـام، لتعلـن أمينـة الـرُّز أنهـا ستسـتعير حبوبـة كل الجُمَـع، بعـد الاتفـاق مـع ألفـت زيـن الديـن، وقالـت: «الطهـي موهبـة، وواضـح أن البنـت موهوبـة.»

لم تنتـهِ القصـة نهايتهـا الحزينـة إلا عندمـا شـعرت حبوبـة برغبـة جارفـة في مناطحـة أمينـة الـرُّز، التـي كانـت تتعامـل معهـا في المطبـخ مثـل رب متحكـم، تبعدهـا عـن طبـق معـين لأنـه المميـز لديهـا وتخشـى أن ينكسر، أو ملعقـة اختبـار مـذاق جاءتهـا هديـة مـن أحـد أفـراد الأسرة المالكـة.

وبعـد وضـع الغـداء يومهـا، وُضِـع منـه لحبوبـة ورضـا في المطبـخ، كـما اعتـادت رضـا، وبينـما كانتـا تـأكلان، أخـذت رضـا تمجـد في فضائـل سـيدتها، وتنتقـد الطعـام بـلا كابـح؛ فالقلقـاس الأخـضر هـو الأصـل، والأحمـر وصفـة فاسـدة ابتكرهـا سـكان المـدن لأنهـم يحبـون كل شيء بالدمعـة، والباميـة بالضـأن والصلصـة خـير مـن طريقـة النوبيـين في طهيهـا مفروكـة مثـل الملوخيـة، وظلـت حبوبـة تتنـاول الطعـام بصمـت، حتـى هـدأت رضـا قليـلًا، فقالـت لهـا حبوبـة: «سـبحان مـن يخلـق اثنـين مـن بطـن واحـدة! يعنـي حسـين بـك الـرُّز أكثـر تواضعًـا مـن أمينـة هانـم.»

أخبرتها بالعزومة التي لم تصدقها رضا، وشرحت تفاصيل الشقة التي تشبه متحفًا صغيرًا، ودسامة كفتة الدهان، وحلاوة فتة أبو شقرة، التي كان الشعراوي يتناولها كثيرًا، وخاضت معها في حديث بلا ضفاف عن جمال إطلالة الشقة، ومهابة حسين الرُّز الذي يتميز بحس شعبي، حتى تشبعت رضا بالأسباب الكافية لإشعال الأمور، فأخبرت أمينة الرُّز في المساء، بعد رحيل الجميع، أن حسين الرُّز قد ضيَّف حبوبة وأخاها على الطعام، وقالت: «عشنا في زمن نرى فيه القوالب تخدم الأنصاف.»

كانت زوبعة هي الأكبر في أسرة الرُّز، ستصل بعدها إلى المآل الحزين لبداية القصة كلها؛ فقد هاتفت أمينة الرُّز در الشهوار، وصرخت في وجهها أن تحذر حسين الرُّز من تماديه، وتسأله أن يحترم شيبته، ولا يفضح العائلة أكثر من ذلك، وإلا اتخذت ضده إجراءات صعبة. كانت تتحدث وهي ترتعش، حتى إن رضا قدمت لها كوبًا من الحبق الجبلي، الذي تشتريه من العطار؛ حتى تهدئ خاطرها، فشربته دفعة واحدة وهي تسب وتلعن بطريقتها القديمة وهي صبية. بعد ذلك، هاتفت ألفت زين الدين، وألقت في وجهها كل فضلات غضبها، وطلبت منها طرد حبوبة، التي قلبت عليها رضا وتحدثت بالسوء في المطبخ، فاستمعت لها ألفت زين الدين وهي تكتم ضحكتها، ثم قالت: «سأرميها في الشارع يا أمينة. ولا يهمكِ يا مون شيري.»

لم تفعل ألفت ذلك، وكانت تدرك بحكم العشرة أن غضبات أمينة الرُّز تنتهي على اللاشيء؛ لأنها طيبة في الأساس، وتخفي ذلك بوجه صارم ونوبات لا تنتهي من الغضب والتهديد.

عندما صارحت در الشهوار حسين الرُّز بكل ما جرى، قال لها بغضب:

- يعني حرمتني من الميراث وتريد أن تحرمني من الحياة؟

ثـم قـال دون مقدمـات إنـه ينـوي الـزواج بحبوبـة، وانتشـالها مـن حيـاة الخدمـة هـذه، فلـم تصدقـه در الشـهوار، واكتسـبت روحًـا أمينيـة للحظـات، فقالـت:

- خالـو حسـين، لقـد تعديـت السـبعة وسـبعين مـن عمـرك، فـلا داعـي للمخاطـرة.

فقال حسين الرُّز:

- العمر ينتهي حينما نريد.

كان يؤمـن، مـع تخطيـه الحـد الأقـصى للخطـر، ووصوله إلى الشـيخوخة التـي تمناهـا كثـيرًا، أن المـوت، مـع أنـه مـن أسرار الله الأكثـر غموضًـا، لا يـأتي إلا عندمـا يفكـر فيـه المـرء ويسـتدعيه، وأن الإرادة الشـخصية تتحكـم في طـول عمـر الإنسـان، وقـد أراحتـه هـذه الفكـرة، خاصـة مـع انشـغاله المحمـوم بـ«ألـف ليلـة وليلـة»، واعتبـاره الحـب رسـالته في هـذه الحيـاة، وعمـل المطعـم، ليعـدَّ نفسـه -في لحظـة صفـاء أطـل منهـا عـلى ميـدان عابديـن فوجـده خاليًـا، ووجـد القـصر كـما هـو، يشـاطره الحيـاة نفسـها- أسـعد رجـل في العـالم.

يوم

١٨

اتخذ حسين الرُّز قراره بعدها سريعًا، وضيَّف حسونة على كوب شاي في الماوردي، واستعرض أمامه فضائل خبرته في الحياة، وعدَّد معارفه على المقهى وخارجه، مثل عريس حديث السن، ثم قال بعد مقدمة طويلة عن الحلال والحرام:

- أريد يد أختكم حبوبة حتى أكمل نصف ديني.

أصيب حسونة بالارتباك، وكان لا يزال شابًّا غرًّا، لا يفهم في مسائل الحب والكبار، ولكن منبع ارتباكه الأساسي هو الرفض القاطع لدى أسرته وأغلب النوبيين بتزويج بناتهن من غورباتية، كما يسمونهم، أي غرباء بلا أصل، كما أنه تأمل ملامح العمر فوق وجه حسين الرُّز، وفارق السن التاريخي بينه وبين أخته، فقال وهو يتأمل اللَّي بين يديه:

- القول قول حبوبة وأمنا وخالنا؛ لأنه يعمل مقام أبينا.

أخذ الخبر كما هو إلى شقة إمبابة التي كانوا يقطنونها جميعًا كأسرة نوبية مجدة من خمسة أفراد، ضمن شارع جانبي استوطنه سكان توماس وعافية ودنقلا الجديدة بعد التهجير، وكانت حبوبة بمزاج معكر لأن ألفت زين الدين، بعدما استفزت صديقتها اللدود، حذرتها من ذكر سيرة العزومة إياها مجددًا، وكانت في المطبخ، تُعِدُّ صينية بطاطس بالدجاج، عندما سمعت حسونة يدخل ويجلس في الصالة، وينادي عليها ليخبرها أمام أمهم والإخوة الصغار بطلب حسين الرُّز الذي نقله ساخنًا كما هو. لم تظهر أي تعبيرات فوق وجه حبوبة، وزنت الأمر بيديها وعقلها في دقائق، بلا قلب ولا أدران حب، وتخيلت نفسها ملكة كوشية قديمة فوق عرش شقة عابدين، لا تعمل إلا في خدمة نفسها وحسين الرُّز، فقالت بلا تردد، ما عرفته منذ بداية حديث حسونة غير المتوقع:

- موافقة ولو سيدنا النبي جاء ورفض.

كانت أمهم قد فقدت التمييز بين الحقيقة والخيال منذ فترة طويلة، تخلط أحيانًا بين موتى وأحياء، وتحيا في عالم خاص غارق أسفل النيل، تطهو فيه ذكرياتها بجذوع نخيل وشعور الجنيات وتسلم على خالات وأعمام ماتوا وشبعوا موتًا، فلم تقل سوى:

- كله إلا الكفر يا بنت حمزة.

فقال حسونة حائرًا:

- يعني موافقة ولا رافضة يامَّه؟

فسألت:

- غورباتي ولا منا؟

فقال حسونة بتأكيد:

- بل مائل إلى البياض ومن أسرة أصلها تركي كما يقولون.

فقالت:

- موافقة؛ حتى تنكسر عين البلد عن جمال أختك ويقولوا باعوها لغريب.

وقد كان؛ تعطرت حبوبة في يوم حضور حسين الرُّز، بصحبة حمادة والمعلم سعيد الحرَّاز، الذي طعَّمه بعطر خاص يأتيه من سلطنة عُمان، وفهَّمه أنه يحتاج إلى مسحوق الضب ليستطيع مواجهة امرأة سوداء فارعة، ودخلوا الشارع الضيق بجلبة واضحة، في عربة المعلم سعيد الحرَّاز المرسيدس البيضاء، وأثاروا فضيحة زواج نوبية بمصري، ولكن خففها معلومة أنهم تجار أثرياء، والأمر الوحيد، الذي لم يتجاوزه أحد، هو فارق العمر الواضح، الذي حاول حسين الرُّز إخفاءه بتنويعات من يد حلاقه الخاص الذي صبغ

شعره وشاربه بالأسود، فبان مثل خدعة كبيرة في بحر السابعة مساءً هذا.

اتُّفِق على كل شيء بسهولة، وكانت طلبات حسين الرُّز واضحة: ستأتيه حبوبة بحقيبة ملابسها إلى شقة عابدين، ولا تحتاج إلى العمل منذ الآن، كما أنه يرحب بها مساعدة له في المطعم، كما كانت المرحومة لبة بطاح. وتعاملت حبوبة في أثناء اللقاء بأدبها الواضح أمام حسين الرُّز، رغم طباعها الحامية التي تُظهِرها في حياتها الخاصة. وحتى يصير الجو مناسبًا؛ شغلوا أغنية «نعناع الجنينة». استمع لها حسين الرُّز بروحه المجددة، فأعجبته، وقال للمعلم سعيد الحرَّاز وهم يغادرون البيت: «الولد، الذي يغني ويقول في عشق البنات أنا كنت نابليون، صدق والله!»

عُرِف بأمر قراءة الفاتحة بعدها عندما اعتذرت حبوبة لألفت زين الدين عن استكمالها العمل، وأخبرتها أنها حزينة لتركها المطبخ الذي أحبته في شقة جاردن سيتي ذات الشرفة المظللة والشارع الهادئ، وسوق سعد زغلول الذي أخذت رجلها عليه، ولكن ذلك وفق مشيئة زوجها حسين الرُّز؛ لأنها ستقف معه في المطعم، فشعرت ألفت زين الدين بالارتباك، وتمنت لها الخير، ولكنها لمست وهج الاستقلالية المفاجئة الذي تمتعت به حبوبة، فلم تُظهِر أي اعتراض، ولكنها طلبت منها، بابتسامتها المرحبة الطبيعية، أن ترشح لها طاهية هلوبة مثلها، حتى تُعِدَّ أطعمه أسرتي بنتيها.

عرفت أمينة الرُّز الخبر في يوم خرائي منذ بدايته؛ فقد جاءت زيارة من الجهاز المركزي للمحاسبات، بها شباب عابسون، يقودهم رئيس شعبة بوجه حيادي، اسمه حسام الأطرش، وطلبوا الحسابات الخاصة بالمجلس، والاطلاع على بدلات الانتقال والسفر والمكافآت، والقصة أن أمينة الرُّز كانت تنتقل بعربة درويش عبد

الغنـي المرسـيدس التـي ورثتهـا منـذ وفاتـه، بعـد أن باعـت عربتهـا المرسـيدس في صفقـة خـاسرة، عندمـا أُصيبـت في حـادث عـرضي مـع السـائق الـذي كان يقودهـا وحـده ودخـل بهـا في مقطـورة، ولكنهـا تـصرف بـدل الانتقـال في الوقـت نفسـه كأنهـا تركـب عربـة خاصـة، وفعلـت ذلـك طبقًـا لنصيحـة موظـف أريـب في المجلـس، شرح لهـا، بعـد تفنيـد لبنـود الـصرف في عربتهـا مـن بنزيـن وصيانـة الكيلوهـات، أن مـا تصرفـه عـلى المرسـيدس يفـوق بـدل الانتقـال المقـدر مسـبقًا، وأنهـا في أمـان.

ولأن أمينـة الـرُّز كان تتعامـل مـع المـال بقلـق فطـري مـن المسـائلة، ولكنهـا تتهـاون في بنـود صرفـه أحيانًـا، باعتبارهـا لم تُكـوِّن ثـروة تُذكَـر مـن المجلـس، عـلى خـلاف الأوقـاف التـي كونـت منهـا ثـروة العمـر؛ غضـت الطـرف عـن أوجـه صرف بعينهـا، وعدَّتهـا هديـة لبعـض العاملـين الجاديـن في المجلـس، ومنهـم سـيدة اسـمها أبلـة صبيحـة، كانـت تذهـب يوميًّـا إلى المجلـس في السادسـة صباحًـا، قادمـة مـن الحـي العـاشر الحديـث وقتهـا بمدينـة نـصر، عـن طريـق خمـس مواصـلات عـلى الأقـل، ولذلـك؛ أعطتهـا عربـة لادا، ولم تتابـع معهـا نقـط وقوفهـا.

ولكـن أبلـة صبيحـة، التـي شـعرت بالعرفـان لهـذه المبـادرة، كانـت تتعمـد الوقـوف اليومـي عنـد باعـة خـضر قادمـين مـن الشرقيـة، يقفـون يوميًّـا قـرب التبـة المهجـورة وقتهـا في بدايـة الألفيـة، ليُخدِّمـوا عـلى الأحيـاء الكـبرى في مدينـة نـصر، وتشـتري مـن فضائـل البطاطـس الصغـيرة التـي أعلنـت أمينـة الـرُّز، في جلسـة مرتاحـة، أنهـا تحبهـا محشـوة باللحـم المفـروم، والخـس والجرجـير والسـبانخ التـي تتنـاول منهـا أمينـة الـرُّز ملعقتـين يوميًّـا، مـن حلـة تُعَـدُّ كل يـوم تقريبًـا بيـدي رضـا؛ لأن بهـا الحديـد الـكافي للحيـاة، وبيضًـا بلديًّـا. وكانـت أمينـة الـرُّز تتعامـل بتـوازن مـع أبلـة صبيحـة، فتقـف لهـا في بعـض الأحيـان عـلى أخطـاء

تافهـة ولكنهـا تؤكـد سـلطتها في المـكان، وقدرتهـا عـلى التحـول إلى مديـرة بنـت كلـب.

مـع حضـور أعضـاء الجهـاز هـؤلاء، وجـدوا المخالفـة مكـررة في أكثـر مـن مسـتند صرف، وشـددوا عليهـا أمـام أمينـة الـرُّز، التـي ظهـرت بوجـه خشـب، فأعلنـت أنهـا سـتقوم بتلـك الإجـراءات، دون الحاجـة إلى تقريـر رسـمي، فقـال رئيـس الشـعبة حسـام الأطـرش هـذا بهـدوء: «خطـوة عضـو الجهـاز بتقريـر.»

انقلـب يومهـا بعدهـا، وعـلى مـدار أيـام تاليـة، وأوقفـت عربـة الحاجـة صبيحـة، مـع إيقـاف كل بـدلات الانتقـال، وبانـت مرهقـة لأول مـرة منـذ أعـوام طويلـة. كانـت سـتتخطاها بسـهولة؛ لأنهـا أخطـاء لا ترقـى إلى تلويـث ثـوب عملهـا الطويـل والناجـح في دهاليـز الحكومـة، ولكنهـا خشـيت الإطاحـة المهينـة مـع وصولهـا إلى متـن السـبعينيات، وشـعورها بـأن الزمـن قـد صـار أسرع مـن السـابق، ولذلـك؛ كانـت تفكـر يومهـا في الاعتـذار عـن مهامهـا، عندمـا جـاء خـبر زواج حسـين الـرُّز بحبوبـة هـذا، فدخلـت في نوبـة مـن الهيـاج، وقالـت لألفـت زيـن الديـن: «قلتهـا وسـأقولها: لا يُوجَـد في عائلـة الـرُّز مـن يُسـمَّى حسـين الـرُّز.»

هـذا الخـبر السريـع، الـذي لم تتأكـد منـه، كان سـببًا مباشـرًا في اعتذارهـا عـن اسـتكمال العمـل بعدهـا بأسـبوع. فلـما سـألتها در الشـهوار عـن سـبب استسـلامها السريـع هـذا، وهـي التـي عملـت لنصـف قـرن بـلا توقـف، وعـن خططهـا لمـا بعـد التقاعـد المفاجـئ، قالـت: «لا شيء، سـأطهو نفسـي عـلى نـار هادئـة في البيـت.»

كتبـت اسـتقالتها بطريقـة شـعرية، أعلنـت فيهـا أنهـا تحـاول العمـل حتـى النهايـة، ولـو وصلـت إلى قـرن كامـل مـن العمـل المسـتمر والجـاد، ولكنهـا أحـكام السـن، وقـد غـيرت كثـيرًا حـول عبـارة أحـكام السـن هـذه. وفي أثنـاء ذلـك، كانـت تُقلِّـب بـين الحـين والآخـر في قنـوات

التلفاز، لتتابع الدش الجديد الذي ركّبه لها حلمي درويش، فرأت برنامجًا لهيكل وهو يتحدث فيه عن ذكريات حياته وعمله مع عبد الناصر. تأملت حدة ذهنه، وطريقته الطبيعية في الحديث، وعدم اهتمامه بتخطيه الثمانين تقريبًا، فعدلت عن فكرة الاستقالة هذه، وقررت شن حملة تطهير صحية على المجلس.

ذهبت إلى مجلس الشعب بعدها بأسبوع، تحت دعوة خاصة من كمال الشاذلي، وزير الدولة لشؤون المجلس، وعندما رآها انحنى على نحو درامي، وقال وهو يلهث: «نورتِ يا أمينة هانم.»

تأملت سنه وامتلاء جسده بهدوء، ومعه سن بقية أعضاء المجلس، والمهابة الشائخة لفتحي سرور، الذي ظهر مثل رب ناءٍ من مجلسه، فشعرت أن خوفها لم يكن منطقيًا. جلست بثقة، وأظهرت تجاوبًا مع كثير من المشكلات، وأدلت بدلوها في مشكلتين أو ثلاث، حتى اقترب منها كمال الشاذلي، وأخبرها بعد مقدمة عريضة عن الظروف السياسية والخطة التنموية الطموح للسنين العشر القادمة، بعد دخولنا الألفية المباركة برجلنا اليمين. ثم أخبرها أن القيادة السياسية متجهة إلى فكرة تجديد الدم، بقيادة جمال مبارك، وأن الرجل الكبير يرحب بذلك، مع اعتراضه على شائعة التوريث، وأنها مجرد نفحة شبابية، وقد خاض معها في تفاصيل لم تعرفها عن دائرة السيدة التي يترشح لها فتحي سرور، وسألها بعدها عن بلدها الأساسي، فقالت بحيرة: «وُلِدت في المنيرة، وكان جدنا الأول مهاجر تركي إليها.»

فهّمها أنهم يريدونها لاستكمال استحقاق وجود المرأة في مجلس الشعب، خاصة مع وجود اعتماد لافتتاح مجلس جديد اسمه المجلس القومي للمرأة، ستخصص له اعتمادات أكثر، من مجلسها الذي كان اسمه يتغير كل خمس أعوام مرة، وأنها يمكن أن تترشح في

الدائرة نفسها تحت مقعد الحزب الوطني، بدلًا من تصفية مجلسها في وجودها، والاستغناء عن ذهنها الحاضر، ثم قال لها وهو يوسع إحدى عينيه: «ولا نريد منك سوى الحضور والتعليق؛ فتحي بك سيقوم بكل شيء.»

في زمن آخر، كانت ستعدُّها مؤامرة حكومية وإهانة مبطنة؛ لأن كمال الشاذلي كان يتحدث معها على نحو مكشوف، ويهندس فكرة ترشحها هذه بما يخالف فكرة الانتخاب نفسه، ويخبرها بالطريقة أن مسيرتها قد انتهت. ولأن أحدًا لا يعرفها من عموم الناس في المنطقة التي تحيا فيها؛ شعرت أنها ستُفرَض عليهم فرضًا، فترددت قليلًا، ولكن شمس المغيب، التي تراها يوميًّا في السن، وعلامات مميزة مثل الغضب السريع والضيق بحيوية الصغار والقلق المبالغ فيه على الصحة والمال والواجهة الاجتماعية، وما قاله عن وجود مجلس جديد لوجوه جديدة، دفعها إلى القبول بالفكرة، مقابل الحفاظ على العضوية الشرفية للمجلس الجديد؛ القومي للمرأة، بلا عمل، فأرسلت إخطارًا بقبولها الترشح، وطلبت من در الشهوار، دون أن تعلن عن مفاجأتها هذه بعد، شراء أي كتب تخص مارجريت تاتشر حتى تفهم سيرة حياتها، متقمصة الشخصية كأفضل ما يكون.

كانت هذه الفترة هي بدايات اهتمام در الشهوار بالسياسة، والتي أثرت في سيف الدين، رغم كل شيء؛ ففي إحدى الندوات التي عُقِدت في الجامعة الأمريكية، أثار محمد حسنين هيكل نفسه فكرة التوريث، وقال إنها تضر النظام الديمقراطي في مصر، مع حديث به رطانة سياسية طويلة، فقاطعته در الشهوار بأدب، وقالت له: «عندك حق أستاذنا الكبير، ولكن، عندما يكون عندنا ديمقراطية في البداية، يمكن أن ننتقد ما يعطل مسارها.»

كانت تتحدث بجرأة اكتسبتها خلال الأعوام الأخيرة من

مشاركتها تقريبًا في كل المبادرات التي تخص الليل والنهار. تركت نفسها لمشيئة مواهبها الحرة والطبيعية، التي تتجلى فجأة، خاصة مع اعتيادها الكامل حياتها الهادئة مع مصطفى نفعة، بعد أن صار الحب بالنسبة إليها عشرة مسالمة، يتلاقيان فيها كل ثلاثة أيام، عندما يفرغ من عمله في المشفى.

ومع نمو سيف الدين، ودخوله الإعدادية، ومعه لغتان، وموهبة العزف الموسيقي، وكذا الكتابة، شعرت بارتياح مؤقت، يؤهلها للخوض في مواهبها الخاصة، فشاركت مثلًا في دروس الغوص بالغردقة، ثم ملتها بسبب خوفها من العمق المظلم المفتوح على الاحتمالات، فجربت جولات الحفاظ على التراث المعماري في القاهرة، وسمَّعت في هذا المجال، وكانت حاجتها المستمرة إلى الشعور بأنها مميزة تدفعها إلى التأكيد على مكانتها في الموضة، لتتلقى الإعجاب الأخرس من مرافقيها في جولات اكتشاف مقتنيات المماليك، ومقابرها تحديدًا، التي وجدت فيها طرزًا معمارية خاصة، مع تنويعات كتابية تسرد حياة شخوص عدة في آخر قرنين من عمر المدينة، فتشعر بانتصارها الشخصي على السن، وعلى فكرة العطب بعد الزواج والخلفة.

جذبتها السياسة بلا مجهود، وحدث ذلك عن طريق بعض شباب الجامعة المتحمسين، الذين تأثروا بكلامها عن الركود الذي يصيب كل شيء بالشلل، مع عدم تطوير المعمار والمرافق، وأن ذلك يؤثر على صحة الناس في النهاية، فاجتمعوا بها ذات يوم، وتحدثوا معها عن حركة ٦ أبريل مع تفاصيل طويلة عن حقوق العمال، فقالت مؤكدة: «لا أنتمي إلى اليسار ولن أنتمي إليه؛ حقيبتي من جوتشي.»

ولكنها شجعت المبادرة في ضوء كسر المألوف، وأعطت مباركتها

للشباب عن طريق التأكيد على اشتراكها كمتطوعة في أي ندوة أو محفل يريدونه. كان هذا فاتحة نشاطها الاجتماعي الذي سيُعرِّفها بعدها بلقب الناشطة در الشهوار، فجذب إليها إعجابًا أشد، وصارت تحلق مثل فراشة في أوساط عدة بالوقت نفسه، مع إدراكها المتصاعد لتأثير شكلها وطريقتها في الحديث على الجميع. مع كل ذلك، كانت تصيبها دفعات مركزة من الاحتياج إلى العزلة، فتذهب إلى شقة الدقي، تبقى فيها أيامًا مع سيف الدين، تتركه يقرأ أو يمارس العزف على الجيتار الإلِكترك الذي ابتاعه له مصطفى نفعة في عيد ميلاد سعيد؛ لأنه ترك البيانو بعد اكتشافه أن تلك الموسيقى العنيفة هي ما يُعبِّر عنه، كما كان يردد بثقة كبار، وتخوض هي في دراساتها التي لا تنتهي عن التطور الذي يمر على كل ما حولها.

كانت تراقب سنها راضية هذه المرة، وهي تشعر أنها متزوجة وعزباء في الوقت نفسه، وعندما تعود إلى البيت لمصطفى نفعة، كانت تقابله بالترحاب المناسب والحب المختزن لأيام. ولكن ما عكر صفوها في هذه الأوقات هو ما حذرتها منه أمينة الرُّز، في ساعة غضب، عندما كانت تنوي الاستقالة من المجلس، فذكرت سيرة الرجال الخراء في حياتها، من أول حسين الرُّز، وحتى عضو الجهاز المتصلب، مرورًا بدرويش عبد الغني.

أُضيف إليه ما قالته لها راجية السيد، التي كانت قد تحولت إلى سيدة ربانية بالكامل، تعبق شقتها بالبخور، وتستضيف مجموعات لحفظ القرآن وتعلم التجويد، تشرف عليها بمزاج طيب، وتعد لهن المرق واللحم والأرز، وتشارك معهن في إعداد القوافل الطبية المجانية في المحافظات، التي كان الإخوان يدعموها بشباب ناحلين متطوعين، مبتسمين على الدوام، وتُخرِج صدقات على روح درويش عبد الغني؛ لأنها رست في شيخوختها الدينية هذه على مرسى

القبول بكل شيء، فصفت أحقادها عليه وعلى بقية رجال حياتها، ورأت فيه شجاعة واضحة عندما ترك أمينة الرُّز من أجلها، وهي من هي، ولذلك؛ كانت تأتي على سيرته بالخير وتكرم در الشهوار.

في معرض حديثهما عن درويش عبد الغني، دون قلق الماضي، ذكرت راجية السيد برضا أن درويش لم يخترها لأنه يحبها، ولكن لأنها سدت فجوة داخله: شعور مستمر بالضعف رغم قوته وقتها. ومن خبرتها، أكدت أن الرجال الأشداء والذين يعملون في الضبط والربط هم الأضعف دائمًا. ولأن أمينة الرُّز كانت امرأة واضحة، لا تحب طرق الرجال الخفية في البحث عن الاهتمام؛ لم تفهم احتياجه هذا، وإنما ضغطت عليه حتى حلق بعيدًا، وقالت: «كل الرجال مثل الديوك، يريدون حظيرة جاهزة ودجاجة تعمل ولكنها تشعره أنه يعمل.»

مع هذه الكلمات، وما ذكرته أمينة الرُّز بشأن انفراط الرجل بعيدًا عن حصار المرأة، تجاوزت القصة وقالت لدر الشهوار: «احذري لأن مصطفى مع ممرضات طوال اليوم، والقريب من العين قريب من القلب.»

حكت لها عن طريق سميرة ومشيرة ابنتي ألفت زين الدين في محاصرة حلمي ولطفي، وسر اختيار العيادات في البناية نفسها، حيث يخرج كلا الطبيبين من باب خلفي، ويسيران قليلًا إلى شقتيهما لتناول العشاء أو القيلولة، وأن ذلك ربطهما مثل بغلين طيبين في قائمتي رجل الزوجتين.

جعلها هذا تغرق في بحر من الشكوك، وترتبك في حياتها الخاصة هذه، فتمكث في شقة مصر الجديدة وقتًا أطول، وتتابع مصطفى نفعة بالهاتف، كما لم تفعل من قبل، ثم زارته في المستشفى مرتين، لتراقب طريقته الخاصة في التعامل مع الممرضات، كما كانت تفعل

في الماضي، وذهبت هناك بزي منتقى بعناية لفترة الثمانينيات التي تحبها، مع نظارة من نوع سلويت كبيرة، أعطتها مظهر فنانين، وأثارت جلبة في بحر الواحد ظهرًا هذا، واستقبلها مصطفى نفعة بترحاب مرتبك وهو يقول: «زيارة تاريخية يمكن أن نسجلها في سجل كبار الزوار منذ آخر زياراتكِ يا در.»

كان ثور عمل بمعنى الكلمة، يحبه بلا أمل، ويتابع الكتيبات الطبية الحديثة أولًا بأول، ويعدُّ الإرهاق فيه أمرًا طبيعيًّا. وكانت در الشهوار تلاحظ أنه لا يؤثر على شبابه، ويُكسِبه مظهر شباب دائم عكس ذلك، وهو ما جعلها في منافسة خفية معه لتظل محتفظة بشبابها. عندما جلسا في غرفته، وتحدثا مثل صديقين قديمين، وفهمت منه طبيعة المشكلات التي يواجهها، أدركت أنها تزوجت رجلًا مخلصًا، لا تزوغ عينه مطلقًا، خاصة عندما راقبت طريقته في التعامل مع الجميع بحيادية وبطريقة الأطباء التي لا يميزون بها أحد، وكان إدراكها هذا سعيدًا، ولكن طبيعتها المعقدة جعلتها تراه أيضًا في ضوء الطيبة الزائدة التي وجدتها فيه منذ زواجهما.

كانت تتذكر دائمًا أنها تقود حياتهما وحدها، وأنه يعود، مثل سيف الدين، من المشفى، كما يعود الثاني من المدرسة، فيجلسان في حضرتها، وهو ما دفعها إلى التفكير في ماهية الحب، وتذكر أغاني عبد الحليم مرة أخرى، فتشعر أنها لم تعشها كما تمنت. كان حسين الرُّز يصول ويجول أمامها في ميدان الحب بلا قلق، بأربعة زيجات كاملة، وعلاقات أخرى أخبرها عنها في معرض حديثه الصادق معها في شرفة شقة عابدين، فتنظر إليه بعين الاستنكار أحيانًا؛ لأن الإفراط في الحب ضد الحب نفسه في رأيها، ثم تضربها الغيرة عندما توقن أن حسين الرُّز قد عثر على الحب حتمًا بين كل تلك النساء. سألته في هذه الأيام عن معنى الحب في نظره، فقال: «ألَّا تحب أحدًا غير نفسك.»

كانت تخشى أفكارها السوداء التي تزورها أحيانًا، وتتابع بشيء من التوق صور ممثلات الإغراء في سينما الماضي، أو طريقة يسرا في الحديث ببعض الأفلام، لتطبقها بتحفظ في الجامعة أو خلال جولاتها، وتبتسم عندما تجد الاستسلام في الأعين الذاهلة حولها، لتردد أحيانًا: «كل الرجال خراء وأطفال، كما قالت أمينة تمامًا.»

لم تحكم نفسها إلا بتأكدها من حبها لمصطفى نفعة أكثر من مرة؛ فقد كان يحتمل شطحاتها المسائية المفاجئة، عندما تأتيه بالعربة من أجل زيارة الملاهي مثلًا، ليردد ضاحكًا:

- الأطباء لا يذهبون إلى الملاهي.

فتسأله:

- إشمعنى؟

فيقول بمزاج طيب:

- لأنهم يواجهون ملهاة الحياة الأكبر يوميًّا.

أو يذهبان إلى مطعم صيني جديد في المعادي، فتُعلِّمه الإمساك بالعصي، وتطلب حساء عشب بحري مع البعض، وأطباق النودلز الساخنة، وتقارن بين طبيعة الشعوب وأكلها، فتمجد فضائل الحضارة الصينية واستخدامها لكل مكونات الأرض، وكان يخوض معها في هذه النقاشات بذهن حاضر، ويستعرض آخر قصص الطب، ولذلك؛ ألقت بنفسها في أتون الانشغال المبارك، فكرست قسمًا لتوثيق المقابر التاريخية، ومنها مقبرة عائلة الرُّز، التي اكتشفت عودتها بطرزها إلى زمن المماليك؛ إذ كانت مقبرة الجد حسن الرُّز لها شاهدان مزخرفان، وبها نقوش قديمة وتصاوير وزخارف وآيات كُتِبت بعناية، تنتمي إلى عصور أقدم مع أن عمر المقبرة قرن تقريبًا. وهو ما جعلها تنقب في قصتها، فاكتشفت أنها مباعة من أسرة من

العظماء القدامى من رعيل باشوات الصف الأول للخديو إسماعيل، الذين وقعوا في مهب النسيان، ولم يبقَ منهم سوى مقبرة فارغة، وبالتأكيد، اشتراها حسن الرُّز الكبير بنكلة في صفقة تجارية ناجحة.

اصطحبت سيف الدين في حياتها الملونة هذه، في وقت فراغه، فأُصيب بمرضها الشخصي في الانشغال، وتجربة كل الأشياء في وقت واحد، فتعلم في عام واحد السباحة ثم تركها، والتحق بفريق كشافة به أطفال ذاهلون متحمسون، ثم فريق تايكوندو، وكان في أثناء ذلك يسرع في كتابة ما يقوله حسين الرُّز، الذي كان يُعِدُّ الشقة لانتقال حبوبة إليها بعد ترتيبه كل شيء، وإزاحته الكتب إلى غرفة واحدة، صارت أشبه بمكتبة ظل في مدينة عجائب.

مع حادث قطار الصعيد، سمع معها كيف أن الناس يتهمون المسيحيين باختلاق هذا الحادث، بسبب حادث آخر طائفي جرى لهم قبلها، فكانت در الشهوار تتجاوز أدبها المعهود بغضب واضح، وتؤكد أن العدو الحقيقي هو الإهمال، وأن قطارات السكة الحديد لم تُطوَّر منذ أيام إدارة الإنجليز تقريبًا. كان يشعر بجمال القصص والنقاشات التي تتردد حوله، ويحاول الدخول فيها مع أنه لا يعرف التفاصيل.

ذات مرة، وجد در الشهوار تقرأ موضوعًا ما بكثير من القرف البادي على وجهها، وعندما اقترب ليرى الجريدة، وكانا يجلسان في صالة شقة الدقي، التي كرستها در الشهوار للجامعة والكتب، فصارت أشبه بنسخة عصرية ومنظمة لشقة حسين الرُّز، رفعت الجريدة بعيدًا، وأخفت بعض الصور بيديها، فتظاهر أنه لم يلاحظ ما جرى، وقرر الانتظار حتى نامت، ووجد الجريدة في مكانها بالشرفة، بين أصص الزرع، كما تفعل در الشهوار دائمًا، ففتحها، ووجد الصور الغائمة لأجساد عارية تهتز تحت وهج فسفوري

مخيف، وكانت ثمة لقطات متكررة لرجل ضخم عارٍ، له لحية كبيرة، وكانت تلك الأجساد تسبح في مغطس ملون بالأزرق يشع بالكآبة.

كان التحقيق عن راهب صعيدي شُلِح، استغل سلطته الدينية، وأقنع بعض السيدات أن مضاجعته في مغطس بعينه تجلب الولد والخصوبة، بمباركة الرب. هذا الموضوع المخيف غير حياته تمامًا، كما سيقول بعدها؛ لأنه اكتشف معه أن مملكة هذا العالم تطفو فوق بحر من الفساد، لم يقترب منه قط بحكم انتمائه المحظوظ إلى هذه الأسرة تحديدًا، خاصة مع بداية حبه لأمينة الرُّز كلما كبر، وصارت أقل إخافة له مع تحولها إلى تيتا عجوز قد الدنيا.

ظل مستيقظًا حتى الصباح، يغلي فوق قدر غير مرئي من الأفكار السوداء. عندما استيقظت در الشهوار ودخلت الشرفة، كان لا يزال في موضعه، فصبَّحت عليه، وسألته عمَّ يفعل في الشرفة مبكرًا على هذا النحو، فقال:

- أنا فيها منذ الحادية عشرة مساءً.

كان يتحدث بجدية كبار، فقلقت عليه در الشهوار، ومسته بيديها، ثم ربطت سريعًا بين الجريدة وبين جلسته المتصلبة هذه، فقالت دون خجل، وبنبرة تعليمية واضحة:

- ما رأيته مشوه، الحقيقة تختلف تمامًا.

فقال لها بنفحة الجدية نفسها:

- المشكلة أن الحقيقة تختلف تمامًا.

منذ ذلك اليوم، بدأت تعامله على أنه صديق لدود، وليس طفلًا في الثالثة عشرة من عمره، من المفترض أن يظن أن العالم خدعة جميلة حتى نهاية عشرينياته، ثم يكتشف ذلك وحده على مهل في

الثلاثينيات. وأراحها هذا رغم قلقها في البداية؛ لأنه ضمن لها أذنًا صديقة تستمع لها بسهولة، وتحاول إيجاد حلول أو تفسير مثل الكبار.

في ظرف أيام، صار يلتهم جرائد المعارضة التي تشتريها، خاصة الدستور، ويتابع قصص التوريث والوزراء، ويعرف الفوارق بين زكريا عزمي وصفوت الشريف وكل رجال الباشا الكبار، ثم قصص فساد الكبار الشهيرة، مثل قصة حسام أبو الفتوح، رجل الأعمال الكبير، الذي ملأت سيديهاته الحمراء مع نساء شهيرات وزوجات مشاهير في المدينة في ظرف لحظات، واضطُرَّ سيف الدين إلى اللجوء لمجموعة من الطلبة المشاغبين في مدرسته لمشاهدة السي دي في ليلة بلا قمر، بأحد فصول المدرسة، فتجسدت خيالاته الأكثر سوادًا، وصار أكثر تلهفًا على متابعة مزيد مما يجري في مدينة مليئة بالبؤر السوداء.

كان يستمتع، سريًّا، بمعرفته كثيرًا عما يفوق سنه، ويذهب به إلى حسين الرُّز، الذي كان يتعجب من تلك المعلومات؛ لأنه منشغل بعالمه الخاص وبالزواج بحبوبة، فكان يردد: «الفضائح تملأ بلدنا منذ زمن الزمن، المهم ألا تطالنا.»

في هذه الأثناء، اكتشف سيف الدين تعاظم حبه للكتابة، بما يفوق شعوره بالتسلية معها، فبدأ ببعض الاجتهادات الخاصة بقصص قصيرة، بعضها عن أمينة حلمي، التي كانت تنضج سريعًا داخل أتون الحياة الناعمة التي أمَّنها والداها، فيتخيل لهما قصصًا فوق عمارة جاردن سيتي التي يحيون فوقها.

كان يلعبان هناك، مع شادي لطفي، الذي كان ينافسها عليه منافسة غير معلنة، ولكنها تتجلي في كل شيء؛ فسيف الدين كان ماكينة اختراع طبيعية للألعاب التي لا تنتهي فوق سطوح العمارة،

بين غرف الخدم، بينما كان شادي لطفي الأكثر تهاونًا في اختلاق ألعاب حركة، خبيرًا في ألعاب الأتاري وكل ما يخص الشاشات، ولذلك؛ كانت أمينة حلمي تجد ذلك طريفًا، فتتعامل مع الاثنين بحيادية، وكان درويش لطفي يراقبهم بلا اهتمام، لأنه اتخذ مأخذ الرجال منذ زمن، وصار شغله الشاغل التدريب الرياضي الشاق لدخول الحربية كما يتمنى.

كتب لها رسالة من ورقتين فلوسكاب ذات مرة، ذكر فيها كيف يراها شبيهة بنجوم السماء، ووصف طريقتها في الحديث وطرافتها في الابتسام، وأعطاها الرسالة في مغلف مع باقة من مجلات أجنبية اشتراها لها خصوصًا، فتجاوزت ذلك بسهولة، وركنت المجلات بلا قراءة، ليتمرغ في الضيق وهو يفكر في سبب تجاهلها له. كان حب أطفال، لكنه مثل النقش على الحجر، جعله يشب وهو يفكر في الحب كأهم حقيقة في الحياة، فأخذ يكتب عن زميلاته في المدرسة اللاتي يحب تأملهن، وشوارع مصر الجديدة، وحبه لجاردن سيتي، وعندما كان مصطفى نفعة يسأله عن الذي قرر دخوله بعد الثانوية، التي لم يكن قد وصل لها بعد، كان يقول: «الصحافة.»

فكان مصطفى نفعة يخفي ضيقًا خفيفًا من اختياره هذا، ويناقش در الشهوار فيه؛ لأن اسمه الطبي كفيل بإراحة سيف الدين مدى الحياة لو قرر الخوض في المجال نفسه، وهو ما ناقض ارتياحه إلى حرية سيف الدين في الاختيار عندما كان طفلًا في الابتدائية، فأخبرها عن حالات البطالة التي يسمع عنها، واسمه مع اسمي حلمي ولطفي الذي يكفي للنجاح بسهولة، فقالت، وهي متيقنة من أن سيف الدين لا يصلح للطب: «شب الولد على شيء وخلاص، فات الأوان لإقناعه بالعكس.»

لم تظهر المعضلة بعدها إلا عندما أنهى سيف الدين الثانوية بالقسم

العلمي، وشعر بالحيرة لأن ما يحبه لا قسم حقيقي له؛ فالكتابة لا تُدرَّس، وكل ما يمكن أن يفعله هو الالتحاق بكلية الآداب في الجامعة الأمريكية. كانت حياته الناعمة، وانتقاله السهل بين مصر الجديدة وجاردن سيتي والدقي والمنيرة وعابدين، قد أهلاه للشعور بعدم الانتماء إلى شيء بعينه، والانتماء بدلًا من ذلك إلى كل شيء، فشعر بأزمة كبيرة تخص ما يريده في هذه الحياة، وموضعه ي مملكة هذا العالم.

عندما تزوج حسين الرُّز بحبوبة في هذه الأيام، صار مزاجه أكثر استعدادًا للاحتفال والضحك والهزار، وانشغل قليلًا عن زيارات سيف الدين وقراءات «ألف ليلة وليلة». جدد الشقة سريعًا، ولون غرفة النوم باللون الأبيض؛ لأنه آمن أن النوبيين يحبون اللون الأبيض، وترك حبوبة تختار بعض قطع الأثاث القديمة، التي ورثوها من قرية أجدادهم الغارقة، وتحويلها غرفة نائية، مليئة بالكراكيب، إلى غرفة خالية للبخور والصلاة.

فُوجِئ أن الفارق التاريخي بينهما بلا أثر؛ لأن حبوبة كانت أكثر ذكاءً مما توقع. في ليلتهما الأولى، وبعد عرس نوبي سريع عُقِد جوار استديو تصوير في إمبابة، لم يحضره أحد من ناحية حسين الرُّز سوى در الشهوار وسيف الدين، والتي جاءت بنفحة ثراء واضحة، مع عربتها المازدا الحمراء الجديدة، وعوينات تبدل ألوانها بالمساء، ولم تمنع نفسها من الضحك عندما رأت حسين الرُّز في بدلة بيضاء، وقد أحاطوا عنقه بعقد فل، وتشرب شعره الأبيض الكتاني بصبغة سوداء فاحمة، بانت متناقضة مع لون وجهه النحاسي بفعل الزمن. استغلت العرس فرصة لدراسة عادات النوبيين، فكانت تسأل السيدات عن بعض التفاصيل، وتضحك بطريقتها المحسوبة الجاذبة، لتحصل في عائلة حبوبة على لقب الدكتورة. وعندما صافحت حبوبة، لم تفعل ذلك بترحابها الطبيعي، وإنما بشيء من

التعـالي الخفيـف المقصـود، لأنهـا لم تسـتطع نسـيان أنهـا مـن قدمـت لهـم العشـاء منـذ شـهور، وهـو مـا لم تنسَـه لهـا حبوبـة، لتقـول لاحقًـا لحسـين الـرُّز:

- بهـا شيء مثـل أمهـا السـت أمينـة؛ كلتاهمـا تتحـدث مـن طـرف المناخـير.

ليضحك حينها لاحقًا ويقول:

- الرُّز من دون مناخير مثل النوبي من دون شاي بحليب كتير.

يوم

١٩

تعاملت حبوبة مع البيت على أنه بيتها، منذ اليوم الأول، وتعاملت مع صورتي درية عز الدين ولمبة بطاح على نحو طبيعي، وأظهرت جدارتها كربة منزل أصيلة، ولكنها كانت حادة الطباع وشديدة الحساسية، بما يفوق حتى حساسية درية عز الدين القديمة. كانت تدرك كبر سن حسين الرُّز جيدًا، وتخطيه الثمانين بصحة مناسبة، فتشعر بقلق مسبق لأرملة محتملة.

لم تشعر ناحيته بأي شيء عندما تقدم لها أول مرة، وفي العشاء، الذي ضيَّفهم عليه، تعاملت معه كرب عمل طيب، لم يرث صلف أخته، ولكنها فُوجِئت باختلاط حبها بالإشفاق عليه؛ لأنه عاملها بمحبة زوج قديم بالفعل، ولم يُظهِر لها الفارق الاجتماعي بينهما. منذ اليوم الأول، أظهر حبًّا قويًّا، بان في مساعدتها بإعداد الإفطار والغداء، ثم شرح لها كل ما يحدث في مطعم «درية والرُّز»، وأعطاها الحق في إدارته كما يتراءى لها، بمساعدة حسونة، فشعرت بالامتنان لهذا، ومالت إليه كمحب حقيقي للحياة، ما زال يجيد الحب في الفراش، أو داخل الحمام أسفل الدُّش، كما يفضل.

وقد لاحظت التورد الذي ظلل وجهه، وتحسن مزاجه الواضح، فاكتسبت ثقة في نفسها، وقررت المواجهة السريعة مع سيدتها القديمة، مع أنها لا تكن لها سوى الحب، فارتدت ثيابًا على الموضة، وطرقت باب ألفت زين الدين، فاستقبلتها خادمة جديدة اسمها أسماء، وقدمتها لألفت زين الدين التي لم تعرفها في البداية، فقالت:

- حبوبة؟

فردت حبوبة بثقة:

- حبوبة الرُّز يا ستي.

كانت منذ طفولتها تخفي أسوأ مشاعرها، وتطهوها على مرجل هادئ، حتى تنضج تمامًا، ثم تقدمها معززة بالأدلة والبراهين. عندما انتقلوا إلى إمبابة، كانت لا تزال في العاشرة، ولكنها حازت سمعتها الأشهر والأكثر سوءًا: جمل أسرة عبد الرحمن خلاف، وهو اسم جدها لأبيها.

في الخامسة من عمرها، كانت تلعب عند مدخل قريتهم، عند مربض جمال كبير، يملكه بعض تجار الجمال الذين يملؤون القرية، ويتعاملون في تجارتها مع حلايب وشلاتين وشمال السودان، وكانت شقية بالدرجة الكافية لتقلق أحد الجمال الكبيرة ليتجاوز صبره؛ لأنها تلعب مع أطفاله، ويعضها في كتفها اليسرى عضة دوختها، وأعادتها إلى القرية وهي تركض بقوة الدفع الذاتي، ورقدت بين الموت والحياة لأسابيع، بلا أمل، ثم نهضت مثل القردة لتلعب كما هي، ولم يكتشف أحد سر هذه المعجزة إلا عندما فُوجِئوا بانقلاب طباعها إلى طباع الجمال.

كانت أمها تردد هذه القصة براحة ضمير، ودون أن يشكك فيها أحد، فكانت حبوبة تسمعها، ثم تقول بسخرية: «كل النوبيين عضهم جمل.»

يومها، عاملت ألفت زين الدين مثل سيدة متمرسة في حياة العز، وأهدتها بطًّا بلديًّا وإوزة هائجة وبعض الفاكهة، وحدثتها عن قصد عن مزايا حسين الرُّز، وحياتهما معًا، والمطعم الذي تديره بنجاح. نُقِل كل هذا الكلام إلى أمينة الرُّز كما هو؛ لأن ألفت زين الدين أدركت أن ثمة صراعًا خفيًّا بين خادمتها القديمة وأمينة، وقد وضعت عليه بهارات درامية إضافية، ووصفت طريقتها في الحديث،

فقالت أمينة الرُّز بهدوء مفاجئ: «ليس هذا فقط؛ مرغ الاسم في السابق مع فتاة من سوق الكرشة.»

كانت لا تخفي ضيقها من حياته الطويلة، التي تجاوزت الثمانين عامًا، ووفاة حسن الرُّز المبكرة، وتعلن في لحظات استسلام سيئة أنها تمنت أن يكون شخصًا جديرًا باسم الرُّز، حتى تلجأ إليه إذا أرادت. أيقنت بجنونه المطبق عند زواجه بحبوبة، وكبحت جماح فضولها لتراه في شيخوخته، كيف تغير وما الذي فعلته به السنون، ولكنها تجاوزت قصة زواجه بحبوبة بسهولة غريبة، وركزت تفكيرها على عضوية مجلس الشعب هذه، وإخفاء معالمه تمامًا. لجأت إلى فتحي سرور مرة أخرى، رغم ضيقها الفطري من السؤال، وشرحت له معضلة حياتها ببساطة: لها أخ مارق، لا يجوز ظهور اسمه حتى لا يقلق عملية الترشيح نفسها، فسألها مازحًا:

- إخوان ولا نظيف؟

فقالت بجدية:

- لم يشارك في أي حدث مهم ولا غير مهم طوال حياته.

عندما ربط بين الاسمين بمعلوماته الشاملة عن حي السيدة زينب، أدرك أنه حسين الرُّز، صاحب المطعم الشهير للبطاطس، المزواج المعجباني الذي لم يغير مطعمه منذ نصف قرن تقريبًا، ويديره بلا توقف، فقال لها، ماحيًا كل الشكوك من قلبها:

- حُلَّت المسألة يا أمينة هانم، وعالج الله صراعات الإخوة.

خلال أيام، فُوجِئ حسين الرُّز وحبوبة وبقية العمال بظهور متكرر لرجال من الحي، ومحصلي كهرباء، ورجال شرطة مدققين في كل شيء، وفاحصي طعام من هيئات التفتيش التابعة لوزارة الصحة، فشعر أن في الأمر أمرًا، وأثارته فكرة مراجعة عمله بعد فترة طويلة

من الاختفاء. كان يتعامل مع السلطات تعاملًا هامشيًّا مثل بقية التجار؛ مأمورو الضرائب، الذين يمرون عليه كل نصف عام مرة، كان يُضيِّفهم على إفطار فاخر، فوق طاولاته المرتفعة التاريخية، ثم يتبادل معهم حديثًا معروفًا عن السوق السيئ وغلاء الخامات، لذلك؛ لم يفهم سر هذا الظهور، ولجأ إلى المعلم سعيد الحرَّاز حتى ينقذه من هذا الهجوم، فسأله:

- هل ضايقت أحدًا من العظام الناشفة؟

فقال حسين الرُّز:

- لو عدَّدنا كراهيتي لحركة ضباط يوليو منذ قامت مضايقة فتلك إذن.

وعده المعلم سعيد الحرَّاز بالتدخل. وبعد قيل وقال، علم أن ذلك كله بتعليمات من رجل السيدة الكبير، فقال لحسين الرُّز بقلق مستحق:

- يجب علينا زيارته ومعرفة ما يجري.

خلال أيام، ظهرت صور أمينة الرُّز، وهي تشبه مارجريت تاتشر، وتخفي شيخوختها خلف طبقات من الماكياج، وتصبغ شعرها الكستنائي القصير بلون يقارب الشقرة، فوق جدران المنيرة والسيدة، فترجم المعلم سعيد الحرَّاز ما جرى بسهولة، وقال لحسين الرُّز إنها كانت شكوى من أخته حتمًا.

عندما نقل ما عرفه إلى حبوبة، ليختبر ردة فعلها، فُوجِئ بغضبها الشديد. وصفت له شقة المبتديان التي لم يرَها منذ عقود لا تُعَدُّ، وطريقتها في التدقيق والتنبيه على السائرين فيها حتى لا يكسروا مقعدًا ما ولا يلوثوا سجادة عجمية، وكمية الأشياء التي تتخم بها الشقة، لا فائدة لها سوى الاستعراض: بيانو قديم، تمثالان

من الرخام بالحجم الطبيعي لأميرتين رومانيتين لهما أنف طويل -حكت رضا لحبوبة، رغم العداء الخفي بينهما وقت حضور حبوبة لإعداد الطعام، أنهما تنظران إليها بصرامة مثل أمينة الرُّز نفسها، عندما تمر ليلًا مصدرة صخبًا غير محمود- وصور لرجال محترمين يقفون بجدية أمام الكاميرا، ومكتبة لم تُمَسَّ، بها عناوين أمهات كتب تراثية، وصندوق منقوش، يحوي قطع شطرنج لامعة بحجم الكف، وثلاثة صالونات متجاورة كأنها في معرض أثاث، وسفرتان، منهما واحدة قديمة جدًّا تنتهي قوائمها بوجوه أسود غاضبة، قال عنها حسين الرُّز وهو يستمع: «هذه سفرتنا، آخر ما تجمَّعنا عليه.»

عندما توقفت عن تفصيل محتويات الشقة، أدرك حسين الرُّز حقيقة المادة السوداء المركزة في قلبها، فشعر بقلق خفيف؛ لأنها الأكثر حدة في كل من تزوجهن، ولكنه ربط ذلك بالطيبة؛ لأنها كانت تعامله بحب واضح، وتحكي له بالتفصيل كل ما يمر بها، وما تحدثت به مع حسونة أو أمها أو إحدى خالاتها العشر، ولو مسه الحديث بسوء. ولأنه لم يعتد ذلك في البداية؛ لم يفهمه، ثم أدرك أنها تبوح بمكنون صدرها أولًا بأول في حالة تطهر يومية. اقترحت عليه أن يترشح للانتخابات مثل أمينة الرُّز، وذكرت أنه رجل كبير، معروف لدى أغلب أصحاب المحال والمطاعم والتجارات، ولكنه قال لها حاسمًا ذلك الأمر: «لن أنهي حياتي بوحل السياسة.»

عن طريق المعلم سعيد الخرَّاز، وصلوا إلى مكتب فتحي سرور، وطلبوا منه التوصية على المطعم حتى تبتعد عنه أعين الحكومة، ووعدهم بذلك، ولكن الحملات المتكررة لم تهدأ عليهم إلا عندما عُقِدت الانتخابات فعلًا، وفازت فيها أمينة الرُّز بمساعدة الحزب الوطني نفسه؛ لأن من انتخبوها لم يتعدوا خمسين شخصًا، كانوا يعرفونها كسيدة عريقة ذات سلطة، تحيا بأقدم بنايات المبتديان.

أرسلت خطاب شكر إلى فتحي سرور، ثم عقدت حفلة في الشقة، ضيَّفت عليها معارفها في الحي، ومعهم ألفت زين الدين، وتحدثت مثل سياسية مخضرمة عن مشكلات المرأة المعيلة والعشوائية في حي السيدة والزحام وتهالك المرافق. كان هذا الترشيح قبلة حياة لها، بعد استقالتها الرسمية من المجلس، وترافق مع عيد ميلادها السبعين، لتقول للواقفين: «هذه علاقتي مع الحكومة؛ كلما تركتها، عادت إليَّ.»

أظهرت بعدها اهتمامًا حقيقيًّا بكل الجلسات، وابتاعت أطقمًا كاملة من محل كبير بألوان فاقعة؛ حتى ترسخ مكانتها كمارجريت تاتشر أخرى، وكانت تصل مبكرًا قبل الجلسة بساعتين، تتأمل القاعة الخالية، وتراجع في بالها ما ستطرحه. في هذه الأثناء، بدأت رضا تتحول إلى حلقة الوصل بينها وبين سكان الحي. كانت تجمع أوراقًا عليها عناوين وأرقام قومية وأسماء لطالبي عمل، وطلبة يريدون الانتقال بين مدرسة وأخرى، وموظفين يشكون مديرًا ما، مع طلبات عامة بإزالة بناية آيلة إلى السقوط، تهدد الجميع بدمار محتمل، أو الشكاية على طفح المجارير في موضع ما، وكانت أمينة الرُّز تجدول هذه الشكايات في البداية، وتتعامل معها باهتمام متساوٍ، ثم ضاقت بالعدد ذات يوم، عندما أعطتها رضا حقيبتين مليئين بالورق، فقالت أمينة الرُّز بضيق: «هل يظنوني ربنا حتى أبت في كل ذلك بنفسي؟»

لم تعد أيامها سهلة بعد مرور شهرين على عملها نائبة. الأمر الوحيد، الذي جعلها تستمر، خوفها من أن تتعفن حية في شقة المنيرة، وهي تؤول إلى شيخوخة مديدة. كانت تحسب عمر حسين الرُّز سرًّا، عندما تُفاجَأ كل مرة أنه ما زال حيًّا، وكان آخر ما وصلت إليه أنه تجاوز الثالثة والثمانين على أقل تقدير، وهو ما طمأنها؛ لأنها كانت تؤمن أن طول العمر يُورَّث كما يُورَّث كل شيء، وكلما

كانت تُرهَق من عملها هذا الذي أخذته على محمل الجد، كانت تقارن بين وبينه البطالة الممتدة التي يصل إليها الشيوخ سريعًا، وهي تضمر سرًّا غيرة غير محمودة من حسين الرُّز، الذي يعمل عملًا حرًّا بلا تقاعد.

في ظرف عقد من الجلسة، ورغم محاولاتها لجعل شيخوختها سعيدة ومليئة بالعزائم، مثل شيخوخة الهوانم القدامى، أُصيبت ألفت زين الدين بحصاتين في الكلى، وتعب في المفاصل، واضطراب في القلب، شخصه لطفي درويش بسهولة، فمنع عنها القهوة، إلا فنجانًا تأخذه صباحًا، وكل الطعام المدهن الذي تعده لها الخادمة الجديدة، والجلوس أكثر من ثلاث ساعات أمام مسلسلات الثامنة والمنوعات، فكانت تلتزم بذلك ليومين، ثم تطلب طاجن أرز معمر وكفتة أرز بالصلصة وداود باشا وجلاش باللحم المفروم وهي تردد: «كلها أمراض مرتبطة بالسن، ولن توقظها ملعقة سمن.»

ترشيحها لمجلس الشعب هذا، وعملها تحت مظلة الحزب الوطني، خلقا أزمة عند در الشهوار. كانت قد توصلت أن البلاد تحتاج إلى تغيير شامل وفوري، مع ازدياد اهتمامها بالسياسة والمجتمع، الذي كان مثل كرة نار تزداد اشتعالًا مع الوقت. كانت تبدو مثل فراشة لا تهمد في مؤتمرات الجامعة: تدور بين الندوات، وتحول دورها في التدريس والأنثروبولوجيا إلى دور منظم وغير أكاديمي فقط، حتى ابتكرت معرضًا يقدم تأريخًا للمدينة، من الناحية السياسية، من خلال لافتات الانتخابات.

كانت تدرس العلاقة بين فترة الانتخابات، واختلاف وجه الشوارع، وحجم اللافتات التي تُعلَّق بين البيوت، وتدرس طريقة الكتابة ونوع الخط، ومع التدقيق والفحص، اكتشفت أن بداياتها كانت في زمن عبد الناصر، حين كانت صوره تُرسَم بأيدي فنانين

محليين، وبكثير من البدائية المحببة، ويُكتَب بجانبها اسم معلم أو تاجر مؤيد، ثم صارت أكثر تطورًا، حتى أصبحت فنًّا بذاته، يجب أن يُذكَر فيها اسم المتبرع باللافتة ومهنته مع آية قرآنية مختارة بعناية لتناسب الحدث، أو كلمات منتقاة من خطاب المنتخب. بدأ فنها يقل تدريجيًّا مع الزمن، ولكن ازدادت انتشارًا، حتى صار الجميع تقريبًا يُظهِرون تأييدًا للرئيس، ووصلت أوجها في زمن أوبريت «اخترناه»، عندما ترشح الرئيس مبارك مرة أخرى لعقد جديد، بعد أن كاد ينأى عن ذلك.

قادها هذا إلى دراسة العشرية: كل رئيس يتخطى عقدًا في الحكم يصل إلى مرحلة الفساد السريع، وهو ما لاحظته مع عبد الناصر في بدايات عام ٦٥ عندما صارت الممارسة الديمقراطية في خبر كان، وقاد ذلك إلى النكسة، والسادات في خريف غضبه عام ٨١، ومبارك منذ مطالع ٩٢. كان الطلبة، الذين ساعدوها، يعملون بجد على توثيق لافتات انتخابات ٢٠٠٥، ولاحظ أحدهم أن صور مبارك المعلقة كانت تُظهِره شابًّا شائخًا، بوجه أملس بلا تجاعيد، وشعر فاحم السواد، مقابل أن أيمن نور مثلًا لم يتلقَّ أي ترشيح يُذكَر، كما أنه لم يكن على قدر المستوى. وثقت تصرفات التجار والمعلمين ورجال الأعمال وأعيان أحيائهم والنافذين، وقارنت بين لافتاتهم التي يتنافسون فيها في ما بينهم، لتخلص في النهاية أن وجود فضاء متخم بلافتات تأييد في المدينة، قبل انتخابات غير حقيقية، ما هو إلا جعجعة تقود إلى حالة عامة بلا أمل.

كانت تغامر بلا قلق، ولا تخبر مصطفى نفعة بما تفعل، معززة شعورها بأنها زوجة بلا قيود ولا مسؤولية، ولكنها أهملت سيف الدين قليلًا بين كل هذا الزخم. كانت قد وثقت في طبيعته المتحفظة تجاه التجارب السوداء في سنه، فكانت تتركه بسهولة ليخرج مع أصدقاء تنسى أسماءهم سريعًا، أو إلى دور سينما وسط البلد، وكانت

تتأمل عزلته الواضحة، التي اقترنت مع روح اجتماعية مخففة، بسبب نزوله بعيدًا عن دوائر أسرة الرُّز، فتتعجب لهذا المزيج الدقيق بينها وبين مصطفى نفعة، مع نفحة عزلة تفوق الطبيعي، تشبه طبيعة حسين الرُّز عندما ينكب على كتاب «ألف ليلة وليلة».

عندما عاد منبهرًا من أول خروجة إلى وسط البلد، أدركت أنها نجحت في جعله على خطاها إلى حد ما؛ وذلك لأن انشغال مصطفى نفعة الأبدي كان يشككها في واقعية إجبار سيف الدين على الطب والعلوم. كانت تريد أن ترى نسخة منها في النهاية، وتفعل ذلك بأكثر الطرق سرية؛ لأنها، ورغم تواضعها تجاه أفراد الأسرة ومرحها المعتاد، كانت تؤمن أنها استثناء بينهم، إيمانًا جعلها، في بعض الأحيان، تقارب تخوم التجاهل لنظرتهم في الحياة، باعتبار أنهم جميعًا يحيون في هذه المدينة بلا نقد واضح ولا رغبة في التغيير.

حللت أوبريت «اخترناه» في فيديو خاص، ساعدها طلبة تشرف على رسالتهم في صناعة المونتاج له، وذكرت فيه أن الفيديوهات القليلة، التي تُظهِر حفلات مديح مبارك في الثمانينيات، كانت تُظهِره متصلبًا، يجلس قلقًا وهو يتلقى كل هذا القدر من الحب غير المشروط، الذي وصفته در الشهوار أنه يعطي الإنسان وعدًا بطالًا بالإيمان به طوال الحياة، بعدها، بدأ يرتاح قليلًا إلى هذا النوع من الاحتفالات، ويراها بمزاج طيب، ووصل إلى مداه في حفلة «اخترناه»؛ إذ كان مبتسمًا، يهز رأسه بوقار زعيم راسخ، لنصف ساعة تقريبًا من المدح الشخصي الذي لا يتوقف.

كانت في أحسن حالاتها، وتتعامل مع السن بلا اهتمام؛ لأنها عبرت إلى الناحية الأخرى من الخوف، عندما تخطت الأربعين، واحتفظت رغم ذلك ببشرتها المشدودة، مع سمرة اكتسبتها مع الحركة المستمرة تحت الشمس في جولات المقابر، وكحل ثقيل ترسم به

حول عينيها، على نحو يُظهِرها أميرة فرعونية معاصرة، كما أخبرها أستاذ جامعي إنجليزي منبهر. لم تخفَّ حدتها، مع ذلك، في محيط البيت؛ إذ خلقت سلسلة من العادات اليومية، تبدأ بنصف ساعة من الكتابة بشأن الموضوعات التي تهمها، أو قراءة كتاب حديث عن الأنثروبولوجيا، مستمتعة بتأمل صور الكتاب التي تذكر قبائل بعيدة، وصور المؤلفين بالأبيض والأسود، خصوصًا النساء منهن، فاكتشفت في ذلك حبها للتصوير، وتتخيل أنها هناك: تقف وحدها بين قبائل لم تصل إليها الحضارة بعد، لتؤكد أنهم يملكون حضارة خاصة بهم.

اكتشفت جين جودال حينها بالمصادفة، وشعرت أنها تشبهها في المظهر وطريقة الحياة، وانبهرت بحياتها مع الشمبانزي، وتغييرها البحث لتتعامل معهم كأنهم بشر؛ إذ نجحت في إخراج ما يشبه الإنسانية من قرد صديق أسمته فرويد، فكانت تهيم في خيال قوي عن تركها لكل شيء، والحياة مع القردة مثل جين جودال هذه، في دفعات حزن لا سبب لها، كأنها فقدت شيئًا ثمينًا لا تعرفه. بعد ذلك، كانت تُعِدُّ الإفطار بتمهل، تبدأ بالقهوة، ثم تتناول التوست بالمربى، ولأن البيت يكون هادئًا في الصباح الباكر غالبًا، لانشغال مصطفى نفعة بالمستشفى أو نومة متعبة، ووجود سيف الدين في المدرسة؛ كانت تستمتع بشعور الوحدة الذي ميزته فيها.

لم تعدَّ حلمي ولطفي شقيقين حقيقيين؛ كان لطفي أقل جدية منها، ويقلب كل شيء إلى المزاح، كما كان ماديًا بحتًا، يعرف أهمية علاج القلب في بلد ترفع الضغط، ويتعامل مع ذلك بنجاح واضح، ولا يقرأ سوى المنشورات العلمية وحدها، وكان يؤيد الحزب الوطني دون قلق ضمير؛ لأنه يرى أن مبارك قد خلق ديمقراطية من نوع خاص بتركه البلد، منذ بداية الألفية، يعمل وحده وفقًا لمشيئته الحرة، بينما كان حلمي أكثر تحفظًا تجاه الحياة العامة ككل، يتعامل

بشيء من التعالي الخفي والكدر المستمر، بما يناسب دكتور مخ وأعصاب، ولم تكن طباعه الحاسمة هذه تظهر بشدة إلا في عيادته، عندما كان يصف الحالة بلا تردد لبعض المرضى، أو يقرر عملية صعبة لمخ مريضة أو مريض، مؤكدًا أنها الحل الوحيد.

كان يحتفظ بعلاقة طيبة مع خيري السمرة وممدوح سلامة، دكتوري المخ والأعصاب الشهيرين، ويتعامل معهما وحدهما بمبدأ الصداقة؛ لأنه لا يؤمن بها إلا مع متخصصين من المهنة نفسها، وهو ما جعل در الشهوار هي الدافع الأساسي في العلاقة، تزورهما بلا موعد، وتحاول مناقشتهما بشأن السياسة والاقتصاد في جُمَع أمينة الرُّز، رغم علاقتها المتوترة بسميرة ومشيرة، اللتين تشعران بغيرة خفيفة منها؛ لأنها كانت تتحدث دائمًا عن دور المرأة والحب والبيت من منظور تقدمي، مع تحررها في الثياب قليلًا، بجيب قصيرة تنتمي إلى زمن الستينيات أو جينز ضيق، مع اتجاه الأختين إلى سمنة تشبه سمنة ألفت زين الدين.

كل ذلك عودها على الوحدة، وجعلها تتعامل معها كاختيار حتمي، تملؤه بالأنشطة بسهولة، فكانت تنزعج عندما يعود البيت بيتًا بحضور الزوج والابن، رغم رغبتها في هذا قديمًا، وبقائها بلا عمل مع سيف الدين، في فترة الخوف عليه من التوحد، وتجبر مصطفى نفعة وسيف الدين على القبول بنظامها اليومي، مع بعض التهديدات الخفيفة.

كانت حدتها تزيد كلما شعرت أن اليوم ليس يومها، وصار ملكًا لهما، وهو ما لاحظه مصطفى نفعة بمزاج طيب، فقال لها عرَضًا:

- صرنا طنط أمينة هانم.

فكانت در الشهوار تردد بعصبية:

- لا تردد الأمثلة التي أخذتنا إلى الخلف.

هذه الحدة -التي لم يكن يكسرها سوى غوصها في القراءة أو الكتابة، ثم عودتها إلى طبيعتها العادية، أو عندما تتلقى المدح أو الإعجاب في أثناء محاضرة، والتي صارت تشعر بها تجري محمومة في عروقها بلا كابح- لم تفهمها في البداية، ثم أيقنت بينها وبين نفسها، دون اعتراف علني، أنها ورثت طباع أمها الصلبة مع نفحة من التفهم في حدود المتاح: تسلط بوجه جديد. وظفتها لاحقًا في دراستها عن أوبريت «اخترناه» وتأليه الحاكم، وهو ما جعلها تقارب صفات النشاط السياسي، ما جذب الأنظار إليها سريعًا من خارج الجامعة، ففُوجِئت ذات يوم باستدعاء قناة الجزيرة لها حتى تُجري حوارًا بشأن مآلات الديمقراطية في مصر.

كان سيف الدين يراقب كل ذلك، مع إدراك حقيقي أنه ابن لاثنين منشغلين كليًّا، ليُكوِّن طريقته الخاصة في رؤية الأمور عن طريق التخيل ومواجهة الواقع بواقع آخر موازٍ. بدأ يكتب أولى قصصه الجادة حينها، وتسلم عنها جائزة من المدرسة عندما أحرز المركز الأول بالقصة القصيرة، وكانت القصة عن سمكة يتغير لونها حسب نفس الصياد في قرية منذ آلاف السنين، يصطادها من يريدون معرفة طبيعة أنفسهم، ولكن مع شرط: إطلاقها عندما تنتهي المهمة. فجاء صياد واحد، اكتشف أن نفسه خراء وسوداء عندما اصطادها ووجدها وقد تلونت بالأسود، فقطع رأسها، ليهيج البحر بعدها ويُغرِق الناس بالموج ويغضب حتى يوم القيامة، بعد أن كان بلا موج منذ زمن طويل وأقرب إلى نهر فسيح.

كانت قصة حلوة، وقد لفتت إليه الأنظار بسهولة، وعرضت در الشهوار القصة على طلبتها في القسم، فصار دودة كتب حقيقية، يقرأ وحده يوميًّا ما يقرؤه بقية أقرانه في أسابيع، ويزداد انعزالًا بلا

قصد، مع نظرة متقدة وطباع حالمة ونفحة خذلان لم يقصدها. في أثناء زياراته لحسين الرُّز، كان يطلع على كتاب «ألف ليلة وليلة»، مع تهاون حسين الرُّز مع حريته في الاطلاع، بعد زواجه وركونه إلى زيجة هادئة بلا منغصات، كان يعلق عليها بقوله: «يلزم الرجل ثمانون عامًا حتى يتعلم كيف يحب.»

وكان يقول ذلك لأنه كان يتعامل مع حبوبة بخلاصة ما تعلمه خلال سنوات من الحب والدموع، كما أن طباعها المطيعة بلا استسلام خلقت له توازنًا كان يحتاج إليه. كان سيف الدين يفتح في الكتاب وفقًا لمشيئته الحرة، ويصل إلى المقاطع الجنسية التي كان حسين الرُّز يمنعه عنها في السابق، فيتأمل حركة الأجساد المحمومة والصراعات على هذه الحركات، منتبهًا إلى لذة خفية، متبوعة بشعور بالقلق، وهو يحاول تخيل ذلك، كما جرى له مع صور الراهب المشلوح.

احتفظ بالصمت تجاه ما اكتشفه، ولاحظ بعدها أنه صار أكثر تعلقًا بأمينة حلمي، وينتفض قليلًا عندما يتخيلها مجردة من ملابسها، رغم سنها الصغيرة، ويعالج تفكيره هذا بفضيلة الانشغال بالقراءة أو اكتشاف الشوارع الخلفية في مصر الجديدة أو وسط البلد مع أقرانه الأكثر شيطنة في المدرسة، رغم انتمائهم إلى أسر كبيرة، يلفون بالعربات في الشوارع، ويتجمعون أمام هارديز الزمالك أو ماكدونالدز مصر الجديدة، ويتبادلون الحشيشة والأفلام الجنسية المقتطعة من أفلام طويلة، حتى تعلم عن طريقهم كيفية اقتطاع لقطة معينة وإعادتها إلى ما لا نهاية.

كان يمر بكل هذا وهو يغلي فوق مرجل الصمت، مكتفيًا بظهوره إنسانًا غير مرئي في محيط الأسرة، ملتزمًا بالقواعد، ولا

يؤثر فيه انشغال والديه. كان هذا عندما بدأ يكتشف عالم السياسة الخرائي، فصار يقرأ جرائد المعارضة التي تكدسها در الشهوار في شقة الدقي، ويخوض في بحار التوريث والديمقراطية والسياسة، ومع أنه لم يفهم كل شيء، كان يحاول قدر استطاعته الوصول إلى معنى ما يقرأه.

كانت علاقته بمصطفى نفعة علاقة رسمية؛ لا يستطيع التباسط معه بسهولة، ويلوذ بالعزلة في حضوره، رغم محاولاته الحديث، وكان مصطفى نفعة يستشعر ذلك، فيحاول مرتبكًا أن يُفهِمه واجبات الأب وحقوقه، ويسأله بخرَق أحيانًا عن دراسته وزملائه، وهو يهز رأسه الفضي بطريقة كبار الأطباء، ويقص عليه ما جرى في يومه من خلال عملية صعبة، أو لغزًا من ألغاز المرض، فتتعمق المسافة بينهما، ليحمر وجه مصطفى نفعة ويذهب إلى در الشهوار فيقول لها:

- صار سيف الدين في طولي ولا نستطيع أن نتحدث معًا.

فكانت ترد بغضب مكتوم:

- يحتاج إلى عملية جراحية تُخرِج له الأب من رحم الانشغال.

فكان يكتفي بالابتسام بارتباك، ثم يقول بصوت جاد فجأة:

- لا نريد أن نخوض في مشكلات المتزوجين العادية هذه يا در الشهوار بعد ١٧ عامًا.

لم يرتح باله وتهدأ شكوك ضميره إلا عندما قرأ في منشور علمي أن الجينات، التي تنتقل من الوالدين إلى الأبناء، تؤثر في طريقة تفكيرهم ونظرتهم في الحياة، وتحدد تسعين بالمئة من كل ما يفعلونه، فوثق في ذلك، وفرح به مثل طفل صغير، وقال لدر الشهوار في أحد العشاءات:

- سيكون سيف الدين شابًّا مذهلًا! يقول العلم إنه يكفي أننا والداه.

فأجابته بثقة:

- تُوجَد أيضًا جينات خالو حسين الرُّز.

كانت سقطة لم تسامح نفسها عليها، ولكنها أظهرت رأيها الحقيقي في حسين الرُّز، رغم حبها له.

مع السن والتجارب، كانت تقف على أبعاد صعوبة طريقته في الحياة: أن يحيا كما يحلو له، ويترك للحب فرصة أن يقوده، ويعمل في مهنة يمكن أن تنهار صباحًا. إدراكها هذا كان يُتبَع بدفعات مركزة من الغيرة؛ لأنها لا تستطيع فعل ما فعله. لم تقف أبدًا على سبب عدم قدرتها على حياة مثل هذه سوى احترامها الخفي لحدود وضعتها لها التربية والطبقة الاجتماعية، صارت بعد ذلك، مع كثير من التطهر الذاتي والاعتراف، جبنًا محضًا. حبها مثلًا لنظرات الإعجاب من الرجال، والشباب تحديدًا الذين يملؤون أروقة الجامعة، كانت تخفيه رغم سعادتها؛ لأنها تشعر أنه غير لائق، ويقارب الخيانة على نحو أو على آخر، لذلك؛ أجملت حياة حسين الرُّز ذات مرة وهي تتحدث مع بعض زميلاتها في جولات الحفاظ على التراث هذه: «لم يعطِ اعتبارًا لأحد، ولا يشعر بالذنب.»

نشاطها السياسي الذي دخلته بلا استئذان، وبحس مندفع للانشغال والاستكشاف، ازداد بعد موضوعها عن أوبريتات الزعماء، ووصل صداه إلى نافذين، فصنعوا لها ملفًّا مع بقية أساتذة الجامعة المتحمسين، مع رصد لظهوراتها المتعددة على قناة الجزيرة، وهي تتحدث عن وجه المدينة، الذي يتغير، والفقر والفساد وقضية التوريث المخيفة، في بلد يستعيد الملكية بصورة جمهورية، ووصل إلى أقصاه عندما زارت مصنعًا في المحلة، كوجه من وجوه «كفاية»،

رغم عدم انضمامها إليهم، وبانت مثل ليدي أجنبية تهبط مثل رحمة بيضاء على أراضي الفقراء والهالكين.

كانت تشرح للعمال حقوقهم بروح يسارية واضحة المعالم، وتمارس سلطة جاذبيتها عليهم بكلمات مرتفعة المستوى، مطعمة بألفاظ شعبية، تعلمتها من حسين الرُّز، كانت تدفعهم إلى الابتسام بترحاب. نُقِل هذا المشهد كله إلى أمينة الرُّز، عن طريق كمال الشاذلي نفسه؛ إذ اقترب منها بجسده الضخم، ومال عليها وهو يبتسم، ثم قال:

- ما لدر هانم يا أمينة هانم؟

فانتفضت أمينة الرُّز، وسألت:

- ما لها يا كمال بك؟!

فقال بنظرة معاتبة وابتسامة خفيفة:

- متحمسة لمجموعة ممولة من الخارج مثل أيمن نور، وهي أعلى مستوى من ذلك كثيرًا. لو أرادت الاعتراض فلتعترض؛ يعني عندها أمها مارجريت تاتشر أخرى يمكن أن تتحدث عن طريقها كما تريد.

لم تهدأ أمينة الرُّز يومها إلا عندما جاءت در الشهوار، وهي ترتدي بلوزة حمراء فاقعة اللون، مع تنويعات من حلقان طويلة تنتهي بالألماس، ابتاعتها في نوبة تسوق محمومة، فدخلت على أمينة الرُّز بصخب مبتسم، وقالت:

- what's wrong our queen?

فقالت أمينة الرُّز:

- يا برودك يا در، وترتدين الأحمر وتحدثينني بالإنجليزي مثل يسرا؟

أخبرتها دفعة واحدة بما جرى بالمجلس، واستمعت لها در الشهوار بصمت، ثم قالت لها:

- ولكن حياتي هكذا مربوطة بحياتك يا ماما، ولم نعتد ذلك.

فقالت أمينة الرُّز:

- كل واحد فيكم مربوط بشعرة آخرها حبة رُز.

لم تهدأ خواطرها إلا عندما وعدتها در الشهوار كذبًا أن تعيد التفكير في ما تفعل، ولكنها بانت أكثر إصرارًا بعدها على ما تفعل، وإن أخذت حذرها حتى لا تثير صخبًا إعلاميًّا مصحوبًا بالكاميرات كما تحب.

كان حسين الرُّز يطفو في هذه الأثناء فوق الحياة، وقد شعر أنه وصل إلى منتهى السعادة. كان المطعم يعمل جيدًا تحت الإشراف الصارم لحبوبة، وجدية حسونة في العمل، ما دعاه إلى التفكير الجاد في توريثهما المطعم بعد وفاته؛ لأنه لم يجد سيناريو آخر أفضل من ذلك.

كانت رؤيته للحياة قد تشوشت كثيرًا بفعل السعادة، فصار أكثر انغلاقًا على نفسه وسعادته، لا يجد وقتًا للجلوس مع در الشهوار مثل الماضي، ولا يتابع تحركاتها السياسية المهمة، وكان يقابل سيف الدين في الشقة، كل سبت كيفما اتفق، ويتركه يغرق في الغرفة التي حوت ثعالب محنطة، وصدف سلاحف بحجم طفل صغير، أخذها هدية زواج من المعلم سعيد الحرَّاز، وقطعًا من تماسيح، جلبتها حبوبة؛ لأنها كانت تؤمن أن روح التماسيح تحمي البيوت من الشر، ثم يعزمه على الطعام معهما، ليجلس سيف الدين خجلًا من العنصر النسائي الجديد المتمثل في حبوبة، التي كانت تجلس معهما مجدولة الشعر، تشع برائحة الحناء القوية.

تركـز اهتمامـه عـلى سـعادته مـع حبوبـة فقـط، فأفـرط في شراء الجلاليب الجديـدة لهـا، وخرجـا معًـا إلى السـينما مـرات عـدة، رغـم بـؤس الأفـلام المعروضـة، وبعدهـا عـن ذوق حسـين الـرُّز القديـم، وكان يحضر أفـراح أسرتهـا التـي لا تنتهـي بثيـاب فاخـرة قديمـة، تنتمـي إلى السـبعينيات، متألقًـا بسـمرته المحمـرة وسـط بحـر مـن السـمار.

انشـغاله هـذا، مـع المـزاج الطيـب الـذي اتسـم بـه، وتـورد خفيـف عـلا وجهـه، وامتـلاء في جسـده، رغـم نحولـه التاريخـي الأبـدي، جعلـه يسـتعيد رغبتـه في تحليـل قصـص «ألـف ليلـة وليلـة»، وإضافـة شروح عليهـا، بخطـه المرتعـش، وينـزل سـوق المسـتعملات مـرة أخـرى ليشـتري مـا يضعـه في الشـقة، ويمكـن أن يـدل عـلى تاريخـه، كـما كان يفعـل منـذ بدايـة عقـد التسـعينيات.

كان يفعـل ذلـك مسـتمتعًا بالشـيخوخة، وبشـعوره بـأن دمـه قـد تجـدد بحـب عنيـف، يمارسـه في الحـمام كـما يريـد، وسـمح لنفسـه بالاعـتراف الحميـد بـأن حبوبـة هـي أفضـل مـن مـارس الحـب معهـن، بطباعهـا الحـادة في الفـراش مـع إتقانهـا علومًـا خفيـة، ولذلـك؛ كان يسـتعرض هـذا فـوق مقهـى المـاوردي بـلا خجـل، ويقـول: «لا حـد أقـصى لسـن المتعـة؛ الأمـر كلـه إرادة واتفـاق بـين طرفـين.»

كان يبتعـد أكثـر عـن كونـه رُزًّا، وينتمـي إلى عائلـة حبوبـة وعاداتهـا، بقبـول لـكل مشـكلاتهم بشـأن المـيراث في قـرى غارقـة، وشـجارات حـراس عقـارات ومحـال وتجـار، وبحـار نميمـة لا تنتهـي، فيحكـم فيهـا مسـتفيدًا مـن غرابتـه بينهـم، حتـى صـار يحـب تدخـين المعسـل عنـد المطعـم، كـما علمـه حسـونة، وتحديـدًا التُّمبـاك الـذي لم يجربـه مـن قبـل، ويحنـي شـعره بـدلًا مـن الصبغـة، ويضـع بـودرة الشـبة برائحـة المسـك لإزالـة العـرق، ويرتـدي جلابيـب بيضـاء واسـعة. كان يقـف عـلى أبعـاد حياتـه كلهـا بسـهولة ودون الاهتـمام بقصـص أمينـة الـرُّز، حتـى

أقنع نفسه أنه قد خُلِق غريبًا بين أسرته لحكمة وهي أنه يستطيع تكوين أسرة وحده.

ما كان يؤرقه قديمًا بسبب وحدته في مناسبات مهمة مثل رمضان والأعياد صار يتعامل معه بفخر، ويعزز اعتقاده بأنه الشاطر حسن، فيردد حكمًا تخص الحب والحياة على مسامع رفاق المقهى من الشباب الأصغر سنًّا أو الشيوخ، ويكتبها في هوامش «ألف ليلة وليلة».

أغرب ما اكتشفه في أثناء شيخوخته هذه هو ارتداده طفلًا حقيقيًّا بعد سن الخامسة والثمانين، عندما يصبح العمر كله ذكرى كاملة وحية، مليئة بالثقوب السوداء. ذات يوم، وجد ذكرى الحمام والفتاة حاضرة في ذهنه، لامعة تمامًا كأنها حدثت بالأمس القريب، فكتبها في هامش واحد من نسخ كتب «ألف ليلة وليلة»، ثم وجد ذكريات أخرى من بدايات تقشير البطاطس والحب والدموع، فوقع في ورطة مفاجئة وهي أن عالمه أكبر من أن يُنسى بوفاته، وأهم من أن يُغفَل هكذا.

أُصيب بتوتر مفاجئ مصاحب لخوفه من النسيان، وشعر أن بداخله رغبة في توثيق كل ما جرى، فبدأ ينعزل عن حبوبة نفسها بالساعات، وهو يبحث في السوق عما يناسب مراحل حياته: أكواب قديمة، ملابس وصور منتجات وإعلانات، أحذية وأمشاط وكريم فازلين للشعر، نظارات قديمة معدنية ومقاعد وزجاجات ساقع وصور أفراح، كل ما يتركه الناس خلفهم بلا تفكير. حتى صار وجهه مألوفًا في هذه الأسواق، وصار يُعرَف من بعيد، بجلسته بالجلباب البلدي، وطريقته الخاصة في المزاح مع الكلمة التي يرددها دائمًا عندما يرى صورة لوجه مجهول بملامح مميزة: «لعلنا كنا سنصير أصحابًا لو تعارفنا، لولا أن العالم أكبر منا يا ولاد.»

يوم

٢٠

خلال ستة أشهر بعد زواجه بحبوبة، تحول إلى جامع تحف حقيقي، حتى انقلب خوفه من النسيان، ومحاولته الحفاظ على ذاكرته وقصصه من التآكل إلى هوس بكل ما هو قديم، فجلب ذات مرة صورة بالحجم الكبير للسادات، لم يعلقها في أي مكان، وصورة كبيرة لدار الهلال في شارع المبتديان، وقت افتتاحها، وتمثال لفتاة إفريقية بالحجم الطبيعي، كُتِب عليه باللاتينية بالخلف اسمها وسنها وعراقة أصلها وطبيعتها التي تضيء في العتمة مثل عاج سن الفيل، ومجموعة من الملاعق التاريخية التي تنتهي برؤوس أسود وأيادي قردة، فعاد التهديد بتحويل شقته إلى متحف.

تعاملت حبوبة مع شطحته هذه بصمت وقبول، ولكنها كانت تحمل ما يجلبه، ويضعه في أي مكان بحس عشوائي، فتضعه في الغرفة التي وضعت فيها التحف القديمة، قبل زواجه بها، فتنظمها بعناية متحفي، وهي تحاول حساب ثمن كل ذلك بقلق. فُوجِئت أنه أحد أكثر المسرفين الذين عرفتهم في حياتها عندما تزوجته؛ فقد كان يخاصمها يومًا مثلًا، بشأن شيء ما، أشعلته بعنادها المشهود، ورأسها الأنشف من الحجر، ثم يصالحها اليوم التالي بإسورة ذهبية أو بلوزة جديدة، أو إيشارب ملون جميل مثل التي ترتديها، فتسامحه سريعًا وبلا منغصات، وكان أحيانًا ما يزيد العيار في المطعم، فيكرم العمال على حسها وحس حسونة، ويزيد حسونة نفسه، لتقول له ذات مرة: «المال يحرم على الجامع وعلى حسونة.»

أمسكت هي بمقدرات المال مثل لمبة بطاح في السابق، وكانت أكثر حرصًا عليه وعلى أوجه الصرف، فرفضت مثلًا تجديد المطعم كما أراد حسين الرُّز، واكتفت بتلميع المرايا القديمة والطاولات التي لم يُرِد التخلي عنها، والصور المعلقة خلف طاولة إعداد

الشطائر، وغسيل ملابس العمال اليومية، بدلًا من تغييرها بجديدة باللون الأحمر، كما أراد حسين الرُّز، في نوبة استعادة لمشهد غامض لبعض خدم الباشوات قديمًا وشكل الجرسونات في جروبي أو المقهى المحترق منذ نصف قرن مع فندق الكونتيننتال.

كانت تتعامل بجرأة أصحاب المال، عندما أيقنت بحسن نية حسين الرُّز، وإشراكه الحقيقي لها في كل شيء. ما كان يدفعها إلى الشعور بالكدر قليلًا هو اسم المطعم الذي حمل اسم درية والرُّز كما هو، في دفعات غيرة من درية التي ما زال يتذكر تفاصيل التفاصيل عنها، وقلقًا مستحقًا من وراثة الرُّز فيه. حسها العملي، الذي يطغى على نفحات قلبها السخي بالحب، جعلها تفكر في مصيرها بعده، ومصير المطعم كله، وهو ما لم تستطع مناقشته صراحة، ولكنها سألته بدلًا من ذلك عن سبب عدم إضافة لمبة بطاح إلى اللافتة، فقال بلا تفكير:

- درية هي من أسست المحل، وأنا أدرته أعوامًا قبل لمبة بطاح.

ثم قال مؤكدًا:

- وسيظل هكذا حتى يسترد ربنا أمانته.

كانت تصمت حينها، ولكنها لم تستطع تجاوز أمر إسرافه على التحف، فسألته:

- هل ستتاجر في التحف؟

فقال:

- بل أحافظ على حياتي.

لم تفهمه قط، وعدَّت ذلك من فائض جنون الرُّز وشطحاتهم؛ لأن

رضا كانت تحكي لها عن انقلابات أمينة الرُّز المفاجئة، ثم عودتها من جولات غضبها هادئة وسعيدة كأن شيئًا لم يكن. لم يتوقف عن الإفراط في جمع تحف النحس هذه إلا عندما وجدها تحزم حقيبتها، فسألها عن وجهتها، لتقول بلا سخرية:

- أترك الشقة حتى تستطيع تحويلها إلى متحف.

بعدما هدأت العاطفة بينهما قليلًا، فُوجِئ أنه كان يفتقد هذه الروح الغاضبة والناقدة دائمًا؛ لأنها تزيد من شعوره بطفولته المستعادة، وتعزز إحساسه بتجاوز السن، والوصول إلى ناحية بعيدة تمامًا عن الخوف من الموت صغيرًا أو عدم استكمال استحقاقه في الحياة.

كان قد اكتسب مظهرًا مهيبًا بشعره الذي تركه للشيب، بعد ضمانه الزواج في هذه السن، وإهماله الحناء مع الوقت، وشاربه الذي صار يصففه بطريقة الباشوات: يترك جانبيه مرتفعين، ويلمعه بالفازلين. والخواتم التي ملأ بها أصابعه، وكان يتعامل بسلطة هادئة مفادها السن الكبيرة هذه، وسمعته كفحل لا يهمد، تزوج أكثر من مرة، مع بعض الأساطير الأخرى عن قصص حب لا تُعَدُّ ولا تُحصى مع فتيات عدة، وعلاقة نافذة بأكبر معلمي السيدة، وصحة حديدية؛ إذ لم يُذكَر أنه دخل المشفى طوال سنوات عمره.

وفاة أغلب من يعرفهم أهَّلته للنأي عن الجدال؛ فعندما كان يحكي قصص ما جرى له في إسطنبول، ويعرض الصور التي وجدها في سوق المستعملات، أو يحكي عن أحداث مر بها، وقصص رجال مهمين، كانوا يأتونه خصوصًا من أجل شطيرة البطاطس الشيبسي، يتناولونها بامتنان، ثم يعرج على قصة الشقة المحترمة التي تربى فيها، وقرابته لأمينة الرُّز، وطرده منها، وبعدها، يُظهِر محتويات الشقة فخورًا بقدرته على الحياة رغم ذلك، وأنه بنى نفسه بنفسه،

لم يكـن ثمـة مـن يمكـن أن يعـترض عليـه لأنـه صـار أكـبر مـن الجميـع.

في هـذا الوقـت، كانـت سـيارة أمينـة الـرُّز المرسـيدس، التـي أصابهـا القِـدم، تمـر مـن أمـام مقهـى المـاوردي؛ لأن السـائق كان يريـد تجنـب الزحـام في شـارع رئيـسي، وكانـت أمينـة الـرُّز تتأمـل الشـارع الـذي لا تعرفـه كثـيرًا، بسـبب تكريـس حياتهـا للمجلـس والشـقة، والتصـدي لبعـض المشروعـات التـي لا تلـزم احتـكاكًا بالجماهـير، ورأت وجهًـا بـين الوجـوه، هزهـا قليـلًا، دون سـبب محـدد، ثـم أدركـت، مـن خـلال شـكوك القلـب المؤكـدة التي لا تكـذب، أنـه حسـين الـرُّز. هالهـا تغيره الكبـير، وتحولـه إلى صـورة حيـة لمعلـم وشـيخ شـعبي جليـل الهيئـة، فأشـاحت بوجههـا حتـى لا يراهـا؛ لأنهـا خشـيت مـن رأيـه في أثـر السـن عليهـا، وظلـت طـوال اليـوم في مـزاج متعكـر، لم تقـف عـلى منبعـه، مـع فضـول مسـتحق لمعرفـة طريقـة حديثـه الحاليـة، وكيـف يقـضي يومـه.

لم تكـن تعـرف، منـذ زمـن طويـل، أن در الشـهوار لم تتوقـف عـن زياراتـه، رغـم تباعدهـا في الفـترة الأخـيرة، ولذلـك عندمـا سـألتها عـن أخبـاره؛ قالـت در الشـهوار:

- سعيد مع حبوبة.

فقالت أمينة الرُّز:

- ولمـاذا لا يكـون سـعيدًا؟ رجـل عـاش بعـد أن مـص دمـاء عشرين امرأة.

عندمـا شـب سـيف الديـن عـن الطـوق، وبـدأ يفحـص مـا حولـه بميـزة التلصـص، تجـاوز المحاذيـر القديمـة، وخوفـه الفطـري مـن هبَّـات أمينـة الـرُّز، فسـألها عـن سـبب عداوتهـا الشـديدة مـع أخيهـا الوحيـد، فقالـت وهـي تضبـط أعصابهـا:

- لو رأيت أبيه حسن لعرفت أن الآخر لا شيء.

ثـم بينـت لـه، بـلا تـردد مثـل السـابق، مـا فعلـه بخصـوص رفـع قضيـة عليهـا وعـلى حسـن الـرُّز مـن أجـل شـقة المبتديـان التـي تسـكن فيهـا منـذ نعومـة أظفارهـا؛ لأنـه كان يريـد بيعهـا والـصرف منهـا عـلى ملذاتـه، وقصـص عشـقه التـي مـلأت الأنحـاء، ومطاردتـه للفتيـات تحـت السـن. وكان سـيف الديـن يسـتمع لهـا بصمـت، وقـد لفحـه غضبهـا التاريخـي هـذا، فأخـذ كل هـذا الـكلام، ووضعـه أمـام حسـين الـرُّز، وهـو يدخـن المعسـل في شرفـة الشـقة التـي تطـل عـلى عابديـن.

كان حسـين الـرُّز ذكيًـا بالقـدر الـكافي ليتحـدث بهـدوء عـما جـرى، فـشرح لـه هـذه المـرة مـا يناسـب سـنه، وبـيَّن أن والـده، وجـد در الشـهوار الـذي لم تـرَه، السـيد رمضـان الـرُّز، طـرده مـن الشـقة بسـبب سـوء سـلوكه التعليمـي، ثـم غـذى الكراهيـة في قلـب أمينـة الطفلـة حينهـا، لتشـب كارهـة لـكل مـا يفعلـه، وقصـة خديعتـه لنـزع حقـه في الشـقة، وعـدم سـؤالها عنـه طـوال نصـف قـرن، مـات فيـه مـن مـات وعـاش فيـه مـن عـاش، ثـم قـال مجمـلًا عرضـه الطريـف عـن القصـة:

- هي هكذا؛ ثمة عداوات تبدأ منذ الميلاد ولا تُحَلُّ إلا بالموت.

عـاد سـيف الديـن بهـذه القصـة إلى أمينـة الـرُّز، فعـرض في البدايـة فضائـل حسـين الـرُّز كجـد طيـب، اسـتقبله في بيتـه أكثـر مـن مـرة، وحكـى أنـه يشـعر بالضيـق نفسـه، ولذلـك؛ يمكـن أن يتصالحـا؛ لأن كلاهمـا يملـك أسـبابًا عادلـة للضيـق. ثـم قـال بـبراءة، رغـم قربـه مـن العشريـن:

- كـما أن شـكل جـدو حسـين لا يكـذب مطلقًـا مـع كل هـذا الشـعر الأبيض.

فقالت بثقة:

- الشيخوخة امتياز لا يحصل عليه أحد بالعمل.

والحقيقة أن أمينة الرُّز لم تتناول الموضوع بالغضب الكافي والمتوقع منها؛ فمع كشف دوري عليها، أجراه لطفي بعد عشاء خفيف، أخبرها أن ضغطها مرتفع قليلًا، وأنها تحتاج إلى تجاوز انفعالاتها والبحث عن الهدوء، وأشار إلى نفسه، وإلى ضحكته الشهيرة، وقال: «كل الأمراض سببها اختفاء هذه.»

قررت بعدها التعامل مع مجلس الشعب باعتباره مكانًا مناسبًا لتقاعد مريح، فهدَّأت قليلًا من انفعالاتها بشأن قضايا المرأة والطفل، التي كانت تقوم بها بطريقة محسوبة، وثياب مناسبة، حتى تليق بفيديو مميز بعدها، يُعرَض فوق شاشات التلفاز، عندما كانت جلسات المجلس تُعرَض في هذا الزمن المبارك، أو تشارك بجدية في إعداد قانون يخص المتقاعدات والأرامل. وحتى تمحو قلق روحها مما تفعله در الشهوار ولا تعرفه؛ قالت لها بوضوح: «كبرت يا درة، ولا أريد أن أضع فوق التورتة قطعة خراء.»

لترد عليها در الشهوار بتأكيد أنها تدرك مكانتها، رغم ضيقها من انتسابها إلى حزب سيئ السمعة، لا يقدم كثيرًا للناس.

كانت شيخوختها قد بدأت تؤثر عليها في أمور بعينها: مثلًا، كان خلقها يضيق في اجتماعات يوم الجمعة، التي اعتادتها، عندما يتأخر أحد أفراد الأسرة، أو يُثار صخب من الأحفاد الذين يكبرون سريعًا، مع التنافس الخفي بين درويش لطفي وسيف الدين، بشأن أمينة حلمي، التي ربت صفة الغرور الأمينية الأصيلة معها، مع نفحات من در الشهوار، التي كانت تقلدها بلا وعي.

كانوا يأتون برائحة عرق خفيفة، أو رائحة جوارب مكتومة، فتشعر بالضيق لأنها لا تحب الروائح السيئة، وتُصاب بفورة الغضب الحمراء عندما تزيد الروائح، وتشعر أن البيت مزدحم، فتطلب فنجانًا من القهوة السادة كما تفضلها، مع طبق من سوبيا

الرحماني المزز، ثم يعلو ضغطها لتهوي في قلق فطري على صحتها، وخوف من حالات الموت المفاجئة التي تصيب الشيوخ بعد غضبة بلا رب، فتحاول رضا مساعدتها بكوب من الكركديه البارد، تخرج إلى الشرفة لتشربه، مفتشة بين خبايا نفسها عن سبب هذا الغضب، ثم تقول وهي تتأمل الشارع المزدحم، وحركة الموظفين الداخلين إلى عمارة عبد الهادي للضرائب: «باين كبرنا يا رضا.»

كان هذا عندما لجأت إلى عملية حقن لوجهها عند طبيب شهير، صديق لحلمي، الذي استشعر الحرج في البداية، وقال لدر الشهوار: «من يرَنا الآن يقُل إنها أختي الكبيرة.»

فكانت در الشهوار تضحك، وهي تتأمل طرافة تعامل أمينة الرُّز مع السن بصرامة عملها في المجلس القديم أو مجلس الشعب. ذهبت بالفعل إلى الطبيب، وأجرت العملية في يوم حار، ثم مكثت في الشقة لأسبوعين، قبل أن تخرج إلى الحياة مجددًا وهي تتأمل انعكاسات وجهها في المرايا المحيطة، وشعورها بعودة الشباب إليها. أخفت العملية الشقوق في الجبهة وحول العينين، وأسفل الفم، وبينتها ببشرة ملساء مثل امرأة ثلاثينية، وهو ما أقلقها قليلًا؛ لأنه كان ملحوظًا لبقية أعضاء المجلس؛ إذ اقتربت منها نائبة كبيرة اسمها فايزة واكد، وسألتها بلا مقدمات عن اسم الطبيب ونوع حقنة البوتوكس وهي تقول:

- صار خداكِ مثل خدَّي نانسي عجرم يا أمينة هانم.

فردت بلا تفكير، وتحت وقع الخجل وحده:

- كله بماء الورد والعسل ودهن الماعز.

لم يصدقها أحد في النهاية، وتجاوزت خجلها باقتحام لقضاياها المفضلة، ثم طلبت فرو دب أسود، جلبه لطفي من رحلة في

روسيا، في مؤتمر عن مرض القلب، ارتدته ليلًا في حفل افتتاح معرض لفاروق حسني، وزير الثقافة حينها، وكتبت اسمها في سجل المهنئين، وهي تطفو فوق بحر من السعادة بالعلاقات التي تقيمها، وأثر الفراء على الجميع، ثم اشترت قبعة سوداء من الدانتيل، من متجر في الزمالك، أقنعتها البائعة فيه أنه طبق الأصل مما كانت ترتديه السيدة نهلة القدسي، زوجة عبد الوهاب، ثم بلوزات حمراء فاقعة تُذكِّرها بمارجريت تاتشر، حتى قالت در الشهوار، وهي تتأمل إفراطها في الملابس ورتوش الشكل، بما يفوق حتى سنوات شبابها: «ماما كبرت وتدرك أنها كبرت.»

كانت تتحول ببطء إلى واحدة من الهوانم القديمات اللاتي كانت تراهن في الأوقاف، واختزنت صورهن في ذاكرتها، لتكررها بعد ذلك بنصف قرن تقريبًا.

قبيل انتخابات ٢٠١٠، جلس معها فتحي سرور في مكتبه. وبعد تقدمة طويلة عن وضع البلاد الأفضل وخطة التنمية، قال إن القيادة تعد العدة لوجوه جديدة بسبب قيادة جمال مبارك الشابة، وتحدث بلا تردد عن تشجيعه للشاب الطموح، الذي لا يحق أن يُظلَم بسبب كونه ابن الرئيس. كانت تستمع له وتهز رأسها وهي تفكر، رغمًا عنها، وبلا سبب واضح، في جلسة الشرفة أسفل الشمس، وهي تتأمل الشارع في صباحات الجمعة الخالية الحارة دائمًا. أنهى كلامه بطلبه بأدب أن تنتبه أمينة الرُّز مجددًا إلى تصرفات الدكتورة در الشهوار، التي تحظى بحماية تامة وشخصية من فتحي سرور نفسه؛ إذ قال لاسم ثقيل في الداخلية واسم آخر في الحزب عندما أخبروه بما تفعله: «لن يُمَسَّ أحد من السيدة زينب ونواحيها طول ما أنا حي.»

ذهبت أمينة الرُّز بزوابعها إلى در الشهوار في شقتها بمصر الجديدة،

بعد طلبها زيارة سريعة، وهي من المرات النادرة التي تزورها فيها، فجلست معها في الشرفة المليئة بالزروع، وتناولت معها الفواكه المجففة التي تحبها در الشهوار، وتتناولها مع القهوة، وتؤكد أنها سبب رشاقتها الطبيعية لاعتمادها عليها في الإفطار، ثم قالت لها بعد احتفاظها بوجه هادئ: «ما يضر أهلنا لا يخصنا.»

ذكرت لها أنها أنقذتها من مصير سيئ، بسبب سمعتها وحدها، وأن نشاطها السياسي واضح للجميع، ثم عرجت على أن أسرة الرُّز لم تخُض قط في بحار المعارضة هذه ولا سببت فضائح، مع أن حسن الرُّز قد لاقى الأمرَّين أيام عبد الناصر، ولكنه لم يبدل مواقفه، ولم يعارض الدولة، فقاطعتها در الشهوار بكل أدب، وقالت: «تقصدين السلطة؛ فالدولة هي نحن.»

لم تصلا إلى مرفأ، واضطُرَّت أمينة الرُّز إلى التحدث بعصبية واتهام در الشهوار بالأنانية، لترد عليها بحدة خفيفة أنها لم تفعل شيئًا يُذكَر، وأن ما تفعله أنشطة متنوعة تهدف إلى أمور عدة، منها توثيق المقابر التراثية مثلًا.

كان ذلك سبب أزمة ممتدة بينهما، لم تُحَلَّ إلا خلال ستة أشهر من الندية، عندما فُوجِئت أمينة الرُّز بهزيمتها في الانتخابات، رغم محاولاتها المستميتة إقناع الحزب بابتعادها في الرأي والتأييد عما تفعله در الشهوار، وجاءت الهزيمة بلا سبب واضح؛ فعندما عاتبت الدكتور فتحي سرور هاتفيًا عما جرى، قال بهدوء: «لا ذنب لنا يا أمينة هانم، وعمرك الممتد سيؤهلك للانتخابات القادمة.»

انقلب دعمها للحزب غضبًا فاترًا، وفُوجِئت في لحظات أنها ستمكث في البيت لأول مرة منذ ستين عامًا من العمل المستمر والجاد. كانت الاتهامات للجميع بأنهم سبب في ذلك، وأعلنت عدم رضاها عن موقف در الشهوار العنيد، ثم قالت لها بلا

مواربة: «غدًا تمرين بالموقف نفسه، وعندما يحدث، تعالي وابصقي على قبري.»

كانت در الشهوار متوهجة في هذه الأيام، وقد شعرت أنها قد وجدت مكانها الحقيقي في مملكة هذا العالم. كانت تنتقل بين الندوات بلا توقف، وتُجري بحثًا مطولًا جديدًا عن العشرية الأولى من الألفية، التي زادت فيها الفروق بين الطبقات، وعن أول حكومة رجال أعمال تُسيِّر البلاد لمصلحتها الخاصة، وتظهر بذلك التغير الذي يسود المدينة على قدم وساق، فيبدل من مظهر الشوارع والبيوت، ويخلق مجتمعات بديلة على أطراف المدينة.

كانت الجامعة تنقل أعمالها إلى منطقة بعيدة في التجمع، خلال عقود من الإعداد، حتى تم الانتقال النهائي، ولم تقبله در الشهوار في البداية؛ لارتباطها بمكتبها في الشيخ ريحان، وحبها لشوارع وسط البلد، وقربها الذي يؤهلها للوصول مشيًا إلى شقة المبتديان، أو عمارة جاردن سيتي، ولكنها اعتادت بعد ذلك العزلة في الحي البعيد، وخلاء الشوارع، وضخامة الجامعة من الداخل، ووجود غرفة خاصة بها، في وسع شقة صغيرة، ملأتها بصور سينمائية من أفلام تناولت المدينة، وصورتها الخاصة من فوق مسجد ابن طولون، مع صور لمشروعاتها المختلفة.

درست الحالة بشغف، واكتشفت أن الحياة في المدن البعيدة تبعد الساكنين عن سخونة الأحداث في المدينة نفسها، وتخلق مجتمعات منعزلة، لا تتحرك إلا عندما تُمَسُّ مصالحها الخاصة والقريبة. وثقت ذلك بالصورة، بمساعدة شباب متحمسين بالجامعة، ما زالت تلمح في أعينهم نظرات الإعجاب الخرساء، وهم يشاهدونها امرأة شابة لا تكبر أبدًا، ويخمنون طبيعة زوجها المحظوظ، وكانت تتمادى في جلب الإعجاب هذا على نحو محسوب بحديث رقيق، مصحوب

بكلمات إنجليزية، ثم الانقلاب إلى لهجة جادة عندما تشعر أن الأمور ستفوق الحد.

لم تتوقف في أثناء ذلك عن زياراتها لحسين الرُّز، رغم قلتها وتباعدها، ولكنها كانت تجد فيه رأيًا شائقًا في ما يجري؛ إذ كان يؤكد كل مرة كما قال بالسابق، طبقًا لكتاب «ألف ليلة وليلة»، وتفسيره الخاص لـ«علي بابا والأربعين حرامي»، أن ثمة حدثًا سيقلب كل شيء بعد أربعين سنة من حكم السادات تحديدًا، أي بعد عام، في سنة ٢٠١١، مع بعض الذكريات التي كانت در الشهوار تعدُّها تخاريف شيخ طريفة، رغم قلقها الخفي من دقة ما يقول؛ لأن ذهنه كان حاضرًا دائمًا، ويتحدث بلياقة الشباب، ويقين بأن ما يقوله حقيقي.

ذكر لها مثلًا أنها تمثل دور الأميرات في الكتاب، وأنها ستواجه معضلة من معضلات حياتها بسبب ذلك؛ لأن الأميرات، اللاتي كن يتميزن، ويبحثن عن الحرية، يدفعن ثمنها بقوة، فكانت تستمع وهي مبتسمة، ولكنها تخفي ضيقًا فطريًّا من الفأل الشؤم والأحلام السيئة، التي لا تحب سماعها عندما ترددها رضا في جلسات القهوة مع أمينة الرُّز، أو ترددها راجية السيد، التي تحولت إلى سيدة غير واقعية وغير مرئية، قبل أن تموت بعد عودتها من العمرة منذ عامين.

كانت تستقبل در الشهوار كل مرة بتركيز أقل، وتسألها عن عز الدين بدلًا من سيف الدين، لتخمن در الشهوار أنها في بدايات مرحلة نسيان طويلة، ولكنها كانت تطفو في الحقيقة فوق بحر من الرؤى غير الواقعية، وتحيا في عالم خاص من الأحلام والرموز والعلامات، حتى فقدت الصلة بالواقع مع الوقت.

شهرتها كحاجة محسنة، تُعِدُّ مائدة رحمن شهرية لكل الناس

بجانب عمارة باب اللوق، بمساعدة طهاة من مطعم قريب بسوق باب اللوق نفسه، كانت تجوب الأفاق في السنوات الأخيرة، وكان الغريب أنها تعلمت القراءات السبع بسهولة، عن طريق شيخة مجدة اسمها سمارة، كانت تُعلِّم السيدات فوق السن بالعصا من دون الجزرة، وتؤدبهن كأنهن أطفال لم يكبروا، ففاقتهن راجية السيد جميعًا، ومع شهرتها معلمة مجازة في القراءات، قررت التطهر من أي شائبة بماضيها، فأعلنت لدر الشهوار رضاها الكامل والتام عن درويش عبد الغني، رغم توتر علاقتهما في نهايتها، ونأيه عنها عندما استبدت به حمى الذنب والحنين إلى حياته مع أمينة الرُّز، وتبرئها من أدائه في مجلس الشعب أو قضية الدجاج الفاسد. قالت لدر الشهوار وهي تتذكر هذه الأيام: «كان يأتي بالدجاج الطازج من فرارجي قريب، ويقول إنه من مزارع في المريوطية، فأقول له: وأين المجمد يا درويش؟ فكان يرد بلا تردد: المجمد للغلابة، ولكن ربنا وسَّع علينا لنشتري الطازج.»

لهذا السبب وحده، كان تشرف بنفسها على عملية اختيار دجاج شامورت، نصف سن، حتى يصل إلى مائدة ضيوف الرحمن، واللحم من جزارين يذبحون عجولًا شابة، بعيدًا عن جزارين الجاموسي الذين يخلطون لحم الجاموس الناشف، الكبير السن، بلحم العجول الصغيرة، أو الجملي الذي لا يُمضَغ بسهولة، وذلك كله من إيجار شقة الإيموبيليا، التي فقدت الصلة بها مع الوقت، وتمتعت في شقة باب اللوق بالانكشاف على الشارع الواسع بالخارج، والشمس وهي تلقي بألقها الأصفر الحاد، في نهارات الصيف الخاملة، على العربات ثم على بن عبد المعبود الذي تشتري منه أوقية كل يومين، تشربها في فناجين لا تنتهي، بجلستها في الصالة، مع طالبة مجدة اسمها شيماء، وسيدة مسنة اسمها حنان، كانتا تساعدانها في تنظيم الحصص لمن يأتين لتعلم القراءات والحفظ.

لم تخض في مرحلة استماع القطط للقرآن إلا عندما رأت في حلم أنها تسير في شارع باب اللوق نفسه بيوم شتوي غامق، يسقط فيه المطر بلا كابح، ثم وجدت قططًا صغيرة بالمئات، تأتيها من خلال المطر والبرودة، وتطلب منها، مع ارتعاشات خوفها، أن تقرأ عليها القرآن، وقال لها القط حنفي الذي تربيه للتسلية: «نحن أيضًا نحب الشيخ عبد الباسط.»

استيقظت فزعة من الحلم، واقتربت من حنفي الذي كان نائمًا فوق بقايا عظام دجاج في الصالة، مع رائحة بول لم يمسحه جيدًا، فقرأت عليه يس ثم قصار السور، لينتفض ويلعقها بامتنان، فقالت: «لا حول ولا قوة إلا بالله. أمم أمثالكم.»

زاد عدد القطط لديها حتى جاوز عشرين قطة، ملأت الشقة بصخب أطفال أشقياء، كانت تحبسها في غرفة عندما تأتي أخوات القراءة والحفظ، أو أطفال الرابعة مساءً، الذين تدرس لهم بلا أجر، ثم تُخرِجها فتمتلئ الشقة برائحة مركزة لقطط لا تهمد، ولم تتركها إلا عندما ذهبت للعمرة، ومكثت هناك لشهرين بلا رغبة حقيقية في الرجوع، قبل أن يأتيها حنفي في الرؤية مرة أخرى ويقول لها: «سيدنا النبي أخذكِ منا ولا إيه؟»

وهو ما فُسِّر بعدها أنها كانت علاقة مع جني مسخوط على هيئة قط، أنساها الحياة الواقعية، حتى صارت أقرب إلى القطط في طبعها، وازداد وزنها على نحو تاريخي، فكانت تظهر مثل كتلة سوداء، مع الخمار الأبيض والنظارات الكبيرة الواسعة، تسير في الصباح الباكر لتشتري أوقية القهوة، وتجلس تشربها على مقهى قريب بألق سيدة تملك مطلق الصلاحيات على حياتها، أو تعود به إلى البيت.

عندما ماتت، عثرت عليها شيماء صباحًا، وهي راقدة فوق

الأريكة الرئيسية في الصالة، محاطة بقططها التي لا تنتهي، وفي يديها طبق أرز بلبن، لم تأكل نصفه إلا مع الملائكة، وحنفي الذي اختفى تمامًا.

كانت تبلغ در الشهوار ببعض ما تراه في أحلامها التي لا تنتهي، فتتنبأ لها مثلًا بأحداث عامة أو خاصة. وقبل وفاتها بأسبوع، زارتها در الشهوار فجأة، وكانت تمر على وسط البلد لتشتري نظارة جديدة، فمرت عليها كما تفعل، من باب الواجب، فوجدتها تسبح فوق بحيرة بخور معتبرة، فقالت لها إن جبل قاف حقيقي، وإن ثمة عالمًا في البرزخ يذهب إليه الناس بعد الموت، ويرسلون الإشارات معكوسة؛ لأنه عالم الحقيقة، والحقيقة تنقلب كذبًا هنا، ثم قالت لها بلا مقدمات:

- ثمة عقرب كبير يترصد لسيف الدين، ولكنه سينجو منه.

فسألت در الشهوار:

- كيف عرفت يا طنط راجية؟

فقالت بجدية:

- جاءني شاب جميل، قال إنه ابن عمك حسن، وأخبرني بذلك.

شعرت در الشهوار بالقلق رغمًا عنها، وابتعدت عن الزيارة إراديًّا؛ خوفًا من الرؤية المركزة التي أصابت سيف الدين نفسه، مع أنها كانت تستمع لبقية رؤاها بلا قلق، حتى ذهبت إليها يوم وفاتها بدافع ملح من إحساس خارج هذا العالم. دُفِنت في المقبرة التي أعدها درويش عبد الغني، ولم تحضر أمينة الرُّز الجنازة، لكنها أرسلت بورود بنفسجية وُضِعت عند المقبرة، وكُتِب عليها أنها إهداء من نائبة مجلس الشعب السيدة أمينة الرُّز، وعدَّت هذه

اللفتة كافية لتُظهِر ترفعها فوق خلافها مع راجية السيد، ولكنها أكدت بعدها، بما لا يدع مجالًا للشك، ألا تُدفَن في مقبرة درويش عبد الغني لأي سبب من الأسباب، وهو ما ذكرته سابقًا، فقالت در الشهوار: «ماما، أغلقي هذه السيرة الكئيبة.»

وكتبت شقة المبتديان، كما أوصت، حقًّا لجمعية تحفيظ القرآن بعابدين، أو دار أيتام، أو تُستغَل لصالح أحد الورثة إذا لم يفرطوا فيها.

بعد نجاحه في الثانوية بتقدير ٩٤٪، وتمتعه بفضيلة التميز بين أفراد الأسرة، مع حفلة صغيرة أُعِدَّت في شقة المبتديان، أحضروا فيها بعض زملائه في المدرسة، ووقفوا يغنون له «وحياة قلبي وأفراحه»، دخل سيف الدين قسم الأدب العربي في الجامعة الأمريكية، وكان هذا بتعزيز من در الشهوار، التي سعت في منحه إحدى منح التفوق هناك، وكان ذلك برغبته الحرة، كما أعلن عنها، مع رضا مصطفى نفعة، الذي قال في سخرية مبطنة: «يكفي أطباء في عائلتي نفعة والرُّز.»

فُتِحت الأبواب لسيف الدين في الكلية ليتخلص قليلًا من حبه لأمينة حلمي درويش، ويضع اهتماماته في قناة واضحة، فدار رأسه قليلًا بعدد التخصصات، وبحار الأدب العربي، ولكنه خاض فيها، تحديدًا في «ألف ليلة وليلة»، كما ذكر لحسين الرُّز؛ لأنه تربى عليها معه.

كان يكتب ما يقوله في هذه الأيام كل مرة يزوره فيها، من أول قصص اكتشاف بركة عمل البطاطس شيبسي حتى قصته الغريبة مع شيماء شعبان، التي كان يذكرها بالخير رغم كل شيء؛ لأن عمره الطويل خلَّصه من الأحقاد وجعله ينظر إلى الأمور على نحو أقل حدة، مرورًا بقصصه في المطعم، واختلاف أنواع الزبائن، وملاحظته

لهـم؛ إذ لم يعـد أكثرهـم يسـتخدم الطاولـة للوقـوف إلا قليـلًا، بينـما ظهـرت بعـض الأجيـال الحديثـة في سـن سـيف الديـن، يدخلـون المطعـم بحـس استكشـافي بحـت، ويلتقطـون الصـور للطـاولات والمرايـا.

اقترحـت عليـه حبوبـة أن يفتتـح فرعًـا آخـر للمطعـم، في أحيـاء مزدحمة مثـل مدينـة نـصر ومـصر الجديـدة مثـلًا، مـع إضافـة عـمال لاسـتغلال اختراعـه القديـم، بوصفتـه السريـة، قلقًـا مـن اختفـاء المطعـم بـين كل تلـك المطاعـم التـي تبيـع كل شيء. كانـت قـد لاحظـت الحضـور الخافت والموتـر لبعـض الزبائـن، الذيـن يتسـاءلون عـن سر الوصفـة عرَضًـا، أو بتركيـز زائـد، ثـم يرحلـون بـلا عـودة؛ وذلـك حتـى يسـتخدموا الطريقـة نفسـها في مطاعـم أخـرى، فقـال حسـين الـرُّز بثقـة: «وصفتـي عمرهـا سـتون سـنة.»

لم يقتنـع أنـه سـيُقلَّد بسـهولة، وقـرر في عنـاد طفـولي، أن يكتـب أسـفل عنـوان المطعـم: «سر لا يُقلَّـد». ولكنـه وافـق عـلى تجديـد شـكل الأكيـاس وقراطيـس الـورق التـي تُوضَـع فيهـا البطاطـس، مـع بعـض التجديـدات الخفيفـة مثـل إضافـة علبـة طـرشي أو أكيـاس الكاتشـاب والمايونيـز، وهـي كلهـا تجديـدات محمـودة، أضافـت نوعًـا جديـدًا مـن الزبائـن، وصـار المطعـم يعمـل بعدهـا عـلى ورديتـين، الثانيـة فيهـم تمتـد حتـى الواحـدة صباحًـا. كان متمسـكًا بإدارتـه للمـكان كـما يفعـل في أزمنـة أخـرى؛ يحسـب كل شيء بدقـة، ثـم يتركـه حـرًّا لحبوبـة ليومـين أو ثلاثـة، قبـل أن يعـاود مراقبتـه لـكل شيء مثـل شـيخ شـبحي، يجلـس خلـف طاولـة إدارة جانبيـة، كان يجلـس عليهـا عندمـا افتتـح المطعـم، ولكنـه لم يعـد يشـارك في إعـداد الشـطائر كـما كان يفعـل قديـمًا بمـزاج طيـب.

بعـد سـاعات المطعـم، وبعـد أن اعتـاد حبوبـة قليـلًا، عـاد إلى عادتـه الخاصـة في التجـول في الشـوارع التـي حفظهـا، وزيـارة در الشـهوار إذا

استطاع، بعد تأجيره عربة تاكسي قديمة، تُظهِره بمظهر باشا عز قديم؛ إذ كان يرتدي بدلة مخططة موديل السبعينيات، ويجلس بألق ينقصه الطربوش، ثم ينزل بلا عصا، ليصعد إلى شقة در الشهوار ويطرق الباب. كان يتعجب من الشوارع بين الحين والآخر، ويشعر أنها تتخذ مظهرًا جديدًا تمامًا عليه، يُشعِره بالغربة في بعض الأحيان، ولكنه كان يواجه ذلك بعناد كل مرة؛ إذ يتابع الأخبار في الجرائد ليعرف ما يجري أولًا بأول، بما يعزز نبوءاته عن البلد، واشترى هاتفًا محمولًا لمتابعة الفيديوهات والبرامج السياسية الساخنة التي تُعرَض عليه، قبل أن تُدخِل حبوبة الدش في فورة تجديد، عندما قالت له: «تتركني بالساعات لأمل. سيسليني قليلًا.»

أدمنه في البداية، خاصة مع سهولة التنقل بين قنوات عدة، ثم ضبط نفسه قلقًا وهو يتابع القنوات الأوروبية المشفرة، بما فيها من مشاهد جنسية، فكان يراقب الحركة المحمومة لأجساد غريبة عليه بأنفاس محبوسة، ثم ينتقل سريعًا إلى قناة أخرى، وهو يشعر بالضيق مما فعله بلا كابح، حتى لاحظت حبوبة تغيراته هذه، فسألته عما به ذات يوم ليقول: «الدش يسبب الاكتئاب.»

جاءته معدة برامج أخرى، فقعدت معه جلسة حوارية وهي تدشنه من أقدم مطاعم السيدة، وأُذيع البرنامج على قناة جديدة وقتها، فحاز شهرة سريعة، وزاد عدد العربات التي تركن أمام المطعم، في الشارع الضيق نفسه، بما يفوق ما حدث بعد برنامج «حكاوي القهاوي» في التسعينيات، فقرر إضافة طاولات بلاستيكية بالخارج، يُضيِّف فيها زبائن الغفلة الذين يتوافدون بعد السابعة مساءً لتجربة البطاطس الشيبس المختلفة هذه. كان يبتكر من عنده بعدها قصصًا يصدقها، يرددها فوق مقهى الماوردي، عن الوافدين من شركة شيبسي مصر، الذين حاولوا معه بكل الطرق حتى يعرفوا أصل خلطته، فرفض بحسم مع كل العروض المغرية، وعن

الأجانب الذين يزورون المكان، ويحاولون الفهم، فكان يؤكد أنه يُعِدُّها عنده في البيت كل يوم بعد الفجر، ثم يذهب بها إلى المطعم، جاهزة، ليستخدمها العمال، وكان يضيف بعد ذلك، بحس مفعم بحب «ألف ليلة وليلة»: «علمتني تلك الوصفة إحدى ملكات الجن.»

عندما ترك فتوح المطعم منذ أعوام وافتتح نصبة طعمية وفول، عاد حسين الرُّز إلى نشاطه الأساسي بتقديم البطاطس الشيبسي والسجق فقط، باعتبار أن الطعمية لم تفده كثيرًا، ولكن حبوبة أصرت على وجودها في أيام كثرة الزبائن، وابتكرت خلطة حارة بالصلصة والفليفلة حتى تجذب الناس صباحًا، تشبه الخلطة السكندرية التي كان فتوح يُعِدُّها بيديه دون أن ينظر من فرط إتقانه لها. لم يفقد المطعم توازنه، وأخذ ينقلب إلى مطعم مسائي حقيقي، وعُلِّقت مصابيح في حرم الشارع، وبدأت مناوشات خفيفة تحصل في الشارع الضيق؛ لأن الطاولات سدته في وجه العربات.

بدأ حسين الرُّز ينفصل عن هذا كله بهدوء، عندما التفت فجأة أن ثمة أمورًا لم يجربها بعد في حياته الطويلة هذه. ارتدى مثلًا جلبابًا مغربيًّا أصليًّا، وصله من أحد تجار العباءات والثياب، والتُقِطت له فيه صورة وهو داخل مقهى الماوردي، في ركن جلسته المفضل، وكان يظهر به كثيرًا، في المطعم وخارجه، ثم بدأ يتردد على مسجد السيد زينب لحضور حلقة صوفية تخص أتباع الطريقة الخلوتية، فتعرف فيها على بعض المديرين على المعاش، ومساعد سابق لوزير الداخلية، وصاحب مطعم مثله، فكان يذهب هناك عصر كل إثنين، مرتديًا الجلباب المغربي، ويجلس معهم لترديد الأذكار كيفما اتفق، ثم يعرج على الرفاعي ليتناول الكباب وإصبع طرب، رغم سنه الكبيرة؛ لأنه كان يتعامل مع كل أخطار الصحة هذه على أنه

تجاوزها منذ زمن طويل، واقترب من التسعين في مفاجأة شخصية له.

بعد ذلك، كان يجلس على الماوردي، أو يزور المعلم سعيد الحرَّاز ليطلع معه على آخر صيحات كبسولات الصحة وعودة الشيخ إلى صباه، وكان يحلو له متابعة أخبار نادية العباسي، التي تزوجت بعده بتاجر يصغره في السن بعشرين عامًا فقط، وتحيا معه حياة خرائية؛ إذ خرجت لتتهمه بالعجز في وجه الجميع عندما بدأ يضربها، ثم اتهمت أهلها أنهم باعوها بالرخيص لتاجر أعلاف. كان حسين الرُّز يضحك ويقول: «لا أعرف سر ذلك، ولكن ربنا كان ينجيني كل مرة.»

شغلته الحركة الصوفية عن العالم أكثر، فسمع عن شفافية بعض الأشخاص، ومعاينتهم لما يجري في ممالك عوالم أخرى، وانبهر قليلًا بقصة سيدنا سليمان الذي كلم الطير والجن والحيوان في العموم، واستمع وجلًا لكلمات شيخ الطريقة عن معجزة سليمان في أنه أدرك ما لا يُدرَك من خلال قراءته لكل الإشارات والرموز التي يمتلئ بها العالم، ومنها طريقة الحيوانات الخاصة في الكلام، وقلق الكلاب قبل الكوارث، وصياح الديكة صباحًا لأنها ترى ملائكة النهار، يحفظون الأرض من الضياع الأخير، وإدراك القطط للحقائق، فاندمج أكثر في قراءة «ألف ليلة وليلة»، وكتب أخرى تتحدث عن الإشارات ودلائل الحياة، وتفاسير ابن عربي الصعبة، وكان ذهنه يسعفه في ما لا تسعفه فيه القدرة على القراءة نفسها، حتى استنبط بعض الأمور التي أكدت له نظرته عن نفسه: لم يكن يحب أحدًا بالفعل، وإنما يحب الحالة نفسها، وكان طفلًا طوال الوقت، ما جعله ينأى عن خبث الكبار بانكباب لا يهمد على تجارب الحياة مثل طفل يكتشف حقيقتها طوال الوقت، وأن ما فهمه من قصص «ألف ليلة

وليلـة»، التـي لا تنتهـي هـذه، إنـما فهمـه بالاسـتنباط الروحـي وحـده؛ لأنـه لا دليـل مـادي عليهـا.

أدرك في لحظـة صفـاء أنـه كان منـذورًا للحرمـان واليتـم منـذ طفولتـه، وذلـك حتـى يكـون أبًـا لنفسـه، ثـم يعثـر عـلى درية عـز الديـن لتكـون أمـه الحقيقيـة التـي أعـادت تربيتـه ووضعـت لـه الإطـار الـكافي ليـمارس تبطلـه الأزلي: يديـر مطعـمًا لنصـف قـرن.

بعـد تفحـص عقـود لكتـاب «ألـف ليلـة وليلـة»، وجـد قصتـه تتجسـد أيضًـا في قصـة أخـرى، وهـي قصـة «الأعجمـي الثـاني»، الـذي كان ملكًا وابـن ملـك، وخـرج إلى الهنـد لزيـارة ملكهـا، فقابلـه لصـوص سرقـوا راحلتـه، واضطُـرَّ إلى العمـل حطابًـا، قبـل أن ينقلـب قـردًا عندمـا حـاول إنقـاذ أمـيرة مـن جنـي حبسـها أسـفل الأرض، ولم ينقـذه سـوى أمـيرة حولـت نفسـها إلى رمـاد لأنهـا أعادتـه بـشرًا بعـد أن واجهـت الجنـي. كانـت أميرتـه هـذه هـي كل نسـاء حياتـه، وصـولًا إلى حبوبـة، والـلاتي سـاعدنه أن يكـون هـو.

لم تزعجـه اكتشـافات العمـر المتقـدم هـذه، ووقـف عليهـا بمـزاج طيـب، وقـرر التخـلي عـن أنانيتـه الأزليـة قليـلًا ليخصـص جـزءًا مـن أربـاح المطعـم صدقـة عـلى أرواح درية عـز الديـن ولمبة بطـاح وشـيماء شـعبان، وخاصـة لمبـة بطـاح التـي كان يسـتعيدها بشـعور بالأسـى؛ لأنـه أحرقهـا بـما كان يفعلـه كثـيرًا. لم يكـن قـد ادخـر كثـيرًا بالأسـاس، وكانـت حبوبـة هـي التـي تديـر أمـور الادخـار هـذه، متعجبـة مـن قدرتـه الغريبـة عـلى الـصرف، والأفـكار العجيبـة التـي تمسـك بـه بـين الحـين والآخـر.

كان قـد بـدل ثيابـه كلهـا بالجلابيـب المغربيـة، بعـد أن ارتـاح إليهـا، وأكسـبته مظهـرًا كاذبًـا لشـيخ طريقـة قديـم، واشـترى عصـا مـن الأبنـوس تنتهـي بـرأس ثعبـان؛، لأنـه فهـم مـن الكتـاب أنـه حيـوان

الشيطان المفضل، الذي يمكن استخدام سمه في علاج مشكلات الإنسان، مثل الشيطان تمامًا، وساعة كاسيو ذهبية اللون، ومجموعة معتبرة من كريمات الشعر والشارب واللحية؛ لأنه أطال لحيته قليلًا، وأحذية جديدة من الفطاطري، حتى تبدل مظهره القديم تمامًا. ولأنها تدرك شغفه الفطري بالحب؛ هددته صراحة إن أتخذ أي خطوة مفاجئة، فقال لها مازحًا: «يمكن، ولكن مع الحور العين هذه المرة.»

كان قصر عابدين قد هرم مثله، وصار مغبرًا أغلب الوقت، لا تعبر عليه أي مواكب، ومتروك لرحمة إدارة قصور الرئاسة، فكان يطل عليه كل يوم، في عادته لشرب القهوة في الشرفة، ويشعر أنهما واحد، في نوبات حنين بلا ضفاف ولا هدف، أسماها بعدها فوائض كبر السن. وذات يوم، سأل حبوبة عن شكل قريتها في النوبة، فوصفت المكان الذي تحيا به قرب السد، وهجرة أهلها إليه بعد غرق قراهم القديمة، فقال لها بتصميم مفاجئ: «أريد زيارتها. لم أسافر خارج هذه المدينة منذ السبعينيات عندما ذهبت إلى تركيا.»

ذهبا بالفعل في الشهر التالي عن طريق القطار، وأدار حسونة المطعم في هذا الوقت. ومر حسين الرُّز بالرحلة المعقدة من الوصول إلى النيل، ثم ركوب مركب تصل به إلى نواحي شاطئ تنجار، وهناك، اكتشف جنته الخاصة التي لم يتوقع وجودها قط، فنزل إلى أرض الجزيرة مثل طفل لم يكبر، وسار بين الأشجار المغروسة في النيل، حتى أغرق جلبابه الجديد، فدفعته حبوبة إلى التوقف عندما نبهته إلى وجود نصف أهلها في انتظارهما.

عندما بدأت الدفوف تُدَقُّ في مشهد كرنفالي لا يُصدَّق، وقفت فيه فرقتان نوبيتان، وبعض الزجالين السودانيين الذين جاؤوا للمشاركة مجاملة لبعض سكان القرية، وأهل البلد أنفسهم.

وقف حسين الرُّز سعيدًا في المنتصف. كان يتأمل كل ذلك بعينين لا تصدقان، ثم سار يتبعه الموكب السعيد هذا كأنه في قصة «ألف ليلة وليلة» حقيقية، خاصة به، حتى توقف الموكب عند بيت أهل حبوبة، وقد وضعت له سيدة تضحك بصوت مرتفع عقد فل حول رأسه، فبان مثل جنرال أسطوري، يفتتح بلدًا بعيدًا، وتضمخ بالحناء والروائح القوية لتوابل بخمسين اسمًا، حتى أخذ يهز عصاته ويضحك بعنفوان كامل. عندما توقف عند البيت، استقبله خال عجوز لحبوبة اسمه عم صلي، فالتفت إلى حبوبة والجمع المحيط، وهو يتأمل ضوء المساء الذي يتناول كل شيء وقال بلا مقدمات: «رأيت كل ذلك في الحلم.»

كانت رحلة لا تُنسى، حكى عنها لدر الشهوار فور عودته، وقال إنه شعر بالارتياح الكامل إلى مكان لأول مرة في حياته، فوصف لها ممرات القرية، والهدوء الكامل صباحًا، والسباحة في النيل البارد، التي تجدد الدم، ومعاملة الناس الحسنة، ثم قال نادمًا: «لا أعرف لِمَ لم أترك تلك البقعة طوال عمري.»

تشجعت در الشهوار على كلامه، فاقترحت الرحلة نفسها على مصطفى نفعة، وأخبرته أن عائلة حبوبة ستساعدهم وتشرح لهم المكان، فوافق بعد صعوبة بسبب جدوله المزدحم. ذهبا معًا من دون سيف الدين، وكانت در الشهوار تسعى فيها إلى إحياء رحلاتهم القديمة الرائقة، ومزاجهما الطيب لاكتشاف الجديد، فواجهت مشكلة ترهل الحيوية عند مصطفى نفعة، وانشغاله الحقيقي بالمشفى وبعض الحالات، فتشاجرا في أول يوم للرحلة، عندما خرجت إلى شرفة بيت الضيافة في جزيرة هيسا المنعزلة، فوجدت الهدوء الكامل الذي تحدث عنه حسين الرُّز، وتأملت الشوارع الصامتة، والسيدات العجائز اللاتي ينظفن أمام بيوتهن، فنادت مصطفى نفعة، ليخرج وهو يتثاءب، ويستمع لها بنصف انتباه، ثم يجري

حديثًا في هاتفه ليتأكد من شيء بعينه، فقالت در الشهوار: «أعتقد أن الناس يتزوجون حتى يسافر كل واحد لوحده في النهاية بعد أن يكتشف الحقيقة.»

لم يتجاوز انشغاله هذا إلا عندما نفذت تهديدها، وغادرت البيت لتكتشف القرية، بعد الإفطار التقليدي، فسار مصطفى نفعة خلفها من مكان إلى مكان، ثم اندمج سريعًا في الرحلة، مستعيدًا لياقته القديمة. تحدثا عن كل شيء لم يتحدثا فيه بالمدينة، وبانا مثل حبيبين حديثين، وظهرت در الشهوار بتيشيرت صيفي مثل فتاة حديثة السن، فباح لها بضيقه لأول مرة لأنها لم تعد تطارده في المشفى بزياراتها المفاجئة؛ لأنها كانت تُشعِره بغيرتها عليه، ثم عرج إلى محاولات الممرضات المستمرة معه، بطرق ملتوية، يصدها بحزم ولا مبالاة، فقالت در الشهوار بسخرية: «ينقلب الرجل بعد الأربعين طفلًا مدللًا.»

كانت تستعيد شعورها به على مهل، وهي تكتشف أنهما لم يكونا زوجين حقيقين منذ فترة طويلة، وأن انشغالها بحياتها العملية، وزيارتها المستمرة لشقة الدقي، أبعدتها عاطفيًّا عن مصطفى نفعة، حتى عاد وجوده علامة حضور ليس إلا، ولذلك؛ واجهت عتابه هذا بسخرية لاذعة، ولم تتناول الموضوع بجدية، قلقًا من صحة كلماته.

وهما داخل مركب في النيل، اكتشفت أنها لم تحب الفشل قط في حياتها، وأن كل ما كانت تفعله هو رغبة محمومة في إثبات نجاحها في كل شيء، من الزواج حتى الإنجاب، وفوق كل ذلك، نجاحها الشخصي في الحفاظ على تألقها الشكلي والعملي رغم كل شيء. قالت بخفوت، ما لم يسمعه مصطفى نفعة الذي تخلص من مادة قلبه السوداء: «واضح أن الأنانية عادة في أسرة الرُّز.»

عندما عادا إلى القاهرة، كانت علاقتهما قد استعادت الدفء بالكامل، فجددت در الشهوار الشقة إيذانًا بدخول نفحات الزمن الجديد، وقررت التخلي عن بعض الأنشطة التي تتردد عليها بلا توقف، وحاولت الاقتراب من سيف الدين مجددًا؛ لتفهم شخصيته الحقيقية التي يخفيها خلف غلالات من العزلة، فتحدث معها عن اهتمامه بأدب نجيب محفوظ تحديدًا، وانكبابه عليه، وخاصة روايات الأجيال، التي يستطيع فيها توثيق حياة مجتمع بأكمله، من خلال سيرة أسرة واحدة، فنصحته ببعض المناهج البحثية الخاصة، ومازحته عن زميلات الجامعة، فطلبت منه الالتفات إلى الحب والعلاقات منذ سن مبكرة؛ حتى لا يفقد اللياقة في الحب، ثم قالت وهي تضحك: «الحب عضلة مثل عضلة القلب؛ يجب أن تتحرك دائمًا.»

كانت تكتشف ببطء أن صحة حسين الرُّز المميزة قائمة على تمرينات الحب هذه التي تمرس فيها منذ الخمسينيات، ووصلت إلى نظرية سرية، لم تعلنها لأحد أبدًا: كلما تعددت علاقات الحب، صارت الرياضة أفضل. كانت فترة رومانسية متأخرة، استعادت فيها اهتمامها بالاستماع لفرق الثمانينيات التي نُسِيَت حينها، وأغاني تلك الحقبة الملونة بالأزرق، تغرق في تفاصيل الأغنية، ثم تفيق على واقع الألفية الملون والمزدحم، فتحاول الانتقال ما بين رجلي حياتها بسرعة وكفاءة، وتبتعد أكثر عن انشغالاتها المستمرة بأكثر من مبادرة، حتى انفجرت الأحداث فجأة بعدها بشهرين.

يوم

٢١

قبيل الثورة، كان سيف الدين يتعرف على الحياة من جديد من خلال الجامعة، وعن طريق علاقة حب متهورة أنسته أمينة حلمي. كان اسم الفتاة بسنت رمضان، وكانت تنتمي إلى أسرة عريقة من رجال الأعمال الذين يتاجرون في ثلاجات حفظ الأغذية، ونصف كلامها بالإنجليزية، فجذبته في البداية بطريقة حديثها المختلفة، ودلالها الواضح وهي تؤدي الأحرف بلكنة أمريكية صحيحة، مطعمة بلهجة سكان أطراف المدينة في المجمعات السكنية الحديثة، فهام معها قليلًا، وتبعها في كل ما تفعله، وهو يشعر بما يفوق رغبته في العزلة والدراسة.

كانت تدرس في كلية الإعلام، وتحفظ السيرة الخاصة بكل المذيعات الشهيرات، خاصة سلوى حجازي، التي عدَّتها المذيعة الأفضل في تاريخ البلاد، خلال نصف قرن بحاله؛ لأنها قدمت



حياتها في سبيل تحقيق العدالة بالخبر. انقلب اهتمامها بها إلى هوس حقيقي، فاحتفظت بصور لثيابها وتسريحة شعرها، وطريقة وضعها الكحل، وطريقة حديثها. وقد انتبه سيف الدين إلى هوسها هذا بشيء من الإشفاق السعيد؛ لأنها كانت تبدو مثل طفلة مبتهجة في حرم الواحدة ظهرًا، بالقاعات الفسيحة للجامعة بفرعها الجديد، الذي انتقلوا إليه على دفعات. شاهدا معًا أفلامًا عدة في أمسيات خاصة، يُخرِجها شباب في الأغلب، وأعجبه فيلم «ميكروفون» تحديدًا، رغم شعوره بنفحة الاكتئاب التي بداخله.

كان يسقط بهدوء في حساء ثقيل من حب بلا ضفاف، أغرقه في النهاية، حتى مر بالفترة المستحقة من محاولات التلميح بالكلام واللفتات، ثم الظهور في أماكن بعينها في وقت مناسب تمامًا، أو تحقيق النجاح بمعدلات غير متوقعة، تلفت النظر إليه في قسمه المزدحم بالأساس، حتى تجاوز الناحية الأخرى من الخوف ذات مرة، فأخبرها أنه معجب بها، بأكثر الطرق قلقًا وانتفاضًا، فهدأته بابتسامة مرحبة، ثم قالت بهدوء، ماحية كل محاولاته: «أحترمك وأحبك كصديق، ولكن عندي بوي فريند منذ أيام الآي جي.»

انفرط كل شيء مرة واحدة، وشعر بوهج الحريق المقدس الذي يعتمل داخله، فانكب على الحاسوب لكتابة قطع بالإنجليزية على طريقة شكسبير، وقرأ قصة عطيل وديدمونة بجدية وتقديس عابد، وابتكر سيناريوهات خيالية بشأن طبيعة صديقها الذي ذكرته، والذي لم تتحدث عنه مطلقًا، وازداد انعزالًا، فانهمك في الدراسة، ولم يعد يقابلها كثيرًا، حتى لاحظت در الشهوار تغيره، سألته عما به، فقال: «لا شيء، وضع البلد صار سيئًا.»

فسألته عمَّ يقصده بذلك وهي تبتسم، وخاضت معه في حديث طويل بشأن «كفاية»، والحركات التي تنبت بخفة في المدينة،

ومشاركاتها الحماسية في السابق، قبل تخليها المتمهل عن دورها هذا لشعورها بالتشتت والضغط. وعندما لاحظت شروده وإجاباته المقتضبة، سألت فجأة:

- من هي يا سيف؟

فارتبك وقال بعصبية غريبة عليه:

- من من؟!

فقالت بدقة أكبر:

- التي اصطدمت بها فغيرت طبيعتك.

أخبرها عن كل شيء بعد نفي ممتد ليومين، واستمعت له بهدوء، ثم بينت له أن تلك الفتاة لم تخطئ في شيء، وإنما كانت تعامله بعفوية صداقة عادية، مع انتمائها إلى طبقة لا حدود فيها بين أنواع الحب المختلفة. نفخت فيه قليلًا ليستعيد ثقته، وبينت أن ضيقه بسبب الرفض ليس إلا، وعليه أن يختار له نشاطًا يمكن أن يكرس فيه الطاقة، فقال، تحت وطأة التحدي، وهو يتذكر حديثهما -هو والفتاة- عن فيلم «ميكروفون»:

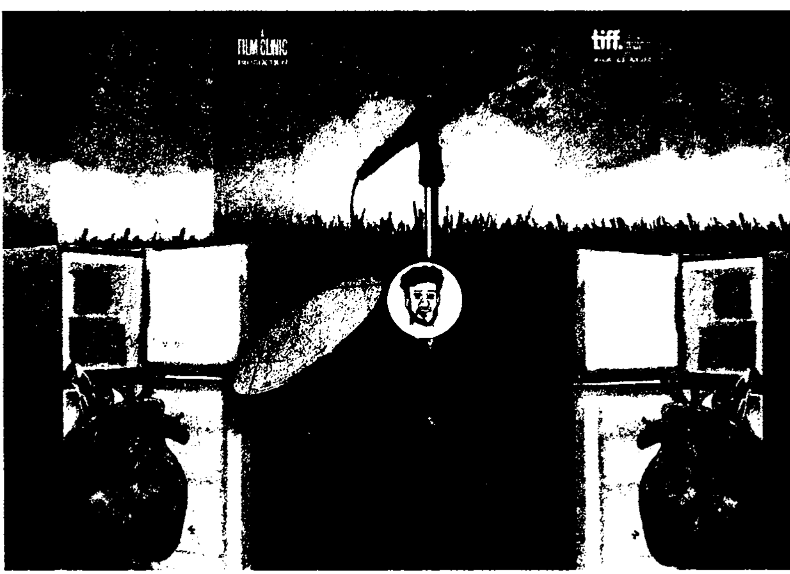
- الصحافة والسياسة.

ذهب إلى حسين الرُّز. وفي أثناء شرب القهوة السادة، انتبه إلى طريقته الخاصة في إمساك الفنجان بإصبعين، ورفع الإصبع الصغيرة في الهواء، كما تفعل أمينة الرُّز، فابتسم، وشم رائحة العرق الليمونية الجافة القوية، التي تنبعث من ثياب حسين الرُّز، فشعر بالراحة، وأخبره بعد تردد بقصة حبه، فقال له حسين الرُّز بلا تردد: «اللي بعدها يا سيف الدين.»

وضح له أن هذه الفتاة ستظل المرجع الأساسي له؛ يعود إليها

كلما أحب واحدة أو انجذب لها؛ لأنها تشبه الشيء الأول من كل شيء، ودلل على ذلك بحكاية فتاة الحمام السمراء. كان يتحدث على نحو طبيعي، ارتاح إليه سيف الدين، فقرر تجاوز القصة طبقًا لنصيحة حسين الرُّز، فخاض بعدها في البرك الراكدة لعلاقتين بلا أفق، عززا من اهتمامه ببسنت رمضان، ولذلك؛ دفعته رغبته الخفية في التميز والظهور، بعد انقطاع صداقتهما، وتعاملها مع الأمر بجفاء علمي، بالمشاركة في بعض إضرابات الطلاب بعد رفع المصروفات.

كانت البداية بمشاركة خجلى، يقف فيها على طرف المظاهرة، ويتأمل ما يجري، ثم يرفع ذراعه بخفر عذراء وهو يردد ما يُقال. بعد ذلك، تطور الأمر معه إلى مراحل التخطيط التي لا يشتبك فيها مع الأمور، حتى أعجبته اللعبة، فجمع بين اهتمامه بالأدب وقراءته المتعمقة للسياسة. اكتشف في لحظة سعد أن قصص السياسة تشبه قصصًا من أدب الواقع، ومطعمة ببعض الواقعية السحرية،



وأنها القصص الأهم في مملكة هذا العالم؛ لأنها تبدل حياة الناس بجرة قلم.

كانت أيامًا مفعمة بالعرق والحرارة والحماسة، فانشغل بها حتى صار لاسمه رنة في الجامعة، ووصل إلى در الشهوار، فتعجبت في البداية ولم تربط بين الاسم وسيف الدين الخجول، المخذول الهيئة، الذي يبحث عن النمل ويحمله قبل أن تسقط عليه بالمقشة، ثم يطلقه حرًّا في شرفة شقتهم. اكتسب كلاهما سمعة الأسرة الذهبية، وصارا يُشاهَدان في هالة أسطورية، وعززت در الشهوار من أسطورة النحس هذه بجلساتها مع سيف الدين ورفاقه في الجامعة، وممارستها سحرها المعروف عليهم، وهي تربط بين اهتمامهم وتغيرات العمران في المدينة.

كان هذا كله إيذانًا بتحول اهتمام سيف الدين ليقرر عمل دراسة تخرجه الخاصة على القصة الأدبية في السياسة، ليربط بين الأدب والكتب السياسية التي تُكتَب بصيغة أدبية، مثل كتب محمد حسنين هيكل. سعى إلى مقابلته، وساعدته در الشهوار في ذلك بسهولة، فذهب إليه ذات يوم في مكتبه الفسيح بشارع النيل، واستقبله بوجهه النحاسي وابتسامته الشهيرة، وانتقى له كتبًا عدة تساعده في الدراسة، وكان أغلبها كتب أمريكية، مع بعض النسخ من كتبه، ثم سأله عرَضًا:

- هل أنتم الرُّز نفسه الذي يبيع البطاطس الشيبسي؟

فاحمر وجه سيف الدين، وقال:

- يُعَدُّ السيد حسين الرُّز جدي.

فقال هيكل ضاحكًا:

- ولماذا تقولها بخجل؟ كان جدي تاجرًا كبيرًا يا سيف، المهم

ما تفعله أنت، ولا تخجل من تاريخ عائلتك. عبد الناصر، أعظم زعيم في أمتنا هذه، كان ابن ساعي بريد.

الكلمات، التي قيلت بمبالغة شعرية، أخذها سيف الدين كما هي، وقرر تكرارها على مسامع أمينة الرُّز التي كانت تمر بفترة مزاج سيئة بعد فشلها في الانتخابات؛ وكان ذلك لاستمتاعه بلعبة جديدة سرية من دفع الناس إلى الغضب، ومراقبة انفعالاتهم مثل شيطان متدرب.

كانت من المرات القليلة التي فقدت فيها أمينة الرُّز اتزانها، فذكرت هيكل بالسوء، واتهمته بقلة الذوق؛ لأنه لم يذكر اسمها، وقالت بلا تردد: «يفعل ذلك لأنه من المعارضة.» ثم أضافت: «قبل ذلك، كتب «خريف الغضب»، وسب في البطل الذي أعاد سيناء، واعتذر بعدها بسنين.»

كانت قد استقرت في شقة المبتديان منذ ضياع الانتخابات النحس هذه، وبدأت تعتاد حياة البطالة بتردد، وهي تكتشف كل يوم جماليات الجلوس في الشرفة أسفل الشمس، والإفطار البطيء لأنواع أدمنتها من الجبن، خاصة الجبن الأزرق الذي تعودت عليه عن طريق شطحات حلمي درويش وقت سفره؛ إذ أعجبه مذاقه في رحلة إلى ألمانيا، فجلب أربعة أقراص معه، وأعطى أمينة الرُّز واحدة منها بلا إخطار مسبق. دخلت المطبخ يومها، فوجدت رضا تنظر بقلق إلى القرص المغلف بسوليفانة زرقاء، تفوح منه رائحة يوم سيئ، فقالت فور رؤيتها: «الدكتور جلبها وقال إنها جبن مستورد، ولكن واضح أنها تالفة.»

فكت أمينة الرُّز السوليفانة، فوجدت القرص المصفر قليلًا والملطخ ببقع خضراء مزرقة، فهاتفت حلمي درويش غاضبة وهي تتهمه بالإهمال والعقوق؛ لأنه أحضر لها جبنًا فاسدًا، فقال بهدوء

وهو يضحك: «هذا من أغلى أنواع الجبن في أوروبا؛ نابليون كان يأكله بعد كل عشاء.»

طوعها بالكلمة اللينة، وشرح لها، على نحو جاذب لها تحديدًا، كيفية صناعة هذه الأقراص بجدية، وتخزينها في أقبية كئيبة ومظلمة، حتى تذوقته أمينة الرُّز بعد تردد لإغراء تجربة أحد مظاهر الثراء، وأعجبها بعدها فأدمنته، مع أنه كان سببًا في ارتفاع الكولسترول لديها.

لم تدرك قط أن غضباتها المتكررة هذه كانت بسبب خوضها في بحيرة الشيخوخة الراكدة، وشعورها بأنها اختفت فجأة من الحياة العامة؛ فمثلًا، اشتركت في كل الجرائد المعروفة تقريبًا، حتى تأتيها يوميًّا فتطلع عليها لتعرف الأخبار، ثم تجمعها بصبر، وتُكوِّن بعد ذلك نظرتها الخاصة من واقع تجربتها في البرلمان. ولأنها كانت تحسب نفسها عضوة فاعلة بالحزب، وتحضر اجتماعاته بمبنى الكورنيش بانتظام؛ كانت تتحدث بصيغة رسمية مع در الشهوار، وهي تذكر معدلات النمو، وتوافر منتجات لم تكن موجودة من قبل، فتقول بعصبية: «كنا أيام عبد الناصر نشتري من البقال نفسه ونذهب إلى الترزي نفسه.»

على أي حال، بدأت تعتاد حياتها الراكدة اليومية هذه، حتى اكتشفت ذات يوم به رياح خماسين أنها لم تغادر المنزل منذ أسبوعين وثلاثة أيام، وهي الفترة الأطول في تاريخها التي تمكث فيها بالمنزل بعد خروجها إلى الحياة العامة.

كانت قد حفظت أسماء المسلسلات والبرامج التي تُعرَض، وصارت تشاهد روتانا كلاسيك باعتبارها النافذة الوحيدة لأيامها البعيدة، والتي فُوجِئت في لحظة بلا عنوان أنها صارت تنقيها

من كل شيء سيئ، وتراها في ضوء شاحب من أحداث رائقة لا تشوبها شائبة. صار عملها في الأوقاف مثلًا ضمن أيامها الحلوة، تمحو أحداثًا مشينة بعينها، وتذكر أحداثًا أخرى لم تحدث قط، أو حدثت على نحو يختلف عن روايتها لها، وتقصها على زائراتها من صديقات النادي والروتاري والمجلس القومي للمرأة الذي صارت فيه شخصية شرفية، بعد إغلاق المجلس القديم، ويتبادلن جميعًا النميمة عن الزمن السيئ وضياع الأمور والفساد.

وكانت تؤكد أنها رفضت فكرة توريث جمال مبارك بسبب حداثة سنه، وثقتها في قدرة الأب على القيادة، وعلى عدم اتباعها أسلوب التوريث هذا، حتى إن در الشهوار كانت تتخذ مواقف معادية لها، وتعمل في مجال آخر، وكلها أحاديث تضيف فيها إلى نفسها، وتستعرض مقتنياتها الخاصة من الأولاد والأحفاد بثقة، وعراقة شقة المبتديان، ثم تعرج إلى مساوئ السكان الجدد للعمارة؛ فلم يعد أي واحد منهم يهتم جديًا بمستوى نظافة الدرجات، ولا صيانة المصعد القديم المغلف بالخشب، وعندما صعدت إلى سطح العمارة منذ أيام، لتشم الهواء القادم من ناحية السيدة زينب، وجدته مليئًا ببقايا الأجهزة الكهربائية والقرميد والخشب وأجساد مجهولة، فقررت إنشاء اتحاد ملاك من السكان الأقدم، ولم يكن سوى رجلين كبيرين في السن، حتى يُتعامَل مع السكان الجدد هؤلاء ويُنظَّف السطح، ولكن تعطل الأمر بسبب انشغالها بأمور عدة أخرى، ليُنفَّذ بعدها بفترة طويلة عندما تجاوزت الثمانين بصمود.

خلال نصف عام قبل الثورة، استطاعت أمينة الرُّز تكوين شبكة علاقات مع خادمات تعرفهن رضا، وباعة كل شيء، ومخبرين يوصلون الأخبار مقابل المال، وجامعي قمامة، وجمعيات خيرية، كما صارت أكثر ميلًا إلى الخروج العادي؛ تمر بنفسها على سوبيا

الرحماني، ثم تزور ألفت زين الدين وهي تتعمد الظهور بمظهر الشابة التي تستطيع السير وحدها، تتأمل سمنة ألفت زين الدين الطيبة، وتقول لها: «ستموتين بعد وجبة دسمة يا ألفت.»

لم تعد تحب اجتماعات الماضي في المعارض والنوادي فجأة، وصارت تفضل البيت بدلًا منها، وهي تشرف بتمهل، لم يتأتَّ لها من قبل، على الزروع ونوعية الطعام لكل يوم، والاستعداد لغداءات الجمع، وعدد برطمانات العسل، واللحم الضأن الذي كان يأتي لها من المذبح القريب، مختومًا ونظيفًا، فتقسمه إلى أكياس جاهزة لكل مناسبة، وصارت أكثر ميلًا إلى العادات البطيئة التي تصاحب ذلك مثل الجلوس للاستماع لأم كلثوم، كما كانت تفعل في الزمن الجميل، أو الاندماج في برامج المسابقات، أو المسلسلات التركية التي اكتشفتها مصادفة بفعل رضا، وكانت تفتش فيها عن شخصية امرأة قوية تشبهها، أو تقارن بين أحداث بعينها وأحداث مرت بها، والغريب أنها كانت تنجذب كليًّا إلى مشاهد الحب الخفيفة، فتصدر منها تنهيدة سريعة، أو تبتسم بلا وعي وهي تتأمل مشهد قبلة، قبل أن تشيح بوجهها وتقول: «الجماعة الأتراك بلا حياء، بعدما أبعدهم أتاتورك عن الإسلام.»

كانت تتذكر طريقة أبيها في الحديث، وتقارن بينها وبين طريقة بعض رجال المسلسلات، وتتأمل الشيوخ الكبار المشابهين لحسن الرُّز الكبير، والمشاهد الخضراء لقرى لم تزرها، ومشاهد إسطنبول المميزة، بالمآذن والقباب، والشوارع الطالعة والنازلة، فتؤكد انتماءها بالحنين الغريب إلى هذه الأماكن التي لم ترَها. وقد انخرطت في الموضوع حتى صارت تحفظ أسماء الأبطال، وتعرف مواعيد العرض والإعادة، وقد تأثرت بمسلسل «العشق الممنوع» حتى رأت نفسها في البطلة، وكانت تشجعها سرًّا، حتى إنها تمنت الموت لزوجها لتعيش مع ابن أخيه، وقد ضبطتها رضا في مزاج

سيئ عندما انتهى المسلسل نهاية حزينة، فلما رأتها، قالت بغضب لانكشافها: «هل يريدون منا التعاطف مع خائنة لزوجها؟»

كانت تكتشف عوالمًا ملونة لم تعرفها بسبب الانكباب على العمل، فرقق ذلك من قلبها قليلًا، رغم احتفاظها بصرامتها الطبيعية، وصارت تهيم في قصص حب لا تنتهي، وقد شاركتها در الشهوار مشاهدة إحدى الحلقات ذات مرة، عندما قاطعت حديثها في إحدى الزيارات، وقالت لها بحس عملي: «موعد الحلقة.»

فتساءلت در الشهوار، لتتركها أمينة الرُّز وتفتح التلفاز، وتجلس في الصالة المكدسة بالتحف، مثل ملكة ورق لعب ساحرة، تتابع المسلسل، وتشرح لدر الشهوار من يحب من، في متاهة من علاقات حب صعبة، تحدث بين أفراد أسرة واحدة، وضحكت بعدها در الشهوار وهي تقول لمصطفى نفعة عما جرى: «واضح أن ماما حبِّية قديمة ولكنها لم تترك الفرصة لنفسها مثل خالو حسين.»

وفي الحقيقة، كانت أمينة الرُّز تنجذب إلى شخصية سمر في «العشق الممنوع»، وليس شخصية أمها الصارمة، التي ذكَّرت در الشهوار، من مشاهدة سريعة لإعادة المسلسل الناجح للمرة الثالثة، بدور أمينة الرُّز الأساسي في حياتها، وكان ذلك غريبًا؛ لأن أمينة الرُّز كانت تتحدث عنها بحماسة الإعجاب على نحو سري، تدبج معه كلمات انتقاد قوية، فصارت تقلدها أحيانًا في طريقة كلامها وابتسامتها، وهي توقن داخلها أنها لم تعش حياتها بالفعل، ولم تحب درويش عبد الغني حقًّا. لم تبث أحزانها هذه إلا لألفت زين الدين، التي ضحكت بطريقتها الشهيرة بصوت حاد وهي تغمض عينيها، وقالت: «أزمة منتصف العمر في السبعين؟ إذن ستعيشين ١٤٠ سنة يا مونة.»

بينت لها ألفت زين الدين كيف كانت تُعجَب بالرجال في صمت،

ولم تشـاركها ذلـك قـط مـن قبـل بسـبب قلقهـا مـن طباعهـا الحـادة وانتقادهـا الـذي لا يحل أحـدًا، وأنهـا حاولـت مـع رجـل فاضـل اسـمه ممـدوح النمكـي، تعرفـت عليـه ذات مـرة في زيـارة لنـادي هليوبوليـس مـع مجموعـة اختفـت حاليًّـا تمامًـا وتقطعـت بهـم السبل. كان رجـلًا مـن جيـل المهندسـين المعماريـين الكبـار، وكان مشـهورًا بعلاقاتـه المتعـددة مـع الجنـس الآخـر، وخروجاتـه المسـائية بعربـة شـيفروليه واسـعة ومكشـوفة. حاولـت معـه ألفـت زيـن الديـن وقـت عزهـا، وخرجـت معـه عـشر مـرات بالعـدد، ذاقـت فيهـا لـذة الحـب بـلا أمـل، مسـتمتعة سرًّا بعذابهـا في عـدم وجـود أفـق لحبهـما هـذا، ثـم تجاوزتـه بصعوبـة عندمـا فُوجِئـت أنهـا صـارت لا تفكـر إلا فيـه، خاصـة مـع ضيافتـه لهـا في شـقته بعـمارة قـرب ميدان تريومـف، وصـف فيهـا كيـف أن المعـمار وجسـد البنايـات يشـبه في جمالـه جسـد المـرأة المكتملـة، التـي تخطـت سـنوات العشـق الأهـوج والحـب العـذري.

كانـت قـاب قوسـين أو أدنـى مـن خطـأ أحمـر، فتراجعـت سريعًـا، وحبسـت نفسـها في غرفتهـا وهـي تعـض عـلى أسـنانها حتـى لا تقابلـه، ولم تمحُـه مـن قلبهـا عندمـا عرفـت أنـه يواعـد أخـرى تصغرهـا بعـشرة أعـوام، وإنـما ازدادت تعلقًـا بطريقتـه القاسـية في تجـاوز القصـص التـي لـن تتـم.

فُوجِئـت أمينـة الـرُّز بهـذه القصـص التـي تـتردد لأول مـرة في مهـد السـبعينيات، وكتمـت ضحكهـا بغضـب باهـت، واسـترجعت قصـة أحمـد محـرز كاملـة، فغـيرت في بعـض تفاصيلهـا بـما يناسـب هوسـها الجديـد في سـنوات الحـب الضائـع هـذه، وذكَّـرت ألفـت زيـن الديـن بهـا، ولم تتوقـف في خيالهـا إلا عندمـا قالـت ألفـت زيـن الديـن: «كان عينـه مـن در الشـهوار. وصراحـة عنـده حـق. أذكـر جيـدًا القصـة؛ أنـا الـذي شـجعتك يـا قمـر.»

دعتها إلى تجاوز هذه الأفكار بالانغماس في إعداد الطعام والإشراف على العزائم مثلها، وشكت إليها من ضياع حبوبة التي كانت تُعِدُّ الأطباق الصعيدي بإتقان، خاصة الويكا البلدي والأرز المعمر، ولكنها لم تنتقد طاهيتها الحالية، وعدَّتها أعجوبة في الطعام الإيطالي؛ لأنها خدمت في بيت سفير إيطاليا السابق، وتعلمت صناعة الباستا بالريحان مثلما تتقن المكرونة البلدي.

كانت تتباهى بوزنها الزائد باعتباره أصل السعادة، وترحب بعودة أمينة الرُّز إلى حياة البطالة الرائعة، ولكنها أشعلت موقدًا للغيرة من در الشهوار؛ إذ أخذت أمينة الرُّز تتأملها بعين المنافسة، فتشاهد شبابها المستمر، واهتمامها بمظهرها، وقدرتها السحرية على الإغواء المحسوب دون السقوط في ورطة. كانت تقارن بين حياتيهما فتزداد غضبًا، وتنتقدها كل مرة تقابلها فيها، أو تعتصم بمزاج صعب، ثم تتجاوز الموجة سريعًا عندما يدعوها العقل إلى التمهل والاحتفاظ بالاتزان المعهود، وقد كان هذا سببًا كافيًا لتعجب در الشهوار من انتقاد أمينة الرُّز المفرط لها، لتشعر أحيانًا أنها غير مرحب بها، وتغادر الشقة سريعًا. أخبرت حسين الرُّز بتلك الأزمة حتى تجد لها وصفًا، فضحك وقال: «عندما لا تجد أمينة عدوًّا تبحث عنه.»

نصحها أن تتجاوز كل ما يبدر منها في هذه الفترة؛ لأن الشيوخ ينقلبون أطفالًا فجأة؛ لأن الزمن دائري كما يؤمن، وكل شيء ينتهي إلى نقطة البداية، وليس خط طول يبدأ بنقطة وينتهي بها، ولهذا فإن كتاب «ألف ليلة وليلة» كان مكونًا من مجموعة من الدوائر التي تدور حتى تصل إلى ما لا نهاية من تكرارات، ولهذا؛ قال بغموض: «حتى علاقتي بأمينة؛ ستعود من حيث بدأت.»

كان قد صار طفلًا حقيقيًّا في سنواته الثمانين هذه، وبدأ يثقل على حبوبة بطلباته الغريبة؛ إذ تجده متحمسًا مثلًا لزيارة قريتها في أسوان

مجـددًا، فيذهبـان هنـاك لأسـبوع، يبقيـان فيـه في بيـت ضيافـة فسـيح، وقـد تركـوا المطعـم لحسـونة وإدارتـه الصارمـة، يقـضي فيـه حسـين الـرُّز وقتـه في ارتـداء الجلاليـب السـوداني الواسـعة أو النوبيـة المختلفـة التصميـم، ويتنـاول البلـح باللبـن، ويـمارس التأمـل صباحًـا في أماكـن خـلاء عنـد جزيـرة صغـيرة اسـمها تنجـار، تكونـت بفعـل طـرح النيـل، فـكان ينـزل إلى النيـل، ويصعـد الجبـال الصغـيرة، ويقطـف الجوافـة البريـة مـن فـوق الأشـجار، ويـمارس ألعـاب الصبيـان بـلا خجـل، حتـى إن حبوبـة كانـت تحـاول جاهـدة أن تقنعـه بالابتعـاد عـن هـذه التصرفـات التـي تقلـل مـن مكانتـه، فـكان يبتسـم ويقـول: «نصحـوني بذلـك قبـل الـزواج بـك أيضًـا.»

وفي القاهـرة، كان ينـدمـج في اكتشـافات غريبـة؛ يـزور مثـلًا مقهـى سريًّا يقـدم البوظـة بالطريقـة الشـعبية المسـكرة في درب المهابيـل، أو يجـرب مطعـمًا يقـدم الحـلالي عـلى الطريقـة السـكندرية مـن الأعضـاء الذكريـة الطويلـة للعجـول والثـيران، أو يعقـد صداقـة مـع مجموعـة مـن جامعـي الصـور والتحـف القديمـة، وكان يسـميهم مجموعـة سـوق الجمعـة، يقابلهـم أسـبوعيًّا، ويسـتعرض معهـم مـا توصلـوا إليـه.

ذات مـرة، عثـر عـلى تمثـال نصفـي شـديد الإتقـان لملـك رومـاني مجهـول، كُتِـب اسـمه عليـه باللاتينيـة، فاشـتراه لأنـه شـعر أنـه يشـبهه، وكان سـعره مرتفعًـا إلى الدرجـة التـي آلـت بحبوبـة إلى الجنـون؛ إذ اقتنعـت أن جنيًّـا عنيـدًا قـد أمسـك بتلابيـب حسـين الـرُّز وصـار يقـوده في سـنوات عمـره هـذه، ويحولـه إلى هـاوٍ بـلا مسـؤولية. كانـت مـصرة عـلى أن دخـول هـذا التمثـال شـؤم في البيـت؛ لأنـه يـضيء بنظـرات غاضبـة ليـلًا عندمـا تعـبر في الصالـة، وحاولـت بـكل الطـرق إزالتـه، ولكـن حسـين الـرُّز كان يرفـض بثقـة، ويمعـن في إضافـة الأشـياء إلى شـقته، وهـو يفكـر في تجميـع مكونـات حياتـه الطويلـة مـن صـور لا تخصـه وأدوات وآلات وأكـواب وأطبـاق طعـام وملابـس وكل مـا

يخص زمنه الآفل، وصولًا إلى الأسطوانات القديمة لأغانٍ أصلية لعبد الحليم ما زالت تحتفظ برائحتها السبعيناتي.

شغَّل تسجيلًا نادرًا وأصيلًا لحفلة «حاول تفتكرني» في زيارة لدر الشهوار وسيف الدين معًا، فوقعت در الشهوار في فخ الحنين المفاجئ إلى كل ما يخص شبابها البعيد، كما يحدث لها مع عبد الحليم بالتحديد، وتراءت لها الحياة نفسها بلا معنى للحظات، قبل أن يلتقط حسين الرُّز الخيط ويقول: «كلما أتذكر زمنًا بعينه، أجد أنني أفسدت أمورًا كثيرة لن يصلحها غيري.»

كانت نظريته تركز على تجميع كل ما يخص زمنه حتى يحفظ لنفسه خلودًا مناسبًا بعد وفاته؛ لأنه اكتشف أن قصته الطويلة، التي لا تعني غيره، لا وريث حقيقي لها، ولذلك؛ اهتم بقص قصته على سيف الدين بكل تفاصيلها، أكثر من مرة، منذ طفولته حتى الشباب، حتى شربها إلى كيعانه، وطلب منه أن ينشرها على هيئة مذكرات بعد وفاته التي كان يتحدث عنها كحدث لن يحدث أبدًا، وكانت ذاكرته حادة إلى الحد الذي تذكر معه اسم مدير القشلاق الملكي أيام عز قصر عابدين، السيد إمام، والد الكابتن حمادة إمام نفسه، وقصة إغلاق شارع القشلاق نفسه عندما كادت عربة تنقل فتيات من بعض بيوت الدعارة -قُبِض عليهن بالجملة- تصدم عربة الملك الفولكس فاجن التي أهداها إليه هتلر، فقرر إلغاء سير العربات في الشارع تمامًا، ولم يُفتَح بعدها سوى وقت ثورة يوليو التي يسميها انقلابًا عسكريًّا صريحًا.

حكاياته عن الثورة والتاريخ، التي كان يرددها لسيف الدين بحس غاضب، يتناول العصور كلها بوصفه أنهم جميعًا أولاد كلب، أوقع سيف الدين في حيرة مستحقة، لا يعرف معها حقيقة التاريخ الذي عُرِض عليه، وكانت هذه حالته عندما اشتعلت أحداث

يناير ٢٠١١ فجأة.

عندما شارك في الأحداث بالبداية، شارك من منطلق الفضول المتنامي داخله، الذي جعل عزلته تظهر مركزة في هيئة شاب نيرد، كما وصفه زملاؤه، لا يهتم إلا بالسياسة وأمورها وربطها الصريح بالأدب. نزل يوم ٢٨ الميدان مثل رحلة استطلاع، وكان يسير خلف التظاهرات وهو يتأمل ما يجري بعين المراقب، حتى فُوجِئ بضعف طارئ في روحه، جعله يخشى المشاركة الحقيقية الفاعلة، عندما كان يرى الشباب يتساقطون بفعل قنابل الغاز ورصاص الداخلية، فكان يركض مع الناس في الخلفية، ويطفو على الهامش وهو يتأمل ما يجري، ويحاول تجاوز الجبن الفطري بتظاهره أمام نفسه أنه كان يقترب من الخطر ثم يهرب منه.

ذات مرة، كان يركض قرب ميدان طلعت حرب، وعندما اقترب من التمثال، فُوجِئ أنه يتحرك على نحو مقلق وسط سحب من الغاز، فكتم نفسه، وجرى ناحية شارع شريف، ثم رأى أولى دفعات عساكر الأمن المركزي تظهر من خلال الضباب مثل أشباح مساء غير معقولة، فركض ناحية شارع البورصة، وهناك، ظهرت الأشباح نفسها.

بعد ليلة طويلة من الهروب من كوابيس حقيقية عدة، وصل ركضًا إلى كوبري الأزهر، وجرى فوقه وهو يتأمل المشهد الساحر لعتبة خالية لأول مرة منذ عقود، ثم وصل إلى الغورية وقد أدرك الحقيقة: كان يركض منذ ساعتين بلا توقف. سيكتب بعد ذلك عن هذه التجربة في قطعة سيسميها «أشباح البورصة»، ستدشن شهرته الغبراء في ساعة نحس، يصف بها رعب المحاصرة في قلب مدينة يختنق بالغاز والدموع.

لم يبت في الميدان قط إلا قبل التنحي بأسبوع، عندما ضمن أنه لن

يُصاب بأي ضرر، فكان يعود إلى البيت مساءً، ويتابع ما يجري مع مصطفى نفعة ودر الشهوار، التي لم تفهم ما يجري في البداية، ولكنها نظمت تظاهرات في الجامعة، ثم شاركت في مسيرة من رمسيس إلى التحرير بعد النظام الذي أعقب فوضى الأيام الأولى، وكانت تشارك بفعالية دورها كناشطة قديمة، وتستعيد توقها القديم إلى حركة الطلبة في السبعينيات، وتعقد جلسات مع ممثلين شباب نزلوا للمشاركة بحماسة خفية لالتقاط الصورة في المشهد الكبير، حتى مسها الخوف من مشاركة سيف الدين بسبب نشاطها هذا، فعزفت عن المشاركة فجأة، وأعلنت تضامنها كأستاذة جامعية، ستكرس جزء من محاضراتها عن شرح أنثروبولوجيا الثورات وتأثيرها على الشعوب، وهو ما جعل بعض أعضاء حركة «كفاية» يتهمونها سرًّا بالجبن، وبأنها تفعل ذلك قلقًا من جر أمها إلى مزبلة الفلول.

كان المناخ مناسبًا لكل شيء، حتى إن سيف الدين قد تجاوز خجله الفطري وشعوره الأصيل بأنه يملك من الجبن المقدار الكافي ليبعده عن المواجهة المباشرة، عندما رُفِع اسمه كأحد أكثر الناشطين حماسة في الجامعة، ونُشِرت شائعات لم تُؤكَّد عن وجوده في أماكن عدة بالوقت نفسه، ونجاته من محاولات قتل واعتقال، ولم ينفِها سيف الدين، وتقبل موجات المديح المفاجئة والاهتمام الحقيقي، فبدأ يشرح كيفية مشاركته في يوم جمعة الغضب، وما رآه في الميدان يومها، وتحليله الدقيق لتصرف السلطة في مواجهة ما جرى، مستعينًا بقطع أدبية تصف أحداثًا مشابهة في بلاد أخرى، لتواجهه در الشهوار ذات يوم، عندما هدأت الأمور، وبدأ ينزل التحرير يوميًّا لعقد ندوات والمشاركة فيها بحماسة واضحة، كنظام يومي صحي يدربه على دوره الجديد الذي لم يختره، وتقول له: «تذكر دائمًا دراستك الأساسية وهدفك في الجامعة.»

كان قلقها عليه قد زاد بعد اختفائه لأيام طويلة، وتحوله إلى نصف

صعلوك: ترك شعره يطول، ولحيته تصل إلى صدره، وصار يرتدي أقمصة واسعة وبنطالات باللون الزيتي، وهو يتخيل نفسه صورة محلية لجيفارا، بعد أن أعجبته الشخصية الجديدة، ويلف السجائر مثل كل ثوري يحترم نفسه، وهي كلها تغيرات شكلية لم تمس روحه المحافظة والميالة إلى المراقبة أكثر من المشاركة بالأساس، ولكنه كان يطمئنها بتأكيده على اهتمامه بالدراسة، وأنه يمارس دوره الحقيقي في لحظة تاريخية لن تتكرر، مستمتعًا بمعاندتها لأول مرة منذ طفولته.

كان ذلك سبب خلافات قوية بينها وبين مصطفى نفعة؛ إذ تشاجر معها بهدوء المعتاد بشأن تحول سيف الدين إلى سياسي، ورؤيته الرافضة لما جرى بالأساس؛ لأنه لا يؤمن بالتغييرات الحادة في مجتمع مثل المجتمع المصري، فكانت تدافع عن حق سيف الدين في اتخاذ المسار الذي يريده، وتؤكد بثقة أن تربيتها له لن تخيب أبدًا. كانت المرة الأولى التي تلوح فيها بمشكلة غيابه الدائم في المستشفى.

وكانت حدتها نابعة من خوفها الحقيقي من ضياع سيف الدين في بحر الحدث الجديد، واتهامها بعدها بالإهمال، وهو نفسه ما ذكرته لها أمينة الرُّز، والتي كانت تتابع الأحداث من خلال التلفاز بغضب وقلق، ولم تتقبل تنحي مبارك باعتباره رجلًا خدم البلد لفترة طويلة، ولا يستحق تلك المعاملة، ولكنها مع اتهامها الجميع بالجحود، وشعورها الحاد بأن هذه مؤامرة على البلاد، لم ترَ مثلها من قبل، خلال عمرها المديد، كانت تخفي نشوة حقيقية لاحتراق مبنى الحزب الوطني على الكورنيش، والارتباك الذي ساد جميع رؤوسه، وعدَّته ردًّا من السماء على تنحيتها جانبًا في الانتخابات الأخيرة. كانت تحذر در الشهوار من المشاركة، وتؤكد لها أن كل شيء سيعود كما هو، فكانت در الشهوار تقول لها: «لا أشارك إلا في حدود وظيفتي يا ماما.»

وكان الاضطراب، الذي ساد الشوارع، مع ظهور اللجان الشعبية، ثم الفوضى التي عمت المدينة كلها، بعد ما جرى، وأثرت على المنيرة والسيدة وجاردن سيتي، قد مسها في منابع شعورها بالأمان، فكانت تتابع الصمت وهو متجسد في الشارع، يسير ويمرح كما يريد، والصخب القادم من ناحية الميدان، مع دفعات من الشباب الذين يركضون بين الحين والآخر.

عندما تنحى مبارك، وأمسك المجلس العسكري بالسلطة، كانت لا تزال تشعر بالقلق والغضب، ولا تفهم ما يجري تمامًا، ولكن در الشهوار، التي تنفست بعد نهاية الأحداث، وشعورها كما شعر الجميع بأن كل شيء صحيح وفي مكانه، شرحت لها بسعادة حقيقية أن ما جرى كبير جدًّا، رغم سرعته، وأنها المرة الأولى التي يتغير فيها تاريخ المدينة والبلاد منذ نصف قرن، وأن ما جرى يُعَدُّ أول ثورة شعبية حقيقية.

كانت تنزل الميدان يوميًّا، بعد شعورها بالثقة بعد التنحي، وتداري شعورها بالذنب مع تراجعها المفاجئ بمشاركتها اليومية بجولات تثقيفية، وندوات تتحدث عن تأليه الحاكم بالوسيط المصور، وتكريس صورة الإله له، وأدبيات الإعلان في عصر مبارك الطويل، والتغير الذي مس حيز المكان بميدان التحرير ووسط البلد؛ إذ عادت إلى صدارة المشهد كما كانت قبل عقود الركود في التسعينيات، وكانت تلتقي بسيف الدين مصادفة، فتبتسم له بتواطؤ سري، بعد وصلة رضا واطمئنان مفاجئة وتقول: «ربنا يعين باباك علينا.»

اشتُهِر كلاهما سريعًا كأسرة ثورية صغيرة في الميدان، وكان انتماء سيف الدين إلى جدين ترشحا ضمن الحزب الوطني، وعملا مع الدولة لعقود طويلة، كفيلًا برؤيته بإعجاب، ولذلك؛ ظهر

الحب سريعًا من خلال فتاة متحمسة، كانت تشارك في اجتماعات طلبة الجامعة الأمريكية السياسية، وتنظم حملات تنظيف للشوارع وتعليق لافتات تدعو إلى إجراء انتخابات حرة، والدعم لمرشح واحد يجتمع حوله الناس، وقد التفتت إلى سيف الدين لأنها لمست فيه انكبابًا حقيقيًّا على ما يفعله، وخجلًا طارئًا يصيبه بالارتباك، يهتز معه قليلًا وهو يتكلم، ثم تصيبه نوبة عصبية عندما يُواجَه باعتراض قبيح خالي من الأدب.

كان اسمها ليلى المرنيسي، وتنتمي إلى أسرة عريقة بالمعادي، من المهندسين المعماريين وموظفي شركات البترول، وتحيا وحدها في شقة بآخر شارع ٩، استقبلت فيها سيف الدين بعدها وهما يكتشفان الحب بعيدًا عن مآسي الميدان، وتستعد لدراسات عليا عن أنثروبولوجيا شعوب البحر، وتأثير البحر على المزاج العام وطريقة التعامل مع المشكلات والحب والكراهية. اقتربت منه بسهولة، وتعاملت معه بمزاج طيب، بلا مقدمات، وظهرت بعفوية في أكثر من صورة له مع در الشهوار، وهي تنظر ناحية البعيد غير المنظور، أو يمنة ناحية شخص ما.

كان حسين الـرُّز أكثر المتفائلين بما جرى. تابع فراغ ميدان عابدين وكل الشوارع المحيطة به، وتأمل اللجان التي أُعِدَّت لحماية الشارع الذي يحيا على رأسه، مع بقية الشوارع الأخرى، وشارع المطعم، وكان يراقب ما يجري بفضول طفل كبير لا يهمد، ويهز رأسه وهو يستمع لشكاوى التجار، وخاصة المعلم سعيد الحرَّاز، الذي ذكر ما يتردد أن الشباب هناك يمارسون الجنس والشذوذ في قلب الميدان، وممولون بوجبات ووعود بطالة، وأنهم قلبوا الدنيا بسبب أفكار مستوردة عن الحكم والسياسة، ولا يعرف أحد منهم ما يجري في الشارع حقًّا، فكان حسين الـرُّز يتدخل فجأة ويقول بجدية: «حفيدي منهم وهو شاب زي الفل وأحسن مني ومنك.»

لم يكـن يفهـم مـا يجري بالكامـل، ولكنـه كان يدافـع عنـه في ضـوء نبوءاتـه الخاصـة عـن علي بابـا والأربعين حرامـي وعـام الحسـم، ودفعته الأحـداث إلى الاندمـاج الـكلي في عـالم الكتـاب، ومحاولتـه فهـم مـا سيحدث بعدهـا مـن خلال رموزه السريـة وأسمائه وقصصـه، وهـو ما عدَّتـه حبوبـة مـن فائـض جنـون الشـيخوخة الطبيعـي، وانشـغلت، كـما كانـت لمبـة بطـاح، في إدارة شـؤون المطعـم، الـذي اجتـذب زبائـن كثـرًا مـن الميـدان بعـد إعـادة فتحـه، وظـل هكـذا طـوال الأحـداث السـاخنة؛ إذ جـاء سـيف الديـن أكثـر مـن مـرة مـع مجموعتـه الجديـدة مـن المعجبين والتابعـين، وتحـدث بألـق رئيـس جديـد، فوصـف جـده حسـين الـرُّز أنـه ثـوري بالفطـرة منـذ زمـن طويـل، ويعـرف تاريـخ المدينـة مـن خـلال شرفـة تطـل عـلى قـصر عابديـن.

كان يتعامـل معهـم مثـل جـد طيـب، يـشرف عـلى أحاديثهـم الحماسـية بابتسـامة خفيفـة، ثـم يتجـاوز رغبتـه في النصـح طبقًـا لخبرتـه بدعـوة يرددهـا بصـدق. لم ينقلـب عـلى دوره هـذا إلا عندمـا شـعر أنـه يلعب دور الشـيخ الكبـير الـذي يتحـدث مـن موقـع بعيـد، فقـرر الذهـاب ناحيـة الميـدان ذات مـرة، بمسـاعدة حسـونة، بعـد أن أقنعـا حبوبـة أنهـما ذاهبـان لـشراء أجولـة بطاطـس بسـعر مميـز مـن سـوق العبـور، فهالـه مـا رآه هنـاك مـن حالـة فـوضى، ولم يشـعر بالمتعـة وهـو يسـير بـين الجمـوع التي تهتـف بسـقوط المجلـس العسـكري، أو تتحـدث عـن انتخابـات رئاسـية عادلـة، مـع صراعـات شـارع محمـد محمـود، فقـال بعدهـا للمعلم سـعيد الحـرَّاز: «كان أغلـب مـن يجلسـون هنـاك مـن الشـباب النُّـص لبَّـة. لم أرَ سـيف الديـن إلا في مقهـى جانبـي مـع شـباب يشـبهونه.»

والحقيقـة أنـه كان يفقـد رغبتـه في التحمـس لمـا جـرى سريعًـا، فلـم يفهـم مـا جـرى بعدهـا مـن تحزبـات سياسـية، ولم يقتنـع بأغلـب مرشـحي الرئاسـة وقتهـا، فعـزف عـن المشـاركة في الانتخابـات. كان

يلمس نزوعه الفطري إلى حياة رائقة بعيدة عن خراء السياسة في هذه الفترة، وكان أكثر ما شغله في هذه الأيام الرمادية كراهيته لشعوره بوطأة السن، وحساب الأعوام؛ إذ أتم في نوفمبر ٢٠١٢ الثامنة والثمانين، وهو الرقم الذي شاهده بعين مسحورة، كرقم غير واقعي، يطفو فوق حقيقة أنه ما زال يتذكر كل شيء جرى معه خلال هذه الأعوام، وخاصة لحظات وفاة درية عز الدين ولمبة بطاح وشيماء شعبان، وقصص حبه السريعة، وقضية شقة المبتديان.

أصابه كدر خفيف، وبدأ يراقب ردود فعله على الأشياء وهو يحاول تجاوز أحكام الشيخوخة وجمود التفكير المصاحب للسن، ومسه شيء من الحزن غير محدد المنبع، فكان يتأثر عندما يسمع أغاني بعينها، خاصة أغاني جورج وسوف التي كان العمال يشغلونها في المطعم، فيشعر أن ثمة أشياء فاتته في حياته المديدة، وأنه لم يحيَ كما يتمنى تمامًا، ثم يتذكر قصص خيباته التي لا يعرفها غيره بحس بالنفور، حتى انفصل تمامًا عما يجري حوله في البلاد. ومع انشغال در الشهوار وسيف الدين بدورهما الجديد، شعر بضيق الوحدة، فكان يواجه حبوبة بغضب على أتفه الأمور، وينكب أكثر على تأملات العمر المتقدم هذه، ولم يعد إلى لياقته الطبيعية فجأة إلا عندما نزل إلى المطعم بمزاج سيئ، وأشرف بنفسه على عمل البطاطس وتنظيم حركة البيع، وشارك في الأحاديث التي تدور في المقهى عن الفوز المحتمل لمرشح الإخوان محمد مرسي في الانتخابات بمواجهة أحمد شفيق، بعد هدوء الوضع قليلًا في الشوارع المحيطة، ليقول، تاركًا نفسه لسحابة يأس قائمة على استخلاصه الحكمة من تجربة تفوق الثمانين عامًا: «لا أمل في هذا البلد إلا بالعودة إلى ما قبل ٥٢.»

لاحظت حبوبة اضطراباته هذه، فظنت أنها مرحلة من مراحل مللـه التي تتكرر بين الحين والآخر، وواجهتها دون اهتمام في

البداية، منكبة على شؤون البيت والمطعم، الذي دافعت عنه بالعرق هي وبقية العمال أكثر من مرة، وكانت تقرر ساعات إغلاقه طبقًا لبوصلة الأحداث التي لم تفهمها قط، مع الوجبات التي كانت تبدع فيها، واستطاعت معها إكساب حسين الرُّز وزنًا إضافيًّا أعطاه مظهرًا رزينًا، وكانت بطبعها، الذي يحب السيطرة على محيطها الحيوي، سعيدة بقلة تردد در الشهوار، وانشغال سيف الدين الذي كان يجلس معه بالساعات، فاستغلت الوقت لتأكيد حبها له بكل الطرق: كانت تعامله مثل طفل كبير؛ تهتم بتصفيف شعره، وتساعده على اختيار الجلباب المغربي أو الزي الرسمي المناسب، وتمسح ساعته الكاسيو الذهبية الصغيرة التي لم يغيرها منذ التسعينيات، وتساعده على جعل شاربه مسطرة مرفوعة مثلما يريد، وتقبل تفضيلاته الغريبة أحيانًا، عندما يطلب منها مثلًا أن تملأ الشرفة بالزرع، ثم يقرر أن نقله إلى غرفة الكتب أفضل، أو يتخذ من الأريكة القديمة في غرفة الكتب والعاديات والتحف فراشًا للنوم، فيبتعد عنها لأيام، وكل ذلك كانت تقبله على أنه أحد واجبات الحب.

كانت تُقدِّر صبره على حدتها على كل شيء، وشجاراتها التي لا تنتهي مع حسونة وأهلها في القرية، بشأن الميراث وغيره، ولكنها كانت ترفض سرًّا عودتهما كثيرًا إلى القرية بسبب شعورها بغيرة الجميع منها، ورؤيتهم قصتهما على أنها علاقة مصلحة، بين شابة في العشرينيات ورجل ثمانيني. والحقيقة أن بداية علاقتها معه كانت متوترة بسبب هذا الأمر. لم تعرف سبب قبولها به زوجًا فوق السن الطبيعي إلا لأنها أرادت الاستمتاع بالزواج بشقيق أمينة الرُّز، ورجل من عائلة عريقة، وسعادتها أيضًا لتحديها قواعد النوبة وخراء الكلام بشأن الغورباتيين.

كانت تؤمن أن الزواج من أبناء القرية الواحدة، أو مجموعة قرى في حيز مئة كيلومتر، ما هو إلا زواج أقارب صعب، سيخلق قائمة من أبناء معقدي النفس وغير مكتملي التكوين، كما أن سرها الأساسي ترسخ في نبوءة أطلقتها جدتها منذ زمن طويل، عندما كانت في السابعة من عمرها، حين تنبأت لها أنها ستتزوج غريبًا له مظهر أجنبي، أو وزيرًا كبيرًا، حسب ما رأته مشوشًا في طاسات الرمل والطين الأسواني. كانت غرابته قد تجلت في كل تفضيلاته تقريبًا، وهو ما لم تتقبله في البداية، ثم انضمت إليه حتى صارت ترى الحياة بمنظوره الخاص؛ وصارت تحبه باعتباره شابًّا يرتدي تاجًا من القطن، بعيدًا عن الانتقام الأهبل من السيدة الرُّز.



كانت تتأمل رغبته الغريبة في الاستمتاع بكل شيء حتى آخره بقلق في البداية؛ إذ كان يتمهل في ممارسة الحب أسفل الدُّش، ويستمتع بدقائق الأمور بشهوانية تخالف نزوعه المفاجئ إلى التقشف وهو يجلس ليقرأ «ألف ليلة وليلة»، أو يبحث عن نبوءات حياته، ثم عدَّت كل تناقضاته جزءًا من حلاوة شخصيته: شخص عفوي وابن بلد.

عندما أُصيب حسين الرُّز بهوس قراءة الطالع فجأة بعد إمساك المجلس العسكري للبلاد، كان سبب ذلك هو رغبته غير الواقعية في معرفة أحداث حياته القادمة، بسبب شعوره أنه حضر حدثًا لم يتوقع حضوره؛ إذ إن الأربعين حرامي قد انتهوا، ولكن عادت الدائرة إلى الانغلاق على لحظة يوليو ٥٢ القديمة. كانت فكرة تخطيه أربعين عامًا كاملة في الحياة، حتى تحققت نبوءته، تدفعه إلى الشعور بالسعادة الخفية، ثم القلق بعدها لأن امتياز العمر الطويل ينزع بعد فترة معينة أي أمل في عمر موازٍ. كان منشغلًا بحساب ما عاشه، وحساب ما سيعيشه، رغم إيمانه العميق بأن كلها من أقدار الله، ولكن فكرة توقعه أن ما سيحدث حتمًا سيحدث في أي وقت جعلته يحاول استنباط ذلك من قراءة الطالع.

ذهب إلى سيدة اسمها سمارة، تجيد معرفة العمر من خطوط الكف وحدها، وأخبرته أن أمامه عمرًا مديدًا آخر، يحياه بسعادة مع من يحب، وبعدها، بعدما أدرك نفاقها الصريح له، وهي تمسك بكفه المرقطة بالبقع البنية، ذهب إلى شيخ أسطوري يحيا خلف مسجد ابن طولون، في مسجد آخر به مقامان لجدَّيه المباشرين، وعُرِف عنه صدق النبوءة، فدخل عليه بجلبابه المغربي، وسيماء التجار التي لا تخفى على أحد، وسأله عن نبوءاته له من خلال قراءة الرمل القديمة، فقال الشيخ بهدوء:

- لم يعد ثمة رمل ولا رمالون.

ثم قال، وهو يحاول قراءة عمر من يحدثه من الصوت وحده، بسبب عماه:

- لكنني أسمع شابًّا سيعطيه الله عمرًا طويلًا بمشيئته.

كانت محاولات عبثية، توقفت بعدها عندما أدرك أنه قارب الكفر، فعاد إلى الانغماس في حياته كأن شيئًا لم يكن، وأمعن في ممارسات الحب مع حبوبة، بتمهل غريب، كان يخجلها أحيانًا، ولكنه كان يحاول التأكد معه من قدرته على الحياة بلا توقف، في حس أناني قوي مصحوب بخوف طفولي.

مع انتظام حياته بعد نوبة تحدي الغيب هذه، راجع مع سيف الدين قصته التي كتبها معه، خلال أشهر، خلال زياراته المتباعدة في فترة الاضطراب هذه، والتي حكى فيها كل شيء، وتمم على كل مقتنياته التي يؤكد أنها كانت له في زمن ما، واستعادها بعدما فقدها، بعد بحث طويل، واستمتع برؤية سيرته كما أرادها تمامًا، وكان في تلك الفترة قد غير جلابيبه المغربية بأخرى صعيدية، مع عصا أبنوس ونظارات شمسية أكسبته مظهرًا جعله غيره، وكان ينعزل أكثر عما يحدث حوله باعتباره خراءً في خراء، حتى صار مرسي الرئيس، فلم يعلق على ذلك بالسلب ولا الإيجاب. بعد تأكده أن كل شيء في مكانه، لم يوصِ على مقتنياته ولا المطعم، وفضل ترك كل شيء كما هو؛ لأنه كان يتشاءم من هذه السيرة، ويزداد إيمانًا بأن الحياة تستمر ما دام الإنسان يرغب داخليًّا في هذا.

كان أمر امتداد الحياة بعد وفاته هذا يشغله كثيرًا، ويشعر معه أن الحياة غريبة وغير عادلة، وكان يستعيد صور درية عز الدين معه كثيرًا، ويشعر بدفعات حنين مركزة، تتلاشى معها صورة حبوبة، مع صور لبنة بطاح وشيماء شعبان، التي نسي ملامحها بأمواج الشيخوخة، ويحاول المقارنة بين عمرها عندما رحلت، وعمره الحالي، فيشعر بقبس المعجزة. زارها في مقبرتها بالرُّز مرتين حينها، وكان يصل إلى المقبرة التي أصابها القدم، وكساها زرع بلا صاحب،

فينظـر إليهـا بتشـوش، ثـم يرحـل وهـو يشـعر بالتيـه؛ لأنـه، ورغـم عمـر طويـل مـن رحيـل أحبابـه أو معارفـه، لم يتقـن فـن الإيمان القويـم برحيلهـم فعـلًا.

قبـل أيـام مـن وفاتـه، كان قـد أشرف عـلى المطعـم كما يفعـل، ومـازح فتاتـين جميلتـين، ذكَّرتـه إحداهمـا بصـورة غائمـة لحـب بعيـد، ثـم لاحـظ أنهـا تشـبه درية عـز الديـن، واختفـت فـور إدراكـه هـذه المعلومـة، ثـم ظهـرت لـه بعدهـا في صـور شـتى: سـيدة تسـير في الشـارع، فتـاة تركـب خلـف شـاب عـلى دراجـة بخاريـة، امـرأة تـضرب ابنهـا وتؤنبـه بسـبب ارتفـاع صوتـه. حتـى أيقـن أنهـا تطـارده فعـلًا، فقـرر مقاومـة أحلامـه المتأخـرة هـذه بـأن يتحاشـى النظـر إليهـا كلـما ظهـرت لـه، وإبعـاد وجهه عنهـا عندمـا يشـعر بحضورهـا. ظـل عـلى محاولاتـه هـذه، حتـى شـعر بوجودهـا بعـد ممارسـته الحـب مـع حبوبـة، بحماسـة كبـيرة، وشيء مـن القسـوة غـير المـبررة، فشـعر بالخجـل الخفيـف مـن نفسـه، وتتبعهـا وهـي تدخـل الشرفـة، وقـال مـا سـمعته حبوبـة كآخـر مـا سـمعته منهـا في هذه الحيـاة وإلى أبـد الآبديـن: «سـامحيني يـا دريـة؛ مـلأت بيتـك بالـضُّرر.»

وفي الشرفـة، عندمـا دخـل، لم يجدهـا كـما توقـع، فشـعر باضطـراب خفيـف، تلاشـى تمامًـا عندمـا لمـح فتـاة سـمراء تطـل لـه مـن خلـف بـاب خشـبي لشرفـة بنايـة مقابلـة، فانتشـى مسـتعيدًا شـعور اكتشـافه الأول الحلـو والنحـس هـذا، ثـم أدرك حينهـا سرًّا مـن أسرار الحيـاة لم يتوقعـه قـط عـلى بسـاطته، وعندمـا دخلـت حبوبـة الشرفـة وهـي تنهـره لأنـه خـرج بثيـاب الحـب، فانلتـه والكلسـون الأبيـض، كان قـد طـار ليفتـح البـاب الخشـبي، وقـد فقـد الرغبـة في المقاومـة أمـلًا في الإجابـة.

دُفِـن حسـين الـرُّز في مقبرتـه التـي اشـتراها في الثمانينيـات بسـعر مميـز قـرب مدينـة نـصر، في نوبـة مـن نوبـات غضبـه عـلى أسرتـه، عندمـا



رفض تصور فكرة أن مصيره بعد وفاته سيكون بين يدي أمينة الرُّز، وكانت الجنازة حافلة، شارك فيها عمال المطعم، وبقية عمال المطاعم المجاورة، والمعلم سعيد الحرَّاز، وبقية معلمي السيدة زينب والمبتديان، مع مجموعات من أعضاء الطرق الصوفية، وباعة جائلين، ومساكين على باب السيدة كان يعطف عليهم سرًّا، وآخرين كان يعولهم مع إحساسه المستمر بالذنب تجاه من يحبهم، الذي كان يداريه بأعمال الخير هذه، خاصة مع إدراكه حقيقة بروده الأصيل تجاه الجميع، وحبه لنفسه الذي يفوق أي حب آخر، واستغلاله للمبة بطاح طوال حياتهما المشتركة، وغرباء بلا هوية محددة، ومجهولين لا يعرفهم سوى حسين الرُّز نفسه، وسيف الدين وبعض رفاقه.

وشاركت در الشهوار وقد فقدت الإحساس بالحدث نفسه بسبب المفاجأة، ولم تكتشفه إلا على مهل بعدها، عندما فُوجِئت بخلاء موقعه في حياتها، وسقوط شقة عابدين من حساباتها، لتبدأ مرحلة الشعور بتقدم العمر، الذي سيغير كثيرًا من قناعاتها. كانت من اللحظات القليلة التي لاحظت فيها تأثرًا على وجه أمينة الرُّز، عندما أخبرتها بما حدث بوجه جامد، ارتعشت قليلًا، ثم قالت

بغم: «أخيرًا. إيه؟ تخطى التسعين؟»

ولكنها تجاوزت الحدث بعدها عندما طلبت فنجان قهوة من رضا، واعتذرت ببرود عن تجاوزها في حق ميت في النهاية، ولم ينقلب مزاجها إلا ليلًا عندما فكرت أن اسم عائلة الرُّز سيتردد في عزاء حسين الرُّز، وهو ما سيجلب قدمها في الحديث، خاصة مع شعورها بالحرج لانتسابها إلى الحزب الوطني خلال فترة التعقب الثوري لأعضائه، ولكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي في اعتلال مزاجها الذي صاحبها لأيام بعدها، وإنما اكتشافها، بشيء من التعجب، أنها لم تقابل حسين الرُّز ولا تحدثت معه طوال ما يقارب النصف قرن، بلا سبب واضح بالفعل.

كان انتفاء السبب، الذي لم يكن مقنعًا لها وقد تخطت السبعين، ووصلت إلى مشارف النضج عند تناول الأمور، أن يكون شقة المبتديان وحدها، وقد دفعها إلى البحث في الذاكرة عن سبب نفورها التاريخي منه. كانت تتذكره كأسطورة لم تتم بالفعل، لشاب غادر المنزل غاضبًا في زمن بعيد، وقهر قلب أبيها كما سمعت، ثم تمرغ في مزبلة الشوارع حتى صار بائع شطائر، وانقلب بعدها زير نساء، كان يتزوج من يحب في أي وقت، وصاحب جريمة شرف مشكوك فيها، وهي كلها أسباب جمعتها بإخلاص، لتصل مع بعض المبالغات الخيالية أن مقاطعتها له كانت واجبة، وأن ما جرى يمكن أن يجري ببساطة في أي عائلة، عندما يخرج البعض فيها عن الذوق العام.

مع الوقت، ازداد يقينها بصحة قرارها، وتجاوزت موجات الحزن المفاجئة التي كانت تأتيها في الأيام التالية للخبر، ولم تقف على منبعها، بقلق جديد على صحتها، بسبب وفاة حسين الرُّز هذه. كانت رضا قد نقلت إليها ما جرى من خلال شبكات الأخبار

التي لم تنضب أبدًا، وذكرت لها أنه مات وهو واقف في الشرفة؛ إذ سقط فجأة، وكان يرتدي فانلة وكلسونًا داخليًّا، وهو ما عدَّته أمينة الرُّز إحدى الفضائح الجديدة له؛ إذ دُمِج الخبر مع احتمالية ممارسته الحب مع حبوبة قبل وفاته، فقالت أمينة الرُّز: «قارب التسعين ولم يحترم سنه.» وعندما بحثت خلف مكان دفنه، خجلًا من سؤالها لدر الشهوار، أخبرتها رضا عن المقبرة نواحي مدينة نصر، فقالت أمينة الرُّز: «الحمد لله؛ لن تجمعنا مقبرة واحدة.»

لم تنشأ المعضلة الحقيقية إلا عندما وُضِع المطعم والشقة في مهب مشكلة الميراث، والحقيقة أن حسين الرُّز، ورغم تفكيره في كتابة وصية مفصلة، يضع فيها كل شيء تحت تصرف حبوبة ودر الشهوار وسيف الدين، كان يشغل نفسه كل مرة عن فعل هذا؛ لأنه لم يستسِغ مطلقًا كتابة وصيته بنفسه، وكان يعدُّها فأل نحس، ولذلك؛ وجدت حبوبة نفسها في الشارع فجأة، وهي لا تعرف ما يمكن فعله، وهاتفت در الشهوار، بعد انتهاء فترة العزاء في الشقة، وقالت لها بلا مقدمات: «لا أهل لي غيره، وأخشى على الشقة والمطعم من أهلي.»

لم تكن در الشهوار مؤهلة للتعامل مع هذه المواقف في العادة، وكان انشغالها بطريقة الإخوان الغريبة في الإمساك بكل الأمور تُشعِرها بالقلق، خاصة مع تمرسها في شؤون السياسة، حتى إنها صارت تقارن بين الوضع في تركيا ومصر، من خلال مقارنات مرهقة مع أساتذة من قسم العلوم السياسية، وخلصت إلى حقيقة أن ما يجري سينتهي بتدخل الجيش، وهو ما دفعها إلى التشاؤم تجاه كل شيء، خاصة مع وفاة حسين الرُّز المفاجئة؛ إذ تذكرت ذات مرة أنه أخبرها، ضمن أحاديثه الغريبة عن نبوءات «ألف ليلة وليلة»، أن وفاته ستأتي في زمن ينتهي على عتبة زمن جديد، وأنه استخلص

ذلك من بعض القصص التي لا تتذكرها، وتحدث عن حكم أسود وفترة صعبة، وهي أمور كانت تتجاوزها سريعًا بحكم معرفتها بهوسه بالغموض والحكايات التي تخص الجان والأرواح والنبوءات والعلامات.

لم تتجاوز وفاته بسهولة، وكانت تمر بعربتها على المقابر المدفون فيها، في طريقها إلى الجامعة بالتجمع، فتشعر بالشفقة؛ لأن هذا الشيخ الضاج بالحياة يرقد حاليًّا في الظلام، فتتوقف عند محطة بنزين وتدخل لتشرب فنجانًا من الإسبريسو، ثم تعود لاستكمال رحلتها وقد تخلصت من المادة السوداء في أثناء شرودها، وتدخينها لسيجارة سريعة، وبعد ذلك، تصل إلى الجامعة وقد فقدت كثيرًا من مرحها المعتاد.

كان وقوفها على أبعاد حقيقة دخولها الخمسينيات يصيبها بالاكتئاب الخفيف، مع حسابها لعدد الأعوام المتبقية على الستين، وشعورها أنها تقترب، مع كثير من الذهول، من عمر أمينة الرُّز وقت اندماجها في المجلس المختص بالمرأة. جعلها هذا تعيد التفكير في خراء السياسة مجددًا، كما فعلت في بدايات الثورة، والاجتماعات التي لا تنتهي، وانخراط سيف الدين في ما يفعله وهي تشعر بالكدر، حتى أخذت القرار ذات يوم، عندما وجدت الأمور تتجه إلى ما يشبه حرب أهلية مصغرة، عندما دخلت نقاشًا ساخنًا مع أحد الأساتذة بجامعة القاهرة، اتهمها علنًا أنها ضد السلطة لخوفها من سيطرة الإسلام على الأمور، فصمتت قليلًا، ثم قالت بهدوء: «أنا منسحبة من كل شيء.»

جاء انسحابها سريعًا، واكتسبت معه جدية واضحة في التعامل داخل قاعات التدريس، فصار لها مظهر يشبه مظهر أمينة الرُّز بأنفها الطويل الصلب ووجهها الذي أصبح منحوتًا، وكانت تطلب

عدم الخوض في السياسة في أثناء المحاضرة، وفي الدروس التي كانت تعدها، كانت تبتعد عما جرى بعد ٢٠١١، باعتبارها فترة لا يمكن القياس عليها حتى تُعرَف تغيرات المدينة. اصطدمت مع سيف الدين في هذه الأثناء، ودعته أكثر من مرة إلى التوقف عن الأنشطة التي يقوم بها، والتركيز على مستقبله المهني، وهي تبشر أن كل شيء سيؤول إلى نهاية مشؤومة، فكان يتجاوز الجدال بأدبه، ويقول لها: «ما زال المشوار طويلًا.»

لم تصل الأمور بينهما إلى طريق مسدودة إلا عندما لوحت در الشهوار بقصة ليلى المرنيسي، باعتبارها الدافع الوحيد لسيف الدين للاستمرار، فقرر سيف الدين أن يقيم في شقة الدقي حينها، ليبتعد عن جو البيت المحتقن. كانت تنقلب بخفة إلى أمينة رُز أخرى، دون وعي منها، وتتخذ قرارات تخالف كل ما اتخذته في حياتها. فُوجِئت أمينة الرُّز بزياراتها الكثيرة، ومكوثها لفترات طويلة في الشرفة، فكانت تسألها عن رجلي حياتها، فتقول بغضب وقد فتحت قلبها: «مصطفى صار اسمًا أكثر منه حقيقة موجودة، وسيف الدين ضاع يا ماما.»

لم تكن في المزاج الكافي لحل مشكلة حبوبة، التي فرشتها أمامها، وهي تراقب ردة فعلها؛ لأنها وريثة حسين الرُّز الوحيدة مع أمها وأخويها وأبناء حسن الرُّز، بسبب عدم قدرته على الإنجاب التي اتضحت في كل زيجاته، وظلت أمرًا مسكوتًا عنه لأنه لم يتناوله مطلقًا، وكان ينفر من السيرة ويردد بيقين: «لا أريد أكثر من در الشهوار.»

وضحت لها در الشهوار أنها ترفض وراثة حسين الرُّز، وأنها تقدر مخاوف حبوبة، واتفقتا معًا أن تتنازل در الشهوار وبقية الأسرة

عن ميراثهم في شقة عابدين وفي المطعم لها، على أن تديره بضمير ولا تفرط فيهما.

بعد أسبوع من حديثهما هذا، ورغم اتفاقها مع الجميع على التنازل، دون أن تذكر ذلك لأمينة الرُّز التي لم تخض في موضوع ميراث أخيها الذي لم تعرفه قط باعتبارها مزحة، وخلال إحدى نوبات كدرها الجديدة هذه، تراجعت عن التسليم الكامل لحبوبة على هذا النحو، خاصة بعدما أعطاها الجميع توكيلًا رسميًّا للتصرف في حقوقه في ميراث حسين الرُّز، عندما تذكرت وصاياه فجأة بشأن غرفة مقتنياته التي تضم كل ما يخص حياته من صور وتحف وكتابات جمعها أو ساعده فيها سيف الدين، خلال عقود، فزارت المطعم ذات نهار، بلا ترتيب، وهالها رؤية الصورة الشاحبة المعلقة لحسين الرُّز وهو مبتسم في بحر زمن غير واقعي، كان يملك فيه شعرًا فاحم السواد، ورأت حبوبة وهي تدير المكان بكفاءة؛ تصرخ في العمال، وتشرف على تسليم الطلبات، وتجلس خلف طاولة المحاسبة عابسة، وقد فقدت جمالها بالكامل.

كانت قد توقفت عن رسم عينيها بالكحل، والعناية بحاجبيها الثقيلين وشعرها الذي تركته حرًّا أمام حب حسين الرُّز، وصارت ترتدي غطاء رأس عاديًّا، وتلتزم بمظهر متحفظ لفتاة لا تحيا سنها، وهو ما فسرته در الشهوار على أنه حزن حقيقي ولا جدال فيه. رحبت بها حبوبة بسعادة حقيقية، وقالت لها: «من رائحة الحبايب.»

تناولت الشطائر بلا نفس، ثم سألتها عن أحوالها، ولم تأتِ على سيرة الميراث هذه من دون سبب واضح. أخذت رأي مصطفى نفعة في الأمر، فقال لها ببساطة: «ولكننا لا نحتاج إلى ميراث خالك هذا!»

لم تُحَلَّ الأمور إلا عندما تجاوزت خلافها مع سيف الدين، وذهبت إلى شقة الدقي، وسألته عن رأيه في التنازل عن الميراث لحبوبة، فاقترح سيف الدين الإبقاء على حبوبة في المكان، بميراثها المستحق، والحفاظ على القدرة على التحكم في أي وقت. كان قراره حادًّا، ولا يناسب شخصيته التي تعرفها، فشعرت ناحيته بالغرابة قليلًا، وقالت له:

- أحيانًا لا أثق أنني أمك.

ليرد عليها:

- وذلك لأنكِ صديقتي ولم تكوني أمي قط.

في النهاية، لم يتم التنازل، وعدَّت حبوبة ذلك انقلابًا رُزيًّا معهودًا، ولم تشعر معه بالأمان الكافي رغم كل شيء، وكانت المشكلة الجديدة، التي واجهتهم، أن شقة عابدين نفسها لا ملكية واضحة لها؛ فأوراق الملكية، التي تخص درية عز الدين وجدَّتها، كانت قد ضاعت منذ زمن الزمن، وكان حسين الرُّز، بعزوفه الطبيعي عن أمور الورق والقانون والإجراءات، قد ترك الأمر على ما هو عليه، حتى صارت الشقة شقته بحكم أنه الوحيد الذي يحيا فيها.

لم تستطع در الشهوار حل هذه المسألة بسهولة، وتجاوزت الموضوع حتى لا تدخل في تعقيدات قانونية، وظلت الشقة مع حبوبة، تحيا فيها وحدها، وتدير المطعم بالاتفاق مع در الشهوار، التي خصصت جزءًا من الإيراد صدقة جارية على روح حسين الرُّز؛ لأنه لم يوصِ حتى بما يخص شؤون مملكته في العالم الآخر.

كان سيف الدين قد صار أكثر حزمًا وسوداوية في هذه الأثناء؛ فمع انقلاب كثير من رفاقه عليه، وظهور تحزبات ظل، وصراعات خفية بشأن المرشح الحتمي للرئاسة، وجد نفسه في مواجهة مرشح

الإخوان مقابل مرشح السلطة القديمة نفسها، فعزف عن المشاركة بترفع رسمه بإتقان، واكتفى برفض كل ما يجري كوسيلة مناسبة للابتعاد عن الفوضى الجهنمية كما كان يصفها.

عندما صار مرسي رئيسًا للجمهورية، خرج عن صمته بتصريح صحفي، ضمن ناشطين آخرين، يعلن فيه رفضه ما جرى باعتباره مؤامرة سرية بين الدولة والإخوان، ولكنه طلب من الدكتور مرسي، بكل أدب، أن يواجه مسؤوليته بشجاعة وعدالة، ويدرك موقعه في بلد خرج من الثورة لتوه. لم ينجح هذا في تبديل مزاجه الأسود، الذي أثر على علاقته بليلى المرنيسي حتى، التي أصيبت بالفزع عندما أمسك الإخوان بالسلطة، ورأت أن ذلك انتكاسة خطيرة لمبادئ الثورة الأساسية، ولذلك؛ كانت تفكر في الهجرة إلى كندا حيث يسكن فرع من عائلتها، وتناقشت مع سيف الدين في الأمر، فأعلن رفضًا قاطعًا للفكرة من أساسها، ولم يستطع إبداء السبب الكافي للرفض، ولكنه كان يخفي داخله الخوف الفطري من تغيير جذري لواقعه، مع اعتياده فكرة الاحتجاج الدائم والمشاركة الحماسية في الحراك الثوري.

كانت جلساته مع الأسرة قد قلت تمامًا، إلى حد الانعدام، وخاصة في عزائم أيام الجمعة عند أمينة الرُّز؛ فقد كان شعوره بالغرابة والعزلة يزداد كلما ذهب، وكان يغذيه بحساسية مفرطة تجاه التعليقات السلبية، أو المزاح الذي يتردد بشأنه. الدكتور لطفي درويش مثلًا كان من أكثر المناصرين للنظام القديم، ويرى ما جرى كارثة اقتصادية بكل المقاييس، وكان يحكي قصصًا غير مؤكدة عن نوعية الشباب الذين يشاركون في هذه الاحتجاجات، وكيف أن أغلبهم ممولون من جهات خارجية تريد الاستفادة مما يجري، وكان يتحدث بثقة، من خلال جلسات الأطباء التي تتم

في مقهى زغلول القريب في جاردن سيتي، ويذهبون إليها وهم يرتدون بدلات كاملة، خالقين ضجة في الثامنة مساءً، أن ثمة ما يُسمَّى بخريطة الشرق الأوسط الجديد، ومؤامرة مؤكدة لتقسيم البلاد، بينما كان الدكتور حلمي درويش يتحفظ كثيرًا بشأن إبداء رأيه، ولكنه يتابع الأحداث بكدر واضح، ويراقب انفعالات سيف الدين بعدم ترحيب.

كان حرج سيف الدين يزداد عندما يُحاصَر بالاتهامات الخفيفة المكللة بالمزاح، مع نظرات أمينة حلمي، التي لم تكن تعبأ بالأحداث مطلقًا، وتسعى بجدية إلى الالتحاق بجامعة في الخارج للدراسة والبقاء هناك، وكان برودها الحديث المتزايد سببًا من أسباب كدر سيف الدين؛ لأنه اكتشف، رغم حبه لليلى المرنيسي، أنه ما زال يحمل بذرة رغبته في إعجابها. كانت تقابله ببرود عندما يتحدث عن الإخوان واليسار وخلافات التيار الثوري المخزية، فتقول بهدوء: «وهل سيُحَلُّ كل هذا بسهولة؟ العمل من أجل هذا البلد مضيعة وقت يا سيف.»

وكانت در الشهوار، التي ابتعدت عن المشهد بإرادتها، تحاول فض الجدال بآراء حيادية، ثم تطلب من سيف الدين سرًّا أن يتوقف عن الجدال والشرح، وأن يقبل برفض أسرة الرُّز لما جرى. كان وجود درويش لطفي نفسه موترًا؛ فقد تخرج قبل سيف الدين بثلاثة أعوام، والتحق للعمل بكتيبة في سيناء ملازمًا أول، وشهد الأحداث كلها من وجهة نظر أخرى، فكان حضوره الصامت، الذي يعززه بترفع واضح منذ صباه، وطريقة خاصة في الحديث، يخشن معها صوته ويمحو أي عاطفة وهو يتناول أي أمر من الأمور، مبعثًا لقلق وضيق لدى سيف الدين، الذي كان يحترق عندما يخوض في جدالات الجمعة الكئيبة هذه، ويجد درويش لطفي

يبتسم ولا يعلق، بوجهه، الذي اكتسب سمرة قاسية، وقامته، التي تصالبت وصارت تشبه القامة المديدة لجدته من ناحية أمه، ألفت زين الدين. لم يتجادلا تقريبًا إلا عند إمساك الإخوان بالحكم؛ إذ كان سيف الدين يشرح الكارثة التي جرت، وكيفية معالجتها بضغط ثوري، فقال درويش لطفي: «لعب العيال جاء بالإخوان، ولن يحلها سوى الرجال.»

كانت كارثة؛ فقد احتد الكلام بينهما، حتى حسمته أمينة الرُّز بتوقفها عن عمل عزائم الجمعة هذه، وهي تسب السياسة الخراء التي دخلت بيتها، وتنعي الأزمنة التي كان فيها الأطفال أطفالًا، لا يفهمون شيئًا سوى احترام الكبار ومعرفة الفارق بين الشارع والبيت. عدَّ سيف الدين ما جرى إذنًا رسميًّا بانقطاعه عن هذه الزيارات، وعوضها بزيارات متباعدة لشقة عابدين، بإذن من حبوبة، يعتكف فيها بغرفة المقتنيات الخاصة بحسين الرُّز، ويفتش عن سيرته بين الصور والتحف والكتابات التي كان يدونها خلفه وقت البال الرائق.

يوم

٢٢

كانت فترة صعبة، لم تنتهِ إلا عندما بدأت أحداث يونيو ٢٠١٣، التي واجهها سيف الدين بكآبة، وأعلن ابتعاده عنها بكل الأشكال؛ لأنها لن تؤدي إلا إلى حرب أهلية؛ كما كان يخشى تدخل الجيش في النهاية، الذي كان يعدُّه كارثة لا حل لها ستصل بالبلاد إلى نقطة الصفر.

تابع الأحداث من خلال مكاني عزلته في شقة الدقي التي تركتها له در الشهوار، وغرفة حسين الرُّز، وترك الأمور تنفلت من بين يديه بسفر ليلى المرنيسي إلى كندا، وأفاق هو ودر الشهوار على بيان ٣ يوليو، ليدخل بعدها في فترة سوداء، قضاها في التحضير للماجستير عن دور الألتراس في الثورة، وتناوله أدبيًّا، وهو ينأى بنفسه عن إبداء الرأي في كل ما يجري.

كانت أمينة الرُّز من أكثر المتحمسين في هذه الفترة؛ فقد عدَّت ظهور السيسي علامة طيبة على عودة الأحداث إلى مسارها، وكانت تتابع الأحداث بشغف واضح، وتردد رأيها بشأن كل شيء، مع أنها لا تدرك كل التفاصيل، وكانت در الشهوار تتابع معها الأحداث بحس راكد، وتستمع لآرائها بلا جدال، وتتقبل ترحيب لطفي وحلمي، واعتبارهما ما حدث تصحيحًا للمسار، وعودة بالدولة إلى نطاق الاستقرار المعروف.

كانت أمينة الرُّز قد استقرت في البيت نهائيًّا منذ عامين تقريبًا، واكتسبت وزنًا جديدًا عليها، أظهرها بمظهر يفوق سنها فجأة، ولكنها احتفظت بوقارها الكافي، واهتمامها بتصفيف شعرها على نحو لائق، وارتدائها ثياب مارجريت تاتشر خيالها، تستقبل بها الجميع في الشقة كأنها مكتب اجتماعات. وقد نُسِيَ كتابها في غمرة الأحداث، ولم تُعِد طباعته على نفقتها الشخصية إلا بعد يونيو

٢٠١٣؛ لأنها رأتها فرصة لعودتها إلى الصورة كابنة مخلصة لنظام بدأ في يوليو ٥٢، وأُعيد تجديده في ٢٠١٣.

كانت تهتم بتناول الإفطار كما لم تفعل من قبل، وتُعِّد له قبلها بساعة؛ إذ تختار فناجين القهوة حتى يُوضَع فيها البيض نصف المسلوق هذا، وأكواب الشوكولاتة الساخنة لجلب السعادة صباحًا، وأنواع مختلفة من الجبن، وخاصة الجبن الريكفورد الذي أدمنت تناوله بعد شعورها بأنه سبب تفوق الغرب وجعلهم على هذا الجمال والصحة. كانت تردد الفكرة نفسها على ألفت زين الدين، وصديقات الغفلة في الصباحات الطويلة الخالية من العمل والانشغالات، فتضحك ألفت زين الدين وهي تدرك أنها تردد كلمات لا تفهمها، وقد تجلت سذاجتها المتأخرة هذه عندما خلطت بين اسم المخرج الشهير هيتشكوك و«صباح الخير» بالألمانية؛ إذ كانت أمينة حلمي تتحدث بحماسة عن دراستها السينمائية، ورغبتها في الانتقال إلى مدرسة لندن للسينما، وتعلم أساليب هيتشكوك السينمائية، ورفعت يدها وهي تردد كلمة «هيتشكوك» وهي تشرح هدفها، فسألتها أمينة الرُّز بجدية، وقد سقط منها نصف الحديث وهي منشغلة بمتابعة مسلسل تركي جديد اسمه «على مر الزمان»:

- ما الذي تعنيه هذه الكلمة؟

فقالت أمينة حلمي مازحة:

- تعني صباح الخير يا تيتا.

فرددتها كما هي في اليوم التالي وهي تُصبِّح على رضا، ثم قالتها لألفت زين الدين، وظلت ترددها حتى سمعتها در الشهوار، فقالت لها:

- ما علاقتك بهذا المخرج؟

فقالت أمينة الرُّز بلا فهم:

- سيخرج فيلمًا عن حياتي.

ولم تفهم إلا بعدها، لتتجاوز الحقيقة بعنادها فتؤكد أنها كانت تردد الكلمة لطرافتها.

كانت تتابع الأحداث ببال رائق على غير عادتها، وشجعت السيسي منذ أول ظهور له، فعدَّته المنقذ الحقيقي للبلاد، وكانت تقول لدرويش حلمي عندما يزورها بوجهه المحروق وصمته: «لا يسقط بلد فيه جيش مثل جيش بلدنا وقائد مثل هذا الرجل.»

ولم تكن مآسيها في هذه الأيام تتعلق إلا بنأيها عن الشارع أكثر وأكثر، واعتصامها في شقتها، التي تحولت إلى بيت اجتماعات لا تهمد، تستقبل فيها سيدات ما فوق الخمسين، وتستعرض معهن تاريخها الحافل، وبه كثير من القصص، وكانت كثيرًا ما تذكر أدوارها في الأوقاف أو مجلس المرأة بفخر، وبدأت في هذه الأيام



الحديث فقط عن بطولتها في الحزب الوطني، وخروجها بإرادتها الحرة عندما استشعرت الفساد به. تجلت عاطفتها أحيانًا بدفعات خافتة من أمومة شائخة وعريقة تجاه در الشهوار، فكانت تناقشها في وضع سيف الدين، وتسألها عن سبب مزاجها المقلوب دائمًا، وخمود حيويتها الطبيعية، فكانت در الشهوار تقول بجدية: «مع الزمن، يكتشف الإنسان أن الأصعب هو الاحتفاظ بطبيعته طوال هذا الوقت.»

لم يؤثر شيء في تعاملها مع الأمور كملكة تاريخية متوجة، تجلس على عرش المبتديان، وتشرب المزز من الرحماني يوميًّا بحماسة، وتحتسي القهوة على شرف الأحداث، وتتبادل النميمة والأخبار بشأن كل شيء وأي شيء، بمساعدة شبكات رضا التي لا تنتهي، ولكنها صارت تتكاسل عن الخروج تقريبًا، حتى أكملت نصف عام في البيت بلا خروجات تُذكَر، وهو ما أكسبها تعبًا إضافيًّا في قدرتها على المشي بثقة، فاضطُرَّت للجوء إلى عصا مساعدة، استقبلتها بفتور. أُصيبت بالهوس هذه الفترة بصحتها، فكانت تطلب فحص قلب شهريًّا عليها من لطفي درويش، وكان يأتيها بحقيبته من العيادة القريبة، التي ظل يعمل منها رغم رئاسته قسمًا بدار الفؤاد قبل الثورة، يستمع لنبضاتها بلا قلق، ويؤكد لها بسخرية مبطنة أنها ستُعمَّر حتى تدفنهم جميعًا، فكانت تُصاب بالكدر بعدها، وتقول لرضا بضيق واضح أن أبناءها يستكثرون عليها الحياة. لجأت إلى أسلوب الشكوى المتكررة من متاعب غامضة، أو عدم قدرتها على النوم، وكانت تردد ذلك أمام ألفت زين الدين نفسها، وكانت تتقبلها منها، لمعرفتها بطباع أمينة الرُّز المتقلبة منذ مكوثها في البيت، وملاقاتها لنفسها كل يوم.

لم تفهم كل الأحداث التي تحدث إلا من باب العلم بالشيء، ومتابعة الأخبار، وكانت تفضل عليها مسلسلين تركيين يُعرَضان

في وقتين متقاربين، وتمسك بدفتر تدون فيه أسماء الأبطال حتى لا تنسى من يحب من ومن التي تكره هذه، وعندما زارت أمينة حلمي تركيا في إحدى رحلات الصيف مع أبيها وأمها وأختها ندى، أخبرتها بفخر أنها رأت نساءً يشبهنها في إسطنبول، فقالت أمينة الرُّز: «طبعًا؛ أصلنا أمان يا لالالي أمان من زمان.»

عندما ماتت ألفت زين الدين، انقلب عالمها المألوف هذا قليلًا، وقد ماتت بعد نوبة قلبية مفاجئة، أصابتها وهي تشرب كوب شاي ما بعد حلوى أُعِدَّت بيدي خادمة جديدة، جاءتها بعد أن اكتشفت أن القديمة كانت تسرق من اللحم المسلوق وتجمعه في كيس لتوزعه على أهلها، وقد اتهمت لطفي درويش أنه من قتلها بإهماله، فكان يقول لها مدافعًا بحزن: «كانت طنط ألفت ترفض الفحص وتقول إن القلب يقف عندما يريد.»

دخلت في نوبة حزن سيئة لم تصبها منذ أيام زواج درويش عبد الغني عليها، ونحلت قليلًا، ووضعت قيودًا صارمة على الطعام والشراب والسكر الذي منعته تمامًا، ورأت الموت مثل زائر لصوصي أخذ صديقة عمرها فجأة. لم تستطع زيارة شقتها في عمارة جاردن سيتي، وأعلنت عزوفها بعد ذلك عن زيارة حلمي ولطفي في شقتيهما بالعمارة نفسها؛ لأن كل شيء كان مكللًا برائحة ألفت زين الدين وضحكاتها المدوية وأكلاتها الطيبة، وقررت شقة المبتديان مكانًا وحيدًا للتجمع، تظل فيه حتى تموت.

لم تستعد در الشهوار الحلم الذي نبأتها عنه راجية السيد، قبل وفاتها، إلا عندما أعلن سيف الدين عزوفه الأبدي عن السياسة، وتأكيده أن كل شيء قد انتهى. كان الإحباط قد جمعهما مجددًا في شقة الدقي، بعيدًا عن شقة مصر الجديدة، التي صارت مثل فندق بلا زوار؛ لأن مصطفى نفعة، الذي فقد خيوط العلاقة تمامًا، وصار

يراقب كل شيء من بعيد، كان يمر بفترة انغماس في العمل، يسعى معها إلى تجاوز ما يحدث في بيته بعد أن فشل في إقناع نفسه بأن حرية سيف الدين أمر طبيعي. كان قد أفاق ذات يوم واكتشف أن در الشهوار قد اختارت كل شيء يخصهما في الحياة، وحددت مسار سيف الدين بأنشطتها المختلفة وطريقتها في التعامل معه كشخص ناضج لا يجوز توجيهه، وقد دفعه هذا إلى مداراة إحباطه من دوره الواهي في البيت بالسنين الأخيرة بالانشغال الدائم الذي يبقيه في مزاج جيد.

أدركت در الشهوار الأمر نفسه خلال أيام مراجعاتها هذه، وقررت الاقتراب منه بعد حل مسألة سيف الدين، الذي ازداد شعورها بالذنب من ناحيته، وهي تراه يضيع شبابه في مسائل لم تعد ذات جدوى. كان شكله قد تغير كثيرًا، حتى صار أقرب إلى شبح بشعر طويل ولحية معفاة، وعينين حزينتين وذاهلتين، وكانت عصبيته في التعامل مع بعض الأمور تتجلى في ردوده الجافة على من يسألونه رأيه من بعض النشطاء القدامى، أو أصدقاء الميدان والغفلة، فكان يرد بيقين: «كله خراء في خراء والأهم حاليًّا أن نأكل عيش.»

كانت سمعته قد سبقته في هذه الأعوام، فصار اختفاءه محفزًا للبحث عنه لدى الصحفيين ومعدي البرامج، الذين رأوا فيه وجهًا ثوريًّا مناسبًا تمامًا لتحمل مسؤولية إبداء الرأي، والحقيقة أن سيف الدين كان يكتشف في هذه اللحظات حلاوة الحياة الهادئة في شقة الدقي، وهو يشرف على إخراج كتابه المشترك مع كتاب أمريكيين عن دور الألتراس، وأدبيات الأشعار التي يرددونها، ويتجرع مأساة انفصاله عن ليلى المرنيسي، بعد هجرتها، كأنه يحيا في فيلم «ميكروفون» خاص به.

كان يكتشف نفسه وهو يتعامل مثل خالد أبو النجا مع منة

شلبي في الفيلم فجأة، فيقلق من ضياع هويته بين الأفلام والكتب والنظريات والفلسفات النحس، فيشغل نفسه بتعلم الطهي، أو الاشتراك في دروس عن الصوفية، أو تحقيق ما كتبه عن حسين الرُّز، ونظرياته عن «ألف ليلة وليلة»، وعدد السلاطين المتخفين فيها، ويبحث عن شخصيته المناسبة بها، بلا جدوى، وهو يتذكر حسين الرُّز بكثير من الذنب لأنه لم يبقَ معه فترة أطول في أثناء انشغاله. ابتعد تمامًا عن وسط البلد والأماكن التي تُذكِّره بما جرى، وكان يراجع مواقفه بكثير من الكدر، حتى اعترف لدر الشهوار في واحدة من جلساتهما الرائقة بلا أضغان وقال: «اكتشفت أننا قتلنا الثورة عندما حصرناها في ميدان، كأننا كنا نقول لهم: انظروا جيدًا، نحن أطفال حالمون.»

لم يكن يخفي مقاربته للاكتئاب والخوض في أفكار سوداوية بعد أحداث رابعة والنهضة والتفجيرات التي كانت تحدث في كنائس وأماكن أخرى عدة، ثم رؤيته للميادين وهي تمتلئ بالابتهاج من أجل المرشح الجديد، وتكشف كل شيء عن وجه قبيح وواقعي، ولكنه كان يلوم نفسه والآخرين على التمسك الطفولي بمبادئ بعينها، والانكباب على أحلام الانتصار والغرور، وانقسام رفاقه إلى مئات الفئات والنظريات، حتى صارت المعركة معركة كراسي في المقاهي.

تفهمت در الشهوار الأمر بسهولة، وأخفت داخلها فرحة حقيقية لانتباهه المبكر إلى ما يجري، وكانت تستمع له باهتمام حقيقي، وتؤكد أنه حاول قدر الإمكان، وأنها تشعر بالفخر به رغم كل شيء. كانت تنفي نبوءة راجية السيد عن مأساتها الخاصة بيقينها من ابتعاد سيف الدين عن السياسة تمامًا، ومحوه المستمر لكل ما يخصه. ولكن ما لم ينتبه إليه أي منهما أن تمسكه بالعزوف هذا

كان دليلًا على صدقه عند كثيرين، فصار اسمه يتردد في المجالس التي تُعقَد سرًّا خوفًا من العصر الجديد، وأروقة الثوريين المصابين بالحسرة، ورجال الأمن الذين يبحثون عن الوجوه المؤثرة التي تُعَدُّ مثل عناصر خطر كامنة، فصار اسمه قرينًا للغموض، مع ظهوره الشبحي في الجامعة الأمريكية وانتسابه إلى در الشهوار، التي لا تزال تُعَدُّ أيقونة من أيقونات تحركات ما قبل ٢٠١١.

قادته سمعته هذه إلى المحنة الكبرى، عندما اعتُقِل بعدها بشهرين من شقة الدقي، بدعوى المشاركة في جماعة إرهابية ونشر أخبار كاذبة على شبكة الإنترنت. كان القرار معززًا بصور لآراء كتبها في زمن سابق، وقتما كان مؤمنًا بأن كل شيء ممكن، وكان اسمه، الذي مثَّل تهديدًا لطاقة كامنة، يمكن أن تنفجر في أي وقت، قد جعله في مرمى النيران، مع إخبار البعض عن طبيعة الكتب التي يشرف عليها، ورأيه الواضح في الحكم الجديد مع أنه لم يعلن عنه. وقد لاقى القادمين إليه بهدوء غير متوقع؛ لأنهم حسموا قلقًا أصيلًا داخله من مصير مشابه.

قبلها بشهر، كان قد فقد قدرته على الشعور بالأمان، مع تزايد حملات الاعتقالات الجماعية، التي تطال أشخاص أقل منه مشاركةً في الثورة، فكان يتابع الأخبار بشيء من الهوس، ويقرأ عن أدبيات السجن وما يجري فيه، وعن طريقة الوصول إليه، ولم يستطع إخبار أحد بمخاوفه هذه، واكتفى بالمشاركة القلقة في الحياة وهو يتابع أرقام الهاتف التي يمكن أن تحمل كلمة «رقم خاص» أو «مجهول»، وزاد وزنه قليلًا بسبب وجبات ماكدونالدز التي أدمنها من فرع قريب، ولم يعد يغادر مقهى حديثًا أمام بيته، أو غرفته في الجامعة، أو شقة الدقي التي جعلها متحفه الخاص الذي يضاهي متحف حسين الرُّز في عابدين في غرفته.

وقد عزَّت عليه نفسه عندما فكر في هذه الأيام بدرويش لطفي كمنقذ محتمل له، خاصة مع ترقيته، بعد وصول الرئيس إلى الحكم، إلى منصب إداري جيد، بسبب تلقيه تدريبًا في أمريكا، ولكن كل مخاوفه قد مُحِيَت عندما اعتُقِل في يوم معتدل الحرارة من أيام عام ٢٠١٥. ولأنه كان يخشى ضياع ما يكتبه؛ كتب إرشادات الحفاظ على مشروعات كتابته في أماكن بعينها، ووجدت در الشهوار كل هذه الأوراق بعدها في دوسيه أخضر كتب فوقه كلمة «للضرورة»، وكانت الغرابة، التي شعر بها، شعوره الغريب بالخفة، وأنه تجاوز الخطر إلى الجانب الآخر البعيد، حيث لا شيء يعود كما كان.

لم يُكتشَف الأمر إلا بعدها بثلاثة أيام، عندما اختفى سيف الدين من خريطة الحياة تمامًا، فأُصيبت در الشهوار بالقلق، وبحثت عنه في كل أماكنه المعروفة، وذهبت إلى مصطفى نفعة في المستشفى لتخبره عن اختفائه. وحَّدتهما المخاوف، رغم صدمته حيال ما جرى، التي بدت عليه في نفحة خذلان واضحة ورعشة خفيفة بجانب فمه، وذهبا معًا إلى قسم الدقي للبحث عنه في السجلات الرسمية. وبعد شد وجذب، ومحاولات منهما للوصول إلى أسماء مهمة يمكن أن يعرفا منها ما جرى، وصل إليهما الخبر عن طريق محامي ناشطين شهير، فقال لهما بلا تجميل: «العقرب أو النطرون، لن يبعد عن أي منهما، ولكن اسمه يتردد بكثير من الغضب.»

كان المفاجئ أن در الشهوار هي من انهارت سريعًا؛ وذلك لأنها وضعت نفسها موضع الاتهام بأقسى الطرق، وراجعت كل ما فعلته بتربية سيف الدين، وإدخاله إلى معترك الحياة من بابها الخطأ، وقالت لمصطفى نفعة:

- اعذرني، ضيعت ابننا يا مصطفى.

فقال لها وهو يربت على كتفها:

- على الأقل كنتِ معه.

دخلا بعدها في رحلة طويلة وثقيلة من البحث عن محامٍ مناسب، ومحاولات الوصول إلى موقع السجن الذي وُضِع فيه، ثم أخذ وقت بالزيارة، ولم يتم لهما ذلك إلا بعد ثلاثة أشهر من الاحتراق البطيء، فقدت فيها در الشهوار حيويتها المعهودة، وانشغل فيها مصطفى نفعة عن المستشفى لأول مرة منذ وقت طويل، وكانت المشكلة أن انقطاع الأخبار النحس هذا، مع ورود أخبار غير مؤكدة عن عمليات تدوير المعتقلين ليظلوا في السجن إلى ما لا نهاية، ومحاولات انتحار، وشائعات عن الاتهامات بالتجسس والعمالة، قد أنهك در الشهوار، فصارت أكثر ميلًا إلى اليأس والتحسس من كل شيء، فكانت تحرق علبتي سجائر يوميًّا، ولا تتناول سوى بعض البلح واللبن، وتبشر في الجامعة، عند كل الأساتذة الزائرين أو المقيمين، بما جرى، وهي تفكر بجدية للوصول إلى أعلى الأسماء في العالم، وهو ما أكسب صوتها خشونة واضحة بعد ذلك، وجعله صوتًا واثقًا لامرأة حزينة كما قالت بعدها.

لجأت إلى حلمي ولطفي، ليستخدما علاقاتهما في إنقاذ سيف الدين، ولجأت إلى درويش لطفي، الذي وعدها بالتصرف، ولكنه أظهر فتورًا تجاه القضية برمتها، ولم يقل رأيه إلا لشادي حلمي، الذي جادله في أحقية سيف الدين في الحرية، فقال بحدة:

- كانت كلمة منهم تضيع البلد، ولم يدركوا خطورة ذلك.

فرد عليه شادي لطفي، الذي احتفظ بعلاقة قوية مع سيف الدين منذ الطفولة، وشاركه اهتمامه بالفنون والأدب:

- وأنتم، الآن، قرار منكم يضيع البلد، ولا تدركون خطورة ذلك.

كانت كارثة عائلية، وتدخلت فيها أطراف من المهاجرين من عائلة نفعة، وأظهرت فيها أمينة حلمي موقفًا مشرفًا عندما شاركت في مظاهرة خفيفة في لندن دعوة إلى الإفراج عن معتقلي الرأي، ولكن أكثر من تأثر بالقصة كانت أمينة الرُّز، التي تعاملت مع الحدث على أنه فضيحة في حق تاريخ العائلة، ويغفل أعمالها وأعمال درويش عبد الغني والمستشار حسن الرُّز في حق الدولة، فتواصلت مع الدكتور فتحي سرور بعد ظهوره الخافت بعد فترة من الكمون والتتبع، ودخلت مكتبه نفسها ببهائها الكامل، وهي تستعيد قدرتها على الحديث بصعوبة. وعندما استقبلها، تذكرها فورًا رغم شكها في ذلك، فأخبرته بالقصة كلها مرة واحدة، وبلا مقدمات، فقال لها في النهاية: «مع الأسف، لا يد لرجال الماضي في الحاضر.»

أخبرها بصفته قانونيًّا أن الحل الوحيد هو وجود محامين متخصصين يدافعون عن سيف الدين، ويوقفون الحبس الاحتياطي، ويحددون موقع السجن، ثم يضغطون لفتح باب الزيارات، ومناشدة الرئاسة للعفو العام؛ لأن تلك التهم مطاطة بلا ضفاف. وعندما خرجت أمينة الرُّز، مرت على الرحماني لتشتري علبة كبيرة من المزز، بعد أن استعادت إحساسها بالحياة، وكان أول ما قالته لدر الشهوار عما جرى: «في النهاية، ساعده الرجل الذي خرج ضده. كانوا رجالًا محترمين رغم كل شيء.»

لم تكن ترى ما يجري في ضوء الإدانة للدولة، عدَّته ردة فعل طبيعية بعد حالة الفوضى الطويلة التي ضربت البلاد، وعقابًا

خفيفًا لسيف الدين على تهاونه في اللعب بشؤون الكبار. لم تقل رأيها هذا لدر الشهوار صراحة، احتفظت به سرًّا وهي تأمل خيرًا أن المحامي، الذي اختاروه للقضية، سيستطيع عمل ما يلزم.

كان خروجها لأول مرة منذ فترة طويلة إيذانًا بعودتها إلى الشوارع مرة أخرى؛ صارت تمر على الرحماني بنفسها، وهي ترتدي ملابسها المارجريتية الكاملة، التي تُظهِرها كسيدة خارج الزمن، وتشتري المزز لتتناوله في البيت، أو تذهب إلى جروبي في وسط البلد، تشهد تغيراته الحزينة وأفوله البطيء، أو مقهى نظيف في الزمالك، تشرب فيه القهوة مع بعض معارفها من بقايا علاقاتها بالمجلس أو صداقتها الطويلة مع ألفت زين الدين، التي تجلى اشتياقها إليها بعد وفاتها، فكانت تُخرِج على روحها صدقات في مسجد السيدة زينب، وعلّقت صورتها فوق حائط الانتصارات في الشقة، وكانت تذكرها في كل أحاديثها كملاك حقيقي، وسيدة عاشت الحياة بالطول والعرض، دون أن تخوض في خراء السياسة والعمل الاجتماعي.

كانت تستمتع باستعادتها اللياقة الخفيفة للظهور، فتمارس سطوتها بحكاية قصص عن تاريخها الطويل، وتعيد وتزيد عندما تركب مع سائق تاكسي، بدلًا من العربة القديمة التي صارت بلا سائق بعد انتهاء الاعتمادات المالية وبدلات الانتقال، لتشرح له التغيرات التي جرت على شارع بعينه، أو طريقة معاملة الناس المحترمين بعضهم لبعض .

لم تكن تذكر سيرة سيف الدين مطلقًا باعتبارها سُبة في وجه الأسرة، رغم تعاطفها معه، واحتفظت بتفاؤلها حتى عندما أخبرتها در الشهوار بمصاعب رؤيته، والتهم الكبيرة التي تُسنَد إليه في كل عرض على النيابة، ومنها تهمة التخطيط لانقلاب على الحكم، وهي التهمة التي جمدت در الشهوار، ودفعتها إلى حواف اليأس، فصارت

أكثر ميلًا إلى الغضب، وتجاوز الحد في ردات الفعل، وبان التوتر على ملامحها فظهرت تجاعيد خفيفة حول عينيها، كانت تطالعها صباحًا بلا اهتمام، فكانت أمينة الرُّز تحاول إقناعها بتخطي قلقها هذا، والتحلي بالصبر الكافي مع جلَد عائلة الرُّز، وتحكي لها المآسي التي لاقاها حسن الرُّز أمام عبد الناصر، فكانت در الشهوار تستمع لها بلا تعليق، حتى قالت لها ذات مرة: «في أشد الحاجة إلى خالو حسين.»

لم تستطع أمينة الرُّز مساعدتها في هذه المحنة إلا بالأمنيات الطيبة والدعاء، وكانت تُفاجَأ بصلابتها المتنامية تجاه الأحداث كلها، حتى فقدت بوصلة الشعور نفسها، وصارت أكثر ميلًا إلى الرغبة في الحفاظ على طريقة سير حياتها بهدوء، مع جدولها الصارم الذي يبدأ يوميًّا بالقهوة والفواكه المجففة، ثم الإفطار المتمهل لأطباق كلها بالسمن البلدي، والجلوس بعدها في الشرفة لقراءة الجرائد أو متابعة الأخبار من تلفاز صغير جعلت رضا تضعه داخل الغرفة، مقابل الشرفة، حتى يساعدها على تقضية وقتها الصباحي في متابعة الأخبار، ثم النزول إلى أحد أماكنها الجديدة، والعودة بعد ذلك للغداء، والبقاء حتى العشاء في متابعة المسلسلات التركية، وبعد العشاء، كانت تجلس قليلًا للتسبيح في الشرفة بحس عملي بحت، ودون شعور حقيقي بالكلمات، وهو النظام الذي أعطاها شعورًا بالأمان مع تقدم السن، وشعورها بوطأته من خلال تعب في المفاصل، وضعف عام في الأسنان، وصعوبة في صعود سلالم البناية التي لا يُوجَد بها مصعد.

كانت تتابع مشكلات العالم، ومحنة سيف الدين، من منظور متفرج على فيلم لا يخصه، رغم حماستها السابقة في التدخل في الأمور الشائكة، ولكن قلقها على حياتها، وشعورها بأن العمر

ينقضي عندما يترك المرء نفسه للحزن فقط، دفعاها إلى النأي بعاطفتها عما يحيط بها، حتى قالت در الشهوار لمصطفى نفعة بشأن ذلك: «كنت أحسب أن ماما لا تحب أحدًا سوى أسرتها، ولكنها لا تحب سوى نفسها.»

في المقابل، صارت در الشهوار أكثر حرصًا على تجنب الحديث في السياسة أو في ما جرى لسيف الدين بالجامعة في أثناء التدريس. فُوجِئت بالتعاطف العام الذي شمل قضيتها، وعدد صفحات فيسبوك التي أُنشِئت لدعم الأسرة، ولكن المشكلة أن هذا الدعم كان يضعهم في موضع النحس الذي لا تريده: أسرة ثورية ستقاوم حتى آخر نفس.

كانت تجد صورتها في أماكن غير متوقعة، ومصحوبة بكلمات حماسية أو حزينة، وكانت بعض القصص، التي تتردد، لم تحدث مثلًا، مثل الخطابات التي سربها سيف الدين من السجن إلى الأسرة يوضح فيها المعاملة السيئة التي يتعرض لها، أو اسمه الذي نُزِع من قوائم العفو منذ زمن الزمن بسبب مشاركته في كل الاحتجاجات تقريبًا، بعد دخوله الباب المنحوس للثورة، وكانت در الشهوار تملك الصبر الكافي لتكتب على صفحتها على فيسبوك ما ينفي ذلك، وتؤكد أنها ومصطفى نفعة صاحبا التصريحات الوحيدة التي يمكن أن يُؤخَذ بها، وتناشد الجميع عدم التدخل. كانت أشبه بكرة ثلج؛ لا تتقدم إلا وقد ضمت إليها قصصًا وأحداثًا وبيانات وأطرافًا متصارعة وأطرافًا موالية للدولة، حتى صار سيف الدين مثل أسطورة غير مكتملة، وصار عدد الذين يحبونه يساوي عدد كارهيه.

بعد فترة من اليأس المستحق، أدركت در الشهوار أن عليها استعادة طاقتها للحياة كما كانت، والتحلي بصفات المقاومة اللازمة.

مارست رياضة الجري مجددًا قبل العمل في نواحي مصر الجديدة، وكانت تجاهد لالتقاط الأنفاس في البداية، ثم استعادت لياقتها، وبعد ذلك، خلقت العادة الطيبة بالمشي مساءً بعد العمل، مسافة ساعتين يوميًّا، تتأمل فيهما الشوارع وتغيراتها وما يحدث فيها.

كانت تضبط نفسها في حنين مرهق إلى حياتها في السابق، وقت طفولة سيف الدين، أو قبل الزواج نفسه، كلما سمعت طرفًا من أغنية لعبد الحليم يتردد من مكان ما. بكت ذات ليلة برشاقة محمودة عندما تناهى إلى سمعها مقطع «تعالى تعالى ...» من أغنية «نبتدي منين الحكاية»، فشعرت بضربة زمنية بلا مقدمات، وضعتها في الشرفة مع حسين الرُّز، وقت شبابه البض، ومصطفى نفعة وهو ما زال في علم الغيب، وفي حديث دافئ مع درويش عبد الغني وحسن الرُّز، فبان لها ماضيها ناصعًا بلا أي خطأ وكامل المعاني، تلاقي فيه نسختها القديمة وهي ترتدي ملابس خفيفة وترقص على نغمة الثمانينيات الهادئة قبل غروب يوم رائق المزاج، فتؤنب نفسها على الحياة حتى هذا الوقت النحس، وتعقد محاكمة لا تنتهي لكل اختياراتها، تتهادى الكلمات بـ«نبعد عن أي عذاب ونكون على طول أحباب»، فتلون الشوارع بأزرق صافٍ وأبدي، غير واقعي، ليوم سعيد بلا نهاية؛ إذ كل شيء يعد ببداية جديدة مستحيلة.

كانت تنتزع نفسها من متاهات الحنين هذه بانشغالها برصد التغيرات التي طرأت على الشارع. تلتقط الصورة بالهاتف النقال، وتضعها بعد ذلك موضع التحليل، وتقارن بين مصر الجديدة أيامها والأيام الجارية. عندما بدأت صرعة الكباري المباركة، التقطت صورًا لكل الحدائق التي ستُزال، فقررت عمل دراسة خاصة عن حدائق مصر الجديدة، وكيف يمكن استخدامها دليلًا على تغير أنماط السلطة. استعادت ثقتها دفعة واحدة عندما طهرها الحنين وصفاها البكاء من المادة السوداء التي تجمعت داخلها. اشترت

ثيابًا جديدة بها نفحة تصميمات شرقية موحية، وأعادت تكحيل عينيها على النحو الذي يُظهِرها أميرة فرعونية غامضة، وغطت نفسها بإكسسوارات تنتقيها بعناية.

لم ترتبك في أثناء ذلك إلا عندما رأت حسين الرُّز في الحلم وهو يجلس مع سيف الدين في شرفة عابدين نفسها، ويقول لها وهو يبتسم مشيرًا إلى قصر عابدين الذي بان في الحلم مكللًا بالورود وألوان منتصف نهار صيفي: «قلت له عن مكان باب القصر ولكنه ينساه كل مرة.» قلقت في البداية من مغزى الحلم، وحملته كما هو إلى رضا خادمة أمينة الرُّز المخلصة، فقالت لها بثقة: «الباب في الحلم فرج قريب.»

وقد أعطاها هذا نفحة أمل لا شك فيها، فقررت تجديد شقة مصر الجديدة، وعرض شقة الدقي هذه للإيجار؛ لأنها شهدت الأيام الأكثر سوادًا ونحسًا لسيف الدين، مع شقة مدينة نصر، وكرست الإيجار لمصروفات ما يحتاج إليه سيف الدين في السجن، وتجهيز المحامين لقضيته. طلت الشقة بالأبيض، ووضعت صورًا كاملة لها في الصدارة، التقطها المصور اللبناني في التسعينيات، وتابعها مصطفى نفعة ذاهلًا وهي تقود حملة تطهير وإحلال حماسية، بروحها القديمة، فسألها قلقًا:

- هل سيخرج سيف الدين؟

فقالت بثقة:

- سيخرج إن شاء الله.

بعد أشهر، صارت تتعامل مع الحدث بهدوء يثير الإعجاب، واكتشفت انجذابها إلى تجربة طهي أطعمة مختلفة، فخصصت جزءًا من يومها لإعداد وجبات مختلفة، إيطالية أو إسبانية تحديدًا؛ لأنها

وجدت أن التشابهات بينهما تفوق الاختلافات، كما كان يحلو لها تصور سيف الدين وهو يجرب هذه الأطباق. شعر مصطفى نفعة بالدفء المتدفق منها هذا، وبعودتها إلى سيرتها القديمة، ما قبل الإنجاب حتى والانشغال بالجامعة، فصار مزاجه طيبًا، يمكث في الشقة مدة أطول، ويتناقشان في كل ما يجري بهدوء زوجين عبرا الاختبار الأقسى في حياتهما المشتركة. استعاد الثقة بنفسه وهو يرى در الشهوار تتحدث بحميمية وقلب مفتوح عن أخطائها بالمشاركة في الثورة، وجذب سيف الدين إلى هذا العالم الملون الخرائي، وكان يستمع لها بهدوء، وهو يربت على كتفها، ويردد بين الحين والآخر: «والله لا يُوجَد مثلك يا درة.»

كانت المحنة قد وحدت جهودهما؛ يتابعان المحامي بكل التفاصيل، ويسعيان إلى إخراج سيف الدين بكل الطرق، وخاصة إرسال اسمه إلى الصفحات التي تدعو إلى الإفراج عن المعتقلين. وكان مصطفى نفعة، الذي خجل في البداية من تردد اسم وحيده بصفته شابًّا له في السياسة، قد ترك خجله هذا، وصار يتحدث بصوت عالٍ عن فضائل سيف الدين وأدبه، وكان يقول بجدية: «لم أشعر بشيء وأنا أربيه؛ لقد ربى نفسه بنفسه.»

لم تكن تلك الطاقة تصل إلى سيف الدين بأي حال من الأحوال، ولكنه كان يعرف قبسًا من الأخبار عن أسرته عن طريق المحامين والأخبار المسربة داخل السجن. في الأيام الأولى، كان بصره يظل معلقًا بالشبابيك والباب، وهو على يقين أن ما جرى سينتهي سريعًا كما بدأ سريعًا مثل كل الأحلام. كان يتعامل بثقة يخفي بها أفكاره السوداوية بشأن الاستمرار المحتمل لسجنه هذا. رأى هناك نماذج ما زالت لم تُحاكَم بتهمة بعينها، وشبابًا تبنوا أفكارًا متطرفة بعد دخولهم بلا تهمة، ورأى أغلب الأسماء الشهيرة في الإخوان أو بقية الأحزاب والجماعات السياسية، وهو ما دفعه إلى الانعزال أكثر؛ لأن

مشاهد التريض اليومي ورؤية كل هذه الوجوه المكدرة أو المبتسمة أو الحزينة يُذكِّره بأول أيامه في المدرسة، عندما أُلقِيَ به في أتون الحياة.

بعد مرور وقت تشابهت فيه الأيام، أصابه حس اليأس، فصار أكثر ميلًا إلى الحديث مع الآخرين لتبادل الآراء بشأن موعد الخروج، وانكسرت عزلته، التي بناها حول نفسه، سريعًا عندما اكتشف بقلق أنه بدأ ينسى ملامح حسين الرُّز ودر الشهوار ومصطفى نفعة وبقية أفراد العائلة المنحوسة. بدأ حينها ما أسماه بعدها مراجعات النفس، فكان يجلس ليدون خواطره عن الأسرة وقصصها وعن حياته واختياراته بالساعات، ويتصور نفسه على هيئة بطل عالمي، سيخرج من السجن ليتحدث عن تجربته، بملامح غاندي محلي وعزيمة مارتن لوثر كنج آخر، وكان يعدد كل الأخطاء التي وقعت فيها الفصائل بالثورة بحس غاضب، ويتناول مشاركته نفسها بجفاء علمي، فيبالغ في تصوير هذه الأخطاء، ويرسم مسارات أخرى كان يجب للأحداث أن تتخذها، حتى جففت الأيام المتوالية منابع إحساسه بالذنب أو الظلم أو الكراهية، وفقد إحساسه بالأحداث نفسها، فصار يفكر جديًّا في ما يقرؤه أو يريد أن يقرأه.



دفعه الحنين إلى طلب سلسلتي «المغامرون الخمسة» و«ما وراء الطبيعة»، وجاءتاه على دفعات، مع مسحة سخرية حقيقية من بعض رفاقه؛ إذ قال أحدهم، وكان شابًّا من المنصورة،

اعتُقِل لتشابه اسمه مع اسم آخر، ولا يعرف الفارق بين الألف وكوز الذرة: «اقرأ كتب الرجال حتى لا تُعامَل معاملة الأطفال.»

لم يهتم سيف الدين بما يتردد حوله. ظل يقرأ في روايات طفولته هذه، ويستعيد حسه بالواقع، حتى لاحت له مقدمة موسيقية لأغنية كان يستمع لها طفلًا، تدوي بين فواصل قناة إذاعية ما، فشغل فكره بالبحث عن أصلها وفصلها، ثم تذكر كلماتها واضحة بلا لبس، ولكنه لم يستطع تحديد صوت المغني، فحدده ما بين محمد فؤاد وخالد عجاج، وقد قاده هذا التحديد إلى تذكر أغانٍ لهذين المطربين تحديدًا، بما فيها من روح التسعينيات الواضحة، والقرينة بالضرورة بطفولته. كان يتذكر الأغاني مع نفسه، ويكتب انطباعاته عنها، حتى توصل إلى فكرة تدوين كتاب جديد عن الأغاني، مثل كتاب أبي فرج الأصفهاني، ولكنه معني بتاريخه الشخصي معها، واندمج في هذا التدوين حتى نسي المكان الذي يجلس فيه، ولم يعد يشارك في أحاديث السجن العادية، ولا تبادل الشائعة والنميمة عما يجري بالخارج، وحركة تنقلات الضباط أو اسم سجين سياسي بعينه مر عليهم أو جلس معهم قليلًا.

شاهد أغلب الوجوه الشهيرة في هذه الفترة، وكان يتعامل معهم بلا شعور محدد، ويكتفي بمراقبتهم وهو يزداد إيمانًا بأن السياسة خراء، وأن مكانه بعيدًا عنها، مع تعاظم إحساسه بالغربة بينهم جميعًا. كان بعضهم ينظر إلى الجميع بعدوانية، والبعض ينظر بتسامح واضح، بينما كان الأكبر سنًّا منهم يكتفون بقراءة القرآن أو الجلوس بجوار رفاق قدامى، وهي كلها مشاهد عززت من شعور سيف الدين بأنه في مدرسة غريبة، فوق العادة، لا أعوام فيها ولا درجات.

أحد رفاقه بالداخل، الذين ارتاح إليهم، كان من أبناء السيدة زينب مثله -كما عدَّ سيف الدين نفسه مع أنه تربى في مصر

الجديدة- وكان شابًّا يعمل في الأجهزة الكهربائية في محل بمول البستان، وذات يوم، وهو متجه إلى وسط البلد، أوقفته عناصر مدنية، وفتشوا هاتفه النقال، وضبطوا كتابات معارضة على حسابه على فيسبوك، ورطانة غاضبين عادية، فوجد نفسه هنا فجأة. كان اسمه عماد القاضي، وكان يمتاز بالحس المناسب للدعابة والحيوية الكافية للضحك المستمر، ومعاملة رجال الأمن بلا خوف، وهو ما أحرج سيف الدين أكثر من مرة بسبب خوفه الأصيل من الهيئة الأمنية والسين والجيم. أخبره رفيقه هذا أن المكان يشبه ما يُسمَّى المطهر في الدين المسيحي -طبقًا لتعريف شاب مسيحي مثل الوردة، دخل معهم في السابق، ثم خرج سريعًا- وأن النتيجة إما إلى جهنم المعتقل الأبدي بلا أمل وإما الحرية والخروج.

فقد حسه بالأيام ببطء، وبعد ذلك، صار يألف الصباحات العادية الخالية من الطموح والعمل والمهام، يكتفي بتدوين خواطره عن الأغاني، واللحظة التي وجد فيها أن كلثوم تتردد في غرفة البك المأمور، وبكائه في رحلة إلى لندن ذات مرة، بمؤتمر مع مصطفى نفعة، عندما كادت تنتهي؛ لأنه لاحظ أن الألوان هناك بكر وفاقعة، وليست صفراء مثل ألوان القاهرة. وكان يملك من الأمل ما يكفي ليفكر في نشره فور خروجه، بعيدًا عن التفكير المعتاد في نشر تجارب المعتقل والحكم المستقاة منه.

عندما رأى در الشهوار ومصطفى نفعة أخيرًا بعد نصف عام من المحاولات، كان قد صار بهيئة رجل ناضج، مع ملامح ازدادت حدة على الطبيعي، ونظرة تصميم لم يقصدها، وكان يبتسم بهدوء مفاجئ، دفع در الشهوار إلى البكاء، وهي من المرات النادرة التي تبكي فيها أمامه، وتقول لمصطفى نفعة بعدها وهما يغادران المكان: «لقد صار رجلًا كبيرًا وفي عينيه حزن!»

عاملهـا بغرابـة لم يقصدهـا، وكان يحـاول اسـتعادة مشـاعره دفعـة واحـدة، ولكنـه فُوجِـئ أنـه يحتفـظ بهـا في صنـدوق خفـي بالداخـل، حتـى لا يُكسَر قلبـه مجـددًا، مـع حالـة انعـدام ثقـة شـديدة. رغـم ذلـك، سـأل بجديـة إن كانـت أمينـة الـرُّز مـا زالـت تعـد وجبـات الجمعـة، فقالـت در الشـهوار:

- نعم، وتدعو لك كل يوم.

فقال بحسم:

- أخبريها أنني أريد فتة بالثوم والخل عندما أخرج.

كان يتذكـر، بكثـير مـن الحنـين في الداخـل، المشـكلات التافهـة التـي كانـت تُثـار أحيانًـا في نطـاق الأسرة، خاصـة أيـام ترشـح أمينـة الـرُّز لمجلـس الشـعب، عندمـا سـمعت ذات يـوم أن الفتـة بالدمعـة اخـتراع فلاحـي صرف، لا مجـال للمدنيـة فيـه، وأن الفتـة الأصليـة هـي التـي يصنعهـا أهـل الإسـكندرية: بالخـل والثـوم وحدهمـا. ولذلـك؛ أمـرت رضـا بإقـرار النـوع الثـاني، ولكـن رضـا لم تـرضَ بذلـك؛ كونهـا فلاحـة مـن بطـن فلاحـين مـن نواحـي قهـا بالقليوبيـة، فظلـت تصنـع الدمعـة جـوار الفتـة بـلا أمـل، وتتناولهـا وحدهـا في المطبـخ. وعندمـا نجحـت أمينـة الـرُّز في إقنـاع نفسـها بـأن الفتـة بالخـل والثـوم أفضـل مـن سـابقتها، رأت طبـق الدمعـة الموضـوع في المطبـخ بجـوار إنـاء الطهـي، فقالـت بهـدوء، وقـد أيقنـت أن ذائقتهـا تتجـه ناحيـة الدمعـة، مـا سـمعه سيـف الديـن الجامعـي حينهـا بالمصادفـة: «الفعـل فعـل هانـم والـذوق ذوق فـلاح.»

يوم

٢٣

ظلت أيام أمينة الرُّز تسير بالطريقة نفسها، من دون قلق على سيف الدين، وكانت تقارن بين الزمنين بمزاج طيب، وتقول إن زمن عبد الناصر كان أكثر قسوة وحدة في اتخاذ القرارات، وأن ما يجري حاليًّا لا شيء، وكانت طريقتها الجديدة في أن تجوب المدينة بالتاكسي بدلًا من المرسيدس القديمة، التي ورثتها من درويش عبد الغني، والتي لم تغير طلاءها، مستمرة كما هي، فكانت تظهر وهي فيها مثل امرأة عتيقة خارج الزمن، تطفو فوق الحياة، وساعدتها على استعادة حسها الخاص بالواقع، وتسلية نفسها بعيدًا عن المكوث الأزلي في الشقة.

كانت تستمتع باهتمام سائقي التاكسي بها، وطريقتهم الخاصة في معاملتها باحترام، باعتبارها هانمًا حقيقية، وكانت تتحدث معهم بطريقتها المحسوبة في المجلس، وتذكر وقائع عدة لم يشهدها غيرها، وتغادر التاكسي كل مرة وقد تحصلت على دفعة جديدة من الحماسة للحياة، تدفعها إلى المرور على ماندرين قويدر في الزمالك لشراء بسكوت النشادر وعيش السرايا والكنافة العثمانلية، ثم تمر على بعض الأسواق التجارية الكبيرة لشراء أنواع الجبن الأزرق التي تحبها مع فضائل المخبوزات، وكل ذلك وهي تتهاون عن عمد في الاهتمام بما ستأكله صحيًّا، مُؤثِرة قيمة المذاق على كل شيء. كانت تتحول إلى ألفت أخرى دون أن تعي غالبًا، وتخلق عزلة خاصة بها، تدفعها بعيدًا عن التفكير الأسود في الأحداث، وكلما ابتعدت عن دور الأم والجدة الطيبة التي تستقبل الجميع في بيتها، وقعت فيه بسهولة؛ لترددها ا بين الخروج إلى الشارع والمكوث في البيت.

كانت خروجات بلا هدف سوى الحضور، وكان عدد من تعرفهن في تناقص؛ بسبب السن والمرض وشياطين أخرى، فكانت

تضبط نفسها أحيانًا وهي تجلس وحدها، تتسول النظرات والاهتمام من الشباب صانعي القهوة، الذين أدخلوها إلى عالم الإسبريسو والكابتشينو والفلات وايت، فتحكي قصصًا بلا داعي، وتمجد في زمنها وفي نفسها، وتصف الزمالك بوقت مضى، أو منطقة بعينها في وسط البلد.

حتى اكتسبت معارف جددًا من بقايا باشوات الزمالك والعائلات الثرية قوامها عجوز اسمه محمد مكرم، كان يُعِدُّ كتابًا عن الإسلام وحرية تناول النظريات المختلفة فيه، وكان مهووسًا بالجدال في المسائل الخلافية، وتستمع له أمينة الرُّز مستمتعة بتدخلها في أمور لم تكن تدري عنها شيئًا، ويوسف وهبة، وهو حفيد رئيس وزراء مصر أيام الملك فؤاد، ويملك شركة شحن بحري، ومستر حسان مالك، ابن أحد الضباط الأحرار، ويملك متجرًا لبيع الأنتيكات في الزمالك، كان يوسف وهبة يتندر بشأن أنه ورثها من جده الذي وضع يده على نصف تحف فيلات الزمالك وقصورها وقت ثورة يوليو، وسيدة تصغرها بعشرة سنوات، اسمها رتيبة فرغلي، ابنة لسفير مصر الأول في النمسا، وسيدة أرمنية اسمها إيمان سدراكيان، تنتمي إلى أسرة عريقة من مديري مدرسة أرمنية منسية في مجاهل مصر الجديدة.

كانت تلك المجموعة، التي تكونت على حس القهوة وحدها، تتحدث في ما بينها بحميمية من لا يملكون واجبًا بعضهم تجاه بعض، وكانت أمينة الرُّز تحب في جلساتها هذه، التي صارت تنتظم في زيارتها يوميًّا بالرابعة مساءً في مقهى حديث بالزمالك، أنها كانت مجهولة بالنسبة إليهم، ولذلك؛ قصصها مصدقة بالكامل. لاحظت در الشهوار إفراطها في التزين وشراء أطقم جديدة، وتغييرها قصة شعرها الذي صارت تصبغه بلون كستنائي، بعد أن اشتعل شيبًا،

ولاحظ لطفي وحلمي الأمر نفسه، فقال لطفي درويش مازحًا: «مصيبة تكون أمينة ستتزوج.»

لم يصل تعليقه إليها، ولكن در الشهوار، التي اطمأنت على صحة سيف الدين بعد الزيارة، أخبرتها بما جرى وقد استعادت قسمًا من حيويتها، مع ابتسامة نظيفة وخالية من الضيق، وكان بالها شاردًا في شيء آخر، فقالت در الشهوار بغضب:

- مش معقول يا ماما، أطمئنك على حفيدك وأنت في زمن آخر.

فقالت أمينة الرُّز بلا تفكير:

- لقد وجدت زمني في هذا الزمن الأغبر.

كانت تزداد اندماجًا مع صحبة المقهى هذه؛ تتبنى أفكارهم، وتحكي تاريخها من دون حسين الرُّز ولا مآسي درويش عبد الغني معها، ماحية ما تريد، وكان يوسف وهبة، عندما يأتي على سيرة السيسي، يذكره بالخير؛ لأنه قضى على حالة الفوضى واللعب بمُقدَّرات الناس من خلال فيسبوك، فكانت تسمح لنفسها بالتمادي معه في آرائه هذه، مع شعور خفي بالضيق بسبب سيف الدين، كان يأتيها على هيئة ألم خفيف بالمعدة، تعالجه بتركيز التفكير على فكرة أنه يتأدب حتى يصير رجلًا ناضجًا.

وزعت كتابها القديم، الذي أعادت طبعه بعد ترشح الرئيس، على صحبة الزمالك هذه، وتعرفت معهم على حلاوة العزلة بعيدًا عن تغيرات المدينة، والنظر إلى الأمور بعين الطائر، وهو ما أعاد إليها لياقتها الصحية والنفسية، لتصير أقل شكوى من آلام الشيخوخة. مع الوقت، لم تعد تقف على مدى حقيقة الأحداث التي تذكرها بالفعل، وصارت تبدل بين القصص وفقًا لمشيئتها

الحرة، حتى تناست تمامًا قصص حسين الرُّز والشقة كأنها لم تكن. ومع خوضها في بحار العلاقات المركبة التي لا نهاية لها، استطاعت التوصل إلى اسم ثقيل، يمكن أن يساعد سيف الدين في الخروج. وضحت ما جرى من سوء فهم، واتهامه بعدد كبير من الاتهامات بلا أدلة سوى مشاركته القديمة في الثورة، وقالت: «وبعد ذلك اعترف بخطئه واعتزل كل ذلك.»

وقد وعدها الاسم الثقيل بالتصرف عندما يأتي الوقت المناسب، ونصحها ألا تتناول الأسرة ما يخص سيف الدين أمام أحد بالشكوى، والتزام الصمت حتى يُبَتَّ في الأمر. كلمة من هنا على كلمة من هناك، خرج سيف الدين فجأة كما دخل فجأة، وحدث ذلك في مطلع عام ٢٠١٧، بعد ما يقرب عامًا ونصف في المعتقل.

كان سيف الدين قد ألف حياته حتى إنه لم يعد يفكر في ما يمكن أن يفعله خارج السجن. كان قد وطد علاقته مع كتبه ورواياته، ومع تهاون مأمور السجن المحسوب، كانت الكتب تدخل إليه بسهولة، فيلتهمها بلا ملل، ويدون أفكاره فوق أوراق متفرقة، حتى اكتشف لذة استعادة تاريخه الشخصي بالطريقة نفسها، منذ البداية. أنهى سلسلة «ما وراء الطبيعة» ليبدأ بعدها في سلاسل روايات أخرى للجيب، ثم روايات نجيب محفوظ، وبعده الأسماء الأدبية الكبيرة، ثم الأسماء الأجنبية، وكان ذلك يحدث على فترات متباعدة؛ لأن عدد ما كان يقرؤه كان يقل مع الوقت دائمًا، بسبب تشدد مأمور السجن المفاجئ وسط موجات تهاونه، وقد انطبعت عزلته هذه على وجهه، فصار مبتسمًا أغلب الوقت بهدوء، يترك شعره كما هو، ولكنه يحلق لحيته لتصير خفيفة، حتى يميز نفسه عن سجناء الإسلام السياسي، ويجلس هادئًا بين التجمعات، يتناول الأمور كلها بلا غضب حقيقي، وهو يبتسم بسخرية من بعض الشعارات التي تتردد بلا فلترة.

في هذه الأثناء، جاءه خبر الخروج الذي لم يعد له نفسه. ورغم توقعاته في البداية ليوم الفرج هذا، الذي سيملأ فيه الدنيا بأكاليل الغار والفرح والسرور، حدث كل شيء بآلية ونفحة من الكآبة، وخرج على نحو عادي، لتستقبله در الشهوار مع مصطفى نفعة، عندما وصل إليهما الإخطار بالإفراج عنه بعد نظرة سريعة في أوراق قضيته. بعد الأحضان الباكية وشعوره العارم بالغرابة لأنه لم يشعر بما يجري حوله بالفعل، تأمل الشوارع من خلال نوافذ عربتهم، وهو يزداد يقينًا بأن الحديث عن الحرية ويوم الخلاص هذا أمور مبالغ فيها، ولكنه لاحظ أن أهم ما في الأمر هو مساحات الخلاء التي لم ينتبه إليها في السابق، والتي لاحت له، بعد المساحات الضيقة، كمنفذ حقيقي للتنفس.

كان الترحيب به حقيقيًّا في شقة مصر الجديدة، حضرته أمينة الرُّز، التي أعلنت أكثر من مرة، بلا خجل، أنها السبب الأساسي في خروج سيف الدين، وقالت له بجدية، رغم نظرات در الشهوار المحذرة: «لا تعُد إلى اللعب بالنار مرة أخرى يا سيف.»

لم يسأله أحد عما جرى بالداخل كيفما اتفق، وعقد عليه لطفي درويش كشفًا هزليًّا يؤكد فيه أن صحته حديدية مثل أغلب أفراد عائلة الرُّز، ثم قال باستمتاع بممارسته الجادة للهزل في المواقف الكبيرة: «لا يموت أفراد عائلتنا إلا من الملل.»

تواصل سيف الدين مع أسرته على نحو طبيعي، مع تعاظم حسه بالغرابة، الذي سيصفه بعدها أنه مراقبة خارجية للأحداث، التي يشارك فيها، كأنها لا تخصه. كان يتأمل حيوية در الشهوار التي استعادتها سريعًا، وعدد صفحات فيسبوك التي أُقيمت على شرفه، والمحافل الوهمية التي أعلنته سيدًا للثورة ومن شباب أهل الجنة ووريث الحسين وخير من فينا، والحملات التي قادتها في الجامعة

مـع كثير مـن الطلبـة، والصـور التـي رُسِـمت لـه فـوق جـدران المدينـة في مواضـع سريـة. وكان يشـاهد كل هــذا مبتسـمًا، ويـردد بـين الحـين والآخـر وهـو يمسـك بخيـط الخجـل الأزلي الـذي نشـأ بـه، وعـاد كامـلًا بعـد مراجعتـه لـكل مـا قـرأه طفـلًا، كأنـه وُلِـد للتـو: «كـبَّروا الموضـوع الجماعـة أوي.»

بقـي في شـقة مـصر الجديـدة لأسـبوع، يتعـافى باهتمام الجميـع الواضح، ويشـعر بلـذة الإصابـة بالإنفلونـزا قديـمًا، عندمـا كان النـاس يجتمعـون حولـه ويتلقـى الحـب عـلى هيئـة أطبـاق لسـان العصفـور ومـرق اللحـم والأرز وحــده. صنعــت لــه در الشــهوار وجبــات التقويــة القديمــة هـذه، وكانـت تسـتمتع مـع ذلـك باسـتعادة حسـها للأمومـة، وبدايـات التسـعينيات، عندمـا كان كل شيء هادئًـا في مدينـة النحـس. كان أول مـا فعلتـه، بعـد خروجـه، هـو التشـديد عـلى عـدم خـوض السياسـة أبـدًا في هــذا الزمـن، وقالـت بوضـوح وبـلا لبـس: «طـوال مـا الوضـع هكـذا، لا تحـاول.»

كانـت تخصصاتهـا في الجامعـة تسـير كما هـي، وكانـت تتأمـل عمليـات المحـو التـي تحـدث في مـصر الجديـدة عـلى اسـتحياء في البدايـة، ثـم مكشـوفة وواضحـة، عـلى هيئـة الكبـاري الجديـدة التـي تشـق شـوارعها، وكانـت ترصـد ذلـك بهـدوء، وهـي ملتزمـة بالفصـل الحـاد بين السياسـة ومـا تُدرِّسـه وتبحـث بشـأنه.

عندمـا خـرج سـيف الديـن، فكـت الحظـر الجزئـي عـلى ملابسـها، وعـادت لترتـدي قطعهـا الغريبـة المنقوشـة، وأقراطهـا الطويلـة اللامعـة، وخواتمهـا التـي تحمـل نقوشًـا مملوكيـة، وضيَّفـت الأسـاتذة والطلبـة عـلى علـب جاتـوه وعيـش السرايـا والبغاشـة. كانـت سـعيدة تمامًـا، وكانـت تكتفـي بالتعليـق الخافـت عـلى مـا جـرى، وتتجـاوز سـيرة الدولـة بوضـوح. لم يتجـلَّ غضبهـا المكتـوم، الـذي أخفتـه جيـدًا، إلا

عندما لاحظت هدوء سيف الدين الواضح والغريب، وابتعاده عن الحديث عن دراسته بعد خروجه، فقالت له بحدة ذات مرة: «لا أريد منك أن تتعامل كمصاب بعقدة.»

كانت تخشى من نظراته الذاهلة وهيئته المخذولة التي لا تخفى على أحد، وتحوله إلى سيف الدين الطفل القديم مجددًا، فأرادت أن تُخرِجه من حالة الكمون هذه، ودفعته دفعًا إلى استكمال الماجستير، وشرحت لأساتذته الأجانب في أغلبهم حالته وكيفية التعامل الناجح معه، حتى انسحبت قدماه دون أن يعي، ونزل عندما أعطته در الشهوار درسًا قصيرًا في القدرة على التحمل والتحدي، وكانت نبرتها الغاضبة تشبه نبرة أمينة الرُّز، فقال لها: «أيام وتكونين جدتي.»

والحقيقة أن در الشهوار كانت لا تريد الاعتراف بهزيمتها في وحيدها؛ فمع خروجه، ورغم كل السيناريوهات الطيبة التي أعدتها حتى يحيا دون أن يلفت نظر أحد، وجدت نفسها تمعن التفكير في مستقبله، وهي تتنبأ بالألقاب التي سيحوزها كمعتقل سابق، ولهذا كانت تريد التعامل كأن شيئًا لم يكن، في رغبة محمومة لتصحيح أخطاء الماضي. لم يقف مع سيف الدين في هذه المعمعة سوى مصطفى نفعة، الذي شجعه على التعافي بالسفر إلى منطقة منعزلة بالبلاد، واستعادة لياقته كما يريد، وقد نجحا في تجميد حالة حماسة در الشهوار هذه لتعويض الماضي عندما قال لها سيف الدين بجدية: «ما زلت أسعل من هواء الحرية، وأريد لقاء نفسي قليلًا.»

سافر إلى دهب في سيناء، وأُصيب بحالات قلق متكررة، كانت تدفعه إلى التعرق والرغبة الحادة في التبول، عندما يمرون على أي نقطة شرطة خلال الطريق الطويل، حتى تنفس الصعداء أمام البحر الكبير.

منذ أول لحظة وضع فيها قدمه بالمدينة النائية، شعر أنه وجد شيئًا يبحث عنه منذ فترة طويلة. كانت المدينة قد صارت جنة للشباب الهاربين من القاهرة، والباحثين عن عزاء جوار البحر وحياة البوهيمية الحديثة، وعلاقات الحب السريع التي تتخطى الأجناس واللغات والأديان، وقد بدأت على استحياء في إزاحة السياحة الأجنبية التي كانت تأتي هناك منذ الثمانينيات وحتى أواخر التسعينيات، وخاصة بقايا الإسرائيليين الذين يكنون حبًّا خاصًّا لدهب باعتبارها مدينة نشأت في أزمنة الاحتلال القديمة بالأساس، لتظهر مجموعة من الشباب المصابين بداء العزلة المبارك، يبحثون عن حياتهم الخاصة بعيدًا عن حياة عامة.

أقام في معسكر اسمه المارين جاردن، في غرفة صغيرة بلا دورة مياه؛ إذ كانت مشتركة. وهناك، فوق الفراش الواسع وبين الجدران البيضاء والزرقاء للغرفة، ومع البحر القريب، اكتشف حقيقة الحياة التي يريدها. منذ اليوم الأول، جذبته المدينة بسهولة، فلف فيها حتى أدرك الفروق بين الممشى السياحي والمشربة والعصلة، وجرب أنواع القهوة المختلفة، والمطاعم الغريبة المتعددة الجنسيات، وكان يمارس هذا بلياقة طبيعية، تشبه لياقته في الميدان قبل محنته. كان من المقدر أن يبقى شهرًا واحدًا ثم يعود إلى الجامعة، ولكنه قرر الاستمرار في البقاء بعد نهاية الشهر، وهاتف در الشهوار، وقال لها بصوت واثق: «سأبقى هنا حتى أعرف ما سأفعل.»

كان يفكر جديًّا في الاستقالة واللجوء إلى حياة البحر، والتدرب على الغطس، حتى يحوز الرخصة الدولية، ويصير مدربًا معتمدًا. أدمن السباحة في العمق البعيد، والطفو فوق الشعب المرجانية، وبين الأسماك الذاهلة أبدًا، وأظهر تجاوبًا محمودًا مع قواعد الغطس، ولكنه لم يستطع اتخاذ قراره هذا بالاستقالة، وعاد إلى الجامعة بعدها وقد قرر عدم استكمال الماجستير، في خطوة غير محسوبة، واجهتها

در الشهوار بغضب واضح، ليقول لها بصلابة أيام الثورة القديمة: «لقد أثبتت الطريق الجماعية فشلها، وآن لي أن أجد طريقي.»

استطاع تأمين عمل أونلاين بسهولة، كان عبارة عن ترجمة عدد من النصوص الأدبية من الإنجليزية إلى العربية، والعمل في مواقع إخبارية وأدبية أجنبية عدة، بناءً على سمعته كمعتقل سابق. وخلال ثلاثة أشهر من قرارته الحادة هذه، وبقائه في المدينة، صار أكثر نحولًا، بجسد ممشوق ومبهر بملح البحر، يقارب اللون الأسمر، وجعل شعره على هيئة ذيل حصان، وأطلق لحيته، حتى صار شخصًا آخر غير سيف الدين القديم.

كانت حبوبة تعاني هذه الأيام من الوحدة التي هاجمتها بعد وفاة حسين الرُّز. كانت تقضي أغلب النهار في إدارة المطعم، وهي ترتدي الأسود، وتلوح مثل ربة إفريقية للبطاطس الشيبسي والسجق والطعمية وهي جالسة خلف طاولة المحاسبة، تتعامل بحزم مع معاكسات الليل والنهار، وعروض الزواج الغريبة التي تلقتها بعد وفاة حسين الرُّز. كان أول من عرض عليها الزواج هو المعلم سعيد الحرَّاز، الذي دخل عليها ذات يوم بجلباب أبيض فاخر، ورائحة عطرية ثقيلة، وأعطاها مقدمة عن فضائل حسين الرُّز، ووصيته بشأن المطعم، ثم عرض عليها الزواج بلا خجل، وهو يؤكد أنه يفعل ذلك لصالح حسين الرُّز نفسه، فقالت له بلا تفكير، بجفاء واضح: «حسين الرُّز هو زوجي الوحيد هنا وفي الجنة.»

كانت تقف كل لحظة على أبعاد وفاته، لتزداد حنينًا إليه كلما جلست في الشرفة، أو جالت في أركان الشقة الخالية، أو جلست في الغرفة التي لم يعد سيف الدين يأتي ليقرأ ما فيها من اجتهادات كتبها خلف حسين الرُّز، أو يطلع على العلامات التي وضعها جوار الجمل في كتب «ألف ليلة وليلة» الكبيرة التي لا تنتهي.

كانت مشكلة المطعم وإيراده قد حُلَّت على نحو طبيعي، عندما انشغلت در الشهوار بمحنة سيف الدين، ولكن أطلت لها مشكلة تغير حسونة بعد وفاة حسين الرُّز، وتحوله إلى شخصية أكثر تسلطًا، ومحاولته الواضحة إزاحتها عن إدارة المطعم، بعد إدراكه أنها الوريثة الوحيدة لكل شيء. بدأ الخلاف بينهما في يوم بلا شمس، بشأن نوعية البطاطس التي جلبها حسونة إلى المطعم من أجل القلي؛ فقد لاحظت هذه المرة، عند معاينة سريعة للبطاطس، أن بعضها به بقع عفن بني، فسألت حسونة عن مصدرها فقال:

- بالجملة من بقايا سوق الإثنين.

فقالت حبوبة:

- لم يكن صاحب المطعم يرضى إلا بالبطاطس التحمير المتماسكة وبطينها .

كان خلافًا بسيطًا، ازداد حدة عندما اكتشفت حبوبة أن حسونة قد استخدم البطاطس التي اشتراها في النهاية ولم يغيرها؛ لأنه لاحظ أن الزبائن لا يميزون حقيقة بين الجيد والمعطوب، فقررت حبوبة منعه من المسؤولية عن المشتريات، ما عمق الخلاف بينهما، ووصل إلى تهديد حسونة بالاستقالة، لتردد حبوبة بجفاء: «لا يهمني؛ فأنا صاحبة المطعم.»

دفعها هذا الحدث إلى ارتداء زي القسوة، والالتزام الصارم بوجه خشبي، تقابل به الجميع، حتى كبرت في السن فجأة، وصارت أشبه بطيف غير واقعي، تحيا اليوم بيومه على النحو نفسه، وتغلق على نفسها باب الشقة عند عودتها حتى اليوم التالي. لم ينتهِ الأمر بهذه البساطة، قلب عليها حسونة أفراد أسرتهم، وجاءتها أمها ذات يوم، مع ابنتي خالتها القادمتين من النوبة لتوهما، وزرنها بلا سابق إعلان، وفي أثناء الحديث، أثارت أمها مسألة زواجها مرة أخرى،

فقالت حبوبة: «لو جرى ذلك فسيكون طمعًا في المطعم والشقة.»

تعاملت معهن بوقاحة واضحة، ولم تُضيِّفهن إلا على قراقيش بائتة وشاي بحليب منه فيه، وأظهرت خصالها العنيفة الجديدة، حتى ضاقت أمها وغادرت الشقة مع ابنتي خالتها، وهي تقول: «لا يصح إلا الصحيح: إما الزواج مرة أخرى برجل محترم من بلدنا وإما أن نبقى معكِ في الشقة.»

مع التضييق المستمر عليها، لم تجد حبوبة حلًّا سوى زيارة در الشهوار في شقة مصر الجديدة ذات مساء وهي تحمل معها أكياسًا من الدوم الأسواني. هنأتها بعودة سيف الدين، واعتذرت عن غيابها بسبب الانشغال بالعمل، ثم طرحت أمامها الموضوع كله، وهي تردد: «عندنا في النوبة أسوأ عدو للإنسان أهله وهم أفضل صديق له أيضًا.»

كانت در الشهوار، التي لم تخُض في مشكلات مشابهة قط، تنظر إلى الموضوع بعين الفضول القديمة، لتتأمل طريقة حياة لم تطرقها من قبل، ولذلك؛ ظهرت ببرود لم تقصده، وإنما يصيبها عندما تستمع لمشكلة لا تخصها بالفعل، ولا تستطيع فهمها لتتعاطف معها، ولم تجد حلًّا سوى صبر حبوبة، وتحملها كل ما يجري حتى يخف الحصار من عليها.

لم يكن يطيب خاطرها سوى زيارة حسين الرُّز في مقبرته التي يسكنها مع لبة بطاح، والوقوف أمام الباب بالساعات لتقص عليه ما يجري معها أولًا بأول. زينت المقبرة بأصص الورود والزروع في النهاية، وأمرت بوضع لافتة تذكر اسم حسين رمضان حسن الرُّز؛ لأنه لم يوصِ بوضع شيء، وكتبت أسفلها تاريخ الوفاة، وجعلتها تزين باب المساحة الواسعة فوق باب المقبرة، حتى صارت تُمَيَّز بسهولة لمن يمر على المقابر من الطريق الداخلية. داومت على

المكان منذ وفاته، تزوره أسبوعيًّا، وتشرف على الزروع بصبر، فاكتست المقبرة خلال هذه الأعوام بكساء أخضر عطر الرائحة، أعطى المكان حسًّا خاصًّا بالألفة. لم تساعدها در الشهوار بجدية، وشعرت هي أن أسرة الرُّز قد تنكرت لها بعد وفاة حسين الرُّز، فشكت إليه في أول زيارة أعقبت الحدث من در الشهوار التي تركتها في بحر الحياة، وقالت: «أصلك كنت تعدُّها ابنتك.»

اكتشفت، خلال هذه الأوقات العصيبة، أن بها استعدادًا أصيلًا للحزن والشعور بمشاعر الفقد والهجران، فقاطعت أسرتها رسميًّا، وانشغلت بحياتها المعزولة هذه بين المطعم والشقة، وجددت طلاءها ليكون باللون الأبيض، وجددت الشرفة حتى تنسى شكلها عندما تُوفِّيَ حسين الرُّز على أرضيتها الرخامية الباردة، واكتفت بحياتها على هذا النحو، ليصير المطعم أكثر نجاحًا حتى من أيام حسين الرُّز؛ لأنها أظهرت اهتمامًا أكثر دقة بتفاصيل كل شيء، ووقفت على أبعاد كل عمليات الشراء وما يحدث وقت الطهي.

ولأنها كانت أضيق خلقًا من قبول وجود أي فرد من الأسرة؛ طردت العاملين كلهم مرة واحدة، وجلبت بدلًا منهم كتيبة من فتيات نوبيات، من قرى قريبة من قريتها، يمتزن بالجدية الكافية لإعداد الشطائر كما توصي، وألزمتهن بمعايير صارمة للعمل، مع زي موحد، ابتكرته من بنات أفكارها الخاصة، وطبعت فوقه صورة بالأبيض والأسود لحسين الرُّز، وتحتها اسمه المطعم الذي لم تغيره رغم شعورها الملح بأنها الأكثر جدارة من درية المجهولة هذه، ثم بدأت تستعيد لياقتها بهدوء، وقد أيقنت أخيرًا أن رجل حياتها قد مات، ولم يعد لها سوى نفسها والمطعم والبيت، تمسك بها بيديها وأسنانها.

لم ترضَ در الشهوار كثيرًا بابتعاد سيف الدين إلى مدينة نائية لا

حياة حقيقية فيها، ولم تبدِ تأييدها المستمر والمعهود لقراراته، لكنها فُوجِئت بتمسكه بالقرار، وحديثه ببساطة عن المدينة التي لم تعد كما كانت، والظروف الصعبة، والحياة التي تحتاج إلى براح للتفكير والممارسة. لاحظت ضيقه المتنامي، منذ خروجه من المعتقل، من كل أنواع التضييق سواء منها أم من العالم نفسه، وتعاملت مع شخصيته الجديدة هذه، التي اكتست بمسحة من العزلة، تُضاف إلى عناده القديم الطبيعي، بضيق في البداية، ثم قبلت بما يفعله؛ لأنها اكتشفت أنها كادت تصير أمينة رُز أخرى.

أَهَّلها قرار سيف الدين إلى عودة الاهتمام بنفسها كما كانت تفعل. جددت من شكلها، قصَّت الشعر، وجعلته قصيرًا يصل إلى أذنيها كما كانت تحب قديمًا، وفتشت في دفاترها القديمة بفترة التسعينيات عن المشروعات التي كانت تدونها حتى تقوم بها في المستقبل، فاكتشفت أن شرائط الفيديو مثلًا قد اختفت تمامًا، وأن ما بقي من شرائط هو تلك التي تخص سكان المدينة وحدهم.

جذبها المشروع بسهولة إلى مناطق راحتها، فانشغلت مجددًا بالبحث في الأرشيفات الرسمية والشخصية، وجندت معها شبابًا وفتيات من الجامعة، بعد أن قدمت عرضًا طريفًا عن أهمية الفيديو القديم هذا لأنه يعادل الفيديو الملتقط من الهاتف المحمول حاليًّا ولكنه محفوظ في وسيط لا يتلف بسهولة، على عكس فيديوهات الهاتف التي يمكن أن تُزال من مكان تخزينها الوهمي بالأساس بلحظة. كانت معنية مثلًا بما سيجده الطلبة عند مهووسين بالفيديو ومصورين مخضرمين. وخلال ثلاثة أشهر من البحث الجاد، توفرت لها نسخ مميزة عدة عن أعراس وعزاءات واحتفالات ميلاد ومناسبات رسمية وغير رسمية وفيديوهات ملتقطة لفتاة أو شاب في علاقة حب وفيديوهات للشوارع والعربات والبنايات.

ارتدت ثيابها القديمة المميزة، مع نفحة من الألوان الخاصة بصحراء سيناء، ورسمت بسمتها الجذابة وهي في قاعة المحاضرات. مع تخطيها الخمسين، أرَّقتها فكرة تأثر جمالها بالحزن وعوامل السن. كانت تشعر بغضب مكتوم لأنها واجهت محنتها هذه في سن متقدمة، مع قراءتها عن أثر ذلك على صحة البشرة وظهور الفرد بمظهر يفوق مظهر سنه، ولذلك؛ اندمجت سريعًا في عالم وردي، يطفو فوق العالم الحقيقي، مليء بصالات التجميل وعناية البشرة والكوافيرات الشهيرات، وصارت تذهب إليها كل أسبوع تقريبًا، وقد أصابها هوس بلا عزاء، جعلها تشعر أنها ضيعت جمالها القديم وصورتها الخاصة.

لم تهدأ خواطرها إلا عندما لمست نظرات الإعجاب الخرساء من طلبة الجامعة في موضعها كما هي، ومتابعتهم لها بتردد محبب، مع نفحة من الخذلان العام، فكانت تزداد مرحًا، وتواجه هذا الإعجاب بترحاب واضح، مع صلابة في نظراتها بسبب تعاليها الخفي الطبيعي على كل موجات الإعجاب هذه. ذات مرة، جاءها أستاذ جامعة دنماركي اسمه كلاوس، يعمل في الغطس الحر بجانب عمله في تدريس البيولوجيا، فوق الخمسين، وأخبرها ببرود الشمال وبلا مقدمات: «تشبهين نقوش الملكة نفرتاري في أبو سمبل.»

فابتسمت للمجاملة بمزاج طيب، ولكنه لم يتوقف عند ذلك، وإنما حاول إغراءها بطريقته الخاصة، فكان يذهب إليها يوميًّا ليعرض عليها فيديوهات الغطس في عمق البحر الأحمر، وسباحته في النيل البارد، الذي ذكر أنه أكثر أنهار العالم فائدة بسبب تجميده الجسد وإعادته الحياة إليه بسهولة؛ إذ اعتاد في جزيرة هيسا بأسوان أن يغطس كل يوم حتى رأسه، ويخرج بكامل لياقته وقد استعاد إيمانه بهذه الحياة الصعبة، كما يفعل في أنهار الدنمارك البعيدة.

حدثها برطانة الأجانب ومزاج رجالهم الرائق عن أسفاره حول العالم، واهتمامه بأنواع معينة من الكائنات الحية، خاصة حيوان الليمور المذهل الذي يعدُّه الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد، فمالت إلى غرابة عالمه وهي واقفة على أنها لم تمل إليه فعلًا. تركت له فرصة الاستعراض، وكانت تنتظر اللحظة التي يأتي فيها إلى مكتبها أو الكافتيريا ليتحدثا معًا وهما يشربان القهوة المفلترة، التي يُعِدُّها بستين حبة مثل بيتهوفن الذي كان يعمل ذلك كل صباح، ويصبها في زجاجة تحفظ الحرارة، حتى شعرت بالعمق الناعم والمغرق لإعجاب بلا ضفاف، اطمأنت معه إلى تأثيرها، ولكنها اكتشفت كارثة أن العالم مليء بالاحتمالات وواسع إلى درجة لا تُصدَّق، وأنها حكمت على نفسها بالاختيار من البقعة الجغرافية نفسها بلا سبب واضح سوى الحب.

كانت أزمة طارئة، جعلتها تتجه إلى مصطفى نفعة بالاهتمام المكثف، وتدفعه إلى التفكير في سفريات تُخرِجهما من ركود الحياة الزوجية الطويلة. سافرا، بعد معاناة مع إجازاته، إلى سويسرا والنمسا، وهي السفرية التي علقت عليها در الشهوار أمالًا كثيرة ولكنها جاءت مخيبة للآمال ومليئة بالعراقيل، فسافرا بعدها إلى أسوان، والغريب أنهما استمتعا بالسفرية رغم رخص ثمنها الواضح وتواضع المكان الذي أقاما فيه بجزيرة هيسا، كما حدث معهما بالسابق.

أدركت، خلال محاولاتها إنعاش حبهما هذا، أنها أحبت أداء كل الأدوار في زواجهما، حتى صار إنقاذها واجبًا عليها وحدها. وكانت، في أثناء محاولاتها هذه، تقف على أبعاد انجذابها إلى كلاوس، وهو ما أزعجها، فكانت تغضب من مصطفى نفعة كلما أظهر فرحًا خالصًا بإجازتهما هذه، أو تحدث معها في مشكلات العمل الاعتيادية، وآخر

الأبحـاث التـي يهتـم بهـا، وكان هـذا عندمـا سـألته بجديـة عـن قدرتـه المالية علـى تحمـل راتبهـا معًـا، فلـما سـألها عـن سـبب السـؤال، قالـت: «أفكـر في إجـازة طويلـة أتفـرغ فيهـا لـك.»

لم يكـن الأمـر سـهلًا في البدايـة؛ فانتـزاع روح الفراشـة الاجتماعيـة مـن داخلهـا، وإجبـار نفسـها علـى التخلـي عـن كل شيء لفـترة قـد جربتـه مـن قبـل، ولكنهـا كانـت تعـود إلى حياتهـا بكثـير مـن الحماسـة، وتمحـو شـؤون البيـت تمامًـا مـن بالهـا. لم تنجـح في إجبـار نفسـها علـى التفـرغ الإجبـاري للبيـت إلا عندمـا اقترحـت علـى مصطفـى نفعـة الانتقـال إلى أسـوان، حتـى يقيـما هنـاك فـترة مناسـبة؛ لأنهـا اكتشـفت أن رتـم الحيـاة بطـيء في المدينـة علـى نحـو طبيعـي، وأن كل شيء يسـير بانسـيابية وبـلا جعجعـة هنـاك. تآلفـت مـع صـوت النيـل عندمـا تقطعـه المراكـب مـن الجزيـرة إلى المدينـة، والصباحـات الحـارة الرائقـة بـين النخيل، والتكاسـل الفطـري للنـاس هنـاك، وأحبـت الانغـماس فيهـا لفـترة، حتـى تسـتعيد صداقتهـا مـع مصطفـى نفعـة. كان مـا قربهـما وقـت محنـة سـيف الديـن هـو التضامـن الواجـب الـذي ينشـأ مـن حيـاة مشـتركة طويلـة، ولكنـه كان خاليًـا مـن التضامـن الروحـي القديـم، وطريقتهـما الخاصـة في مناقشـة كل شيء حتـى الصبـاح، والوقـوف علـى أبعـاد موقـف بعينـه بالتحليـل المرهـق أحيانًـا.

في هـذه الأثنـاء، كانـت أمينـة الـرُّز تعيـد تجديـد شـقة المبتديـان للمـرة السـابعة خـلال عمرهـا الطويـل، حتـى قالـت ذات مـرة، علـى هـدي إدراك مفاجـئ: «لقـد نسـيت شـكل الشـقة القديـم.»

لم تغـير في شـكلها المعتمـد علـى كثـرة الأثـاث وتكويمـه في كل مـكان، مـع التحـف والبيانـو الضخـم، ولكنهـا كانـت تعيـد تنظيـف كل هـذه الأشـياء وإعـادة تلميعهـا لإكسـابها حيويـة الجديـد، مـع تجديدهـا لوضعيـة المقاعـد في الشرفـة. كان معاشـها لا يـكاد يكفـي لحياتهـا منـذ

تقاعدها بعد هبة مجلس الشعب، ولكنها كانت تعتمد على الخميرة التي تركها لها درويش عبد الغني في البنك، من عائدها الشهري، ومع شيء من التقتير المحمود الذي لا تشعر بوجوده؛ لأنها لم تحرم نفسها مما تحب.

كان أكثر ما شغل بالها في هذه الأيام هو علاقة بلا اسم، نشأت بلا أمل بينها وبين مهندس متقاعد، تخطى الخامسة والثمانين، اسمه حسن نشأت، أرمل منذ عشرين عامًا على الأقل، ويحيا وحده في شقة فسيحة تطل على نيل الزمالك.

كان أمرًا أقرب إلى الهزل ورطانة الروايات الرومانسية؛ فمع أن الرجل كان بصحة حديدية، تشبه صحة أمينة الرُّز، ويتعامل مع الناس بأريحية الثراء، ما يشعرهم بالألفة السريعة، كانت يداه ترتعشان احترامًا لسنه، وفي عينه اليسرى حركة متوترة خفيفة تهتز معها، وهي أمور عدَّتها أمينة الرُّز مكملة لصورة إعجابها هذا في الشيخوخة؛ لأن ملامحها كانت قد تغيرت كثيرًا منذ أزمنة مجلس الشعب المباركة، فصار أنفها أطول مثلًا على نحو تفشل معه محاولاتها الشخصية لنسبها إلى أنف العثمانيين الشهيرة، وبانت الغضون في وجهها رغم كل المحاولات، كما قصرت قامتها على نحو ملاحظ، حتى صار شادي لطفي يمر بجانبها عمدًا، كلما جاءها في زيارات الجُمَع التي لم تنقطع، ويتجه ناحية البيانو حتى يعزف عليه سوناتا لموتسارت أو لحنًا لإحدى أغاني فريد الأطرش الذي تعدُّه أكثر المغنيين رقيًّا وفنًّا، كسحه عبد الحليم وغيره بسبب ترفعه عن المنافسة.

ولأن شادي لطفي كان الأطول في أفراد عائلة الرُّز بشهادة أمينة الرُّز نفسها، التي قارنت بين طول قامته وطول قامة أبيها السيد رمضان، الذي كان صاحب طلة طويلة مقلقة؛ فقد كان يلاحظ

قصر قامة جدته كثيرًا، ويبتسم وهو يشير إليها بهدوء، ليضحك لطفي ويردد بعدها: «لو أن طول العمر يشتريه الإنسان من طوله فستصير ماما بقامة طفل في الخامسة والتسعين.»

كانت تقنع نفسها بالشبه المستمر بينها وبينها مارجريت تاتشر، وتتابع تغيرات شكلها كلما كبرت، وهي تتيقن أنها لم تفقد قدرتها على التألق في المملكة العجوز. عندما ماتت في ٢٠١٣، كما أخبرتها در الشهوار من قراءة سريعة لجرائد أجنبية، أُصيبت بمسحة كآبة واضحة، خاصة أنها كانت سنة وفاة حسين الرُّز، التي شعرت معها أن الموت يقترب أيضًا ممن اقتربوا من التسعين أو تخطوا الناحية الأخرى من الخوف من قصر العمر، ولكنها تجاوزت ذلك سريعًا بتركيز على صورها وطريقتها، ثم طلبت من حلمي درويش أن يشتري لها أهم كتابين عن المرأة الحديدية، ووضعت مقررًا جادًّا يوميًّا لقراءتهما كل يوم، حتى تتوصل إلى سر قوتها وما كانت تفعله في وقت فراغها بعد خروجها من الحكومة، وحتى وفاتها عن عمر مبارك: ثمانية وثمانين عامًا تقارب عمر حسين الرُّز نفسه.

لم تفهم مطلقًا كيف انجرت قليلًا إلى علاقتها مع حسن نشأت، ولكن انغماسها الكبير في حياة شلة الزمالك هذه دفعها إلى التخفف من أثقالها المعتادة، وانضمت إلى تجربة بلا ضفاف، تستعيد معها الحب كما لم تشعر به مع درويش عبد الغني.

بُعد المسافة الشديد بينها وبين قصتهما جعلها ترى درويش عبد الغني شخصية اعتبارية أحيانًا، تذكره على أنه ابن لتاجر بغال جاء بالخطأ في خارطة حبها وضيع قلبها إلى الأبد، وكانت ذاكرتها القوية، التي تتذكر ما تريد عند الغضب وحده، تحدد وقائع بعينها، تستطيع معها أن تتذكر ما حدث فيها تفصيلًا، وتلقي بعيدًا بحوادث سعيدة مثل سبوع در الشهوار، أو أول يوم دخول حلمي

ولطفي للمدرسة، أو سفرية لأبناء خالها في الإسكندرية، ضيَّفها فيها درويش عبد الغني على عشاء فاخر، وتغزل بأنفها الأرستقراطي وفضائلها كامرأة قوية، ورأت حسن نشأت عكس ذلك تمامًا.

كان يُذكِّرها بصورة غائمة من إعجابها الفاشل بأحمد محرز، الذي بحثت عنه بطريقتها الخاصة، ففُوجِئت أنه ظل أعزب حتى التسعينيات، ثم سافر وانقطعت أخباره فجأة، وبيع قصره لمقاول ناجح استطاع بناء برج سكني مكانه يصل إلى السماء السابعة. كان حسن نشأت يشبهه في تخنثه المتوارث من مدارس الإتيكيت، وابتسامته الهادئة، وإتقانه إعداد الطعام كهواية وليس كخدمة، مع ما آل إليه من شباب العربدة رغم زواجه، من إتقان الرقص مع الإمساك بكأس نبيذ أبيض، وفتح القمصان الكتانية حتى السرة، والاستماع للموسيقى صباحًا باعتبارها رياضة روحية.

خلال قصتهما هذه، التي لم تتعدَّ جلسات منعزلة عن الشلة، في شرفة شقته مثلًا المطلة على النيل، أو مقهى جرانيتا الحالم داخل كنيسة جميع القديسين في الزمالك، كان يشرح لها فيها كيف تغيرت الجزيرة، وكارثة افتتاح محال جديدة في حرم شارع ٢٦ يوليو، وآخر قصص بيته الريفي في الشيخ زايد، وعلاقة آخر عنقود لديه بفتاة فرنسية، وكان يتجاوز أحيانًا فيسب أبناءه الكبار المهاجرين كلهم بلا لياقة، ويؤكد أنهم صنعة أمهم، التي طلقها منذ عقد تقريبًا، لا يعرف أحدهم الحب، وكانت تحاول حينها استغلال الفرصة لتبث شجونها الخفية، وتذكر عملها المستمر بلا راحة منذ عقود طويلة، وحسدها لنساء الغرب لأنهن لا يتركن الحب إلا عند باب المشفى أو باب المقبرة، وتتباهى بصحتها الحديدية وقدرتها على تجاوز بحر الشيخوخة الراكد.

وصلا معًا إلى بر بلا اسم، لا يعد بشيء سوى فرحة أخيرة بعد

زمن طويل، ولكن إحدى سيدات الشلة -وكانت تشعر بالغيرة من هذا الحب المخالف للأرقام والحقائق، وترى تغنج أمينة الرُّز المتحفظ وقد تعدت الثمانين ضربًا من ضروب التشوه؛ لأنها كانت تصغرها بعشرة أعوام على الأقل- ذكرت في تعليق مسمم أن حسن نشأت كان على علاقة سرية بفتاة في عمر أبنائه، كانت تعمل عنده في المكتب، وكان يظهر معها في الحفلات الخاصة في الماريوت، وقدمها بلا قلق لسمو الملك فؤاد الثاني، الذي يأتي إلى البلاد بين الحين والآخر ليتفقد أطلال أسرته، ويحتفل مع مجموعة من العائشين على هذه الأطلال بذكرياتهم هذه.

استمعت أمينة الرُّز لهذا التعليق بهدوء، ثم صبت غضبها على رضا ليلتها، واتهمتها بالإهمال وذوقها الفلاحي في ترتيب مقتنيات الشقة، وطعامها الذي يقع فيه الشعر، ليس مثل طعام أمينة الرُّز النظيف، وهو ما هدد علاقتهما الهادئة طوال تلك الأعوام؛ إذ دخلت رضا المطبخ وبكت هناك بحرقة شديدة، ثم جمعت أغراضها صباحًا، وسارت في الصالة وهي تحمل حقيبة سامسونايت صغيرة باللون الأزرق، رأتها أمينة الرُّز فسألتها عن وجهتها، وكانت قد هدأت قليلًا بعد أن قلبت أحقادها في عشرة فناجين قهوة حتى الصباح، ثم تخلصت من الحب عندما اغتسلت وخرجت لتجلس في شرفتها، فقالت رضا:

- سأعود من حيث جئت يا ستي.

فقالت أمينة الرُّز بثقة:

- هذا كلام أفلام، وهذا بيتك وليس مسرحًا.

صالحتها بعدها بأن أعدت لها كيك برتقال وجزر بطريقة أبلة نظيرة، من كتابها الذي تحتفظ به أمينة الرُّز ويحمل إهداءً بخط يد أبلة نظيرة نفسها، وتحته أمنية بصداقة العمر الطويل من ألفت زين

الدين التي أهدت الكتاب نفسه إلى أمينة الرُّز في أزمنة البال الرائق والعزائم، وضيَّفتها بعدها على قهوة سادة كما تشربها أسرة الرُّز، ثم تبادلت معها حديثًا دافئًا عن العمر والسن، وبعدما تمادت قليلًا مع رضا، قالت لها بنبرة حادة: «إقامتك معي حتى تموت واحدة فينا.»

لم تشرح لأحد ما جرى لها مع حسن نشأت، ولفظته بسهولة من حياتها، وهي تؤنب نفسها على الوقوع في حب زير نساء ورجل عينه زائغة مثل درويش عبد الغني، لا يفتأ ينظر إلى الفتيات من سن بناته.

وانسلت بهدوء من شلة الزمالك بعدها، فلم تحتفظ بصداقتها إلا مع السيدة إيمان سدراكيان الأرمنية الأصل، وسيدة أخرى اسمها عديلة رضوان، كانت تمثل في السابق أفلامًا لا يذكرها أحد، وتظهر فيها بصورة السيدة الأرستقراطية التي ترتدي نظارات قراءة صغيرة، وتسأل عما جرى للزمن، انضمت إلى الشلة ذات يوم شتوي، في جلسة من جلساتهم، وكانت تحيا وحدها في شقة فسيحة بالزمالك، تطل على شارع شجرة الدر، وكن يتقابلن في صيدلية تملكها أسرة سدراكيان في وسط البلد، ما زالت تحتفظ بمكان جانبي يطل على الشارع من خلف الزجاج، مع أرفف لامعة للأدوية القديمة والتحضيرات والتجهيزات وكتابات المعلمين الإنجليز القدامى عن هذه الأدوية، فكن يتحدثن في مكانهن السري هذا، الذي كان مخصصًا لراحة السادة الصيادلة، ويشربن القهوة ويتناولن بسكوت النشادر، لتشعر معهما أمينة الرُّز أنها لم تفقد كثيرًا بفقدانها لحب حسن نشأت وطريقته المخنثة المؤدبة في الحديث، وتستعيد لياقتها سريعًا.

حلا لها لعب دور الاختفاء بعيدًا عن عينيه، وتلذذت بسؤاله

عنهـا مثـل فتـاة صغـيرة، وكانـت تـدرك، في أثنـاء ذلـك، لأول مـرة بتمهـل، في كشـف قـاسٍ، أنهـا كانـت سـترفض كل عـروض الحـب التـي كانـت سـتأتيها في شـبابها، إذا مـا أتاحـت لهـا الفرصـة، وأنهـا تتميـز بجفـاء وعنـاد حيوانيـين، يدفعانهـا إلى السـعادة وهـي تـرى مـن يحبهـا يتعـذب لأجلهـا، ولذلـك؛ لم ينفـع معهـا سـوى ابـن تاجـر بغـال، دخـل البيـت مـن بابـه، ولم يـترك لهـا فرصـة الحـب.

إدراكهـا المتأخـر سـتين عامًـا هـذا كان قويًّـا إلى الدرجـة التـي جعلتهـا تـدرك أنهـا عصيـة عـلى الحـب والأحـزان العاديـة أيضًـا، وأنهـا الأكثـر صلابـة في أبنائهـا رغـم كل شيء، ولذلـك؛ اكتسـبت كسـاءً خارجيًّـا جديـدًا عـلى تسـلطها القديـم، وتعاملـت باسـتحقاق أكـبر مـع الجميـع، وزاد الأمـر عندمـا وصلـت إليهـا معلومـة مؤكـدة مـن السـيدة إيـمان سـدراكيان بـأن مـا قيـل لهـا في حـق حسـن نشـأت لم يكـن دقيقًـا بالقـدر الـكافي، وأنـه كان مخدوعًـا مـن فتاتـه المذكـورة، وأنـه يبحـث عـن الحـب الحقيقـي منـذ انفصالـه عـن زوجتـه، وهـو مـا محتـه أمينـة الـرُّز بسـهولة، ثـم قالـت: «في سـننا هـذه، لا يُوجَـد حـب.»

يوم

٢٤

اندمج سيف الدين في حياته الجديدة، واستطاع أن ينسى ليلى المرنيسي ورائحة الخزامى والقرفة التي كانت تنبعث منها، وتأتيه في ليالي الحنين كذكرى عصية على الوقوف عليها، لا يتصور وجودها، عندما تعرف على فتاة أمريكية تدرس علوم البحار، وجاءت دهب خصوصًا لتعلم رياضة الغوص الحر، ثم استكمال دراستها في مركز لتعليم الغوص بدبي.

جذبته ابتسامتها في البداية، وطريقتها البسيطة في التعارف بلا قلق، ودخولها في كثير من الموضوعات بلا حدود، فارتاح معها سريعًا، وبدأ يسألها بشيء من التوتر عن ذكرياتها عن طفولة التسعينيات، فاكتشف أنها تحب أفلام «حديقة الديناصورات» و«حرب الكواكب» و«وحدي في المنزل» مثله، وأن تلك الأفلام كانت تسبب لها الألفة في ليالي الوحدة. لم يكن والداها منفصلين كما توقع بالنسبة إلى كل أسر أوروبا وأمريكا، ولكنها انفصلت عنهما منذ سن الخامسة عشرة، وعملت في سلسلة من المقاهي والمطاعم، حتى قررت الدراسة في الجامعة.

كانت ابتسامتها المرحبة وطباعها المرحة الواضحة سببًا في إذابة توتره الطبيعي ورغبته الشديدة في الانعزال والابتعاد عن كل شيء. تعلما الغوص معًا، وفُوجِئ بجديتها الشديدة في الدراسة، والتزامها بمواعيد التدريب صباحًا ومساءً، وبدأت علاقتهما بسهولة، بلا بداية واضحة، عندما ضيَّفها على العشاء، على الطريقة الأمريكية، في مطعم روسي يقدم حساء البورش، ولم ينتهِ الأمر إلا وقد أوصلها إلى بيتها الذي استأجرته في العصلة، واجتاحته خيالات الحب الحر، فابتعد قليلًا وهو يحتضنها، ولكنه أدرك ليلتها أنه لم يعد سيف الدين القديم، ابن مصر الجديدة والمنيرة وجاردن سيتي.

بـان تغـيره سريعًـا بقلـة عـدد زياراتـه للقاهـرة، التـي كانـت بمعـدل زيـارة شـهرية، يجالـس فيهـا در الشـهوار في شـقة مـصر الجديـدة، ويتأمل توهجهـا الجديـد، واهتمامهـا الواضـح بمصطفـى نفعـة، ثـم يـزور أمينـة الـرُّز، ويسـتمتع بأحاديثهـا التقليديـة عـن فسـاد الحيـاة وسـنه التـي تقـارب الثلاثـين مـن دون زواج، وشـعره المنكـوش الـذي يعطيـه منظـر فنـان بوهيمـي بـلا وجهـة، ولحيتـه غـير المشـذبة، وكل بقايـا ثـورة الندامـة كـما كانـت تـردد، وتعـرض عليـه حفيـدات زميلاتهـا، خاصـة السـيدة إيـمان سـدراكيان، التـي رأت أمينـة الـرُّز حفيدتهـا رائعـة الجـمال، عـلى حـد قولهـا، والتـي تنتمـي إلى أثريـاء مـصر الجديـدة.

وكان يتنـاول الطعـام معهـا بـلا تعليـق، ثـم يهاتـف شـادي لطفـي، ليتقابـلا في الشـقة نفسـها، يلعبـان عـلى البيانـو، أو يجلسـان عنـد مقهـى قريـب، وبعـد ذلـك، كان يسـير في الشـوارع القريبـة ليتأمـل التغـيرات غـير المتوقعـة التـي حدثـت فيهـا، والضـوء الـذي انسـحب منهـا تمامًـا، وكان يخلـص كل مـرة أن حياتـه القديمـة هـذه سـحرية وتلـوح بعيـدة إلى درجـة مشـكوك فيهـا، حتـى إنـه كان يضبـط نفسـه وقـد نـسي تمامًـا بعض الأحـداث، ولم يعـد يتذكـر سـوى سـفر ليـلى المرنيـسي بعدمـا جلسـا معًـا في مقهـى كوسـتا بالزمالـك، ولحظـة اعتقالـه التـي لا ينسـاها أبـدًا. بعـد ذلـك، صـارت زياراتـه مـرة كل شـهرين، ثـم مـرة كل أربعـة أشـهر.

عـاش مـع فتاتـه الأمريكيـة هـذه، التـي كان اسـمها ميرانـدا، قصة حب واقعيـة وبـلا أحـلام، ورغـم تحفظـه الفطـري، والتزامـه الدينـي الـذي انتقـل إليـه مـن مصطفـى نفعـة ودر الشـهوار، والـذي كان مريحًـا لأنـه يؤمـن بـكل شيء، ويبيـح الموسـيقى والفنـون مثـل كل أسرة علمانيـة مـن أسر مـصر الجديـدة، وهـو التـزام كان يقـترب مـن التمسـك الشـديد تـارة والابتعـاد عـن الفـروض تـارة أخـرى، دون الشـعور الممـض بالذنـب، مـارس الحـب مـع ميرانـدا في بيتهـا بالعصلـة، بعـد عشـاء خفيـف مـن المكرونـة التـي أعدهـا في المطبـخ، وكان منتبهًـا إلى أنـه يحيـا في مـا يشـبه

فيلمًا خاصًّا، يمر بكل مراحل الحب على الطريقة الأمريكية كما تعلمها من الأفلام. وكانت ممارسة ناجحة وخفيفة، شعر بعدها بالخفة الكافية ليخرج ويتعشى عشاءً لذيذًا من السمك عند درويش بالعصلة، ثم يمارس غوصة صباحية مبكرة، وينام بعدها كالأطفال حتى الصباح بلا منغصات.

استيقظ وقد مسه كدر خفيف نابع من ارتباطه بشخص آخر من جديد، ولم يمنع نفسه من مهاتفة ميراندا للإفطار، والخروج معها للغوص مجددًا. كانت واقعيتها تلجمه في كثير من الأحيان، فيقارن بينها وبين ليلى المرنيسي وهو يشعر بالذنب لذلك؛ لأنه يدرك اختلاف النشأة والفروق الثقافية. وكانت طبيعته الميالة إلى إثارة الأحزان أو الظهور بمظهر البطل المهزوم تطل بين الحين والآخر، لتقابلها ميراندا بفهم خفيف، وتمحوها بكلمات قوية تضع الأمور في نصابها.

كان يشعر من داخله أنه يتدرب معها على تناول مشاعره واقعيًّا، وهو ما عزز من تغيراته، فلاحظت در الشهوار ذلك عندما تقابلا في شقة المبتديان، وكانت قد جاءت لتوها من أسوان مع مصطفى نفعة لقضاء العيد الصغير، فسألته وقد لمحت لطخات يد امرأة في هذه القصة:

- من هي؟

فقال سيف الدين وقد أُخِذ بالاكتشاف:

- دهب يا ماما.

لم تفلح في استنطاقه، ولكنها أبدت أسفها مجددًا لتعطل مساره الأكاديمي، وأعطته مباركاتها بلا حماسة عندما جادلها في انتقالها إلى أسوان، وقال إن انتقاله إلى دهب للسبب نفسه؛ لأن ابتعاد الأطراف

عن المركز يبعد الإنسان عن منبع الخراء الأساسي.

كان يتابع أخبار أمينة حلمي مع ذلك، في دفعات فضول ممزوجة بالغيرة وشيء من الحنين؛ إذ كانت قد أنهت دراستها في لندن، وخاضت في مجال التمثيل المسرحي هناك. كانت الأخبار تصل عن طريق الدكتور حلمي درويش بأنها صارت تشبه فتيات أوروبا، ولم تعد له كلمة عليها. ومع أنه حديث شكوى، كان يردد ذلك بسعادة واضحة، وهو يعرض صورها التي ترسلها عن طريق واتساب، وكان سيف الدين ينظر إلى صورها هذه وهو يفكر أن قلبه ما زال يحمل مشاعر غير محددة لحبيبة طفولته وصباه.

عندما انفصل عن ميراندا بعد علاقتهما بستة أشهر، استعاد حنينه إلى أمينة حلمي، والغريب أنه لم يكن يتذكر ليلى المرنيسي إلا في ضوء من العتاب الدائم والقسوة في الحكم، مع أنها لم تفعل له شيئًا يُذكَر، ولكنه دمج بينها وبين صورة الثورة في ذهنه، ووضع أمينة حلمي في موضع بعيد، مبديًا إعجابه بعزوفها منذ البداية عن الأحداث، وترفعها الطبيعي الذي لازمها منذ طفولتها، وزاد منه أنفها الطويل الشامخ الذي ورثته من أمينة الرُّز.

كان انفصاله عن ميراندا لسبب واقعي آخر؛ فقد صارحته أنها تأخرت كثيرًا عن تدريباتها في مركز دبي للغوص، وتريد استكمال دراستها حتى تعود إلى ميامي، وتمارس هناك عملها الوحيد في مملكة هذا العالم: اكتشاف الشعب المرجانية وحمايتها من التلوث والانقراض. ولأنها كانت قد أحبته بالفعل، حاولت إقناعه بالسفر معها، وممارسة الغوص في ميامي التي تُوجَد بها مراكز غوص كثيرة، ولكنه كبح جماح قلبه وانجذابه الجسدي إليها، وتعامل مع القصة بواقعيته المستمدة من معاشرته لها، ورفض العرض لعدم استعداده النفسي له، خاصة بعد خروجه من مرحلة ارتباك كبيرة.

سيندم بعدها أكثر من مرة، عندما يأتيه زمن الشُّح مع كورونا، وإغلاق مراكز الغوص لفترة، ويدخل حينها في علاقات سريعة مع فتيات من أوروبا باحثًا عن جدية ميراندا ورغبتها في مساعدته على السفر.

في أسوان، تجاوزت در الشهوار أغلب مشكلاتها مع انغماسها في حياة البال الرائق والكسل العادي. كانت قد استأجرت بيتًا بطابقين في جزيرة ألفنتين؛ وذلك لقربها من المدينة، وجهزته على نحو يناسب الذوق النوبي العام، ووضعت صورها في كل مكان لترسخ حضورها، وخاصة الصور التي التقطها لها المصور اللبناني، وتركها مصطفى نفعة على راحتها كما يفعل دائمًا، منشغلًا بعملياته في مستشفى مجدي يعقوب الذي انتُدِب له. كانت تستقبله يوميًّا مثل زوجة شابة سعيدة، ترتدي جلابيب اشترتها من سوق أسوان، مطرزة بنقوش وورود، وأغلبها باللون الأسود، وتتناول معه الطعام في شرفة البيت البسيطة، وهما يتأملان الغروب عند جبل النبلاء القريب.

كانت تشعر أنها امتلكت حياتها أخيرًا، كما تصورتها على نحو غائم وقت شبابها، وتتآلف مع متن الخمسين البطيء والمقلق باعتباره بداية مرحلة جديدة من تقاعد مريح ومستحق. كانت تلك الأرقام تقلقها كلما اقتربت منها، وخاصة مع تعدد حالات وفيات في سنها وأصغر منها، بعد الثورة والأحداث الموترة، ومع ممارستها الرياضة، كانت تمني نفسها بصحة أفضل وعمر أطول، رغم إيمانها القويم بأن العمر لا يرتبط بالرياضة ولا الجسد الصحيح.

كانت تفتش عن التجاعيد بشيء من الهوس، وتستخدم منتجات مستوردة، بها حمض الهالورونيك أسيد، حتى تداري هذه التجاعيد كلما أمكن، وقد وصلت بها الحال إلى التفكير الجدي في عمل حقن

بوتوكس، حتى تداري خطوطًا خفيفة حول فمها وخطًّا طوليًّا فوق جبهتها، ولكنها توقفت عن فكرتها هذه عندما شعرت أنها ستنجرف إلى هاوية صديقات أمينة الرُّز المتصابيات اللاتي أجرين جميعًا عمليات تجميل وحقن أظهرتهن بمظهر مخيف لساحرات أعياد ميلاد، مثل أمينة الرُّز نفسها التي أخذت هذه المبادرة سابقًا، كما أخبرها حلمي درويش، من واقع خبرته مع أطباء التجميل، أن أغلب هذه العمليات تتم بمنتجات أقل من الخارج؛ لأن المنتجات الأفضل هي التي تدوم فترة، وتحتاج إلى متابعة بين الحين والآخر.

انهمكت في شراء كريمات الحماية، واستخدام الوصفات الطبيعية في النوبة، وتخضيب يديها بالحناء مع وضع الكحل يوميًّا. ومع الهدوء العام، وتخطيها الخمسين بلا صخب، ومرورها بالمحنة التي مرت بها بسلام، قالت لإحدى صديقاتها، التي زارتها في بيت أسوان هذا، لتتعرف على تحقيق هذا الحلم عن قرب: «السفر هو المُحسِّن الطبيعي للبشرة والمُصغِّر الحقيقي للسن، أما الخيار بالعسل فتتعشي بيهم.»

في النهاية، راق بالها تمامًا مع خفوت حياتها الاجتماعية، ونزلت إلى القرى المحيطة لتتعرف على الناس، وهاتفت حبوبة حتى تساعدها في معرفة تفاصيل المكان وطبيعة القرى هناك، فدلتها على الجزيرة التي تحيا فيها، رغم فتورها الواضح، ولكنها حذرتها من كلام عائلتها التي تقاطعها منذ أشهر.

أبدت أمينة الرُّز ضيقها بسبب ابتعاد در الشهوار هذا، والمرافق لابتعاد سيف الدين، وكانت تصرح بذلك في عزائم الجمعة التي خلت منها، فكان الدكتور لطفي درويش يردد: «والله عين العقل! الدكتور مجدي يعقوب اكتشف أن صحة القلب والعين في أسوان.» ثم قدم عرضًا مبسطًا عن فائدة الجو الحار والجاف للصحة العامة،

وذكـر قصـة عـن انتـداب لـه في أسـوان منـذ أعـوام، في بروتوكـول تعاون مـع مستشـفى القلـب هنـاك، وخـلال وقـت راحـة، قـرر السـير قليـلًا في شـوارع المدينـة -وكانـت هـذه القصـة في يوليـو- ففُوجِـئ بمقـدار الحـرارة المخيـف الـذي تتشـقق لـه الجـدران، وتخلـو فيـه الشـوارع تمامًـا، ليجلـس لاهثًـا فـوق أقـرب مقهـى، ويطلـب كوبًـا مـن الكركديـه وهـو يقـاوم رغبتـه المتزايـدة في النـوم، وهنـاك، اكتشـف حقيقـة أنـه صـار أكثـر حيويـة بعـد ضربـة الحـر هـذه؛ لأنهـا أشـعلت دورتـه الدمويـة.

كان يقـول هـذا ضاحـكًا، وهـو مـا يعطـي كلامـه بعـدًا سـاخرًا يشـعر معـه السـامعون أنـه يخلـط فيـه الهـزل بالجـد، تلقتـه أمينـة الـرُّز بـلا حماسـة، ثـم قالـت بحـدة: «تجـري در الشـهوار خلـف التقاليـع مـن زمـان.»

والحقيقـة أنهـا كانـت تشـعر بالغـيرة الخفيفة مـن طريقـة در الشـهوار في إدارة حياتهـا، وتغيـير دفتهـا بسـهولة، فكانـت تؤكـد أن تربيتهـا الناجحـة كأم وحيـدة -وقـد نحـت درويـش عبـد الغنـي مـن الصـورة- هـي مـا سـاعدت أبناءهـا عـلى الوصـول إلى أهدافهـم. ولأنهـا كانـت تـرى السـفر عـلى نحـو غائـم؛ كانـت تكتفـي بتعديـد فضائـل شـقة المبتديـان التـي آوتهـم جميعًـا مـع أن أحـدًا لم يشـكُ منهـا، ثـم تذكـر المسـاوئ الحاليـة لشـارع المبتديـان، والخـراء الـذي أصـاب حـي السـيدة زينـب، والزحـام اليومـي أمـام البنايـة بسـبب مبنـى عبـد الهـادي للضرائـب، الـذي كانـت أمينـة الـرُّز تطـل مـن الشرفـة يوميًّـا فـترى زحـام الممولـين والموظفـين الذيـن يقفـون أسـفل الحـرارة بالأمـس، يمسـكون بالملفـات فـوق رؤوسـهم للاحتـماء بهـا مـن الشـمس، فتشـعر بالكـدر، وتحتسـي قهوتهـا وهـي تشـاهد عالمهـا القديـم وهـو ينهـار وتتذكـر محـلات عبـد الهـادي الحلـواني الـذي افتتـح العـمارة بنفسـه في يـوم حـار ومبـارك.

فكـرت في هـذه الآونـة في الانتقـال إلى شـقة الدقـي التـي أُغلِقـت منـذ

خروج سيف الدين من المعتقل؛ حتى تعدها لاستقبال صديقتي الصيدلية، وهاتفت در الشهوار في الأمر، فأخبرتها أنها تحتاج إلى بعض التجهيزات؛ لأن سيف الدين كان قد عدَّها شقته الخاصة في القاهرة، وعندما ذهبت أول يوم بصحبة رضا، ورأت وضع الشقة المليئة بالكتب والمعتمة لأنها داخلية، في بناية كبيرة قرب ميدان المساحة، لم تستسِغ المكوث فيها لساعات حتى، وأغلقتها وقد محت إلى الأبد فكرة تركها شقة المبتديان، مرتاحة إلى فكرة أنه لا مكان لها في هذا العالم سوى هذه الشقة.

كانت زوبعة في فنجان، أحبت أن تثبت فيها لنفسها أن الانتقال السهل لدر الشهوار ليس ناجحًا مطلقًا، وأنه يؤدي إلى عدم الاستقرار، لتعيد الثقة في قرارات حياتها التي اتخذتها بثقة في أزمنة أخرى. كان اهتمام صديقتيها بعمليات التجميل، وقصص الحب التي خاضتا فيها بلا قلق، تعزز من شعورها الأزلي بأن شيئًا ما قد فاتها.

تعاملت بعنف مع حالات التغير التي تطرأ على البناية، وقررت تكوين اتحاد ملاك سريع من بقايا سكان البناية الذين صمدوا مثلها.

لم يكن ثمة إلا اثنان من الذين سكنوا في أوقات لاحقة على حياتها في البناية -لأنها وُلِدت في الشقة نفسها، وعُدَّ منذ السبعينات، عندما مات من مات وهاجر من هاجر، أقدم من سكن المكان- وهما الأستاذ محرم عباس، وهو رجل غامض ومائل إلى العزلة، كان يعمل في منصب حكومي مهم ومجهول، ولكنه أكسبه حدة في النظر ووجهًا جرانيتيًّا وسمت لواءات يعامل به الجميع؛ كان يُمشِّي أسرته على العجين، حتى ماتت زوجته في الثمانينيات، وتزوجت بناته وتركن له الشقة في بداية التسعينيات، وخلق عادات تخصه

في عزلته الطويلة، بدأت بسبت للغسيل ينزل في أوقات معينة حتى يُوضَع فيه اللبن أو ما يجود به باعة الشارع، الذين يعاملهم بجدية مبالغ فيها، ويتجاوز أحيانًا في حقهم بالسباب والتعليمات، وهو ما جعل أمينة الرُّز، التي لاحظت شطحاته هذه بعد الشيخوخة والتقاعد، وتخطيه الثمانين مثلها، تفكر أنه كان لواءً في المخابرات الحربية، ولم تستطع قط سبر أغواره مع أنه أقدم من استمروا معها في البناية نفسها، وكان يبدي ضيقه مثلها من رائحة القمامة الطافحة على باب البناية في أيام الحرارة، واتساخ السلالم التي لا تنظفها الخادمات المتعاقبات بجدية.

وكان الآخر هو الأستاذ وجيه عزيز، وهو طبيب مسيحي قديم، كان يعمل منذ أيام مرضعة قلاوون في النساء والتوليد، وقيل -ما لا ينفيه أحد- إنه ساعد في ميلاد أبناء عبد الناصر كلهم، وقد تخطى التسعين بابتسامة باهرة، ووجه أبيض مدور يشبه وجه الأديب يحيى حقي، وصار يحيا وحده، مثل الأستاذ محرم عباس، وكان كلاهما يحترم أمينة الرُّز؛ لأنها كانت تبتسم لهما بأدب كل يوم، عندما تلمح أي واحد منهما، كما ضُبِطت بأفعال كريمة مثل هدية علبة كحك أو بسكوت في المناسبات.

بينما كانت بقية البناية من ورثة متصارعين حول التركة، بدؤوا يؤجرون الشقق لغرباء، فسكنت أسفلها أسرة من رجل وزوجته، تخطيا الأربعين، ومعهما أورطة من الأطفال المختلفي الأعمار، أثاروا ضجة يومية وأزمة سير بوقوف حافلة المدرسة لهم أسفل البناية، وهو ما كان يزعج أمينة الرُّز في خروجاتها، فتعاملت بنفوذها معهم، وشُوهِدت وهي تتحدث بعصبية عمن ضيعوا العمارة. وكلمة من هنا على كلمة من هناك، غادرت الأسرة وقد صاحبت أمينة الرُّز اللعنة، بينما سكنت أسرتان من حديثي الزواج الشقتين الأخريين، وأبدتا قلقًا طبيعيًّا من السكان القدامى، ثم أُخلِيَت شقة

منهـا لتنضـم إلى بقيـة الشـقق وتصـير مخازن لـشركات بيـع ملابـس في السـيدة زينـب، تديرهـا فتيـات حزينـات الأعـين، تـشرف عليهـن امـرأة قويـة ولسـانها فالـت، كانـت تـرى أمينـة الـرُّز وهـي تصعـد الدرجـات مجاهـدة الضعـف الـذي يقـترب منهـا فـتردد:

- منورة يا هانم. ربنا يديكِ الصحة.

فكانت أمينة الرُّز تتجاهلها، وتكتفي بهز رأسها، ثم تقول لرضا:

- امرأة لا عندها ذوق ولا أخلاق، ناقص تقول لي يا حاجة.

كانـت فكرتهـا بائسـة لإنشـاء اتحـاد سـكان؛ فالدكتـور وجيـه عزيـز لم يبـدِ تفاعـلًا حقيقيًّـا وهـو جالـس في شـقة أمينـة الـرُّز، وإنـما كان يتحدث بلسـان متثاقـل عـن العفونـة التـي صـارت عالقـة في جـو السـيدة زينـب، والحـرارة المرتفعـة غـير المنطقيـة، بينـما انهمـك الأسـتاذ محرم عبـاس في الشـكوى المريـرة ممـا جـرى للعـمارة، والسـطح الـذي صـار مليئًـا بالكراكيـب وبقايـا الكاوتشـوك ومرتعًـا للقطـط. ولم تسـتطع أمينـة الـرُّز التوصـل إلى شيء معهـما؛ لأنهـا لم تجـد مـا يمكـن أن يدافـع عـن العـمارة كفايـة أمـام الورثـة وورثـة الورثـة الذيـن شـغلوا الأماكـن بمحـال توفـر لهـم المـال.

ظـل الوضـع عـلى مـا هـو عليـه، وانزعجـت مـن الأسـتاذ محرم عباس الـذي داوم عـلى زيارتهـا كل يومـين؛ حتـى يـشرح لهـا مشـكلة مجاريـر طافحـة وتؤثـر عـلى الطابـق الأخـير، أو رائحـة بسـكوت تنبعـث مـن بـاب في الطابـق الثالـث، فمحـت أمينـة الـرُّز كل أوهـام التعـاون مـن أجـل مواجهـة الموجـة هـذه بعزوفهـا عـن تلقـي زياراتـه، وشـغل نفسـها بالخـروج مـع صديقتيهـا، وحمايـة حـرم شـقتها مـن أول السـلالم التـي تـؤدي إليهـا مـن فـوق أو تحـت، بتنظيفهـا المسـتمر، ووضـع أصـص زرع خفيفـة بجانـب البـاب، تعلـن عـن اختلافهـا عـن بقيـة السـكان النَّـوَر.

عندما مات الأستاذ محرم عباس نفسه فجأة، وعرفت بذلك من الحركة المفاجئة على سلالم العمارة، وحضور بناته اللاتي تجاوزن الخمسين، وظهور عدد من العربات، شعرت بوطأة الذنب الخفيفة، وأدركت على هدي إضاءة كاشفة أنه كان يحاول تسلية وقت شيخوخته الراكد بزياراته هذه؛ لأنه كان يتحدث، في منتصف كلامه المفصل عن مثالب شاغلي شقق العمارة الجدد من التجار، عن أغنية لعبد الحليم مثلًا، يا سلام لو استمعوا لها، وهو يتذوق البسكوت النشادر الذي تشتريه أمينة الرُّز بانتظام من قويدر، أو مدى جمال الشرفة.

ووضعها هذا الاكتشاف أمام الحقيقة التي تهرب منها دائمًا: خوفها المستمر من تسولها الزيارات والأحاديث من أحد، ولذلك؛ كانت تكرس معزة خاصة لشادي لطفي الذي كان يأتيها بصفة شبه يومية، ويعزف على البيانو أمامها، ضمن ممارسته للموسيقى، وكان حضوره الهادئ والباعث على الراحة يسعدها، لتندمج فجأة في مشاعر جدة وحيدة بلا عزاء، فتعد له صينية بطاطس بالطريقة الخاصة، بعد نقع ثمار البطاطس في الماء لساعات حتى تفقد النشاء وتصير مرملة، وتقدمها له مبتسمة، ثم تتجاوز جمودها وصلابتها التاريخيين، وحفاظها على صورتها كهانم قوية لا تهمد، فتدعوا له بصوت طيب.

كان شادي لطفي هو الوحيد الذي يلاحظ طيبتها المفاجئة هذه، وهشاشتها التي تحاول مداراتها بانهماكها في الحياة، واهتمامها بمظهرها، والمكياج الذي تضعه على وجهها، وكان يداعب هذه الهشاشة بالموسيقى التي يعزفها في أوقات فراغه، بعد امتهانه الكتابة السينمائية. ولأنه كان مهيأ جيدًا لعزف موسيقى بإتقان يقارب المقطوعة الأصلية، بسبب استمراره في المجال بدلًا من سيف الدين

الذي نسي الموسيقى مع الوقت؛ كان يُجوِّد من خياله الحر، ويضيف لمسات بعينها، كانت تعجب أمينة الرُّز، وترسم لها طرقًا في خيالها، فيرق حالها ويطيب مزاجها قليلًا، لتُعِدَّ وجبة بنفسها، ثم تتناولها مع شادي لطفي في الشرفة وهي تشكو إليه انشغال أبيه وعمه، وابتعاد عمته عنها في أسوان، وعقوق سيف الدين الفاتر، فكان شادي لطفي يستمع لها مبتسمًا، ثم يردد: «لا غنى لهم عنكِ يا تيتا.»

والحقيقة أن أمينة الرُّز فقدت الإحساس بالعمر وحركته منذ تخطيها الخامسة والثمانين، التي احتفلوا بها بعيد ميلاد خفيف، أشرفت عليه در الشهوار، ووضعت لها صورتها المميزة، التي تحبها، وتحتفظ بها داخل إطار خشبي، وهي تستند إلى سور بالإسكندرية في الستينيات، في منتصف التورتة، واستقبلتها أمينة الرُّز بوجه مكدر، وكانت تقف على كل شيء بالنقد وهي منزعجة، انتقدت التورتة نفسها مثلًا، وقالت إنها غارقة في الشوكولاتة، ولم يعجبها خلاء أسرتها من أبناء الأحفاد، فانتقدت عزوف أحفادها عن الزواج، واختفاء أمينة حلمي من الصورة، حتى إنها عاتبتها في اتصال بالفيديو عن طريق فيسبوك، بمساعدة شادي لطفي، وقالت لها وهي تتأمل مظهرها الآخذ في التغير، وطريقة حديثها التي تدمج العربي بالإنجليزي:

- ارجعي وسأزوجك بحفيد كبار رجالات البلد.

فردت عليها أمينة حلمي بسخرية:

- مامي، لا أريد سوى ويجز.

فسألت أمينة الرُّز بعصبية:

- ما معنى هذه الكلمة؟

فضحكت أمينة حلمي، وقال شادي لطفي مفسرًا وهو يكتم ضحكه:

- مغنٍّ يا تيتا.

فعلقت أمينة الرُّز:

- لا تعودي يا أمينة!

توجهت في هذا الحفل إلى ندى حلمي بالحديث، وكانت قد وصلت إلى المراهقة لتوها، وعازفة تمامًا عن الجميع، فقالت لها:

- تزوجي مبكرًا يا ندى؛ لعلك تنصفينني بعيدًا عن أبناء الجحود والعناد هؤلاء.

لم تكن تدرك أنها تتحول إلى أسطورة حقيقية بسبب عمرها الطويل هذا، وعصبيتها الآخذة في الازدياد، ونقدها لكل شيء، فصار الكلام يُقال من خلف ظهرها خوفًا على مشاعرها، وتُنتقَد بسخرية وجرأة من لطفي مع تواطؤ من حلمي، اللذين كانا قد وصلا إلى حواف الستينيات، ويشعران بمعجزة أمهما الجرانيتية هذه، وذهنها المتقد، وتمسكها بالحياة، أو تدخن در الشهوار السجائر أمام بصرها دون اهتمام بتعليقاتها الحادة، وعزز من ذلك ابتعادها عن الخروج المستمر، لتصير مقابلاتها مع صديقتي الصيدلية؛ إيمان سدراكيان وعديلة رضوان، كل شهر بدلًا من كل أسبوع، عن طريق التاكسي، بدلًا من المرسيدس التي يبدلون عليها السائقين كل مرتين، حتى تتأمل وهج عراقة مظهرها على سائقي التاكسي، كما اعتادت، وتسمع أحدهم وهو يقول لها بحماسة: «حضرتك من الهوانم الحقيقين بتوع زمان.»

يوم

٢٥

لم يكن سيف الدين يلاحظ تغيرات جدته هذه، ولا ما يجري مع در الشهوار في مرحلة إعادة التفكير في كل شيء. كان قد تمرغ في حياة مدرب الغوص، يعمل اليوم بيومه، ويمارس الحب مع كل فتاة أجنبية تسنح له كفرصة، معتمدًا على لباقته في الحديث ومظهره الرياضي الجديد، مبتعدًا كل مرة عن شخصيته القديمة، ينهل من الحب الحر غير الملتزم بالقيود، ويرى وجوهًا مختلفة لميراندا أيامه الأولى في دهب، بلا اختلافات كثيرة، حتى رضي مع الوقت أن يكون تجربة ضمن برنامج السعادة في مدينة ساحلية.



أكسبه هذا حسًّا عميقًا بالحياة، ودفعة أنانية لم يكن يدرك بوجودها مطلقًا، ولو أنه وضعها تحت لافتة الاهتمام بالنفس. كان يمارس الرياضة يوميًّا لساعتين صباحًا، ثم يفطر بتمهل عند الجرمان بيكري، وبعدها، يذهب لممارسة السباحة قليلًا، ثم يعد العدة لغوص مع مجموعة من الأجانب، أو فتاة وحيدة كما كان يفضل دائمًا.

أتقن مع الوقت قدرته على اللعب بالكلمات، وإبهار من أمامه بحكايات ينتقيها بعناية من قصته، عن تغييره لمسار حياته، وابتعاده عن مدينة النحس إلى جنة الله في الأرض، وكفره بالسياسة بعد الحكم العسكري القاسي، ويستعرض خيباته بحياد علمي، ليثير

تعاطف أغلب من يمارس الغوص معهن وشغفهن، وبعدها، كان يمارس سحره الخاص في الحديث عن فضاء البحر الذي هو صورة مصغرة من فضاء الكون، وطريقة حياة الكائنات فيه، وقصص السفن الغارقة، ومنطقة قبر البنت في دهب، الشهيرة بجذبها الغواصين إلى مسافة بعيدة؛ إذ يصيبهم العمق الأزرق المتوهج بضوء الشمس بسكرة تدفعهم إلى النزول بارتياح أكبر، حتى يغرق.

كانت هذه الحكايات تثيره على المستوى الشخصي، ويجد فيها متسعًا لعزلته الخاصة، ومناسبة لشخصيته الجديدة وحياته في شقة صغيرة مطلية باللون الأبيض، مع نوافذ وأبواب باللون الأزرق، مثل شقة في خياله على جزيرة إيثاكا التي عرفها بالاسم نفسه من قصيدة لكفافيس، وعلّق صورة منها فوق حائط، خالية إلا من فراش حجري، طلب من بنّاء جاد صنعه بنفسه، وبعض زجاجات النبيذ الصغيرة التي يضعها مثل أفرع شجرة تبشر بجنة موعودة من الحب والبال الرائق، ومطبخ أمريكاني يُعِدُّ فيه أطباقًا بحرية. كان يكتشف الجبال القريبة، والوديان ذات الأسماء الغريبة، والشواطئ المهجورة التي لا يطؤها أحد، فيكتشف لذة الحياة بعيدًا عن الخراء القديم، ويكتفي بملابس خفيفة، أو يسير عاري الجذع، لتملحه الشمس وتكسبه مظهرًا لاتينيًّا موترًا، ثم يبحث عن كلمات تصف ما يريده: اكتشف جماليات الشعر وقتها، وحاول كتابته بالإنجليزية والعربية، وتذوق النثر منه، ليكتسب العادة الحميدة من وصف ما وراء المشاهد بالكلمات.

كان يصف القمر الكامل في ليالي الوحدة الأشد وطأة، ومهابة البحر عندما يصير باللون الأسود، مع نفحة من سيمفونية بيتهوفن السابعة، والظلال التي تمرح في عقله عندما يجلس في كامب المارين جاردن، ويراقب ألعاب الضوء فوق أبواب الغرف المغلقة، وشوارع المدينة الخالية عند هبّات الجو والعواصف الصغيرة، والجسد الذهبي

لفتاة أقام معها علاقة سريعة، مع وصف دقيق لشعرها المنتصب وقت الحب، فوجد ملاذًا في أشعاره هذه، وشعر أنه اقترب من لُب شخصيته التي كانت تراقب كل شيء طفلًا، قبل أن يخرج من مرحلة المراقبة إلى الفعل، ثم يعود إلى المراقبة مرة أخرى، كما كان يحلو له عند وصف أيامه في دهب، فيقول على طريقة الشعراء: «أيام المراقبة والاختلاء.»

كانت سعادته تأتي من أبسط الأشياء رغم وحدته هذه، ورغم دفعات الخواء التي كانت تضربه فجأة عندما تحرقه الشمس بعد رحلة غوص موفقة. لم يكن ينتبه أنه يعتمد على دائرة مذهلة من التكرار إلا عندما كانت أخبار القاهرة والعائلة تصله بكل ما يجري فيها، وكان يستمع لها بلا إحساس محدد، وقد فقد بوصلة مشاعره وصار محصنًا ضد الحنين إلى الأسرة وحب العائلة والقلق على وضع البلاد.

عندما زار شقة مصر الجديدة خلال تجديده بطاقته، ورأى مقتنيات غرفته القديمة وصوره وهو يقف منزويًا في زواياها جميعًا، لم يشعر بشيء بعينه أيضًا. أسعدته حصانته الجديدة هذه، وكتب عنها قصيدة يصف فيها جليد المشاعر الذي يحمي من الخذلان والخسارات، وأكسبه هذا التحصين لمحة ساخرة من كل شيء، فكان يمازح أمينة الرُّز بشأن أمور تذكرها أو تفعلها وهو يتأملها كتحفة قديمة، أو يسخر من تعبيرات الأنثروبولوجيا التي تكررها در الشهوار، بين الحين والآخر، عن طبيعة الناس في أسوان، والحرارة المرتفعة التي تدفعهم إلى الكسل والبال الرائق والنظر إلى الحياة بلا اهتمام حقيقي، فكان يقول مثلًا: «هكذا زي بيبول أوف دهب؛ يُكسِبنا البحر والصحراء عزلة فلا نتابع ما يجري في العالم.» ثم يضيف: «بسيطة ولا تحتاج إلى رطانة الـAUC.»

حتى صار أكثر شبهًا بلطفي درويش وهو يراقب كل شيء بنظرة ساخرة. ولم ينكسر غطاء الحماية ذلك إلا عندما استمع إلى مقطع من أغنية «ثورة الشك»، ينبعث من كاسيت تاكسي، فاستعاد حبه لليالي المدينة الملوثة بالضوء النيون، والضياع في الشوارع نفسها، ورحلاته بين المبتديان ومصر الجديدة، فعرج قرب ميدان الجامع، وهناك، اكتشف أنه افتقد كل الأشياء التي تميز المكان.

سافر بعدها سريعًا حتى لا يعود إلى سيرته القديمة، ويحافظ على ما توصل إليه، وفُوجِئ من لا مبالاته وجفائه العاطفي عندما أقام علاقة سريعة مع فتاة إنجليزية من ويلز، تعمل ممرضة في مشفى في ليفربول، وشرحت له جماليات الحياة هناك، والفروق بين بحر ليفربول وبحر سيناء، واللون الأزرق المميز لكل شيء وقت الغروب، وقصت عليه قصص هوس عائلتها بالكرة هناك، وصور محمد صلاح التي يعلقونها داخل البيت. كانت علاقة سريعة وسهلة، ولكنه فُوجِئ بتعلق الفتاة العاطفي به بعد ممارستهما الأولى للحب، وهو ما ذكَّره بنفحات من نسخته القديمة، عندما وقع في حب أمينة حلمي لعقد كامل مر فيه بما مر.

تعلقت به، وكانت تظهر له في كل مكان، وتعرض المشاركة في جميع رحلاته، مع دفعها ثمن المشاركة. ولم يعترض في البداية، وهو يفتش عن مشاعره أسفل طبقات البلادة، فصارا يُشاهَدان معًا يوميًّا في الصالة الرياضية التي تعلو الجرمان بيكري، وعند شاطئ اللايت هاوس، وفي مطعم درويش للأسماك بعد فراغهما من الغوص والسباحة، وكانت تبيت معه يوميًّا، تقرأ معه الشعر الذي يكتبه، وتناقشه مناقشة العارفين في الصور التي يضعها، والرمزية خلف قطعة معينة، وكان يستفيض معها في الحديث، تحت أثر الحب، فيخبرها أنه يفضل الشعراء غير المشاهير من بلاد غير معروفة، ومنهم شاعر صربي، اكتشفه بالمصادفة من خلال علاقته

بفتاة صربية، كان أنفها طويلًا وشديد الشبه بمنقار نقار الخشب.

وكانت تغار من حكاياته تلك، وتعلن ضيقها بطفولية، فيصالحها بقبلات متمرس، ويُعِدُّ لها وجبة بحرية ومكرونة بالطماطم المجففة أو الشيري، لتسقط في حبه أكثر. كان يراقب نفسه، كأنه يمثل دورًا في فيلم بلا جماهير، ويحسب خطواته بعناية، ويسمح لنفسه بالاستمتاع بجسدها الجميل، الذي يزداد بهاءً عندما ترتدي زي الغوص، ثم تربط شعرها على هيئة ذيل حصان، ليلمع أسفل الشمس مثل خيوط الذهب، ثم يقرأ قصيدة من قصائد الشاعر الصربي ألكساندر رستوفتش، منها قصيدة قلب كعكة الزنجبيل مثلًا ويردد:

«في أثناءِ قراءةِ هوميروس
يتساقطُ الثلجُ
وأنا أقرأُ هومير ...
في الخارجِ
ثمةَ امرأةٌ انحنتْ
والتقطتْ شيئًا
منْ بينِ الثلجِ،
كانَ قطعةً منَ الذهبِ،
وعبرَ النافذةِ المطلةِ على الشارعِ،
أستطيعُ أن أرى الأبطالَ
والعذارى اللواتي وسَمهنَّ
الثلجُ بالفرحةِ،
وآخرينَ منْ فتيانٍ مثارينَ

وهلمَّ جرًّا.
مصباحٌ صغيرٌ
يضيءُ وجهي
مصباحٌ صغيرٌ
منْ وقتٍ لآخرَ،
لا تتظاهرْ
بأنَّكَ لا تراني،
إني هنا
وفوقي، يكشفُ الضوءُ قلقي
على نحوٍ متضاعفٍ.»

كتب عنها قصيدة شعر، وجد بعدها مثيلًا لها في أشعار جيمس جويس، الذي اكتشف بالمصادفة أنه يكتب الشعر بإتقان كتابته لفن الرواية، وصف فيها لمعان الشمس الصغيرة أسفل الشمس الكبيرة، وبينهما فضاء من الاحتمالات والخوف والتوق.

لم تستمر العلاقة طويلًا؛ فقد دعت أهلها من ويلز لزيارة دهب، وجلسوا جميعًا في بار اسمه تشرشل، قريب من مكان غوصهما، وشعر سيف الدين بمحاصرة أهلها العاطفية الدافئة التي هددت الثلج المتراكم داخله، فأظهر لا مبالاة واضحة، وهو يشرح لهم طبيعة دهب، وكيف نشأت في البداية كمدينة بدو، ثم امتلأت بالإسرائيليين بعد نكسة ٦٧، واتخذوها كشاطئ منعزل مناسب للهيبيين منهم، قبل أن يزوروها للسياحة بعد حرب ٧٣ واتفاقية السلام، وظلت أعدادهم فيها كبيرة حتى نهاية الثمانينيات، قبل أن يظهر العنصر المصري المحلي وتصير مدينة ذات طابع خاص.

كان يتحدث بالصوت المعدني لمرشد سياحي، وهو ما ضايق الفتاة الإنجليزية، فتشاجرت معه في المساء، واحتدم الخلاف بينهما عندما رفضت أمها أن يُضيِّفهم على رحلة غوص، وقررت أن تدفع له مقدمًا، وهي تتحدث على نحو عملي، واعترفت له -وسط ذلك- أنها تحبه، ويمكن أن تحيا معه في دهب، وتساعده على افتتاح مركز خاص للغوص كما يحلم، ويقضيا حياتهما بين البحر والشعر والجبال والرمال. محا كل تطلعاتها هذه بسهولة عندما قال بثقة: «هذه الحياة تنفع قصيدة فقط؛ الواقع فاتورة كهرباء.»

وضح لها الفارق بين المنطق وبين الانفعال، وأكد أنها لن تستطيع البقاء طويلًا في مدينة بسيطة، بلا خدمات، وهي تعمل في مدينة مثل ليفربول، ثم رسم خط علاقتهما بمنطق بارد، ليصل في النهاية أنها ستتركه عاجلًا أم آجلًا؛ لأنه لن يستطيع تغيير حياته بلا خطة. انهارت الفتاة الإنجليزية دفعة واحدة، وغادرت البيت وهي تسبه وترطن بلهجة محلية لم يفهم نصفها، ومع حرارة حبها التي قلبت طاولات البيت وأسقطت دواوين شعره، وصور نيرودا ولوركا وسيلفيا بلاث وسركون بولص، جلس بعدها وهو يشعر بأثر سخونتها في وجهه، وبتأثير مؤنب من ضميره جاءه من أسفل معدته، وانتقل حتى منابع التنفس، ودفعه إلى الوقوف أمام المرآة ليرى نفسه مسخًا بعينين حمراوين وأنياب طويلة، يشتعل بالنار بينما فجوة سوداء موضع قلبه.

تجاوز هذه الحالة خلال يومين، عندما انهمك في رحلات غوص تقارب عمق العشرين مترًا، وأدى واجبات يومه كأن شيئًا لم يكن، حتى صارت ذكرى مثل بقية فتياته الحزينات، وقال بعدها وهو يصف ما جرى: «عرفت أن الحب يبدأ بشعلة؛ ما دام لم يغادر الأسفل إلى الأعلى كان من السهل إطفاؤه.»

ثـم تمَّـم عـلى إطفـاء شـكوكه تمامًـا عندمـا أرسـل إليهـا قصيـدة جيمس جويـس إياهـا عـلى الواتسـاب متبوعـة باعتـذار لأنـه كلـب بـلا مشـاعر، ويعـدُّ مـا جـرى لهـا وداعًـا قويًّـا لأيـام صباهـا والحـب العـذري، وكان مكتوبًـا فيهـا:

«قولي وداعًا، وداعًا، وداعًا

قولي وداعًا لأيامِ الصِّبا،

الحبُّ السعيدُ يأتي مغازلًا

إيَّاكِ، مغازلًا بصبيانيةٍ

وشاحَكِ الذي زيَّنَكِ،

وعقيصةَ شعرِكِ الأصفرِ.

عندما تسمعين اسمَهُ

عبرَ نفيرِ الملائكةِ

اكشفي لهُ برقَّةٍ

صدرَكِ الناعمَ

وبرقَّةٍ، فكِّي عقيصتَكِ

شارةَ العذريَّة.»

عـلى عكسـه تمامًـا، كانـت در الشـهوار تكتشـف الحـب مـع مصطفـى نفعـة عـلى مهـل، وبطفوليـة أجبرتـه عليهـا، رغـم عاداتـه اليوميـة التـي تغـيرت كثـيرًا. كان يميـل إلى النـوم وتنـاول الطعـام الدسـم في أوقـات الراحـة، ويبتعـد عـن الخـروج إلى الشـمس لأنـه لم يحتمل قوتها في أسـوان، ويكتفـي بمشـاهدة آخـر الأخبـار، أو فيلـم أجنبـي يُعـرَض عـلى إحـدى قنـوات الهوائـي. كانـت در الشـهوار، تقـضي الوقـت نفسـه في زيـارة معارفهـا الجـدد في النوبـة، والتعـرف عـن قـرب عـلى طريقـة حياتهـم،

مـع صداقـات خفيفـة بطالبـي عزلـة مثلهـا، عاشـوا في المدينـة منـذ عقـود، ويعرفـون جميعًـا قصـة الأغـا خـان الـذي تـرك كل شيء ليحيـا فيهـا ثـم دُفِـن بهـا مـع حبيبتـه، ثـم تعـود وقـد تـوردت بشرتهـا التـي لفحتهـا الشـمس، وازدادت اسـمرارًا، لتتنـاول العشـاء مـع مصطفـى نفعـة، وتسـأله عـما يجـري في المستشـفى.

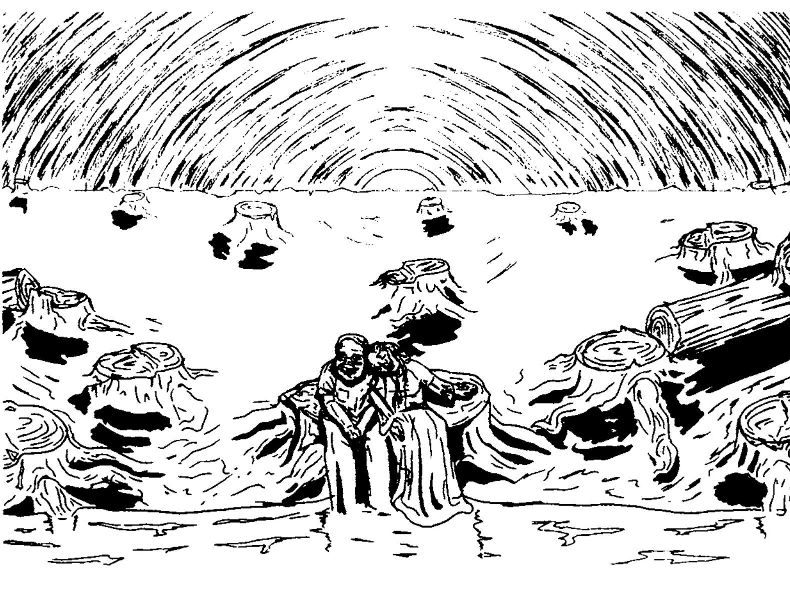
دفعتـه دفعًـا، بعـد سـبعة أشـهر مـن المكـوث هنـاك، إلى مشـاركتها رحلاتهـا هـذه، والتعـرف عـلى المدينـة مـن منظورهـا الخـاص. تزحلقـا معًـا عـلى غـرود جبـل النبـلاء، ومارسـا التجديـف بالكايـاك في نيـل أسـوان ونيـل السـد العـالي، وكانـت لياقتـه تمنعـه أحيانًـا مـن الاسـتمتاع بالكامـل، لتُذكِّـره بأيـام سـفرهما الأولى، وعلاقتهـما التـي نشـأت في السـفر. كانـت تحـاول الإمسـاك بحالتهـما القديمـة هـذه، وقـد نجحـت إلى حـد مـا، فاسـتعادا الوئـام القديـم بسـهولة، وصـار سـيف الديـن عـلى حافـة الحديـث بينهـما، ولم يعـد هـو إلى القاهـرة لزيـارة أقاربـه في نفعـة أو أسرة الـرُّز إلا نـادرًا؛ إذ لاحـظ تحسـن طريقـة تنفسـه ولياقتـه الذهنيـة، فقـال بجديـة لـدر الشـهوار ذات يـوم: «لم يختَـر الدكتـور مجـدي يعقـوب هـذا المـكان عبثًـا.»

كانـت در الشـهوار تكتشـف ابتعادهـا عـن المدينـة في كل مـرة تعـود فيهـا إلى الزيـارة، وكانـت تراقـب مـا يجـري في الحيـاة العامـة بـلا اهتـمام يُذكَـر. ولأنهـا لم تجـد مـا يكفـي مـن الطاقـة لزيـارة حبوبـة، والاطمئنـان عـلى مطعـم «دريـة والـرُّز»؛ كانـت تكتفـي بإجـراء مكالمـات سريعـة، تتحـدث فيهـا برسـمية لمستها حبوبـة، وزادت مـن شـعورها بالنـأي عنهـا، رغـم مسـاعدتها لهـا في معرفـة مـكان أهلهـا بالنوبـة، وزيـارات قصـيرة جـدًّا لحلمـي ولطفـي، أو الاكتفـاء برؤيتهـما عنـد أمينـة الـرُّز.

اسـتمرت هكـذا حتـى ذهبـت إلى شـقة مـصر الجديـدة لإحضـار بعـض الأغـراض، ففُوجِئـت بعمليـات حفـر وإزالـة للأشـجار تحـدث

قـرب البيـت، في شـارع أبـو بكـر الصديـق. سـألت عـن السـبب دون اهتـمام حقيقـي، ولكـن لإشـباع الفضـول وحـده، فقـال لهـا أحـد المـارة: «يقيمـون كوبـري جديـدًا في الشـارع.»

كان ذلـك كفيـلًا باسـتعادتها حس المسـؤولية القديـم لديهـا، مـع نفحـة مفاجئـة مـن الحنين إلى أن تكـون بـؤرة الأحـداث، فذهبـت إلى الجامعـة يومهـا، وسـلمت عـلى الجميـع بمـزاج طيـب، ثـم أجـرت بحثًـا سريعًـا عـلى جوجـل عـن نظـم إنشـاء الكبـاري في بقيـة مـدن العـالم، وتحديـدًا في كوريـا الجنوبيـة بفـترة الثمانينيـات، وقـت الحكـم العسـكري، وإزالتهـا بعـد ذلـك أو تحويلهـا إلى مدرجـات للنباتـات. كانـت قـد بـدأت البحـث في السـابعة مسـاءً مـن ذلـك اليـوم النحـس، حتـى وصلـت إلى منتصـف الليـل، وقـد قـرأت أبحاثًـا مثـيرة عـن التأثـير السـيئ لانعـدام اللـون الأخـضر عـلى نفسـية السـكان، وعلاقـة الكبـاري بالديكتاتوريـة، وكتبـت ملاحظـات عـدة عـلى هامـش غـلاف كتـاب، ولم تصـل إلى الواحـدة إلا وقـد انهـار عالمهـا الجديـد، فقالـت بهـدوء وهـي تتأمـل الشاشـة المتخمـة بالتفاصيـل أمامهـا: «لا فائـدة فيـكِ يـا در.»



حل الفجر عليها وهي تكتب ملاحظات عن معمار الكباري، وما يحدث أسفلها من حياة خاصة في الظل. وعندما وقفت في الشرفة، وتأملت الصباح وهو يلقي بخيوط زرقاء على الشارع الهادئ القريب، وبيت إبراهيم ناجي، وبيتزا توماس الذي تحبه، شعرت بقوة الانتماء إلى كل ذلك في لحظة، ولم تستوِ الشمس في السماء إلا وقد أخذت قرارها وهي تتأمل الأتربة التي ملأت الشقة، وكست أرضية الشرفة، والنباتات التي بدأت تفقد ألقها، فقالت لنفسها، في عادة جديدة عليها، أخذتها من أمينة الرُّز دون أن تعي، وستظل مصاحبة لها في مناسبات عدة: «وما ذنب النباتات يا در؟»

هاتفت مصطفى نفعة صباحًا، وأخبرته عن حالة الشقة التي لا تسر، والقدم الذي علا كل شيء، فاستمع لها بنصف تركيز، ثم قال لها مع نفحة غضب خفيفة: «لم تعد السن تسمح لكل هذه التنقلات يا در.»

كان ذلك سببًا في غضبة عظيمة بينهما، تجاوزا فيها الحد معًا، وعبرا ناحية الشاطئ الآخر للخوف، فقال مصطفى نفعة كلامًا عن تحكمها التاريخي فيه، وطريقتها في الحياة كأنها تحيا وحدها، ورددت در الشهوار كلامها القديم عن مسؤوليتها وحدها عن كل شيء يخصهما، ثم صرخت بحدة أمينية في الهاتف، وهي تؤكد سلامة اختيارها وقت انتقالهما إلى أسوان. بعد المكالمة، بكت بعنف حتى مسحت كل أحقادها في لحظة، وظلت بعدها ليومين في الشقة، لم تغادرها، تجلس في الشرفة وحدها وهي تتأمل حياتها منذ بدايتها حتى هذه اللحظة، وتكتفي بشرب القهوة وعصير البرتقال وتناول بعض الفاكهة، ثم تجاوزت موجة اليأس النحس هذه، فهاتفت مصطفى نفعة، وقالت بجدية، عندما رد عليها، بلا مقدمات: «لقد تخلصنا من المادة السوداء؛ الآن، كل شيء سيكون في مكانه.»

يوم

٢٦

سافرت در الشهوار إلى أسوان في اليوم التالي. وعندما دخلت البيت، مستها نفحة الهدوء نفسها التي تعرفت عليها أول مرة، وانتظرت عودة مصطفى نفعة من عمله، وهي تتأمل النيل القريب، والجزيرة الهادئة، والحركة البطيئة للناس هناك، وقالت له بلا مقدمات، عندما رأته: «لقد ورثنا شيئًا في عائلة الرُّز ولا أمل فيه: لا نستطيع أن نهمد أبدًا.»

فصَّلت له سبب إعادة تفكيرها في أمر حياتها في أسوان، وشعورها بالحماسة إلى حياتها السابقة كأستاذة جامعية معروفة، ثم اعترفت، بلا قلق، أنها لا تستطيع أن تقنع بالهدوء، والبعد عن قلب الأحداث. وتحدثت بحيوية الماضي -عندما قابلها أول مرة في أمريكا- عن أعمال البناء والهدم التي تحدث في المدينة وتغير كل شيء، وانعزالها السيئ عن الأخبار، ودورها المهم كمنظرة اجتماعية وأستاذة أنثروبولوجي في توصيف ما يجري. وكانت تردد ذلك وهي تراقب ردة فعله، التي لم تتعدَّ هزات رأس هادئة يتقنها بعناية، وهو ينظر إلى الأرض، ثم قال لها ماحيًا مخاوفها في لحظة: «سر العمر الطويل في القلب السعيد، ولا أستطيع أن أفقدك يا در.»

سبقته إلى القاهرة بعد اتفاقهما على تنقلها بين المدينتين؛ لأنه شعر بالارتياح والتآلف مع العمل في مستشفى مجدي يعقوب، كما كان طموحه الشخصي في المشاركة بأول عملية زراعة قلب قد رقق من عناده المفاجئ معها، فعاد إلى هدوئه المعهود، وباركها بقبلة خفيفة، ثم قال: «بارك الله لنا فيكِ يا دكتور.»

كانت مصالحتهما هذه إيذانًا بعودتها إلى الجامعة في الأسبوع التالي، وقد لاحت في أول يوم مثل ممثلة شهيرة، ترتدي ملابس مستوحاة من النوبة، مع قرطين كبيرين، وقصَّرت شعرها ليصل إلى الرقبة

فقط، ووقفت لتلقي كلمة طويلة عن أهمية دراسة الإنسان لمحيطه. وبعد المحاضرة، ويقينها من حضور تأثيرها الخفيف والمغوي على الجالسين من طلبة وأساتذة مساعدين، ذهبت لزيارة شقة المبتديان، ودخلت على أمينة الرُّز بصخبها القديم، وهي تحمل أكياس الطماطم وزجاجة زيت زيتون وفليفلة حارة، وقالت وهي تستقبل أمها التي تضاءل جسدها كثيرًا، وصارت أقرب إلى طفلة أنيقة صارمة الملامح، مغطاة بأصباغ الليل والنهار:

- من الذي سيعد أجمل قلاية بندورة؟

فتذكرت أمينة الرُّز هوس در الشهوار القديم بالوجبة الفلسطينية بالأساس، وطريقتها الخاصة في إعدادها على الغداء، وقالت بنفحة كآبة خفيفة:

- الزمن يعيد نفسه!

كانت أمينة الرُّز قد تجاوزت الفترة الأخيرة بصعوبة واضحة؛ فذات يوم جمعة، قررت أن تُعِدَّ فيه وجبة الشركسية التي تعلمتها من زوجة عادل العلمي التي باعدت بينهما الأيام منذ الخمسينيات، ووقفت في المطبخ لتقطع المكونات بنفسها، وتضع الكريمة اللبَّاني بثقة الخبراء، وعندما انحنت لتفتح الخزانة التي تحوي الأواني المدورة الكبيرة، شعرت بألم خفيف في ظهرها مع صوت شيء ينكسر، فظلت على وضعها هكذا وقد انحبست أنفاسها، وحسبت أنه الموت، فواجهته بتحدي تفكيرها في أن الشركسية أجمل من أن تموت الآن، ثم اعتدلت وهي تبعد عن تفكيرها احتمالية انكسار جسدها كله وقت الاعتدال هذا، فوقفت بتثبيت ذراعيها على الرخام الذي يكسو خزائن المطبخ، ثم تركت نفسها للسقوط الخفيف، لتدخل عليها رضا فتجدها وهي تحاول الجلوس بلياقة، فضربت صدرها وصرخت وقالت: «يلعن أبو العين يا ستي!»

هاتفت رضا الدكتورين حلمي ولطفي، فشعر حلمي بالقلق، وأرسل إليها عربة إسعاف من مستشفى خاص يعرف صاحبه، بينما أكمل لطفي عمله وهو يقنع نفسه أن التمثال الجرانيتي لأمينة الرُّز لن ينهار بسهولة، ولكنه اطمأن إلى ركونه الطبيعي إلى الكسل عندما أخبره حلمي أن الإسعاف في طريقها إلى أمهما.

صعد المسعفان بحماسة التشديد عليهم بشأن المريضة المهمة، وحملا أمينة الرُّز بسهولة، كطفلة صغيرة، وهو ما تندرت بشأنه بعدها، فقالت في قعدة رائقة: «يبدأ الإنسان رضيعًا ثم يعود رضيعًا، والفارق بين المرحلتين لا شيء.»

أمرتهما بحدة أن يُجلِساها على مقعدها المفضل، فقال أحد الرجلين:

- ولكن الدكتور إبراهيم سعفان أوصانا بنفسه!

فقالت وهي تصرخ:

- من هذا؟! ولو الريس بنفسه! أجلساني في مكاني.

وضعاها بإهمال خفيف على المقعد، فسبتهما سبة راقية، ثم طلبت الهاتف من رضا، وهاتفت لطفي لأنها ظنت أن فكرة الإسعاف منه. سمع صوتها الحاد في الهاتف وهي تقول له: «لم أمت بعد يا دكتور.» فابتسم رغمًا عنه، وقال، بعدما فهم منها ما جرى، إن حلمي هو صاحب القرار. وبعدما وضع الهاتف، نفخ في هدوء وعاد إلى عمله وهو على يقين من أن أمينة الرُّز ستوصل الجميع إلى المقبرة.

هاتفت حلمي درويش بعدها، وأخبرته بحدة عما جرى، وأنبته على المبالغة في القلق، وأن ما جرى كان مجرد اعتراض خفيف من ظهرها على انحناءة خطرة، فطيَّب خاطرها بكلمات خفيفة، ثم هاتف الدكتور إبراهيم سعفان، صاحب المستشفى الخاص القريب،

وشكره على حسن تجاوبه، واعتذر عن عناد الوالدة لأنه يعرفهم في هذه السن، وانتظر حتى المساء ليزورها ويطمئن على حالتها بنفسه.

كانت رضا تملك نظرية خاصة تعتمد على أن كبار السن، الذين يتجاوزون الشيخوخة بصحة حديدية مثل أمينة الرُّز، يُحسَدون على صحتهم هذه، ويُوضَعون تحت المنظار بسبب حيويتهم الواضحة. وقبلها بيومين فقط، كانت رضا تشتري شيئًا من السوق القريب، فسمعت سيدتين تتحدثان عن الأمراض والصحة والزمن الأغبر، وذكرتا أمينة الرُّز على أنها الهانم صاحبة المئة عام، التي تحيا في شقة بالمبتديان، وأنها في عمر مرضعة قلاوون، وحضرت أيام سيدنا خشبة.

سمعت ما قيل، وحاولت تحصين أمينة الرُّز بتدخلها بالشكوى؛ إذ ذكرت أنها خادمتها المفضلة، وأن سيدتها تعاني أمراض الدنيا والآخرة، ولكنها خشيت من نقل القصة نفسها إلى أمينة الرِّز بسبب ردات فعلها غير المتوقعة. بعد الحادث، نزلت لتجلب بخورًا ورجل أسد من العطار القريب، وعادت إلى الشقة، فنثرت البخور في كل مكان، وأحرقته وهي تردد المعوذتين، وما تعلمته من سلسلة من الخادمات الحكيمات، فقالت أمينة الرُّز:

- أشعر أنني في مقام السيدة.

فقالت رضا:

- ما أنتِ ستنا برضه يا ستي.

قالت إن ما جرى كان بسبب العين وحدها، وإن عدم اهتمام سيدتها بالحسد المذكور صراحة في القرآن منذ فترة طويلة أوصلها إلى هذه الحالة، مع أنها كانت تهتم به في الماضي. أخبرتها عمن يتحدثن عن صحتها الحديدية وعمرها الطويل، ونصحتها صراحة

أن تختفي في البيت قليلًا. كانت تحدثها بجرأة لم تعتد أمينة الرُّز عليها، ولذلك؛ قالت بعدما فرغت رضا من حديثها الطويل: «حددي لي خطوط سير الليل والنهار يا رضا.» رغم ذلك، لم تُلقِ بكلامها جانبًا، وفكرت فيه وهي تجلس فوق مقعدها في الصالة، تخشى النهوض، حتى لا تسمع نُذُر السقوط النهائي.

ظلت على جلستها هذه حتى دخل عليها الدكتور حلمي، يسبقه عطر الليمون الذي يضعه، فقالت عندما أدركت بوجوده: «أحضرت لي بغلين ليحملاني كأنني نعجة! الله يرحمه باباك؛ وضع فيكم بذرة التعامل مع الناس كأنهم بهائم.»

اطمأن عليها سريعًا، ووجد وظائفها الحيوية كلها سليمة، ولكنه أدرك أن المشكلة في ضعف الشيخوخة وحده وهشاشة العظام الطبيعية، فقال لها وهو يتحسس كلماته: «لا يُوجَد شيء؛ ستبكين على مقابرنا.»

هذه الكلمة، التي قيلت بهزل، عدَّتها أمينة الرُّز حسدًا صريحًا ينتمي إلى ما قالته رضا، فنظرت إليه بضيق، ثم سألته على نحو عملي عن كيفية إعادة ظهرها إلى ما كان عليه، ثم طلبت من رضا إكمال طهي الشركسية حتى يتناولها الجميع في موعد زيارتهم الأسبوعية. جاء الدكتور لطفي ليلًا، وكان يضحك بطريقته الطبيعية، وأجرى الفحص نفسه عليها، ثم قال وهو ينظر إلى الدكتور حلمي، وإلى إناء الشركسية الكبير الذي وُضِع على السفرة: «هذا جيل السمن البلدي، لا يؤثر فيه شيء.»

كان من أظهر قلقًا حقيقيًّا عليها شادي لطفي، الذي قرر البيات عندها يومين، في الغرفة القديمة التي كانت لحسين الرُّز، والتي تغيرت معالمها تمامًا، وظل يعزف لها موسيقى هادئة على البيانو، ويعرض عليها فيديوهات صوَّرها في مدن عدة حول مصر، ولم

تغادر مقعدها إلا عندما جاءت ممرضة خبيرة في العلاج الطبيعي في المنزل، وحاولت ثنيها في مكانها، فاستعادت أمينة الرُّز خوفها نفسه من انكسارها بالكامل، وقالت بحدة: «لا أريد أي محاولات. أعطوني عكازًا وانصرفوا جميعًا.»

ظلت على عنادها لثلاثة أيام، حتى أقنعها شادي نطفي بالاستعانة بخبرات الممرضة، ووضح لها مصاعب الاعتماد اليومي على العكاز في الدخول إلى دورة المياه مثلًا أو المطبخ، فقالت له: «لن أعد الطعام بعد اليوم، انصرفوا. أعددت الطعام وحرقت وقتي لسبعين عامًا.»

اقتنعت بعد ذلك عندما لاحظت العجز النفسي الذي أصابها من حركتها الحزينة هذه وهي تضع ذراعيها على العكاز، فتركت نفسها للممرضة، التي حددت منابع الألم بسهولة، واستطاعت فك العقدة خلال دقائق، لتطلب منها إقامة ظهرها كما كانت بلا قلق. وقفت وهي تلهث من الخوف، ونظرت في وجهي شادي لطفي ورضا، ثم استمتعت باستعادة سلطاتها الكاملة. لم تنسَ هذه الحادثة بسهولة، وقررت الحفاظ على جسدها الهش هذا، الذي عدَّت انكساره، الذي لم يكتمل، نذيرًا أوليًّا ببداية السنوات الصعبة.

ابتعدت عن النزول إلى الصيدلية لصديقتيها لأسباب صحية، كما ذكرت، ودعتهما إلى زيارتها في الشقة. وحتى تؤكد على ضعف صحتها العام؛ كانت تضع علب أدوية وهمية، لا تستخدمها، وتنظر إليها بين الحين والآخر. رأى الدكتور حلمي درويش هذه الأدوية أول مرة، فقال مستنكرًا:

- من كتب لك هذه الكتيبة الكاذبة؟!

فقالت:

- لا أحد، ولكنها تُشعِرني بالاطمئنان.

كانت تتظاهر أحيانًا بالشعور بالألم عندما تنهض، أو تردد وهي تتناول الطعام أنه خالٍ من المذاق، وأن الزمن لم يعد كما هو، وكانت در الشهوار هي من كشفتها، عندما ابتاعت لها كعك شراك من أسوان، مُبهَّرًا بالكركم، وهي تخبرها بمدى جماله مع الشاي، فقالت لها إن مذاقه مذاق قماش مبلل، وإنه غير نظيف، وسألتها بدقة إذا ما كانت الفلاحة التي باعته تضعه في صرة قماشية، ثم أخبرتها أن أفضل حلوى تذوقتها في حياتها كانت هدية من إحدى سيدات القصر الهاشمي في الأردن، وقت التسعينيات، وكانت من محل اسمه زلاطيمو، ولم تذق بعدها أي حلوى مناسبة، فأحضرت لها در الشهوار علبة حلويات من زلاطيمو في المرة التالية، بعدما أوصت عليه، ففقدت أمينة الرُّز التزامها بدور العجوز المريضة هذا، وتناولت قطعة من الكعك، وقالت: «الحلوى من الشام والملوخية من مصر.»

عندما عادت در الشهوار إلى القاهرة، كانت لا تزال على حالتها هذه. استقبلتها بفتور؛ لأنها لم تنسَ ما جرى عندما تخطت در الشهوار قلقها عليها بسهولة، ولم تأتِ إلا بعد حادث المطبخ هذا بأسبوع. استمعت لها بنصف اهتمام وهي تتحدث عن قرارها باستعادة حياتها العملية هنا، وحصر الأخرى على أسوان، ثم قالت وهي تنظر ناحية الشاشة، لتتابع مسلسل تركيًّا اسمه «عمر»:

- ربنا رزقكِ برجل سكرة.

قالتها بسخرية، كما اعتادت في الفترة الأخيرة، فتجاوزت در الشهوار مغزى كلامها، ثم تابعت معها بعضًا من المسلسل التركي بتركيز خفيف، ثم قالت بشرود:

- لا أعرف لم ما زلتِ تتابعي هذه المسلسلات؛ كلها القصة نفسها: حب وانفصال وموت ومشكلات.

فقالت أمينة الرُّز بنفحة حكمة مفاجئة:

- هكذا هي حياتنا.

كانت تستقبل صديقتيها، إيمان سدراكيان وعديلة رضوان، في الشرفة، بكامل ملابسها الرسمية المناسبة للخارج، وتشكو كل مرة من الجلوس ووجع الظهر الخفيف الذي تخفيه عن الجميع، وعينيها اللتين صارتا تحتاجان إلى نظارات القراءة، وكانت عديلة رضوان تقابل ذلك بنصائح مجربة لإطالة عمر أعضاء الجسم، وتوصيات أخرى بأطعمة بعينها تضبط بوصلة الصحة مثل بذور الشيا التي تُباع في جورميه بالزمالك، مع فضائل الصحة الأخرى، بينما كانت إيمان سدراكيان تشرح ما يخص عمليات البوتوكس، حتى أقنعتها أن استعادة حياة الوجه كافية لاستعادة لياقة الجسم، ففكرت أمينة الرُّز بتردد في الأمر، وخشيت من الحسد كما قالت رضا؛ لأن وجهها الشاب هذا سيلفت إليها النظر، خاصة مع ضياع أثر العملية القديمة التي أجرتها، ولم يتبقَّ منها سوى جبهة ملساء براقة. ولكن إغراءات إيمان سدراكيان كانت أقوى، خاصة مع نجاح العمليات معها وظهورها بلا تجاعيد، مثل امرأة في الخمسينيات.

أُجرِيَت العملية بمعرفة الدكتور حلمي درويش وحده، مع تشديد على إخفاء الأمر على الجميع، وكانت أسفل العينين والخدين تحديدًا، فظهرت بعدها، وقد أُخفِيَ وجهها بالضُّمادات، ودخلت البيت متخفية خلف نظارات شمسية كبيرة، رأتها رضا فصرخت:

- والله قلت خروجك صباحًا لأن بكِ شيئًا!

فقالت أمينة الرُّز:

- بدأت أومن أنكِ سبب المصائب بكلامكِ السيئ.

منعت رضا من أسئلتها القلقة بصرامة، وجلست في غرفتها ليومين، لا تغادرها إلا إلى الحمام، وهي قلقة من نتيجة العملية، ثم نزعت الضمادات مرة واحدة، وتطلعت إلى وجهها في المرآة بفضول طفولي، لتكتشف أن كل محاولاتها لإخفاء علامات السن جعلتها أكثر وضوحًا؛ فخداها صارا لامعين وصلبين بلا حياة، وأسفل عينيها صار منتفخًا مثل قربة، فقالت: «صرت مثل خيال المآتة!»

والحقيقة أنها كانت تبالغ قليلًا، مثل عادتها، في تقييم العملية وأثرها الحقيقي؛ فمع اعتيادها شكلها الجديد، واجهت الجميع بصلابتها الطبيعية، ومحت كل رغبة في السخرية، تحديدًا عن طريق الدكتور لطفي درويش، وصارت أكثر اتساقًا مع بقائها في المنزل، ولم تنزل سوى مرات قليلة، تتجول فيها بالعربة حتى تتابع ما يجري بالحياة، بدلًا من التاكسي اتقاءً لأي إصابة هكذا أو هكذا.

عندما عادت در الشهوار، صارت تزورها على نحو شبه يومي، وتُعِدُّ الطعام معها، مستفيدة من بقاء الدكتور مصطفى نفعة في أسوان، وسيف الدين في دهب. كانت در الشهوار تتعامل بصفاء أيام الشباب، فتشجع أمينة الرُّز على متابعة مسلسلاتها التركية التي لا تنتهي، وتجلس جانبها لتراقب شبكة العلاقات المعقدة، دون سخرية كما كانت تفعل، وتساعد رضا في إعداد وجبات تجدها على الإنترنت، وتسكبها بنفسها، وتتحمل تعليقات أمينة الرُّز الحادة على غيابها فترة طويلة عنها للبحث عن الوهم في أسوان.

كانت تشعر، مع تقدم الزمن، باقترابها من أمينة الرُّز في فترة مجدها، عندما كانت تعمل بهمة حتى تواجه التقاعد والزمن، وشعرت بالإعجاب الممزوج بالغيرة لأنها استطاعت الحياة بقوة رغم الطلاق المبكر وعدد الأبناء، مع دفعات غير محسوبة من الإشفاق بسبب المظهر الجديد لوجهها بعد عملية الحقن. كانت

تضبط نفسها وهي تتأمل يديها الناحلتين، وانفلات أعصاب الشيخوخة الذي يصيبها كل نصف ساعة، وتعديلاتها على الوجبات، وأسئلتها التي لا تنتهي عن دراسات در الشهوار، وما يجري فيها، فكانت تحاول تبسيط البحث الذي تجريه عن علاقة الكباري بالمدن بالسلطة، لتقول أمينة الرُّز:

- وهل تظنين أنني لا أفهم؟! أفهم جيدًا، ولكنني أرى أنكِ تعدين دراسة لا علاقة لبعضها ببعض؛ كأنكِ تدرسين تأثير لون الرصيف في المزاج العام للناس.

وكانت تعليقات مثل هذه تجرف در الشهوار في بحر أسود من الشعور بعدم قيمة ما تفعله، ولكنها تستعيد حماستها سريعًا عندما تؤمن بقوة الحماسة المقدسة للمعرفة، فترد عليها:

- كل شيء له علاقة بكل شيء، ولكننا نكتشف ذلك مع الوقت.

علم سيف الدين بأخبار وعكة أمينة الرُّز الطارئة من خلال مكالمة مع در الشهوار، ولكنه فُوجِئ بعدم تفاعله الحقيقي مع ما جرى، ولا قلقه على جدته التي تقترب من التسعين بإصرار. قرر مهاتفتها في الليلة التالية، ولكنه نسي عندما عاد من رحلتي غوص طويلتين، فنام وهو يخور مثل جنرال حرب مهزوم، ورأى في أحلامه أطيافًا من فتياته الشقراوات، ثم استيقظ وهو يستمع لعتاب مكرر من شخص كبير في السن. شعر بالخجل من مهاتفة أمينة الرُّز وقد تأخر ما يقرب اليومين، فترك الأمر لرحمة الوقت والمزاج وحدهما، ولم يهاتفها إلا في الجمعة التالية، عندما عاتبته در الشهوار وأخبرته أن شادي لطفي لا يتركها مطلقًا؛ يعزف لها الموسيقى، ويُعِدُّ معها الطعام، فهاتف شادي لطفي نفسه، وأخبره بقلقه من ردة فعل أمينة الرُّز، فأعطاها الهاتف، لتقول بلا مقدمات:



- قلت إنك تعلمت الجحود من الرجل الذي كنت تجلس معه طويلًا.

اعتذر لها بارتباك، وأخبرها كذبًا أنه يشعر بالقلق من المواقف المشابهة، ولم يهاتفها بعد اطمئنانه خوفًا من احتمالية استمرار ألمها، فقالت بهدوء:

- لا تخف مني، أنا ستك.

قالتها بهشاشة مفاجئة، دفعت سيف الدين إلى البكاء بعدها بلا سبب وهو يقف عند شاطئ اللايت هاوس، متذكرًا خيبات حياته كلها مرة واحدة. كان يمر بدفعات مركزة من اكتئاب أسود، يعقب لحظات السعادة القوية التي يخوض فيها بقلب جريء، وخاصة بعد الليالي التي يتخلى فيها عن عزلته ويسهر في أحد النوادي الليلية المنتشرة على الشاطئ. كان يمارس الحب مع حبيبات سريعات، لا يذكر وجههن بسهولة، ولكنهن يتميزن جميعًا

بالاستعداد النفسي الطبيعي للإغواء، بما يمر به من مراحل مختلفة، وصولًا إلى الفراش الأزرق المحاط بالصور والشموع والدفاتر التي يدون فيها أشعاره.

كان يستيقظ بعدها ليشم رائحة جسد الفتاة، التي كانت ترافقه لليلة، ويحدد عن طريق رائحتها -في عادة حيوانية اكتسبها مع الوقت- ماهية طبيعتها، كما كان يحدد مدى التصاقه العاطفي المحتمل بهذه الفتاة من عدمه. كانت الفتيات، اللاتي لهن رائحة جسد طبيعية، بها بعض نفحات الجسد المفاجئة، مع رائحة عطرية من كريم جلد أو شعر، يعطينه شعورًا بالأمان، يُذكِّره رغمًا عنه بعلاقته بليلى المرنيسي وسلسلة عطورها المميزة، بينما كانت الروائح القوية لعطور موضوعة بعناية، أو مكياجات وجه، تُشعِره بالقلق ونفاد الحب سريعًا. كانت لحظات سريعة، تعقبها راحة لأنه متسق مع هوسه هذا، فيشرب قهوته، ويسبح في البحر القريب، ثم يخرج ليكتب أشعارًا عن روائح الإبطين وجمال رائحة العنق الخاصة التي يعدُّها سر أي امرأة، ويحلو له تخيل نفسه في ثوب شاعر لاتيني، بشعره المنكوش وجسده الذي نُقِع في الملح فصار بلون برتقالي، ويظل على حاله هذه، حتى يزوره شبح الاكتئاب الخفيف قرب المساء.

يهيم بعدها في شوارع دهب، ثم يجلس عند صديق له في العصلة، فتح محلًا يقدم فيه الشاي السيلاني وأنواعًا أخرى مهربة من الأردن وفلسطين، ويتبادلان حديثًا بطيئًا بشأن الحرارة والحياة والأسعار، ثم يذهب إلى أي نادٍ ليلي، حتى يلتقط فتاة جديدة.

ظل على حاله هذه، حتى أدرك، ذات يوم، أنه ابتعد تمامًا عن سيف الدين القديم وعائلة الرُّز، وصار أكثر شبهًا بشخص آخر لم يدرك وجوده، عندما زاره شادي لطفي مع ندى حلمي ليتعرفا

على دهب. فُوجِئ بمقابلته الفاترة لهما، والتي لم يقصدها، وبقلقه على نظام حياته اليومي. ارتبك وهو يعرض عليهما الغوص معه للمرة الأولى، وشعر بكثير من الضيق عندما امتنع عن الذهاب إلى نادٍ ليلي في المساء، وضيَّفهم على سمك من درويش، ثم أنصت لحكايات ندى حلمي عن أصدقائها الشباب، فنصحها في نهاية حديثها نصيحة مجرب، وتكلم بجفاء عن أنماط الشباب التي لا يخرج عنها الشاب العربي. لاحظ شادي لطفي تغيره هذا، فقال له بصدق: «لاحظت حيادية صوتك في الهاتف، ولكنك في الحقيقة كذلك.»

بقيت ندى حلمي في فندق صغير، اختاره سيف الدين بعيدًا عن بيته، ورافقه شادي لطفي إلى البيت، عزف له بعض الموسيقى على الجيتار، وأشاد بأناقة البيت وذوقه الذي يُذكِّر بذوق در الشهوار، بعد ذلك، قال بلا مقدمات:

- كن على يقين؛ كلنا نحبك، فلماذا لا تحبنا؟

كان سيف الدين يستمع لشادي لطفي وهو يخبره عن الأحاديث التي تدور حوله في الأسرة، واشتياقهم الحقيقي إليه، وسؤال أمينة حلمي المتكرر عنه، وأحوال أمينة الرُّز، فشعر فجأة بدفقة لا إرادية من شعور قديم، نسيه منذ الطفولة، عندما كان يتلذذ بالشعور بالألم والحزن عندما يعتذر له الجميع عن شيء جرى له. نظر حوله بهدوء، ثم قال بلا تفكير:

- الفكرة أنني وضعت الحب على بوابة دهب، وما زال هناك.

فقال شادي لطفي مازحًا:

- لتعد معي وتأخذه من على البوابة عند الكمين.

لم يقتنع سيف الدين، ووضح لشادي لطفي كيف أن حياته صارت

بـلا قلـق عندمـا تـرك كل شيء وعـاش في دهـب. ورغـم موجـات الاكتئـاب اليوميـة، كـذب عليـه وأخـبره أنـه اكتشـف السـعادة الخالصـة. لم يجادلـه شـادي لطفـي، وقضيـا الأيـام وهـو يـزداد اقترابًـا مـن حقيقـة الجفـاء الـذي أصـاب سـيف الديـن، وتعاملـه الرسـمي معـه ومـع نـدى حلمـي، واسـتعراض شـهرته أمامهـا، عندمـا يسـير في اللايـت هـاوس أو العصلـة أو المشربـة، ولكنـه لم يمنـع نفسـه مـن إيجـاد أوقـات سـعيدة، تشـبه أوقـات أزمنـة البـال الرائـق، يغنيـان فيهـا، أو يتمتعـون بمـذاق طيـب لـلأكل في مطعـم إيطـالي شـهير، حتـى تمـت الزيـارة، وقـد فقـد سـيف الديـن صـبره عـلى الحـب الليـلي الـذي انقطـع عنـه.

عندمـا غـادرا، فُوجِـئ سـيف الديـن أن الزيـارة نفسـها قـد خرقـت خرقًـا في البنـاء المنيـع الـذي أقامـه خـلال سـنوات البحـر والشـعر، كـما سيسـميها بعدهـا. شـعر بالقلـق عندمـا ذهـب إلى النـادي الليـلي يومهـا؛ لأنـه رأى الجميـع بالداخـل في ضـوء أزرق موتـر، مـع تجليـات مفاجئـة لوجـوه خـضراء مخيفـة النظـرات. خـرج سريعًـا، واقـترب مـن الجداريـة التـي رُسِـمت عليهـا صـورة امـرأة مـن سـيناء، تنظـر بتحـدٍّ إلى السـائرين عـلى الممشـى، فشـعر أن بهـا شـيئًا شـيطانيًّا، وعـززت رسـوم الشـياطين الصغـيرة، التـي تنفـخ في ساكسـفون، في شـارع خلفـي قريـب، مـن نظرتـه إلى دهـب أنهـا مدينـة شـياطين في المسـاء.

عـاد إلى بيتـه وحـده لأول مـرة منـذ فـترة طويلـة، واسـتمتع بالعزلـة أمـام البحـر، وهـو يسـتمع لمقطوعـات متفرقـة مـن سـيمفونيات بيتهوفـن. ولم تنتـهِ الليلـة إلا وقـد بحـث في جوجـل عـن روايـات «مـا وراء الطبيعـة» لأحمـد خالـد توفيـق، وقـرأ عدديـن بحماسـة الطفولـة البعيـدة، ثـم نـام وقـد شـعر بالارتيـاح لأول مـرة منـذ فـترة طويلـة. اسـتيقظ في اليـوم التـالي، وقـد أسـعده خـلاء الفـراش مـن جسـد آخـر، وخـرج ليـؤدي برنامجـه الصـارم اليومـي بانتظـام. وعنـد العـصر، هاتـف در الشـهوار ليسـألها عـن أخبارهـا وأخبـار جدتهـا، ثـم قـال صادقًـا:

«كانت زيارة شادي وندى جميلة وهادئة.»

كان مزاجه طيبًا يومها، وقضى ليلته في الاستماع لأغانٍ قديمة من فضائل التسعينيات ومطالع الألفية، مع قراءة قصص قديمة، كما فعل في المعتقل، وعندما استمع لأغنية «حبيبي» لعمرو دياب، رأى نفسه، على هدي من غبش فجر بعيد، وهو يقف في ركن داخل شقة المبتديان، أو يجلس في غرفة أحلام حسين الرُّز التي اكتشفها فجأة وهو يشعر بحنين مكثف، يكتشف العالم من خلال زواياه الخفية، محتفظًا بالصمت والعزلة، ليتوصل في آخر اليوم إلى احتياجه الحقيقي إلى رؤية أفراد أسرته، والجلوس معهم واحدًا واحدًا. وقبل أن ينام ليلتها، كتب قصيدة عن متع الطفولة المتركزة في الأغاني والقصص القديمة.

لم يتأكد من شعوره إلا عندما توقف عمله تمامًا وقت كورونا، فلم يعد أحد يأتي إلى المدينة التي صارت مدينة أشباح، فتوقفت مراكز الغوص، وواجه مع ذلك وجهًا حديديًا حاسمًا من بعض سكان المدينة من البدو، الذين كان يستأجر عندهم بيته الصغير، ليُفاجَأ بوجه آخر أكثر حدة للمدينة مما كان يعرفه.

قضى أشهر الحظر في أمان نسبي، يأخذ من مدخراته، ويذهب إلى البحر يوميًّا ليشرب العزلة حتى كيعانه، ويتحدث مع در الشهوار التي بقيت وقت الوباء في أسوان، أو مع شادي لطفي، أو أمينة حلمي التي قاست الأمرَّين في إجراءات أوروبا للحظر، وقد تحول حبه لها إلى ألفة راسخة، لا يفكر معها في أفق حبه لها بعدما تيقن أنه نُقِش بالدم؛ إذ يتأملها بحنو وهي تجلس وحدها في غرفة شبه مظلمة، تتحدث عن هوس الناس بالموت والمرض، ويراقب انفعالاتها وهو يعرض عليها الصور المشمسة لشواطئ دهب الخالية

وقتهـا، حتـى هـدأت الأحـداث كلهـا مـرة واحـدة.

وكان قـد احـترق تمامًـا مـن الاشـتياق إلى الزحـام والأسرة بعـد الحبـس هــذا، فهاتــف شــادي لطفــي بعــد عــام مــن عزلتــه، حتــى يقابلــه في الميرغنـي، عندمـا يصـل، خـلال يومـين، ويذهبـا معًـا إلى أمينـة الـرُّز، فسـأله شـادي لطفـي بفضـول عـن سـبب تغيـيره رأيـه، فقـال بجديـة: «ولا شيء، اسـتمعت لعمـرو ديـاب القديـم واكتشـفت أنـه واحشـني.» ثـم أضـاف: «والحمـد لله؛ خرجـت العائلـة مـن الكورونـا كاملـة كـما دخلتهـا دون نقصـان فـرد.»

سـتتكرر زيارتـه هـذه، دون أن يـزور أمينـة الـرُّز؛ لأنـه يشـعر بذنبـه ناحيتهـا، خاصـة أنـه لم يهاتفهـا مطلقًـا خـلال كورونـا ومـا بعدهـا، وكان يكتفـي بالاطمئنـان عليهـا، حتـى يقـرر يومًـا أن يبقـى لأشـهر في القاهـرة، ليقـرر معهـا زيـارة أمينـة الـرُّز وافتتـاح صفحـة جديـدة. كان ذلـك في أواخـر عـام ٢١، وبعـد يومـين فقـط مـن عـودة سـيف الديـن نصـف النهائيـة هـذه، سـتتلقى أمينـة الـرُّز خـبر سـاعة النحـس الـذي بـدأت بـه القصـة كـما سـمعتها مـن شـادي لطفـي.

يوم

٢٧

عندمـا وقـع سـطل اللبـن في هـذا الصبـاح النحـس، كانـت أمينـة الـرُّز تجلـس في الشرفـة، تتنـاول قهـوة الصبـاح السـادة كعادتهـا، غارقـة في خيـالات سـوداء عـن وجـع ظهرهـا الـذي عاودهـا مـن جديـد. كان وجعًـا خياليًّـا؛ فقـد فُوجِئـت بعدهـا بقدرتهـا عـلى اختـلاق أوجـاع لا وجـود لهـا. كانـت تسـتمتع بالأنظـار التـي أُحيطـت بهـا بعـد حادثـة ظهرهـا هـذه، وطريقتهـا الحـادة في معاتبـة الجميـع، وخاصـة در الشـهوار، التـي اسـتطاعت دمـج دراسـاتها الجديـدة بمشـاهدة مسلسـل تركـي اسـمه «مـا حـدث في تشـوكورأورفا»، يتحـدث عـن قصـة أسرتين متصارعتـين لأجيـال، وكانـت أمينـة الـرُّز تشـاهده بحماسـة لأن إحـدى بطـلات المسلسـل -وتُدعـى هُنـكار هانـم- كانـت تشـبه شـخصيتها إلى حـد مـا.

كانـت تشـاهد الأحـداث فتقـول عـلى هـدي ذكـرى مفاجئـة إن السـيد رمضـان الـرُّز قـد حكـى لهـا عـن قريـة جدهـم، وإنـه كان يصـف كـروم العنـب التـي تُعـصَر بالنظـرة وحدهـا دون حاجـة إلى اليـد، وورق العنـب المتخـم باللحـم المفـروم والصنوبـر. وكانـت در الشـهوار تسـتمتع لتلـك القصـص بنصـف اهتـمام؛ لأنهـا لا تـدرك حقيقـة مـا يُقـال مـن عدمـه. كانـت لهـا صيحـات مفاجئـة، تزورهـا في أوقـات الخـلاء هـذه، فتشرف بنفسـها مثـلًا عـلى إعـداد ورق العنـب، وهـي تجلـس عـلى مقعدهـا في الصالـة، حتـى لا تدخـل مطبـخ النحـس كـما كانـت تقـول، وتضـع قطـع البطاطـس بالأسـفل، حتـى تعطـي مذاقًـا خاصًّـا عندمـا تُقلَـب الحلـة، كـما كانـت تُبهِّـر أرز الحشـوة بالكركـم حتـى يكتسـب صفـرة وطعـمًا مميزيـن، أو تُعِـدُّ طبـق البرغـل باللحـم بوصفـة تدعـي أنهـا مـن فلاحـات ريـزا، قريتهـم التركيـة البعيـدة.

وعندمـا أُصيبـت السـيدة إيـمان سـدراكيان بوعكـة صحيـة طارئـة،

دخلت بعدها المشفى وزارتها أمينة الرُّز، لم تتحمس لجلسات الشرفة، وصارت تفضل البقاء وحدها لأنها آمنت داخلها أن الأمراض تنتقل بالشعور والمشاركة. كانت تحتفظ لنفسها بمكان عصي على الوصول حتى تحافظ على هشاشتها التي أصابتها مع وصولها التسعين، وتبتعد قدر الإمكان عن أي خطر خارجي.

اقتربت من عتبة المطبخ ولم تدخله، ورأت البحر الأبيض الذي وصل إلى خارج المطبخ، وكادت تقول شيئًا، لولا أن سارعت رضا بالقول:

- كان اللبن منظورًا.

فقالت أمينة الرُّز:

- ولماذا يحسدوننا على منتج موجود في كل مكان؟

قالت رضا بيقين إن سكان البناية لا يشترون اللبن بالكثافة التي يشترونه بها، وإنها لمحت المرأة الموظفة الجديدة في الطابق، الذي يعلوهم، تراقب سلة التسوق وهي ترتفع باللبن، وهذا إيذانًا بحسده؛ لأن كلمة «ما شاء الله» يجب أن تُردَّد فوقه تحديدًا. كانت تقولها بعتاب لأمينة الرُّز، التي تستهلك أرطالًا من اللبن يوميًّا، وبجدية لم تحد عنها منذ الطفولة، عندما كان السيد رمضان الرُّز يأتي بإناء اللبن الكبير الألومنيوم، الذي يلمع أسفل ضوء المصابيح الصغيرة وقتها، ويضعه على أرضية المطبخ، ويطلب من أمها أن تغليه وتعطي كل واحد كوبًا بلا سكر ولا يحزنون.

كانت أمينة الرُّز تتذكر هذا الحدث كحدث سحري، لم يحدث بالفعل، وتهيم بالحنين إلى المظهر القديم للمطبخ، برخامه المتواضع والخشب الذي كان يكسو كل شيء، والبوتاجاز الصغير ومكان الأنبوبة. عندما دخل الغاز الطبيعي الشقة لأول مرة، حدث ذلك

بعد ممانعة طويلة من أمينة الرُّز، التي كانت تقرأ في الأخبار يوميًّا عن وفيات حديثي الزواج بسبب تسرب الغاز، وكانت تسأل الدكتور حلمي درويش عن سبب عدم معرفة البعض بالتسرب فكان يقول: «مع الأسف، لا رائحة للغاز؛ يتمسكن حتى يتمكن.»

دخل وهي في الخارج، في إحدى نزهاتها الطبيعية بتاكسي أوقفته كما يتراءى لها في الشارع، بدلًا من المرسيدس، كما كانت تفضل أحيانًا. وعندما عادت، لم تعرف إلا بعدها بأسبوعين، عندما سألت عن سبب عدم تغيير الأنبوبة حتى الآن، فأخبرتها رضا بعد تردد، لتقيم الدنيا ولا تُقعِدها إلا عندما جاءت در الشهوار، وشرحت لها أهمية وجود الغاز وسهولته، والإغلاق المحكم لمقبضه، فاستمعت مع استعداد أصيل لعدم القبول، وقالت في النهاية: «لو جرى لي شيء فذنبي في رقابكم.»

كانت تشرب ثلاثة أكواب من اللبن يوميًّا، بغض النظر عن الحديث عن الكولسترول والدهون الثلاثية، وكان الدكتوران لطفي وحلمي يتجادلان مازحين بشأن فساد الأبحاث الحديثة، والإثبات الحي المتمثل في أمينة الرُّز بأنها تتحرك بسهولة في الثمانين والتسعين بالسمن البلدي في الطعام مع اللبن اليومي. كانت تراها وصفتها الخاصة للسعادة، وتعدُّ وجود اللبن مع بقية منتجات الأجبان، التي أدمنتها، وخاصة الجبن الزرقاء، التي تحيطها بالعناية في رف وحدها بالثلاجة، وتتناولها يوميًّا بلا كابح رغم الملح الشديد، علامة على البركة في البيت. تتذكر بحنين كلمات أمها عن أن سيدنا جبريل قد خيَّر النبي بين اللبن والخمر، فاختار اللبن، وتردد وهي تسكبه: «باسم الله وبركة سيدنا جبريل في ليلة الإسراء والمعراج.»

ولهذا تحديدًا؛ كانت تقدس سوبيا الرحماني اليومية، بغض النظر عن اعتبارها مشروبًا تركيًّا أصيلًا كان حسن الرُّز الكبير هو من

أخبر الرحماني الكبير عنه، كما كانت تردد.

قالت إن الغلاء قد أذهب عقل الجميع، وإنهم مروا بأيام أكثر سوادًا من هذه، وتحلوا بالصبر والخلق السليم، ثم أخذت تراقب رضا وهي تمسح اللبن، قبل أن تطلق رضا سهمها الأسود وتقول إن وقوع اللبن علامة نحس. كان حرصها قد اشتد منذ واقعة ظهرها هذه، وصارت الكلمات، التي ترددها رضا، أو القصص، التي تسمعها عن الوفيات والموت، تقلقها، خاصة بعد تجاوزها زمن كورونا بسهولة؛ لأن وجودها في البيت كان قد أهَّلها لإقامة قواعد صارمة لمن يدخل ومن يخرج.

كانت الأخبار تصلها عن المرض الذي يصطاد كبار السن، فتزداد انغلاقًا على نفسها وقلقًا من كل شيء، وتتابع وفيات مشاهير مثل دلال عبد العزيز وزوجها سمير غانم بحزن واضح، وهي تتخيل أن الوباء المفتعل هذا -كما كانت تردد بيقين- قادم أساسًا لإفناء الشعوب الفقيرة والغنية على حد سواء. تمرنت في تلك الأيام على كيفية استخدام الفيديو على الهاتف المحمول، كانت تقرب رأسها من الشاشة، وتتحدث وهي تحاول رؤية الوجه المشوش لدر الشهوار أو الدكتورين حلمي ولطفي، ولكن المشكلة الوحيدة، التي تخلفت من أيام الجائحة هذه، أنها اكتسبت خوفًا أصيلًا من الأمراض بأنواعها، وصارت أكثر تشددًا مع حركاتها الشخصية وطريقة نومها أو تناول طعامها.

قلَّبت كلمات رضا في رأسها، وظلت على قلق طوال النهار، ثم هاتفت إيمان سدراكيان لتطمئن عليها كما صارت تفعل في الأيام الأخيرة، ودعتها على نحو طبيعي إلى زيارتها في الشقة، عندما يتيسر الأمر، مع الكمامة والذي منه، وفعلت الأمر نفسه مع عديلة رضوان. بعد ذلك، ظلت تراقب الشارع المزدحم في الأسفل،

ودخـول الموظفـين عـمارة عبـد الهـادي، التـي تقابلهـا، وخـروج منهـا، ومرورهـم ببوابـة التعقيـم الفاشـلة هـذه التـي لا تعمـل، وقالـت لرضـا وهـي تضـع أمامهـا فنجـان القهـوة الثالـث لهـذا الصبـاح: «ميـزة الكورونـا أنهـا كانـت تخـلي الشـوارع مـن الجميـع.»

ثـم عـددت مظاهـر التلـوث التـي حاقـت بـكل شيء: الشـجرة العجوز التـي تـكاد تسـقط أمـام البنايـة، والعـمارة المهجـورة أمامهـم التي سـكنها فـلان وعـلان، والقهـوة المفتوحـة جـوار مركـز الإسـعاف التـي يجلس عليهـا وجـوه لا يعلـم بهـا إلا ربنـا، ومحـل الملابـس الـذي افتُتِـح أسـفل العـمارة نفسـها وشـوه الواجهـة، والمحـال الصغـيرة التـي افتُتِحـت في العـمارة المجـاورة، التي أُقيمـت منـذ أربعـة أعـوام، بـما فيهـا مـن المحـال الأخـرى أسـفل عـمارة عبـد الهـادي الحلـواني نفسـها، وخاصـة فـرع فودافـون الكفـرة الـذي كانـت در الشـهوار تسـاعدها في دفـع فواتيرهـا فيـه كلـما تيسر، بينـما كانـت تنـزل هـي بنفسـها، وبكامـل زيهـا الرسـمي، وقرطيهـا اللامعـين، وتعطـي موظفـي الفـرع درسًـا في الأخـلاق وإنهـاء الأمـور العالقـة كـما كانـت تفعـل وحدهـا أيـام الأوقـاف والمجلـس، وعمليـات إصـلاح المجاريـر التـي تحـدث كل شـهرين في الشـارع، حتـى صـار شـارعًا تجاريًّـا فوضويًّـا يشـبه شـارعًا في مدينـة ريفيـة بعيـدة.

في الشـارع الجانبـي للعـمارة، كثـر عـدد مخـازن باعـة الثيـاب وكل شيء، وفُتِـح مقهـى عـلى ناصيـة ثـاني شـارع بعـد العـمارة، تجلـس عليـه أشـكال ضالـة وغريبـة، بينـما ظـل الصـف، حتـى الرحمـاني، مليئًـا بالمحـال كـما كان، مـع افتتـاح محـال جديـدة تبيـع إكسسـوارات حريمـي وأحذيـة وعسـل نحـل، جربتـه أمينـة الـرُّز ولم تحبـه. كانـت الأشـياء التي بقيـت مـن شـارع زمنهـا البعيـد هـي الشـجرة الكبـيرة المقابلـة للعـمارة، في الناحيـة الأخـرى، التـي تكسـو بقطـاع منهـا العـمارة التـي غادرهـا أو مـات أغلـب سـكانها، وكانـوا جميعًـا مـن الأسر المحترمـة حتـى التسـعينيات، ودار الهـلال، التـي لم يغيرهـا الزمـن، وكانـت أمينـة الـرُّز

تحب مراقبة المجلات وهي تُحمَل من المطبعة ساخنة، وتُوضَع في عربات توزيع الصحف، مع بعض البيوت القديمة هنا وهناك.

شربت فنجان قهوتها الثالث، وتناولت معه كعكًا بالعجوة، ثم قرأت الأخبار من خلال التابلت الصغير الذي علمها شادي لطفي كيفية استخدامه، وتعودت عليه بعد ستة أشهر من المعاناة. كانت ترتدي نظارات القراءة باللون الذهبي، وتقرب رأسها وتتابع ما يجري حولها، ثم تشم الهواء المشبع بالتراب، ورغم ذلك تردد: «الحمد لله، هذا قصري الطيب.»

حددت رضا الأوقات التي يروق فيها مزاج أمينة الرُّز: عندما تشرب الفنجان الثالث، ثم تخف حركة كل شيء لأن الجميع صاروا في أعمالهم، ثم تشرب كوب اللبن الأول، وتجري اتصالاتها بصديقتي الصيدلية، وبعد ذلك تتابع مسلسلًا تركيًّا بالداخل من منصة مشاهدة اشترك لها فيها شادي لطفي، وهي تستمتع بفضائل التكنولوجيا التي لا تفهمها، ولكنها تتعلمها سريعًا.

بعدما تجاوزت الأفكار السيئة الخاصة باللبن، سمعت جرس الباب، وطلبت من رضا أن تفتحه، لتُفاجَأ بسيف الدين، الذي كان قد وصل لتوه، يطل عليها بلون برونزي ونظرة ذاهلة وعزلة نحتت وجهه، ومعه شادي لطفي. دخلا عليها الشرفة، وفُوجِئ سيف الدين برائحة الشقة المميزة التي هي خليط من الصلصة والبهارات والزهور وماء الورد والقهوة، واحتضن أمينة الرُّز وهو يكتشف تناقص طولها بوضوح، ويحاول البحث عن توصيف لشعوره غير الواضح، الذي لم يستطع تسميته فرحة؛ بسبب نأيه الطبيعي في السنوات الأخيرة عن الحب والمشاعر. قالت رضا بعفوية: «لو هكذا؛ ندلق اللبن يوميًّا.»

ابتسمت أمينة الرُّز ابتسامة صادقة، وبانت علامات سنها

وهشاشتها المتنامية في ترحيبها الواضح بسيف الدين، رغم توقعه أنها ستعاتبه بقسوة، وتعامله بجفاء مستحق، وسألته عما يفعل في مدينته التي تنسى اسمها، وعن مشروعاته للعمل والزواج، وعندما كان يحاول تقديم شرح مختصر لها، لا يضره، وصلها اتصال الدكتور حلمي درويش. كانت قد اعتادت اتصالات الظهيرة هذه، التي يتبادل فيها الطبيبان السؤال عنها، وزيارة در الشهوار اليومية عند العصر، وهي بمزاج جاهز للدراسة عندها وإعداد وجبة جديدة. سألت سيف الدين، وهي تراقب هيئته الجديدة عليها:

- وهل أخبرت درة يا هركليز؟

فقال سيف الدين وقد أمسك به خجل مفاجئ، لا يدري سببه:

- لا، مفاجأة يا تيتا. زياراتي السابقة كانت قصيرة، اعذريني لأنني لم آتِ فيها.

لم تجب هاتف الدكتور حلمي درويش كما تفعل أحيانًا، ولكنه هاتفها بإلحاحه، وقالت بجدية:

- من أجلك يا سيف سأترك جدو هذا؛ لقد زارنا النبي، ولو عاتبك أي أحد فسأكون في ظهرك. ربنا يقويكم على أيامكم.

كانت نفحة حنو قوية، جعلت سيف الدين يُقبِّل رأسها كما لم يفعل قط، وانشغلت هي بالإعداد للإفطار دون أن تجيب المكالمات المتعاقبة. أجابته عند العاشرة صباحًا، بعدما أفطرت مع شادي لطفي وسيف الدين، ووضعت له تحقيقًا وافيًا بشأن ما يفعله في حياته. نصحته، مستمتعة بشعوره البادي بالغرابة والعزلة، أن يخوض الحياة مع الناس، ويبتعد عن حياة المنعزلين هؤلاء، ويعود إلى جامعته؛ لأن تطلعات الإنسان تتغير بتغير حياته، وعندما يصل إلى الأربعين، سيفاجأ أنه يحتاج إلى حياة مستقرة وأسرة وعمل جيد،

بعيـدًا عـن شـطحات الغـوص والحيـاة مثـل عـمال اليوميـة، اليـوم بيومـه، ومـن بعـده الطوفـان.

كان يسـتمع لها وهـو يكتشـف أن دفئًـا غريبًـا بـدأ يـسري في أوصالـه، يكشـف عـن بـرودة كانـت قـد وصلـت إلى عمقـه البعيـد، فانتبـه إلى تناقـض مـا يشـعر بـه مـع الارتيـاح الـذي اعتقـد أنـه حصـل عليـه أخـيرًا. سـيكتب بعدهـا قصيـدة عـن الأجسـاد القصـيرة الهشـة للجـدات التـي تبـث الـدفء في ليـالي الشـتاء، وعـن الـدفء الـذي اكتشـفه البـشر مـع النـار مصادفـة، منـذ قبـل التاريـخ؛ لأنهـم شـعروا بالفـارق بينـه وبـين مـا قبلـه بأبسـط الطـرق.

عندمـا أجابـت أمينـة الـرُّز الدكتـور حلمـي درويـش، قالـت لـه قبـل أن يشـكو:

- عـاد سـيف الديـن ابـن درة. اعـرج علينـا لأنـه يريـد أن يسـلم عليـك.

ونظـرت إلى سـيف الديـن بتواطـؤ طفـولي، يختلـف عـن طريقتهـا الطبيعيـة الحـادة والتزامهـا بشـكل صـارم وعـادات بـلا عاطفـة، ولكـن الدكتـور حلمـي درويـش تجـاوز ذلـك بترحيـب سريـع، ثـم قـال بـلا مقدمـات:

- ماما، جاءني إخطار من إدارة الجبانات في الغفير.

سـقطت الكلمـة في حلـق أمينـة الـرُّز وترسـبت بمعدتهـا، فشـعرت باضطـراب خفيـف، فسـألت بانزعـاج مـن السـيرة:

- من مات؟

ثم قالت وقد تشوشت بغبار الذاكرة والشيخوخة:

- هل عاد حسين الرُّز ومات من جديد؟

ما كان يردده حلمي درويش، على الطرف الآخر، كان كافيًا ليُظلِم وجه أمينة الرُّز، وتتجاوز طريقتها الطبيعية في النقد، فرددت كلمات حادة في حق الجميع، وكررت أسئلة عدة، وضعت الجو العام في الشرفة بتوتر كبير، حتى سألها شادي لطفي:

- ما الذي جري يا تيتا؟ هل بابا بخير؟

بعد أن أغلقت الهاتف، قالت باستعراضية:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أجدادك ليسوا بخير.

ظلت معتصمة بالصمت لفترة، حتى دخلت غرفتها وهي تسير باضطراب واضح مثل عجوز بلا نفع، وهي تردد: «عندك حق يا رضا، وقع اللبن!»

هاتف شادي لطفي الدكتور حلمي درويش، ثم قال لسيف الدين وقد أغلق الهاتف سريعًا:



- سيزيلون مقبرة الأسرة لأنهم يقيمون كوبري ضمن محور جديد في المنطقة.

والحقيقة أن الخبر، الذي لم يستوعبه سيف الدين سريعًا، كان صحيحًا دون أي مبالغة. كان الاتصال الذي تلقاه الدكتور حلمي درويش صباحًا، بالتوازي مع الدكتور لطفي درويش، ودر الشهوار التي لم تجب على الهاتف لأنها كانت تستعد لمحاضرة من محاضراتها المزدحمة، التي استعادت معها اللياقة الكاملة، وبدأت تتحدث عن الكباري كوسائط للسلطة برطانة تجيدها كثيرًا، كان قد تكرر لأسر عدة تملك مقابر وأحواشًا في الصفوف الأولى من تُرب الغفير، التي تتميز بطابع معماري مزخرف، يضع الموت في صورة مريحة للعين، ويُكسِبه المظهر الجاد الجميل لباشوات الزمن القديم.

كانت المقبرة، التي اشتراها حسن الرُّز في الأزمنة الرائقة، وتركها كما هي، على الطراز العثماني، ويحتفظ اللحد الكبير الأساسي بطربوش عثماني قديم فوق شاهده الطويل، ونقوش فكت در الشهوار لغزها ذات مرة، عندما كانت تتجول في المنطقة مع طلبتها في التسعينيات ومطالع الألفية، تخص باشا منسيًّا اسمه أحمد طبوزاده، وهو اسم يحمل رطانة عثمانية واضحة، حتى إن در الشهوار شعرت أنه مزحة بلا هدف.

وكان ثمة لحد خاص بالنساء، فيه أم حسن وحسين وأمينة الرُّز، ودرية عز الدين، وكانت زوجة حسن الرُّز ستُدفَن فيه عندما تُوفِّيَت في منتصف الثمانينيات، ولكن ابنيه وجدا أن الجو حار بالقدر الكافي حتى تواجه الجثة مصيرًا خرائيًّا في عربة بيجو مليئة بالتراب والذباب، تنقلها من الإسكندرية إلى القاهرة، فدفناها في مقبرة تحمل اسم حسن الرُّز في الإسكندرية، ولم ينفذا قط رغبتهما المشتركة في إعادة جثمان الأب إلى مدينته المفضلة، بسبب مشاغل الحياة، ولكن

ظلت اللوحة، التي كتبها بالصبر، ووُضِعت له فيها أبيات شعر، كتبها زجال وصاحب تعازٍ مُجد في الستينيات، معلقة جوار باب المقبرة، وتحمل معها أسماء حسن الرُّز والسيد رمضان والأم دون الإشارة إلى درية عز الدين.

كانت المقبرة، ورغم قدم فترة إنشائها منذ ما يقرب ١٥٠ عامًا، تقع في الصف الثاني خلف مجموعة من مقابر الباشوات الكبار، أشهرها مقبرة محمد علام باشا، وزير الزراعة في حكومة إسماعيل صدقي عام ١٩٣٣، وبعض مقابر الكتَّاب والوزراء المشاهير، وهو ما كان يُشعِر أمينة الرُّز ببعض الفخر، عندما كانت تذهب لقراءة الفاتحة حتى التسعينيات تقريبًا، قبل أن تمتنع عن الذهاب خوفًا على لياقتها النفسية وحبها للحياة، والخطة التي وُضِعت، كانت تقتضي حفر المنطقة المحيطة كلها لإقامة خوازيق كافية لأعمدة لتطوير محور صلاح سالم من محور جيهان السادات، ويتبع هذا إزالة مقابر بأكملها. كانت ساعة نحس على جميع من بالمكان؛ فقد هُوتِفت أسر بلا أفراد، انقرضوا جميعًا، أو أسر عريقة فرقتها الحياة، وكان الخبر ينزل عليهم مثل الصاعقة.

بعد نصف ساعة، وصل الدكتور لطفي درويش، وكان يحاول الاحتفاظ بقدرته الطبيعية على المزاح في الأوقات الصعبة، ولكنه واجه ترسبًا للقلق في منابع فكره نفسها، فقال بسخرية مضطربة: «كان بابا حزين جدًّا عندما اشترى مقبرة في السيدة نفيسة، وكان يقول: جدكم الرُّز اشترى المقبرة في الغفير في أزمنة الرُّخص.» ولكنه أضاف: «ولكن من الواضح أن السيدة نفيسة تحمي الوالد وبقية من حولها.»

عندما سمعت در الشهوار بالخبر، كانت قد غادرت قاعة المحاضرات بالجامعة الأمريكية، وكانت تقف في دائرة من الطلبة،

تتغزل بفضائل التدريس، وتستعرض تجربتها الشخصية في العطلة والسفر إلى أسوان، لتؤكد، بكثير من الفخر المقصود، أن من يعتَد الجامعة الأمريكية لا يستطِع تركها، والحقيقة أن در الشهوار كانت تحب دائمًا الحديث عن انتمائها العريق إلى الجامعة، منذ أيام كانت فيها تحوز سمعة سيئة كجامعة لأبناء الأثرياء الذين لم يحرزوا تقدمًا واضحًا في الدراسة بالثانوية العامة، وتعدد لحظاتها الخاصة فيها، ومساحة الجامعة نفسها في التجمع الخامس، ما كان يعطي بعض الطلبة انطباعًا كاذبًا بأنها امرأة مغرورة بلا قلب، وخاصة الطلبة الذين التحقوا بالجامعة بسبب التفوق وحده، وبمنحة مجانية كاملة. كانت تستعيد قدرتها الخاصة على الإبهار بهدوء، وتعيد صناعة هالتها الخاصة، وهي تتحدث عن الكباري والإنشاءات وعلاقتها بطبيعة المجتمعات، وتضع الأنثروبولوجيا في كل شيء.

لم يغير الخبر من مزاجها الطيب. وعندما أعادت الاتصال بالدكتور حلمي درويش لتعرف التفاصيل، وفهمت ما جرى، قالت إنها ظنت أن السلطة تنتقم منها شخصيًّا بإقامة كوبري يمر فوق المقابر، ولكنها هضمت الخبر سريعًا، ورأته مثيرًا للاهتمام ببرود علمي، ووضعت ملاحظاتها الخاصة عن تأثير الأموات وأنثروبولوجيا الموت الخاصة في المدينة، حيث مدن كاملة تزاحم المدينة الأساسية التي توسعت، ويقاوم كل منهما الآخر في صراع غير معلن.

ببحث سريع، فهمت أن الدولة قد أقامت طريق الأوتوستراد على مقابر أخرى من مقابر الغفير، ورأت بعض الشهادات الحية، منها التي أوردها الكاتب خيري شلبي عن الجماجم والعظام النظيفة التي كانوا يجدونها بين الركام، ويجمعونها بصبر، والطمس الذي ساد المكان كله. كان مزاجها ميالًا إلى رؤية الخبر في ميزان علمي

وبحثي، فكتبت بوست طويلًا على صفحتها على فيسبوك، ذكرت فيها علاقة مدينتي الحياة والموت إحداهما بالأخرى، والإزاحة التي تتم للموت حتى يكون على أطراف المدينة، في البقع الصحراوية الجديدة، ثم وضعت تفاصيل تخص مقبرة الرُّز، كانت تعرفها من جولاتها السابقة، وبقية مقابر المنطقة، بطرازها المعماري الذي ينتمي إلى المدينة في بدايات القرن العشرين ومنتصفه، ونوعية الزخارف والمجالس الداخلية، ووضعت صورًا للمكان، ثم كتبت بالأسفل، على نحو لا يخلو من جفاء علمي اكتسبته مع الأيام: «لِمَ نضيع تراثنا بتلك الطريقة؟»

عندما ذهبت إلى أمينة الرُّز، ورأت سيف الدين، انشغلت به قليلًا عن الأجواء المحيطة، وتجمع أفراد الأسرة بسبب الحدث النحس. عددت الاختلافات التي طرأت على مظهره وطريقته منذ آخر مرة رأته فيها، وقاست فارق الطول بينهما، ثم أخبرته عن سعادتها بعودتها إلى شقتهم، وشجعته على تجربة البقاء في المدينة قليلًا، فقال لها:

- مع أن عملي كله مرتبط بالبحر فإنني سأبقى نصف عام.

كان يتحدث بأريحية واضحة، تفوق حتى أيامه القديمة قبل المحنة والسفر والتجارب، وكان يراقب طريقة در الشهوار في الحديث، وحماستها لاستعادة حياتها بقواعد جديدة، مع نفحة من الغيرة والإعجاب، حتى قال لها في معرض حديثه:

- أشعر أحيانًا أنكم آخر جيل محظوظ.

فأشارت در الشهوار إلى أمينة الرُّز وهي تضحك، وقالت:

- وماذا عن جيل هؤلاء؟

كانت أمينة الرُّز تتذكر في هذا الوقت حلمًا غريبًا عن درية عز

الدين، رأته مشوشًا بركود وقت العصر، عندما تناولت وجبة محترمة من السباجيتي بكرات اللحم، أعدتها در الشهوار، ثم نامت فوق الكرسي الهزاز الذي تضعه في الشرفة. كانت نومة هادئة في البداية، ثم أخذت منحى دراميًّا عندما اشتدت الحرارة، فرأت وجه درية عز الدين الجميل، الذي لم تنسَه قط، مع الإحولال الخفيف في إحدى عينيها، تبتسم على نحو مريح، منهمكة في فعل شيء ما لا يظهر في غبش مملكة ليست من هذا العالم.

لا تذكر أمينة الرُّز ما حدث حينها، ولكنها علمت أن درية عز الدين سعيدة وهي تقول: «منذ أن رأيته في العرس وأنا أنتظر هذه اللحظة.» ففهمت أنها تتحدث عن حسين الرُّز. واستيقظت بعدها وهي ترتعش بخفة. نظرت حولها باهتمام، لتجد غبار الصيف المتطاير في الهواء وأصوات الضجيج المنبعثة من الشارع والشمس وهي تغسل الشرفة وتحرقها، فنهضت بتثاقل، ثم دخلت إلى الشقة لترتاح فوق مقعدها المفضل، وهي تشعر بالقلق بسبب غرابة الحلم. لم تحاول أن تسأل عن التفسير؛ لأنها شعرت بالقلق من رؤية ميتة في النهاية، واعتصمت بمزاج مكدر طوال اليوم، دون أن تقول السبب، وهو ما كانت در الشهوار تعدُّه من أعراض الشيخوخة التي بدأت تظهر عليها، رغم ذهنها المتقد وحيوية جسدها بالمقارنة بمن في عمرها.

نادت رضا، التي سمعت الخبر وأخذت تدعو على الحكومة في المطبخ، وهي تعد صينية مكرونة بالبشاميل، وتدقق في كمية اللحم المفروم؛ لأن أسرة الرُّز لا تحب البشاميل أكثر من اللحم، وسألتها وهي تجلس في غرفتها، لا تزال تفكر في ما جرى، عن تفسير الحلم الذي رأته منذ أيام. فكرت رضا، ثم قالت: «لا حول ولا قوة إلا بالله. تطلب الرحمة.»

فنظرت إليها أمينة الرُّز دون يقين، ثم طلبت الجلوس وحدها كما كانت. ستقول رضا بعدها: «علمت أنها تطلب حسين الرُّز أخو ستي الله يرحمه، ولكنني لم أعرف معنى ذلك؛ لأنه مات منذ خمس سنوات، كما كانت ستي تتحسس من سيرته.»

الحلم السيئ والغريب، مع الخبر النحس في بداية اليوم، دفعها إلى الصمت كما لم تفعل من قبل. كان تمسكها بالأشياء في حياتها يظهر في أقرب فرصة. في طفولتها، عندما كانت أمها تربي بعض الدجاج والبط في عشش فوق سطح العمارة نفسها عندما كانت لا تزال بها أسر محترمة، وبمساعدة عبدة اسمها عنان، كانت من الحبشة حسبما قيل، وتمتلك صحة حديدية، تخدم بها كل أسر العمارة، كانت تتعلق بطيور معينة، وتعطيها أسماءً مختلفة، ثم تمنع أن تُذبَح عندما تحل الأعياد أو المناسبات الخاصة، وكانت تنفذ ذلك بأكثر الطرق بساطة: تصعد إلى السطح، وتأخذ الطيور المختارة، تخبئها في قبو العمارة، وتنتظر حتى تمر الموجة.

وكان اختفاء الطيور وظهورها بعدها يدفع أمها إلى التفكير في أن جنيًّا بلا قلب يقوم بهذه الدعابة، ويبدل طيور الجن بطيور الإنس، ولم تكتشف يد أمينة الرُّز في الأمر إلا بعدها بفترة طويلة، عندما خبأت بعض البط الأسود المميز في القبو، وافترسته بعض القطط الكبيرة، لتبكي أمينة الرُّز وتلم الناس، ولم ينقذها من عقاب السيد رمضان الرُّز سوى حسين الذي كان في العاشرة وقتها؛ إذ قال موقعًا بصحة قرارات أمينة الرُّز: «لماذا نصاحبها ما دمنا سنذبحها؟» والحقيقة أن أساس كراهية أمينة الرُّز لحسين الرُّز هو تعلقها الشديد به في السابق، قبل انقلابه الذي لم تفهمه أبدًا، وصفاته السيئة التي كان السيد رمضان الرُّز يعددها بينما تبكي أمها بعينين محترقتين.

كانت تراقب طلاقها من درويش عبد الغني بقلق، خوفًا من لجوئه إلى استقطاب أبنائها بعيدًا عنها، ومع الوقت، حولت الشقة إلى مكان يجمع الجميع لكراهيتها للوحدة، وحبها للاحتفاظ بهم جميعًا أمام ناظريها. كان ذلك يصل إلى الأقلام التي كانت تعمل بها في وزارة التربية والتعليم، وفي المجلس الخاص بالمرأة بعد ذلك، وفي مجلس الشعب، والأوراق، وما يمكن أن يُستخدَم ولم يُستخدَم، ونتائج السنوات، والأكواب التي تحمل أسماء شركات، وأحذية بالية، وفساتين ضاقت عليها أو اتسعت، ونظارات شمسية، حتى صارت شقتها تشبه متحفًا منذ مطلع التسعينيات، ولم تبدل فيها شيئًا، وعندما كانت تستمع لباعة الروبابكيا القادمين من ناحية السيدة زينب، سواء الذين ينادون بصوتهم الحر أو يشغلون مسجلًا بصوتهم، تردد بضيق: «يتاجرون في حياة الناس!»

كانت المقبرة بالنسبة إليها مكانًا تملكه، مثل الشقة تمامًا، وهدمها على من بالداخل أدخلها في نوبة خوف حادة من مصيرها بعد وفاتها؛ إذ كانت تتخيل عظامها النظيفة، التي تغذت بكالسيوم اللبن المبارك قديمًا، تُلقى في مزبلة.

عندما جاءت در الشهوار، حاولت إخراجها من حالتها هذه بطمأنة غير مؤكدة، وكلام عن قدرتهم على إيقاف الموضوع، ولكنها لم تصدق نفسها بعد قليل، فخفت نبرة حماستها هذه، واكتفت بقبول المأساة كما هي. قرب الرابعة مساءً، كانت عائلة الرُّز قد تجمعت كلها لأول مرة منذ وقت طويل، مثل الأيام الرائقة، وأهَّل ذلك لسيف الدين استقبالًا سهلًا بلا أسئلة مقلقة. ولأن الجو كان سيئًا؛ لم تطلب أمينة الرُّز من رضا إعداد الطعام، وطلبت منها وضع الكعك بالآنيسون والقرفة، الذي تتقن صنعته من أمها تحديدًا، مع فناجين القهوة المناسبة لساعات النحس.

ظلت صامتة على مقعدها في الصالة، بعدما خرجت من الغرفة، وبانت عليها السن كاملة، بينما كان الدكتور لطفي درويش يتحدث ساخرًا عن الكوبري السحري الذي سيحل مشكلات الأحياء ويخوزق الأموات. كانت در الشهوار، التي أعطاها حضور سيف الدين دفعة حماسة قوية، تراقبه بين الحين والآخر حين تتكلم، تتحدث عن الكباري الأخرى التي أُقيمت في فترة قصيرة، ومرت أمام شرفات بيوت، وأُزيلت بسببها بيوت، وأن ذلك يصب في فكرة الفقه الواقعي للدولة، فقال الدكتور حلمي درويش بهدوء، رغم طريقته العقلانية المعروفة: «فقه؟! إنها دولة بلا دين.»

تحدثت در الشهوار عن قسم الآثار في الجامعة الأمريكية، وتفكيرهم في تجميع الأطراف المهمة، والذهاب إلى وزير الآثار ومواجهته، ورفع الأمر إلى الجميع، ولكن الدكتور حلمي درويش، الذي استمع بصبر، وكان يراقب القهوة في الفنجان المنقوش المقدم إليه، وهو يفكر بخاطر لا محل له أن القهوة لا ضرر منها على أحد، وأن الأبحاث، التي تُجرى عليها، تأخذ عينة لا تكفي الملايين، ثم تطبقها على الملايين، ولأنها فكرة بدائية، غير علمية؛ شعر بالقلق على حالته هذه، فقال بجفاء علمي:

- الفكرة أنهم أعطونا مهلة ثلاثة أيام لنقل الرفات قبل هدم المقبرة.

كانت أمينة الرُّز معتصمة بصمتها. وعندما سمعت هذه الكلمة، قالت بحدة مفاجئة:

- كيف يفعلون ذلك بمن خدموا البلد طوال عمرهم؟

طلبت الهاتف النقَّال وهي تردد كلمات غير مفهومة، وطلبت دفترها الأخضر الذي تحتفظ فيه بأرقام كل معارفها خلال ثلاثين عامًا، وبحثت عن الرقم السحري الذي يتراءى لها في المصائب،

وقبل أن تهاتف صاحب الرقم، سألت الجميع الذين يراقبون غضبها بقلق:

- هل الدكتور فتحي سرور ما زال حيًّا؟

فقال الدكتور لطفي درويش:

- طبعًا، من جيل السمن البلدي المبارك.

هاتفت الرقم، وفُوجِئت عندما سمعت الصوت الناعس المميز، والهدوء الذي استقبل به المتصل، فعرَّفت نفسها سريعًا، وهي تستعيد مكانتها في مملكة هذا العالم:

- النائبة سابقًا وخادمة الوطن أمينة الرُّز.

عرفها سريعًا، واستقبلها بترحاب خفيف يناسب سنه، وسألها عن الصحة والأولاد، وعن حفيدها سيف الدين الذي واجه مشكلة الاعتقال في السابق، فتجاوزت بحيرة المجاملات الثقيلة هذه، وحدثته عن موضوع المقبرة مباشرة، فشرح لها من دون مفاجأة أن الأمر يخص أطرافًا عدة، وتتبع المحافظة، مع أن حيز المقابر لا يتبعها إداريًّا، وإنما يتبع وزارة الآثار إذا أُثبِت أنه أثر، وغير ذلك فهو لا يُعَدُّ سوى ملك لمواطن، يجوز للدولة أن تتصرف فيه وتعوضه بعدها، كما أن ثمة طرف الشركة الهندسية التابعة للجيش، والتي تقوم على المشروع نفسه، وهيئة الطرق والكباري. وفي النهاية، بعد أن استعرض خبرته القانونية باستمتاع، قال:

- لن أعد بالحل، ولكنني سأحاول. هاتفيني بعد ساعة يا أمينة هانم.

قضت أمينة الرُّز الساعة في صمت، وقبيل نهايتها، دعت الجميع إلى الجلوس في الشرفة، وشرب دفعة أخرى من القهوة، فقالت در الشهوار:

- أمامنا مشوار طويل يا ماما. نتعشى ثم نعود إلى اتصالاتنا.

رفضت أمينة الرُّز بحزم، وانتظرت حلول الساعة الخامسة عصرًا، وهاتفت فتحي سرور مرة أخرى، ففاجأها بصعوبة الأمر، وقال لها ماحيًا كل آمالها التي أقامتها:

- من الواضح أن الأمر معقد ولا وقت.

شرح لها التعقيدات الإدارية، ومشكلة المكان الذي حُدِّد مسبقًا، وعدم وجود وقت لتحديد إذا ما كانت المقبرة تنتمي إلى الآثار من عدمها، ويجب أن تتخطى معها قرنًا من الزمان، وتنتمي إلى تراث معماري مميز، فقالت أمينة الرُّز:

- ولكنهم أخبرونا اليوم!

انتهت المكالمة، ونظرت أمينة الرُّز في وجوه الجالسين، ثم قالت بجدية:

- لا يُوجَد حل، يجب نقلهم إلى مقبرة أخرى.

كلمة من هنا على اتصال من هناك، حتى حل المساء، ولم يجد أحد حلًّا واضحًا مع تعدد أوجه القرار في الموضوع، فقال الدكتور حلمي درويش:

- يقضي الواحد عمره يعالج في خلق الله ثم لا يجد واحدًا يستطيع فعل شيء.

تجاوزت در الشهوار حالة الركود العامة هذه، وسألت بجدية:

- طيب يا جماعة، إلى أين يكون النقل؟

والقصة أن مكان النقل المعروض، كما سمع الدكتور حلمي درويش صباحًا، كان في مقابر ١٥ مايو البعيدة، التي لن ترضى بها أمينة الرُّز حتمًا لبُعد المسافة، ولعدم وجود طراز معماري تاريخي

مميز لها، ولذلك؛ عدَّ الدكتور حلمي درويش العرض مرفوضًا، وحاز الأمل الكافي حتى يفكر أن القرار لن يُنفَّذ. قال الدكتور حلمي درويش:

- في آخر الدنيا، ١٥ مايو.

فخرجت أمينة الرُّز من صمتها:

- لن أُدفَن في الصحراء بعيدًا.

نهض شادي لطفي، واقترب منها، ثم احتضنها من الخلف، وقال، كما ردد الجالسون:

- طولة العمر يا ستو.

كان سيف الدين يراقب كل ذلك بلا فعل، وقد شعر أن الحياة قد انفتحت عليه بكل مشكلاتها الجادة مرة واحدة، فأمسكت به فكرة العودة السريعة إلى دهب، حتى يعيد تنظيم حياته بعيدًا عن مشكلات الليل والنهار هذه، ولكنه انتظر بدافع الفضول، وبسبب السخونة التي بدأت تنتشر في أطرافه، وتذكره لحاله القديمة عندما كان يملأ الشوارع والميادين بصخبه. كان يفكر في الحل تفكيرًا محمومًا، بينما يحاول عدم الاهتمام في الوقت نفسه، وهو ما أكسبه هيئة متوترة، لتأخذه در الشهوار بعيدًا، وتسأله عما يشعر به، فقال بلا تفكير:

- كأن حمل مئة عام فوق كتفي.

فقالت سريعًا:

- سيف الدين ابن در الشهوار يستطيع حمل ألف عام.

حدثته بطريقتها المثيرة لحماسة الطلبة، وكانت تبتسم رغم الموقف النحس؛ لأنها شعرت بتوهجها الشخصي مع الحدث الاستثنائي،

ولذلك؛ كانت هي من أكثر الذين يحاولون الوصول إلى مخرج، ثم تعود إلى دراستها عن الكباري والبعد الاجتماعي لها، فتجمع بعض التفاصيل من الحدث الذي تحضره. كان قلق شادي لطفي على أمينة الرُّز واضحًا، فكان يُعِدُّ لها المشروبات المهدئة مع رضا، التي كانت تبكي بـ لا كابح، وتتحدث عن العين التي تحاصر سيدتها منذ عقود بسبب صحتها القوية وذهنها الحاضر في التسعين، ورغم ذبولها الواضح، فُوجِئ بصحوتها وهي تبحث عن حل سريع يحفظ كرامة أسرتها، فاقترحت در الشهوار مقبرة درويش عبد الغني في مدينة نصر، فقالت أمينة الرُّز بثقة، ماحية الفكرة من أساسها:

- انفصلنا ولا يجوز، ولن أُدفَن جوار ربيبة الحواري تلك.

ثم استعلمت من الدكتورين حلمي ولطفي عن القدرة على شراء حوش في تُرب الغفير نفسها، يستطيعون نقل الرفات إليه، ولكنهما قالا إن أغلب الأحواش هناك مزدحمة على آخرها، كما أن كثيرًا من الأحواش قد فقدت أصحابها منذ زمن الزمن، ما يُصعِّب فكرة العثور على ملاكها وإعدادها للزوار الجدد خلال ثلاثة أيام.

على العشاء الخفيف الذي أعدته رضا، والذي تناولته أمينة الرُّز وهي تشعر بالكدر، مع خط خفيف من ألم الرأس، وارتفاع طفيف في الضغط، أجرى عليها الدكتور لطفي درويش كشفًا بعد العشاء، وحاول إقناعها بالنوم والراحة قليلًا، فقالت بحدة: «بابا وماما وأبيه حسن في خطر، العائلة كلها، وحتى درية عز الدين. لن أنام إلا عندما يُحَلّ الأمر، أو أذهب بنفسي فأتمدد أمام البلدوزر.»

لم تنم أمينة الرُّز ليلتها، وظلت ممددة على الفراش بعينين مفتوحتين، حتى نامت من الإرهاق وحده. وعندما استيقظت قرب الفجر، خرجت إلى الصالة الخالية، فوجدت شادي لطفي وقد تمدد فوق الأريكة وقد شغل بجانبه على الهاتف قائمة بموسيقى

موتسارت، ثم دخلت إلى الشرفة، وراقبت أضواء آخر الليل المنكسرة فوق الشارع، والحركة الخفيفة لبعض العربات، والخيالات المظلمة لمارة مجهولين يمرون بالشارع الصغير بجانب العمارة، أو شارع المبتديان نفسه، وظلت في مكانها حتى الصباح، ورآها شادي لطفي على حالتها هذه، وقد استحالت إلى طيف شفاف من كثرة التفكير، فطلبت منه إيقاظ رضا، وأن يطلب منها إعداد قهوة الصباح السادة، كما تحبها أسرة الرُّز، وقالت بعدها: «وهاتف أباك وخالتك وسيف الدين، واجمعهم على الإفطار.»

طلبت مجموعة من الأجبان من سوبرماركت قريب، وطلبت من رضا أن تعد للجميع شكشوكة وبيضًا باللحم المفروم وبطاطس محمرة بالشطة، وكل ما يميز مائدتها الصباحية، وقررت الظهور بمظهر قوي ليومها هذا، ومناقشة الحلول بهدوء، وصولًا إلى الحل الذي لم تجد غيره، وتراءى لها في هدأة الصباح، عندما اختلط اللونان المقدسان وظهر من بينهما ضوء خفيف لفكرة واضحة وضوح الشمس.

لاحت بمزاجها الطيب هذا وهي تستقبل الجميع بابتسامة خفيفة، وتركت ندى حلمي الصغيرة تُقبِّل يدها في عادة لم تطلبها، ولكن ابتكرها شادي لطفي في إحدى مبادرات حبه المفاجئة، واقترب منها سيف الدين، وقبَّل يدها، وقال بهدوء: «ربنا يبارك في عمركِ يا ستو.»

تناولوا الإفطار ببطء، وتحدثت در الشهوار بلا قلق، عندما لاحظت نفحة عامة من الارتياح تكلل الجميع، أن الإزالة تهدد مقابر حسين عبد القدوس وأسرته، وبعض كبار المسؤولين القدامى ورجال العلم والفكر، وأن ذلك يؤكد توجه الدولة الجديد، العملي في مقابل البعد العاطفي. كانت تتحدث بلا بحماسة، وتشرح ما

يجري كأنه لا يخصهم، عندما نهضوا وجلسوا بالصالة، وتبادلوا شرب القهوة السادة والشاي بحليب، وتحدث الدكتور حلمي درويش قليلًا عن محاولاته منذ اليوم السابق بإلغاء القرار من خلال مكالمات متفرقة للمحافظة ومسؤولين عالجهم، وجميعهم أبدوا الأسف بسبب القرار، حتى قال بسخريته الجادة التي لا يغير معها من صرامة وجهه مطلقًا:

- ومع البحث عن المتحكم في القرار، بدأت الإيمان بأنه طرف ثالث لا يعرفه أحد.

فقال الدكتور لطفي درويش:

- لعلها إسرائيل.

كانوا يتحدثون بأريحية وهم يراقبون وجه أمينة الرُّز المبتسم، وهي تهز رأسها بخفوت. وبعد فترة صمت طويلة، سألت أمينة الرُّز در الشهوار:

- هل لكِ تواصل مع تلك الخدامة؟

فسألت در الشهوار:

- أي خادمة يا ماما؟!

فأجابت أمينة الرُّز:

- الخادمة السوداء التي تزوجها خالكِ.

فقالت در الشهوار:

- لا يا ماما، بدرجة خفيفة جدًّا، ولكنها علاقة طيبة.

فقالت أمينة الرُّز بنبرة حيادية بلا مشاعر:

- إكرام الميت دفنه، ولا يُوجَد غير الرُّز ليستقبل الرُّز.

يوم

٢٨

كانت حبوبة قد نأت عن در الشهوار بوضوح منذ بدايات الكورونا، مع التعامل العملي الخالي من العاطفة للأخيرة، وتناست وجود عائلة الرُّز، وازدادت انعزالًا وحدة. كانت تسهر لتتابع حسابات المطعم يوميًّا حتى الثانية بعد منتصف الليل، وتنام أربع ساعات بالعدد، ثم تخرج مع الفجر حتى تفتح المطعم قبل العمال، وتتابع حركتهم في تجهيز البطاطس والخلطة الخاصة وكل ما يخص العمل اليومي، وتتابعهم بدقة موترة.

مع الوقت، اكتسب صوتها خشونة غريبة، وكبرت في السن مرتين ثلاثة، ولكنها احتفظت بجمالها القديم نفسه، وطرافتها في ممازحة الزبائن المتكررين. تحفظ أسماءهم وترددها عندما يأتون، وتتبادل معهم الشكوى بشأن الأسعار وحالة الاقتصاد الخرائية. وقت كورونا، لم تغلق المطعم خوفًا من الجلوس وحدها في شقة عابدين؛ إذ كانت الذكريات تستبد بها، وتجد نفسها وهي تفكر في الزواج مجددًا كحل طبيعي وشرعي، ثم تخوض في بحار الخوف الزرقاء عن طمع الزوج المحتمل في المطعم وفيها. حاولت معها أمها، بعد مصالحة فاترة، أن تعرض عليها رجالًا أرامل من القرية، يتميزون بالطيبة الكافية لأن يسيروا وفق قرارها، أو شبابًا محاسبين، فكانت تجيب بثقة: «تزوجني ابن باشوات، وقد انتهى عصر الباشوات بوفاته.»

كانت تردد قصصًا لم تحدث، تصدقها بعدها، عن انتمائه العريق إلى أسرة كبيرة ومترامية الأطراف، وابتعاده عنها لأنه عصامي، تنظف مقعده المفضل يوميًّا، وتتأكد من وضعية صوره بالصالة، وتنظف غرفة مقتنياته الغريبة والمتشعبة، التي لا تدخلها الشمس، حتى تظل كما هي، وتغسل ثيابه كل أسبوع كأنه حي، ورغم

ذلك، كانت وطأة الوحدة تلقي ظلالها عليها من خلال مغامرات كلامية أو تلميحات مع بعض موردي البضائع، أو زبائن يرتدون ثيابًا فاخرة، يحبون النفحة البلدي في العمل، أو عامل فارع وله يدا بغل، تتخيله معها في شقة عابدين، لتحوله ملكًا متوجًا على حياتها، وتجدد شبابها معه، ولكنها كانت تنقلب ستين درجة عندما تتذكر المطعم والإيراد، فتزداد صرامة، وترتدي وجه الكدر الدائم.

وقت كورونا، كانت تفتح المطعم، وتترك الباب مقفولًا حتى النصف، وتبيع للزبائن من أسفل الباب وهي ترتدي الكمامة، وتتعامل متعرقة تفوح منها رائحة الخمري السودانية، وكانت تغلقه أحيانًا، وتنتظر في الداخل صامتة، بناءً على إخبارية من مخبر عن حملة من البلدية على المطاعم والمحال المفتوحة رغم الحظر القانوني. أهَّلها هذا إلى مكسب مميز، اكتشفت معه حبها الطبيعي للمال، وقدرتها على التدبير، فاستطاعت شراء شقة بالتقسيط في مدينة بدر بعد حديث عن افتتاح العاصمة الإدارية الجديدة، وماكينة توصيل يعمل عليها شاب مجد من جعافرة أسوان، وعربة رينو لوجان صغيرة، كانت تقودها ببطء متعمد عندما تدخل الشارع الصغير، وتظهر مع لقبها الجديد في مملكة هذا العالم: الحاجة الصغيرة.

كانت أفكارها التجارية مبتكرة، ولم ترد على خاطر حسين الرُّز في أزمنته الذهبية. أنشأت صفحة على فيسبوك وإنستجرام، واستقطبت بعض الشباب الموهوب لإدارة هذه الصفحات، فكانوا يعملون على التسويق لبطاطس الرُّز المقلية بالخلطة السرية كشيء أكثر أصالة من كنتاكي، ويعرضون الصور التاريخية للمطعم مع زبائنه الأشهر، والمعلقة فوق جدار المطعم بالداخل، وصور حسين الرُّز نفسه، حتى رآها سيف الدين وشادي لطفي فجأة، تطل عليهما من خلال بعض الصفحات، وشاهدتها در الشهوار ولكن نسيتها في غمرة انشغالها بدورها المستعاد.

ولذلك؛ صار معظم الطلبة والمدرسيين الفرنسيين، الذين يأتون أساسًا للإقامة في المنيرة، قرب المعهد الفرنسي، يردون على المطعم بكثرة، ورشحت واحدة منهن حبوبة نموذجًا مميزًا لفتاة مصرية تتحدى قواعد الجندر، وتدير مطعمًا وحدها باقتدار، وهي ترتدي زيًّا معاصرًا، بعدما غيرت زيها التقليدي، فصوروا معها برنامجًا وثائقيًّا، وزارتها المذيعة في شقة عابدين، وشاهدت معها طريقة عملها للبطاطس والسجق على طريقة الرُّز، بحضور واحدة من السيدات اللاتي يعملن معها بجدية وصبر، فرفع ذلك من سهمها سريعًا، وأبعدتها هذه اللعبة الجديدة عن لعبة الحب والذكريات.

عندما هاتفتها در الشهوار في ذلك اليوم النحس، كانت في المطعم كعادتها، تشرب فنجان القهوة الثالث. أجابتها بلا حماسة، وتحدثت معها بحيادية عن شؤون الحياة، وبعد مقدمة لا بد منها، أخبرتها در الشهوار برغبة أمينة الرُّز في الحديث معها، ودعتها إلى الزيارة، فقالت حبوبة:

- بيت حسين الرُّز مفتوح يا در هانم، وقد استقبلك في الماضي ويستقبل الآخرين حتى آخر يوم في عمري؛ وهو بيتكم في النهاية.



حاولت در الشهوار تجميل طلب حبوبة الحاد، ولكن أمينة الرُّز، التي كانت تستحضر روح المرأة الحديدية القديمة داخلها، وافقت بلا اعتراض، ثم قالت بفتور:

- أبناء الأصول لا يُخرِجون سيدة في التسعين، تطلع وتنزل.

ولكنها استطاعت تجاوز حزنها الممتد منذ الأمس بسهولة، ونزلت مع در الشهوار والدكتورين حلمي ولطفي ليزوروا شقة عابدين.

فور دخولها الشقة، فاحت برائحة حسين الرُّز الليمونية المميزة، فترددت أمينة الرُّز قليلًا، ولكنها أخفت اضطرابها بوجه صارم، وجلست في الصالة، مسحتها سريعًا ببصرها، حتى رأت صورة حسين الرُّز في إسطنبول، وهو يعمل على عربة بيع فرحات، وصورة درية عز الدين، وبقية الصور التي تخصه في مقاطع من حياة لا تعرفها. بدأت در الشهوار الحديث، وشرحت وضع المقبرة الخاصة بأسرة الرُّز، فقالت حبوبة وقد تحلت بابتسامة زائفة، تخفي بها إحساسًا عامًّا بالارتباك بسبب الدخول الرسمي لأمينة الرُّز:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. كفر والله!

كان الدكتوران حلمي ولطفي يضيفان تعليقًا بين الحين والآخر، لا يعطي الحديث الشحنة الكافية، حتى تدخلت أمينة الرُّز بنفسها، وسألت ببطء عن رأي حبوبة في نقل جثامين الرُّز إلى مقبرة حسين الرُّز، التي لا تعرف مكانها، حتى تُجهَّز مقبرة تليق بالجميع، فعلقت حبوبة:

- الله يرحمك يا حسين، كان يموت ويرى هذا اليوم.

نظرت إليها أمينة الرُّز بفتور، وقالت بجفاء علمي:

- في النهاية هو أخي، وسيتفهم بابا الأمر.

تـم الاتفـاق بسـهولة، ولم تنفـذ حبوبـة أيًّـا مـن السـيناريوهات التـي فكـرت فيهـا عـلى نحـو محمـوم طـوال اليـوم، وتأثـرت بظـرف در الشـهوار الطبيعـي، وتبريرهـا الانقطـاع بسـبب سـفرها إلى أسـوان، وفـترات مضطربـة عـدة في العامـين الأخيريـن. وبعـد فناجـين القهـوة وضيافـة خفيفـة مـن كيـك وكعـك، دخلـت در الشـهوار إلى الشرفـة بدافـع الحنـين وحـده، ثـم إلى غرفـة المقتنيـات، ودارت فيهـا بـين أكـوام الكتـب ومـا اشـتراه حسـين الـرُّز خـلال عقـود مـن أسـواق المسـتعمل، ثـم قالـت لحبوبـة:

- أريـد إعـادة سـيف الديـن إلى الغرفـة. أحـاول دفعـه إلى الدراسـة والحيـاة مـرة أخـرى.

فسألت حبوبة عما به، فقالت در الشهوار:

- انعزل مثلما انعزل خالو حسين.

فقالت حبوبة ببساطة:

- لو وجد الحب لما انعزل.

ظلـت أمينـة الـرُّز في مكانهـا بالشـقة، ثـم دخلـت الشرفـة بعـد إلحـاح مـن در الشـهوار، والحقيقـة أنهـا شـعرت بارتيـاح خفـي، لم تقـف عـلى منبعـه، عندمـا شـمت رائحـة حسـين الـرُّز القويـة، التـي تتذكرهـا مـن خـلال شـقوق الذاكـرة التـي تحتفـظ بقطـع مفاجئـة، وتـرى حسـين الـرُّز معهـا في ضـوء مغسـول بـماء صباحـات بعيـدة، وهـو يجلـس في شرفـة شـقة المبتديـان، عندمـا كانـت تفـوح برائحـة الدهـان الجديـدة.

لم يتضـح مقـدار هشاشـتها الحقيقـي إلا في اليـوم التـالي، بعدمـا قضـت ليلـة كاملـة بـلا نـوم، تسـتعيد أحـداث خصومتهـا الطويلـة مـع حسـين الـرُّز، بـلا توقـف، حتـى اجتاحتهـا نوبـة ثـورة بـلا داعـي، فهاتفـت الدكتـور حلمـي درويـش صباحًـا، وأخبرتـه بحـدة عـن قدرتهـم الماليـة

الكافية لإيجاد مقبرة مناسبة، وعدم التذلل للخادمة السوداء الوجه والنفس، ولكن الدكتور حلمي محا كل ذلك عندما أخبرها أن الإزالة بدأت بالفعل، وأن الصحفي محمد، ابن إحسان عبد القدوس، قد نقل رفات أبيه وزوجته بعد ما جرى، فقالت بجدية: «ينُقَل الجميع غدًا وإلا تفقدونني مع أول معول.»

حاول سيف الدين إبعاد نفسه عما يجري بحجة دبجها بعناية، ذكر فيها طلبًا عاجلًا له بالعودة إلى دهب من أجل مشكلة في مركز الغوص الذي كان يعمل فيه، ولكن شادي أقنعه بالبقاء والمشاركة في ما يجري حتى لا يعزل نفسه عن العائلة أكثر. لم يزُر شقة حسين الرُّز منذ أعوام، ولذلك؛ أخبرته در الشهوار، وهي تلاحظ ارتباكه العام بسبب تيار الأحداث الذي قذف به داخل العائلة وشؤونها فجأة، أن غرفة مقتنيات حسين الرُّز صارت متحفًا للظلام والعطن، وتحتاج إلى تنظيمها والبحث فيها عما يمكن أن يفيدها في أبحاثها، وقالت له: «لعله وثق فيك وعدَّك حفيده لهذا السبب.»

والحقيقة أن انتقال جميع سكان مقبرة الرُّز، إلى مقبرة حسين الرِّز في مدينة نصر، دفعت سيف الدين إلى تذكر كل شيء جمعه معه، وليالي التوحد في الغرفة، وقصص «ألف ليلة وليلة»، ولسبب ما، شعر أنه كان ينفذ طريقة حسين الرُّز الخاصة في الحياة، بالبحث عن الحب بعيدًا عن الأسرة وعن مكان الميلاد والنشأة. كان قلقًا بطبيعته من رؤية المشهد الكئيب للأكفان وهي تُحمَل إلى عربات سوزوكي صغيرة، استأجرها الدكتور حلمي درويش لمهمة الجنازة الثانية الحزينة هذه، ومن زيارة حسين الرُّز في مقبرته لأول مرة، بعدما تحاشى السيرة كلها لصالح سيف الدين الجديد، ولكنه خاض في الحدث بلا قلق، بعدما جرفه الفضول إلى حفظ كل ما يجري في ذهنه، وهو يتذكر رغبته القديمة والأصيلة في توثيق ما يجري في

حياته بالكتابة أو التصوير. كان شاهدًا صامتًا على ما يحدث، من دون التدخل بالرأي كما كان شادي لطفي يفعل بحماسة.

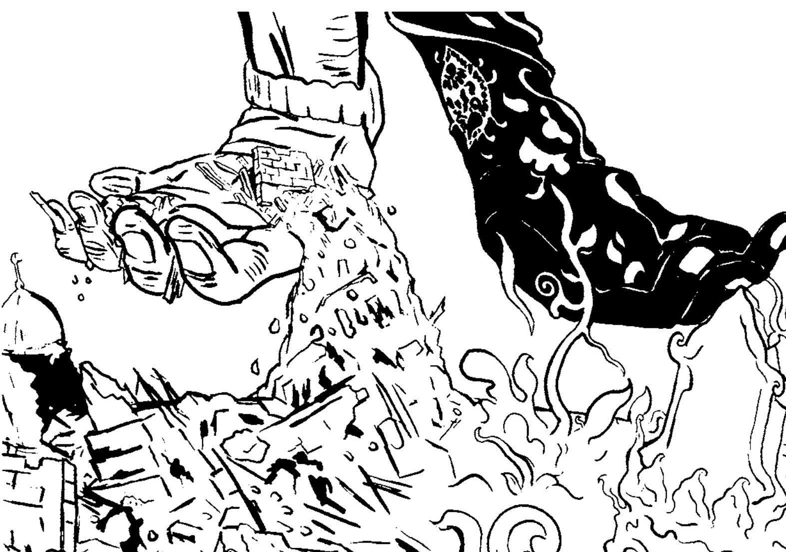
تناول الغداء مع الجميع في شقة المبتديان، ولاحظ صمت أمينة الرُّز الدائم، وقلق رضا الطبيعي عليها؛ إذ كانت تقترب منها بين الحين والآخر، وتسألها بخفوت عما تريده، فكانت أمينة الرُّز تكتفي بإشارة صارمة من يمناها، وتطلب فنجانًا جديدًا من القهوة. شربت في اليوم، الذي سبق نقل الجثث، عشرين فنجان قهوة، متجاوزة تحذير الدكتور لطفي درويش، ومحاولات شادي لطفي المستميتة في دفعها إلى حالتها الطبيعية ومزاجها الطيب، ولكن در الشهوار كانت تردد بيقين: «لن تهدأ ماما إلا عندما تنفذ ما في رأسها.» ثم أضافت: «أورثتني القلق نفسه والرأس العنيد.»

في النهاية، تجاوزت أمينة الرُّز اليوم بلا نوم، واستعدت بتهيب لعملية النقل، وذهبت رغم محاولات منعها، فوقفت أمام المقبرة القديمة، والباب الحديدي الذي مسه الصدأ والبلى، تتأمل ما يجري حوله من عمليات هدم تقترب سريعًا، في مشهد ستقول عنه بعدها إنه ذكرها ببروفة يوم القيامة عندما تنكسر المقابر ويخرج الجميع في حلقات لا تُصدَّق. اعتذرت بأدب طفلة صغيرة لأبيها السيد رمضان، ولجدها حسن الرُّز، ولأمها، وللمستشار حسن الرُّز، وتأملت اللافتة التي وضعها حسن الرُّز في زمن الزمن، وطلبت انتزاعها ووضعها كما هي في مكانها الجديد، ثم اعتذرت لدرية عز الدين، وابتعدت حتى لا ترى عملية النقل نفسها، رغم الفضول الجارف الذي كان يقاوم النفور داخلها.

بعد ذلك بكثير، عندما تمت العملية، فُوجِئ الواقفون أن أمينة الرُّز قد نسيت عدد الساكنين في المقبرة، وأنها لم تتذكر عملية دفن

رمضان ابن المستشار حسن الرُّز الصغير، الذي مات في حادثة بالإسكندرية، وقالت بيقين عندما أخبروها عن جثمان لم يتبقَّ منه شيء لطفل صغير جدًّا: «لعل والدنا دفنه معه. كان طيب الله يرحمه.» كما تذكرت أختها توحيدة، التي لم يجدوا منها شيئًا، فأكدت ما قالته أمها في الزمن الأول إنها لم تكن إلا من سكان السماء.

كان الجو حارًّا، وساد الصمت الجميع رغم كل شيء، ولم يستطع الدكتور لطفي درويش الحديث بخفة عما يجري، واكتفى بالنظر إلى الشوارع المزدحمة بارتباك، بينما كان الدكتور حلمي درويش يقرأ القرآن من مصحف صغير، وكان سيف الدين في عربة در الشهوار، يتأمل عربة أمينة الرُّز المرسيدس القديمة التي تخرج من المقابر مثل مشهد من فيلم بالأبيض والأسود، حتى وصلوا، مع إرشادات حبوبة، وبعض نفحات الذكريات من در الشهوار التي حضرت جنازة حسين الرُّز، إلى منطقة المقابر في مدينة نصر.



كانت حبوبة قد هاتفت حانوتي المنطقة، فجهز مدخل المقبرة لاستقبال السكان الجدد، وفتح عين النساء لاستقبال درية عز الدين، وأم حسين الرُّز، جوار لمبة بطاح، التي تذكرت أمينة الرُّز وجودها بشيء من الذهول؛ لأنها نسيت كل ما يخصها، وكانت الأشجار والورود، التي سقتها حبوبة بعناية، طوال أعوام، قد غطت المكان بالكامل، وأكسبته نفحة مريحة بين بقية المقابر.

حددت أمينة الرُّز مكانًا مناسبًا لوضع لافتة المستشار حسن الرُّز، التي يعدد فيها مناصبه، مع أبيات شعر كُتِبت فيها على يد مستشار من طلبته، كان يحبه إلى درجة الهوس، فكتب عن حُسن الشرق وحُسن السيرة، جوار لافتة حسين الرُّز التي تكتفي بوضع تاريخ وفاته، مع آية قرآنية. كان الجميع في انتظار إشارة من يدها، حتى تبدأ عملية الدفن، ولذلك؛ قالت در الشهوار بشيء من نفاد الصبر، بعدما هزها حزن قوي، أطاح بفضولها الخاص تجاه كل ما يجري:

- ماما، الجو انقلب شمس.

نظرت إليها أمينة الرُّز بتشوش، ثم نظرت ناحية باب المقبرة المفتوح، ورفعت يديها لتقرأ الفاتحة فجأة، ثم تكلمت بهدوء، سمعه الجميع، بصوت استعاد قوة أيامه القديمة:

- مساء الخير يا أبيه حسين. أحضرنا لك درية عز الدين، حبيبة قلبك، ونرجو السماح بالإذن لأسرتنا بالبقاء معك.

سكتت قليلًا، ثم اهتز صوتها فجأة ببكاء قوي لم يمر عليها منذ أن كانت طفلة:

- لا أعرف من يسامح من يا أبيه حسين، ولكنني سامحتك منذ أن قلت كلمة أبيه؛ تعرفني، عفريتة كما كنت تقول، ولا أقول إلا ما أحس به مثلك تمامًا. لعل المكان غير

مناسب لنجلس ونتحدث، ولكن معي أسرتنا كلها؛ جدو حسن سيُشرِبكم اللبن مثل زمان، وبابا سيقرأ عليكم يس، وأخي حبيبي المستشار حسن سيتحدث عن تاريخ الأموات المحيطين بكم، ودرية عز الدين ستعد القهوة، والست لمبة ستعد العشاء، ويمكن رمضان الصغير كبر الآن، وسيكونون جميعًا متحلقين حولك يا أبيه، لا ينقصكم فقط إلا أنا، ولا أظن أنني سأطول.

بكت در الشهوار بصمت، وجسدها يرتعش، رغم كل محاولاتها للثبات، بينما أمسك شادي لطفي بيد سيف الدين، الذي كان ينظر إلى المشهد كله بذهول واضح، بينما أخذ لطفي درويش ينفخ بقوة، وهو يقاوم غصة في حلقه تدفعه إلى البكاء، وغطت حبوبة وجهها، بينما أخذ الدكتور حلمي درويش يردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان سيف الدين ينقل بصره على نحو محموم بين الجسد الصغير الهش لأمينة الرُّز، التي شعر ناحيتها بإشفاق قوي فجأة، وفتحة المقبرة، عندما أكملت كلامها:

- سامحني يا أبيه، المسامح كريم، وشكرًا على كرم الضيافة يابن الأصول.

علا بكاؤها مرة واحدة، ثم أخذت تسعل وهي تحاول التماسك، عندما أشارت لإتمام العمل، وهي تقول:

- كان يجب أن نستأذن في البداية؛ فنحن في بيته.

بعد هذا بزمن، عندما أقابل سيف الدين عن طريق شادي لطفي، سيصف لي مشهد بكاء أمينة الرُّز هذا على أنه أحد أكثر مشاهد حياته إيلامًا؛ لأن بكاء الأقوياء مؤثر في كل الأحوال، ولم

يذكر أحد من الواقفين أن أمينة الرُّز قد بكت على هذا النحو في أي من سنوات عمرها الطويل. كان مشهدًا آخر هو ما دفعه إلى زيارة شقة عابدين لأول مرة مع شادي لطفي، وإعطاء نفسه لغرفة المقتنيات المظلمة، ليجلس فيها بالساعات أولًا، ثم يصل إلى أيام، نقَّب فيها بين الصور والأدوات والأجهزة القديمة ونسخ «ألف ليلة وليلة»، واكتشف، في أثناء تنقيبه هذا، أن حسين الرُّز كان قد جمع كل ما يخص حياته خلال ثمانين عامًا في المدينة نفسها، ووصف هذه العملية المعقدة بقوله: «كان جدو حسين يقيم هرمه الخاص من مقتنيات سوق المستعمل.»

ظل ينظم كل ما يجده، ويعطيه أرقامًا، بمساعدة شادي لطفي الذي وجد فيها مهمة حياته، ويحاول التمييز بين ما يخص حسين الرُّز وما اشتراه لأنه يشبه ما يخصه في زمن سابق. وعندما اكتمل عمله، بدأ يفكر في فكرة المتحف هذه التي اقترحها شادي نفسه، ولكنه لم يجدها فكرة كافية، خاصة مع خلفيته الأكاديمية المتأثرة بفكرة الكتابة. كان لا يزال يحتفظ بقامته الرياضية عندما قابلته، مع سمرة الشواطئ التي اعتاد الحياة عليها، وكان في حركاته ارتباك خفيف يميز كل المنعزلين اجتماعيًّا، ولكن حديثه كان جذابًا، خاصة أن طفولتنا تتشابه بسبب وحدتنا، وانكبابنا على الأمور نفسها، وهوسنا بروايات الجيب، وخجلنا الفطري الذي نخفيه عن الجميع بجرأة حادة، وارتحت في الحديث معه، وكنا نتقابل يوميًّا في مقهى جديد بالكوربة في مصر الجديدة، جوار محل حلاقة أحبه، وذلك بسبب ارتياحي الطبيعي هناك كما ذكرت له.

أثنى على نظارتي المدورة، وذكر ما يؤكد تشابهنا أنه يحب النظارات، وكان يتمنى ضعف عينيه حتى يرتدي واحدة. كنت أستمع له يوميًّا، بعد الدوام، ثم أحاول كتابة ما سمعته كتابة أدبية، حتى بدأت أهيم مع عائلة الرُّز، وطلبت بعدها أن يُعرِّفني

عليهم كصديق؛ لأنه كان يخشى من ردة فعل جدته الحديدية بسرد وقائع الأسرة كما حصلت، ولعل ذلك سبب من أسباب عدم اهتمامي بدقة معلومات تاريخية بعينها؛ حتى لا أقع تحت طائلة النقل بلا إبداع، كما غيرت بعض الأحداث التي رأيت أنها تناسب الشخصيات أكثر من الواقع، كما يحب أغلب الكتَّاب، وقرب انتهاء الكتاب، عرضته على سيف الدين وهو منشغل بإعداد المتحف أو المعرض المتنقل، فقال بارتياح: «شعوري نفسه وقتها.»

فكما قال، عندما تخطى قلقه الطبيعي، واستعاد الفضول الكافي ليدخل إلى الفتحة المظلمة، ويرى ما في الداخل، وساعد في وضع الأجساد التي خفت كثيرًا، لاحظ فجأة، في بارقة خاطر غير كاذب، أن حياة الأسرة كلها، خلال ما يقرب من مئة عام، ناصعة البياض مثل العظام التي بين يديه، النظيفة البراقة في الظلام، كاملة بلا خلافات ولا نقص طبيعي ولا خصام، كأنها للملائكة، تكللها ابتسامة سعيدة وواثقة كالتي استقبلتهم بها جمجمة حسين الرُّز بكل ترحاب، ومن حسن الحظ، أن عربة كانت تسير في الشارع القريب بالخارج وقد علا صوت الكاسيت، ليسمعوا جميعًا ما كلل المشهد كله بألق لا يُصدَّق من عالم غير العالم، خاصة مع هبوب رياح مفاجئة طيَّرت ورق شجر البونسيانا الأحمر وبعض الأزهار ومسك الليل، الكلمات التي ترددت في أغنية عبد الحليم: «وأتاريني، ماسك الهوا بإيديا، ماسك الهوا، وآه من الهوا يا حبيبي آه من الهوا يا حبيبي.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمت



دريه
عزالدين
رمضان
الرز
حسين
الرز
رمضان
الرز


مستشار
حسن الزن
ست عصمت
(ام حسين وأمينة)
لبة
بطاح

إغلاق الرواية:

قالَ: كُنْ نحّاتًا.

قلتُ: وأُزعِج سكون الحجر؟!

قالَ: فكُنْ طيرًا.

قلتُ: وأوقِظُ حنينَ المُهاجر؟!

قالَ: فكُنْ عازفًا.

قلتُ: وأُفشي حُزنَ الخشبة بدلًا من ضَمِّها؟!

قالَ: فكُنْ شارعًا.

قلتُ: أوَأحتَمِل ثِقَلَ خُطوةِ المَدين؟!

قالَ: فكُنْ ربوَةً.

قلتُ: أُشفِقُ على العاشقِ الأعرَج!

قالَ: فكُنْ اللَّيل.

قلتُ: إنْ طُلتُ لَعنوني وإن قصُرتُ لَعنوني،

وما بي طولٌ ولا قِصَر!

قالَ: كُنْ ...

قلتُ: اجعلْني حارسَ جبّانة،

أُصغي بخُشوعٍ للعدم،

ظهري مسنودٌ إلى شاهدِ قَبر،

ساقايَ ممدُودتان،

والأبديةُ تضعُ رأسَها على فَخِذي وتنعَس.

محمد المتيم

«سبعُ وظائفَ لا تُلائِمُني»



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR



Photo Album

إهداء إلى الكاتب محمد عبد الجواد
من صديقك سيف وشادي

السيد رمضان الرز في مراحل عمرية مختلفة







رمضان الرز في عرس
ابنه حسين الرز
وحديث سري مع دربة

المستشار حسن الرز وابنه رمضان



المستشار حسن الرز في الشيخوخة
بعد أزمة الستينيات



حسن الرز في شبابه



زوجة حسن الرز



المرحوم رمضان
ابن حسن الرز



رمضان

أمينة هانم الرز وأولادها



أمينة الرز في الطفولة



لطفي وشكري - أطفال



طنط ألفت



أمينة الرز في عزها في
رحلة سعيدة إلى الاسكندرية



مشيرة وشكري وسمير



عادل العلمي



أمينة أثناء العمل (إنشغالات متعددة)



أمينة الرز في
شرفة منزلها بالطيادلان






حسين يغتنم صفو الليالي



حسين بعيون در الشهوار



حسين ودرية - لحظة حب




درية



حسين في مطعم دربة الرز



حسين في الشيخوخة مع ذر











حسين وحلمي صديق العمر

السيد الأستاذ المستشار
عضو مجلس الشعب
/ درويش عبد الغني



في الشباب





في الشيخوخة





راجية السيد





لمبة بطاح



لمبة وحسين اواخر السبعينات



الست معالي

د/ الشهوار . سيف مصطفى نافعة





د/ الشهوار (دودو)







د/ مصطفى نافعة في مؤتمر بالخارج



سيف



مصطفى نافعة





سيف وعملية اللوز





شقة مصر الجديدة



الجد حسن الرز - صورة القهوة







أمينة الرز في
مؤتمر دور المرأة
في الثورة الإدارية



شقة عابدين حيث نام حسين في الصالة



شقة المبتديان (لقاء عائلي)



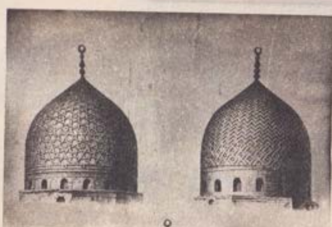
عيد ميلاد
الشهوار السادس



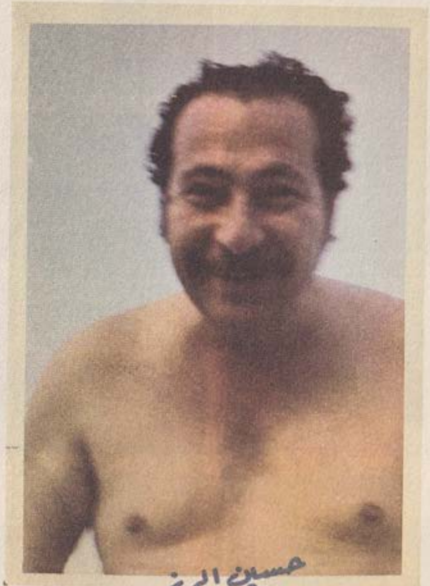


حسين وشيماء شعبان ؟؟





مقبرة الرز



حسين الرز
(زي الهوا يا حبيبي)



دارت أيام، ووُلِدت السيدة أمينة لأم اسمها السيدة شاكر من أب تركي وأم مصرية، على شقيقين، قبل أن يرزقوا بأخت أخرى، اسمها توحيدة، تُوفِّيَت فجأة كما جاءت فجأة بسبب مرض طارئ عندما بدأت تكبر وتزداد جمالًا وتوهجًا لتكون مثل طيف شفاف في عمر السادسة -حينما توفت- لتقول أمهم لاحقًا إنها لم تُولَد للأرض ولكنها نُذِرت لتكون ملاكًا من اليوم الأول، ولم يتبقَّ منها سوى صورة تكاد تكون حلمًا وهي تقف بجوار السيد رمضان الرُّز وهو ما زال بزيه العسكري في الجيش قبل الاستقالة. وحازت أمينة شقة السيدة زينب، بينما سافر أحدهما إلى الإسكندرية بعدما تزوج ابنة عمته، وأقام الآخر في عابدين، والحقيقة أن الآخر هذا -أو الأخ الوسطاني- كان سبب مأساة ميتين أهلهم منذ البداية.



محمد عبد الجواد، روائي مصري من القاهرة، اشتُهر بنوفيلاته الثلاث؛ الصداقة كما رواها علي علي وجنازة البيض الحارّة وعودة ثانية للابن الضال، الصادرة عن دار المرايا عام 2023. أصدر أول رواياته 30 أبيب مع دار بتانة عام 2022 وصدرت له رواية أميرة البحار السبعة عن دار المرايا عام 2024. تتحول روايته جنازة البيض الحارّة إلى فيلم سينمائي حاليًا. رواية الواقعة الخاصة بأموات أهله هي أول رواياته مع دار تنمية.

تصميم الغلاف: ميجو / ريهام السيد

تنمية